



التوبة

تأليف: لبيقو ديريينو
ترجمة: محمد عبد القيم زكي
دأجه: مصطفى حبيد



الثورة

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

التورة

تأليف

ليشيوريبرينو

مراجعة

مصطفى حبيب

ترجمة

محمد إبراهيم زكي

الناشر

دار نهضة مصر للطبع والنشر

هذه ترجمة كتاب : The Uprising

تأليف : Liviu Rebreanu

كلمة المترجم

ليفيو ريرينو هو أحد كتاب رومانيا المعاصرين ، ولد عام ١٨٨٥ في قرية من قرى ترانسلفانيا، وهي قرية لم يستطع على حد قوله أن يجد لها أثرا على الخريطة .. وهو ينحدر من أسرة من الفلاحين الأحرار ، من ملاك الأرض المتواضعين ، أما أبوه فكان معلما .

وكانت ترانسلفانيا في ذلك الحين تشكل جزءا من الإمبراطورية النمساوية الهنغارية ، ومن ثم تلقى الصبي ريرينو دروسه على ثلاث مراحل : الأولى في المدرسة الرومانية ، والثانية في المدرسة الألمانية ، والثالثة في المدرسة الهنغارية .. ولما حصل على الشهادة الثانوية رحل إلى بودابست بقصد دراسة الطب ... على أنه اضطر ، لضيق موارده ، إلى الالتحاق بمدرسة عسكرية .. فلما تخرج فيها عمل ضابطا بالجيش بضع سنين ، وفي غضون هذه الفترة واصل دراسة الأدب والفلسفة .. وعندما بلغ العشرين من عمره عقد نيته على أن يكتب على الكتابة ، فاعتزل خدمة الجيش ، وعبر جبال الكريات ، واستقر في بوغارست ، وكان ذلك عام ١٩٠٨ .

وعمل ريرينو بالصحافة زمنا ، وألف قصصا كثيرة ، كان لها وقع بين الجماهير .. فلما كان عام ١٩١٦ انضمت رومانيا إلى الحلفاء ضد دول وسط أوروبا ، فاضطر الرومانيون من أهل ترانسلفانيا أن يخوضوا غمار حرب طاحنة ضد أخوة لهم على الجانب الآخر من جبال الكريات . وكان موقفا عصيا ، أوحى للكاتب رواية أسماها (غابة العدم) وصور فيها الصراع الذي اعتل في نفس أحد ضباط رومانيا فأقضى به إلى الفرار من الجيش .

وتأثر ريرينو بالتغيرات الاجتماعية التي حدثت في المدة ما بين سنة ١٩٢٠ — ١٩٢٣ ، وشرع في تأليف رواية « الثورة » عام ١٩٢٠ وأخذ يتجول في جميع أنحاء رومانيا ، يتبادل الحديث مع الفلاحين ، ويستمع إلى حكاياتهم عن الانتفاضة العنيفة التي شملت رومانيا عام ١٩٠٧ ، والقلاقل التي سببها الفلاحون إذ ذاك ، وبعد ذلك أتبع له أن يفرغ من الرواية عام ١٩٢٣ .

وهذه الرواية التي بين يدي القارئ تدور في فلكين .. أولاهما في الريف حيث يصف الكاتب السخط الذي أخذ يتزايد شيئا فشيئا في القرى حتى أذن

بالانفجار ، وثانيهما في العاصمة بوخارست حيث ترى شاعرا شابا يتنقل لاهبا
أحيانا ، جادا أحيانا أخرى ، تعيسا موزع النفس في معظم الاحوال ، بين دوائر
السياسة ومكاتب الصحف وصالونات المجتمع الراق . . وهذا الشاعر تيتو هيرديليا
هو الخيط الذي يربط بين مظاهر العاصمة وأحداث الريف . . لقد حضر تيتو
هيرديليا ، ابن المعلم برياس إلى بوخارست يحلم بالمجد والشهرة ، ولكنه لا يلقى
أى تقدير . . شأنه شأن ليبيرتو نفسه حيث وفد إلى بوخارست . . ويتعرف
تيتو على جريجور أوجا ، ابن النبيل ميرون أوجا ، وتربطه به صداقة وطيدة . .
وتتمتلى نفس الشاب سعادة حين يلبي دعوة النبيل الثرى لزيارة مزرعته في الريف ،
وهناك يصطدم بالحقيقة المروعة لمشكلة الفلاح الحقيقية . . إن النبيل الشاب يمتضى
مع صديقه عبر القرى والساكر ، يحدثه على طوال الطريق الممتد من محطة سكة
الحديد إلى عزبته في أمارا عن هذه وتلك من ضياع النبلاء والاشراف ، فلم يملك
الشاعر نفسه آخر المطاف من أن يطرح على صاحبه سؤالاً ظل يحترق على شفتيه
زمنًا ، قال : « لقد حدثنى طويلًا عن ضياع النبلاء ، ولكن أين هي الأرض التى
يملكها الشعب ؟ » وأخذت زميله الثرى لدهشة فبغت ، وقال : « الأرض التى يملكها
الشعب ؟ . . لقد قاتنا . . . هذه هي مشكلة الفلاح . . الأرض 11 . . إن الشعب
لا يملك منها إلا القليل ، وما كان يملكه منها قد زال وتلاشى . . ولكن تلك
لعمرى قصة أخرى . »

وهكذا نصل إلى لب الموضوع . . ونتابع أمام أعيننا صورًا متلاحقة تمثل
الفقر والبؤس والضرائب التى تثقل كاهل الفلاحين ، والتعذيب الذى يهوى أبدانهم . .
ويذب الاستياء ، وينفذ الصبر ، وتنطلق مشاعر الغضب من عقالها ، ثم تندلع
الثورة . . نسمع بها أخبارًا تتردد في أبهاء الصحف ، ونسمع تعليق أهل المدينة
الآمنة اللاهية عليها ، ونراها رأى العين في صورتها الرهيبة المروعة نيرانًا تلتهب
في جميع أنحاء الريف ، لقد هب الفلاحون بعد طول الرقاد بغز وازاراضى الاشراف
ويسوون حسابهم مع من أذلوهم وعذبوهم سنين طويلة .

ولكن انتصار الفلاحين لا يدوم طويلًا . . فقد انطلقت الثورة بطريقة
عفوية ، وقامت دون خطة مرسومة . . أو مبادئ موضوعة . . فترى في
الصفحات الأخيرة من الكتاب كيف دفعت الحكومة — حكومة ملاك الأرض

والأشراف — قوات الجيش لتصلدم مع الفلاحين الثوريين بدعوى العمل على استتباب النظام .. فقتل منهم أحد عشر ألف فلاح ..

الحق يقال إن رواية ريرينو التي بين يدي القارئ تعرض صفحة دامية من تاريخ الشعب الروماني في نضاله ضد المستغلين ، سواء أكانوا من أهل البلاد أم من وفدوا إليها من حثالات الأجانب .. لقد كانت معظم الزراعة في رومانيا قبل أن تنشب الحرب العالمية الأولى ، في يد حفنة صغيرة من الأشراف أو كبار ملاك الأرض . وكان هؤلاء في الأغلب الأعم يتلقون تعليمهم في المدارس الغربية ، ويميمون حياة كلها ترف ورفاهية خارج رومانيا ، تاركين أراضيهم تحت إمرة نظار أغنياء ، يستأجرون منهم آلاف الفدادين ، ويستغلونها لأنفسهم ، ثم ينتهي بهم الأمر آخر المطاف إلى شراء الأرض كلها من أصحابها الأصليين ، أسياهم السابقين ، ومن ثم نشأت طبقة جديدة من الإقطاعيين الأثرياء ، أو ماسوف نطلق عليهم تجاوزا اسم الملتزمين .. وكان من أثر ذلك كله أن وقع العبث قليلا على السكاحين المعذنين في الأرض من الفلاحين .. كان الفلاح عروما شقيا ، حرمه طمع الملاك وخسة رجال السياسة الحزبيين من حقوقه كلها تقريبا .. أرأيت إلى ميليتن وهو يبيكي ويستجير لاذ يرى زوجه طريحة الفراش وليس في مقدوره إسعافها ؟ وإلى محصل الضرائب وهو يقوم بتوقيع الحجز على الخنزير الوحيد الذي لا تملك أسرة لإيجنات سيرسل غيره شيئا ؟ وإلى بونجويو رجل الشرطة وهو يضرب الفلاحين بالأيدي والبنادق والأرجل دون ذنب أو جريرة ؟ وإلى ارسيتيد بلاتامونو ، اليوناني وهو يأخذ القروية الحسنة ابنة شيريلابون ، غصبا .

مهما يكن من أمر فلم يكن للفلاحين هم إلا الحلم بتملك الأرض .. لقد تمثلت الأرض في تهايلهم الجائع المحروم لقمة ساخنة شبيهة .. وقاموا ، على ما بهم من خصاصة يقطعون الطارق الطويلة ليصلوا إلى بوخارست ، وبطرقون أبواب الوزارات وأولى الأمر سعيها المطالبة بضيعة باباروجا ، ولكن الأحكام لا يرون في هذا المطلب عدلا ، بل ينظرون إلى الفلاحين على أنهم مجرمين آثمين يريدون أخذ العزبة قسرا .. ويعود الفلاحون أدراجهم ، والحنية تحف بهم ، واليأس ملء قلوبهم .. ويبدأ القوم السذج يتحدثون عن رجال في ثياب بيضاء قد أوفدهم الملك ليبتشروا الشعب بتوزيع الأرض عليهم .

وكأنما اتحدت مشاعر الفلاحين جميعا، وتخمرت، وشحنت، ثم انفجرت
انفجارا طبعيا كبركان يقذف بحممه المحرقة على الأرض الطيبة.. ألم أقل لك
إنها كانت انتفاضة عفوية دون خطة مرسومة الأمر الذي لم يره لها أن تحول
إلى ثورة بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ نعم، لم يكن يرادو خيال الفلاحين إلا فكرة
واحدة هي نزع ملكية كبار الملاك، وتوزيع الأرض فيما بينهم، فقاموا
بحرقون الدوائر وبنهبون المزارع، ويطردون الاشراف والمالزمين ويقطعون
الاسلاك الكهربائية، ويفصلون بين القرية والمدينة، ويحبسون بذلك أنهم
سيحولون بين عودة أسباد الاضطهاد والاستغلال، ولكنهم سرعان ما اختلصوا
فيما بينهم على توزيع الأرض وغيرها من غنائم.

وبعد، فالرواية التي بين يدي القارى هي أكثر من حكاية موضوعية
لحوادث تاريخية.. والكاتب يحلل نفسية الشخصيات تحليلا دقيقا، فيصف لنا
نفسية الفلاح الأجير، ونفسية مالك الأرض الكبير، والمترفين من رجال
السياسة والبيوتات المالية، كما يصور من خلال ذلك كله الصراع المحتدم بين
الطبقتين الاجتماعيتين اللتين ينتمى إليهما أولئك وهؤلاء.. ولعل من أهم
خصائص ريبيرنو أنه لا يحاول أن يفرض نفسه على القارى فهو يترك القارى
وشأنه يحكم على هذه الشخصية أو تلك من خلال سلوكها وتصرفها، وأن القارى
ليحسن هذه النظرة المجددة من جانب الكاتب تجاه شتى الشخصيات - يحسها
حيال تيتو هيرديليا، بطل الرواية ويحسها حيال ميرون أوجا، الشريف الشيخ
الذى آثر الموت على عتبة داره عن أن يستسلم للفلاحين الذين تهجموا على ما ارتآه
هو حقالة لا يناعه فيه أحد، ويحسها حيال نادينا الزوجة الثرية اللعوب التي
تمضي في الأرض مرحا تلتقي نهاية عادله لسكل مستهتره عابثة، ويحسها حيال
بيتر بيتر والمعلم دراجوس وتودرستريجو، وتريفون غوغو، وغير أولئك
وهؤلاء.. هذه الشخصيات كلها، برغم ما التمسبت به من عنف أو ضعف أو جبن،
تظل تحتفظ بطابعها الإنساني الصرف، في نطاق الأحداث التي تصطبغ بصبغة
عالمية، ومن ثم يجد القارى نفسه حراً طليقا في الحكم على هذا كله وفق القيم
التي يعتنقها ويدين بها، وهذا هو ما يجعل من رواية ليفيو ريبيرنو درة من عيون
الأدب الرومانى.

محمد ابراهيم زكى

، القلق ،

الفصل الأول

شروق الشمس

- ١ -

قال إيلي روجوجينارو وهو يتنفس لاهثا : « أنت إذن لا تعرف فلاح رومانيا حق المعرفة ، هذا إذا كنت تتكلم على هذا النحو ... ولعلك علمت ما علمته عنه من الكتب والأحاديث ، وهذا أمر يؤسف له ، لأنك تراه قد يسا شبيداً ، وهو في حقيقة شرير غبي كسول ... »

ومسح الرجل صلته الوقورَ بمندبل كبير متعدد الألوان ، وفنل شاربه الكك المتهدل حيث أبت عدة شعيرات منه إلا أن تتعاقب معا في ركن من فـه .. وكان روجوجينارو ملتزماً^(١) يعمل في ولاية أولينا دولجي ، وكان رجلاً بدنياً ، له كرش كبير ، ورقبة كرقبة الثور ، ورأس مستدير ، وعينان عسلتان براقتان ، ووجه باسم الثغر ، أو قل هو رجل يكاد كل ما فيه ينضح خفة وجذلاً .

وجمل يتفحص رفاق السفر ، وأدرك أنه لم يؤثر في أحد منهم ، فزفر زفرات أعلى صوتاً عن ذي قبل ... وعندئذ تتحنح سيمون مودرينو ، وهو موظف خفيل بلباسه من موظفي وزارة الداخلية ، فقال في رزاقة : « ياسيد روجوجينارو ... ياسيدي العزيز ... هناك شيء واحد لا شك فيه وهو أننا

(١) الأصل في الكلمة هو من يتعهد بأداء قدر من المال لقاء استغلاله أَوْضاً من أراضي الدولة ، وقد آثرنا أن نستخدم هذا اللفظ للدلالة على من يوجب على نفسه أداء قدر من المال لمالك الأرض الأصلي ، فرداً كان أم دولة .
(المترجم)

جميعا، ودون استثناء، نعيش على كد هذا الفلاح ، رغم قولك فيه إنه شرير وكسول .

وبفت الملتزم بفته جعلته لا يقوى على الكلام . . وعاد مرة أخرى يمسح صفحتي وجهه وفي هذه اللحظة ظهر كسارى القطار ، وهو يسلك مسلك الادب الذى لا مناص منه فى معاملة ركاب الدرجة الأولى . . . أما روجوجينارو فطلاب نفسا لهذه المقاطعة ، وقال :

« أترانا قد وصلنا فعلا ؟ ... حسن جداً ... لقد قطعنا شوطا لا بأس به . »

قال الكسارى ، وهو يتسم للملتزم الفكك ، بينما يتناول التذاكر من الركاب الآخرين . « لقد اجتزنا شيئا نوا . » وأخرج روجوجينارو قصاصة ورق صفراء من كيس كبير الحجم أشبه ما يكون بالحقيبة ، وناولها للكسارى بكبرياء ملحوظ : « هاك التذكرة أيها الرجل الطيب ... حقا ، إن على المرء أن يلزم الاقتصاد هذه الأيام ، ولن تنفطر السماء إذا سافر المرء بالهجان دون ثمن . »

ولم يتسم أحد غير الكسارى هذه المرة ، وانسحب من الديوان محيا باحترام . . . أما الملتزم فقد استبد به القلق ، فأخذ يجمع حقايبه وسلاله ولفائفه التى بعثها هنا وهناك فى أنحاء الديوان ، ذلك أن رفاق الطريق ما كانوا يملكون من الامتعة إلا أقلها . . . بسط مودرينو حافظته الجلدية الأنيقة على ركبتيه ، مبذيا عن عمد البطاقة التى شدت إليها ، أما مفتش الشرطة ، وهو رجل طويل القامة عصبي المظهر ، فما كان يحمل غير سيفه وحافظة أوراقي ، وأما الشاب الأحمر صاحب الشارب الإنجليزي الطراز ، فقد وضع « تيبته الصغيرة على الطاولة الصغيرة بجوار الشباك .

وصفر القطار ، وتجشأ دخانا ، كأنه حيوان عجيب التكوين . وأسف موظف الداخلية على أنه تدق غطاطب هذا الرجل السوقي . . أما مفتش الشرطة فكان يرقب روجوجينارو ، وقد أخذ نفسه فيما أخذ ، بفضل لا يتخلو من إعجاب . أما الشاب فقد أخذ يتطلع من النافذة منذ رحيل الكسارى . . وظهرت مشارف مدينة بوخارست على الأفق . . ومرقت أمام البصر اللافتات التى ألصقت على

أعمدة أو على منازل متباعدة . . وتضاعف عدد الخطوط المتوازية التي تكونت منها القضبان ، وأقربت من بعضها بعضا ، وتشابكت . . واسطكت العجلات فوق المواضع التي تتلاقى عندها القضبان ، وما أكثرها الساعة ، ومرت على نقاط بالدقة التي تسم بها الآلات . . وظهرت الضواحي القذرة ، بما حوت من منازل متصدعة ، وشوارع موحلة ، هذا على تقيض المباني الفخمة الرائعة التي تابعت بعد ذلك .

ووضع المقرم متاعه الثمين على المقاعد الخاوية . . وحل سلتين خارج الديوان إلى المشى ، إذ لم يعد هناك متسع لهما بالداخل ، ثم حشر نفسه بعدئذ على حافة مقعد قرب إحدى الحقائق . وما لبث أن استطرد ، يتابع الحديث من حيث وقف ، فقال موجها الخطاب إلى الشاب المتطلع من النافذة :

« كنت أنحدث عن الفلاحين ، وفي سماعكم أن تصدقوني لأن خبرتي بالزراعة وبالفلاحين خبرة عظيمة ، فانا الآن في التاسعة والخمسين ، وقد ضيعت من عمري أربعين عاما قضيتها في الريف بين الفلاحين . . ولقد بدأت من الحضيض ، شأني شأن الرجال . . ولما بلغت الثلاثين تمكنت من استئجار حيز صغير يزيد على خمسمائة بوجون في ولاية فيلورمان . . ومنذ ذلك التاريخ مرت بين يدي عدة ضياع أكبر من هذه الضيعة . . ولا أظن أنه يوجد في الاشباكثير من الناس ممن يعرفون الفلاحين معرفة بهم . . ولست أقول لأنهم جميعا أشرار — غيرى يقول ذلك كما تعرفون ، ولكنى رجل مسيحي ، والله حرم علينا الكذب ، ومع هذا فأنا أستطيع أن أقسم غير حانت : كان الله في عونكم لو قضى عليكم يوما ما أن تكونوا في موقف يتطلب نجدة من فلاح ، فهو لن يرفض الإنسان إلا في مقتل حيث يبعث على أشد الإيلام ! »

وأدرك أن أحدا لم يعد يصيح السمع إليه الآن ، حتى ولا المفتش نفسه . . فلما خلف الفطار الطريق الرعيسى ، وشرع يتمهل في المسير ، عاد فتذكر متاعه ،

وقام على قدميه ، ومضى إلى المشى كي يكون قريباً من باب الخروج ، ومن ثم
يضمن الحصول على حال وعربة . . فلما بلغ الباب التفت ليتبادل مع القوم تحيات
الوداع ، ومد يده نحو مودرينو الذى ركب معه القطار من محطة كرايوفا . .
لقد خيل إليه أنهما على رأى واحد ، ثم ربما كان فى وسع مودرينو أن يسدى
إليه خدمة بالوزارة يوماً من الأيام .

ومع أن الملتزم لم يخاطب الشاب الذى ركب القطار من محطة كوستسقى إلا
قليلاً ، وهو الشاب الذى لم يعبأ حتى بأن يعرفهم بنفسه ، فقد رأى روجوجينارو
أن من صواب الرأى أن يتعرف على رفاق السفر . . ولهذا قال فى شيء من
البساطة : « اسمح لى يا سيدى أن أعرفك بنفسى . . أنا لى روجوجينارو . .
ولأنه ليسعدنى أن ألتق بك ، وإن كان من الحق أن أقول إننا لم نتبادل إلا أقل
كلام . . »

ولم يغمر السرور قلب الشاب ، ولكنه نهض على الرغم منه قليلاً ، وهز اليه
الممدودة ، وقال : « جريجور أيوجا » .

وجهت الملتزم ، ووقف مشدود القامة ، وصاح : « أيوجا ! .. هل قلت
أيوجا ؟ .. هربك لا تقل إنك ابن السيد ميرون أيوجا من بلدة آمارا ١١ »

« بل أنا هو . . قالها الشاب وقد ندت عنه ابتسامة طفيفة لحاس الرجل
المتدفق .

« قل شيئاً غير هذا ! .. حسناً يا سيدى ، لقد عرفت السيد ميرون منذ كنت
صلياً ؛ وليس من شك عندى فى أننا من سن واحد ، إذا لم يخطئى التقدير . . نعم ،
منذ نحو عشرين عاماً كنت أتولى ضيعة لا تبعد إلا بضعة ميال عن بيتكم فى
آمارا . . ولكن كيف حال السيد ميرون ؟ أهو فى صحة جيدة ؟ إنه من ملاك الأرض
الآشراف والحق يقال . . وللتفت فجأة إلى مفتش الشرطة ، وإلى مودرينو ،
واستطرد مزهوا : « إنه أحسن الآشراف حقاً ، لامن هذا النوع الذى يلتقى المرء
به اليوم فى كل لحظة . . ثم عاد وخاطب الشاب وقد استخف الطرب ، وقال :

أطيب تمنياتي لك أيها الشاب ... ولكن هانحن أولاد قد وصلنا ... أرجو أن
تبلغ تمنياتي إلى والدك ، إنه رجل بمعنى الكلمة .

وصالحه مرة أخرى ، وأمسك بإحدى السلال ، والظاهر أنه كان يؤثرها
على غيرها من السلال ، ثم اندفع إلى المشي وهو يتمتم للفتش عابراً .
« الوداع !! . الوداع !! . » وكان مودرينو ، وقد أمسك بمحافظته الصغيرة ،
قد بقي ينتظر مثلها أن يفرغ الملتزم من حديثه حتى يتسنى له أن يمر ... ونظراً
لأنه لم يتعرف على أيوجا . فقد أوماً إليه بفيراحتفال ، وهرع وراء روجوجينارو
الذي تمكن الآن أن يمرق من باب الديوان .

« من هذا الرجل روجوجينارو ؟ ... يبدو أنك سعدت بصحبته ! » قالها
مودرينو على مسمع من الملتزم ، لأن ضوضاء القاطرة تحت سقف المحطة
أخذت الأصوات كلها .

وأجاب روجوجينارو بلهجة ملؤها الاحترام ، كالشأن به حين تحدث مع
الشاب أيوجا : « أنسال من هو ياسيدى ؟ . . إنه سبعة آلاف بوجون ...
كلها من الأرض الممتازة ، في ولاية أرجس ناحية تيلورمان .. سبعة آلاف ،
بوجون ياسيد مودرينو ، سبعة آلاف ، وفلاحون في غاية البراعة أيضاً ..
ولو كان أبوك يملك أرضاً مثلها ، لاني أن يؤجر لك جزءاً منها ، أيا
كان الثمن ... سلام عليكم ، وإلى اللقاء مرة أخرى ! .. »

وفتح باب العربة وصاح : « يا حال !! .. يا حال !! .. يا حال !! .. إلى هنا أيها
الني !! .. ألا تسمعي ؟ .. أفى أذنك صمم ؟ .. إلام تنظر أيها الاحق ؟ ..
ألا ترائى ؟ .. هل أفت أعمي ؟ .. تعالى هنا ، وخذ هذه !! .. »

وأخذت الهبات التي تنفث من القاطرة تهب على فترات أطول مدى ، كما
ازدادت ضعفاً . . وفيما بين الهبة والهبة تنسأحت إلى الأسماع أصوات الركاب
الوافدين ، وأصوات أولئك الذين ينتظرون . . كانت المحطة كلها تفيض ضوضاء ؛

وبين الفينة والفينة يبرز صوت من الاصوات ، أو ضحكة من الضحكات ، أو بضح كلمات سعيدة ، أو قبلات متبادلة .. وفوق هذا كله تعالت النداءات على الحالين .. ثم أخذ الركاب يتجهون صوب باب الخروج ، وقد حمل غالييتهم أمتعتهم بأنفسهم ؛ أما القلة منهم فكانوا يمشون والخالون وراءهم .. وكان كل واحد في عجلة من أمره ؛ بل كان منهم من يجرى كأن هناك من يطارد .

وبقى جريمحور أيوجا في مكانه هادئاً ، ينتظر حتى يرحل أولئك الذين وقفوا في المشى ... ورأى من خلال النافذة مودرنو وهو يدرأ عن حافظته الصغيرة لجاجة الحالين وإلحاحهم ، ورأى مفتش الشرطة طويل القامة يلتفت حواله كن يترقب شخصاً ، ورأى روجوجينارو بمنكيه المريضين وهما يتأرجحان وراء رجل قىء حمل نفسه فوق ما يطبق من حقائب ولفائف .. على أن المترم ما انك يصدّر وابلا من الاوامر والتعليمات بصوت علا على كل ما عداه من أصوات .

وأخيراً عندما خفت الجلبة ، تدلى الشاب أيوجا ، ووجد لنفسه عربة بمشقة ، وطلب إلى السائق أن يذهب به إلى مترادا أرجنتارى ... واختارت العربة أولاً كاليباجرفى ، وهو شارع قدر كثير الفضوضاء ، تحف على جانبيه مجموعة من الدكاكين ، وقف أصحابها على أبوابها يحثون المارة على شراء بضائعهم ، حتى ولو لم تكن بهم رغبة .. وكانت عشرات الفنادق والحانات والمقاهى لا تكف عن السعى لتحظى بالمسافرين الذين يتدفقون دون انقطاع من محطة الشمال وذلك لقضاء مال كثير لاقباله إلا خدمة هزيلة . وتجمع على الأرصفة جمهور متعدد الألوان ، ولفيف من المشاركة ، من عمال وكنبة وفلاحين ، يتشون في جماعات وكأنهم أغنام وجلة ؛ ومن خادومات في لباسهن الوطنى المجرى ، وجنود فقراء ، ونسوة تحوطن الريب قد غالين فى المساحيق ، وتصدىن لكل رجل تقع عليه أبصارهن بما فى ذلك الصناعات وتلاميذ المدارس فالواحدة منهن تدفع الأخرى ، وتضطلم بهذا أو ذاك من العابرين ، وكنت ترى بائنى البراجا^(١) ،

والباعة المجريين الذين ينادون على بضاعتهم بأجرام معسدية ، والأتراك
باعة الحلوى .

وسارت العربة متصلص فوق أحجار الزلط ، وجعل جريجور أيوجا ، وقد
جزعت نفسه بعض الشيء ، يتفحص هذا النمل البشرى الذى تكونت منه مدينة
بوغارست . . . لقد كان يفتابه هذا الإحساس كلما عاد من الريف ؛ فقد كان الضجيج ،
بعد حياة الريف الوداعة ، يهد منه القوى ويبعث فى نفسه الحزن بادى ذى بدء ،
ثم لا يلبث أن يوطن نفسه عليه .

وفى ميدان كولتيا ، قرب شارع سترادا أرجنتارى ، زلق أحد الحصانين . .
وبدأ الخوذى فى السباب أول الأمر ، ثم شرع يضربه بالسوط ، ولكن جهوده
صاعت هباء ، فاضطر أن يقفز من مقعده ، ويفك اللجام . . ورأى جريجور أن
بيته غير بعيد ، فنقد الخوذى أجره ، ومعنى فى سبيله .

وكان جريجور يملك هذا البيت الثانى فى سترادا أرجنتارى ، أو الأصح القول
بأنه كان ملكها — أعنى زوجه . وكان للبرابرين المعدنى ، وقد صمم على هيئة
شباك يعلوه صف من الخراب المصقولة اللامعة ، بوابة جميلة من الحديد . . .
وكان أمام البيت حديقة صغيرة كانت محل العناية . . وكانت أحواض الزهر
فيها منفصلة بعضها عن بعض ، وقد حفت بحوافها الأحجار . . وكان المبنى
نفسه ، وهو بيت خلوى ، قد بولغ فى زينته ، فكان يجذب انقياء عابر السبيل ،
وبخاصة درجات سلمه الرغامية الحمراء التى كانت تحميا سقيفة من الزجاج كانت
أشبه ماتكون بمحارة ضخمة برافة .

لما دخل جريجور أيوجا البوابة لمح رجلا غريسا على رأس الدرج
يحدث الخادم .

أما الخادم ، وكان يلبس بزة على شىء من الغرابة (فكرة نادينسا ١) فقد

خطا نحو سيده محيا . وكان الزائر شابا طويل القامة ، أشقر الشعر ، والظاهر أنه كان من أهل ترانسلفانيا ، وأنه سبق له أن زار البيت يطلب مقابلة السيد أيوجا . ونزل الغريب الدرج ، واتجه صوب جريجور . . . فلما اختفى الخادم حاملا حقيبة سيده ، خلع الغريب قبعته ، وقال في اضطراب : أنا تيتو هيرديليا .
إني شاعر !

ولم يملك جريجور نفسه فابقسم ابتسامة غامضة جعلت الشاب هيرديليا أشد اضطرابا كما كان .. وكان يلبس ربطة عنق خضراء داكنة مما يلبسه الفنانون ، وكانت موشاة بنقط بيضاء طغت على ياقته العالية الممشاة . ونقل الشاب قبعته إلى يده اليسرى ، وحاول أن يقابل الابتسامة بابتسامة ، ولكن دون جدوى . وطالت قرة العصب ، وبدأت كأنها قرن من الزمان ، فاستجمع الشاب شجاعته ، ووضع قبعته على رأسه بعناية ، كأنما كان غير واثق من حسن تصرفه ، واستطرد قائلا باضطراب : « معذرة إذ وجدتني هنا ، ولكنني جئت بناء على دعوة من السيد جورجو أيونيسكو ، نائب سنجورز ، من أعمال ترانسلفانيا ، فقد طلب إلى الحضور إلى هنا في مطلع هذا الصيف ، أعني منذ شهرين » .

ونعم جريجور ، وقد بدا عليه بعض الاهتمام : « أتقول إنك من ترانسلفانيا ؟ »

وبعث هذا السؤال الشجاعة في نفس الشاب ، فعاد يقول : « نعم ، أنا من ترانسلفانيا ... وفي وسعي أن أقول إنني أمت بصلة قرابة بعيدة إلى السيد أيونيسكو لأن أختي لورا — ولست أدري إن كنت تعرف ذلك أو لا تعرفه — هي زوجة القس جورج بنتيا من أهالي ساتمار ؛ أما أخت جورج فهي زوج السيد أيونيسكو » .

قال أيوجا وقد زاد اهتمامه ، متاويلا يد الشاب يصالحها بحرارة : « أهى زوجه الآن ؟ يسرنى أن أسمع ذلك . . . والحق أن أواصر القرى تربطني بك أيضا ، لأن زوجي هي أخت جورجو أيونيسكو » .

وأوما تيتو هيرديليا مبتسما . كان يعرف العلاقة التي تربطه بهذا البيت فهو كثيراً ما جاء إلى هذا البيت في زيارة إلى جوجو أبونيسكو ، وقد علم في هذه المناسبات بجميع التفاصيل من الخدم ، بل أكثر بكثير مما كان يريد .

وراق جريجور ما أتم به مظهر الغاب من لطف وبساطة .. وأعجب خاصة بحياته الذي حاول جاهدا أن يخفيه .. وشعر أنه هو نفسه يحس إحساس الشاب في المناسبات التي يقع فيها شيء غير متظر . . فتأبط ذراع هيرديليا كأنه صديق قديم وقال : « أما وقد عرف أحدنا الآخر ، فلنصعد إلى فوق ونبادل الحديث » .

ونألق تيتو فرسا — وصعدا إلى أعلى الدرج تحت سقيفة الزجاج ، فتوقف جريجور ليوضح له تقسيم البيت حتى لا يظن الشاب أنه مولع بالبدع الهندسية غير المألوفة — كان المبنى يتكون من مسكنين ، أحدهما منفصل عن الآخر كل الانفصال ، ولكن بدلا من أن يكون لكل منهما مدخل خاص على كل جانب ، والواجهة وحدها هي المشتركة بينهما ، كان للسكنين كليهما مدخل مشترك في الوسط . وأصر حوه ، عندما أنشأ البيت منذ عشرة أعوام ، على إقامة درج من الرخام النفيس ، تعلوه مظلة كالمظلة التي كان يملكها آل ناباب ، رغم أنه أراد بالقصر ، فيما كان يطلق عليه ، أن يكون مقراً لولديه عندما يتم زواجهما ، فيستقران فيه ، كل منهما في مسكن منفصل . وغضبت نادينا ، زوج جريجور ، وقالت إن أباهما أنشأ هذا البيت كي يستطيع سكانه دائما أن يتجسس كل منهم على الآخر . . . وكان الباب الضخم المصنوع من البلوط ، بحليته المعدنية ، وهو الباب الذي جعل البيت يبدو كلا واحداً ، هو الذي قسمه في واقع الأمر قسمين ، فصفه الأيمن يفتح على بيت جوجو أبونيسكو ، أما النصف الذي تركه الخادم مفتوحا ، فقد كان يؤدي إلى شقة نادينا .

وقاد الضيف عبر الردهة صوب الطابق الأول حيث خصص لنفسه غرفة يأوى إليها في بوخارست حين تكون زوجته بعيدة عن البيت ، قال : « لقد رحلت زوجي إلى الخارج منذ ثلاثة ههور ، والبيت كله تفوح منه رائحة كرات العتة ! » . والواقع أنني لا ألتجأ إلى بوخارست إلا في الشتاء ، بل أنا لا أمكث حينذاك الشتاء

كله ، أما بقية العام فأقضيه في الريف لأنى مضطر إلى ذلك أولاً : وثانياً لأنى أشعر براحة أكثر هناك . . أما زوجتى فتكره الريف بقدر ما أكره أنا المدينة ولكن هلا تفضلت بالجلوس . وأرجو أن تأذن لى ونحن نتبادل الحديث فى أن أغير ملابسى ، وأنفض التراب عنى قليلاً... عجباً ، لقد بلغت الساعة النصف بعد الواحدة . . ولدى موعد مع تاجر القلال فى الثالثة . . وترانى أخشى ألا أجد فسحة من الوقت لأصيب شيئاً من الطعام فى أى مكان . . لا بد أن أسرع . .

وأخذ تيتو يترسل فى كيفية مجيئه إلى بوخارست منذ قرابة أسابيع أربعة ؛ وقد عقد آمالاً كبيراً على مساعدة جوجو أيونيسكو الذى وعد أن يمد له عملاً فى صحيفة من الصحف ، وبهذا يحقق له رغبته فى التأليف . . ولكن لشد ماخاب أمله عندما وجد أن أيونيسكو قد رحل إلى الخارج . بل إن الأمر الأخطر من ذلك هو أنه منذ وصوله قد أنفق أكثر من ثلث ما جاء به من مال قليل ، وهو يخشى أن يهد نفسه مضطراً لأن يصرف بقية المبلغ قبل أن يعثر على عمل ، وبهذا يصبح خالى الوفاض بين قوم أغراب .

قال جريجور ، وكان قد أبدل ملابسه الساعة : « لست أود أن أبدد أحلامك ، ولكن نسبي الطيب ليس بالرجل الذى يعول عليه المرء . . إنه رجل طيب جداً ، حسن النية ، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه . . ولكن زوجه إذا ألحت عليه فإنه سوف يصنع شيئاً ، فهى الشخص الوحيد الذى يملك من الفتنة والمقدرة ما يحرك قواه النائمة . »

وانتاب اليأس هيرديليا لحظة . ثم قال وقد تجددت ثقته . « إذن مازالت هناك بارقة أمل أمارى ، فقد بدلى أن قريبتى هذه تميل إلى حين اثقتنا هذا الصيف . »

وابتسم أيوجا وقال : « ما كان ينبغي لها أن تسرف فى ذلك . . فإن جوجو غيور غيرة الرجل التركى ، وهو لا بد طاردك من البلد كلها لو طاف به مس من الشك فى . . . »

والواقع أن تيتو قد خال ، فى أحلامه ، أن يأتى اليوم فىرى يوجينيا ، وقد كانت ذات جمال نادر فى نظر بلدة سنجورز ، وقد أغرمت به ، يحدوها إلى ذلك

شعره الذى أصاب شهرة فى هذا الوقت . ولكن أترام يستغل إعجابها ليظفر بتقدم فى حياته ؟ لقد بدا الأمر له مدعاة للخزى ، بحيث اقتابه شحوب بلغ أطراف أذنيه عندما ألم به هذا الخاطر . . . ولحظ جريجور اضطرابه ، فأسرع إلى نجاته .

« أنت رجل ساذج يا صديق .. وإني لأخشى أن تمتد جذورك هنا ... فأنت ، إذا كنت تريد أن تنجح هذه الأيام ، فلا بد لك من الإقدام والصفاقة . . . والرجل الذى يمضى فى حياته أساوره وسائوس الفتاة العذراء لامناص من أن تسحقه من البدايه أقدام الناس الذين لا تبهم هذه المشاعر الخيالية فى قليل أو كثير ! . .

ولما استكمل أحبه حل حافظة أوراقه ، وقال فى لهجة أخرى : « هل تناولت غدامك ؟ »

فتلثم تيتو ، وقال : « ليس بعد . . . »

« تستطيع أن تأتى معى لو شئت . . . »

وشعر الفتى بالزهو إلى حد بعيد ، ولكنه رغم ذلك قال إنه تعود أن يتناول طعامه مع عائلة من ترانسلفانيا ، وإن القوم سيظلون فى انتظاره ، على جوع ، مدة لا يعلم مداها إلا الله ، لأنه لم يخبرهم بأنه لن يحضر ، وهو لهذا يرى لزما عليه أن يعتذر . . . والواقع أن هذا الأمر لم يكن يقلق باله كثيرا ، ولكنه كان شديد الحرج من الذهاب فى حجة أبوجا إلى أحد المطاعم الكبرى ، وهو فى ملابسه التى كان عليها . . . ذلك أنه كان يلبس بذلة كل يوم لإبقاء على أحسن بذلة لديه ، إلى أن يقبض الله له أن يشتري بعض الملابس الجديدة . والظاهر أن دعوة جريجور لم تكن إلا مجرد دعوة شكلية ، لأنه لم يتمسك بها ، وإنما استطرد من فوره : « طبعاً ، أنا فام . . . ومع ذلك فأنا أود أن ألتقى بك مرة أخرى . . . ما رأيك لو تناولنا العشاء معا هذه الليلة ؟ . . . اتفقنا ! . . ستجد أمامك مقسما من الوقت لتخبر أهل بيتك بذلك ، ثم إني لن أكون مشغولا جدا . . . إذن اتفقنا . . . سوف نذهب إلى ليغانخ . . . أعرف مكانه ؟ . . . إنه فى شارع الأكاديمية . . . الساعة الثامنة ! . . حسن . .

أمرع تيتو هيرديليا الخطى على الطوار — وقبعته تميل على إحدى أذنيه ،
ووجهه يتألق مرحا .. وتلفت الناس يتطلعون إليه كما يتطلعون إلى ثمل يتطوح .
وكان قلبه يدق بنف ، وظل يردد لنفسه قائلا : « أخيرا ... الحمد لله ...
إنه رجل رقيق الحاشية ... وإنك لتستطيع أن تدرك لأول وهلة أنه أحد
الأشراف .. وفي اعتقادي أن العناية الإلهية قد لحظت عيوبها آخر المطاف .. »

وقطع على عجل شارع رومانا ، وكاليفيكتوري ، وفيردى كى يبلغ الحجرة
التي استأجرها في بوزيستي حيث كان يسكن بجوار آل جارفيلاس الذين
يتناول معهم وجبات طعامه .

وكان جارفيلاس قد قدم من أمارديا من أعمال ترانسلفانيا ، وظل يعيش
في رومانيا عشرة أعوام ... وكان أحد أفراد البوليس السرى في بوخارست ،
ويتولى على وجه الخصوص مراجعة قوائم الفنادق ... وكان زميل دراسة لوالده
تيتو الذى يعمل الآن معلما ... وقرأ ذات صباح فيما قرأ من أسماء الوافدين
المجدد ، اسم هيرديليا في قائمة « الفندق الإنجليزي » ، ولما رأى أن الضيف قد
أتى من ترانسلفانيا ، أدرك على وجه اليقين أنه ابن زهاريا ... وذهب إلى غرفة
تيتو على استحياء ، وأيقظه من نومه . ورحب بمقدمه ، وعرض عليه صداقته
وخدماته حتى ينقذ الصبي ممن يسلمون جلده سلخهم لجلده غيره من الأجانب
الذين يحيطون الرحال في هذه المدينة الجديدة المحفوفة بالخطار ... وفي نفس
اليوم ، عثر للوافد الجديد على غرفة رخيصة السعر ، ولكنها مناسبة ، وكانت تقع
بجوار بيته مباشرة . . . وما إن حل المساء حتى انتقل الشاب إليها ، واستقر فيها .
ثم دعا جارفيلاس الشاب ليتناول طعام العشاء ، وليعرفه بوجهه .. وكانت توجد
ساعة أخرى تقيم بالبيت ، هي الآنسة ماريورا رادوليسكو ، وهي فتاة تناهز
الثمانية عشر ربيعا ، وكانت حلوة ، تنبض حياة كأنها طائر غرد ... وكانت الفتاة
تطلب العلم في مدرسة مهنية ... ولم يشأ جارفيلاس ، بسببها ، أن يدعو تيتو
للسكنى معهم ، أما زوجه ، وهي سيدة قصيرة بدينة ، حمراء الوجه متألقته دوما ،
فكان من رأيها أن تأوى في كفها الشاب أيضا ... والسبب أن غرفة ماريورا

تضم سريرين، ولا بأس أن يقيم بها الشبان، فقد كان كلاهما على خلق قويم جداً...
يبد أن السيد جارفيلاس كان على خلاف هذا الرأي، فقال إن هذا أمر لا يليق،
ولأنه قد يطلق اللسنة بالقال والقال... ومر يومان، واشتكى تيتو من الطعام
الذي لم يألفه، فقبلت السيدة جارفيلاس أن يتناول معهم وجبات الطعام لقاء
مبلغ معلوم... وهكذا غدا تيتو يأتي إليهم كل يوم.

ثم جاءت ماريورا فقالت إن معرفتها بالأدب والنحو الروماني معرفة
ضعيفة، وإنها في حاجة إلى تدريب... فتقدم تيتو، وهو الشاب الملهب، يمرض
خدماته، فسرت صاحبة الدار سروراً شديداً، لأنها كانت تحب الفتاة حبها
لا بنتها، وكانت ترجو مخرجة أن تجتاز امتحاناتها... وهكذا بدأت الدروس،
في المساء نفسه، في غرفة تيتو حيث يستب الهدوء، فلا يقلقهما أحد... واستمر
الدرس الأول إلى ما بعد منتصف الليل... وجاء الشاب في الند يوضح الأمر
لسيدة جارفيلاس، التي انتابها بعض القلق، فقال إنه أبقى ماريورا عنده طويلاً،
لأن الموضوع، كما ذكرت السيدة الطيبة نفسها، كان محل إهمال... أما ماريورا
فقد صرحت بأنها لم تحظ بدروس ممتعة مثل هذه الدروس، وإنه يسعدها أن تتدرب
على يد تيتو كلما أمكنه ذلك، وأعربت عن ثقتها بأنها بعد هذا التدريب لابد أن
تظفر بالنجاح.

ووجد الشاب الأسرة تحقن القهوة.

ولقد جئت متأخراً أيها الفتى، وسنعلق الملاقي حول رقبته كعادتنا مع
المتأخرين...، قالها جارفيلاس محيياً الشاب، وهو يجذب بيظه نفساً من
سيجارة لقها لتوه بمزيد من العناية.

قالت زوجه وهي تشير إلى ماريورا التي نادت عنها ابتسامة سليطة: د إن
الوم يقع على هذه الشابة التي جعلتنا نأخذ في الطعام دون أن ننتظر يا سيد
تيتو... لقد قالت إن الجوع بلغ بها مبلغاً جعلها لا تقوى على الانتظار؛ بل هي
تأتي الانتظار، حتى ولو كان ذلك من أجل أمير!،

واندفع تيتو إلى ماريورا، وقد غمرته السعادة، فأخذها بين ذراعيه وقبلها

على فها وعينها وخديها حتى اضطرب شعرها كله ، ولفرط فرحته قلب فنجانا من القهوة على مفرش نظيف تملكه السيدة جارفيلاس .

قال جارفيلاس بضيق ، وهو يحاول الحفاظ على فنجانه الذى يتهده الكسر :
: كفا ! ... ، أما زوجة فتملكك ، واهتزت أصابعها مضطربة ، كأنما هي تشهد كارثة على وشك الوقوع . . . على أن الفتاة سرت سرورا بالغا .

وهنف تيتو ، وهو يرى بقبعته على الأرض كقائد منتصر : « لأنه الفوز يا سيد جارفيلاس » .

وقص عليهم لاهثا كيف التقى بجرىجور أوجا ، والموضوعات التى خاصا فيها ، وكيف كاد يتخلف عن غذائه ، ثم الدعوة التى وجهت إليه للعشاء فى مطعم إينانخ ونسى القوم على الفور القهوة التى أريقت ، والمفرش الذى تسخ ، وتفاوضا عنهما . . . وكان جارفيلاس قد عمل لسنين خلت مشرفا على مزرعة فى ولاية فلاسكا حيث جمع بعض المال ، ولهذا كان يكن احتراما عظيما للأصحاب الضياع وملاك الأرض الكبار ، ويرى أنهم هم وحدهم عماد النظام فى رومانيا . . أما غير ذلك فكلمها أشياء مشوبة بالنقص والقصور ، وآية ذلك أنه منذ التحق بخدمة البوليس السرى ، أى منذ ثلاثة أعوام ، لم يتأت له أن ينال ترقية ، رغم أهليته لها ، لأنه يعمل بذمة ، ولأنه أكثر تعلما من أقرانه ، ولكنه عديم الحيلة يفتقد الوساطة .

قال بعد لحظة تفكير ، وقد بانَتْ فى عينيه نظرة إعجاب لا تخلو من حسد :
« ليتك فقط تستطيع أن تعمل مشرفا فى مزرعته ، ولو لبضع سنين ، إنك إذن تال رضى الله وتصبح رجلا حقا ، ! أما تيتو فقد انكسب شرها على طعامه الترانسلفانى ، وكانت السيدة قد أبقته دافئا من أجله .

وكان جارفيلاس قصيرا قصر زوجه ، وكان له شارب كث ، لا يتسق لشدة ضخامته مع وجهه ، وجهة عميقة الغضون ، وبشرة مشربة بالحمرة ، كأنها بشرة بهلوان فى سيرك .

وعاض القوم في نقاش طويل عن تطلعات الشاب ، أسهمت فيه السيدة جارفيلاس ، فقصت ذكرياتها عن زوجها وهو يعمل مشرفا في فلاسكا . وبقيت ماريورا وحدها ساكنة لاتريم ، تمط شفتيها بين الحين والحين لتيتو ، وترسيه بكرات من الخبز ، ولكنه لم يلحظها ، فقد شغله عنها أمور أكثر أهمية .

وما لبثت القفورة أن خدمت شيئا فشيئا ، فبدأ جارفيلاس يتأهب ، وكان قد تعود أن يغفو في الظميرة ، وأخذ يتمطى ويتهد ، وأخيرا غلبه النعاس . . . وحملت ماريورا نفسها كارهة إلى المدرسة — وشرعت السيدة جارفيلاس في الغسيل ، أما تيتو فذهب إلى مسكنه يتأهب لعشاء الليلة في إيناخ .

وكانت غرفته في البيت المجاور . . . وكانت توجد بوابة خشبية متداعية ، تفضي إلى فناء طويل قدر ، قامت على جوانبه غرف صغيرة متعددة ، قد شغلت كلها بالساكنين . أما المسكن القريب من الشارع ، وكان يسكون من غرفتين ورددة في وسطهما ، فكانت تشغله السيدة إيلينا الكسندريسكو ، وهى سيدة قد تخطت الأربعين ، ولكنها لا تخلو من جمال . وكانت أرملة ضابط ، كانت تقول عنه أحيانا إنه رائد ، وأحيانا إنه مقدم ، ولكنه توفى في حقيقة الأمر ملازما . وكانت السيدة الكسندريسكو تقطن في الغرفة الأمامية ، هى والسيدجان أونيسكو وكان شابا خليعا يعمل كاتباً في وزارة الداخلية . . . وكان هناك خوانان للسكرتير في الصالة ، يضمنان كل كتب الدكتور فاسيل بوبيسكو، وهو زوج ميمى ابنة السيدة الكسندريسكو . . . أما الغرفة الخلفية ، وكان بها شابا كان يطلان على الفناء ، فكانت غرفة تيتو ، وكان بها سرير من الحديد ، وحوض الماء ، وطاولة مستديرة وثلاثة كراسي ، ودولاب متداع ، وبعض التحف الصغيرة التى كانت تعتبرها الأسرة مبعث فخر لها . . . وعلى مسافة قصيرة في الفناء كان يسكن إسكافى يهودى ، اسمه مندلسون ، مع أولاده الخمسة ، وكان أكبرهم قد أكمل لثوه الخدمة العسكرية في المدفعية . . . وكان يوجد كذلك رجل بلغارى صانع فطير ، وكان له دكان في الحى ، وهناك أيضا حائك له من الأولاد أربعة ، قد ماتت عنه زوجته منذ . زمان طويل ، وموظف متقاعد وزوجه الشابة ، وكان يسكن معهما طالب علم .

فلما دخل الشاب الفناء ، خاطبته السيدة الكسندريسكو بمرح ودلال ، فأدرك

من فوره أن جان لابد وأن يكون بالوزارة . . وكان الباب المؤدى إلى الصالة مفتوحا ، وكانت السيدة على مرأى البصر بداخله تزين ، وقد حلت في إحدى يديها مسحوق (البدة) تذروه على وجهها ، وأصبع أحمر الشفاه في اليد الأخرى . . وكانت تتأود كيغاء عجوز . .

وقال متأدبا كالعهد به : « مساء الخير ياسيدتى ! » وأخذ المفتاح ، ومضى به إلى غرفته ، وأولجه قفل الباب .

وأجابت السيدة وقد سرها أن تحظى بهذا الساكن المذهب : « طاب صباحك أيها الشاب » ، وقالتها بالفرنسية . ثم أردفت في صوت أجش : « علام العجلة يافتى ؟ . . اقرب منى ، فأنا لا أعص ، وواصلت تزينها ، على حين فتح تيتو باب غرفته ، وألقى بقبعة بداخلها على الطاولة .

قالت السيدة : « أنا وحدى الآن . . وقد ذهب عزيزى جينيتسا إلى الوزارة تمال هنا ، ولا تقلق بالك ! . . فليس جينيتسا بالرجل الفيور ، وإن كان بي ولها ناه ولحظت فجأة أن السرير على وضع مضطرب ، فأسرعت ترتب أمره ، ثم تمتعت وهى هاشة باشة : « رأيت إلى شقاوتكم أيها الرجال ؟ . . ليس لأحد حيلة لإزاءكم . . . »

وارتبك تيتو ، وطرق بابا آخر للحديث فقال إنه قد يتأخر هذا المساء ، لأنه على موعد مع أحد السادة فى إينانخ .

فهمت السيدة الكسندريسكو وهى تنهد : « أقول فى إينانخ . . باللوعة ! لم يتح لى الذهاب هناك منذ مات زوجى ، رحمة الله عليه . . »

وانطلقت تكيل المديح لماك المسكين ، الذى توفى وهو فى ريعان الشباب ، ثم ذهبت أبعد من ذلك فأطلعت تيتو على صورته كي تبرهن له على مدى وسامته . . واستطردت قائلة إنها ما كانت لتتمكن من الحصول على زوج لابتها ميمى لولا أنها حرصت على عدم المساس ببيانفتها ، ولأنها لو غفلت لحظة عن تخطى الصعاب التى واجهتها لما كان فى وسعها أن تفعل ذلك . . وأخذت ، بعد أن

استكملت زيتها ، تقص تفاصيل جميع المشاهدات التي شجرت بين جينيتسا ووالديه
بسيها . قالت إن والديه كانا على ثراء ، ولكن ثمة أفكار رجعية تساورهما
عن بعض الأمور ، فقد رفضا أول الأمر رفضاً باتاً أن يسمحا لابنهما بالعيش
معهما . . . والواقع أنهما حاولا جهدهما أن يفرضا عليه الزواج من امرأة قبيحة
الشكل رأيا فيها زوجة صالحة له . . . ولكن جينيتسا ، على طيبة قلبه ، كان حازما
صارما ، فصرح بلا مواربة بأنه يؤثر أن يخاصم عائلته على أن يفترق عن جبيته ،
فهي فضلا عن جمالها ترعاه كل الرعاية ، وتخلص له الإخلاص كله . . . ولهذا ، فيما
قالت ، اضطر الوالدان أن يرضخا ، وأصبح أربعتهم الآن على مودة ووفاق . .
والواقع أنه قد حدث ، وما زال يوجد ، شقاق بينهما وبين زوج ابنتها بسبب
جينيتسا . . . أما ميمي ، فلا رأى لها . لأنها تعلم ما فاسته أمها ، وتعلم مدى
التضحيات التي بذلتها ، وتشعر أن من حقها أن تحيا حياتها الخاصة ، الآن على
الأقل ، أما زوج ابنتها فهو قروى جلف ، ينظر إلى الأمور نظرة ترجع إلى عام
١٨٤٨ ، وقال صراحة إنه لن يطأ عتبة بيتها ما لم تصرف عن العيش مع جينيتسا ،
لأنه يأبى أن يضع نفسه موضعاً يضطر فيه إلى لقاء ديوث ، تعوله امرأة ... أقول
«ديوث» ؟ ... بالسخر !! ألا يعمل جينيتسا كاتبا ويتكسب عيشه ؟ ... بل إن
زوج ميمي حاول أن يحول دون ميمي وزياره أمها ، والابنة لهذا تلتقي بأمها
خفية — عندما تفد إلى بوخارست — أمها التي حملت بها وريتها !!

وتأوهت السيدة الكسندريسكو وقد غلبتها العاطفة : «رباه !! إن على
المرء أن يدفع ثمننا غالبا نظير هذا القدر القليل من السعادة التي يتخطفها» .

ولم يعرف الشاب كيف يستجيب لهذه الاعترافات الخصوصية ، لاسيما عندما
اتجهت هذه الوجهة الحزينة . . . فنهض في ثورة ، وجعل يكذذه عن عبارة يواسيها
بها ، ولكن السيدة الكسندريسكو استعادت بشاشتها دون عون منه ، وأخذت
تقرظ جمال ابنتها وذكاءها وفتنتها ، وتعد تيتو بأن تعرفه بها حتى يرى بنفسه
على أي قدر من الخلاوة هي ... ولو ترك الشاب السيدة وشأنها لواصلت الثثرة
طوال المساء كله ، وهي سعيدة كل السعادة . . . والحق أنها كذلك فعلت في مناسبات
أخرى . . . ولكن تيتو كان حريصا على مواعده ، وهو موعد قد يكون نقطة

تحول في حياته . . وعندما أخذ يقلب فكره في طريقة ينسحب بها دون أن يחדش مشاعر السيدة ، سمع صوتا يصيح في الفناء . « السيد تيتو هيرديليا ، وتناهت إليه على الفور عدة أصوات تجاوب على النداء . « قدام !! قدام !! » .

« إنه ساعى البريد . » قالتها السيدة الكسندريسكو تطوعا . . وظهر الساعى وبدد أن قطع خطوات ثلاث في الصلاة ، سلمه خطابا من مسقط رأسه واستأذن تيتو السيدة ، ودخل غرفته ، وقد جاشت عواطفه فجأة . كان هذا أول خطاب يصل إليه منذ أن قدم إلى بوخارست . . وفرض المظروف مرتعدا ، والتهم صفحاته الست التي خطتها أمه بحروف دقيقة ، وبأسلوبها المتدين ، والتي نثرت فيها النصائح والإرشادات « لولدها العزيز النائي . » وحدثته والدته عن كل ما حدث في آماديا من يوم رحيله — من وفاة أيون جلاتياسو إلى خطبة أخته غيغينا إلى زجاريو ، المعلم بالمدرسة . . قالت : « ولن يعقد الزواج قبل عيد الميلاد ، حتى يتهيأ لنا أن نعد لكل شيء عدته . . وسوف نعطي لها البيت المكاثر في بريباس ، حتى تدب فيه الحياة مرة أخرى ، وربما عاد عليها هذا البيت بالخط السعيد ، كما كان شأنه معنا . . وسوف يسعدنا أن نحضر حفل القران ، فإن أختك تواصل البكاء لأنها تحسب أنك لن تحضر . . ولكن واجبك أن تهتم بمستقبلك ، وعليك ألا تدخر أى جهد ، وأن تتمسك بالإيمان بالله ، فانه لن يتخلى عن المؤمنين الصالحين وعليك بالهبر يابنى ، فنحن نعلم أن الحياة ليست كلها شهدا في رومانيا أيضا ، ولكن من واجب الرجل ألا يستسلم لليأس ، بل عليه أن يواصل الكفاح ، ويتغلب على كل العقبات حتى يقيض له النجاح بإذن الله . . هذا وسوف يبدأ الطقس البارد بعد قليل ، ثم يقبل الشتاء ، وأنا لست وافقة أنك أخذت كفايتك من الملابس الشتوية . . فاحرص على أن تشتري بعضها عندما تقبض أول مبلغ ، أما لو كانت الملابس غالية جدا ، فأرسل بعض المال إلينا ، وسوف نطلب نحن إلى ستروloffيتش أن يصنع لك شيئا ، وهو كما علمت ، حائك ماهر لا يتقاضى الكثير . »

وكتبت إليه أخته غيغى ، على بطاقة ، تقول إنها لن تعقد قرانها . مهما قال أبوها ، إذا لم يحضر إليهم ، ثم استعردت فقالت إنها سوف تذهب إلى حفل

الرقص الذى يقيمه الطلاب ، ولكنها فى حيرة من أمر الثوب الذى ينبغي أن تلبسه ، فى تمنى أن يكون لها ثوب جديد ، وخاصة لأنها مخطوبة ، وسوف تتطلع إليها العيون .

وفى بطاقة أخرى كتب هيرديليا الأب لابنه يبحث على الكتابة إلى صحيفة تريبونا بستري ، كما وعد قبيل رحيله ، فإن المحرر مازال يترقب تقريره عن احتفالات استرا . ثم هو يرجوه أن يرسل بعض الجرائد حتى يتسنى للقوم فى موطنه أن يطلعوا على الجرائد الرومانية الاصلية ؛ أما لو أتيح له أن ينشر بعض المقالات فإرسالها كذلك ، كي يطلع كل إنسان على ما يعمل هيرديليا الابن فى رومانيا .

وقرأ تيتو الخطاب مرات ومرات .. كأنما كان يريد أن يحفظه عن ظهر قلب ... وشعر أنه يسقط رأسه مرة أخرى فى ترانسلفانيا — فى هذا العالم الذى تتردد فيه كل صغيرة ، مهما تفتت ، فیرن صداها فى كيانه كله .. حقاً ما أعذب الذكريات ! . وغلبه الحزن إلى الوطن ، وأراد أن يرد على الخطاب من فوره ، كأنما كان هذا هو الطريق الوحيد الذى ينفس به عن ذات نفسه .. وكانت مكتبته على المائدة — أعنى الكتب القليلة التى أتى بها من بلدته — علاوة على عدة دفاتر خط فيها شذرات من الشعر ، وحبر وأقلام ... ولكن لم يكن ثمة ورق للكتابة .. وهو إذ يحاول أن يلمس شيئاً من الورق ، خطر له أيوجا ، فعاد إلى دنيا الواقع ، وقرر أن يؤجل الرد على الخطاب حتى يكون فى مقدوره أن يكتب شيئاً ذا بال .

وجأة دقت الساعة السادسة .. لقد حلت لحظة الاستعداد ، وما أخطرها .. لقد كان عليه أن يعنى ببعض الأمور الصغيرة ، فيصالح من هذا الشيء أو ذاك ، ويحلو حذاءه ، وينفض التراب عن بذلته السوداء — وهى بذلة لم يلبسها إلا قليلاً ، فى لذلك خليفة بأن يرتديها فى محضر الملوك والأمراء .. ورأى أن يحافظ على موعده بكل دقة ، فالرجل يعرف بصره على موعده وبأنه ليؤثر أن ينتظر هو بضع دقائق عن أن يجعل الغير ينتظرونه .

قال جريجور أبوجا مبتسما وهو يصالحه : « لقد تأخرت يا صديق .. والتأخير شيمة أهل بوخارست .. ولكن تفضل هنا إلى جانبي .. نحن لم ننتظرِكَ لأننا كنا جوعى .. »

وأخذ الساقى قبة تيتو ومطفئه .. أما هو فقد تردد ، وهو على هذا الحال من الاضطراب ! هل يقول الصدق ؟ ، أو يترك أبوجا يعتقد أنه قد جاء متأخرا في الحقيقة .. على أنه وجد نفسه يقول في صوت مرتج خفيض : « لكنى كنت هنا قبل وقت طويل ، بل لئن دخلت المطعم مرة ، ثم عدت أتمشى جيئة وذهابا أمام الباب لاكون فى انتظارك .. » ولست أدري كيف فاتنى أن أراك وأنت تدخل !

قال جريجور فى لطف : « ذلك من الاعتذار .. نحن أيضا جئنا متأخرين ربع الساعة .. هكذا شأنا ، نحن أهل رومانيا .. ولكن دعنى أقدمك .. »

وعرفه بزميله .. كان أحدهما بالولينو المحامى ، وكان لا يكبر أبوجا سنا فى واقع الامر ، إلا أنه شحيم لحيم .. وكانت له لحية صغيرة ، بنية اللون ، مدبية ، وكان شعر رأسه ممسطا بحيث يخفى براعة بشائر الصلع الأولى .. وكانت عيناه الزرقاوان الداكنتان تبرقان ذكاء وخبثا .. وكان أكلوا أكثر منهما ، ومع ذلك فقد كان يشكو من الاتفاخ إذا شرب ، ولكنه ما كان يستطيع أن يمسك عنه ، رغم تحذير الأطباء له بأنه يزع إلى البدانة . وكانت السياسة هوايته المحببة إلى نفسه ، فكان عندما يتولى حزبه مقاليد الأمور يعين نائبا ، ويتولى منصباً رئيسيا فى يالوميتا ، حيث كان يملك ضيعة صغيرة قوامها نحو ستائة بوجون .. وكان عملاؤه المتناحسون ، على قلتهم ، بمن لهم وزن ، فوفروا له دخلا مريحا ، ومن ثم اشتهر بأنه محام ضليع ، ولكنه فى الحقيقة ما كان يؤم المحاكم إلا نادرا . بل تراه ينظر بعين الاحتقار إلى زملائه المحامين ، ويرميهم بأنهم « تدابون نواحون » والحق أنه قد شق طريقه إلى وزارة العدل ، لأنه من رجال السياسة الذين يتقبلون على الحكم بين آن وآن ، ولأنه تمكن من أداء بعض الخدمات لما له من نفوذ لدى أهل السلطان .

أما الضيف الثاني فكان كوستنتين دوميسكو ، مدير بنك رومانيا ، وهو رجل حليق ، يضع على عينيه نظارات ذهبية الحوافي ، وذو شعر في لون الرمل لا يريق له ، ومنكبين مائلين قليلا ، كأنما كان بالرجل الفارع الطول . . وكان عزبا لا يميل إلى الكلام ، وصديقا مخلصا لوالد جريجور .

واستقبل الرجلان تيتو بغير احتفال ، كأنما قد تطفل عليهما . . فلما تم التعارف ، انهمك الشاب في دراسة قائمة الطعام مهتاج الأعصاب ، فهو لم يتعرف بعد على صنوف الطعام في رومانيا ، وما كانت أسماء الأطباق تعنى بالنسبة إليه شيئا . . وكان هو ، بالإضافة إلى ذلك ، يصب جام السخوط على نفسه ، لأنه لم يشهد أبوجا ساعة وصوله . . وربما ظن جريجور أنه رجل لا يني بوعده ، بينما هو في الحقيقة قد حضر قبل الموعد بنصف الساعة ، لا لشيء إلا ليتجنب هذا الموقف ، غير أنه لم يجرؤ على دخول المطعم ويحتل مائدة لنفسه .

وبعد فترة صمت ، واصل بالولينو الحديث الذي انقطع عند دخول الشاب فقال في تعال : « كنت أقول يا عزيزي جريجوريتسا إن مشكلة الفلاح لا يمكن حلها دون تصحيحات من جانب ملاك الأرض . . هذا شيء لا جدال فيه . . أما ما عدا ذلك ففي حلول ثانوية ، لا تمدو كونها مجرد مسكنات وقية . . إن الفلاح يريد الأرض ... هذا مؤكد . . وهذا هو كل ما يعرفه ، وكل ما يرغب فيه . »

ورد أبوجا بهدوء ، وإن ومضت عيناه ومضت دلت على شدة اهتمامه بالموضوع قال : « يؤسفني أن أختلف معك في الرأي يا ألكسندرو ، ولكن الموضوع ، بالطريقة التي عرضته بها ، لا يزيد على كونه دعاية انتحائية ، أو مجرد شعار رخيص هو من الخطورة بمكان . . إذ من السهل جدا أن تحرك شهوة الناس إلى الطعام ، ولكن الأصعب من ذلك هو أن تشبع هذه الشهوة . . ثم كيف لك أن تقنعني ، أنا صاحب الأرض ، بأن أعطي الفلاحين الأرض التي عملت فيها أنا وأجدادي على مدى الأجيال ، هذا على حين أنك أنت تشتري الضياع في نفس الوقت و . . . »

وقاطعه المحامي وقد أحس ببعض الضيق . « رويدك لحظة ، ولنعالج هذه النقاط أولا . . من الواجب قبل كل شيء أن تدرك أننا لا ننظر إلى الموضوع

من وجهة نظر شخصية . . إنما أنا عندما تكلمت ، تكلمت من وجهة عامة ، متجاهلاً أنك من كبار ملاك الأرض ، وإنتى أنا أعمل بالسياسة . . فنحن قبل كل شئ قوم نحيط بمشكلة الفلاح ، سواء من الكتب أو عن طريق الخبرة الشخصية . ونحن نهتم بها ، كما يهتم بها كل إنسان ؛ لأن على حل هذه المشكلة يتوقف مصيرنا نحن ، بل ومصير بلدنا . أليس كذلك ؟ هذا إذن نقاش موضوعى ، وأنا واقع أن الأمر لو استدعى تضحيات لوجب عليك ، وعلى أهلك السيد ميرون ، أن تكونا أول من يضحي بها .

فصاح جريجور : « لقد جانبك الصواب هنا ياسيدى العزيز . . . فأبى لن يقبل قط أن يتخلى عن ضيعته . . لأنه مرتبط بها بحكم الكفاح الماضى ، وبحكم كبريائه سواء بسواء . . فالأرض بالنسبة إليه تعنى الحياة نفسها ، شأنها بالنسبة للفلاحين . . وإنك لتعلم هذا كل العلم لأنك عشت فى ضيعتنا ، وتفهيم الوضع حق الفهم . . وأنا أيضاً ، وإن لم أكن على مثل عادته ، أرفض أن أتخلى عن أرضى . ذلك لأن هذه الأرض لن تذهب إلى الفلاحين ، والفلاحون لا يسألون الناس إحساناً على أية حال ، وإنما سوف تذهب الأرض إلى مترعى الشعب فى المدن ، أوائلك الذين لا هم لهم إلا الانتخابات . وهذا هو السبب الذى يجعلهم يدسون خلسة بعض النظريات التى ينكرها المسؤولون ، والتى حتى مثيرو القرن أنفسهم يأبون وضعها موضع التنفيذ . »

« إن معنا أحد المحافظين ، قالها بالوليتومينسما وهو يوجه الخطاب لدوره يسكو ، ثم تحول مرة أخرى إلى أيوجا ، وقال : « ولكن مهلاً يابنى العزيز . . . دعنا نسوى هذا الأمر ، لأنك زججت باسمى فى الموضوع . . هل تحسب أن قطعة الأرض الصغيرة التى كسبتها بعرق الجبين على مدى عشر سنوات ، والتى أنا مدين الآن بسببها ، هل تحسب أن بضعة المئات من البوجونات التى أملكها هى التى ستحل الإشكال ؟ . . ومع ذلك فأنا أقسم بكل مؤمنة من الإيمان أننى مستعد ، رغم أنى رجل فقير ، أن أتنازل عن هذه القطعة من الأرض . دون أى اعتراض من جانبي ! . ألا يكفينك هذا ؟ . . هل أنا واضح فى كلامى ، ؟

فرد أيوجا وهو يبرز كل كلمة باحتقار : « فى وسعك بطبيعة الحال أن تعطى الأرض للمتزم ، لأنك بمجرد أن اشتريت الأرض أجرتها للمتزم . »

فأجاب بالولينو ساخرا ، وقد آذاه وأدهشه أن يأتي شخص ، وبخاصة صديق حميم ، فيرتئي له ، وهو المحامي الجليل ، والشخصية السياسية المرموقة ، أن يدفن نفسه في الريف ، قال : « لاشك يا صديق العزيز ، إنك لا تقصد القول . بأن من واجبي أن أتخلى عن عملي ، وهو عمل أتقنه على أية حال ، وأن أحترف الزراعة بدلا عنه . »

« بل أنا أقصد ذلك ، هذا إذا كنت تريد أن تمتلك أرضا ! .. فالرجل الذي يمتلك الأرض ، عليه أن يعمل فيها ، وأن يحبها ، وإلا تعين عليه أن يتخلى عنها . أما أنت ياسيدى العزيز ، فقد أخذت الضيعة غصبا من الفلاحين الذين كانوا يريدون شراءها وتقسيمها فيما بينهم ؛ فذهبت إلى الضيعة ، ونحيتهم جانبا ، ثم جئت بعد ثلاثة أيام فأرسلت إليهم ملزما يعتمر المال منها لأجلك ولنفسه . . فأنت من جهة ، تمنع الفلاح من شراء الأرض حين تناح له الفرصة ، وأنت ، من جهة أخرى ، تطلب إلى ، أنا الذى يتفصد عرقا بجانب الفلاحين ، أن أتخلى عن ضيعتى ، وأن أرى بها كما أرى بقفاز قديم ! »

قال المحامي استرضاه له : « ولكن يا عزيزى جريوريتسا ، لا تنسى أن هناك قلة قليلة من ملاك الأرض أمثالك . أما الغالبية العظمى منهم فقد انقطعت صلتها بالأرض منذ عهد طويل . . وكل إجراء عام يجب أن يأخذ فى الحسبان الحالات الغالبة ، لا الحالات النادرة القليلة . »

« إذن لم لا تتخذون أولا إجراءات ضد أولئك الذين يستكشفون من الأرض ويتباعدون عنها ؟ لماذا يقتصر تفكيركم على تحطيم الطبقة الاجتماعية التى تمثل الثروة الرئيسية فى البلد ، ولعلها أشد الطبقات إخلاصا ، صحيح أن كثيرا من ملاك الأرض لم يعودوا يستوطنون الريف . بل ومن الصعب على بعضهم أن يعيش فى القرية ، لأنهم يعتبرون الفلاحة أمرا مشينا لكرامتهم ؛ وليست الفلاحة وحدها ، بل العمل على وجه العموم . وهم يؤثرون أن يكسوا الأموال ، ويبدرونها على حفلات الآبوا . . هؤلاء حل محلهم الملتزمون الذين يعتصرون قسطا لصاحب الأرض ، وقسطا آخر ، أثقل وزنا ، لأنفسهم . . ولهذا كان من الطيىمى أن يشكو الفلاحون ، وأن يثوروا ، وأن يهددوا بالويل والثبور ، خفية أو جبرا . . »

أما أنا ، أنا صاحب الأرض ، أنا الذى أكد وأكده ، فلا أتمكن من كسب رزقى إلا بمشقة ، على حين أن جارى الملتزم يودى عشرات الآلاف من القطع الذهبية للمالك ، ثم هو لا يفسى أن يملا جيوبه منها كذلك .. من أين تأتى هذه الأموال كلها ؟ . أهى من الملتزم ، أم هى من عرق الفلاح ؟ ما رأيك يا كوستيكا ؟ قالها جريمحور موجها الخطاب لدوميسكو : « قل لى بربك ، أليس الأمر كذلك ؟ »

وأخذ مدير المصرف يطالع طبق الطعام أمامه فى عصبية ، فكلاهما كان يتكلم بصوت جهير جعل الجالسين على الموائد المجاورة يرمقونهم بأبصارهم . وأخذ السؤال على غرة فهو لم يكن يتابع النقاش إلا من بعيد .. وبالنسبة إليه ، وهو رجل الأرقام ، كان الجدل الذى يجرى على المائدة نوعا من العبث ، بل ومن السخف ... والمشكلات الخطيرة لا تحمل والقوم يحتسون هذا النوع أو ذاك من الخور ، بل هى على العكس تزداد تعقيدا ... على أنه قبل أن يشرع فى الإجابة ، ارتفع صوت مألوف من المائدة المجاورة ، قال :

« معذرة لتدخل فى الحديث ... »

وتطلعوا حوالهم ، وقد أدهشهم أن يأتى غريب ، فيقطع عليهم حبل الحديث .

« أنا لىل روجوجينارو ... لقد كان من حظى أن ألتقى بك فى القطار اليوم يا سيد أبوجا ... »

كان الملتزم جالسا وحده .. وكان قد حضر إلى المطعم بهمهم ، واستمع بطريق الصدفة إلى مدار بينهم من حديث واقترب الرجل بكرسيه قليلا ، وواصل الكلام ، لا يهزه ما اعتراهم من دهشة ، كأنما هو قد عرفهم جميعا منذ أبد الأبدين ... قال : « أما وقد تناول السيد أبوجا الملتزمين بالقول والقليل .. ولست أقول ذلك لآنى واحد منهم ، ولكنى أعتقد أن السيد على خطأ إذ تكلم بسوء عن أناس لا يستحقون ما قال فيهم ... أنا أرجو المعذرة ياسيدى إن كنت أختلف معك فى رأى . والحق أقول إن الملتزمين ليسوا بنسكة حلت بهذا البلد كما قلت ، أو كما تكتب الجرائد ... لا.. لا.. إن على الملتزم أن يشغل ثلاثة أضعاف ما يشغل صاحب الأرض ، وذلك حتى يتيأ له أن يحصل على الإيجار الواجب الأداء ، بالإضافة إلى بعض

الدخل له . والفلاح لا يؤدي من أجل الملتزم عملاً أكثر مما يؤديه الشريف مالك الأرض، ولا هو يؤدي ذلك نظير مال أقل ، بل الفلاح على العكس قد يطمع في الملتزم أكثر . . . وليصدقنا السيد أبوجا القول : هل العقود التي تتم مع الملتزم المجاور لآماراً أقل وطأة على الفلاحين من العقود التي يتفق عليها في ضياعه الخاصة ؟ أم تراها أخف ؟ إن الملتزم تدفعه الضرورة ، وإنه ليعمل على الادخار ، وهو يزرع أرضاً أكثر اتساعاً مما يزرع مالك الأرض ، وهو يعمل في مناطق كانت فيما سبق بوراً مهجلة ، وهو يستجلب الآلات ، ويرفع من مستوى الغلة الزراعية . . . ليس لهذا كله وزن ؟ . نعم يوجد بطبيعة الحال ملتزمون يضطهدون الفلاح ، ويحتلبونه ، تماماً كما يوجد ملاك غلاظ الأكباد ، ولكن إن ندن هؤلاء جميعاً ، جملة ، ودون أن نأخذ في الاعتبار الظروف والأحوال فأمر لا يتسم بالعدل ، بل ولا هو بالمستصوب .

وضاق جريجور من مقاطعة الملتزم غير المهذبة فقال بازدرأه ظاهر : قد يكون قولك صحيحاً ياسيدى ، ولكن لو لم يتدخل الملتزمون بين الملاك والفلاحين لما كانت هناك مشكلة للفلاحين في رومانيا اليوم . . . فإن وجود الملتزم قد حال دون انتقال ملكية الأرض إلى الفلاحين ، الأمر الذي لو تم لما تجملت علل أو مشاكل ؛ فالمالك الذي يضيق ذرعاً بأرضه لامناص له من أن يبيعها للفلاحين ، ولكن الملتزمين يقحمون أنفسهم ، فيمرضون على المالك دخلاً كبيراً مضروباً ، دون أن يبذل هو جهداً أو مشقة من جانبه .

فوافق روجينارو ببسمة صريحة : هذا صحيح وأنا لا أنكره — أعنى لو كان الفلاحون يكدون ويثابرون ويشعرون بالمسؤولية . . . أما أنا فلي خبرة طويلة في هذا المضمار ، ولهذا أرجو أن تسمحوا لي أن أقول إن الملتزم لم يتدخل إلا لأن الفلاح الروماني متلاف وكسول ويتوقع أن يتساقط عليه كل شيء عفاً عما من الملاك وإما من الدولة ، كالحال اليوم . . هذا هو جوهر الموضوع أيها السادة ، وأنا يؤسفني أن تكونوا على غير هذا الرأي ، إنما فيما يختص بـ . . .

وهنا نددت عن بالولينو إيماءة دلت على دهشة بالغة ، فقد وجد نفسه عاجزاً عن أن يختلف معه . . أما جريجور فلم يتمالك نفسه من الغضب ، فقاطع الملتزم

محدثاً : « لقد سمعتك تحدث هذا الحديث في القطار أيضا ياسيدى ... ولم أشأ أن أرد عليك لآنى رأيت أن من الشاعة أن يأتى رجل عاش واعتنى على استغلال الفلاحين فيقرر المرة بعد المرة أن هؤلاء الفلاحين كسالى .. ونحن لو سلطنا جدلا بأنهم كسالى ، كما نزع ، لوجب عليك ألا توجه إهاناتك وشتائمك إليهم ، بل إلى أولئك الذين عملوا على تحريرهم من الوجبة الشكلية فقط ، ولكنهم خلفهم أسوأ حالا مما كانوا في ظل العبودية ... وهؤلاء ، بدلا من أن يأتوا لهم بالنور والعرفان تركوهم يعمهون في الظلام ... والذي يبدو في نظرى هو أننا لا نريد مواطني فلاحا ، بل نفضل أن يكون الفلاح حيوانا ... ونحن ، بعد هذا كله ، نصب الإهانات عليهم ، ونصمم بأنهم أشرار كسالى ... »

وتابع الحديث وهو يشير بغتة إلى تيتو الذى انعقد لسانه عن الكلام ، قائلاً . « سى هذا الرجل ، فهو من ترانسلفانيا ، ولم يحضر إلى هنا إلا منذ قليل ، سلهل الفلاحون هناك كسالى ، هل ينقصهم الإقدام ؟ ثم لا تنس أن أهل رومانيا هناك هم تحت ربة الحكم الأجنبي ، ولكن لهم زعماء أحسوا فعلا بواجبهم حيال الفلاحين ، فملوهم ، وبيئوا لهم معالم الطريق ، وكانوا لهم قدوة طيبة ، ومثالا صالحا ... أما نحن فنمضى في الكلام عن الفلاحين ، ونفتق أنفسنا بالعبارات الجوفاء ، ولكننا لا نقوم بأى عمل من أجلهم ينسج بالإيثار والإخلاص . »

وأثارت كلمات أبوجا العنيفة الضحك هنا وهناك ، فأدرك أنه جعل من نفسه موضعا للسخرية ، لأن لهجة لم تكن لتتسق والوسط الذى يجلسون فيه ، فأخذ إلى الصمت ، وهو أشد ارتباكاً وضيقاً حتى من دوميسكو الذى أخذ يبدى علامات تدل على صبر نافذ ... أما روجوجينارو ، فرغم أن الرد كان على طرف لسانه ، إلا أنه قنع بكلمات مبهمه وهو يلوك طعامه ، وذلك حتى لا يتردد الأمور سوءا ... أما بالولينو فقال فى صوت خفيض ، لم يكن يقصد به غير رفاقه الجالسين إلى المائدة . « إنك على حق يا عزيزى جريجورىتسا ، على حق بين ... » فالفلاح المسكين لا يعرف غير الشقاء . لأنه لم يتعلم شيئا غير ذلك ... وهو عندما يعجز عن تحمل الشقاء ، أعنى عندما تمس السكين منه العظام . فن الطبيعى والحالة هذه أن يهرب فى جنون ، لا يتورع عن النار والدم . والواقع أن هذا البلد ، فى هذا القرن الذى سادت فيه المدنية الغريبة ، هو البلد الوحيد الذى يطلب فيه الفلاح

العدل فلا يجده . . وسوف تمضى الأمور هكذا إلى أن نستيقظ ذات يوم على كارثة تهر البلد إلى أعماق أعماقه .

— على أنه وقد رأى أن الحديث قد بلغ منتهاه ، غير الموضوع ، فأبدى ملاحظات على المحصول الذى كان ، فيما قيل ، محصولا طيبا ، ولكنه لن يدر ربحا بسبب الأزمة المالية . . وانطلق يتحدث عن موقف الحكومة . وهو موقف كان فى رأيه مهترا ، فأعرب عن أمله فى أن يعود حزبه فى القريب ، فيتولى زمام الحكم . وتطرق الحديث بعد ذلك إلى السياسة الخارجية ، فتناولوا موضوع أهالى ترانسلفانيا الأشقاء ، وخاصوا فى مسألة تيتو . . وعندئذ أخذ دوميسكو نفسه يبدى الاهتمام فقد كان هو أيضا وطنيا متحمسا ، يحلم دائما بغزو ترانسلفانيا . . وحدثهم جريجور بأن هيرديليا الشاب يزمع الاستقرار فى هذا البلد ، فتقدم دوميسكو من فوره ، بما أن الأمر يخص واحدا من أهل ترانسلفانيا ، فعرض عليه أن يعمل كاتباً فى مصرفه ، وهى وظيفة متواضعة بطبيعة الحال ، ولكن الغرض منها هو أن تدل على معدن الشاب ، وعلى أن باستطاعته أن يرقى فى نهاية المطاف . . وأعرب أيوجا عن تقديره لهذا العرض ، ولكنه مع ذلك رفض نيابة عن صاحبه ، قال : « ما ذانى مقدور شاعر أن يفعل فى مصرف ، اللهم إلا أن يذهب إلى هناك ليفترض مالا دون ضمان ، ودون ربا ، ودون تحديد ليوم السداد » .

ولم يقل تيتو شيئا ، ولكن سره أن أيوجا قد رفض . . حقا ، إنه لم يخترق جبال الكريبات ليفقد كاتباً فى مصرف . . واستطرد أيوجا قائلاً : « لأن العمل فى جريدة هو إليه أنسب . . فردد الشاب متحمسا : « نعم ، نعم ، الجريدة أنسب . وكان بالولينو صديقا حميما محرر جريدة « يونيفرسول » ، فقد سبق أن كسب له قضية كانت موضع شك كبير . . ووعده الرجل أن يفعل من أجله شيئا ، ومن ثم طلب إلى تيتو أن يعمل على تكبيره بالموضوع ، إذا ما غاب عن ذاكرته لأمرا .

ومالبث الحماى أن قال وهو يستعد للانصراف : « أرجو أن تأذنوا ل . . . لقد تركت زوجى تتناول الطعام وحدها ، لأجل خاطرك يا جريجور يتسا !! فقد انقضت على أجيال منذ رأيتك لآخر مرة . . ولانى لأرجو أن تسعدنى بزيارتك فى بيتى ، وأن نلتقى بزوجى ، ميلانى ، لاننا دائما نتحدث عنك . . .

وتعال وقتما تشاء ، ولا داعى لأن نخطرنا بموعد حضورك ، فالبيت بيتك .

ودبت مشادة بين أيوجا ودوميسكو عن أيهما يدفع الحساب ، خرج منها جريجور منتصرا بعد أن أصر على الدفع . . وافترقوا خارج المطعم ، وبقي تيتو مع أيوجا . . وفي هذه اللحظة ظهر روجوجينارو على الباب ، والسيجار في فمه ، ومظلة عتيقة تحت إبطه .

قال يحدث جريجور ، حديث الوالد لولده : « سيدى ! أنت شاب . . سريع الانفعال . . أما أنا فأكبر منك سناً ، ولست بالذى يفضب من كل صغيرة . . ولست أدرى من نلتقى مرة أخرى ، ولكنى أسأل الله ألا تضعك المقادير في موضع تضطر فيه إلى القول « هذا الرجل روجوجينارو كان على حق على كل حال » . طاب مساؤك » .

وتطلع جريجور إليه لحظة ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة . . لقد ضايقه اعتداد الملزم وعدم تكلفه ، ثم إنه كان متعباً ، بل وكان فوق ذلك متبرماً سئماً . . لقد أنهك الجدل أعصابه ؛ وكان قد وطن نفسه المرة بعد المرة ألا يرج بنفسه في هذه الأمور ، ولكنه ما كان ينى بما أخذ نفسه به أبداً .

وبلغا شارع فيكتورى ، دون أن يتلفا بكلفة . . وكانت تلففهما ريح صرصر ، هى نذير مطر بارد . . وكانت السحب تكاد تلس أعالى البيوت . . وهبت زوايع الهواء فى الشارع ، لحملت التراب ، وألقت به على الطوار تحت أقدام العابرين . . وتذكر جريجور كلام روجوجينارو ، فقال : « رأيت ، لقد فطن إلى أن الجو قد يتلبد ، فأق مع بمظلة » .

وجاءت عربة مسرعة من ميدان شوسيه ، وقد حملت رجلاً وسيدتين ، وكانوا جميعاً يضحكون فى جدل ، كأنما كانت الدنيا تحت أقدامهم .

أما تيتو فقد معنى يقطع الطريق ، وهو يفكر فى صمت . . لقد أدرك أن أيوجا لا يشعر برغبة فى الكلام ، ولهذا لم يشأ أن يضجره . . وجعل يزن الأمسية فى ذهنه ، فاتهتى به رأى إلى أنها أمسية تدعو للرحى . . فهو لو استطاع أن يحصل على عمل فى جريدة « يونيفرسول » ، فسوف يعتبر نفسه فى وظيفة طيبة دائمة . والحق أنها لم تكن بالجريدة الأصيلة ، ولكنها كانت فيما يبدو راحة قوية ، وعلى شهرة واسعة . . ولقد كان يؤثر أن يعمل فى « أديفارول » ، فهى

صحيفة أكثر جاذبية ، وأشد نزوعاً إلى الجدل ، وأميل إلى المسائل العقلية . . . ولكن لأبأس بالجريدة الأولى كبداية ؛ هذا إذا لم ينس المحامى أن يحدث صديقه رئيس التحرير فى الأمر . . . وحدث تيتو نفسه قال إن من واجبه أن يتصل ببالوينو فى غده ، ولكن لا ، يتعين عليه أولاً أن يستطلع رأى أيوجا ؛ ولا بد له أن يتجنب الوقوع فى خطأ ، حتى لا يثير حفيظته فيفقد . . . لقد أرسل الله إليه هذا الرجل الطيب ، ولن يضيره أبداً أن ينتظر يوماً أو يومين .

فلما وصلا إلى بيانا بالاتولوى رجال بدا له أن الصمت قد طال أكثر مما ينبغى . . . وحار كيف يقطع جبل الصمت ، فتذكر اهتمام جريجور بالفلاحين ، فقال مترددا ، كأنما كان يعالج مسألة قدسية . . . لم يتح لى أن أسمع الناس يتحدثون عن الفلاحين هذا الحديث الطويل . . . الأحاديث كلها تدور دائماً حول الفلاحين . . . كل إنسان ، حيثما كان ، يتحدث عن مشكلة الفلاح ، وكل إنسان يقترح لها شق الحل . . . ماعلة هذا كله ؟ حتى فى البيت الذى أسكنه لا يكاد السكان يجتمعون حتى يأخذوا فى الحديث عن الفلاحين ، ويستمررون فيه إلى غير مناهية . . . ناهيك بالإسكافى ، وبخاصة ابنه ، فهو اشتراكى كبير . . . وما من مرة يرانى فيها أحدهما حتى ينهال على بثشى الحلول والتكهنات ، ثم يقرر أنه إذا لم تحل مشكلة الفلاح فسوف تفشى ثورة تحيل بوغارست خراباً بياباً ،

وارتعد جريجور كأنما يستيقظ من حلم . . . لأنه لم يكف عن أن يطرح على نفسه هذا السؤال بعينه ، وأن يلتمس له الجواب . . . قال وهو يتطلع إلى السحب الغاضبة ، وهى تراقص فوق رؤسهما . « ربما كانت هذه نزوة لاتلبث أن تزول ولكنها قد تكون كذلك طلباً طال عليه العهد ، فأخذ يشغل على نفوس الناس . . . من يدري ؟ »



أخذ جريجور يتقلب فى فراشه قلقلًا . . . كان قد قرأ جرائد المساء دون أن يستوعب منها شيئاً . . . وهامت به الأفكار هنا وهناك ، تنقب فى الماضى ولا تستقر على حال . . . وتذكر لحظات مريرة ، وتذكر آماله وأحلامه ، وتجمعت هذه كلها لتطرد عنه راحة البال . . . كان ينير المصباح القائم بجوار سريره المرة

بعد المرة ، إما ليقوم بحسبة تطمئن لها نفسه ، وإما ليراجع أسعار اليوم أو ليعاود النظر إلى صورة نادينا التي قامت فوق سريره ، وهي ترمقه بنظرات واهنة لينة . كانت ترقد على جلد دب ، وقد تجردت عن ملابسها كلها تقريبا ، وذراعيها مستقر على رأس الحيوان ، وتديها الناهدان راخنان كأنما قد قدنا من رخام في استدارة حسية ، وثنيات أعطافها الرقيقة ، تستهوى النفس وتبعث فيها الدفء ، وعلى وجهها تلاعب ابتسامة توحى بصراحة عذرية مصطنعة . . . لقد أهدت إليه هذه الصورة التي تكاد تكون في حجمها الطبيعي ، ووضعتها في إطار مزخرف ، وكان ذلك يوم عيد ميلاده ، منذ ثلاث سنوات ، أى بعد أن تزوجا بعام

لقد عبر لها عن سروره لهذه الهدية ، ولكنه لم يكن صادقا ، فقد شعر وهو يحتضنها بين ذراعيه ، بالأسى وخيبة الأمل . . . كان يردد ، فيما بينه وبين نفسه ، دون أن يحجر بذلك ، أن جسدها العارى على الأقل هو ملكه وحده . وامتلات نفسه غما حين رأى زوجه ، أغلى غواليه ، قد حسرت عن جسدها هكذا أمام غريب ، ولو كان مصورا .

ولقد وصل إلى بوغارست يدهد صدره الأمل في أن كل شيء سيجرى دون أن تجابهه عراقيل . . . وكان يتعين عليه ، في يومه هذا ، أن يجمع القسط الأخير من ثمن الغلال التي باعها وقام بتسليمها ، حتى يسوى حسابه مع دوميسكو ببنيك رومانيا ، وذلك بخصوص الكيالة التي وجب عليه أداؤها يوم الاثنين - وهذه كلها أمور ما كانت تستغرق أكثر من ساعتين وكان من رأيه ، بعد أن يفرغ من عمله ، أن يبقى يوما أو يومين يلتقى فيها بأصدقائه ، وبذكرم بأنه حتى يرزق

ثم كان في نيته أن يرجع إلى أمارا ، وفي جيبه بقية المال ، وهو قدر كان يكفي لتغطية نفقاته العاجلة حتى يحل موسم النثرة فيسبعا . . . وكان يجب أن تمضى الأمور في نظامها المرسوم ، كذلك كان يحرص على التدقيق في شؤنه ، وهما خلتان اكتسبهما في أثناء إقامته في ألمانيا سنتين . . . نعم ، لقد أعد برنامجه بكل تفصيلاته مقدما . . . وفي جيبه الآن ترقد كيالة تاجر الغلال ، وهي كيالة واجبة الاداء يوم الغد . . . لأنها والحق يقال كالذهب الخالص ، لأن توقيع أصحاب هذه المؤسسة ، وهم أشهر مصدرى الغلال في رومانيا ، معترف به في كل أنحاء أوروبا .

ولكن شاء القدر . فيما يختص بالبند الأول من برنامجه ، أن يكيل له ضربة

قاصدة أطاحت بتوقعاته كلها .. لقد دعاه مدير المؤسسة ، وهو رجل فارغ القامة ، جليل المظهر ، من أهل أرمينيا الجافة ، فذهب به إلى غرفته الخصوصية ، وأتحفه بفنجان من القهوة وبسجائر مهرب ، ثم أسر إليه ، ولكن في عزم وإصرار ، برجاء إغواءه أن يقبل لإرجاء السداد شهراً — شهراً لا أكثر . وعشاً حاول جريجور أن يعترض بأن هذه كمية ، وأنها واجبة السداد ، إلى آخر هذا الكلام ... وتبع ذلك شروح وتأويلات ، قيل إن الأوقات عصية وإن الأسعار في الأسواق الأجنبية قد هبطت ، ولأنهم مقبلون على كارثة ؛ والواقع أن المنافسة الروسية قد قلبت ميزان التجارة على غير انتظار ؛ وأن المحصول الروسى ، وكان كل إنسان يتوقع أن يكون محصولاً سيئاً ، قد انقلب فصار محصولاً ممتازاً . . . نعم . روسيا دائماً هكذا ، تأتي بما لا يكون في الحساب . . . ولكن حتى هذا الأمر كان من الممكن علاجه ، فهو نظراً لما اكتسب من خبرة في شئون العمل ، ولدرايته ؛ ، قد اتخذ جميع التدابير اللازمة في الوقت الملائم . . . ولكن من الأسف لم تتوافر له وسائل النقل التي كان في حاجة إليها ، فبقيت السفن راسية في ميناء برايلا ، وبعضها فارغ ، وتجاوزت الخسائر نحو ثلاثين في المائة من جملة قيمة البضاعة . . ثم جاءت ، بعد هذا كله ، هذه الأزمة المالية السخيفة التي نزلت عليهم كأنها صاعقة من السماء تخربت كل شيء ، وشلت كل حركة .

وأصاخ أيوجا السمع ، ولكنه لم يع شيئاً . . . كان كل همه أنه لن يتلقى مالا ، وكل ما عدا ذلك فهو هراء فارغ . . . لقد ظل يؤكد لنفسه ، والرجل يعضى في الكلام ، أنه لو أصر على موقفه فلا مناص للرجل من الرضوخ ، إذ ليس في مقدوره أن يتقبل توقيع الحجر على مؤسسته ، وأن يطلع سمعتها الطيبة . ولكنه إن يرفض هذا الرجاء فعناه أن ينتهى مع مؤسسة اتجر هو وأبوه معها مدة عشرين عاماً ، وهى مؤسسة كثيراً ما قدمت لها العون أيام الشدة . . . هل في مقدوره حقاً أن يرفض رجاء الرجل ؟ . . . ولكن كيف له ، إذا قبل التأجيل ، أن يسوى حسابه مع « بنك رومانيا » ؛ بل والأهم من ذلك ، كيف له أن يعود إلى بلده وهو صفر اليدين ؟ . . . ولم يتنه به الرأى إلى رفض أو قبول ، وقال إنه سوف يأتي بالجواب في الغد ، بعد أن يقلب الفكر في الموضوع .

وترك تاجر الغلال ، وذهب يطلب دوميسكو بالمصرف ، ويلتمس منه النصيح

والعون .. ولكن الرجل كان في اجتماع هام ، فلن يتسنى لجريجور أن يقابله ، فترك له رسالة يدعو فيه إلى العشاء ... وكان يعلم أن دوميسكو يأبى أن ينظر في شئون العمل خارج جدران المصرف ؛ ولكنه رأى من الفطنة أن يهبط للأمر ساعة فراغ .. كذلك رأى أن يدعو بالولينو أيضا .. وهاهو الآن ، بعد أن انتهى العشاء ، يدرك أن هذا التدبير كله الذي بدا في وقته تدبير بارع ، كان في حقيقته خطة حقاء .. وهو ، لو كان عاقلا ، لصبر حتى الند ، ولاكتفى بتناول العشاء مع الشاب الترانسلفاني وحده ؛ فربما تنبأ له ساعتئذ أن يغفو قليلا ، بدلا من أن يتقلب في فراشه دون جدوى .

ووقمت عيناه . بعد أن خلف تيتو ، وبمجرد أن دخل غرفة نومه ، على صورة زوجه نادينا ، والتفتا بالتعبير الذي ارتسم على وجهها .. وتذكر وهو غاضب أنه بسببها — لا من أجلها كما تعود أن يقول من قبل — قد أصبح هو مدينا لبنتك رومانيا ، وكان ذلك قبل أن تهديه هديتها يوم عيد ميلاده مباشرة — لقد كان يظن حينذاك أن السبب الوحيد الذي يجعلها ترفض البقاء في الريف أكثر من أربع وعشرين ساعة كل مرة تأتي فيها إنما يرجع إلى كراهيتها لهذه الزريبة العتيقة التي تغلو من كل ذوق ، ومن كل وسائل الراحة .. وكانت تقصد بها بيت الأسرة القديم في أمارا .. وكان يعلم بأن يكسبها إلى صفه لو أنشأ لها مسكنا رشيقا ، حريا بأن يأوى في جنباته هذه المخلوقة الرائعة .. ولقد حزن أبوه عندما رأى أن بيت الأسرة ، وهو البيت الذي ترعرعت فيه أجيال أربعة من أسلافه ، لم يعد خليقا بآبائه .. وبدأت غمظطات جريجور في نظر والده نذيرا بيده أقول نجم الأسرة ، لأن المبني قد أنشئ من مبدئه إلى مثواه بمال استدأنوه من المصرف .. أما نادينا فقد أعطينا هذه الفتنة من جانب زوجها ، فأقامت حفلات استقبال بمناسبة الانتقال إلى البيت الجديد دامت أسبوعين ، ولكن سرعان ما عاودها السأم ، فرجعت أدراجها إلى بوخارست . وما كان في وسع أحد ، على أية حال ، أن يطلب إليها أن تدفن نفسها وهي على قيد الحياة ، مهما كان المأوى غنيا .. وبقيت صورتها ، وهي نسخة من الصورة المعلقة فوق سريره بالمدينة ، ولكن في إطار ريفي أليق من إطار الأولى ، لكي تؤنس حبيبها جريج ، في وحدته .. كذلك بقي الدين الذي استدأنه من المصرف ، بعد أن عجز عن سداد ولو نصفه في غضون السنوات الثلاث التي انصرفت .

وكان أبوه ميرون هو الذى اكتشف نادينا بينما كان فى برلين . . ذلك أن أباه ، تيودور أيونيسكو ، كان قد اشترى قبل نحو عشرين عاما ، ضيعتين على حدود آمارا ، فى ليسبىزى وفى باباروجا . وهما ضيعتان كان يملكهما من قبل تيوفيل أيوجا ، شقيق ميرون . فلما وقع المالك الجديد ومثلث الشراء ، جاء فى ود وصداقة ، وقام بزيارة لميرون ، يسأله المشورة فى أحسن السبل لإدارة الأرض . وكانت هذه فى الواقع حجة تطل بها ليتعرف على الشيخ أيوجا ، لأنه ما كان يعنى بإدارة الضياع فى حقيقة الأمر ، فهو قد عثر على ملزم ، وحدد منه مقدار ما يتعين عليه أن يؤديه له حتى قبل أن يفتى من عقد الصفقة . . . وسمع ميرون فيما بعد أن أيونيسكو كان رجلا غنيا ، وأنه استقر منذ قريب فى بوخارست ، حيث ابتاع عدة بيوت ، ولكن ما كان أحد يدري مصدر ثروته . . وعاد أيونيسكو ، بعد ذلك بسنوات عديدة ، فزار جاره مرة أخرى وكان فى صحبته هذه المرة ابنه جوجو ، وابنته نادينا . وكان ثمة فارق كبير بين سن الشاب وسن الفتاة ، فالشاب يبدو فوق الأربعين ، أما الفتاة فما كانت تاهز العشرين ريعا . وأوضح تيودور أيونيسكو الأمر فقال إنه تزوج مرات ثلاث ، وأن جوجو هو ابنه من زواجه الأولى ، أما نادينا فقد أنجبها من الزوجة الثالثة . واستطرد قائلا إنه استبدل الملزم الذى كان يعمل فى خدمته . فانتزعت هذه الفرصة لياتى بولديه إلى هنا ، وبخاصة لأنهما سيران الضيعتين بعد قليل ، فأما باباروجا فمن نصيب نادينا ، أما ليسبىزى فمن نصيب أخيها ذلك هو نصيبهما فى الوقت الحاضر . . كذلك اتوى أن يعطى كلا منهما بيتا فى بوخارست عندما يتزوجان . . أما بقية الممتلكات فسوف تقسم بينهما بعد وفاته . . قال وهو يتسم ، ودون أن تظهر عليه سمة من سمات الحزن : « لست أحسبهما ينتظران طويلا — فأنا قد تخطيت السبعين » . نعم ، كانت أمنيته الوحيدة أن يراها مستقرين قبل أن يطويه الردى . . على أنه كان قلقا بمضى الشئ من أجل جوجو ، لأنه تأخر فى الزواج طويلا ، وربما فاته التطار الآن — أما نادينا فما كان ثمة موجب للقلق بشأنها ، ففتاة على جمالها لن تظل عذبة ، إذ سوف تتطلع إليها أنظار الشبان . . ورمقها الشيخ ميرون عن كسب ، وواقفه على ما قال . . وأخذ الأب يطيل التفكير فى نادينا ، وارثة ضيعة باباروجا ، فى الشهور الثلاثة التى مضت قبل أن يعود جريجور من ألمانيا . . حقا ، لشدة ما حزن الشيخ أيوجا عندما تفتت أرض أبيه ، وكان

بوده أن يشتريها هو لنفسه ، لولا أخوه الذي أصر على أن يكون الثمن نقداً . . .
وهكذا راوده الأمل في أن يمتلك جريجور الضيعة كاملة مرة أخرى ، حتى وإن
كان هو قد حرم من ذلك .

وكان جريجور قد بلغ في ذلك الوقت الرابعة والعشرين وكان قد ذهب إلى
ألمانيا يدرس الهندسة الزراعية ، بعد أن حصل على درجة في القانون من بوخارست —
لا تبارص المحاماة ، وإنما بقصد الحصول على مؤهل . . . وكان يزمع أن يقضى
في ألمانيا ثلاث سنوات ، فلما كانت السنة الأولى توفيت أمه ، فطلب إليه أبوه أن
يعود فيستقر في مسقط رأسه ، وأن يدع هذا العلم يذهب إلى الشيطان ، فهو على
أية حال مضية للوقت . . . واستطاع جريجور بمشقة بالغة . إقناع والده بأن
يأذن له في البقاء سنة أخرى . .

فلما عاد إلى وطنه آخر المطاف ، كانت رأسه مليئة بالمشروعات الجريئة ،
وبالحلول الكاملة لكل مشكلة من المشكلات . . وكان يتوقع أن يقف أبوه منه
موقف المعارضة لهذا كله ؛ ولكن الرجل لدهشته ، استمع إليه مرة ومرة ،
واقصر على ملحوظة خرواها أن الانطلاق سمة من سمات الشباب ، وأن جريجور
سيعود سيرته الطبيعية ، بعد أن يخبط رأسه في الصخر عدة مرات . . ولم يناهض
الآب النظريات التي جاء بها ابنه ، ولكنه ذكر له ذات يوم أنه يسره لو تعلق
بإبنه تيودور أيونيسكو . . . وأدرك جريجور على الفور قصد أبيه ، فقال إنه لن
يهتم بأية أفكار مثالية في مسألة اختياره لشريكه حياته ، وإنه ليس من الخير
العودة إلى الوراء ، مهما رغب المرء في ذلك .

فرد الآب ميرون ساخراً : « قابل الفتاة أولاً ، أما العالم المثالي فاتركه لي ! » .

فلما التقى بها جريجور ، ندى كل شيء ، لأنها كانت تمثل كل ما كان يتمنى ..
ولقد تكشف له السعادة خالصة أثناء الشهر الأول قبل الزواج ، وأثناء الشهر
الثلاثة التي قضياها بعد ذلك في اليونان وإيطاليا وأسبانيا . . . عندئذ كانت نادينا
زوجيه حقا ، وزوجه هو لا ينازعه فيها أحد . . وكان يريد ما أن تكون له كذلك
دوما . لا يشغل قلبها شيء أو أحد عدا . . ولكنه مالبث أن عانى عذاب الغيرة ،
بل تزايد عذابه لأنه خجل من أن يعترف بغيرته . . . ولقد حاول جهده أن يجعلها

تكلف بالحياة في الريف ، وما كان يطعم في أن تحب الأرض ، ولكنه كان
يود أن يدرأ عنها غوايات المدينة ... ولقد كابد حبه ، طوال سنوات أربع ،
كل صنوف العذاب ، إلى أن تحطمت آماله كلها آخر الأمر ... بل إنه وافق على
أن تسافر زوجته نادينا إلى الخارج وحدها ، وللمرة الثانية ... ولكنه في غضون
الشيور الثلاثة منذ أن سافرت ، لم يتلق منها إلا خطابات ثلاثة ، كانت في كل منها
تطلب مالا .

وجعل جريجور ، في ضوء المصباح القاتم فوق السرير ، يحملك في الظلال
والأطيان ، التي ملأت الغرفة ذكريات ... وكان يرى بين الحين والحين
بنظرة على نادينا ، وهي تبسم له من إطارها ، راضية كل الرضى عن نفسها .

ورأى أن الساعة قد أشرفت على الثانية ، فقال بمرارة : « هأنذا تراودني
أحلام القطة عن نادينا ، بينما على أن أقابل دوميسكو التاسعة صباحا تبألى
من غر أحق ! »

في ظهر اليوم التالي ، فرغ جريجور من مهامه على وجه يدعو للرضى ...
لقد كان دوميسكو ، لطيفا ، كالمهد به ، فنقده قيمة الكميالة التي استحققت على
الارميني ؛ وقبل المبلغ الذي قدمه جريجور للصرف ... ثم قام بعدة زيارات
لفيكتور بريديليو ، صديقه الحميم ، ولبت حتى ساعة الغداء ، فقد كان يحس دائما
أنه في بيته هناك .

لقد اطمأنت نفسه عندما توصل إلى حل كل المشكلات التي اتخذت صورة
مفرقة أثناء الليل ... والحق أن الأرق لا تمكن أهواله فقط في انتقاصه من
الراحة ، بل أيضاً في الأفكار السوداء التي يثيرها ، ومن ثم يطوى من يعاني منه
في شبكة من الكآبة .. وقص جريجور ، وهو ينعم بالجو السعيد الذي يحياه
آل بريديليو ، المخاوف التي ساورتها الليلة الماضية ، وابتسم لنفسه ، ولكن
في شيء من الأسى .. لقد رأى في نفسه ضعفا ملازما يبدو في ترده الدائم الذي

يمزق أعصابه ، ويجول بينه وبين مواجهة الحياة في ثقة ، كما يفعل أبوه مثلا ، أو حتى يريد لينو .

وكانت الساعة قد بلغت الخامسة عندما وصل إلى بيته ؛ وكان قد وعد الشاب الترانسلفاني بأن يلقاه في الثالثة ١ . ترى أين يجده الآن ؟ . لقد أخجله أن يؤدي مشاعر شخص ربما كان في حاجة إليه ، ولهذا طلب إلى خادمه أن يجعل الفتى ينتظره ، لوجاء لزيارته مرة أخرى ، أما إذا لم يأت ، فليقتب من عنوانه .

وذهب بعدئذ ليزور عمته ماريوكا — أرملة الفريق كونستانتينسكو ، وهي سيدة ما كانت لتغفر له ، ولو في الدار الآخرة ، شخوصه إلى بوخارست دون أن يحضر لزيارتها . . وكانت سيدة تتمثل فيها طيبة القلب ، وسخاء اليد ، وكانت دائمة مرحلة مضيفة ، تعرف كل الشائعات التي تسرى في رومانيا عن شئون الغرام والحياة العسكرية — وكان جريجور قد سكن في بيتها وهو طالب ، وكان أبوه ميرون ما انفك يمشك لديها حين يفد إلى بوخارست حتى الساعة . . فلما رفض جريجور أن يبقى للعشاء ، أخذت منه وعدا بأن يأتي للغداء في الغد ، ثم أردفت قائلة إنها ستكون وحدها ، وستدلي إليه بقسط كبير من الانباء الهامة .

وكان الغد يوم أحد ، فنهض جريجور من فراشه متأخراً . وبينما هو يسرع خارجا ، التقى عند الباب بتيو هيرديليا ، وكان قد التمس مقابلته مرة أخرى ، بعد ليلة حافلة بالشقاء وخيبة الأمل . . وتواعد على لقاء جديد ضحى اليوم ، الأمر الذي كدر العمة ماريوكا كدرا شديدا ، لأنها لم تجد فسحة من الوقت لتقص عليه ما كانت تنوى وتريد من الأمور الهامة . . . ومكث جريجور مع تيتو حتى المزيج الأخير من الليل ، تكفيرا عن تقصيره بالأمس ، ثم دعاه إلى الحضور ، وتناول الغداء في اليوم التالي عند آل برديليانو ، وكان قد أخطر بالزيارة وهو في طريق عودته من منزل عمته . . . كذلك وعد تيتو بأن يذهب هو إلى بالولينو لينقضي منه ما فعله بخصوص الجريدة ، بل إنه فضلا عن ذلك ، دعا الشاب ليقضى معه في ضيعته أسبوعا أو أسبوعين ، أو ما شاء له الهوى ، إلى أن يقضى الله أمراً في بوخارست ، فهو بهذا يستطيع أن يوفر ماله .

ولم يؤمن تيتو بأنه ليس في حلم ، وأن جريجور كان يعنى حقا ما قال ، إلا

بعد أن وصل إلى بيت بريديلينو . . . وكان بريديلينو ، قبل الغداء وبعده خاصة ، حريصا على أن يطلع ضيفه ، صديق جريجور ، على ذخائر مكتبته . وكان يرى أن لزاما على الشاعر أن يهتم بالمخطوطات النادرة ، وبالكُتب الرومانية القديمة ، وما فيها من حواشي فريدة في بابها ، والوثائق والأوراق العتيقة . . . ولحظ اغتباط تيتو ، وتغنى لجريجور ، الذي لم يكن لهذا كله وقع عليه ، أن يتخذ من الفتى قدوة له .

وكان فيكتور بريديلينو ، على كونه من كبار ملاك الأرض ، وعلى كونه واحداً ممن يعتزون بأرضهم ، ويهملون فيها ، يملك أيضا هذا البيت في العاصمة . ولقد حقق فعلا في ضيعته بدولجار ، من أعمال دوجي ، وهي ضيعة تضم ثلاث قرى ، ما كان جريجور يحلم به ، ولكنه عجز عن تحقيقه بسبب أبيه . . . كذلك كان والد بريديلينو يعارض آراء ابنه أيضا . . . وكانت خسته مضرب الأمثال في كرايوفا ، حيث نشأ بريديلينو الحد ، وعاش ومات ، وكان يعتبر من أغنى الأغنياء . . . ولم يستطع بريديلينو أن يستخدم مديرا مدريا ، وأن يستجلب الآلات ، وأن يقلل من العمل اليدوي ، أو باختصار لم يتح له أن يحدد في زراعة الأرض التي ورثها ، اللهم إلا بعد وفاة أبيه . . . وكان لا يزال يقضى شطراً كبيراً من السنة في الريف ، فبتلك هناك أسابيع كل مرة أثناء موسم العمل . . . وكان مسلّكه حيال الفلاحين مسلّكا سلبيا غير مشوب ، دون أن يغالى في التردد لإيهم . . . وكان يعقد معهم العقود على النحو المتبع في تلك الأنحاء ، فلا يتحمل عليهم أكثر مما يفعل جيرانه ، ولا يلين معهم أكثر مما يلينون . . . وكان قد باع فلاحيه بضع مئات من البوجونات ، لا لأنه كان في حاجة إلى مال ، فهو أحد ملاك الأرض القلائل الذين لم يستدينوا البتة ، وإنما دفعته إلى ذلك رغبة في تحريرهم ، بل وتحرير نفسه كذلك . . . وكان من عادته أن يقول إن سعادته لن تتحقق إلا حين يتخلص من الفلاحين . . . ويتخلصون هم منه .

وكانت أمه لاتزال تعيش في كرايوفا ، مع ابنتها إيلينا ، التي تزوجت من أستاذ شاب ، حسن السمات ، ذكي أريب — ولكنه على فقر شديد . . . وكان زواجها عن حب . ولكن الزواج لم يتم إلا بعد وفاة أبيها ، فالرجل ما كان ليقبل

قط أن يخلف ثروته لرجل لا يملك شروى فقير . . . كذلك كان حال فيكتور حين تزوج . . . فهو لم يجد مفرأ من أن يفرض إرادته ، ويطلبها على إرادة أبيه . . . وكان الرجل يتمنى أن يختار لولده زوجة وفق هواه ، أعنى فتاة لها بائنة تعدل على الأقل ثروة ابنه . . . أما تي كلا ، فاكنت تملك إلا ظلمة وجهها واسم عائلتها . . . وكانت ابنة رئيس محكمة الاستئناف المحلية ، نيقولاى بوسيلينكو ، سليل عائلة من النبلاء طحطمها الزمان . .

ورغم أن فيكتور ورث عن أبيه حصافته الاقتصادية ، بل وخسته أيضا ، فقد كان ولما بأن يعرض على الناس مكتبته ، أكثر ما ولع بإظهار معلوماته الزراعية . . كذلك كان غفورا برسوماته التى جمع منها مجموعة منذ سنتين ، ولم يتردد فى أن ينفق عليها مالا — بل ويغالى فى الإنفاق .

قال جريجور ، وكان يوجه اهتمامه للسيدة برديليو وإلى أختها : د كفاك هذا يا فيكتور ، ودعه يلتقط أنفاسه . . إنك سوف تقضى عليه . .

فرد برديليو متمككا : د يسمعننى أن أرى السيد هيرديليا لا يضيق بالسكتب الثمينة ، كما يضيق بها كثيرون غيره !

فقال جريجور وقد أدرك مرماه : د أنت تقصدنى بهذا الكلام !! أما عن نفسى ، فأنا أفضل أنواعا أخرى من الجمال ، وبخاصة هذا الجمال الذى يعيش تحت سقف بيتك !

وحاول تيتو أن يعترض ، ولكن على استحياء ، فقد خاف أن يأتى بهفوة ، وهو خوف استبد به طوال الغداء ، الأمر الذى جعل السيدة برديليو تشجعه من آن إلى آن بابتسامه حلوة . . أما تي كلا ، وكانت نحيفة القوام فى ميل إلى الطول ، فكانت تتمتع بأنوثة ناعمة ، تفسر من اللطف والإيناس على كل مكان تسعده بحضورها ما يجعله أجمل وأمتع . . وكان لا يزال يتلألأ فى عينيها الزقاروين شيء من خضر العذارى . . ففى ، رغم أنها قد تزوجت منذ تسع سنوات ، لا تزال تبدو فتاة حيية . . وكان يبدو على طفليها اليافعين ، ميركا وأيونا ، أنها شقيقان لها ، لولا زهو الأمومة الذى ظهر فى عينيها صارخا .

وتدخلت أختها فقالت بغير حياء : « شكرآ لك هذا الإطراء .. أما إن كنت تقصدنا به ، فنحن لانقبله ، والسبب هو »

قطاطها جريجور قائلا : « أنا إذن أحب كلاى بالنسبة إليك ، وأقصره فقط على تيكلا .. وأنا واثق أنها لن ترفضه . » فقالت السيدة بريديليو : « صدقت ، فأنا أقبّل كل شيء ، من مجاملات وإطراء .. »

وكانت أختها ، أولجا بوسيليخسكو ، فى العشرين من عمرها ، وكانت خفيفة الروح ، حلوة حلاوة النخامة البرية ، لانغيب الابتسامة عن وجهها أبداً ، الأمر الذى كان يتسق معها تماما . . . وكانت عيناها السوداوان تشعان فضولا ، تظللها أهداب وطف ، وكان لها أنف صغير سليط ، ووجنتان مستديرتان ناعمتان كأنهما وجنات طفل — وكانت أقصر طولا من أختها قليلا ، كذلك كانت مثلها مخافة ، الأمر الذى يحصر عن مفاتها أحسن ما يكون عندما ترقص ؛ وكانت تحب الرقص أكثر من حبها لآى شيء آخر فى الدنيا ، فقد كان قصارى أمانيا أن تصبح راقصة باليه .

وأصرت على موقفها ، فقالت فى عناد الأطفال : « ولكن ألم تلحظى ياتيكلا أن كلامه هذا ليس إلا مجرد عذر انتحله ليحدث فيسكور مرة أخرى عن مشكلة الفلاحين ؟ »

وضحك الجميع ، والحق أن جريجور لم يتحدث طوال فترة الغداء إلا عن الأرض والمليزمين والفلاحين وعقود الإيجار ؛ بل أخذ يتحدث ويشدد على الرغم من أن أحدا لم يقف منه موقف المعارضة . ولكن السيدة بريديليو تدخلت الآن لتحول بينه وبين الخوض فى هذا الحديث مرة أخرى . . بل إن بيترو أجاز لنفسه أن يطلب إلى جريجور أن يكف عن هذا الموضوع الأبدى الذى أخذ يردده فى كل مكان .

فرد عليه جريجور صاغراً : « لست أحسبهم يهتمون بهذا الموضوع ، فقد طرقتهم من قبل كثيراً حتى ضافوا به ؛ أما أنت ، أنت الذى لازلت غريبا على هذه الديار ، فقد كنت أظنك تتأثر به على نحو آخر . »

فقال هيرديليا مستغلا الموقف لينذكر جريجور بالدعوة التى سبق أن وجهها

إليه . « أنا أفضل أن تبادل الحديث في هذا الموضوع ونحن في الريف . . . »

« في وسعك أن تصدقني لو قلت إنك لن تتمكن من الفرار منه هناك حتى لو شئت . . . » قالها جريجور بصوت جدير ، ثم تحول يخاطب الآخرين :
« سوف آخذه معي إلى أمارا ليونسى ؛ وأنا لن أتركه يرحل عنها إلا إذا أصبح خبيراً في مشكلة الفلاحين ! »

وقال بريديليو ، بعد أن أعاد ذخائره إلى أماكنها ، إنهم كذلك راحلون إلى دولجا ، فيقضون هناك أسبوعين ، ثم يرجعون على بيت أولجا ، فيدلون بها هناك ، وبهذا يتسنى لها أن تألف كرايوبا الحبيبة .

فقال السيدة الشابة غاضبة . « أتظن أنني أرجع إلى كرايوبا الآن والموسم قد بدأ ثوّه في بوغارست ؟ »

والواقع أن أولجا ، لسنتين خلتا ، قضت من الوقت في بوغارست أكثر مما قضت في كرايوبا . . . وكان فيكتور يريد أن يلتصق لها عريسا يكون في نفس الوقت مقبولا لديه ، وكان يتمنى لها ، لغروره ، واحدا على شاكلته هو . وكان من عادته أن يقول لها . « لو أردت واحداً يوفر لك السعادة حقا . فاعليك إلا أن تنتظري حتى أقول لك — « اذهبي » .

وكان فيكتور أسمر البشرة ، ذا شارب أنيق ، وعينين جاحظتين قليلا ، تشع منهنم الرقة أكثر مما يشع الذكاء .

وانطلقوا يتحدثون عن نادينا ، وكان سؤالهم عنها هو إلى الرسميات أقرب ، فهي في الواقع ما كانت تميل أبداً لآل بريديليو ، وما كانت تزورهم إلا في المناسبات الخاصة ، فإذا فعلت فن أجل جريجور فقط . . . وكان الشعور بينهما متبادلا . فنادينا ترى في تيكلا دعابة منافقة لانفهم الحياة حق الفهم . . . أما تيكلا فكانت تعتبر نادينا أفاقاة مغامرة ، وكانت قد سمعت كثيرا من القال والقليل عن زوج جريجور أيوجا ، ولكنها كانت على ثقة من أن هناك أشياء أخرى كثيرة لم تسمع بها ، أو لم تشأ هي أن تعرفها . . . وكانت أولجا هي الفرد الوحيد في

الأسرة الذى أعجب بنادينا ، ولكن إعجابها بقى طلى الكتمان ، لأن نادينا كانت راقصة بارعة ، وكانت دائما لاتتى عن إيجاد فرصة لإظهار موهبتها .

وتحدث جريجور متفكها عن زوجه ، ولكن فى شيء من الشوق أيضا .. قال إنه لا يراها إلا فى القليل النادر ، وإنهما لا يلتقيان إلا ليتحدثا فى شئون العمل وإن إدارتها للضيعة بلغت من الامتياز حدا يجعلها تحقق عجزاً باستمرار ، وإن من واجبه بطبيعة الحال أن يقوم بسداد هذا العجز ، لا لشيء إلا ليدل على أنه زوجها ، وعلى أنه يحبها .. وتابع حديثه قائلاً : « ليتها ترجع من الخارج على وجه السرعة ؛ فالموسم قد أقبل ، ولا أحسبها تريد أن يفوتها » . ثم إذا بصوته يتغير ويتهدج ، قال : « إني أحسبكم أيها الأصدقاء ! .. يتكم ترفرف عليه السعادة ، وأنا رجل عاطفى ، كنت أتمنى دائماً أن يكون لى بيت مثله عندما أتزوج ، وكنت أتمنى فى صميم نفسى أن أتزوج امرأة مثالية على شاكلتك يا تيكللا ... أرجو ألا يضايقك قولى هذا يا فيكتور ! »

فأجاب بردياينو : « بل أنت على العكس ترضى غرورى ! .. أعنى غرور تيكللا ، وبما أن تيكللا ملك يمينى ، وكلانا شخص واحد ... »

وابتسمت زوجه ولم ترد ، فقال أيوجا : « نعم أريدها على شاكلتك ، بأبناسماتك ، ورقتك ، وأطفالك .. إربك يا فيكتور كيف أصد نفسى عن حسدك وبخاصة حين أفكر فى نفسى .. »

وهنا أدرك فيكتور أن اليأس قد استبد بجريجور ، فقاطعه قائلاً بمرح : « ليتك يا جريجور تيسا ما كنت متسرعا عجولاً ! .. ذنب من هذا ؟ .. ثم أنا أستطيع أن أريك زوجة ، أجمل من تيكللا وأروع ، تطلع إليها ! »

وافقدت وجنات أولجا خفرا ، ولكنها ضحكت لإخفاء لارتباكها .. ورمقها جريجور بنظرة طويلة ، وقال : « نعم ، هذا صحيح ، ولكن من كان يظن أن الصبية الماكرة تغدو بعد خمس سنوات فتصبح هذه الغادة الهيفاء ! .. أنا نادم حقا يا عزيزى فيكتور !! »

فاقرضت أولجا ، وقد عاد إليها لونها الذى غاض : « لاتتعجل بإبداء الدم

ياسيدى ... بل عليك أولا أن تسأل : هل أنا أقبل الزواج بك ؟ .. أما وأنا موضع الحديث فنى مقدورى أن أخبركم بأن زوجى لابد أن يكون رجلا مرحا رشيقا ، بل وأهم من ذلك كله ، راقصا بارعا لا نقيصة فيه .. أ رأيت ؟ .. أنا لا أريد رجلا جادا ثقيل الظل مثلكم !

فصفق فيكتور : « أحسنت ... ومع ذلك فقد كشفت عن خيئة نفسك . تقولين إنك تريدین راقصا ؟ ربما أتيج لنا أن نعر على واحد من فرقة الباليه ، ما قولك في هذا ؟ »

وتطلع إليها جريجور ، وأطال النظر ، كأنما قد حركت الفكاهة في نفسه بقايا حلم تفتت وتلاشى حتى قبل أن يتخذ له شكلا .. لقد بدت أولجا في ناظره صورة راقصة من تيكلا ، بكل ما لها من سمات ، بل وأكثر منها بهاء وسنى . . وكان هناك تحت لآلاء عينيها مسحة من الرقة . . وإذا به يهز رأسه ، كأنما ينفض عنه ماساورة من أفكار ، ثم تتم ببطء . « لقد فات الآوان ! »

— ٧ —

صاحت السيدة الكسندريسكو ، كأنما هي تفضي إليه بسر خفي ، وقد أوقفته في الصلاة : « عندى لك مفاجأة يا سيد تيتو !! .. هل تستطيع أن تحذر ماهى ؟ ادخل هنا وأنت ترى .. »

وكان هيرديليا الابن قد خلف لتوه جريجور أوجا بعد الغداء عند آل برديليانو ولهذا كان يبدو رشيقا أنيقا ، كالعريس فى أحسن بذلة عنده .. وقادته السيدة إلى غرفتها ، فرأى هناك سيدة شابة ، ضئيلة الجرم ، وكانت شقراء للغاية ، واسعة العينين ، حلوة التقاطيع جدا ..

قالت السيدة الكسندريسكو وهي تشير إليه مزهوة : « انظر !! »

ووضع الشاب على يد الزائرة قبلة ، قال : « يسعدنى أن ألتق بك يا سيدتى ميمى ! »

فعبجت السيدة الكسندريسكو : « كيف استطعت أن تحذر ذلك بهذه المراجعة ؟ »

فأجاب تيتو : « من جالها ، ومن شئ . آخر أيضا ١١ »

وتبسمت ميمي ، وقد اغبطها مسلك الشاب : « لقد أخبرتنى أمى بأنك شاعر وأنا الآن أومن بما قالت . »

وأخذتا كلتاهما تحانه على إيضاح مقصده ، فاعترف بأنه اطلع مرة على خزانة الكتب القائمة في الردهة ، ووقعت يده صدفة على قصة كان يتوق إلى قراءتها من زمن طويل . . وكانت السيدة الكسندريسكو قد أذنت له أن يطلع على كتب زوج ابنتها ، بشرط أن يعيد كل كتاب إلى موضعه . . ولقد وجدنى عدة صفحات من هذه القصة سؤالاً خط بالقلم انرصاص : « هل تحبني يا فتى العزيز ؟ » ، وانتهى به الرأى إلى أن ميمي هى التى كتبت هذا السؤال لزوج المستقبل ، وأنها حاولت أن ترسم صورة له . . ولقد رأها عو بعين الخيال ، هكذا قال ، كما هى على حقيقتها فلما لم يجد جواباً على هذا التساؤل اللطيف ، فقد أجاز لنفسه أن يجيب عنه : « الحق يا حبيبة القلب الصغيرة ، أنا أحبك كل الحب ! »

صاحت ميمي فى دهشة وبهجة : « أحقا ما تقول ؟ . . أنا لا أذكر أننى كتبت هذا السؤال . »

فقالت السيدة الكسندريسكو : « اسمع منى ياسيد تيتو ، إياك وإلقاء شباكك حول ميمي ، فإن زوجها رجل غيور غيور ، والله وحده يعلم ما سوف يقدم عليه . . »

« كيف هذا يا أمى ، لا تصورى زوجى هذه الصورة البشعة ، وإلا ظن السيد تيتو أننى اتخذت جلفاً فقط الطبع زوجاً لى ١١ »

واعترض تيتو فقال إن هذا الظن لم يخالجه قط ، لن يدهشه أن يأتى زوج هذه الحسناء الفتاة ، فيقترب جريمة من أجلبها وعلم عندئذ أن زوجها المحامى قد نقل إلى وظيفة مرموقة جداً فى مجلس مدينة بوخارست ؛ وأن الزوجين قد حضرا يلتزمان بيتاً يقمان فيه ، وأن على الزوج أن يبدأ عمله بعد أسبوعين أو نحوهما ، ولهذا السبب جاءت إلى بوخارست لتعكث فيها بضعة أيام حتى تعثر على بيت مناسب .

وصاحت السيدة الكسندريسكو : « ألم أقل لك إنه رجل ممتاز جدا . . . ولكن كم أتعنى لو لم يكن بهذا العناد . . . لقد حضر منذ برهة ، وجاء بميمى إلى البيت ، واكتفى بأن دخل وقال : « صباح الخير » ، ثم مضى لا يلبى على شيء . وأنت تعرف السبب . . . ثم استدارت ناحية ابنتها وقالت : « لقد حدثته بالامر كله ، وعما تحملته مضطرة بسبب عزى حيفتسا . »

وغيرت ميمى الموضوع ، وهب تفتو لتجدها حين عرض عليها أن يبحث لها عن بيت جديد ، ثم أضاف أنه سيضطر إلى الرحيل عما قريب ليزور ضيعة أحد أصدقائه .

لقد كان فيما مضى لا يدرى كيف يلتمس الوسيلة ليخرج من المكان على عجل ، أما الآن فهو يحجم عن الرحيل ، فقد بدت ميمى في نظره مثيرة ماكرة .

قال يحدث نفسه حين بلغ حجرته : « هاأنذا أشغل نفسي بالتفاهات ، بدلا من العناية بشئى ، وهى على جانب من الخطورة — وليس من شك في أنها جيلة للغاية ، ولكن ليس لدى وقت الآن لهذه المغامرات . »

وما كان يدرى متى يحين وقت رحيله مع أبوجا ، الذى اقتصر فقال إنه ينوى الرحيل بعد يومين أو ثلاثة أيام ، ولهذا كان من واجبه أن يعد للامر عدته في أى وقت . . . وكانت غرفته باردة مظلمة . . وكانت الساعة إذ ذاك قد بلغت السادسة . . . وكان عليه أولا أن يبدل ملابسه حفاظا على هذه البذلة الجيدة . . . والحق أن من حسن حظّه أن يملك هذه البذلة الجيدة ، فإن المرء ليشعر حينئذ أنه شخص آخر ، أكثر ثقة بنفسه وبغيره من الناس . . . ومن حسن طالعّه أنه التقى بابتة صاحبة الدار ، وهو يلبس هذه البذلة . . . ولكن حسبه هذا . . . لقد امتلأ رأسه بميمى ، وينبغى له أن يفكر في شيء آخر . . . وتذكر فجأة أن نعل حذائه في حاجة إلى إصلاح . وما كان لديه ما يشغله ، ثم إن الجو بارد ، فلم لا يأخذ هذا العمل إلى الإسكافي قبل أن يزداد الجو سوما .

وهكذا انطلق عارى الرأس إلى مندلسون ، وكان يسكن أقصى الفناء . وتناهى إلى سمعه من الردهة صوت ميمى مفردا ، هى إذن لم ترحل بعد . . . وكان

يعرف الإسكافي ، كما كان يعرف غيره من السكان ، فقد كان هؤلاء جميعا ، وقد طحطهم الفقر ، يشكلون أسرة كبيرة ، رغم ما تسبب من جلبة ، وما يحدث بينها من شقاق ... وكان مندلسون يشغل غرفتين ، كلتاهما تواجهان الفناء .. وكان إحداهما شبك ، وباب المدخل بالأخرى .. واتخذ مندلسون من ركن وراء الباب ورشة له ، فهناك يقرع بالمطرقة ، ويشد الأحذية ، وينطلق بالسياب طوال اليوم ، وقد جلس محدودب الظهر على كرسيه ذى القوائم الثلاث ، يتبادل الرأي مع زوجته ، أو يدرب صبيه ، هذا إذا لم يجد أحداً آخر يحذئه .. وعلى الرغم من أنه قد بلغ الحسین ، إلا أنه ما كانت هناك شعرة واحدة بيضاء توخط هذا الكثبان الكثيف من شعره الأسود — وكان دائماً أشعث شأنه شأن لحيته .. وكان يقيه غفرا بأنه قد تعلم حرفته على يد رابابورت ، وكان قصارى أمانيه أن يتلقى طلبات تدعوه إلى صناعة أحذية جديدة ، ولكنه أيضاً لا يأنف من إصلاح الأحذية القديمة ، هذا إذا كفلت له ما يكفى من مال ... ووجدته تبتو بعمل بالمطرقة بهمة فى حذاء سيدة .

قال دون أن يتوقف عن عمله : « انتظر لحظة ياسيد هيرديليا ، دعنى فقط أنتهى من هذا الكمب من أجل السيدة تاناسيسكو ، فهى ذاهبة إلى المسرح هذا المساء ، وأنت ترى السيد تاناسيسكو جالسا ينتظر ..! تفضل لحظة .. أين أنت ياميزو ؟ » هات كرسيًا للسيد هيرديليا ..!

وصافح هيرديليا تاناسيسكو وميزو ، ابن الإسكافي ... ولحظ ، وهو يتخذ مجلسه ، أن جنديا لم تقع عليه عينه من قبل قد جلس فى أظلم ركن من الغرفة ...

وبعد فترة وجيزة ، خفت حدة الجو ، فواصل تاناسيسكو الحديث حيث انقطع ، وقال : « لو كان هناك عدالة ياسيد ميزو لوجب أن نبدأ من البداية ..! هذا ما يجب أن يكون ... أنا لا أعترض على أن تقى الفلاح حق ما استطعت ، لك هذا ، ولكن لا تسمح بإهانة أولئك الذين هم ، أولا وقبل كل شيء ، قد خدموا الدولة طوال حياتهم كلها ، هؤلاء لم يسرقوا أو ينهبوا ، ولكنهم الآن قد بلغوا من العمر عتيا ،

وكان تاناسيسكو ، الذى بنى بزوجته تصغره بخمسة وعشرين عاما ، قد أحيل

إلى التقاعد قبل ذلك بعام ، فلما لم يجر ميزو جوابا بلا أو نعم ، استطرد وقال بنغضب تزايد شيئا فشيئا : « نعم ، ليس من العدل ، ولا من اللياقة أن يضطر أناس مثل ، نحن الذين أفقنا العمر من أجلكم ، واعتصرنا كما تعتصر الليمونة ، فيذلون أنفسهم في أخريات أيامهم » . ١ .

وكان مندلسون اشتراكيا متحمسا . . . لقد قبض عليه البوليس وضربه المرة بعد المرة ، أما الآن فأجاب دون أن يرفع عينيه عن عمله : « ليس للعدالة سعر ، وهذا هو السبب الذى يجعل الناس لا يطلبونها في التجارة » .

ولكن ميزو تميز غضبا ، فقال بصوت جدير : « لو كنت تشكو من الظلم والقسوة ، ياسيد تاناسيسكو ، فأحرى بك أن تفكر في الحياة التي يحياها الفلاحون في الريف ، فهؤلاء لا تتدخل حياتهم بارقة أمل » .

فقال صاحب المعاش ، وقد خرج عن صوابه غضبا : « لقد سئمت الكلام عن فلاحيك الأغنياء . . . لأنهم على الأقل يمدون كفايتهم من الطعام والملبس والراحة . . . وأنت لاتستطيع أن تتخضع في هؤلاء الفلاحين ، فأنا أعرف كنه الحياة في الريف . . . ومن واجبك فيما أرى أن تمنوا قليلا بنا نحن أهل المدينة . . . فنحن الذين نتحمل العبء كاملا ، والله وحده يعلم وطأة هذا العبء ؟ »

وهكذا مضى في حديثه ، ينسى على نفسه التزامه الأمانة في العمل ، فلم يجمع مالا كما فعل غيره — على أنه الآن لاهتم بشيء ، ولا يعنيه أحد . . . واستمر في هذا الكلام إلى أن تسلم فردة الحذاء ، بعد أن أصلح مندلسون من أمرها وطلأها فغدت كمرآة مجلوة .

قال ميزو ساخرا بعد أن رحل عنهم صاحب المعاش : « محال أن يتحدث المرء حديثا موضوعيا مع هذا الشيخ . . . لأنه عاجز عن رؤية أى شيء أبعد من موضوع معاشه . . . ولكن هؤلاء الكتبة أصحاب المعاشات هم في الحقيقة عماد الطبقة الوسطى عندنا وهذا هو السبب الذى يجعله ينادى بأر تقوم الدولة برعايتهم ومنهم كل ما يريدون . . . أما أنت ياسيد هيرديليا ، فهل أنت موافق على الأوضاع كما هي ؟ »

قال تيتو : « ليست لدى فكرة واضحة عن الاوضاع هنا ، ولكنى أعلم أن الظلم يرتفع في كل مكان ، بصورة أو بأخرى .. فهنا نوع من المظالم ، وفي بلد ثان نوع آخر منها » .

« ولكن الناس في البلاد الأخرى يشنون الحرب عليها ، وهم لا يقفون مكتوفين الأيدي إزاءها ، بل يرفعون أصواتهم مناهضة لها .. أما هنا فنحن نكتفي بتقبل الظلم كأمر من طبيعة الأشياء ، تلك هي المشكلة ! »

فتمتم تيتو بإيمان : « كثيرا ما يكون الكفاح غير ذى جدوى » .

فصاح ميزو : « هذا أسوأ ما فى الأمر ياسيدى ! .. فهذا معناه الاستسلام ! كنت أحسبكم فى ترانسلفانيا أشد استمساكا بانتصار العدل ! »

وكان هناك مصباح غاز يتدلى من السقف ، فينير الطاولة الصغيرة التى غطيت بمسامير خشبية ، وقوالب أحذية ، وأدوات : الأمر الذى جعل بقية الغرفة فى شبه ظلام ، ظهر القوم فيه كالأشباح .. وبدأ ميزو بقوامه الثقيف ، وهو يلوح يديه فى عنف كأنما يصطرع والظلام .. أما تيتو فبقى برهة يحدثه ويحدث أباه .. كان يدرك أن ثورتهما لئامسا بهما ما يعانين من فقر ، وهوى فى هذا يرى أيهما ، إلا أنه ، وهو الشخص المحافظ ، لا يستطيع أن يعبر عن همومه فى ألفاظ مريرة ، بل أسر بها فى نفسه ، عذابا لها ... ثم هو ، فضلا عن ذلك ، قد علم من جار فيلاس أن البوليس السرى يرقب مندلسون ؛ وهو ، بعد ، لا يريد أن يضم صوته إلى أصواتهم ، فيزج بنفسه فى أمور لا يدري غير الله عاقبتها ..

قال الأب وقد انزعج لثورة ابنه : « مهلا ياميزو ... أنت جندى ، وقد تجلب على نفسك المتاعب » .

« أو ليس للجندى الحق فى أن يدلى برأى يؤمن به ؟ .. ثم أنا سأشرح من الجيش بعد عشرة أيام . وحتى قبل هذا ، لماذا تريدنى أن أقف موقف الحذر من السيد هيرديليا ؟ أليس هو أيضا من الطبقة الكادحة ، شأنه شأننا ؟ »

فوافقه تيتو فى غير حماس : « أنا حقيقة كذلك ؛ بل أنا على الأصح عاطل ، أتعلل بالأمل فى أن أجد عملا » .

وبعد صمت تغلله شيء من الارتباك ، واصل ميزو الحديث وهو أهدأ من
ذئ قبل : « ينبغي لنا على الأقل أن نحفظ بحثنا في أن نجار بالشكوى حين نخلو
إلى أنفسنا ، وإلا ما قولك يا صديقي بيتر ؟ »

وكان السؤال الأخير موجهاً إلى الجندي الذي جلس ساكناً في الركن المظلم ، على
حافة الألواح التي يتكون منها السرير الخشبى . . . وكان قد وضع لباس رأسه على
ركبتيه ، لا تند عنه حركة ، كأنما قد قد من صخر . . . ولقد هبط عليه السؤال
بفتة ، فنهض من مجلسه ، ولكنه ما لبث أن أدرك أين كان ، فعاد إلى مكانه ، أكثر
ثباتاً مما كان . . . وكان صوته ، عندما هم بالجواب ، عميقاً غريباً ، كأنما وفد من
عالم آخر . . .

« حسن . . . »

والفتت تيتو إليه ، وقد غلبته الدهشة . . . كان كل ما يستطيع أن يتيهه في
الشبح وجهاً بارز المظالم ، يميل إلى السمرة ، قد رشقت فيه عيناان يتقدان ناراً . .
وكان الجندي يحمل قبعته الرسمية في إحدى يديه الكبيرتين ، اللتين تأت عظامهما
كأنما خشي أن يفدعها .

قال ميزو موضحاً : « هذا زميل لى في الجندي . . . لقد بدأنا الخدمة في
نفس الفرقة ، وامتدت أواصر الصداقة بيننا . . . هو شاب طيب . وقد رقى
إلى رتبة عريف — انظر إلى شرائطه ! . العريف بيتر بيتر — الفرقة
كلها تعرفه . . . »

ورد تيتو فيما بينه وبين نفسه : « بيتر بيتر ! . . . ياله من اسم ! ! » .

وشعر أن من واجبه أن يقول شيئاً للغريب ، حتى لا يبدو أمامه متعجرفاً ،
قال :

« لست أحسبك من أهل بوخارست ! » .

فقال الجندي ، بسرعة وحزم ، كأنما ينفي عن نفسه تهمة : « لا ، لا ، لا . . .
بل أنا من الريف ، من ولاية أرجس » .
« هكذا ظننت »

ولم يكن يتبو على دراية باماكن البلاد ، فكذ ذهنه ليتذكر أين تكون
أربس هذه . قال متردداً : « أليست هى قرب بيتسى ؟ » .

فقال الجندى ، وقد أشرفت أساريره : « أصبت ، لإنها قرب بيتسى .. وفى
وسمك أن تصل إلى هناك لو أخذت قطاراً من هنا إلى كوسقسى ، ثم تستبدل
القطار هناك وتتجه إلى روزيورى ، ثم تنزل فى بيرديا ، فإذا بك فى أمارا فى
لحظة حين » .

وتذكر هيرديليا أن أمارا هى البلدة التى جاءت على لسان أيوجا ... بل لعل
هذا الجندى قد وفد من ضيعة أيوجا نفسها .. وكان على طرف لسانه أن يسأله
هل سمع بشاب اسمه أيوجا ، ولكنه خجل من أن يطرح السؤال أمام مندلسون ،
فربما ظن الرجل أنه يتباهى بمعرفته بطبيعة القوم

رسأله فجاءه : « أنت سعيد لأنك ستترك الجيش ؟ » .

فأجاب بيتر بيتر فى جد وسكينة : « أنا لا أجد مبرراً للشكوى ، فقد
تعبت هناك فترة لا بأس بها إطلاقاً .. ومع ذلك فأنا أفضل بلدى لأنه — كما
ترى — بالنسبة لرجل ريفى .. » .

واعتراه ارتباك فأمسك عن الكلام .

قال يتبو يشد من أزره : « كل إنسان بطبيعة الحال يحس بالسكينة فى
موطنه ربيده ... أأملك أرضاً هناك ؟ » .

فأجاب الجندى متحمساً : « ليس عندنا أرض واسعة ، وكنا فى حاجة إلى
المزيد منها .. والإشاعات تتردد هنا بأن الأشراف سينظرون إلينا بعين
المطف و ... » .

فصاح ميزو ساخراً . « أسمع ما قال ياسيد هيرديليا ؟ أسمع ؟ . إن أملمهم
معهود على الأشراف سادة الأرض ، وعلى أن الأشراف سينظرون إلهم
بعين المطف ١١١ » .

وتطلع بيتر إليهما مبهوتا . . ما كان يوسعه أن يفهم علة سخرية ميزو . .
فقال بهدوء وبساطة . « إلى من تتطلع إذن إن لم يكن إلى الاشراف ؟ أنتطلع إلى
الناس الذين لا يملكون شيئا ؟ .. إن من لا يملك شيئا في مقدوره أن يعطى بسهولة ،
لأنه لن يخسر أو يفقد شيئا .

فقال ميزو باحتقار . « عليك إذن أن تنتظر طويلا ! »

فغمغم بيتر بيتر ، وقد غض بطرفه إلى قبضته التي طواها وثناها بحيث لم يعد
لها شكل .

وقبل أن ينصرف ، مد يتيو يده يصالحهم جميعا . . . كانت يد بيتر خشنة
متشققة كأنها الأرض ذاتها .

الفصل الثاني

الأرض

- ١ -

كانت العربية الصفراء المألوفة من آمارا واقفة في محطة يرديا ، وهي محطة موحشة قفراء تقع في وسط حقل على طريق كوستستى - روزيورى... فلما توقف القطار أسرع صبي إلى باب العربية التي ظهر فيها خيال جريجور أبوجا ، لجمع متاعه ، وحمله إلى العربية . . وكان يقف على رأسها لإخيم المعجوز ، حوذى الأسرة الثرثار ، وهو يشد بقوة لجام فرسين لا يستقران على حال من القلق، فهما يقضمان اللجام ، ويضربان في الأرض ، وقد نفذ صبرهما لهفة على الرحيل .

« مرحبا بك ياسيدى ! »

فرد جريجور وهو يتخذ مكانه إلى جانب السيد هيردبليا . « يسمدنى أن أراك ياإخيم ، هل كل شيء على مايرام ؟ »

« نعم ياسيدى ، متأكد الله بالصحة . »

« حسنا ، فلنمض إذن إلى البيت ! » .

وأطلق المعجوز العنان للخيول ، فإذا بها تندفع لجأة بحيث جعلت الصبي الذي جلس إلى جواره يكاد يقع على قفاه . . ومالت العربية ، على بعد قليل من المحطة إلى طريق وعر ، كان يخترق حقلا يؤدي إلى قرية كير تينكا . . وبدأت القرية ، على الأفق البعيد المشوب بلون الرصاص ، كأنها تل عظيم . . وانتشرت حول القرية ، على مساحات لا نهاية لها ، جذامات القمح الذهبية ، وقد رقدت وادعة ناعمة . . وهنا وهناك ترى العين أسراب الغربان الراقدة على الأرض . . أما السماء التي تغللتها بانتظام سحب الحريف ، فقد جشمت على الأرض ، كأنما التصقت حافتها بالأفق . . وانتصبت هناك شجرة قامت شاهدا يميز الطريق الرئيسى بين كوستستى وروزيورى .

ولما بلغنا كيرتينكا ، قال جريجور لجأة يحدث تيتو : « هذا هو بيت بوييسكو
كيو كول .. لقد كنا طوال الطريق من المنطقة نخوض في أرضه .. والرجل منذ
بضع سنوات فقط كان ملتزما لهذه الضيعة ، ولكنه كد واجتهد لحسابه الخاص
فنجى صاحب الأرض جانبا ، ونصب نفسه مكانه . . . ولعل صاحب الأرض
كان أهلا لما حاق به ، فأنا لم أشهده في الضيعة أبدا » .

وكانت القرية عبارة عن عدة أكواخ قام في وسطها بيت الدائرة ، وهو بناء
لا شكل له ، به برج مربع طلى كله بلون داكن الحمر ، وأحاطت به الأبنية الصغيرة
التابعة له . . . وكان الطريق المؤدى إلى آمارا يقطع الطريق الرئيسى عند قرية
كيرتينكا ، فيخترق الدائرة ، ويمضى متجها ناحية وادى تيلورمان الذى كان
ينحدر زهاء مائة وثمانين قدما ، كأنه الجبل . . . أما الوادى نفسه فقد بلغ الميل
اتساعا ، وكان أملس ناعما كراحة اليد ، به أرض خصبة غنية كأنها شريط لانهاية
له من الحدائق الخضراء ، ولكن لم يكن ثمة أثر يدل على نهر ..

« قف يا أخيم ، قالها أيوجا عند بداية الانحدار ، ثم انفتحت إلى تيتو قائلا
في شيء من الانفعال : « أريد أن أريك أرضنا ، أعنى ما كان لنا من أرض
وما بقى لنا منها . . . فى مقدورك أن تشهدها كلها من هنا كأنما هى قد رسمت
على خريطة » .

وكانت الأرض ، فيما وراء وادى تيلورمان ، الذى رقد الآن أسفلها ، تتثنى
على امتداد وانبساط ..

قال جريجور وقد قام من مقعده وأخذ يقتبع بأصبعه مجرى الوادى المتعرج :
« هذا نهر تيلورمان يقوم شاهدا على الحدود من هذا الجانب ، أما حدود
الجانب الآخر فهى هناك تبدأ من قرية أيونيسى تراها على مرمى البصر ، إلى
اليسار ، فتمتد حتى هناك إلى اليمين ، حيث يخترقها نهر سبنى .. وهذا اللسان
الممتد من الأرض بين هذين النهرين كان كله يوما ضيعة أيوجا .. أما اليوم
فليس فى حوزتنا حتى نصفه . . . والحق أنها كانت مساحة شاسعة جداً . تريد
على عشرين ألف بوجون .. أترى تلك القرية عبر النهر ، الواقعة أمامنا مباشرة ،

على امتداد هذا الطريق نفسه ؟ .. تلك هي باباروجا .. ووراء باباروجا، توجد قرية أخرى هي جليجانو ناو ؛ وإنك لتستطيع أن ترى بريق المعدن الموضوع على برج الكنيسة الجديد، انظر هناك، بعد ذلك بقليل ، بين دغل الأشجار .. هذا الجزء من الأرض على شمال الطريق كان أول جزء ذهب من أيدينا .. لقد أعطاه جدى لابنته بائنة لها .. والناس يطلقون عليه ضيعة فلادوتا .. ذلك لأن بيت الدائرة يقع في فلادوتا .. والذي يملك هذه الضيعة اليوم رجل يدعى ستانيو ، وهو لا يعيش حتى في هذه البلاد ، بل تراه دائماً في إيطاليا .. ولست أدري ما يفعل هناك ، ولكن الناس يقولون إنه ملحق سياسى .. أما الذى يعنى بضيعة فهو مقدم متقاعد اسمه ستيفانسكرى ، وهو رجل لطيف جداً ، عنده ثلاث بنات . ولأمر ما لا يستطيع تزويجهن ، رغم ما هن من حسن ، ورغم ما يتمتعن به من بائنة فوق ذلك ... ما عدا هذا كانت الأرض كلها قطعة واحدة ؛ لى أن توفى جدى ... عندئذ قسمت الضيعة مناصفة بين أبى وأخيه تيوفيل . ثم أخذ عمى تيوفيل يبيع نصيبه شيئاً فشيئاً ... وكانت هذه الأرض كلها تسمى ذات يوم ، يوم ليس بعيد ، ضيعة آمارا ، أو قل ضيعة أيوجا . أما الآن فضيعة آمارا ليست إلا طرف اللسان ، أغنى الجزء الأدنى ... سأريكها حين تقترب منها ... أما عن يمين قرية باباروجا فتوجد ضيعة زوجتى ، ومقدارها ألفان وخمسمائة بوجون ، وهى تمتد على طول هذا الطريق البعيد بين جوجانى وبيرلوجو ... وهناك ، وراء ضيعة نادينا ، تجاه وادى سبنى ، توجد ضيعة ايسيزى ، وهى ضيعة يملكها صاحبك جوجو ، شقيق زوجى ... ولقد أخذ أبوهما أيونيسكو يهمل فى العناية بهاتين الضيعتين ، فعهد بهما إلى رجل يونانى، يدعى بلاتامونو ... وهو رجل نشيط كفاء يؤدى ما عليه بانتظام، ولكنه يغمركثير تحت سمعك وبصرك .. والرجل هذا كله ، أو ربما بسبب هذا كله ، لا يحظى بحب الناس له ، ولكنه لا يأبه لهذا ، فحسبه أن يزداد هو ثراء .. وبعد ذلك تأتى ضيعة فايدى ، على مسافة من ايسيزى ، بين آمارا ووادى سبنى ، وهى تبلغ نحو ألفين من البوجونات .. وهذه الضيعة ملك مصرف فى بوخارست ، ولكن جاء ملتزم من مولداڤيا، فأخذ يستغلها منذ بضع سنوات . ذلك هو كوزما بيريونا .. وهو رجل لا غبار عليه ، والله وحده يعلم كيف أتى إلى هذه الأنحاء — إنه ليسمى

ويكدهح — وإنه دائماً لنى شغل ؛ ولكن هذا كله بغير ما نتيجة ، فهو ما من مرة
يضاطر فيها إلى أداء قسط الإيجار إلا ويجد نفسه فى ورطة . . . على أن أبى يحبه ،
وهو يبالغ فى التنازع عليه ، ولكنه لا يفعل ذلك بطبيعة الحال إلا لأنه يضر دائماً . .
أما ما بقى من أرض بين النهرين ، فهى ملكنا ، أعنى باستثناء رقعة تبلغ نحو أربعمائة
بوجون ، توجد حول قرية ايزفورو حيث يلتقى النهران . . فهذه الرقعة تنتمى
إلى ضيعة غيكا . . نعم ، لقد اختلطت الأمور بحيث بدأنا نطلق على كل جزء اسم
أقرب قرية إليه ، مثل ضيعة آمارا ، أو روجينوزا ، أو ضيعة بيرلوجو وهكذا . .
أنا على أية حال سأفصل الأمر لك حين نبلغ ليسيزى ؛ وهى تقع وراء الربوة ،
حيث يمتد البصر من هناك إلى ايزفورو ، بل أحياناً إلى ولاية تيولورمان ، وهى
تبعد بضعة أميال عن ايزفورو . . . هيا يا إخيم ، ونفض إلى جليجانو ، ثم نتوقف
برهة فى ليسيزى .

ولكن ، قبل أن يشرعوا فى المسير ، صاح جرججور : قف ، قف لحظة . . .
لنقتنم هذه الفرصة فنتعرف على جيراننا على الجانب الآخر . . فأنت ربما تعتقد
بهم أثناء الفترة التى تقضيها معنا ؛ وينبغى ، على الأقل ، أن تعرف من أين وفدوا . .
أتراى قد حدثتلك عن المقدم ستيفانسكر ؟ حسناً ، لنفض فى الطريق إلى اليمين . .
فى قرية جوجانى هذه لا يوجد أحد ذو شأن ، أما القرية الثانية هوميلى ففيها الجنرال
داردالات ، وهو يملك ضيعة صغيرة ، يعنى بها كل العناية ، وله فيها بيت جميل
المنظر . . وإلى جانب هذه القرية ، على الطريق ، ترى على هذه الربوة كفراً صغيراً
به ضيعة جويبا ، وهى كذلك لا تزيد على بضعة مئات من البوجونات ؛ وهذه الضيعة
يملكها أبونيتا وونتومبان ، وهو صديق حميم لوالدى ، وشريف بكل ما تحمل
الكلمة من معنى ، وهو يعمل بمجد ، ولا يفارق أرضه أبداً . . والرجل ابنة تزوجت
من قاض فى روزيورى . . . وأما فى أوروديلو ، وهى فى بطن الوادى تجاه ايزفورو ،
على هذا الجانب من النهر ، فتوجد ضيعة بيرتيكارى ، وبها قصر وأراض
جديرة بالزيارة ، وربما ذهبنا هناك لترى هذا بنفسك ؛ إن تهباً لنا الوقت . .
والضيعة بطبيعة الحال يستأجرها ملتزم ، وأما البيت وما حوله من أرض فقد
احتفظ به المالك ، وهو كثيراً ما يأتى إلى هناك ترويحاً عن نفسه .

وأما ضيعة أسرة ماتي غيكا فتمتد من ايزفورو حتى ولاية تيلورمان ؛ والضيعة تحت نظارة رجل استطاع في مدى أربعة أعوام أن يحرز لنفسه ضيعة قرب بوغارست ، وأما هنا فالظاهر أنه لا يقدر على شيء غير أن يسبب خسارة للمالك الأرض ... وتوجد في ايزفورو كذلك ضيعة مريحة لطيفة يأتي أصحابها هنا كلما أشرف الربيع ، ويعيرون حتى أخريات الخريف . وأما نحن فلا تربطنا بهؤلاء علاقة ، ولست أعرف سبباً لذلك ، إنما كان هذا حالنا دائماً .. هذا كل ما في الأمر - هيا لمخيم ..

وشعر جريجور براحة وهو ينطلق في الحديث ، وأحسن بهجة رقت من صوته .. أما تيتو هيرديليا فقد جمل بنظر ، ويستمع ، ولا يقول شيئاً .

وانطلقت العربة مرة أخرى ، وأخذت الخيل تهادى أكثر تودة عن ذى قبل .. وكان الطريق في هذا المكان ينحدر ملتوياً كالثعبان ، فالأرض هنا تميل ميلاً شديداً ، شأنها شأن صخرة حطبا السيل من عل .

قال أبوجا وقد لحظ دهشة صاحبه إذ لم ير علامة تدل على وجود ماء في أى مكان : « هذا هو شأن أنهارنا ... في مقدورك أن تعبرها ماشياً طوال العام ، بل إنها قد تجف تماماً ، أما حين تفيض ، وهو ما يحدث أحياناً في الربيع ، فالجياه تملو حتى شاطئ النهر ، فيصبح كنهر الدانوب نفسه .. ولكن هذا لا يحدث في كثير من الأحوال .. وهذا هو السبب الذى يجعلنا في غير حاجة ولو إلى قنطرة يعبر عليها الناس . أما على الطريق الرئيسى ، عند أيونيسى ، فقد أنشأ القوم قنطرة لاستخدامها عند الحاجة ؛ ولكن القنطرة انهارت منذ سنتين ، ولم يشأ أحد أن يصلحها ، وأخذ كل إنسان يعبر النهر كما نعبه هنا على الأقدام .. ولكن التيار في وادى سبى أشد خطورة ، وهو يسبب أضراراً كل عام تقريباً ، ولا يجف أبداً ! »

واخترقا الوادى .. واستقام الطريق أمامهما ... ولم تمض دقائق حتى ولجا باباروجا ، وهى قرية بائسة يتخربها شارعان يلتقيان عند أحد طرفيها ، وكان بها عدة أكواخ قدرة ، وأطفال لا حصر لعددهم ، وحيوانات في ساحات البيوت

الخلفية ، وبين الحين والحين ترى العين فلاحا مسكنا قيتا ؛ وهناك على مرتفع صغير على مشارف القرية ، قامت كنيسة من الخشب كأنها دمية مكسورة .. وفقر تيتو هيرديليا فه لي طرح سؤالا ؛ ولكن أيوجا توقع السؤال فقال : « لقد نشأت الأكواخ أول ما نشأت على يد الفلاحين الذين كانوا يعملون في الضيعة ، وبعدئذ نمت القرية وكبرت ، دون أن يكون لأحد يد في ذلك ؛ وهذا هو السبب الذي يجعل القرية تبدو كما تبدو الآن . »

فلما خلفا بآباروجا وراءهما ، واصل أيوجا الحديث : « أترك لحظت مفترق الطرق في وسط القرية ؛ إن الطريق على اليسار يفضي إلى أيونيستي ، ومنها إلى كوستستي ؛ أما الذي على اليمين فيخترق ضيعة نادينا ، ويتجه إلى قرية بيرلوجو ؛ وبيرلوجو تنتمي إلينا ، اللهم إلا مباني الدائرة ، كما يسميها الفلاحون ، وهي مبان توجد عند مشارف القرية ، وتستخدم الآن صوامع للتخزين ... أما الملتزم فيقطعن جليجانو ؛ وكانت زوجتي ، في المناسبات القليلة التي حضرت فيها إلى هنا قبل زواجنا ، تمكث في بيت ليسيزي ، مقر أخيها ، وهي قرية أكثر احتراماً من هذه على أية حال . »

وأخذت الخيل ، مدى ربع ساعة بعد ذلك ، تحب المسير بين ضيعة فلادوتا على اليسار ، وضيعة بآباروجا على اليمين ... وكان الطريق مملا ... عبارة عن أرض موحشة منبسطة لا تشقها إلا خطوط سنابل القمح القصيرة الخضراء ، كأنها دنار من الشعر على جسد قد تجمد من البرد .

« انظر ، هنا يسكن بلاتامونو ، إنه يستأجر ضيعة نادينا ، وضيعة جوجو ، قالها جريجور عندما بلغا قرية جليجانو ، وهو يشير إلى فناء عظيم على اليسار ، قد أحيط به سياج ... وكان في قلب الفناء مبان بيضاء ، عروشها حراء تلحظها العين من خلل أوراق الأشجار التي التفت بها . »

وخرج عليهم من فرجة البوابة في تلك اللحظة رجل نحيل ، بوجه انفتح الشمس ، وكان خفيفا نشطا ... وكان يلبس قبة عتيقة ، وسترة قصيرة من الجلد ، أما حذاءه الطويل فكان من جلد ناعم حول السكاكين ... وتوقف الرجل عند

الطيرة أمام داره ، عندما تاهت إليه أجراس الخيل في عربة آمارا ، ثم ألقى
لقيمهم تحية حسنة مفعمة بالاحترام ، قال : « أهلا وسهلا يا سيد جريجور ، حمد الله
على السلامة ! »

ورفع أيوجا قبعته ، ورد على التحية في برود شديد .
« أهو الملتزم ؟ .. » همس بها تيتو وهو يرنو إلى الرجل الذي وقف عند القنطرة .

وأوما جريجور بالإيجاب ، فلما ابتعدا عن المكان قليلا ، غنم قائلا : « أنا
لا أميل إلى هذا الرجل ، رغم أنه لم يؤذني في شيء .. » ثم استعاد صوته الطبيعي
وقال : « هنا مفترق طريق آخر .. ونحن الآن قد اخترقنا القرية .. ولو مضينا
قدما لبلغنا ضيعة شقيق زوجي ، جوجو أيونيسكو .. أما بعد هذا ، فأنت
تعب وادى سيني ، ثم نصل إلى جليجانو العليا ، وبعدئذ إلى قرية روشيو ، وهي
على طريق بيتستى فييرينتي ، حيث يملك الوالي الحال ، بوريسكو . ضيعة
جميلة .. أما الطريق على اليسار فيبدأ من سيربانيستي ، وضيعة جوجو تمتد
خلاله ؛ ولكننا سوف نتجه إلى اليمين ، ناحية ليسبيزي وآمارا .. وأرض
نادينا تلامس هذا الطريق الذي نسير عليه الآن ، وأما على اليسار فتمتد
أرض جوجو .. »

وتوقف الجوزي ، صادعا للأمر الذي وجه إليه ، في منتصف الطريق بين
جليجانو وليسبيزي .. وكانت الأرض هنا تمحدر انحداراً طفيفاً حتى ملتقى
الوديان .. وكان الجو صحواً في هذه اللحظة فأتيح لهما أن يشهدا المنظر على
نحو أفضل .

وواصل جريجور الحديث قال : « والآن دعني أرك ما تبقى .. على شمالك
تستطيع أن ترى وادي سيني .. أما على اليمين ، في اتجاه ليسبيزي ، فهناك تنتهي
ضيعة جوجو وتبدأ أراضى فايدى .. وفي وسعك أن ترى فيما وراء ليسبيزي
الطريق المؤدى إلى آمارا وسوف نصل إلى هناك بعد قليل — وهي قرية أكبر
من السابقة وأجمل منها منظرآ .. وهذا الطريق ، الذي يمتد حتى وادي سيني ،
يشكل حدود ضيعة فايدى .. وكل شيء على جانبه اليمين ينتمي إلينا ، حتى يبلغ

الوادي المجاور ، وادي تيلورمان الذي شهدناه من قبل . . أما عن يميننا ، قرب هذا الحشد الصغير من الأكواخ ، فتوجد بيرلوجو . . وإلى هذه النقطة — أقصد الطريق بين ليسيزي وبيرلوجو — تجرى أرض نادينا متخذة وادي تيلورمان حداً لها على الجانب الآخر . . والطريق ، كما رأيت أثناء مسيرنا إلى هنا ، يكاد يلف حول ضيعة زوجتي . . وفيما بين بيرلوجو وآمارا ، على امتداد الوادي هناك قرية أخرى ، اسمها روجينوزا ، تقع في وسط أرضنا تماماً .

هذه القرية هي موطن المباني الخارجية حيث نخزن آلاتنا وأدواتنا الغالية . . . وتستطيع أن ترى على امتداد الأفق قرية ايزفورو . . وهذه الرقعة الحمراء هناك هي سقف قصر غيكوليتسى . . أما الغابة التي تقع على شمال ايزفورو فهي ملكنا — ويوجد بها نحو ثلاثمائة بوجون ، هي كل ما استطعنا أن نقتنه . . . وكانت آمارا منذ مائة عام تقع على حافة الغابة التي كانت تغطي هذه المنطقة كلها . . . ثم انظر هناك إلى اليسار ، في وادي سيني ، فإنك ترى هناك قرية فايدى . . والطريق هناك — أعنى هذا الطريق الذي يبدو كالشريط الأبيض — يمتد حتى موزاسيني . وأنت ترى بوضوح على مدى غير بعيد ، عبر النهر أيضاً ، قرية كانتا كوزا . . . وهي ضيعة تضم أكثر من ثلاثة آلاف من البوجونات . . ويقال إنها كانت في حوزة آل كانتا كوزينو ، ولكنها اليوم في يد ضابط من بينستى اسمه لكي جرادينارو . . والحق أنك أبنا سرت لا ترى إلا ضياع الاشراف في هذه الأنحاء ، هناك بوتنا ، وبعدها نجراسي ، وزيدوريلي ، ودامبرافيني .

ولما بلغنا ليسيزي أطلع جريجور هيرديليا على بيت جوجو ، وهو بيت كان يبدو حسن النظام ، لأن جوجو كان يؤمه من وقت إلى آخر — بدافع من زوجه التي كانت مولعة بحياة الريف ، أو على الأقل بوصفها تغييراً من حياة الحفلات التي يقضيها في بوغارست .

ووصلنا أخيراً إلى آمارا . . . كانت قرية أكبر من القرى الأخرى ، ولكن غلب عليها نفس الفقر ، وكانت بها نفس الأكواخ التي غطيت سقوفها بالقش ، ونفس الساحات التي تتخلل فيها الأعشاب . . واسترعى جريجور ، والزهو يملؤه ، انتباهه بفتح الكنيسة المشيدة من الحجر ، ببرجها اللامع الذي أقامه جده

في سالف الزمان .. ثم أشار بعد ذلك إلى المدرسة الجديدة التي بناها أبوه ..
وعند حارة صغيرة أشار إلى دوار ينتمى إلى ضيعة فايدى ، وكان قبل أن تفتت
الضيعة مقرا للخدم ، أما الآن فإن الملتزم كوزما ييريونا يتخذها مسكنا له .

قف يا إخيـم ... سنتلى هنا حتى يتسنى لهذا السيد أن يرى كل شيء عندنا هنا !
قالها جريجور بقتة وهو يقفز من العربية وتبعه تيتو .. وقال جريجور مخاطبا
الحوذى : « امض أنت ،

كان على اليمين سياج من الخشب ، اتخذ له دعائم من الطوب المربع الشكل هنا
وهناك ، وهو سياج منزل أبوجا نفسه .. وقام وراءه صف من أشجار الجوز
انتصبت على استعداد كأنها فرقة من الجنود .. وكان في وسع العين أن ترى ، من
خلل البوابة المفتوحة مساكن الخفر وعمال المزرعة والخدم ، هذا علاوة على
الإسطبلات والزرائب والصوامع ... وكان المدخل الرئيسى على مدى مائة
خطوة ، عاليا عريضا ، به ثلاث قباب من الطوب تلاتت في أعلاها لتشكل
بنية حمام .

قال جريجور فى أسى ، وهو يدخل وتيتو : « سوف ترى الآن أفاعيل الهوى !

ففى نهاية ممشى أشجار الشربين الوليدة ظهرت الفيلا الجديدة كأنها ابتسامة
امرأة حسناء ... وكان تيتو يعلم أن جريجور قد بناها حبا فى نادينا .. وكانت
فيلا بيضاء ، ذات شرفة بهيجة كبيرة ، وشبابيك واسعة ، وأربعة أبراج صغيرة ،
على شكل السهام كأنما قد نصبت دفاعا عنها .. وكان اللباب ينساب متسلقا
فوقها ، بل تراه فى بعض الأماكن قد بلغ الشبابيك القاعة فى الطابق العلوى ..
وكان الممشى يزداد اتساعا حتى التقى بحوض أزهار على شكل القلب ، قد توهج
بورود حمراء أمام الدار .

« لابد أن تتناسى هذا الوم الذى طاف بالفؤاد مرة ! ، قالها صاحب البيت عندما
لاحظ تيتو يتطلع إلى حوض الزهر ، كان عاطرا بم نفـس محب مسكين ، وأنت
تعرف أذواق المحبين ! .. أنا لم أبق على هذا الحوض ، وأهمـم به إلا لأتقـع بأننى
مازلت قادرا على الحب !

وضحك ضحكة جافة، ثم واصل الحديث بلمحة أخرى، قال : « لو أردت حقيقة أن تتلمس طريقك في هذا المكان ، فأنا أرى أن تعالوف حوله حتى ترى كل شيء .. أرجو ألا أكون قد أثقلت عليك بهذه البيانات الكثيرة .. هذه هي المرة الأولى والأخيرة .

وقام البيت الجديد في ساحة رحبية كانت محل عناية جريمحور نفسه ، فكان هو الذي استحضر أشجار الشربين ، وهي أشجار في الواقع لم تألف التربة في هذه الأرض المنبسطة . . . وكانت الممرات التي فرشت حصي ورملًا ناعما تلتنى وتميل بين الخنازل وأحواض الزهور والأدغال ذات الشجيرات الخاصة والمروج التي تشذب كل أسبوع . . . وكان السياج الذي أحاط بهذه الساحة تدعمه شبكة من الأسلاك تقف حائلا بين الدجاج الوافد من الفناء المجاور . وكان النيام وحده هو الذي تمكن من الطيران بحرية فوق الممرات وأمام الفيلا ؛ ولكن هذه الطيور نفسها كانت أشد فرعا هنا عنها بين الحيوانات في المزرعة .

واتجه أيوجا وهيرديليا صوب النخيل . . كان بيت الأسرة القديم قائما خلف الفيلا بنحو مائة ياردة . . وكان عبارة عن دوار ضخم عتيق منخفض ، كأنما امتد أساسه فتشعبت جذوره في الأرض . . وكانت له شرفة ذات أعمدة تزين واجهته كأنها رواق أثرى . . واستمر أيوجا الأب يسكن هذا البيت ، فقدوله هو فيه ، ثم إنه يعيش معظم أيامه في القرية ، ولهذا بدأ البيت القديم في نظره أكثر حياة من البيت الجديد .

« هذه هي مملكتنا ! ، قالها أيوجا عندما بلغا واجهة الفيلا مرة أخرى ، وهنا كان صبي الحوذى ينتظر ليدل على أنه قد أفرغ كل شيء من العربة .

وكان ثمة سؤال ظل يحترق على شفتي تيتو هيرديليا ولكنه تردد طويلا في أن يعرضه على صاحبه . . أما الآن ، عندما بدا أن جريمحور قد أوشك على إفراغ ما في جعبته من كلام ، فقد بلغت به الرغبة قصارى قصارها ، فقال لجأه ، وهو يرمقه بنظرة ناقبة : « لقد حدثتني طويلا عن ضياع الإشراف ، وكلها ضياع عظيمة رائحة . ولكن أين الأرض التي يملكها الشعب ؟ ،

وبغت أيوجا . . . فهو ما كان يتوقع أن ينزل عليه هذا السؤال في هذه

اللحظة ، رغم أنه وهو يتحدث أثناء الرحلة ، قد خطر له عدة مرات أن يتبر
ربما يطرحه عليه ، بل إنه دهش عندما رأى ضيفه لا يفعل . . على أنه استعاد
رباطة جأشه ، وأجاب : « لقد قلنا : « الأرض التي يملكها الشعب ، - هذه
هى مشكلة الفلاح . . الأرض ! ! . إن الشعب لا يملك منها إلا القليل ، وما كان
يملكه منها قد زال وتلاشى ولكن تلك لعمري قصة أخرى ! »

ولم يفهم هيرذيليا شيئا . ولكنه لم يشأ أن يلح في الأمر ، ذلك أنه أحس
أنه نكأ جرحا قد طال عليه العهد .

- ٢ -

« مرحبا أيها الشاب ، أهلا بك وسهلا ! » قالها ميرون أيوخا مقاطعا جريجور
وهو يقدم إليه صديقه ؛ ومن ثم وأد التحية التقليدية التي أعدها يتو وهو في القطار .
كان الشيخ في جلباب طويل كالقفطان التركي ، وصافح الزائر الشاب بحرارة ،
كأنما يسبر غوره في لحظته تلك ، بل ولا بد الآبدن . . وكانت عيناه سوداوين
نافذتين ، تنصان في أعماق نفس الإنسان ، وتقرأ ما يجرى في ضميره من أفكار . .
وكان أيوخا الشيخ أطول قامة من ابنه ، وأكثر منه وسامة ، له نظرة رجل
تعود أن يلقي الأمر فيطاع . . وكان يزين وجهه شارب كثيف على طراز أهل
رومانيا ، قد وخطه المشيب الساعة . . وكان يتمتع بصوت رنان قاطع ، ولكن
به دفء يجذب إليه السامعين . . وكانت يداه قويتين ، بارزتي العظم ، توحيان
بأنهما قادرتان على إدارة محراث ، رغم ما اتسمت به من حساسية ، وما فيها من
أصابع رقيقة رقة خاصة .

وأوما لضيغه أن يتخذ له كرسيًا على مقربة منه ، ثم نظر إلى ولده مستفسرا .
كان جريجور يعلم أن والده يتلف على سماع ما اتخذه من تدابير في بوخارست ؛
فقص عليه ما صادفه من متاعب ، وكيف أتبع له أن يعود وجيئه أكثر امتلاء
مما كان يرجو ويتوقع ، بفضل دوميسكو الذي قدم له عونًا خارقا للألوف .

وغنم الشيخ مقتبعا : « دوميسكو مرة أخرى ! ! . دائما نرى الاصدقاء
القدامى هم الذين يهبون لنجدة المرء وقت الحاجة . . ولكلك أحسنت صنعا إذ
لم تقض على الأرمني ، لقد أصبت حقًا ! »

واستمر يتفحص جريجور برهة ، ثم التفت إلى تيتو الذى تأثر تأثرا بالغا بمظهر الشيخ — وبترحيبه به .. وسأله ميرون أيوجا عن والده وأسرته ومق ولماذا ترك ترانسلفانيا .. ولما سمع الأب أن الشاب يعمل شاعرا ، وأنه يود أن يشتغل بالصحافة ، نددت عنه إعانة نمت عن احتقار .. ولحظها تيتو وجريجور معا ، فأخذا بها .. وأراد تيتو أن يستميل الشيخ إليه ، فأخذ يتحدث عن أهل هنغاريا ، وعن الاضطهادات التى يعانىها الرومانيون ، وعن غير هذا وذلك من موضوعات كان على يقين من أنها تمس من الشيخ وترا حساسا .. وأصاخ الرجل سمعه بانتباه ، ثم قال أخيرا : « نعم ، الشعب يجتاز وقتا عصيبا مع من ييدهم مقاليد الأمور ، ولهذا السبب عينه يجب على الزعماء ألا يتخلوا عن الشعب ويهجروه .. أنا أحب أهل ترانسلفانيا الذين يفدون إلينا ، هذا حق لا شبهة فيه ، ولكن أفضل عليهم أولئك الذين يبقون هناك .. هؤلاء يواجهون المتاعب ، ويحبون على أنفسهم سهام الطغاة الباغين : الأمر الذى يقضى إلى حماية الشعب .. إن جمهرة الشعب لا تستطيع العيش دون زعماء ، وإلا نشأوا بلداء غاملين كالطفيليات فى دنيا النبات . وازراعى الذى يتخلى عن قطيعه هو أشد بلاء من الراعى الذى يقود القطيع إلى ضلال ، لأن القطيع الذى يترك شأنه يقبده هباء ، أما إن كان له راع ، صالحا كان أم طالحا ، فلن يقبده أبدا !! »

وارتبك جريجور ، وبخاصة عندما رأى أن وجه تيتو قد امتقع ، فقاطع أباه محتجا : « لا بأس فى هذا الكلام كله يا أبى ، ولكن الظاهر أنك تلومه لأنه يرغب فى الحرية رغبة دافقة دفعته إلى المجئ إلى هنا ، حيث متاح له فرصة أكبر لتنمية مواهبه على كل حال .. ولا تنس أن القدر قد قضى على رومانيا أن تنقسم شيئا وأحزابا ، يتحكم فيها الأجني ، ولهذا وجب عليها أن تسعى على الأقل للحفاظ على وحدتها الروحية ، وهو أمر لا يستطيع أن ينهض به إلا الشعراء والرجالون . »

قال الأب موافقا : « صدقت ! .. ولكن لو انتقل هؤلاء الشعراء والرجالون إلى بوخارست — إلى عالم الحرية — ماذا إذن يكون مصير الشعب الذى يخلفونه ظهريا ؟ .. إن الوحدة بطبيعة الحال أمر لازم ، ولكننا لا نريدها فقط وحدة

بين الشعراء ، وإنما يجب أن تكون وحدة بين أكثرية الناس .. بل إن الشعراء في الواقع يكتبون عن إيمان أشد وهم بين أهل بلدهم ، لأنهم هناك سيتحملون العبء ، أما هنا فالوطنية لا تخرج عن كونها مجرد مظهرية وكلام !!

وأصر جريجور وقد ازدادت لهجته حدة : « أنت على خطأ بين يا أقي .. فإن وحدة الروح نشأ أول ما نشأ عن طريق لغة واحدة مشتركة ، ولو بقي كتابنا يدفنون أنفسهم في ولاياتهم ، فلا مناص من أن تزداد الخلافات وتزداد المتناقضات في لغتنا ، فينتهي الأمر حتماً بالأخ يفهم الأخ أعاه !! »

ولم يتأثر الشيخ ، بل تابع التحديث بصوت هادي الثبرات : « لقد عشنا نحو ألف عام ، ومررنا بعبود ربما كانت أسوأ مما نمر به الآن ، ومع ذلك فقد احتفظنا بلغتنا نفسها — سواء هنا أم في ترانسلفانيا .. ثم إن آدابنا ، سواء أكانت حسنة أم سيئة ، فهي لا تزال تتخطى الحدود التي تفرق بيننا ، وليس من شك عندي في أنها ستستمر كذلك .. وأنا أعتقد أن الكتاب قد أدوا واجبهم ، كل حسب تخصصه ، وكل وفق قدراته .. وأنا لا أقبل الهروب من الميدان ، في أي صورة من صوره ، أو لأى سبب كائن ما كان .. فإننا في الغد ، أو عندما تدق الساعة ونسترجع ترانسلفانيا ، في حاجة إلى القادة والزعماء الأكفاء هناك .. الزعماء الذين انبثقوا من صفوف الشعب ، والذين يستطيعون أن يعكفوا على إدارة شؤون البلد .. »

واستمر الجدل دون أن يتنازل أى منهما عن رأيه .. وكان هيرديليا يستمع لهما وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة بلهاء ، ولكنه كان في صميم نفسه يستحسن ما يقولان ، بل هو يتفق في الرأي معهما معاً ، سواء بسواء .. وأحس تيتو براحة بالغة حين أعلن الخادم عن مجيء الملتزم الذي يشرف على ضيعة فايدى وكان ميرون قد أرسل يستدعيه .

كان كوزما بيرونا رجلاً في الخامسة والثلاثين .. وكان له سبعة أطفال ، وزوجة حسناء كانت على استعداد لأن تنجب له المزيد من الأطفال .. ولقد عمل الرجل مشرفاً في عدة ضياع في ولاية تيلورمان ، إلى أن رضى الله عنه ،

منذ أربعة أعوام . فأتاح له أن يستأجر ضيعة فايدى من النيك الزراعى بسعر معقول بالنسبة لهذه المنطقة .. ولقد حدث قبل سنوات عديدة مضت . بينما هو يعمل فى مزرعة ستانيسكو . أن ضربه الناس ضربا مبرحا . بدعوى أنه قد غشهم فى جباية العشور .. وهو منذ ذلك الحين يخاف الفلاحين . ويرتعد فرقا منهم .

قال الرجل بمجرد أن اتخذ مجلسه ، وقد ارتسم على وجهه تعبير نم عن مرارة : « ألم أقل لك هذا دائما ياسيد ميرون ؟ .. أم أنت لم تسمع بما حدث لى ؟ .. لا أظن أنك سمعت به ، لأنى أنا نفسى لم أكتشفه إلا منذ قليل ... لقد نهبوا ياسيد ميرون ... لقد سرقوا على الأقل نصف حوالة عربية من الذرة بالأس ، من المخزن الجديد !! .. إن الحفتر لا يعرفون شيئا ، ولم يروا شيئا ، وكذلك شأن العمال ؛ مامن أحد يعلم كيف حدثت السرقة ، أو من اقترفها ... وليس من شك فى أن عصاة منهم هى التى أخذت تدخل وتخرج طوال الليل .. وأنا فى الأسبوع الماضى فقط أخذت هذه الذرة جباية للعشور ، أخذتها بالعدل والقسطاس — وأنت تعرفنى ياسيدى ، أليس كذلك ! .. وها أنت ترى ما قسم لى من حظ !! »

وامتلأت نفس ميرون أيوجا هما وغما عندما سمع شكوى الملتزم — على تقيض جريمحور الذى ظهرت على وجهه مسحة من السخريه .. كان الأب يشاطر بيرونا شعوره ، بسبب ما حاق به من خسارة فادحة ، بيد أن الحدث فى حد ذاته جعله يفكر تفكيراً عميقاً ..

لأنه لندبر سوء أن يأتى الفلاحون فيسرقون جماعة هذا المقدار الكبير من الغلة — حتى ولو لم يبلغ القدر الذى ذكره بيرونا ... أما أن يأتى واحد منهم فقط فيسرق وحده — وسواء هرب بالغبطة أم لم يهرب — فهذا ليس بالأمر الهام ؛ لأنه حالة وردية ... أما أن يتجمع الناس فيسرقون زراعات فهذا دليل على تغير خطير ...

قال ميرون يخاطب ابنه : « أرأيت لى النتائج التى ترتبت على هذه الاجتماعات الليلية فى الشتاء ، تلك الاجتماعات التى أخذت تشجع الفلاحين عليها ، وتدفعهم

إليها ؟ .. طالما أن الفلاح يدرك ألا حيلة له غير الاتفاق مع مالك الأرض حتى يتمكن كلاهما من العيش ، فإن الأمور كلها كانت تجري على مايرام ... ولكلك منذ أخذت تحدّثهم هذا الحديث الفارغ ، بدأت هذه السرقات تقع .. ثم لانس أن هذه ليست إلا البداية ... لاشك ستتلوها حوادث أخرى ، ربما كانت أسوأ من هذه وأخطر !

فرد جريجور بلهجة تشوبها سخرية : « لا تفعل ياوالدى ! فالغلاخون قد ألغوا السرقة من قبل ، كما أنهم سرقوا قوما آخرين غير صديقنا الملتزم .. إن السرقة متفشية منذ بدأت الخليفة ؟ ولست أدري لماذا تستخلصون نتائج مروعة من هذا الحدث العادى ؟ »

ولم يمن الأب بالرد عليه .. لقد كان يعلم طبع جريجور جيدا ، فالفنى لا يصعب عليه أن يلتبس عذرا أو تأويلا لكل أمر ... واستغرق فى تفكير عميق بضع لحظات ، وإذا به يصل إلى قرار لا رجعة فيه ، قال : « أرسل فى طلب العدة والرقيب ... إن من واجبهما أن يعثرا على اللصوص فوراً ، أينما كانوا !! أما السرقات فسننظر فى أمرها بعد ذلك ... وأنا أرى أن توقع غرامة على الحفراء عندك — لا بد أن يضربوا بالسياط أولا حتى يعترفوا على المجرمين .. نعم ، نعم ، أنا على يقين من أنهم يعرفون المجرمين — هذا إذا لم يكونوا هم أنفسهم شركاء فى الجريمة !! »

واستعاذ الملتزم من الشيطان ، وقد استبد به الملح : « لاحول ولا قوة إلا بالله ... أتريدكم ياسيد ميرون أن يشعلوا التيران فى كل شيء ، وأن يخرجوا بيتي تماما ؟ .. لقد رأيت ما حل بى ، أنا الذى أعاملهم معاملة رفيقة رقيقة كما أعالج جرحا مؤلما حساسا ... تصور ما يمكن أن يصيبني لو عاملتهم معاملة فظة — حاشا لله !! . أنا ماجئت إلا لأقصد عليك ما حل بى ، كأنما أنا ذاهب إلى والد رحيم يعيننى على أمرى ويرعاني ، ولكن ... »

ودمدم الشيخ وهو يقاطعه : « سأتولى الأمر بنفسي !! فأنا أعتبره من الاهمية بمكان . »

ولزم الاثنان الآخران الصمت؛ ولم يشأ جريجور أن يتدخل، وأبوه على ما هو عليه من عزم وتصميم؛ أما تيتوفلم بلىق بالآلى القماش، فقد كان لا يزال مرتبكاً إثر المحنة التى مر بها منذ قليل .

وكان ميرون أبوجا فى واقع الأمر قد استدعى بيرونا من أجل مسألة أخرى، ولكنه الآن لم يعد يهتم إلا بموضوع السرقة . . . وسادت فترة من الصمت، استأنف بعدها الكلام، كأنما يحدث نفسه غير ناظر إلى أحد : « على أية حال ليست هذه هى المرة الأولى التى يسرق فيها الناس كما يسرق الفجر . . . فى الحُريف الماضى فقط حدثت خمس حوادث، منها سرقتان عندنا . . . أشياء بسيطة . ولكن لها دلالتها . . . »

ولزم الصمت مرة أخرى، يقلب الأمر فى ذهنه، وأخيرا صرح بعزمه، كأنما قد عثر على الجواب الصحيح، قال : « يجب أن نقتلع الشر من جذوره . . . ونحن لو جعلنا منهم أمثلة الآن، وفى الوقت المناسب، لكان هذا أجدى من القمع العنيف فيما بعد . أعنى حين ينتشر الوباء ويزداد خطوره . . . »

وحاول كوزما بيرونا أن يهون من الأمر، فقد أفزعاه الاتجاه الذى سار فيه الموضوع، إذ ما كان فى نيته غير أن يفصح للشرىف عن الضرر الذى نزل به، قال : « لقد تغيرت نفسية الفلاحين كثيرا ! ياسيد ميرون ! . . لقد هبوا من رقادم، وإنهم خيلاء جدا . . . والواقع أن كل إنسان قد فتحت عيناه هذه الأيام، وهذا هو السبب الذى يجعل الأمور تسير من سىء إلى أسوأ . . . والفلاح إذا ما هب من غفوته يطالب بالأرض، ويمضى يردد هذا الطلب طوال الوقت؛ ولا يعنيه إن كان من الميسور أن يحصل عليها أولا يحصل، إنما هو يلح ويلح . . . »

وظن تيتوفلم، بعد أن استكانت الزوبعة قليلا، أن الوقت قد حان ليبدى ملحوظة هادئة . قال : « هذا هو طبع الفلاح حيثما كان . . . وهكذا الحال أيضا فى ترانسلفانيا، فإنك لا ترى الفلاح قائما أبدا . . . ولست أرى بأسا فى ذلك، إذ طالما كان الفلاح محبا للأرض، كلفها بها، فلن يتمكن أحد من انتزاعها من بين يديه . . . »

فلما قال هذا رشقه الشيخ بنظرة طويلة هازئة جعلت تبتو يمك عن الكلام ويغض بطرفه مرتبكا ، عاجزا عن أن يدرك علة هذا الغضب الشديد .. أما الملتزم فقد حاول أن يهدى من روع الشريف ، فقال مستعلفا : « ولكن الأمور تخطف في بلدكم ياسيد ... » وكان على غير بينة من اسم تبتو ، فهمم بصوت ما بدله ، ثم قال : « هناك لابد أن تؤخذ الأرض غالبا من الاجنبى الدخيل الذى اغتصبها منكم مدى قرون من الزمان ... أما هنا فالأرض قد تملكها الاشراف أجيالا وأجيالا ، لحافظوا عليها ، ودافعوا عنها ضد كل باغ يتهددها .. »

قال جريجور جازما : « كن على ثقة من أن ما حدث هناك لابد واقع هنا قبل معنى زمن طويل ... انظر إلى الوضع الراهن للامور .. إن أكثر من نصف أراضي الاشراف فى حوزة الاجانب ، وهؤلاء يتصفون بكل شيء إلا بحبهم للأرض .. والله وحده يعلم ماذا سوف يحدث مستقبلا ... ولكنى ما زلت أعتقد أن من الخير لهذا البلد أن تكون المزارع والضياع ملك يمين الفلاحين ، عندئذ سيكون أشق على الاجانب الدخلاء أن يسلبوا الأرض منهم من ان ينتزعوها منا - والكثرة على أية حال تغلب الشجاعة ، إن لم يكن قوة سبب آخر ! » :

وكانت نظرة من الأب لجريجور مثل نظره إلى تبتو ، ولكنه لم يشأ أن يبد عليه هو أيضا ... لقد وضع له أن ولده يقول كلاما فارغا ، وساء أن ابنه وهو الذكى الأريب ، عاجز عن أن يتبين هذا المراء بنفسه .

أما بيريونا فقد أحس أن كلمات جريجور كانت موجبة إليه أيضا - ولكنه أخفى حقيقته فى نبرة عذبة ، قال : « يا سيد جريجور يتسا ، الحق أنها لكبيرة أن تتحدث هكذا ! فإن أدمغة الناس قد غدت محشوة بتصورات تبهى لهم أنهم سادة على أرض الاشراف ، وسوف ترى أن هذا الامر واقع لا محالة ... ألم تلاحظ أنهم لا يكادون يسمعون أن ضيعة كبيرة تباع إلا ويرعون لشرائها ، وتقسيمها فيما بينهم ؟ ... وهنا بالذات - على سبيل المثال - وهذا أمر كنت على وشك أن أخبركم به .. تقول الإشاعات إن الفلاحين يرمعون شراء عربة السيدة نادينا .. »

ورفع أيوجا رأسه فجأة ، وقد غلبت عليه الدهشة ، صاح : « ماذا قلت ؟ ..
يشترونها ؟ .. أليس من اللازم أن تعرض العزبة للبيع أولا . ثم بعدئذ يتقدم
الناس للشراء ؟ » .

« يقول الناس إنها معروضة للبيع ! » ..

قال الأب مستهجنا : « أسمعنا بهذا يا جريجوريثا ؟ » .

فقال الابن ، وهو يهز كتفيه غير مبال : « نعم ، سمعت به » .

وواصل الملتزم الحديث متطعرا : « أحسب أن الذي أشاع الخبر هو
بلاتامونو ... فهو نفسه ، على قدر ما بلغتني ، يرغب في شراء الأرض ...
والفلاحون يرددون : « لماذا يشتري الأرض يوناني ، ولا نشترها نحن ؟ » .

وتساءل ميرون الأب ، في سخط وانفعال هذه المرة : « قل لي يا جريجوريثا
كيف بدأت هذه الشائعات ؟ .. إن الراغبين في الشراء سوف يتكاثرون حول
عزبة زوجك ، والظاهر أنك لاتعرف شيئا عن الموضوع ... لابد أن في الأمر
سرا ، لأن الناس يفقدون صوابهم هكذا ! » .

قال بيريونا : « صدقت يا سيدي ! .. فإن الناس يقولون إن السيدة نادينا
نفسها قد صرحت لليوناني أنها لاتنوي تأجير العزبة له بعد ذلك ، مهما عرض
من ثمن ، حتى ولو ضاعف الإيجار ... فهي ، فيما قالت ، قد عقدت العزم على
بيعها لتتخلص من المضايقات كلها ، من التزامات وإيجارات وفلاحين ... إلخ
هذا هو الموقف يا سيد ميرون ! » .

وتأثر ميرون أيوجا لهذا الخبر أشد مما تأثر بحادث السرقة . فألح على الملتزم
بمستزیده من المعلومات ، ولكن لم يكن في جعبة الرجل شيء آخر ... وعندئذ
أخذه الأب مرة أخرى إلى الصمت ، ولم يعد يقبض بيئت شفة ... وأعلن
الخادم أن المائدة قد أعدت ، فنهض بيريونا وقال مرتبكا : « أنت استديعتني
يا سيد ميرون لتأمرني بشيء ولكني جئت أحدثك عن متاعبي أنا ...
معذرة يا سيدي . »

وحاول الاب أن يتذكر لم استدعى الرجل ، ولكنه عجز عن التذكر ،
فأثار فيه هذا سخطا أقوى وأشد . . . والتس عبارة تناسب المقام ليتخلص
من الملتزم بلباقة ، ولكنه لم يستطع أن يتوصل إلى شيء . . . وأخيراً غنم ،
وقد بان عليه التعب ، دون أن ينظر إلى بيرونا : « رافقتك السلامة ، حسبك
ما جئتي به من أخبار سوء . »

— ٣ —

لم يتألك تيتو هيرديليا نفسه إلا بعد أن بلغ حجرته بعد العشاء . . . كان كل
شيء معدا له . . . وقاده جريجور إلى الغرفة ، وطلب إليه ألا يحمل كل أقوال أبيه
عمل الجدل ، لأن أباه كان شأنه هكذا دائما — غريب الأطوار في آرائه وسلوكه ،
ولكنه طيب القلب ، خالص النية . . . وكان أيوجا حريصا على ألا يعلق بنفس
تيتو تأثر من مسلك والده ، وإن كان هو نفسه قد تلمظ ناراً طوال العشاء ،
وغص بالطعام ، لأن الاب ازداد غلاظه ، وتجاهل تيتو تماما ، وقضى الوقت كله
بجدال ولده في صفائر وتفاهات .

وكانت غرفة هيرديليا في الطابق الأول من المبنى الجديد ، وكان لها شباك
يشرف على ساحة الدار القديمة ، وشباك آخر يطل على الحديقة . . وترك جريجور
ضييفه ، وعاد إلى أبيه في الدار القديمة حيث سبق أن تناولوا الطعام . . كان أيوجا
قد قضى حياته في هذه الدار ، وهو لا يأوى إلى الفيلا الجديدة إلا حين يستقبل
ضيوفاً له ، ثم لكيلا تبدو الفيلا مهجورة . . . ولقد أطلع جريجور صاحبه على
خدر نادينا الأنيق ، في الجناح الآخر ، حيث كانت صورتها تطل من عليها .

وشغل هيرديليا نفسه بالتمشي هنا وهناك ، يراوده الأمل في أن يرجع جريجور
على وجه السرعة فيتبادل معه بعض الحديث ، ولكنه عاد وتذكر أنه ألقى إليه
بتحية المساء ، ومن ثم أصبح هو طليقا في أن يفعل ما يشاء حتى صبيحة اليوم التالي
وكان قد مضى من الليل الكثير ، وكانت الزيران اللطيفة تشتعل في المدفأة ،
كأنما كانت تدعوه إلى النوم ، فبدأ له أن خير ما يفعل هو أن يلبى هذا النداء .

ونفض صباح غده مبكرا على غير عادته في بوخارست . . وكان القوم جميعا

قد نهضوا قبله بزمان طويل .. وصرف صباحه يطوف في أرجاء البيت القديم ،
لأن جريجور قد شغل عنه بتسوية بعض الحسابات مع ازباسيسكو ، وكان يمسك
دفاتر الفلاحين ، كما كان يقوم بهمام أخرى كثيرة من هذا القبيل .. وحادرت
في أمره ، فما كان يدرى ماذا يفعل بنفسه ، أو أين يولى وجهه .

وجاءه المشرف ، ليوتى بومبو ، وهو فلاح على شيء من دماء الخلق ،
فارع الطول ، نحيف القوام ، له ملاح عسكرية صارمة ؛ فطاف به برهة حول
المزرعة الكبيرة ، وأطلعته على الإسطبلات ، وعلى عزن مفلق تتخذ السيدة
نادينا جراجا لسيارتها ، حين تفد في زيارة .. وأدرك تيتو أن أمام الرجل عملا
يؤديه ، شأنه شأن غيره ممن يعملون في البيت القديم ، فرأى أن من الخير له أن
يمضى إلى القرية ، بدلا من وقوفه بالدار ، عقبة في الطريق .. ولكنه عاد وغير
رأيه بعد لحظة فقد أحسن أن هذا المسلك غير حميد إزاء مضيفه .

فلما جاءت ساعة الغداء ، استحث جريجور تيتو أن يطلق لنفسه الحرية في أن
يعمل ما يشاء ، أيا كان ، وأعرب له عن أسفه لأنه غرق في العمل إلى أذنيه ،
ولكنه وعد أن يكون تحت تصرفه كلية في الغد .

وبعد لآى ، وبينما تيتو يتمشى ، التقى بفتاة سوداء العنبن ، كانت لها بسمه
أزالت فوراً ما اعتراه من ملال .. كانت فتاة هيفاء حافية القدمين ؛ تعلو رأسها
غلالة جميلة زرقاء .

قال وهو يوقفها عن المسير : « أهلا . أهلا .. أهملين هنا ؟ »

فأجابت الفتاة : « لقد حضرت هنا منذ يومين فقط .. وجاءت في هنا خائلي
بروفيرا . وهى طباحة في منزل الشريف الكبير .. وهى قد طلبت إلى مرارا
أن أحضر هنا . وأعاونها في عملها .. لأنها لا تستطيع أن تتحمل البنات
الآخرى إطلاقاً » .

« وما اسمك يا فتاتي ؟ »

« ماريورا .. » ثم أضافت بعد قليل : « أمى هـ فلاد جرنجو أيرينا . أما
أبى فقد توفى قبل أربعة أعوام . أما خالتي بروفيرا فهى إحدى شقيقات أمى » .

فقال تيتو متلففا : « حسنا ياماريورا . أنت فتاة ظريفة . أخبريني بربك : هل عندكم معلم في القرية ؟ » .

« طبعا ياسيدى .. إنه رجل محترم جدا . وشاب صغير السن أيضا .. وهو من أهل القرية . ومتزوج .. ووالداه لا يزالان على قيد الحياة وهم جميعا يعيشون تحت سقف واحد .. » .

« هل بيته بعيد ؟ »

« لا . لا . لا عندما تصل إلى الطريق مل إلى اليسار . ثم سر إلى الأمام حتى ترى بيتا بناافته زهور . هذا هو بيته .. » .

قال متبسطا . وهو يخمشها في خدها : « شكرا لك ياماريورا .. أرجو أن أرقص في حفل عرسك قريبا .. » .

« سمع الله منك ياسيدى ! » قالتا برقة . وقد تضرجت وجنتاهما ..

ورق مزاج تيتو قليلا إثر هذا الحديث ، ومضى لطيفته في الطريق ، ثم مال إلى اليسار .. كان المطر قد هطل مدرارا الليلة الفائتة ، وجاء النهار بشمس مشرقة جففت سطح الأرض .. وعزم تيتو على أن يذهب لزيارة المعلم أولا ، فهذا أمر خليق به لأنه هو نفسه ابن معلم .. وكان البيت الثالث بعد دار أيوجا إلى اليسار مغطى بصفايح حراء من الحديد المطلي بالزنك ؛ وكان يحمل لافتة بين نوافذه دلت على أنه مركز الشرطة ... ووصل إلى مفترق طرق من شارع صغير يؤدي إلى فايدى حيث ، فيما أخبره جريجور من قبل ، قامت الدار التي يقطنها كوزما بيريونا .. وكانت هناك حانة على الناصية إلى اليمين ، وكانت عبارة عن مبنى له طنف عريضة ، وساحة في مواجهتها يجتمع فيها الناس .. وكان بابها مفتوحا . وقد وقف في فتيحة صاحب الحان ، وهو فلاح ربعة ، قد أمال قبعته إلى قفاه ، وأخذ في نقاش مع رجلين آخرين . وما كاد يرى تيتو حتى حياه باحترام . وعلى مدى إلى اليمين ، بعد الحان بعدة أكواخ ، قام ديوان القرية وكان به فناء كبير ، أما على اليسار فقد قامت المدرسة ، ثم الكنيسة على مدى قريب وتوقف تيتو أمام الكنيسة ، وتساءل أنراه ضل الطريق

إلى بيت المعلم . وأشار له طفل بأصبعه إلى البيت وقال : « قدام ، بعد قليل » .

ولم يكن بالبيت ما يميزه عن غيره من الدور ، اللهم إلا أن ساحته أنظف ، وأن في الشباك ، كما قيل له من قبل ، زهرات الجرانيم القرمزية الهيجة .. وفتح البوابة الصغيرة ، فهب عليه كلب أعرج ، واندفع نحوه يعوى في غضب ، كأنما عهده نيته على أن يقطعه لإرباً وخرجت من الشرفة التي طوقها نبات اللبلاب امرأة فلاحه نفضة ، فهبطت الدرج ، وطردت الكلب بعيداً . .

وتساءل تيتو على استحياء : « أهذا بيت المعلم ؟ »

« نعم ياسيدى ، تفضل بالدخول . . . لا تخش بأساً من هذا الكلب . . . فهو لا يعض . . وهو لا يفعل شيئاً غير هذا النباح ، نظير قيامنا بإطعامه . . ، ومضت هكذا في الحديث ، وقد لحظت الغريب يرمق الكلب بعطف من عينه . . أما الكلب فقد استمر يزجر ويعوى متطلماً إلى الرجل في رية . .

وظهر في الشرفة رجل يبلغ الثلاثين عاماً ، خداه غائران ، وعينه داكتان تشعان ناراً . . . وكان له شارب صغير أجعد ، وقد لبس سترة سوداء قصيرة ، ظهر من تحتها قميص موشى بالأزهار .

قال : أنا المعلم ياسيدى ! »

وقدم تيتو نفسه إليه بطريقة رسمية ، وأوضح له كيف جاء إلى آمارا . . ودخلا البيت سوياً ، ثم قدم إليه المعلم زوجته ، وكانت هي المرأة الفلاحية التي التقى بها تيتو ساعته وبدت المرأة ، في اضطرابها وخفتها ، أكثر جاذبية مما كانت . . على أن الأمر الذي حار فيه الشاب ، ابن ترانسلفانيا ، هو هذه الملابس الريفية ، فقد توقع أن يجد المعلم ، وهو الذى يمثل الفسك والثقافة في القرية — مرتدياً لباس أهل المدن ، حتى تنهياً له من مظهره الخارجى منزلة محترمة بين الناس .

« ربما صح هذا في موطنك ؛ فالطبقة الحاكمة هناك ترى أن يكون للمعلم بعض المكانة ، أما هنا وختم المعلم عبارته بإيماءة دلت على الازدراء .

وقدمت الزوجة إلى تيتو الطبق التقليدى من الدولكيثسا ، فتنم وقال :
« ما كان لى أن أسب لك هذه المشقة ، ولكنه مع ذلك تقبله بقدر كبير من المسرة .

وتخرج وجه المرأة ، واستأذنت فى الانصراف مرة أخرى .

وبعد أن تردد المعلم برهة . شعر أن من واجبه أن يخبر الضيف أن السادة
الأشراف فى هذه الدائرة لن ينظروا بعين الرضا إلى زيارته هذه ، سيما أوجا
الكبير ، فهو قد نهى المعلم عن الحضور إلى بيته ، منذ أن تجرأ فطلب تحسينا
طفيفا فى اتفاقيات العشور .

وازعج هيرديليا الشاب ، وساءل نفسه ، والمعلم بأخذ فى الكلام ، ألم يكن
من الخطأ أن يأتى هاهنا . لأن الرجل مخضوب عليه فى الدائرة ، عن حق أو غير-
حق لا يدري . . . على أن مخاوفه استكانت بعض الشيء عندما سمع أن أوجا
الكبير هو الذى ضاق بالمعلم ، والواقع أن مسلك ميرون حياله لم يكن بالمسلك
الحسن بحال .

واستطرد المعلم بحديثه . فى شيء من الانفعال ، قال : إن الفلاحين يريدون
الأرض ، لأنهم لا يستطيعون العيش على مايتلقونه من الأشراف . . . وحتى
لوصح اتفاقيات العشور التى عقدت بينهما كانت اتفاقيات عادلة ، فإن معناها
أن يضطر الفلاح إلى إعطاء نصف مايكسب إلى مالك الأرض ، أما لو عمل بنفس
القدر على أرضه هو ، لكانت حياته أحسن ضعفين ، وألحق أن ثلاثة أرباع
جهد الفلاحين إنما يذهب ثمنا للترف الذى ينعم به ملاك الأرض . . . نعم لقد
كان الرقيق فى الزمان الماضى أحسن حالا ، لأن الأشراف فى ذلك الحين كانوا
يوفرون لهم الطعام والسكن والرعاية لقاء عملهم ، أما الفلاحون هنا ، فإنهم
يكدحون أشق عما كان يكدح الرقيق ، ومع هذا فإنهم لا يكادون يحصلون على
ما يسد رمقهم ، ولهذا تراهم يستجدون ويستدينون من ساداتهم ، ملافاة
لشر المجاعة .

وكان حديث المعلم ، أيون دراجوس ، حديث خبير ، فهو نفسه يحيا حياة
الفلاحين . . وأصدقه وحدهما هى التى جعلت منه معلما . . وتفصيل ذلك أنه كان

تليذا مجدا . كلفا بالمعلم . فالتمس معلم القرية العجوز من ميرون أن يسدى له معروفا فيمد يد العون إلى الصبي حتى يحصل على منحة . وفعل الشريف ما طلب إليه وكان الشاب مفخرة له ، لأنه برهن على أنه طالب نابه ، فحصل على إجازة عليبة مع مرتبة الشرف .. وشاء القدر أن يطوى الردى المعلم الشيخ في نفس العام . فعاد ميرون أبوجا بدراجوس إلى القرية . وأقامه مرشدا للناس وهاديا . . أو هو هكذا قال إذ ذاك . وهذا ما كان يتوقع دراجوس نفسه أن يقوم به .

ولكن جاء حين من الدهر بعدئذ رأى الشريف فيه أنه أخطأ الحسبان إذ أسند هذا العمل إلى دراجوس ؛ وأحس المعلم من جانبه أن سيده كان يطلب منه أن يكون مجرد خادم يدين له بالولاء . . وأخيرا طلب أبوجا إلى مفتش المدرسة أن يلتزم له رجلا يستطيع أن يتفاهم معه — رجلا لا يميل أدمغة الفلاحين بالكلام الفارغ . كما فعل دراجوس .. ومع ذلك فإن المفتش ، فيما قال ، كان يحل المعلم ويقدره قدره ، ولم يكن يميل إلى التضحية به ، ولهذا تردد في اتخاذ إجراء في هذا الأمر ، وجعل يسوف في الموضوع أملا في استقالة الشريف الشيخ .. ولكن ميرون أبوجا لم يكن بالرجل الذي يغير من رأيه ، فهو عندما لحظ تسويف المفتش ، لا مناص من أن يحدث الوزير نفسه من غير شك ، فهو صديق شخصي له ، وهو كذلك صديق النائب جوجو أيونيسكو ، شقيق نادينا ، وسوف يسأله أن يطرد الاثنين معا .

ولم تكن زوج المعلم ، ولا غيرها من أهل بيته ، يرتابون أدنى ريبة فيما يحيق بهم من مخاطر .. أما هو فقد حمل وحده العبء كاملا ، وأخذ يترقب متوجسا قلقا ... وكان يسكن في بيت أسرته ، مع والديه وأخيه ؛ بعد أن أتم خدمته في الجيش العام الماضي .. أما الأرض التي كانت تملكها الأسرة يوما ، فقد أخذت نصفها أخته الكبرى ، وكانت قد تزوجت فلاحا .. أما هو فقد تزوج عن حب ، من فتاة لا تملك شيئا .. ولولا المرتب الذي يتقاضاه على قلته ، لتضورت الأسرة كلها جوعا .. ثم ربما من الله عليها بطفل ، فهو وزوجه لسنتين خلتا ، يحاولان أن يتجبا غلاما ..

وقاطعه يتنو ساخطا : « ولكن ألا يوجد قانون من شأنه ... »

فأجاب المعلم وهو حزين : « القوانين وجدت لتطبق علينا ، نحن الفقراء المساكين .. لأنها سدت قيدا لنا وأغلالا » ..

وكان حديث الرجل ولهجته دليلا واضحا على صدقه وإخلاصه .. وكان تيتو يستمع إليه وهو يسائل نفسه كيف يتأق الناس أن يتحملوا مثل هذا الوضع الشائن ... وحتى لو كان دراجوس مغاليا ، شأنه شأن كل إنسان تعذب كثيرا ، فإن مشكلته ما فتئت مشكلة خطيرة ... وعقد هيرديليا عزمه على أن يحدث جريمحور في هذا الشأن ، فهو لا شك سيعمل على وضع الأمور في نصابها .

قال تيتو متحمسا : « عليك بالصبر ، ياسيد دراجوس ، لا بد أن ينتصر العدل في النهاية » .

فرد دراجوس بمرارة : « ربما ، ولكننا عندئذ سنكون في عداد الأموات ! .. لقد انتظرنا العدل مئات السنين ياسيدي ، ولكن العدل أبى أن يظهر إلى الوجود ... بل ربما هو غير موجود ؛ أو لعله مجرد خرافة المقصود بها تعزية الناس الذين استبد بهم البؤس والشقاء .

— ٤ —

شق العمدة ، أيون برافيلا ، طريقه مسرعا إلى نقطة الشرطة .. كانت الغرفة الصغيرة في الوسط تتخذ مكتبا ، أما الغرفة المواجهة للشارع فكان يقطنها الرقيب وزوجه ، أما في الظهر فكانت توجد غرفة أكبر من الاثنى عشر قليلا يقطنها العساكر ..

قال العمدة وقد تفجر وجهه قلقا : « حسنا يا بونجيرو ، ليتنا نعرف كيف نخرج من هذه الورطة ! .. »

وكان سيلسترو بونجيرو قد نهض لتوه ، بعد إغفاءة قصيرة بعد الغداء ، فذهب إلى المكتب .. وكان رجلا عبوسا جهما ؛ جاءه برافيلا ولما لم يفتحه بعد من تناوذه .. كان بوده أن يكتم أنفاس العمدة ويسأله لماذا تهجم هكذا على رجل يخشى الله ، وبخاصة لأن العمدة ناداه « يا بونجيرو » ، وهو أمر قد حط من مقامه ؛ أليس هو رقيبا ؟ .. ولكنه ، وقد رأى العمدة على هذا الحال من الملح ، التقط العدوى ، ففض رداء الخول عن نفسه ، وتساءل : « ما الخبر ؟ »

وهتف برافيللا ، وقد بدا أشد ضيقا للأثر الذى أحدثته على بونجييو ، قال :
« حدث شئ قدر ، شئ رهيب ! ! »

وكان العمدة رجلا متوسط البنيان ، له عينان صغيرتان ماكرتان ، وخدان
فيهما أخاديد وغضون . . وكان قد حضر مباشرة من بيت الدائرة ، وصوت الشريف
الشيخ یرن فى أذنيه . « أنت مسئول عن اصطیاد هؤلاء أيها العجوز الاحق ، وإلا
نلت أنا منك ! » هو لا يتذكر أبدا أنه شهد الشريف ميرون فى مثل هذه الحالة النفسية
الرهيبة ، وقد لهج لسانه بالشكر حين انتهت المقابلة ، ووجد نفسه فى الخارج .

قال الرقيب حين انتهت إليه وقائع الحال . « إن الشريف على حق ، لو كان
الامر كذلك . . وبما أنه على حق ، فقد قضى الامر . . أنا طالما قلت لك إنهم جميعا
لصوص ! . . وما أنت الآن ترى ذلك بنفسك ! »

وما كان سيلفسترو بونجييو ، وهو المدعى المفرور ، يتحدث إلا لهدى من
روع نفسه ، إن الامور إذا بلغت مداها من السوء ، فينبجى العمدة نفسه ،
وينقض يده من الموضوع كله . . على أية حال ، ما هى مهمة الشرطة فى القرية
إذن ، إن لم تكن للحفاظ على الأمن ؟ . حقا ، منذ شهرين فقط اشتكاه ميرون
أيوجا إلى رئيسه الضابط ، وهما على مائدة الغداء فى بيت الشريف ، فقال إن البوليس
المحلل ضعيف ، وإن رئيسهم لبطيء . وإن هذا هو السبب الذى جعل مخالفات
الفلاحين تزداد عددا باستمرار . . وانقلب المفتش عليه بطبيعة الحال ، وكال له
السياب مقدعا . وتوعده بأن يطلقه من رقبته لو وجد السيد أيوجا سببا يدعوه
إلى التكموى مرة أخرى . . وأنه ليعلم حق العلم طبع الشيخ وجبلته . . أما الآن
فهاهى الطامة الكبرى تقع على أم رأسه من السماء .

صاح بونجييو وهو يكر بأسنانه . « سأجرى تحريات من شأنها أن تجعل هؤلاء
الفلاحين يتذكرونها فى الدار الآخرة ! »

وتبع ذلك نقاش طويل . . كان جليا أنه ينبغي البحث عن اللصوص فى آمارا
أو فايدى أو ليسيزى . . ووضع الرقيب على رأس قائمة المشبوهين أسماء الخفراء
الذين يعملون فى ضيعة كوزما بيربونا . . وأرسل بونجييو رجلا يأتي بهم إلى مركز

الشرطة فوراً .. ثم أخذ الرجال يستعرضان أسماء المشبوهين في القرى الثلاثة ،
فينحطون أسماء ، ويشطبون أسماء ، ويعيدون وي زيدون .. وفي النهاية جمع بونجيو
قائمة تضم ثلاثين شخصاً رأى أن يستجوبهم بعد أن يستمع إلى أقوال الخفراء .

ودخل شرطى ومعه ثلاثة من الفلاحين .. وافتتح الرقيب المحضر بأن ذهب
إلى كل واحد من الرجال الثلاثة فصفعه على وجهه مرة ومرة — ثم هتف في
غضب بالغ . « اعترفوا .. من ذا الذى سرق أخذة الملتزم ؟ »

وقال العمدة في لهجة أبوية ، وإن نمت عز ، مداعنة ، قال : « هيا ، هاتوا
ما عندكم .. لماذا تتحملون أتم عقاباً لا ذنب لكم فيه .. أتونا بالصوص ،
ولو كنوا في باطن الأرض ، وإلا فستصلونها ناراً حامية .. أتم تعرفون من هم
الصوص ، اللهم إلا إذا كنتم أتم .. »

وأقسم يعقوب ميتروتو ، وهو رجل أحنى الزمن ظهره قليلاً ، وهو أكبر
الثلاثة سناً ، ولا تزال صفعات بونجيو ظاهرة جليلة على وجهه الشاحب ، قال
لأنه لم يكن في نوبته ذاك المساء ، بل كان راقداً في بيته مع أهله وولده ، وأن
جيرانه والقرية كلها شهود على ما يقول .. ودافع الآخرون عن نفسيهما فقالا إن
الشريف أمرهما أن يرقبا المخازن السكّانة في الساحة — وهى مخازن بها قمح ،
ولأنه مامن لإنسان أهتم فوجه نظرها إلى هذا المخزن الجديد .. ومع ذلك فهما لم
يفقلا عنه ، ولكنهما لم يسمعا شيئاً .. والحق أن المخزن الجديد كان على مسافة
قرية من بيت الشريف ، والحق كذلك أن أهل الرأى نهبا الشريف إلى أن المخزن
الجديد ما كان يذنبى أن يقام حيث أقيم ..

وقوبلت هذه الأقوال كلها بالهزء والسخرية ، ولم يترتب عليها إلا مزيد من
الصفعات ... كان معلوماً أن الصوص يدافعون عن أنفسهم ، فيدفعون بأنهم
لا يعرفون شيئاً ، وبأنهم لم يسمعوا أو يروا شيئاً .. ولكن هل من المعقول أن
يأتى خفير ، يتلقى أجره قدماً من أجل الحفاظ على ممتلكات سيده ، فلا يلحظ
شيئاً حين تختبئ هذه السكينة من النذرة التى مقدارها مائة عربة ، وهى على مرى
الذراع منه ؟ .. وعند هذه النقطة هب ليرى بوما ، وهو أكثر وسامة من زميله

الآخرين وأشجع جنانا ، فقطع مجرى الحديث وقال . « أية عربية ياسيدى ؟ .
لا حول ولا قوة إلا بالله ! .. نحن لو سلمنا بالسرقه ، فمن لا يمكن أن تزيد على
ثلاثة أكياس على أكثر تقدير . . بل إن السيد كوزما نفسه لا يزعم أكثر من
ذلك . . ربما كان الأمريكسين أو ثلاثة ، ولكن محال أن يبلغ حل عربى . »

وصفحه بونجيو على فمه بظهر يده ، وصاح فيه : « أنت أولا لص ! ثم بعدئذ
تأتى بهذه الصفاقة — هنا أمامنا ، كيف تجرؤ على هذا ؟ »

نعم ، لقد سمعته وقاحة الفلاح فى الصميم .

ونادى على شرطى كان قد عاد لتوه من نوبة راحته . فأمره بأن ينزل على
الفلاحين ضربا مبرحا يعلق بهذا كرتهم أبد الأبدى . . . ولكنه ما لبث أن لان
واسترخى ، فأذن لهم أن ينصرفوا على شريطة أن يعودوا فى القد ، وأن يأتوا
باللصوص إلى ديوان القرية ، وإلا دفعوا الثمن غاليا .

قال بونجيو يسائل العمدة عندما انفردا سويا . « حسنا يا عمدة ، هل فى مقدورك
أن توضح لى هذا الأمر ؟ إن الشريف ميرون يقول لى ، حمل عربى من الذرة ،
أما الماتزم فيقول إنه ثلاثة أكياس ليس إلا ! »

فقال برافيلا وهو يهز كتفيه . « لست أدرى . »

وكانت هذه نقطة لا مناص من استجلائها على الفور ، ففى ذات أثر على
التحقيق كله . فشئ . أن تتحرى عن سرقه مقدارها حل عربى من الذرة ، وشئ .
آخر أن تبحت عن كيسين لا أكثر . . واستقر بهما الرأى على أن يذهب العمدة
إلى حيث وقعت السرقه ، وأن يستكشف البكية التى سرفت ، وكيف سرفت .

قال الرقيب . « لاتدع الأمور تجرى فى أعنتها بإعماه ، وإلا وجدتنى فى أترك ،

كان تيتو هيرديليا ، وهو يستمع إلى متاعب المعلم ، يحس بالحجل ويشعر
بالجرم لكونه نزل ضيفا على طغاة الشعب . ولكنه استعاد طمأنينته حين أضاف
دراجوس بضع كلمات طيبة عن جريمحور أيوجا ، فهو على أية حال الذى وجه

الدعوة إليه .. ولكنه مع ذلك أراد أن يدل صراحة على أنه يساند المعلم، ويؤازر المعلمين في الأرض ، وأنه هو نفسه واحد منهم ، فصافح دراجوس ق ل أن ينصرف بمالحة الأخ ل أخيه ، وطلب إليه أن يصحبه إلى قيس القرية ، إذ هكذا يقضى ليتبو أن يلتقى بالآب الروحى لهذا القطيع ..

وخرجوا إلى الساحرة أخرى ، فلذا بعربة يجرها ثوران أعجفان .. وأسرعت عجوز واعنة نقفل البوابة ، ثم أخذ صبر يفرغ العربة ، بينما قام عجوز يسحب بعض الماء من البئر يروى به ظلاً الحيوانين ..

قال دراجوس وهو يشير إلى الثلاثة ، بمد أن حيا زوجه مودعا . وهذه هى عائلتي كلها .

وتقدم هيرديا ، وصافح العجوزين ثم الصبي ، وكان أطول من دراجوس وأعرض .. وقبل أن يتطابق الرجلان الطريق قال الفتى يحدث أحباء .. ربما كان من الخير أن نمر على دوان القرية وأنت في طريقك ؟ فالظاهر أن رجال الشرطة قد عادوا يهربون الناس لغير سبب — بل إنهم نزلوا ضرباً على خضراء المنتمز كوزما ، والواقع ..

وعندئذ تدخلت زوجه فرحة : ولا شأن لك بهذا يا أونييل ، حسبنا ما لدينا من متاعب .. سوف يقول الأشراف إنك عدت إلى مساندة الشعب ، فيوقعون بك المقاب و ..

« حسنا ، حسنا ، كنى شريرة .. » تألما دراجوس في أنفة السيد المطاع ، واشتد في ذلك عندما أخذ أبواه أيضاً يؤبدان زوجه فيما قالت .

وكان المعلم ، في أثناء الطريق ، يتبادل كلاماً رقيقاً مع كل واحد يلتقى به تقريباً .. وكان تهو بطبعه يتودد إلى الملاحين في موطنه ، ولكن دراجوس بدا له مغالباً في هذا التودد بعض الشيء ، كما بما أراد أن يدل على اهتمامه برفاحية الناس قاطبة ..

.. وأعرضت طريقهما امرأة زرية المظهر ، وهى تتوسل إلى دراجوس أن يدلها

على ما ينبغي أن تفعل ، ومن أين تبدأ ؟ فإن حياتها غدت شقية بائسة بحيث لم تدرك ما دألم تلاق بنفسها في بئر فتتخلص من حياتها ... وسأله الملم عن حالها ، فأخذت تقص عليها كيف لقي زوجها حبه في الشتاء الماضي في الغابة ، وكيف أنها منذ ذلك الحين أخذت تكافح وحدها لتطعم بيتاً امتلأ كله أطفالاً ... نعم ، هذا ما حدث ، لقد خرا أحد الثورين صريعاً مع زوجها . فاضطرت أن تبيع الثور الثاني بمن يمس ، لأنها ما كانت تملك من المال ما يهيئ لها ثورين دفعة واحدة . والحق أن الشريف الشيخ استدعاهما إليه في ذلك الحين ، وواساهما في مصائبها ، ووعدهما بأن يدفع لها ثمن الثور الثاني ، وبأن يرعى أولادها اليتامى ، ولكنهما لم تلاق غير هذا الرد ؛ فهي في كل مرة تذهب فيها إلى بيت الشريف ، لا يسمح لها بمقابلته ؛ وأخيراً أخبرهما المشرف ، بعد أن عجز عن التخلص منها ومن دموعها ، أن الشريف وفي بوعده ، وأنه أمر السيد ازباسيكو أن يدفع لها تعويضاً عن خسارتها ... ولكن زوجها رحمه الله شايه . كان غارقاً في الدين ، فرأى ازباسيكو أن يستخدم مالها وقاه لجزء من هذا الدين ، إذ بقيت بعد ذلك ديون كثيرة يفير سداده . واستعانت بمشفة بالغة أن تحصل على قطعة من الأرض ، ذلك أنها ما كانت تملك ثيراً ، ولكن كان لابد لها من دفع نفود ثمنها لخراثة الأرض ، ولكن أين لها النفود وهي لا تملك شيئاً ؟ واضطرت لذلك أن تستدين حينئذ اتفاقاً ؛ وهكذا بدأت الشتاء وليس عندها إلا قليل من الذرة ، وهو مقدار من المال أن يكفيها ولو حتى عيد الغفاس ، لأن أسرته كبيرة العدد ، ولأن عليها ديوناً كثيرة ، و ...

قال دراجوس يحاول أن يهدي من ثأرتها .. صبراً جليلاً ... سوف يعود ولكم الأكبر من الجيش عما قريب ؛ وسوف يتولى عنك شئون البيت ..

فصاحت المرأة ، وقد اشتد بها البؤس . « عجل الله عودته .. ولكني رأيت هيره يهودون ، ولم أر باريقدا بعد ؛ إن الله وحده يعلم كم أفتذب وحدي ، وكم ذرفت من الدموع — لست أدري ما الذنب الذي جنيته حتى يعاقبني الله هكذا ! »

قال الملم يطمئنها . « سوف يعود ! .. وسوف تسعين ببقاياها عما قريب .. »

ولكن المرأة انخرطت في البسكة ، وأعربت عن أسفها الدهوعا المتواصلة ،
وهي دموع لم تتوقف عن الانهار ، لأنها منذ أن حل بها هذا الفقر ، فيما قلت ،
لم تلق راحة ، ولم ينفض لها جفن .

قال دراجوس يحدث تيتو بعد أن سلخا المرأة وراهما : « لقد كان زوجها
رجلا طيبا . . ومن لاسف أنه مات . . وأكن من - من اسخط أن ولده الأكبر
يسير على نهجه ، بل خيرا منه . »

وبلغا ديوان القرية . وكانت هناك عربة تد توقفت قبالة قل بضع دقائق . .
وكن بلاتامونو الملتزم قد ظنرتوه من الساحة يصحبه ابنه أرستيد ، وهو طالب
في بوشارست ، حسن الهندام ، وسيم الطلبة ، له تقاطع مقدقة ، وشفتان عمتان .

واته الملتزم صوب دراجوس ، وهو يتسلم ابتسامة ودية العالمة ، « ماذا بده
مرحبا ، وقال إنه جاء يسأل العدة شيئا ، ولكن الساعة لم تكن مواتية ، لأن
العدة فجأ يبدو كأنه شغولا بإجراء تحقيق خفي ، وأنه ذهب إلى مكان ما ، « لم الله
وحده أين كان . »

إن كنت تعذب امرأة فخير لك أن تأخذ منك ، فهو يعرف النساء هنا حتى
المعرفة ، « قالها له لم بين الحزل والجد . وهو يشير إلى الشاب أرستيد
وضحك الملتزم ضحكة عالية في رضى .

« حسن ، حسن ، لشباب دمازه حرة . . وخير له أن يجرى وراء نساء هذه
القرى عن نساء لندن ، اللاتي قد يصيبه منهن هذا المرض أو ذاك ، وإن كن المرأة
لم يعد يطمئن حتى هنا في الريف . »

وضحكوا جميعا . . وأعرب بلاتامونو عن بهجته لقاء تيتو هيرديليا ، وقال
إنه شهده عند وصوله إلى القرية مع جريجور . . ودعا الشاب إلى زيارته ، ولقاءه
أمرته ، واتخاذ أرستيد صديقا له ، فهو والحق يقال ولد طيب . . واستطره
قائلا : « إنه سيقوم بزيارة إلى بيت أبوجا في القريب ، لأنه تلقى خطابا من السيدة
نادينا ، أعلنت فيه عن عزمها العودة إلى رومانيا ، وأنها ستأتي لتشرف على
شئون الضيعة . »

وما كادّا يظلمان الرجل وابنه وراءهما حتى قال دراجوس في صوت خفيض :
« لا توجد فتاة ولا امرأة شابة لم يطاردهما هذا اليوناني الداعر . . . الأب ينهب
الرجال أموالهم ، أما الابن فيسرق النساء عفتن . »

وكانت هناك جماعة من الناس أمام الحان يتحدثون ويصخبون في حرارة . .
فلما رأوا دراجوس وثيتو يقتربان ، خفضوا من أصواتهم هونا . . . ووقف
الحفراء الذين يعملون في خدمة كوزما بيربونا في وسط الجماعة ، يقولون إنهم غير
مذنبين ؛ كما وقف العمدة ، أيون رافيل ، يردد مناديا بضرورة الثورة على المصوص .
وصاح العمدة من وسط الجمع مخاطب دراجوس الذي أبى أن يقف : « أسمعتم
بما حدث ؟ » .

واضطرب الرجلان إلى التوقف ، فتدأحاط بهما الفلاحون ، فاستمعاً مرة
أخرى إلى قصة العمدة . ومن قصة أخذ الحفراء يقاطعونها باستمرار ، إذ احتلت
لنفوسهم شجاعة بعد أن رأوا كل إنسان ينفذ في صفوفهم . ولما لم يبد على دراجوس
أنه يتفق معه في الرأي ، استطلع أيون رافيل رأي ثيتو ، يحدوه الأمل في أن
يقف الشاب إلى جانبه .

وغمغم هيردلميا ، وقد ألم به بعض الارتباك من جراء نظرات الفضول التي
طالته من كل جانب ، وقال : « أما غريب على هذه الديار . . . وما حضرت
إلا الأمس فقط . ، وأنا لا أدري شيئاً عن ظروف القضية ، أو مدى الخسارة ،
إن كانت هناك خسارة . . . »

« لا توجد خسارة على الإطلاق يا سيد ! ، صاح لجأة أكبر الحفراء منا :
« تعال وتعق بنفسك ، وإذا كان . . . »

فقاطعه العمدة بعظمة : « كفى هذا يا يعقوب ، دع السيد يتكلم ! ،
« قلت لكم أنني لا أعلم شيئاً ، عما حدث أو ما لم يحدث ، ولكني أعلم هل
وجه اليقين أن الشيطان ليس بالصورة السوداء التي يراه بها الخائفون . »

وضحك بعض الفلاحين ، وقال واحد منهم : « صدقت ! ولست أدري

لماذا يتعذب هؤلاء المساكين ، وهم لم يعرفوا جرما ... هذا عار والله ! ،

ومضى دراجوس وهبرديليا في طريقهما ، مستنلين استئناف الجدل ، بل وفي نرات أعلى عن ذى قبل ، ومالا إلى حارة صغرة تؤدي إلى فايدى ...
وعنا ، قبالة بيت المتزعم بيرونا على التقريب ، كان يسكن القس نيكوديم جرانكيا ، في بيت متين ، تحيط به مملكات دديدة ، وحديقة كبيرة كأنها بستان عام .

ووجداه يعمل بهمة ونشاط ؛ يفرغ عربة امتلات بالقرع المعلى .. وكان يلبس المنسوة ، وثوبيا بنيا وسخا ؛ تد طواه من أمام فوق ركبتيه ... وكانت لحيت الطويلة البيضاء قد وخطها الطين .. وكان الرجل لا يزال نشيطا ، خفيف الحركة ، رغم أنه قد تحطى السبعين ، وعاش أرملا عشرين عاما .. وكان بهمه هو الشئ الوحيد الذى وهن فيه ، ولهذا لم يتمكن أن يدين الملم دراجوس من فوره .. ولكنه عندما تبين صوته انفجر لجة جذلان نشطا : « أهذا أنت يا ابونقسا ؟ .. أما لم أتيتك ... فقد كعب بهرى تماما ، ولا أستطيع وأنا في الكنيسة الرؤبة اقراءة الإنجيل إخلاقا الآن ، ولكننى أحفظ الصلاة عن ظهر قلب .. لا بأس .. هذا لعمري أثر السن ! »

وكان وهو يتكلم يتطلع إلى تيتو مستفسرا .. فلما أذمه دراجوس لإبه ، قال بلطف : « حفضك الله يا بنى ! . اغمر لنا مانحن عليه ، ولكن هكذا شأن للقس في هذه الأنحاء ؛ نحن قدم بسطاء ، لم نقطع شوطا كبيرا من التعلم — ولكن هذا حالنا منذ عهد أسلافنا الأولين .. أما ابنى فقد أتيت له أن يتلم الكبر ، وقد تلقى علومه في مدرسة اللاهوت العليا بوغارست ، وأصبح قسا عظيما امتدت شهرته حتى بلغت القصر فى العاصمة .. إن صوته جميل ، وهو ربما أخذ هذا الصوت عنى ، لأن صوتى كان جبلا ذات يوم — بل مازال فيه رفق حتى الآن ، مكثا أشعر يا بنى .. أما الشريف ميرون ، فهو لا يريد له أن يحضر ... »

وتفصيل الأمر أن ولد القس نقي إلى أبراشية بعيدة ، وهى أبراشية غنية في حقيقة الأمر وتقع في مقاطعة جورى ، وذلك لأن ميرون الكبير حرم عليه

القرية لسبب لا يدريه أحد . . . وكان ذلك هو علة الحزن الشديد الذى حط على نيكوديم العجوز ، وكان ذلك هو محور حديثه مع ضيفة ، وهو يقدم إليهم طبق الدولكيستا التقليدى .. وقدم القس إليهما ابنته نيكولينا ، وهى امرأة تناهز الأربعين ، أكبر سنا من ابنة ، متزوجة من فلاح فى القرية اسمه فيليب ايلبوزا ... وكانت نيكولينا وهى تقدم إليهما المربي تيدى أسفها باستمرار لأن الغرفة مضطربة كل الاضطراب ، ولأنها حافية القدمين . . . وكان لها من الأطفال ستة ، أكبرهم فى الصف الخامس بالمدرسة الثانوية السكائنة فى بيتسى . . . وكان حتما عليهم أن يسكروا فى بيت القس إلى أن ينام الله ويرقن قلب الشريف طليم ، فيأذن بعودة القس الشاب ليحل محل أبيه . . . وكان فيليب يملك داراً خاصة به ، كان أبوه قد تركها له وهو ما كان ليقبل أن يسكن مع حماته إلا ليؤنسه فى أخريات أيامه

قال دراجوس لحلة أن خرجا إلى الشارع، بعد أن قامت الأميرة كلها بتزويجهما حتى الباب . وأسعدت ؟ إن ذراع أيوجا ممتدة إلى كل مكان كما ترى . . . لأنه يملك بأسباب حياتنا فى راحة يده ، بل ربما يقبض على أرواحنا أيضاً !

قال الشاب هيرديليا : « ولكن أليست هذه حالة فريدة فى بابها ؟ . على كل حال هذه المسألة وقتية ، فإن الشيخ أيوجا لن يمصر طويلا ، أما ابنه ... »

فأجاب المولم متحمسا لقضيته : « لا ، لا ، لا . . . لقد أخطأت الحسبان . . . فليست هذه حالة خاصة . . . بل هى حالة عامة تسود البلد كله . . . نعم ، ليس للقرية ، أى قرية ، سيد إلا للثريز المالك أو الملتزم ، هو القانون ، وهو كل شيء . . . وكى أقيم لك البرهان على أنى لست متحيزا أو مغاليا أقول . إن ميرون أيوجا أحسن من كثيرين غيره . . . هو لا يفتن أحداً ، وهو لا يمتصر الملاحين ، بل هو على النكس يفعل الخير ما وسره الجهد إن رأى فى ذلك حكمة . . . هذا فضلا عن أياديه البيضاء على الكنييسة والمدرسة وكل شيء ينهض الناس عامة . . . ومن الطبع أن تراه لا يسمع لأحد بجرية الكلام ، لأنه واثق كل الثقة بأن رأيه وحده هو الذى السراب . . . واملك تتفنن معى فى أن هذا المثال ليس بانثال السى . . . بل الأمر على النكس - ولكن فى وسعك أن تدرك بنفسك أننا مغفلون

إلى أعناقنا . . ليس بسبب ميرون أيوجا ، ولكن بسبب الوضع العام كله . .
ومن المحال أن يتغير هذا الوضع باختفاء رجل واحد ، لأن خلفه ، مهما كان
حسن النية ، لابد له أن يعضى على نفس النهج ، بل هو مضطر أن يعضى على نفس
النهج . . نعم ، لن يحدث التغيير الحقيقى إلا إذا زال هؤلاء جميعا ، وإلا حين
تعود الأرض لأولئك الذين يفلحونها . .

قال تيتو هيرديليا برقة ، وقد أحس في كلمات المعلم بوعيد خفى : « ولكن
هذا التفسير لن يتم بين يوم وليلة » .

فأجاب دراجوس مقننا : « صدقت ، ولو حدث ذلك لاهتزت الدنيا من
الاعماق ، وأنا لا أريد ذلك ، ولا يريد ذلك غيرى . . ولكن ليت المهجرة
تحدث !! »

فهمهم تيتو : « أتقول مهجرة ؟ .. إن الإنسان هو وحده القادر على صنع
للمهجرات اليوم ! »

« نعم ، الإنسان الحر ، لا العبد الرقيق ، قالها المعلم ، وقد وضعت عيناه
هائلة وقسوة .

في بكورة اليوم التالي توجه العمدة أيون برافيليا إلى ضيعة المتزم . . وهناك
وأى الحفير زامير شيلارو ، وهو رجل شاحب أعرج ، قد لزم المخزن الجديد
ككذئب يتلصص حول حظيرة محكمة الرناج . . ودار العمدة حول المخزن ،
واستغرق في التحرى والاستقصاء ، ولكنه عجز عن أن يجد علامة تدل على
انتهاك حرمة المكان ، وإذا به يصرخ فجأة : « ولكن أين اقتحم اللصوص المخزن ؟ »

فرد الحفير بجفاء : « أتأنا نحن ؟ سل المتزم ، ها هو ذا آت . . .
وكان كروزما بيرونا يرتجف ، فقد هطل الصقيع بغزارة هذا الصباح . . . كان
قد جاء يشهد التحقيق ، فقد حدثه الحفراء بالأمس عن الزبارة التى أزمع عليها
يرافيليا . . . وتقدم العمدة إليه محييا ، وكانت تحيته لا تخلو من تفريع ، وقال :

• ما هذه الورطة التي وضعتني فيها يا سيدى ؟ .. لم تكف بالكلام معنا في هذا الموضوع ، بدلا من أن تقحم فيه الشريف ميرون ؟ .. أنت تعرف حدة طبعه ، وكيف تعاني منه جميعا !

وحاول الملزم أن يهون من الأمر ، ولكنه لما سمع بالإجراءات الدنيئة التي أمر بها الشريف ، ازداد قنقا . . . ما هذه الظامة التي أحدثت به لمجرد كلمة قالها ؟ ليت قطع لسانه الذى فاه بهذا الكلام ! ! . لسوف يصيب الفلاحون جام غضبهم عليه الآن . . نعم . ان يستتب له سلام في الضيقة بعد الآن . . . ولكن من كان يظن أن أبوجا سيجعل من الحبة قبة حول هذا الموضوع الداه ؟ وطلب إلى العمدة ألا يتعجل ، وأن يصرف قليلا ، فهو سيذهب معه إلى مركز الشرطة ، وسوف يصرح هناك أنه متنازل عن حقه أيا كان ، وأنه يريد أن يترك كل إنسان يعيش في أمان .

وعاد رافيل إلى القرية ، وهوراض مقتبط . . ولكنه أدرك وهو في الطريق أن ليس ثمة فائدة ترجى لو سحب الملزم شكواه . . فطالما أن الشريف ميرون أصدر أمرا في هذا الموضوع فلا تناس من وضعه موضع التنفيذ . . بل امل أبوجا الكبير حينئذ يزداد غضبا ، ويصب ثورته على العمدة نفسه . . أما كوزما بيربونا فقد رأى ، عندما انصرف رافيل ، أنه لن يجلب على نفسه غير الضرر لو سحب شكواه ، ولهذا عزم على أن يلزم الصمت إلى حين .

وبعد ليلة رأى فيها فيا يرى النائم حلما أولته له زوجته على أنه نذير سوء . ظل الرقيب بونجييو صارما لا يابن كما كان بالأمس . . كان ينتظر في ديوان القرية يترقب أن يحضر رافيل بالنتيجة التي خرج بها من تحرياته . . وكان في الساحة خمسة عشر نفرا تم القبض عليهم من فايدى ، وعشرة من المشبهين من آمارا . ينتظرون التحقيق معهم . . وقد رأى بونجييو أن يقوم بهذا كله في مكاتب مجلس القرية ، فها توافر فسحة من المسكان تكفل اعتقال عدد من الموقوف عليهم ؟ أما نقطة الشرطة فلا توجد فيها إلا غرفة صغيرة تستوعب ثلاثة أنصار لا أكثر .

وجاء العمدة محقق الوجه ، لاهنا ، منهوك القوى . فقد مال على الحان ، وتاون كآسين من شراب البراندى ليبحث في بدنه الهدف . . وصرح بونجييو ،

رغم ما سمعه عن تنازل المائز عن الشكوى ، بأنه ان يشوه ماضيه بسببه .
حفنة من الفلاحين الكسالى الاقذار ، وبأنه ماض فيما أخذ نفسه به . . نعم ، إنه
ان يشغل نفسه بزوات السيد كزما فهو جندى ، ويتعين عليه أن يقوم بواجبه . .
ولقد نمت أساور وجهه على قسوة بالغة ملأت نفس برايملا رجبا ، كما كان هو
أيضا موضع رية .

وكان شارينا دوميتربسكو يعمل كاتباً بالجلس ، وكان شاباً ولداً بلايس المدن
يقشع بها مزهوار هو رجل رقيق ، وكانت عبارة عن قيس قـ ر بقر أساور اليد
ولكن كانت له يافة مضافاً بالغ في العناية بها . . وكان قد قضى سنه بالمدرسة
الثانوية ، ثم عين كاتباً بفضل وساطة طباحة السيد أبوجا ، وكانت عمته . . وكان
قصارى همه في هذه اللحظة هو أن يصلح من وضع ربطة عنقه الخضراء ، فقد
جالت بخاطره ابنة المائز اليرثاني ، وهي التي كان من حسن طالعها أن يادها
الحديث بالامس ، فعطفت عليه بابتسامة .

قال الرقيب ، وقد أدار ظهره لجأه إلى العمدة . « هلا تكلمت وعادتنى في
هذه السجلات يا سيد شارينا . . أنا أمل وأنت تكتب ، فهذا يدعو إلى
تفسير الامر » .

واعترض الكاتب : « ألا يكفي ما عدى من عمل فلان ؟ . . انظر ماذا ينتظرني
هنا . . » وأوماً إلى كوم من الأوراق ، أما يداه فقد شعلنا بربطة العنقاثة .
وأصر بونجيو ، وهو يصانعه : « افعل هذا لخاطري . . فأما لن أنسى لك
الفضل يا سيد شارينا » .

« لا بأس ، إن كنت في حاجة ماسة إلى — سأطرح كل شيء وأضع نفسي
في خدمتك يا عم سيلفسترو ، قالها الشاب وقد سره أن ينجح أخيراً في أن يجعل
وربطة عنقه على النحو الذي أرادها أن تكون عليه ، وكان يقيه خيلاء بنفسه في
المرآة الصغيرة التي ثبتت على قاعدة المحبرة .

واستفرد الشاب ، وهو يصف شعره بحيث تأسطت من خصلة على جبهته .

بغير اكترات ، قائلا : « هأنذا ، على استعداد الآن : » .

وجاءوا بفلاحى آمارا المشرة من الساحة ، فدخلوا بهم إلى المكتب الصغير فى حراسة شرطى ، وهو الذى وقف منتصبا عند الباب الخارجى . . ومضت برهة ثم ظهر الرقيب بورنجيو فى فتحة الباب الداخلى ، وأخذ يتطلع إليهم من فوق إلى تحت عدة ثرات وهو صامت ، ثم قائل : « ترى ، من هو اللص الذى سرق حبوب الملتزم ؟ » .

فأجابت عدة أصوات وجلة : « لسنا نحن ياسيدى ! » .

فاستطرد الرقيب بابتسامة مرة : « أنتم إذن لا تريدون أن تسلكوا ، وأنا ألزم الادب معكم . . حسن جدا . . أنت يا هذا ، ما اسمك ، تعال هنا ! »

« أنا ما سيدى ! . . اسمى ليوتى أوريسور . » قالها الرجل وهو يدخل إلى المكتب الآخر مع بورنجيو .

ومضت دقيقتان ، ولم يبلغ الأسماع فيها غير صوت الصفعات التى تلقى على وجهه ، والكلمات المكتومة ، والآناس اللامعة التى تتردد فى صدر بورنجيو . . ثم علا صوت الرقيب : « من المص ؟ . . أنت لا تريد أن تنفضى إلى به ؟ هيه ؟ » وسمع القوم اثنين الرجل يتصاعد على فترات متباعدة : « سامحنى ياسيدى . . كفى هذا الضرب . . أنا لادلم لى بشئ ، ولم أقرف شيئا ! ! » .

وتبادل الفلاحون فى الغرفة الأخرى نظرات الدهشة ، وانفتوا إلى الشرطى الذى وقف منتصبا وفتحة الباب . كأنما قد قدّم من صخر . . وبعد فترة من الصمت لم يمالك سيراغم موجوس نفسه فرفيع عقيرته ، وكان جلاظا ، وخط النيب فودبه ، وكان أبى الأطفال خمسة ، وقال : « استمعوا إلى أيها الرجال ، ينبغي على من أتى السرفة أن يعترف بها ، وإلا قتلونا عن آخرنا ! ! » .

وأقسم كل رجل أنه من الجرم براء . . وما لبث باب المكتب أن انفتح ، وخرج منه ليوتى أوريسور ، وهو يرتفع ترتفع السكران ، وقد اختفت معالم وجهه ، وانساب الدم على شاذبه وذقنه . . وطرحه الرقيب أرضا ، وصاح : « اذهب به

أبها الشرطى إلى الزنانة حتى يأتى دوره فأتعت إليه مرة أخرى . . .

ولما انطلق الشرطى إلى الساحة ، عاظم بونجييو الرجال فى صوت أهدأ قليلا عن ذى قبل ، قائلا : « هيا خبرونى — من هو السارق فيكم ؟ » اعترفوا الآن قبل أن ينفذ صبرى . . وإلا نزعنا عنكم جلودكم ، وأزهدنا أرواحكم فى حلوتكم . . .

وأنكر اللاهون بأيمان مغالطة أنهم لا يعرفون شيئا عن السرقة . وعندئذ هب بونجييو فى موجوس ، وقد استشاط غضبا من جديد . « أنت باهنا . . تعال هنا . . تفضل إلى داخل الحجر . . »

« تستطيع أن تقتلنى ياسيدى ، لحياتى بين يديك . . ولكن كيف لى أن اعترف بسرقة لم ارتكبها ؟ »

وأخرسه الرقيب بالطمه حادة على فكه ، ثم أمسكه من منكبيه ، ودفع به إلى المكتب الداخلى ، وأقفل الباب . . وبلغت الأصمعية أخرى ضجة الضرب والمكبات ، والمهات ، والأصوات العالية .

واستمر التحقيق زهاء ساعتين . . وفى غضون ذلك حضر اللاهون الخمسة عشر من قايدي ، وكانوا فى حراسة اثنين من رجال الشرطة . . ووافق أنهم جاءوا فى وقتهم ، لأن التحقيق إذ ذاك كاد يذهب مع رجال آمارا . . ووقف هؤلاء فى الزنانة يمدحون ما علموا على وجوههم من دماء ، وبؤس — سون أصدانهم فى حذر . . وأنهاك التعب قوى بونجييو لشدة ما بذل من جهد ، ولهذا أتاح لسهة فسحة من الوقت يتنفس فيها بعد أن عالج آخر المتهمين من آمارا . . أما العمدة فكان أسعد حظا . . لقد أتبعته له فرقة مال فيها على حان بوزوك ، فتناول كأسا يستمد منه الشجاعة . . ولم ينس ، فى رواحه وغوره ، أن يمدط على اللاهين الذين ما فتئوا ينتظرون فى الساحة بنظرة تحذير وحان . قال : « أبى أبنائى . . لم لا تعترفون وتدلونا على السارق ؟ »

أما بونجييو فلم يحط بفسط من الراحة حتى فى أثناء البقرة التى أتاحها لنفسه ، بل أخذ

يوقع السمات ، ويراجع قائمة أخرى من المشبهين الذين رأى أن يستجوبهم في المساء .

واجتمع في الفناء هذه الساعة لعيف آخر من الناس ، بعضهم من آمارا ، والبعض الآخر من فايدى ، جاوا يقسمون بكل مؤنثة من الايمان أن المجرمين ليسوا هم الذين نزل بهم الضرب ، ولا هم الذين يفتظرون في الفناء ، فهم جميعا لم يتركوا بيوتهم ايلة السرقة . . وكانت هناك نسوة كذلك ، وقفن خائفات باكيات ، وقد حلت كل منهن ربطة صغيرة بها طعام لازواجهن المساكين ، حتى لا يمانون الجوع فرق ما يقاسون من آلام ، هذا إذا رأى الشرطة أن يحتجزوهم أكثر مما احتجزوهم .

ولما استوفى التحقيق ، واقتيدت الجماعة التالية من المتهمين ، تملكك الدهشة الرقيب إذ رأى بعض الملاحين يتكلمون في الفناء . . ومن ثم صاح وهو واقف في فتحة الباب : « ماذا تريدون يا قوم ؟ »

ووجد بائبيليمون فادوفا نفسه أمام الجمع ، وهو شاب قد استدعى إلى الجيش . وكان عليه أن يقدم نفسه إلى الكتيبة السكائنة في بيتسى في مدى أسبوع ، وقال : « جيشا نشهد ياسيدى ، نحن نشهد بأنه ليس لاحد منهم شأن بذرة الملتزم . »

فأجاب ، بونجيرو وهو يقرب منه . « أنقول ليس لاحد منهم شان ؟ — تعال هنا يا بائبيليمون ! . . أنت جندى ، وتريد أن تسلمها ثورة ؟ — عليك اللعنة يا ابن الزانية ! »

وهجم عليه بعتة ، وأمسك بمنقاهه ، وأخذ يكبل له لعنة بعد لعنة ، على رأسه ، وعلى وجهه ، وعلى كل مكان وقع تحت يده . . ورأى الملاحون ذلك فهربوا إلى الشارع عائفين تندعهم ضحكات بلهاء . . لقد بدت فكهة تلك الطريقة إلى خاطب بها الرقيب الفتى ، ثم اندفاعه نحوه ، بل إن بائبيليمون نفسه دهش لما وضحك منها ، عندما تلمس من قبضة بونجيرو ، وجرى وراء الفارين ، ورغم منازل على وجهه من صفعات . . ولكن الابتسامة ذوت عن شفتيه عندما مسح وجهه بكم قبعة ، واستشر الآلام في فكته ، وبصق دما . . لقد عض لسانه عندما أنهالت عليه السمات .

وهتف بونجيو باسماء ، رغم غضبه ، عندما رأى الفلاحين يضحكون . وقف
بابا تيليمون ! .. لماذا تجري يا فتى ؟ ..

هل أنه أمسك عن الضحك فورا ، وعادوه البياض والغضب ، ثم راح يؤدى
واجبه .. كان المنهون قد تجمعوا كقطع من الغنم ، فلما تنهى إليهم الضحك
من الخارج ، ظهرت على وجوههم بسمات كذلك ، على أمل أن يكسبوا عطف
الرقيب عليهم ، أما الرقيب فقد حملها محل الهزء به ، فأراد أن يكبت فرحتهم ،
فوزع عليهم لـكلمات ، أقامها عليهم خطب عشواء ، وهو يغمغم غاضبا . « أتريدونها
ثورة ، أيها الخنازير الكسالى ؟ . ألا يكفي أنكم لصوص ، فتزيدون على ذلك
الوقاحة ؟ .. »

وهنأت نفسه بعد دقيقة ، فشدد قامته إلى أقصاها في فتحة باب المكتب ،
ثم صاح إلى رجل بين الجمع . « أنت يا هذا ! .. تعال هنا أيها الجلب الغليظ !
لا تتخط هكذا ! .. »

- ٧ -

في الصباح الباكر من اليوم نفسه ، أخذ جريجور أبوجا يطوف بيتوهيرديليا
في أرجاء الضيعة ، وعلى وجه الخصوص في مباني المزرعة الجديدة في روجينوزا
وهي قرية حديثة ، تضم ثلاثين دارا لا أكثر ، وهي دور أنشأها كلها ميرون
الكبير من أجل الفلاحين ، ليكونوا على مقربة منه .

وقطعا المسافة بين آمارا وروجينوزا فيما لا يزيد على نصف الساعة . ولقد أعجب
تيتو أيما إعجاب بوفرة البهائم والحيل والدواجن والخدم ، وكذلك الصوامع
الضخمة ، وأكداش التبن الهائلة ، وأكوام عيدان القذرة .. وما كان ذلك لأنه
شعر باهتمام خاص إزاء هذه الأشياء ، ولكنه أراد أن يبعث البهجة في نفس
جريجور ، الذى كان يستمتع بهذا كله أشد المتعة .

ومدليا من روجينوزا حتى بلغا إيرفورو تقريبا .. وكانت دلى يسارها
ضيعة آمارا ، وعلى اليمين ضيعة روجينوزا ، أغنى نفس السهل المستوى الذى
لا ينتهى ، وقد بها قفرا ملاءا كثييا تحت سماء الحريف الشاحبة .. وكان في وسع

أما أن يرى ، دلى الأفق ، غابت آمارا الذهبية ، وعلى مدى منها إلى اليسار
السقف الأحمر الذى كان يلو مائة قصر غيكا في إيرفورو .

وتوقنا فى طريق العودة ، عند روجينوزا ، حتى يتسنى لجريجور أن يتخذ
بعض التدابير . . . وبعدة انطلقا فى طريق آخر صوب بيرلوجو ، ورجعا من
هناك إلى آمارا فى عمر مستقيم بين الحقول .

ولم يكن هيرديليا الشاب مهتما بالقرى والضيعة قدر اهتمامه بأن تسنح له فرصة
يحدث فيها جريجور حديثا خاصا . . . ولم يكن يحرق ، أو على الأقل لم يجد
المناسبة يسأله عما تم بينه وبين بالولينو بشأن قيامه بالعمل فى جريدة يونيفرسول
وطرق جريجور الموضوع دون أن يسأله هو شيئا ، فقال ، فِيم قال إن بالولينو
قد توسط فى أمره ، وإنه تلقى وعدا ، ولكن جريجور لم يقنع بهذا ، ومن ثم
تعهد بالولينو أن يتم كل شيء عندما يعود تيتو من الريف . . . ومعنى جريجور
فقال ، إن على تيتو ألا يشغل باله فى الوقت الراهن بالمصاحبة ، أو بهذه الجريدة
أو تلك ، وإنما عليه أن يعتبر نفسه فى بيته .

وأدعى إليه تيتو الشكر حارا ؛ وأخطره أنه قام فى الآمس بزيارة إلى بيت
الدم وبيت اتس فى اقربة . . . وأطرى جريجور الدم لمثابرتة واجتهاده وأضاف
أن والده يكن له احتراما كذلك ، رغم أنه يعتبره دعيا يطلب الزعامة . وكان
والحق يقال على شيء من ذلك .

قال هيرديليا : « أما أعتقد أنه غنص جدا . ولكنه متعارف بهض شيء »

فغقب أبوجا : « الإخلاص والتعارف يحملان ذوى الحظ المتوسط من الثقة
مبعث خطر كبير . . . وهذا هو السبب الذى جعل درا جوس لا يعيش فى دينا الواقع ،
بل يرى نفسه مدفا لكل اضطهاد وظلم . . . ومثل هؤلاء الناس يسبون كوارث
كثيرة ، على غير إرادة منهم » .

وبلنا آمارا عند الظهيرة ، فلما كنا على مقربة من بيت الشريف ، التقيا بالدم . . .
كان شاحب الوجه ، مضطربا غاية الاضطراب . فأسرع نحوهما . . . وألقى عليهما
التمحية ثم قال فى صوت خفه الانفعال : « كنت على وشك أن أذهب إلى السيد

ميرون ؛ وإن كنت أعلم أنه ربما يلقي في الشارع . ولكن كان على أن أحاول
المستحيل لأرى إن كان في مقدوري أن أف ما يجري .. أنا منذ سمعت بهرقتك
ياسيد جريجوريثسا ، أرجوك أن تستمع إلى ..

وقص عليهم كيف ضرب الشرطة عشرات الفلاحين ؛ وكيف جاء النساء
والشيوخ إليه وإلى نيكوديم يرجونهما أن يعملوا على إلقاء الفلاحين .. ومع ذلك
فهم لم يفعل شيئا ، رغم أن قلبه يقطر دما من أجابهم ؛ لأنه كان يرجو أن يخفف
بوتجبر من غلوائه ؛ ولكن الظاهر أن التحقيق لم ينته بعد ، وإن مزيدا من الرجال
سيكابدون المحنة نفسها في الأصيل .

وختم المعلم حديثه وهو يرتعد : « وهذا كله من أجل كيسين من الذرة ...
لقد عرض الناس أن يسلم كل منهم بقليل ، وبوضعا للترم عن خسارته . وأنا سوف
أسلم أيضا ، وكذلك كل واحد ، ولكن ... »

وسأل جريجور تيتو : « هل تذهب إلى ديوان القرية ؟ فوافق تيتو وانطلقوا
ورأوا خارج الديوان ، وفي الفناء ، جماعات من الناس ، أغلبهم من النساء .

وتلقى جريجور تحية مضطربة جافة من كل من كان بالمكتب ، وخاصة من
العمدة الذي كان يتدارس تحقيقات المساء مع الرقيب والكاتب .. وظن برايبلا
أن السيد جريجور يتساقد حياء بناء على أمر من أبيه لينين ما أحرزه التحقيق من
تقدم ، فباكي وقال إنه منذ الليلة الماضية لم بدخر وسعا ، هو والرقيب ، بغية
التوصل إلى الحقيقة ، ولكن جهودهما كلها صارت هباء . فما من أحد يريد أن
يعترف .. وصرح الرقيب ، وهو واقف مشدود القامة في حالة انتباه ، إنه عاقد
العزم على اكتشاف المجرمين ، ولكنه مازال في حاجة إلى بعض الوقت لأن عدد
الفلاحين كثير ، ولأنه يقوم باستجوابهم وحده .

وأشار عليه جريجور بأن يؤجل التحقيق حاليا ، وأن يحول دون حدوث
اضطراب في القرية لا موجب له .. واستطرد قائلا إن التحقيق ينبغي أن يتخذ
وجهة أخرى . إذ ينبغي عليهم أولا أن يتحققوا من الكمية التي سرت ، وأن
يتبينوا على وجه الخصوص الكيفية التي تمت بها السرقة ، وبهذا يتمكنون من

الكشف عن اللصوص .. فقرر العمدة عندئذ أنه لم يستدل على أثر ، أى أثر ، يقوم دليلا على حدوث سرقة عنوة ، وأن الملتزم رأى التازل عن شكواه .

ونسأل جريجور في بساطة : « إذا لم تكن هناك دلائل تدل على السرقة ، ليس من الجائر ألا يكون هناك لصوص ؟ »

فقال العمدة وقد أحمر وجهه انه لا : « لو لم يحدثنى في هذا السيد كوردا بنفسه ، فأنا أؤكد جازما أنه مامن لصوص انتهكوا المكان .. »

وأردف بوغبو بحزم : « مامن لص يعترف من تلقاء ذاته أنه قد سرق أى شيء المهم إلا إذا ضبط متلبسا .. »

وبقي العمدة ، بعد أن انصرف جريجور ، يتبادل المشورة مع بوغبو كان كلاهما يحترمان جريجور ، ولكنهما كانا يحافان والده أكثر . . . واستقر رأيهما على أن من المستحسن أن يذهب برايملا إلى الشريف ضمن اليوم ، فيدل إليه بما بذلا من جهد ، ويظهره بما أمره به السيد جريجور ؛ حتى ينفيا عن نفسيهما أية تهمة . . ولما علم ميرون أويجا بالخبر . أدهشه أن يسمع بتدخل والده ، ومع ذلك فقد أظهر موافقه على ما أمر به جريجور . ولكنه استطرد قائلا إن هذا لا يعنى توقف التحقيق ، لأنه يصر على وجوب اكتشاف اللصوص . أيا كان الأمر .

وفي المساء ، نقب المشاء ، حدث أويجا والده ابنه ، قائلا : « هناك أمر أود أن أتحذرك إليك بشأنه ؛ وهو . . . »

وأدرك بغير حاجة أن وجوده غير مرغوب فيه ، فوقف على الفور وهو يتنم « أرجو أن نأذناى .. أنا متعب جدا بعد كل هذا المشى اليوم .. »

« طابت ليلتك إذن ، قالها ميرون ، وفي صوته مسحة من الامتنان .

فل ترك ميردليا الحجرة أعرب جريجور بن استيائه لأن أباه لم يحامل ضيفه الشاب ، ولم يد له أى اعتبار . . وأتى الوالد بإشارة قتل بها الموضوع ، قال : لا خير في هذا . وليس هذا بالأمر الهام ، بل الأمر من ذلك هو أنك بدأت

تقوض أركان سلطتي بين الناس ، وتحول بينهم وبين تنفيذ أوامري .. وهذا أمر خطير يا بني ويتعين عليك ألا تعود إليه .. وطالما أنا أسعى على الأرض ، فأنا السيد هنا يا جريجور .. وأنتك لتعلم أنني أصر على هذا الرأي .. ولكن عندما أذهب ، فلك أن تفعل ما تشاء ، وإلى أن يحين ذلك الحين أرجو .. »

وكان صوت الأب يتردد قويا نافذا بحيث بدأ جريجور بنفسه يعود القهقري إلى أيام طفولته حيث كان عاجزا عيياً خاضعا خائفا يترقب .. فأجاب الساعة كما كان يجب حينذاك : « أمرك يا والدي » .

ولم تواته الشجاعة إلا بعد لآي ، فأضاف في أسلوب ما انفك صيبانيا : لقد حسبت أنني كنت أتصرف وفق مبادئك حين حاولت أن أوقف إيقاف الأذى بالآبرياء .

« لقد أخطأك الحساب » . قالها العجوز عتدا ؛ كأنما قد اعتمد قراراً لارجمة فيه .

الفصل الثالث

الجوعى

- ٩ -

راححت أيام مجاء العمدة برافيللا : لئتمس جريجور خفية ، وأسر له أنه لم يستطع الثور على اللصوص لأنه ما من شيء قد سرق . لقد أجرى تحريات دقيقة في المخزن ، هو والريب سويا ، وحققا مع كثير من المشبهين ، ولكن ذلك كله لم يسفر عن شيء .. وذهب الرجل في النهاية إلى كوزما بيرونا ، فصرح هذا له بأنه لم يترو إطلاقا في تقديم شكواه . وأنه على ثقة الآن من أن السرقة لم تقع ، وأنه في حيرة من أمره فهو لا يدري هل يخطر الشريف أو لا يخطره ، ولكنه يخشى ألا يغفر له أيوجا أبدا .

قال العمدة : « وماذا جئت إليك .. لأنك أكثر صبرا واحتيالا من أهلك . وربما تفضلت فأوصيت بنا الشريف ميرون خيرا ، وأبلغته أننا لم نتمكن من تنفيذ أمره ، وهو ما يحتمه علينا الواجب ، وهو ما نحب أن نقوم به .

ونقل جريجور النبأ إلى أبيه ، في اليوم نفسه . واستمع الشيخ إليه هادئا ، ولم تنم عنه بادرة دهشة أو غضب .. ولكنه ، في صميم نفسه . سخط على بيرونا . وبخاصة لأنه مضطر الآن إلى الاعتراف أمام ولده بأنه أخطأ ، وإن كان هو لن يعترف بهذا من فوره .

« جميل منك أن أخبرتنى بهذا ، قالها في النهاية ببساطة ، ثم أضاف بعد قليل كأنما يحدث نفسه : « ما أنت ذا ترى بنفسك أى رجل من الرجال هذا الملتزم .. ولكن دع الامر لى ، فأنا ... »

وتوقف فجأة ، لأنه لم يشأ أن يأخذ فى نقاش ، وطرق موضوعا آخر .. والحق أن ما أدى قلبه كالسكين هو تلك الشائعة التى تقول بأن ضيعة نادينا معروضة للبيع

وهو لم يشأ أن يستجلى الأمر ساعتها ، فهذا أمر لا يليق ، ولكن الشائنة تأكدت لديه من عدة مصادر ، وبصور شتى .. ولقد صرح جريجور نفسه أن نادينا قد ذكرت له شيئا من هذا القبيل منذ مدة .. ولكنه لم يلق بالآلى الموضوع ، لأن زوجه عندما كانت تمحدثه فى هذه الموضوعات ، لم تكن تريد عادة إلا أن تعرب له عن احتقارها لكل شيء يمت للصيغة بصلة .. واستغل أيوجا الشيخ هذه الفرصة فقال بغير احتفال : « لست أدرى هل الإشاعة الخاصة ببيع عزبة باباروجا تحمل فى طياتها ظلا من الحقيقة ؟ » .

ودهش جريجور للسؤال الذى ما كان يتوقعه ، ولكنه رد بإيماءة دلت على عدم الاكترات ، قائلا : « أنا لا أدرى ، ربما كان فيها شيء من الحقيقة .. أما من ناحيتى ، ففى تستطيع أن تفعل ما تشاء .. إن هذه العزبة تخصها ، وهى تستطيع أن تفعل بها ما تريد .. » .

قال ميرون وهو يحاول أن يستشف الحقيقة من تطرقه : « ولكنك تعلم حق الدلم أنها لا تستطيع أن تبيع شيئا دون رضاك .. » .

« أنا موافق على ما تريد ، هذا أمر مسلم به .. وهى إذا كانت تفضل أن تؤجر الأرض ، بدلا من .. » .

« تقول إنك موافق ! » قالها الشيخ دون أن يحيد بصره عنه .

فرد جريجور بثبات ، وعيناه فى عيني آبيه : « أنا بطبيعة الحال موافق على ما تريده ، متى شئت ، هذا أمر يدهى .. » .

وأصر والده قائلا : « هل أنت موافق على أن تبيعها لآى شخص كائنا ما كان حتى ولو كان للفلاحين ؟ » .

فقال الشاب بابتسامة جافة مقتضبة : « وما بالفلاحين ؟ أنا أفضل الفلاحين جيوانا لى ، حتى يرووا ظلام الذى يحملهم يتعطشون للأرض ، فيتركوننا نمش فى سلام ، وأنا أفضلهم على بلاتامونو ، ومزهم على شاكلته من المتمردين .. » .

وهنا قال الشيخ ، كأنما كان يتوقع هذه الإجابة من وقت طويل ، فتحدث في صوت رقيق لا يخلو من عتاب ؛ فقد كان يعلم أن هذا يؤثر في ولده أبلغ تأثير . أنا آسف يا بني ، آسف جدا أن أرى الدعايات الباطلة قد أفسدت عليك حسن تقديرك للأمور . ولإني ليروعني ذلك عندما أفكر في مصير هذه الضيعة التي تملكها من بعدى . . ولست أدري لم تعاودني ذكرى أخى تيوفيل ، طيب الله ثراه ، فأنا أخشى أن تمحذو أنت حذوه ، وتبدد كل شيء ، فلا تخلف وراءك غير التراب . .

فقال جريجور ، وهو يشعر بالطمأنينة من هذه الناحية : « في وسعك أن تتقني يا والدى ! . . فأنا أحب الأرض حبك لها ، ليس في هذا شك . . ولكن هذا الحب لا يعنى عني عن حقيقة هي أن للفلاحين الحق في أن يعيشوا أيضا . وتملك النضب ميرون عند هذه النقطة .

« معنى هذا أنني لا أحب الفلاحين ، وأنتى لا أريد لهم أن يعيشوا . . أليس هذا قصدك ؟ . . أنا الذى قسمت كل شيء قسمة عادلة بينى وبينهم ، وشملتهم برعايتى ، ثم تزعم أنني لا أحبهم — أما أنت يا من تحبهم فتعلا أدمعتهم بالوعود الكاذبة والكلمات الجوفاء ! . . هذا هزل لاشك يا جريجور ! ،

ثم واصل الحديث ، بعد برهة ، في صوت أهدأ ، قائلا : « إن الزراعة تحتاج إلى الخبرة ، والخبرة عامل حاسم في الموضوع . . والضيعة التى تقسم بين الفلاحين مقضى عليها — هذا أمر محتوم لا فكاك منه ! . وأنا لا أدري كيف يمكنك أن تصل إلى اتفاق مع الفلاحين عندما تذهب إليهم هذه الخمسة والالفين من البوجونات ؟ . . لاشك أنهم سيهزأون بك ، ويسخرون منك يا بني . . لأنهم اليوم ، (وأراد أن يقول « لصوص ، ولكنه تذكر حادث بيرونا ؛ فأمسك) لأنهم اليوم كما عهدناهم ، ولكنهم عندما سيستخفون بك ، بل وربما قبضوا عليك في النهاية . . الجماهير يا بني في حاجة إلى سيد يسوسها ، وإلى يد قوية تكبح جماحها وإلا عمت الفوضى ! . .

واستمع جريجور لإليه ، ولم يحاول أن يبدي اعتراضا .. فهو قد سمع أراء آبيه مرات ومرات ، وكان يعلم ألا سبيل إلى تغيير طبعه .

وانطلق ميرون يعرب عن آرائه ، قائلا : « لذلك أنا أرى في حالتنا هذه ، أن موافقتك على البيع يجب أن تتحول إلى سلاح للدفاع عنا .. أنت موافق على البيع لأنك تظن أن ضياع العزبة لن يؤثر على ممتلكاتك أدنى تأثير ، هذا أمر مفهوم على كل حال .. ولكن الواقع أن الخطر لن يتلاشى تماما ما لم تسع بنفسك وتشتري باباروجا » .

وظهر الاهتمام على الشاب ، فقد بدت الفكرة له طريقة كل الطرافة ، وقال : « لو أن نادينا غلت أنتى سأكون المشتري فربما غيرت رأيها .. ذلك أنها تريد أن تتزعى من الريف ، لا أن تثبت جذورى فيه .. لماذا إذن لا تشتريها أنت ياوالدى ، إن كنت ترغب فيها كل هذه الرغبة ؟ » .

ولم يحرم ميرون جوابا هنيئا ، كأنما هو قد استمع إلى نبأ مذهل .. ثم قال فى تفكير : « نعم ، الرأى ما رأيت يا جريجور ، لقد أصبت والحق يقال .. » .

- ٢ -

كان الطقس رائعا ، غطر لصاحب الحان ، كريستى بوزوك أن يدعو فرقة من العازفين لبيء للشباب أن يرقصوا رقصة « الهورا » طوال الاصيل كله ، وللشيوخ أن يستمتعوا بكأس أو كأسين من الشراب .. وكان اليوم هو آخر أحد من شهر أكتوبر ، وكان الطقس إذ ذاك باردا رطبا فى العادة .. أما اليوم ، فقد كانت السماء صافية ، والشمس تلقى فيها أشعتها الذهبية ، فنبعت الدفء فى النفوس ، وتفسر نورا حونا على الأرض الكلية ..

وبدأت الرقصة فى الفضاء القائم أمام الحان ، وسرعان ما امتدت وانتشرت إلى الطريق ، وقد وقف هناك النساء والفتيات يرقين مايجرى .. وكلما مرت عربة ، أو عربتان ، وهو الأمر النادر ، كان الناس جميعا ، الراقصون والمشاهدون ، يتجمعون

في الفراغ المحدود أمام الحان ، وإذ ذاك تماهى صرخات النساء خوفاً ، ففترق العبارات الشاعرية التي يتغنى بها المغنون .

وكانت الرقصة الآن تدور في منتصف الطريق ، ونفساب في نغومة ويسر ، والنساء يحملن فيها مبتهجات ... ولم يكن هناك سوى عازفين اثنين ، لأن صاحب الحان أبي أن يدفع لأكثر من اثنين ، قائلًا إن النتيجة هي هي ، سواء أكان العازفون اثنين أم ثلاثة ، طالما أنهم يجيدان العزف ولا يتوقفان عنه أبداً .. وأخذ العازفان يتحركان أكثر مما يتحرك الراقصون والراقصات ؛ مرة هنا ومرة هناك ، تشجيما للجمع كله .. وكانت أحذية الرجال تصطك ثقيلة على الطريق ، أما الفتيات فكن يتأودن بخفة تأود الفزلان ، لامتداد الواحدة منهن تمس الأرض مساً .

وكان الشيوخ مستلقين في استرخاء على المقاعد التي قامت ملاصقة لجدران الحان ، ووقف ليف من الرجال في رقعة من الأرض الحلاء يتشاورون شأنهم أيام الآحاد .. وكان الناس دائماً يؤمون حان آمارا ، ويقصدونها من كل القرى التي كانت من قبل جزءا من ضيعة أيوجا الكبرى ؛ تلك كانت عادة توارثها القوم جيلا بعد جيل .. كان الجميع يأتون هنا بمتاعهم ، من ليسيزي وفايدي وبيروجو ، ومن جليجانو وباباروجا ، هذا فضلا عن روجينوزا القرية ، وهي قرية كان سكانها يحسون أنهم بين أهلهم في آمارا ..

وكان سيرافيم موجدوس ، وهو رجل أشيب الفودين ، رقيق العينين ، يحكي ما عاناه على أيدي الشرطة .. وكان ، وهو يتكلم لا يتطلع إلى الذين وقفوا قبالة ، بل كان يحملق إلى الأمام ، كأنما كان ينافح عن قضيته أمام قضاة عدول . وفي أثناء ذلك تعلق طفل بذراعه ، وأخذ يلف ويدور حوله في مرح ، كأنه فراشة بيضاء تترافق حول شجرة معمرة عتيقة .. وكان كل واحد يعلم تفاصيل ما حدث ، ذلك أن أبناء التحقيق ذاعت وانتشرت في القرى كلها .. وكان هناك بين الجمع ثلاثة غيره من الذين اقوا الهوان على أيدي الشرطة ، ولكنهم مع ذلك لم يقولوا شيئا ، بل أخذوا يستمعون إلى رواية سيرافيم كأنما كانوا يستمعون إلى حكاية طرفة قصص عليهم لأول مرة ، أو كأنما كانوا يتلصسون فيها شيئا من العزاء للالام التي اعتصرت قلوبهم ، وهم يحيونها مرة أخرى . وكان إيجنات

سيرسل ، وهو أصغر من موجوس سنا ، ولكنه لنظراته الشاردة النامضة يبدو أكبر منه سنا ، يركز عينيه على شفتي المتحدث ، ويومئ إليه من آن إلى آن ، وهو يتنهد ويكرر باستمرار كلمات بعينها : « ولكن ما حيلتنا إزاء هذا كله ؟ » .

وكانت لهجته تحمل ، على الرغم منه ، مسحة غريبة من اليأس والذلة والاستسلام بحيث إن أولئك الذين وقفوا حوله أخذوا يرمونه بنظرات «فعمة بالاحتقار» . وأخيراً تملك الغضب تيودور ستريمبو ، وهو أرمل ذو ثلاثة أطفال ، وما كان يملك من الأرض شيئاً ، وصاح : « أتقول ما حيلتنا ؟ .. ما حيلتنا ؟ » .

ولكنه خشي مغبة ثورته فأضاف على عجل مهمباً : « علم ذلك عند ربى ! » .

وكان إيجنات سيرسل قد نال حظله كذلك من الصرب والإهانة على يد سلفه بوجيمو في نقطة الشرطة منذ أربعة أعوام ، وكان ذلك بسبب سرقة بمائة تم اكتشافها في بيت الشريف . . ولقد ضرب إذ ذاك ضرباً مبرحاً ، ألزمه الفراش زهاء أسبوعين ، ولم يبرأ من آثاره أبداً . وحاول ليوتى أوريسور أن يلفس من غضب تيودور ، فقال : « لقد كنت أحد الذين اجتازوا هذه المحنة مع سيرافيم وغيره .. ولكن ماذا يملك أولو الأمر غير ذلك ؟ .. إن السرقة وقعت على كل حال ؛ ولا يحق لأحد أن يسرق ما ليس له » .

« السرقة حرام ، هذا حق .. » ، قالها الجمع موافقون . . وتنفسوا الصعداء كأنما قد أزيح عن أفئدتهم حجر ثقیل . . وعندئذ غنم تريفون غوغو يحدث نفسه ، رغم أن القوم جميعاً قد سمعوه ، فقد كان ذا صوت خشن غليظ يتمشى مع سمته القضيبي ، قائلاً : « ولكتنا نحن أيضاً لنا حق معلوم في هذه الذرة ! »

وشخصت إليه الأبصار كلها في نفس اللحظة ، كأنما هو قد كشف عن سر خفي خطير الشأن ، أو كأنما كان هو على الأقل قد أعرب عن عقيدة تغلغات في نفوسهم جميعاً . . ولكن ما من أحد فيهم ينس بكلمة ، حتى تريفون نفسه ، وهو الذى تعود أن يكرر كلامه إن رأى أنه ذو وزن ، لزم الصمت ، وغض بظفره .

ومضت فترة قصيرة لم يقطعها غير صريف المازفين ، وصيحات الرافضين ؛ وأخذ كل واحد في نفس الوقت يتحدث في موضوع غير الموضوع ، وبلهجة غير

اللبهة . . ما عاد أحد فيهم ينظر إلى الآخر ؛ كأنما كان كل منهم يخاف أخاه .
بل مضى بدلا من ذلك يقرب رقصة الهورا التي تدور في الطريق . . واختلطت
أصواتهم وامتزجت في آهة طويلة لا نهاية لها .

ودارت الرقصة سريعة ؛ وشكل الراقصون دائرة واسعة أخذت تتلوى في
وهن التواء الثعبان بين الناظرين ؛ وكانت أحيانا تمس ، مس السوط الرفيق ،
جماعة النسوة اللاتي وقفن على جانب ، وكانت أحيانا أخرى تلامس الرجال
الذين تجمعوا في براح الأرض أمام الحان . . وتجلت نشوة الراقصين في صيحاتهم ،
وفي خطواتهم الإيقاعية المتشابكة الدقيقة . . . وتجمع الناظرون ، وقد تمتد
فيهم حيا السرور ، فهبت نفوسهم جميعا إلى الدوبان في كيان فرد واحد ، دون
أن تساورهم هموم أو مشاغل .

وكان أشدهم خفة بانتليمون فادوفا ، وقد سراجم أن يروه سعيدا ، ذلك أنه مضطر
إلى الالتحاق بالجيش بعد أيام قلائل ، ولا يعلم أحد إلا الله متى تناح له الفرصة
ليحظى بشيء من الطرب مرة أخرى . . . واقدجال هذا الخاطر بذهنه هو أيضا ؛
رغم أنه أعلن عن طموحه إلى بلوغ رتبة العريف قبل أن يسرح من الجيش . شأنه
شأن بيتر يتسا ، بن بيتر ، الذي سوف يعود في نفس الوقت الذي يذهب هو فيه .
على أن بانتليمون في صميم نفسه كان يشعر بالعرب من الحياة المجبولة التي تلتظره
كجندي بسيط برتبة « نفر » . . . وهو قد تقصى الموضوع مع كثير من الناس ،
ولكنهم كانوا جميعا غفوريين بالسنوات التي قضوها في خدمة الجيش ، وقالوا إن
حياة الجيش حياة رائعة ، وإن كانت صعبة للغاية .

بيد أنه كان يشعر بالغم بسبب دومنيكا ، وهي شابة ريانة ، ذات وجنات
متوردة ، وفي السابعة عشرة من عمرها ، وكانت الآن تحرص على ملازمته في
رقصة الهورا ، وتعلق بذراعه ، ولا تريد أن تتركه أبدا . . . وفاض قلب
بانتليمون مرارة عندما خطر له أنه سيغيب عنها مدة لا يدري إلا الله مداها . .
لقد أراد أن يتزوجها قبل التحاقه بالجيش ، كما فعل كثيرون غيره من قبل ، ولكن
أهله وأهلها أبوا عليها ذلك . فوالدها يريدان منه أن ينسى الفتاة ، ويفضلان له فتاة

ألقى به منها عندما يحين حين فيترك الجيش ، أما والداهما ، وبخاصة أمها . فكانا يخشيان أن يصاب باتيليمون في الحرب كما حدث للسكين فلورى بوتوك ، الذى تزوج إنجلترا ، ابنة نستور موكينكو ، وكان إذ ذاك لا يتجاوز الثمانية عشر ربيعاً ، فأُنجب منها ثلاثة أطفال ، ثم خلفها ومات وهو فى خدمة الجيش . . . والحق إن القلب لينفطر الآن عند مرآها . . هذا ولا ينبغي أن يفرب عن البال أن إنجلترا كانت سعيدة الحظ إذ أُتيح لها أن تحتفظ بالأطفال فى حضانتها ، ثم إن والدى فلورى قد أعطياها إرث ابنيهما ، وهكذا تأق لها الآن أن تملك داراً صغيرة تعصمها من عاديّات الزمن . أما دومنيكا فقد لا يتاح لها شيء من ذلك كله ، ولئن أصابها سوء فسوف تغدو امرأة نصف ، لا هى بالعدراء ، ولا هى بالزوجة — بل مجرد مخلوقة يطعم فيها الرجال الذين يحرون وراء النساء .

ولم يكن باتيليمون ، وهو الذى تتحكم فيه العاطفة أكثر مما يتحكم العقل ، يكثر لهذه الأمور . . كان كل همه أنه راحل ، وأنه لن يعود إلى رؤية هاتين العينين العجائوين ، اللتين تلهفان شوقاً ، واللّتين هما فى نظره تخفيان أسرار الوجود كلها وأنه سيحرم من التطلع إلى فيها الدافئ الدقيق الذى يبشر بالبهجة والوعود . . . هكذا كان ، يشعر بالقبضة والآسى فى آن واحد ، ينط ويرقص بكل جوانحه ، لأنه يريد أن يملأ سمع دومنيكا وبصرها ، وتريد منها أن تتذكر كذلك أنه لا يوجد بالقرية فى آخر أروع منه ، وهو يريد منها ألا تنساه أبداً ، أو تمضى فتحب أحداً غيره . . . وأدركت دومنيكا أنه يأتى بهذا كله من أجل خاطرها ، فتاهت نفسها زهواً . . كانت تضغط على يده من وقت إلى آخر ، وتلصق جسدها بجسده ثم تلقى نظرة على الآخرين كأنما تشهدهم على أنها تزعم أن تنتظر حبيبها مهما طال المدى .

على أن أكثر شبان القرية لإقداً ما كان نيكولاى دراجوس ، شقيق المعلم ، وهو شاب متين ، ذو شارب حالك السواد ، طويل القامة ، عريض المنكبين ، ذكى ، مجدى فى عمله . . وما كان ينقصه شيء ليكون أروع فلاح فى القرية إلا أن تتوافر له زوجة خلية به . . والواقع أن وجود غيرغينا ، ابنة شيريلابون ،

إلى جانبه دل على أنه حاذق أيضا في هذه الأمور . . فقد كانت الفتاة وحيدة والديها ، وتميز بالسحر والفتنة . . وكان شيرلا يمتلك عدة قطع من الأرض ويبتاع هنا في أمارا ، ولكنه قبل عام مضى انتقل إلى جلايجانو حيث كان يعمل الآن مشرفا في خدمة الملتزم بمقتضى عقد كفل له أجراً سخياً . . وكان قد ترك أملاكه في أمارا في رعاية والده . وهو رجل قد تخطى السبعين منذ زمن طويل ، ولكنه مازال قويا معافى ، أبرع من الشباب في الحرث والعرق .

ولاذ ذاك انطلق صبي يغنى مع الراقصين ، دون أن يكرث لأحد ، وقد أغضض عينيه ، ونفش صدره كقرخ صغير .

ياورقة الفلاح^(١) الخضراء
ما أشد فرحتي بالرقص واللعب

ولم يتالك الضارب على الكنان نفسه ، وكان من العجبر ، فرد عليه متغنيا :

ياورقة العشب البرى الخضراء
الحياة هو ولعب
لتناس قاطبة ما عدا من اسمه إيلياه

وضيح جميع الذين كانوا يرقصون ضحكا ، كذلك أولئك الذين وقفوا يرقبون المنظر ، بما فهم الصبي نفسه ، فقد كان اسمه إيلياه سيرلان . . ودبت الشجاعة في نفس الفجرى ، إثر استحسان الجمع ، فصاح في الصبي : « لئن لم تنته غنيتك مقطعا آخر عن سيرلان » .

وتعالى الضحك مرة أخرى إلى عنان السماء . . واستمرت الهورا كتلة من الأجساد الدافئة ؛ كأنما لم تتوقف لحظة ، وأخذت تلف وتدور ، في صخب وجنون ، كأنما الرقصة لن تفتنى أبدا .

(١) الفلاح نبت سام يسبب النوم وينبت برياً في بعض الأنحاء .
(المترجم)

أما في الحان ، فقد جلس حول مائدة طويلة ، في ظهر القاعة ، اثنا عشر رجلا من زعماء الفلاحين ؛ وأنضروا يقابلون المشورة زمناً طويلاً ، ولكنهم لم يصلوا إلى اتفاق فيما بينهم ، فعمدوا إلى كثوس الشراب يستمدون منها الشجاعة والإقدام . وكان بوزوك يقوم بنفسه على خدمتهم ، فقد كان هؤلاء من القوم المحترمين ، الذين يدفعون الحساب على وجه اليقين . . واشترك صاحب الحان كذلك في النقاش ، على قدر ما سمح له العمل ، فقد كان موضوع الحديث يدور حول الأرض ، وهو ، شأنه شأن أى رجل شريف ، لا يحلم بشيء غير الأرض ، والواقع أن ما دفعه إلى العمل لم يكن غير الأمل في ادخار قدر من المال يهيء له أن يشتري عدة بوجونات من الأرض الطيبة ، ومن ثم يصبح رجلاً مرموقاً . . وكان لوكا تالابا ؛ وهو جبل في هيئة رجل ؛ هو الذى دعا إلى عقد هذا الاجتماع ، وكان الرجل قد تولى منصب العمودية من قبل . . ولكن الفلاحين كانوا في رية وعلى جنب . . وكان كل رجل فيهم يخشى أن يغضب عليه ملاك الأرض . لأنهم — أغنى الفلاحين — يرغبون في شراء مزرعة السيدة نادينا ؛ ومن ثم قد يرفض الأشراف إعطائهم أى أرض يزرعونها ؛ فيموتون جوعاً . . وتسأل لوبو شيريتو ، وكان أكبرهم سناً ؛ وله بخصلات من الشعر الأشيب تتدلى على كتفيه كما يتدلى الخيط من المغزل ؛ وعينان زرقاوان دامعتان ؛ قائلاً في جذع : « هذا كله جميل أيها الأصدقاء ، ولكن لنفرض أن الشريف قال من البداية ، إنى لن أبيعكم العزبة ؛ لأنكم لا تملكون الكفاية من المال ؛ ولا بد من دفع الثمن كله دفعة واحدة . . »

وقاطعه لوكا تالابا ، وكان دعياً ، قائلاً وقد تألق وجهه الفنى حماساً : « الثبات ، يا عم لوبو . . . نحن لو أخذنا في هذا الكلام فلن نتمكن من شراء الأرض أبداً طوال حياتنا ؛ ولن يتأتى لنا المال الذى تنقده الملاك حين يطلبون إلينا ذلك . . أنت رجل كبارة ، وأنت تدرك جلية الأمور . . ومن المعلوم أن البائع هو الذى يتساهل ويتنازل ، وليس هو بالذى يضيق عليك الخناق كما تزعم يا عماء ! . . »

وجاء إلى المائدة في هذه اللحظة صاحب الحان ، وقد حمل كأساً كان قد طلبها ماتي دولمانو ، وهو رجل هادئ متزن من أهالى ليسيزى ، وقال : « في مقدورنا أن نستدين أيضاً من البنك ، لو اقتضى الأمر . . . وسوف يعاونا

أصحاب المصرف ، لو سألناهم ذلك في أدب ، وأخبرناهم بأننا نريد شراء عربة ، لأن المال مضمون ، ولأنهم يستطيعون استرجاعه في أى وقت يشاءون .

واستطرد لوكا ، وقد ازداد ثقة : « إنه على حق — سوف نحصل على المال من البنك . . كذلك يجب أن نعمل من جانبنا ، ونحن بهذا إنما نعمل لأنفسنا... ولبضع كل منا الآن ما معه من مال ، ونظم بعضه إلى بعض ، ونرى ماذا يتجمع لدينا ، أقصد نحن والكثيرون غيرنا ممن يريدون أن يشتركوا معا . . وبعدئذ نتقدم بهذا المبلغ دليلاً على حسن نيتنا ، ثم بعد ذلك نعمل على الحصول على بقية المبلغ . »

وارتفع صوت ماران ستان فجأة ، وهو رجل ضعيف ، جلد على عظم ، له أسارير حادة كأسارير الطائر ، وقد غلبته كمية الشراب التي احتساها ، فصاح غاضباً من ركن الطاولة : « لو وضعنا أيدينا على الأرض ، فلن يتمكن أحد ، كائناً من كان ، من انتزاعها منا ! » .

وتعالت صيحات أخرى مؤيدة له : « نعم ، نعم . . نحن لن نسلم الأرض أبداً ، لو تمسكنا من الاستيلاء عليها . »

وتدخل صاحب الحان ، كريستى بوزوك ، مرة أخرى ، وكان يرى ماران بنظرة ازدراء : « أو تحسبون الشريف جاهلاً كل الجهل بحيث يسلمكم الأرض قبل أن يضمن تقوده ، إنكم بهذا تتمسكون من الإيقاع به وتقولون : « ليس عندنا مال . . ومع ذلك نحن نرفض أن نعيد إليك العربة ، حتى ولو لم ندفع ثمنها ، لأن الأرض هي أرضنا على كل حال . » صدقنى يا ماران . . إنك مهما شربت من خمر فلن تخدع الشريف ميرون هكذا ! » .

ورد لوكا غاضباً : « لا يوجد أحد عنده مسحة من العقل يفكر في وضع يده على الأرض دون ثمن . . . ماران وحده هو الذى يفكر في ذلك . . . هذا حديث سكارى . »

وأوماً الجمع استحسننا . . وتطلع ماران ستان إلى كل رجل فيهم ، والظاهر

أنه عجز عن أن يفهم علة وقوفهم منه موقف المعارضة ، وما كان يعبر إلا عما
يجيش بصدر كل منهم .

وكان لويو شيريتو ، كالمدب به ، يقلب الأمور في ذهنه قبل أن ينطق
بالكلام ، فحدث لوكا الآن زاجرا : « كنت أحسبك أعقل من ذلك يارجل ..
ألا ترى أننا نفتقر فقط على الكلام والجدل والحصام ، ونحن لا ندرى إطلاقا
هل توجد عزة معروضة للبيع أو لا توجد ؟ »

فقال لوكا تالابا غاضبا : « هذا هو ظاهر الأمر .. إنما أنا أعلم علم اليقين أن
العزة معروضة للبيع يا عماء ، وقد علمت هذا من شيريلابون ، وهو يد الملزم
اليوناني البني ... أفهمت يا عماء ؟ ... لقد حدث اليوناني شيريلابون ، كما أحدثكم
الآن ، فقال إن العقود في السنة القادمة ستختلف ، بمشيئة الله ، عنها هذا العام ..
وقال اليوناني لشيريلابون : « أنا أنوى أن اشترى عزة السيدة ناديتا لحسابي الخاص ! »
هذا ما قاله اليوناني .. وأنت يا عم لويو ، لا بد أنك تذكر ، فقد كنت كبير
السن إذ ذاك ، ألم يحدث نفس الشيء عندما باع شقيق الشريف ميرون أرضه ؟ »

واعترف الشيخ قائلا : « لقد تطايرت إشاعات كثيرة إذ ذاك .. وما من
أحد يستطيع أن يتذكر هذه الإشاعات كلها ... ولكنكم تعملون جيدا ، أيها
الأصدقاء ، أن الاشراف يرفضون أن يبيعوا أرضهم للفلاحين ، لأننا لو أصبحنا
من الملاك أيضا ، نحن الفلاحين ، فمن ذا الذي يفلح في الضيعة ؟ » .

وران على القوم صمت حزين عقب كلام الشيخ لويو .. وترامت إلى الاسماع
من الخارج وقع أقدام انراقصين ، ونغمات العازفين ، وصيحات الفتى باتيليمون
فادوفا ... وبعد لحظات سمعوا من وراء البار صوت صاحب الحان ، وهو
يتهر مساعده الذي يأتي لموته أيام الاحاد وهو فتى ضخم لا يتجاوز من غياه .

« أنت يا هذا .. ألا تسمعن ؟ .. هات كاسا لسيرافيم موجوس .. أفهمت ؟ ..
هاك ، خذ هذا .. أخذك الشيطان ، أيها العجل السمين » .

وبدد صوته الفليظ ارتباك الفلاحين ، وكأنما لوكا قد استرجع صوته ،
فتكلم في نبرات أعلى عن ذي قبل ، قائلا : « هكذا كان حالنا دواما ... وهذا هو

السبب الذى يقعد بنا عن أن تنفض عنا رداء الفقر .. والسبب هو أننا نخاف .. نخاف أن نأتى بهفوة .. لقد رفضنا أن نسى إلى الاشراف، قتركا الغير بخطفون الأرض وهى فى متناول أيدينا .. اطمئن يا عم ، طالما كان للأشراف ضياع ومزارع ، فسيجدون دائماً رجالاً يفلحونها لهم ، والعلة هى أن الناس يتكاثرون باستمرار ؛ ولكن رقعة الأرض لا تتسع ولا تمتد كالمطاط .

لماذا تكثرون من الكلام ؟ ، ثم صاح بهم فازيل زيدارو فجأة .. لقد أمسك عن الكلام حتى ذلك الحين ، لأنه لو استرسل لأسهب وأفاض ، ولطلب إليه الآخرون السكوت ... أما الآن فقد تفجرت مشاعره فى صوت علا على غيره من أصوات قائلنا : هيا بنا نقابل الشريف ، ونعده بأدب ، ثم نستولى على العزبة .

وأتى ماتي دولمانو على كأسه ، ومسح شاربه البنى يظهر يده ، ثم قطع فى الأمر وقال : د الشريف أبونا وراعينا على أية حال ، وهو لن يتخلى عنا .

وكان لوكانا لا يريد أن يعرض هذا الاقتراح بنفسه ، وهو مادعا القوم إلى الاجتماع إلا من أجل هذا الغرض .. أما أن يسمع فكرته هو تتردد على لسان شخص آخر فأمر لا طعم له .. لقد شعر كما يشعر حصان تقدم به العمر حين يستجمع قواه ليجذب عربة ، فإذا به يقع أرضاً ، لأن العربة كانت فارغة .. ومن ثم حك مؤخرة رأسه وقال : د مهلا أيها الأصدقاء .. أو نحسبون ذهابكم لمقابلة الشريف مثل ذهابكم إلى الطاحون ؟ لا بد لكم من أن تعرفوا على التحديد ماذا تريدون ، لأنه سوف يطرح عليكم أسئلة ، ويحاولكم ويداوركم .. ونحن لو اقتصرنا على الوقوف هناك كالبلهاء ، فسوف يتبين من الغضب ، ولن نخرج نحن بنتيجة غير ضياع الوقت سدى ، بل قد تزداد الأمور سوءا ..

وكان الأثر الذى خلفه هذا القول هو أنه أفضى إلى مزيد من الارتباك عجز لوكان نفسه عن محوه .. واستبد الخوف بالجميع ، وأخذ الجبن بنفوسهم ، فضاء شوقهم إلى الأرض ولهفتهم عليها .. وانفض الاجتماع كما ينفض الكرى عن العيون لطول السهاد .. وحاول لوكان عبثاً أن يصلح العطب ، فقال : د لا بأس أيها الأصدقاء .. دعونا نتخذ قرارا ..

وأدلى كل منهم بقول ، ولكن ما من كلمة من كلماتهم حملت أى معنى .. أما

ماران ستان فكان وحده هو الذى احتفظ. بشجاعته ، فأخذ يصيح المرة بعد المرة كأنما كان يسعى لمصلحته وحدها ، قائلا : هذه الأرض أرضنا نحن ، لأننا نحن الذين نفلحها ، كلها عن آخرها ... »

وأدرك صاحب الحان أن الأمور قد اضطربت ، فعكف على عمله وراء البار وهو ينهر مساعده ويعنفه . . وجلس إلى طاولة قرب الباب شرطى شاب يرى المظهر ، وكان يحسنى كأسا مع أنطون نانسو ، ويتحدث فى نبرات حذرة رقيقة ، وهو يرقب فى حمرة الشباب وهم يرقصون الهورا خارج الحان . . وظل بوزوك وهو الرجل الحريص ، يرقب الرجلين ، فقد خشى أن يكون الشرطى قد تظاهر بمشاهدة الرقصة من أجل أن يستمع إلى ما يدور بين الفلاحين ، ثم ربما ينقل المعلومات إلى أولى الأمر ، ومن ثم يقع صاحب الحان فى مشاكل مع الإشراف .. وخشى ماران مغبة فورته الغاضبة ؛ فذهب إلى الشرطى يسأله مبتسما إن كان يود أن يشترك فى رقصة الهورا . . وتضرج وجه الشاب ، فقد كان فى صميم نفسه يود لو اشترك فى الرقصة ، ولكن خوفه من أن يجلب على نفسه غصبة ضابطه الأعلى صد نفسه عما تريد ، ومن ثم قال ، وهو يتحسر ، إنه لا يشعر بميل إلى الرقص ، ولكنه يؤثر بدلا من ذلك كأسا أخرى . واطمان بوزوك بالا ، فذهب إلى الطاولة الكبيرة ، وقال : « يبدو لى الأفادة من هذا الحديث الطويل .. ماران هذا عقله عقل دجاجة ، إنه يبكى وينوح دون أن يدرك أن الرجل الحق لا يولول كالنساء ، بل ينهض ويقوم بعمل من الأعمال .. »

وعندئذ قاطعه ماران ستان غاضبا : « عجبا ! .. من السهل عليك مخاطبة الناس بكل قبح ، لأنك تملك الأرض ، وأمورك تجري كما تشتهى ، ثم أنت على علاقة طيبة بالشريف .. الأمر لا يعينك فى كثير أو قليل .. »

« هو ! ! أقول لا يعيننى ؟ سوف نرى ! ، وتملكه الغضب وقال : « أنظرن أننى أستمع بخدمة أمثالك حتى تذهب الحز يقولكم ، أم ترانى أفضل ذلك على أن أجعل الناس يخدموننى ؟ أنت لاتصلح لشيء أبها السكير ، وأنا أعجب لهؤلاء الناس الذين يسمعون لك بالخط من كرامتهم ... »

« أتراني أشرب على حسابك ؟ »

« لو أعطيتك أنا الفرصة لشربت ، ولكن ... »

وصاح لوكا تالابا وهو ينهض عن مقعده : « كفى نزاعا بحق السماء .. لقد سئمنا هذا الشجار ، هيا بنا إلى دار الشريف ، وليحدث ما يحدث .. »

ونهبوا جميعا ، كأنما دفعتهم لإرادة قوية ، فقفزت على ما اعترأهم من تردد .. ونظر صاحب الحان حواليه ، واطمأن إلى أن كل واحد قد دفع ماعليه ، ثم قال وهو هادئ : « رافقتكم السلامة !! .. خذوا حذركم من ماران ، حتى لا يسيء إليكم .. لقد أفرط في الشراب قليلا ، وانفصح غضب ماران ، وأشرفت أسارىره .. »

* * *

وهتف صي : « انظروا !! .. لقد جاء العم باتريسا ! » وسمعت امرأة الصيحة ، فأدارت رأسها ، ورآته هي أيضا ، فرددت ما قاله الصي : « لقد جاء باتريسا !! »

واجتاز الرجل الحارة غير المستوية ، حيث جفت برك المياه بتأثير الريح .. كانت قبعة تميل على مؤخر رأسه ، وكان يحمل ربطة على كتفيه .. وكان وجهه الاسمر يبدو أشد دكته مما هو في حقيقته ، ولكن تألفت في عينيه فرحة غامرة .

واشرأبت الأعناق واحداً بعد الآخر صوب بيت ، وهو يقترب مبسما .. وخلف بانتيليمون فادوفا حلبة الرقص ، وجرى يقابله ؛ وتبعه فتیان آخرون ... وانفض شمل الرقصة ، وتجمع القوم حول الوافد الجديد وهم يتساءلون ويهتفون في دهشة بالغة .. ومعنى العازقان يلعبان بهض الوقت ، تأدية للواجب لا غير ، ثم مالبا أن لحقا بالجمع ..

ولم يكن في مقدور بيت أن يرد على هذه الأسئلة التي انهارت عليه .. فقد كان يعطى بحب الناس جميعا ، لأنه كان دمك الخلق ، هادئ الطبع ، لا يتوانى عن مساعدة غيره .. وأخذ بانتيليمون الربطة منه ، يريد أن يحملها عنه إلى بيته .. واجتهد أن يحتفظ بمكان له قرب بيت ، ثم جعل يكرر القول حتى انتهى صوته إلى الأسماع : « ها أنت ذا تعود ، أما أنا فلا بد أن أذهب من فوري » .

فقال بيتر وهو ينظر إليه بحدة : « لا تجزع ، وسوف يرعاك الله أنت أيضاً .. »

وأخذ يتبادل التحيات مع هذا وذاك ، وأخيراً بلغ الأرض الفضاء أمام الخان حيث وقف الرجال . . . وسأله القوم عن آخر أخبار المدينة . . . حتى بوزوك نفسه — وكان ولوعاً بالإلمام بكل شيء — ترك البار ، وجاء يتقصي ما يقابل . . . وتساءل إيجنات سيرسل ، وقد لحظ أن بيتر لا يتحدث إلا عن الجيش ، قائلاً في صوت كالعواء : « ولكن ما رأى الأشراف في بوخارست ؟ ما رأيهم فينا نحن البؤساء المساكين ؟ » .

فأجاب بيتر : « لن يصيبك من الأشراف أذى طالما أنت مطيع لا تتجاوز الحدود . . . »

ولم يفتح إيجنات بهذا الجواب ، وإن أوماً برأسه علامة على الموافقة ورد سيرا فيهم موجوس بمرارة : « لا بد للإنسان أن يتحمل قدر ما يستطيع ، وإلا طار عقله . . »

واقرب إيجنات قليلاً ، ثم أسر إليه : « وماذا عن الأرض يا باتريستا ؟ . . ألم تسمع عنها شيئاً ؟ تقول الإشاعات هنا إن جلالة الملك يريد أن يوزع الأرض على الشعب ، ولكن الأشراف يقفون في وجه معارضين . »

« هذا ما قاله ماران فيلسكو أيضاً . . ولقد نقله عن ابنه الذي رحل للدراسة في الإسكندرية — فهو يزعم أن يصير قساً ! » أضافها ليونتي أوريسور متثبهاً ، كأنما كان قوله حاسماً قاطعاً .

وقال تيودور ستريمبو وهو يتميز من الغيظ : « لئنا نعيد ونزيد ، ولكننا لانخرج بنتيجة من هذا كله . . وأنا منذ عدة أيام ذهبت إلى محكمة بيتسي في قضية . . وكان كل واحد هناك يقول إن الربيع لن يحل إلا والأرض بين أيدينا . . لأن الملك أصدر أمراً بذلك . . بل لأنهم غضبوا على ، وقذفوني بالشتائم لأنني لم أشأ أن أصدق قولهم . . »

وغنم بيتر ، وقد حركته اللفتة التي بانَتْ في عيون الجمع الذي تكأ كما حوَّاه ،

قائلا : « ربما كان هذا القول صحيحا .. والحقيقة أن هناك إشاعات كثيرة تتردد في بوخارست ، فن قائل بشيء ، ومن قائل بشيء آخر .. حتى الأشراف أنفسهم لا يدرون كيف يعالجون الأمر مرضاة للناس جميعا .. وهم لهذا يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع ؛ وهم إذا كانوا لا يصلون إلى قرار .. »

فقال إيجنات : « إن الذين أسبغ الله عليهم نعمة الغنى لن يسهل عليهم الإعطاء .. »

« ليت الملك أمر بهذا .. فهو لو فعل ، لنال كل إنسان ما يريد ، سواء رضى الأشراف أو لم يرضوا ! » قالها تيودور ستريمبو وقد ومضت عيناه .

فعمق بوزوك صاحب الحان مستهزئا : « نعم » لو أن الملك استمع إليكم ، اسكان كل شيء على ما يرام ... ولكن للأسف أن الملك يصادق الأشراف ، وهو ان يخافهم من أجل عبودكم يا تيودور ! ! »

وتعالى الضحك إثر ذلك ؛ فقال ليوتى أوريسور : « لو كانت أصواتنا فقط تصل إلى مسامع الملك ! ! »

وفي هذه اللحظة شقت أم بيتر طريقها بين الجمع المنفح حول ابنها ، وهتفت : « بيترنسا ، بيترنسا ، يا ولدى الحبيب ! ! اقد من الله على بعودتك وأنا في أشد الحاجة إليك .. أحمد الله ربى أن رجعت إلى بيتك .. »

وألقت بساعديها حوله ، وقبلته شاكية باكية .. وضمها الشاب إليه ؛ وقال برقة . « كفى بكاء يا أمى .. كفى .. »

وكانت سماراندا امرأة ذبلت في غير أوانها .. ومسحت المرأة عبراتها بطرف منديلها ؛ وتبسمت لحظة وهى فرحة ؛ ولكنها ما كادت تفتح فمها فقسأله كيف عاد ، حتى هطلت عبراتها مرة أخرى ؛ إذ خطر لها أنه ربما اضطر إلى قطع الطريق كله سيرا على الأقدام ، أو هو ربما كان جوعانا .. وطيب ابنها خاطرهما ، وطمانها عندما قال إنه لم يكن متعبا البتة ؛ لأنه عندما خلف القطار في بيرديا ؛ كان من حظه أن يلتقى باستيفان أوتنا ؛ الذى حمله في عربته حتى ليسبزي وهكذا أتيج له أن يسافر كما يسافر الشريف العريق .

واستطرد قائلاً مودعاً الجمع حوله : « ولكن هيا بنا إلى الدار يا أمي .. حسبنا هذا الوقت مع هؤلاء الصحاب » .

ورجع بانتيليمون مع بيتر ، وهو يحمل عنه الربطة .. وكانت داره في طرف القرية ؛ على مسافة من بيت الشريف ، تجاه روجينوزا .. وسأل بيتر عندما ابتعد عن حلبة الرقص : « ولكن أين ماريورا يا أمي ؟ أنا لم أشهدها بين الفتيات » .

وأوضحت سميراندا لابنها أن ماريورا ذهبت إلى بيت الشريف لتعمل مع خالته بروفيرا ؛ وأن الفتاة تال أجراً طيباً ، وأنها لا تعمل عملاً شاقاً .. وعندئذ تذكر بانتيليمون فجأة أنه قد غفل عن دومينكا بذهابه مع بيتر .. وبدأ صوت الكمان يعلو من جديد وراءها ، علامة على أن رقصة الهورا قد انطلقت مرة أخرى .

وكان بونجيو جالساً على مقعد قرب البوابة التي تؤدي إلى ساحة مركز الشرطة يحدث كونسانتين بيرزوتيسكو ، جاني الضرائب ؛ وهو رجل طويل نحيل حليق — ورفع بيتر قبعته ؛ وحيا ضابط الشرطة تحية عسكرية .

ورد بونجيو التحية في لهجة ودية : « ها أنا هذا تعود أخيراً ! ، واقتررب بيتر في احترام . وأخبره أن القائد أذن له في الرحيل قبل موعده بيومين ، نظراً لحسن مسلكه طوال مدة الخدمة .. وطرح بونجيو عليه عدة أسئلة أخرى ، ثم تنهد لهفأً على الحياة في بوخارست ، فهناك أتيح له أيضاً أن يذوق طعم الحياة حلواً مرة أو مرتين .. على أن هذا حدث قبل أن يتزوج .. وبعدئذ هتف يخاطب بانتيليمون : « رأيت ؟ هذا هو السلوك الذي يجب عليك أن تسلكه ، أفت أيضاً ، هذا أفضل من أن تمضي هنا وهناك تتكلم كلاماً فارغاً يدعسو إلى الثورة ! » .

ولوح بأصبعه مخدراً وهو يضحك ، ثم صافح بيتر قائلاً : « أهلاً بك ومرحباً ! » .

« ما خطبك ؟ — ماذا تريدون ؟ » قالها ميرون أيرجا يسأل الفلاحين الذين وقفوا عراة الرءوس ، وحيوه كالعادة بتقبيل يده في احترام

واقضت لحظة والرجال لا يجدون ما يفعلون غير التطلع لبعضهم لبعض التماس الشجاعة .. ثم ارتفع صوت لوكا تالابا يخاطب لوبو شيريتو : « نحدث أنت ياعم لوبو ، أنت أكبرنا سنا وأفصحنا لسانا في هذا الموضوع »

فصاح ميرون وهو نافذ الصبر ، وقاطع لوكا الذى أخذ يحكى حكاية طويلة قائلا : « ولكن أوجز أيها الرجل .. لأن الجو بارد ، وأنا لا ألبس إلا ملابس خفيفة » .

ودبت الشجاعة في نفس لوكا بتأثير كلمات ميرون أيرجا ، فقاطعه متهورا : « صدقت ياسيدى .. فالثرثرة عجز .. نحن باختصار نريد أن نشترى عربة السيدة ، وأن نفلحها ، وأن يأخذ كل منا نصيبا منها .. ونحن قد جئنا إليك نسألك المعونة .. فهلا ساعدتنا ياسيدى ، وأشفقت بنا » .

« أنت والدنا على كل حال .. » قالها ماتي دولمانو بهدوء ، كأنما هو بهذا القول قد ضمن أن يكسب الشريف إلى صفه .

وأضاف فاسيل زيدارو برقة متناهية بحيث كاد لا يتعرف على صوته : « نحن لا نستطيع العيش على هذا الحال يا سيدى ! .. لقد حل بنا الشقاء ، ولم يعد في طوقنا تحمله » .

وكانوا اثني عشر رجلا لا يزيدون .. وشعر كل واحد منهم أن من واجبه أن يقول كلمة ، وأن يلقى بدلوه في الدلاء .

وحلق ميرون أيرجا فيهم ، وقد غلبته الدهشة .. كأنما هو يراهم لأول مرة ، أو كأنما كانت الكلمات التى بلغت مسامعه غريبة غير مفهومة .. وخيم عليهم الصمت ، ثم تسامد وهو يهز طرف بعينه : « تقولون عزبة ؟ .. أية عزبة ؟ » ثم تذكر فجأة ، فاضاف بسرعة : « آه ، نعم ، فهمت .. فهمت » .

وكان وهو يتكلم يشعر بالآلم يعتصر جوانحه .. أما إن هؤلاء الفلاحين الذين عاشوا على ضيعة أيوجا أجيالا وأجيالا ، يتجرءون الساعة ، ويعرضون شراء ما يتخلف منها ، فأمر جرح كبريائه .. جرحا داميا .. وهو لو ترك نفسه على سجيته ، لآمر الخدم أن يسلموه إلى الشرطة ، فينزلوا بهم ضربا مبرحا يجعلهم يثوبون إلى رشدهم .. ولكنه كظم غيظه ، وقال بهدوء : « لا فائدة من مجيئكم إلى ، فأنا لا أملك ضياعا للبيع . »

واحتار الفلاحون وارتبكوا .. وكان ماران ستان وحده هو الذي رفع صوته : « ولكن لا يمكن للسيدة أن تفعل شيئا دون موافقتك ياسيدي .. » واستجمع لوكا تالابا شجاعته ، وقال : « نحن نعتبرك رائدنا ياسيدي ، ونحن نسألك الرحمة بنا .. »

وضحك ميرون أيوجا ازدراء .. « من غير شك .. ولكن يحسن بكم هذه المرة أن تلجأوا إلى السيدة نادينا نفسها .. بل أنا ، لو علمت ، لأدري إن كانت تريد أن تبيع العزبة .. فأنا أسمع هذا منكم لأول مرة ! »

وظن الفلاحون أنه يلقي نكتة ، فأشرقت أساريرهم .. واستطرد الشريف قائلا : « الواقع أن السيدة على وشك أن تصل في أية لحظة .. فقد تلقينا منها برفقة بالأمس تفيد أنها ستصل اليوم بالسيارة . ونحن في انتظارها الآن . »

فتمتم لوبو شيريتو في أسمى : « أنا لا أعتقد أنك تريد حقا أن تبيعنا العزبة ياسيدي .. هذا هو سبب إحالتك لنا على السيدة . ولبتها كانت تعرفنا .. ونحن أيضا لا نعرفها .. لقد قلت لزملائي قبل أن تأتي لنا لن نخرج بشيء .. ولكنهم لم يصدقوني ! . أما الآن فلا بد لهم ، هؤلاء الاغبياء ، من تصديق ! »

وجعل أيوجا .. فقد قرأ الرجل مادار بخلفه .. وقال بفظاظة : « أنت على الرغم من شيبتك بالوبو ، فإن عقلك عقل عصفور ! . هل تحسب أن في مقدوري أن أبيع عذبة لا أملكها ؟ »

وأصرع لوكا يلام المجرح ، قائلا بذلة وحضوع . « لا تفضب منا ياسيدنا ،

اغفر لنا وسامعنا ، فنحن قوم جهلاء ، لاندرى كيف ندير هذه الأمور . نعم
سنذهب إلى السيدة ، كما أشرت ، حين تأتى بالسلامة ، وسنتمسك بهذا الطلب
لأنه ليس من العدل أن يأتى واحد آخر ويستولى على الأرض ، لاتنا ، نحن وأباؤنا
قد علمنا دائما فى هذه الأرض : إن الحياة قاسية علينا كل القسوة . وأنا لأدرى
كيف ندير أمورنا ونحن لا نملك من الأرض إلا أقل القليل . . .

« أتم دائما تقولون إنكم لا تملكون إلا أقل القليل ! » ، قالها ميرون بحاقة
ثم أضاف بعد وهلة . « ولكن الظاهر أنكم نجحتم فى تدير أموركم حتى الآن
ولم تموتوا جوعا ! »

فصاح ماران ستان : « لقد قاسينا كثيرا يا سيدنا ! » . بل نحن قد غرقنا فى
الشقاء إلى رقابنا لاتنا لا نملك أى رقعة من الأرض ! ! ،

فغمغم أيوجا : « الأرض ! ! الأرض ! ! فيما مضى لم يكن الفلاحون يسعون
إلى وضع أيديهم على ما كان يخص الملك ، وكانوا أسعد حالا . . .

قال فاسيل زيدارو : « لقد كان الزمن غير هذا الزمن يا سيدى ! »

وعاد ماران ستان يصرخ : « لقد كنا عبيدا أرقاء إذ ذاك أيها الشريف . .
اجعل منا أرقاء مرة أخرى ، فربما يكون الوضع أحسن بالنسبة إلينا »

فانفجر أيوجا الآن ، وقد ضاق ذرعا بمنادهم : « الحق أنكم تعودتم
على الشحاذة . . .

فقال لوبو شيريتو بذلة : « سنظل نطالب ، ونطالب ، لأنه لا سبيل لنا غير
هذا . . لا أمل لنا فى التماس الرحمة بغير السؤال والطلب . .

وأدرك أيوجا النظرة الجائفة التى ظهرت فى كل العيون أمامه ، وهى عيون
أطرقت الآن بحكم العادة . وشعر لأول مرة بأن هؤلاء الناس الذين ظن أنهم
موالون له ، هم فى حقيقة الأمر أعداؤه الألفاء . وتندم على أنه قابلهم ، بل وعلى
أنه سمح لهم أن يظلموا فى الحديث . . ولكنه أدرك فى نفس الوقت أن الأمور

لا يمكن علاجها بالقسوة والوحشية .. فاكثف بأن تتم وهو ضجر : « كفى كلاما الآن، فقد ضقت ذرعا بهذه الثثرة .. أما أتم فقد قدتم كل إحساس باللياقة والأدب،

وشخص يصره عامدا ، وفي برود ، إلى كل واحد فيهم على التوالي ، فإذا به يطالع في كل عين نفس الالهة ونفس الحنين .. وشق عليه ما ارتدتم في نظراتهم من عناد .. وإذا برجل يرفع صوته ، فيقطع الصمت والضييق : « يا حيوان ، قصف الله عمرك » .

وكان الصوت صوت أحد الخدم وهو يسقى البقر في ساحة الفار .. وكانت أسراب الدجاج تنبش في الارض ، وتضرب بمنافيرها ، ثم قرقرت دجاجة في جلبة .

قال ميرون بهدوء ، كأنما جاء سباب الخادم فكسر حدة الهم الذي أخذ بنفسه : « هذه خلاصة الموضوع .. عليكم أن تحدثوا السيدة بأنفسكم ، إن لم يكن لديكم مانع ، فهي التي تملك العزبة .. والواقع أنني بدأت أفكر في شرائها لنفسى .

فصرح لوكا تالابا في هلع : « إذن لافائدة ترجى من محاولتنا حرام والله ..

وتسأل الشريف : « لماذا ؟ .. إنها منافسة عادلة .. أتم تريدون الأرض وأنا أريد الأرض .. ولكن من حق أن أشتريها ، فهي على كل حال كانت في حوزتنا من قبل ، جزءا من الأرض التي كنا نملكها .. أنت تذكر هذا بالوبو ؛ لأنك عملت في خدمتها وأنت صبي ، عندما كان أفي على قيد الحياة .. وهذا ما ينبغي أن يكون ، نعم من العدل أن يشتري الشريف أرض الفلاحين ؛ ولكن ليس من حق الفلاحين أن يشتروا من الشريف » .

وحاول بعضهم أن يفند هذه النقطة ، ولكن ميرون أبوجا لم يتمالك نفسه الآن . « كفى هذا الآن .. تفضلوا .. ما عاد بيننا كلام .. لقد قدتم كل إحساس باللياقة والذوق » .

وعاد الفلاحون يمتعون بعبارات تتم عن الاحترام ، ثم ولوا وجوههم نحو الباب .. وفيها هم خارجون ، قال لوبو شيريتو بصوت عال . أراد أن يصل

إلى مسامع الشريف . . نعم ، إن الشريف على حق . . لقد كانت العزبة تمتد من
ليرزفورو إلى سير بانيسى . . وأنا أذكر جيداً حينها . . .

كذلك تعالى صوت مائ دولمانو في نفس الوقت ، وهو يهتق سخطاً . . إنه
إن يشبع من الأرض أبداً . . عليه اللعنة !

ووقف ميرون أبوجا صامدا حيث كان . . أخذ يحمق وراءهم وقد تناسى
فرقة الدجاج ، وخوار بقرة تنادى رضيعها . . حقا لم تجر في رأسه إلا فكرة
واحدة : ، الأرض ، الأرض ، ثم الأرض . . الأرض هي كل ما يستطيع
أن يفكر فيه هؤلاء الأشقياء !

ولفتت ، فرأى جريجور ويتو يدخلان من الباب . . لقد كانا يحوسان في
الحقول ، ويستمتعان بالطقس البديع .

وتساءل جريجور . . ماذا كانوا يفعلون هنا يا أبي ؟ . ترى هل وصلت نادينا ،
فأجاب الشيخ . . لا ، لم تصل بعد ؛ ولكن بعض الناس جاءوا يطلبون عزبتها ،
فقال الابن في دهشة . . ماذا تقول ؟ . خبرني . من هؤلاء ؟
ونظر إليه ميرون أبوجا وهو صامت . ثم أشاح برأسه ، قائلاً . . الفلاحون ،

- ٤ -

« انزل يا ابن الزانية ، وإلا كسرت البوابة ، اذهب إلى الشيطان ! » بذلك
صرخت الأم أيونا . بصوتها الغاضب ، في ولد فاسيل زيدارو الصغير الذى تعلق
بأعمدة البوابة . وأخذ يتأرجح عليها جيئة وذهابا ، وهو يصيح بأعلى صوته .

وكانت أيونا تطعم صغار الخنازير ، في ظهر الفناء ، وكان يمتد إلى البستان . .
وكانت تمسك بدلو الطعام تحت أنف الخنزير ، تستثيره شيئا . . تعال يا صغيرى
إليك هذا الطعام ! ، ولكن الخنزير أزاح منخاره عن الدلو المأكل ، ومضى إلى
الدلو الفارع ، وأخذ يلمقه وغضبت المعوز لهذا وقالت : « ياغى ، تعال ، واملأ
بطئك حتى تبش . . أكلتك الكلاب ! ! » فلما أغرق الحيوان رأسه إلى عينيه في
الدلو ، جاء كلبها - وهو حيوان ضخم أبيض اللون قد وخطته رقع سوداء كبيرة

فشى متلصصا إلى الدلو الفارغ ، فنظر فيه بحساسة ليرى ما إن كانت قد تخلقت فيه بقية له . . لا تزج بأنفك في الدلو . عليك اللعنة . . وتراجع الكلب طائعا وهو يهز ذنبه أملا ، ويتطلع متحسرا إلى الخنزير وإلى سيده من ناحية ، وينظر بعينه إلى الكلب الآخر ، وهو جرو هجين . عمره نحو ستة شهور ، أخذ ينط هنا وهناك وراء العجوز . وينبح بين الحين والحين ، كأنه طفل لعوب .

وأدركت أبونا أن الخنزير لاهم له إلا التلاعب بالطعام ، غملت الدلو بعيدا وقالت : « لقد نلت كمياتك ، وأنت الآن تلهو بالطعام ، وتجعلنى أنحنى هنا حتى آلمتنى ساقاى ، أيها الفئ الحسيس !! » ونخر الخنزير في رضى ، وأخذ يتشمم الأرض حوله ، أملا في العثور على كسرة أشهى مذاقا . . فلما لم يعثر على بقيته ، حاول أن يتبع سيده ، ولكن حال دون ما يريد أنه شد برباط . . ومشى الكلبان وراءها حتى الردهة ؛ وهناك وضعت الدلوين قرب الباب ، وقالت : « إليكما الطعام عليكما اللعنة !! » واندفع الكلب الكبير إلى الدلو الفارغ ، ولكنه لما أدرك غلظته نظر إلى الجرو شذرا . وعصه في رقبة ، وألقى به أرضا بضغ لحظات لاشئ . إلا ليلقنه حسن السلوك ، ثم عكف على الطعام ، متجاهلا كل التجاهل عويل زميله الصغير ، وصيحات سيده وهى تقول : « أتما دائما تتشاجران ، أيها الشيطانان الصغيران » .

وكان ابن فاسيل لا يزال يتأرجح على البوابة ، كأنما العجوز لم تزجره أبدا .

وصرخت أبونا غاضبة : « ألم تسمعى أيها الشيطان الصغير ؟ إنك ستزع المفصلات من مواضعها . . لم لاتذهب إلى بيتك ، وتركنى في سلام ؟ أنت ، وزميلك الشقي الآخر ملتما حياتى بؤسا طوال الصيف كله . . أليس ليكا أباء يحفظونكم من الشوارع ، ويمنعونكم عن حداثق الناس ؟ »

ولم يكن الغفل ليرهب كلماتها ، لولا أنه سمع صوتا آخر ينادى « نيتشو ، تعال يابنى ، هل تسمعى ؟ لماذا تظل هناك وتركها تشتمك ؟ »

وكان فاسيل زيداو يسكن في الجانب الآخر من الطريق ، وكان له زوجة كأنها جندى من المشاة الذين يرمون القنابل اليدوية ، وكان لها لسان حاد لا يطاق له

لسان .. وكان الطفل لا يخشى أحداً غيرها ، فقد كان كل من في البيت يدله ، ويتغاضى عن شقاوته .. وكان لوي دارو ثلاث بنات وولد واحد ، وهو لم ينجب هذا الولد إلا بعد أن تزوجت أفتيات الثلاث - وشعرت زوجها بالعار والشعار - ورأت أن من غضب الله عليها أن يرزقها بطفل وهي في هذه السن فتعاقى ماتعاقى في نشئته .

وتدلى نيتشو من البوابة ، وغير الطريق ؛ وأخذت أبونا دلوين من البيت ، وذهبت بهما إلى الثر ، وكان على مدى غير بعيد ، في طرف الطريق ، قرب نقطة الشرطة .. وحف بها الكلبان وهي تمشى ، وجعلا يتشمان البوابات ، ويتشمان في الحفرات كأنهما قد نقدا شيئاً يبحثان عنه .. ولم يستطع الصبي أن يستقر في موضعه ، رغم أنه قد دخل لتوه إلى الدار .. بل خطف سوطه ، واندفع وراء المعجوز ، ولكنه عاد فتذكر أن لدى أسرته هي الأخرى كلاباً ، ومن ثم عاد أدراجه .. وكان عندهم كلبة بيضاء ، أصيبت بالمرج منذ أن أطلق عليها الشرطة النار ذات مساء ، وكانت كلبة شرسة ، ولهذا كانوا يشدونها بحبل طوال النهار ، ليحولوا دونها . غابرى السيل .. وأراد أن يفك وثاقها ، ولكن المعجوز أبونا كرت راجعة ، وقد ملأت دلوها .. وتبها الصبي إلى الفناء وقال : « هل تسمحين لى . أنا وكلبتى ، أن نلعب مع كلابك ؟ من فضلك .. من فضلك .. » ولم ترد المعجوز .. لقد تعود الطفل أن يحضر إلى بيتهما ليلعب مع كوستيكا ، ابن أختها ، وهو قد رحل منذ أيام قلائل .. وكان هو أيضاً في الخامسة من عمره ، أسمر البشرة ، كأنه من الغجر ، كذلك كان عفرينا شقياً .. فلما تركت المعجوز نيتشو وشأنه الساعة ، لعب ماشاء له الهوى مع الكلاب والدجاج والقطط .. ونهرته المعجوز ، وطلبت إليه أن يرحل عنها ، ولكن كلامها كان ثغاء أكثر منه طحنا ، فقد كانت تحب الأطفال وتحب أن تحس بالناس حول دارها ، وكان هذا هو ماتعودت عليه طوال حياتها .

ولقد انتقلت إلى هذه الدار منذ عام .. وكانت تقوم في صف بيت الشريف .. وكان لها في الشارع المجاور ، بجانب بيت الملتزم كوزما بيربونا ، بيت آخر ، وهو بيت رائع كبير .. ولقد عاشت في هذا البيت طوال حياتها الزوجية مع أبونيتا كراكيوم الذى لقي حتفه قبل نحو عشرة أعوام .. على أنها لم تأس على حياتها

كأرملة ، لأنها كانت تشرف على كل شيء ، حتى عندما كان زوجها على قيد الحياة . وكان زوجها ولما بالكأس ، وكى ينعم براحة البال ، كان يسمى دائما إلى الحصول على عمل بعيدا عن بلدته . . . ولقد اشتغل عمدة ، واشتغل حارسا ؛ كما عمل في عدد عديد من الأعمال الأخرى ؛ وهذه الطريقة استطاع دائما أن يحصل على نفود ينفقها في الحان . . ونشأت أبونا الأطفال تنشئة حسنة ، وقرت بهم عينا . . أما ابنتها فقد عمل مسجلا في محكمة ببوخارست ؛ وتزوجت فتاتان من بناتها قسيسين ، أما الفتاة الصغرى فلوريكا فقد تزوجت من بافل تونسو في القرية . . . ولقد رأت أن تستقر مع فلوريكا وبافل في أخريات أيامها ، ولهذا دعتهما إلى السكنى معها في بيتها . . وكان ابنتها لا ينفك عن الكتابة إليها يدعوها إلى العيش معه في بوخارست ، حتى تبعد عن المتاعب ، وتحظى بشيء من الراحة . . ولكنها لم تستطع أن ترحل عن موطنها حيث قضت حياتها كلها . . وهي مازالت تشعر بالقوة ، رغم أنها الآن في الستين ؛ بيد أن ظهرها قد انحنى قليلا . . وكانت تأكل جيدا ، فأنت ترى دائما زجاجة من البراندى على مائدتها ، وكان لديها خنازيرها ودجاجها وقمحا . . وكانت تمتلك قوة ، على نقيض غيرها من النساء ممن هن في سنها . .

وعاشت سبع سنوات من الشتاء وهي تكظم غيظها من فلوريكا ، ثم أدركت بعدئذ أن من المحال أن يعيشوا معا ، فقررت أن تفوض أمر ابنتها لله ، وأن تبحث لها عن دار أخرى . . نعم ، لأنها لتؤثر الفقر على هذا الشجار والخصام ، والشفاء الذي لا يذتهى . . ومن حسن الطالع أنها لم توزع كل شيء بين أولادها بل أبقى عدة قطع من الأرض لنفسها حتى تؤمن مستقبلا ؛ وتجاهه مثل هذه التقلبات . . ولهذا افرقت عن ابنتها بمحض إرادتها ، ودون أن يعقب ذلك أى شعور بالمرارة ، فقد كان زوج ابنتها أطوع لها من فلذة كبدها . . . فلما كانت تملك هذه القطعة من الأرض بجانب الطريق ، إلى جوار بيت الشريف ، فقد بنت لنفسها دارا من ييدر النرة نقلته هناك على عجلات تجرها ثيران اثنا عشر ، وقامت بنفسها فغطت الدار بالطين من الخارج ، وبالبايض من الداخل . . . وقد تكرم رجل فأقام لها السقف ، وأنشأ ما يشبه المدفأة ، كما أنشأ حظيرة للدواجن وزريبة للخنازير . . . وأهدى جار لها ضلف شباكين لم يعد في حاجة إليها . . . والحق أنها ما كانت تملك غير ثلاثة ألواح من الزجاج لها ، ولكنها لصقت على ما تبقى من فراغ ورقا حصلت عليه من القس . . . ولقد أثار هذا كله حظ

فلوريكا ، لأن أمها جعلت منها حديث القرية . . . أما الأم فقد ردت في شيء من المارارة : « أعتقد يا بني ، أتق تحملت ما فيه الكفاية : »

على أن فلوريكا ، بعد فترة ، تناست الامر ؛ ولما حل الربيع أوفدت أكبر أولادها ، كوستيكا ، إيونس جدته بعض الوقت ؛ ووفرت هي بذلك ما كان كان عليها أن تطعمه . . . وأزعج الطفل جدته طوال الصيف والخريف . . . فنذ يومين فقط من وفادته قلب البيت رأسا على عقب ، إذ جاء بشرذمة من الشياطين الصغار من رفاقه . . . وتحملته على كره منها ، لا شيء إلا اتدل على أنهم في حاجة إليها ، وليست هي في حاجة إليهم .

والواقع أنها لم تكن أبداً من النساء الثرارات ، بل كانت تنزع إلى حدة الطابع حين تتميز من الغضب ، أما قلبها فكان رقيقاً رقة النسيم . . . وكان من طبعها أن تتحدث نفسها ، أو تتحدث الحيوانات التي كانت تمثل لها ، وتضخمها خيراً عما يذهبها الناس . . . وكانت قبل أي خلاف تدعواها أن يذهب بخصمها إلى الشيطان ، وهي تعدل من لهجتها حسب الظروف طبقاً لمقتضى الحال .

قال نيتشو شاكيما : « انظري يا جدي أيونا . . . إن كلبك الكبير يرفض أن يترك لديك وحده ؟ » ، وكان قد أراد أن يشد الكلب بحبل ، ويربطه بسكبته العرجاء ، فكذا يلويهما .

فقال أيونا دون أن تنظر إليه : « دع الديك وشأنه . . . أيها البهم الشرس . . . وكانت تفكر في الطعام الذي كان عليها أن تعطيه للدجاج ، لأن الليل اقترب ، وأخذت الدجاجات تتجمع حول الدار بعد أن قضت نهارها تنبش في أماكن متفرقة .

واقعدت بعد ذلك عتبة الباب ، ووضعت طبقاً كبيراً في حجرها ، ونادت على الدجاج ، شأناً كل مساء .

وجرت إليها الدجاجات من كل جانب ، كأنها أطفال طيبة ، وأخذت تزاحم حول قدميها ، وتدفع بعضها بعضاً . . . وجعلت تمد الفراخ واحدة واحدة ، واتضح لها غياب دجاجتين كبيرتين وديك . . . وأفرغت الطبق ، ونهرت

السكاكين بعيداً حتى لا يأكلا طعام الدجاج ، واتجهت إلى الطريق تنادى على الدجاج في إصرار . .

وفتحت البوابة ، وإذا بصوت بوق سيارة يصرخ متوعداً . . ورأت ، على الجانب الآخر من الطريق ، الدجاجتين تتمرغان في التراب والديك على مقربة منهما ، فنادت عليها وهي جزعة .

كانت هناك سيارة تطلق بسرعة عظيمة ، ولكن لم يد على الدجاج أنها قد أهدت لها . . وعافت أيونا أن تدم السيارة فراختها ، فاندفعت تعبر الطريق ، تزود عنها . . ولكنها ما كادت تبلغ منتصف الطريق حتى أدار السائق عجلة القيادة بعنف ، وانزلت السيارة ، وانطلقت بجانب أيونا في سرعة البرق ، وهي تكاد تنحرف إلى الخندق ، تحاشيا لها . . . وتساعد من السيارة صوت نسائي صارخا ، كما تعالى عبر الطريق صوت زوج زيدارو وهي تنادى : « أين أنت يانيتشو . . . إنك ستقتل نفسك !! »

ووقفت الأم وقد نزلت بها صاعقة . . . واندفعت الدجاجتان تفرقان بهوس شديد ، أما الديك ، الذى سبق أن وقف حارسا لهما ، فقد استحال الآن كومة من الريش والدماء . . . والتقطته المعجوز من طرف جناحه ، وسحبته إلى الدار . وغمغمت في عبارات مختفة : « اغربوا عنا عليكم اللعنة !! » .

- ٥ -

وتوقفت السيارة فجأة ، وقد جنحت بعنف عند قاعدة الدرج حيث كان جريجور ويتيمو هيرديليا ينتظران ؛ بعد أن تاهى إلى سمعها صوت التفير والسيارة وهي تقترب . . . وأوقفها السائق الموتور ، وقفز منها ، وأسرع يفتح الأبواب ، ليخرج منها الأشراف وقد تدهنوا بالفراء والبطاطين والملافح والعوينات ، كأنهم رواد يستكشفون القطب الشمالى .

وكان جوجو أيونيسكو - كان يجلس إلى جوار السائق - أول من نهض عن نفسه الأغلبية ، ووضع أقدامه على الأرض . . وكان مهاجما ضيق الصدر بسبب ما صادفه من حوادث في رحلته . . وصافح جريجور وقال : « يسرفي أن أراك

يارجل ، ولكن دعنى أقولها لك . هذه آخر مرة أسمع لهم فيها أن يرضونى فى هذه المواقف .. كفى ما لقيت ١١ ،

وسأله أوجا الشاب ، إذا لم يفهم شيئا : « ما خطبك يا جوجو ؟ ما سبب هذا الالتهاب ؟ »

فقال جوجو وهو يزع نظارته : « إذا كانت زوجتك تريد أن تستمتع بمغامرات مثيرة فانتبھ لها عن ضحايا عبرى ! »

فنهت صوت نساءى مفردا : لا تكن أضحوكة يا جوجو ! .. أتركك تنمشى السفى بالسيارة ؟ .. ألا فاحجل من نفسك . »

ومضك الجمع ما عدا جوجو الذى ضاق خلقه .

« أنا لم أعود على هذه المخاطر .. والواقع أنى لست مستعداً لأن أدق عتقى حياً فى سواد عيون المفرمين بقيادة السيارات ! »

وأشرقت أسارير القوم لما انتابه من حق ؛ وكانوا إذ ذاك قد خلعوا أو شعثهم ونظاراتهم ... ولم يتحرك ثلاثتهم وهلة ، بل ظلوا فى جلسهم التى سافروا عليها . نادينا إلى اليمين ، وبوجينيا إلى اليسار ، وبيتهما راءول برومارو . ونهضت نادينا قائلة : « سواء أكان الأمر هزلا أم جدياً فإن حادث المرأة على الطريق كاد أن يفضى إلى كارثة ! ولو لم يتالك رودلف نفسه لما كان أماننا إلا أحد أمرين : إما أن المرأة تسقط تحت العجلات ، وإما أن تقع نحن فى الحندق .. حقا ، لقد أحسنت صنما يارودلف ! »

وتبسم السائق شكرانا ؛ ثم ما لبثت نادينا أن ألقت بنفسها بين ساعدى زوجها ، وهى تتحدث فى لهجة ودية متمعدة : « ما أشد شوقى إليك يا حبيبى جريج ١١ ، »

ووضع جريجور قبلة على خدها ، وكدرته كلياتها ، وبخاصة الطريقة التى نطقتها بها .. وعندئذ فقط لحظ جريجور برومارو .. ثم ، فى نفس الوقت ، وقع بصره ، وراء السيارة ، على حوض الزهر القرمزى ، وعلى القلب الحلىء بالورود الذى أنشأه

هناك أمام عش نادينا ، حبا فيها . . . وصافح برومارو ، وهو يهمهم في صوت
لايين : « آه ، أهذا أنت . . أنا ألم أعرفك في هذا اللباس التكري ١١ ،

وتدخلت نادينا على عجل ، فقالت توضح الأمر : « لقد جئت به معنا لئلا
الجماعة عدا . . لا مانع عندك ، أليس كذلك ؟ »

« لا ، لا ، لا ، على الـ . . . »

وأراد أن يقول « على العكس » ، ولكنه غير رأيه ، ولزم الصمت . وذهب
إلى السيارة ، وقبل يد يوجينيا ، وعانها على النزول . . وشغل نفر من الخدم
أنفسهم بالأمعة ، وأخذوا يصخبون دون أن يعرفوا على التحديد ماذا يفعلون .
ولحظت نادينا الأمر ، فقالت تحدث السائق : « رودلف ، هل لك أن تجمع أمتعة
السيدة يوجينيا وتضمها معا ؟ »

ووقف تيتو هيرديليا في جانب ، وقد اشتد به الضيق لأنه لم يقابل باهتمام
من أحد . . . ولحظ جريجور هذا بعتة . حاول أن يعالج الأمر : « أرجو المعذرة .
فقد نسيتك تماما . وما أنسانيه إلا الشيطان . . . اسمحوا لي أن أقدم لكم صديق
وصفي ، تيتو هيرديليا . »

وانحنى الشاب وهو يتقدم على استحياء . . . وتفحصته نادينا لحظة ، ثم مدت
له يدها . . ولم يملأ تيتو عينيه منها ، ولكنه لحظ أنها فاتنة إلى حد بعيد .

وتبسمت له يوجينيا ابتسامة حلوة للغاية ، « يا لها من مفاجأة ! »

واستطرد جريجور عندما رأى أن جوجو نظر إلى تيتو نظرتة إلى شخص
غريب ، قائلا : « كان ينبغي في الواقع أن تعرفا بعضنا . . . فقد التقيتما من قبل .
إنه شاعر ، وبينه وبين يوجينيا صلة نسب ؛ فأخته هي زوجة شقيقها . »

وصاح جوجو وهو يقترب من هيرديليا : « نعم . نعم ، بالطبع هذا صحيح .
كيف حالك ؟ »

وما كان في الحقيقة يتذكره ، ولكنه آثر التظاهر ، لأنه كره أن يرميه الناس

بضعف الذاكرة : فهو دليل على أن السن قد تقدمت به ... ولحظ تيتو ارتباكك،
وشعر بوخزة ألم ، فقد تذكر أن أيوتيسكو جوجو قد دعاه إلى بيته الصيف
الماضي ، ليقرض الشعر طوال يومه ... وتبادل الرجلان بضع كلمات، ثم انصرف
جوجو يحدث جريجور ، قائلا : « يوسفنى أننا لانتطيع أن ندخل عنكم .. فنحن
ذاهبون مباشرة إلى ليسيزى . وقد أرسلت إليهم التعليقات ليشعروا المدافى »
ويعدوا الطعام ... رباه - كم أحسنى أن أركب هذه السيارة مرة أخرى !! »

واعترض أيوجا ، وأصر على بقائهم ، وعلى أن ينالوا حظا من الراحة أولا ؛
هذا بصرف النظر عن أبيه ، فهو من غير شك سيتكدر غاية الكدر إذا لم يفعلوا .

وقالت نادينا تغيظه : « لاشك أن السيارة قد هزتك هنا فأصبحت قليل
النوق ، ثم أضافت ببساطة : « تفضلوا .. تعالى يا عزيزتى جينى .. تفضل
يارول .. تفضل !! »

وكانت الردهة الكبرى مضادة بالمصاييح ، وكانت دافئة بهيجة ، وأطبق
الدولكيتا التقليدية في الانتظار .. وسرعان ما ظهر أيوجا الكبير ، فعانق
نادينا وفي ... « هانحن هؤلاء أخيرا نقبض عليك ، يا صغيرتى الحسنة اللعب !! »

وسرها هذا الإطراء ، فقبلته قبله نسي ، وقالت : « ترى هل يوجد
ألفظ وأظرف من والدى ؟ »

واستغل جوجو بحجى الوافد الجديد ، فعاد يكرر شكواه من أحداث الرحلة،
قائلا إن الإطارات انفجرت ثلاث مرات ، وإن السيارة تعطلت مرتين ، وإنهم
فتكوا بعدد لا يحصى من الإوز والبط والدجاج ، وكذلك بأحد الخنازير ، وإنهم
علم الله ، كادوا يدهمون عددا كبيرا من الناس ، وإنهم بصعوبة تجنبوا الاصطدام
بمجموعة كبيرة من العربات والمركبات .. هذا لعمري ما وصفته نادينا بأنه
الاستمتاع بوقت طيب .. ولكن لاشك أن جريجور مسئول عن ذلك ، فهو
قد سمح لنادينا أن تشتري هذه البدعة ^(١) ، والحق أنه لا يوجد في البلد كلها إلا

(١) ليلحظ القارئ أن أحداث الرواية تدور حوالى ١٩٠٧ ، والسيارات
له تكن قد شاعت بعد .
(المترجم)

عدد أصابع اليد من المجانين الذين ابتاعوا لأنفسهم هذه البدع .. ثم إن المسألة تبذير في تبذير ، أولا : لأنك تدفع ثمن السيارة ، وثانيا : لأنك تدفع ما يعادل أجر أستاذ في الجامعة مكافأة لآلاف حقير كل مهمته أن يقود السيارة ، وبعد أليس من الأفضل السفر بالقطار كما يفعل الإنسان العاقل الرشيد ؟

وصاحت نادينا بالفرنسية : « لا تقلب الهزل جدا يا جوجو .. فأننا نحن حق أن أنال بعض المتع الصغيرة ، تماما كما تستمتع أنت .. وأنا واثقة أنه لن يمضي وقت طويل إلا ونجد الحلاقين أنفسهم يمتلكون سيارات خاصة ، ويضعونها أمام محالهم ، وأنا عندئذ لن أجد متعة فيها .. أما الآن فإن ركوب الواحد في سيارة رشيقة قوية من سيارات « بنز » يزعج المشاعر هذا !! »

« كثر خبرك .. أنا متنازل عن هذا المشاعر هذا !! ، قلها جوجو ، وهو يرفع يده إلى السماء ، فأثار الضحك عاليا ..

وبعد برهة قصيرة ، هب هو ويوجينيا يحين نحية الانصراف .. ودعت يوجينيا تيتو لزيارتها ، رغم أن وسائل الراحة ، فيما قالت ، غير متوافرة في ليسيزي ، ثم أضافت مبتسمة : « ولكن سيسعدنا حقاً أن نراك عندنا .. وأرجو ألا تؤجل ذلك طويلا ، لأننا في العادة لا نتمكن أكثر من أيام قليلة ..

فهمم تيتو وهو سعيد : « ربما أمكنني أن أحضر غدا .. »
فسألت يوجينيا زوجها : « لا بأس ، أليس كذلك يا جوجو ؟ »
فأجاب زوجها : « بالطبع يا عزيزتي .. كلتيك قانون عندى ! »

ولما انصرفا ، أخذت نادينا تصف ما صادفها في رحلتها الطويلة ، وكانت توجه الحديث على وجه الخصوص إلى أيوجا الكبير ، وصمتت لحاة ، وخاطبت جريجور . « هل لك أن تنظر في أمر غرفة رول يا عزيزي ؟ . لا مانع عندك بالطبع يا حبيبي .. إنه ضيف علينا .. »

وخرج جريجور مع برومارو ، وتبعهما تيتو ، فقد شعر أنه زائد على الحاجة

وكان قد ألقي نظرة فاحصة على نادينا ، فظل مستمسكا برأيه بأنها فاتحة ساحرة ، ولكن كان ثمة شيء في جمالها هزه ، وجعل أوصاله ترتعد .

وبقى ميرون أبوجا مع نادينا .. وانفردا الآن سويا . . فرمقا بنظرة طوبلة فاحصة جعلتها تجفل وتسامل . « أتريد أن تفضى لى بشيء يا والدى » .

فرد الشيخ فى جد : « نعم ، لقد سمعت أنك تريد بيع بابا ورجا » .

فقالت نادينا ، وقد أخلف هو ظنها قليلا : « أهذا هو الامر ؟ .. أترك مهتها بها ؟ »

فقال ميرون : « إنك لتعلمين مقدار اهتامى .. ربما اشتريتها أنا نفسى . . »

فوافقت نادينا مبسمة : « لا بأس إذن . . سنتحدث فى الموضوع فيما بعد .. وأنا فى الحقيقة لا أحب أن أتعامل مع الأقارب ، وكذلك يا والدى العزيز استثناء من هذه القاعدة . . هل تريد منى تمهدا على هذا . . هاك ، وقبلته فى كل خد من خديه . . أما الشيخ فقد أخذ رأسها بين راحتيه ، وتطلع فى عينيها التديتين .

« هذا أمر خطير يا نادينا . . »

فأجابت بنفس الابسامة التى تتم عن عدم الاكتراث : « بالطبع ! »

ولم يرض ميرون عن جوابها كل الرضى ، فقد بدا له أنها لم تنظر إلى الامر بالجدية الواجبة . . نعم ، ربما كان بيع الضيعة أمرا غير ذى شأن بالنسبة لها ، ولكنها من ناحية أخرى ربما كانت تتحاشى الخوض فى الموضوع . . ولهذا تركها لتتال حظها من الراحة بعد رحلتها المتعبة . . وهكذا وجدها جريجور ، عندما عاد من مهمته ، فوجدها جالسة فى مقعد وحدها ، وقد أغلقت عينيها .

وتسامل وفى صوته نبرة اتهام ، فقد أدرك أنها لم تكن نائمة : « لماذا أحضرت هذا الشخص معك ؟ »

« أى شخص ؟ ، قانتها فى لهجة تتم عن الدهشة ، ثم نددت عنها بعد لحظة ضحكة

ساخرة : آه ، هل تقصد رءول ؟ ترى هل عدت إلى القرية يا جريح ؟ الظاهر أنك لن تشفى من هذا الداء .

وتهضت نادينا ، ومدت ساعديا ، كلا على جانب ، كأنما توقعت منه أن يعانقنا . . لقد بدت أعطافها الرشيقة النافرة تشع حياة وغواية . . ونظرت إلى جريحور بعينين شبيتين ، وهمس فيها اللين في صوت رخيم : « ألم تعد تحبني . . يا صغيري ؟ »

وتفس جريحور عطرها . . وحاول جاهدا أن يقاوم ، ولكنه كان يعلم أنه يستسلم رويدا رويدا . . وخطر له ، والألم يعصف به ، أنها ربما تلعب بمواطنه . . ولكن هذه الخواطر كلها ذابت في لظى عاطفته الجامحة . .

وانسابت نادينا من بين ذراعيه ، وأمسكت يديه . . وبمعها هو كالسكب المطيع .

- ٦ -

عاد تيتو إلى غرفته في القند ، عقب الغداء مباشرة ، ليتأهب لزيارة ليسيزي . لقد أخذ يرسم الخطط لطلوال الليل ، ولكن ما إن طالع النهار حتى نبذهانبد النواة . . لقد وضع له ألا فائدة ترجى من جو جو أونييسكو ، ليته لم يتعرف عليه .

ولقد عرف عند مجيئه أن قرية ليسيزي تقع غير بعيد ، فهي على مسافة تعادل المسافة بين برياسي وجيدوفيتا في موطنه وهي مسافة كان يقطعها عادة مرتين ، بل وثلاث مرات في اليوم الواحد . . ومع ذلك فيحسن به أن يتأكد ، ولهذا ذهب يستجلي الأمر من الحولى . . والتقى في فناء بيت الشريف بشاب كانت ملاحظه مألوفة لديه ، وكان قد رفع إليه قبعته مبتسما .

وتسأله تيتو ، وقد تعرف على بيتر بيتر ، وهو الذى التقى به عند مندلسون الحوذى ، قائلا : « ترى ماذا تفعل هنا ؟ »

فأجاب بيتر : « أنا لم أصل إلا بالأمس ، قد جئت لزيارة الشريف ،

ومد هيرديليا يده إليه مصالحاً ، فعرض بيتر عليه أن يصحبه إلى ليسيزى ،
إذ ليس أمامه شيء آخر يشغله . . وكان الشاب قد تعمل بالاستفسار عن التحويل
الذى وعد به الشريف عن حادث الغابة الذى وقع لآليه الشتاء الماضى ، فجاء لمقابلة
ماريورا . . على أن يحى الوافدين الجدد أفضى إلى هرج ومرج ، وأخذت الفتيات
يجرن هنا وهناك ، ولهذا لم يستطع إلا بمشقة بالغة أن ينزع منها سوى بضع
كلمات خففاً . . وكان رغم هذا راضياً . فهو قد التقى بالشريف أيضاً وأزجى
إليه تهنته على سلوكه الحميد فى الجيش .

وفتح قلبه إلى تيتو فى أثناء سيرهما إلى ليسيزى ، فصرح له كيف أنه أراد أن يتزوج
من ماريورا ، إذ حسبها ، المسكينة ، أنها انتظرت ستين حتى الآن ؛ ولكنه مع
ذلك لا يدرى إن كان سيتاح له أن يتم زواجه بها هذا الشتاء . لأن الزواج يحتاج
إلى مال كثير ، وليس هو ولا هى يملكان منه شيئاً . . وهنا تذكر تيتو على الرغم
منه أبون جلايتاس الذى عاش فى قريته ، وكان مثل بيتر بيتر ، يشكو الفقر . .
وحاول أن يواسى بيتر جاهداً بكلمات رقيقة ، لمجرد المشاركة فى الحديث .

قال بيتر ، وهو يشخص بصره إليه مستفسراً ، كأنما كان يستمسك بيارقة
أخيرة من الأمل : « ربما أخذت الاشراف بنا شفقة ، فسمحوا لنا بجزء من
الأرض ، هكذا يقول الناس . . »

وسأله تيتو فى دهشة : « هل تقصد أن تقول إن الاشراف يزعمون إعطاءكم
الأرض فعلاً . . دون مقابل ، أعنى يتقاسمون الأرض معكم ؟ » .

فأجاب الشاب : « نعم ، هذا ما أقصده ، فهم على أية حال يملكون الكثير ،
أما نحن فلا نملك شيئاً على الإطلاق . . والواقع أننى سمعت كثيراً من الاشراف
يقولون فى بوخارست إن الأرض يجب أن توزع على الشعب ؛ لأن من الظلم البين
أن نرى الناس الذين يفلحون الأرض لا يملكون منها شيئاً . . » .

فهر هيرديليا رأسه وقال : « إنك تصور الأمور على نحو جميل ، ولكنى
صراحة لا أعتقد أن هذا فى الإمكان . . ما من إنسان يقبل أن يقدم ما يملك
مع الآخرين . . ما رأيك فى هذا يا خلاص ؟ » .

فرد يتر في أسي : « أعتقد أنك على صواب .. ولكن معنى هذا أننا نموت جوعاً ، لأننا لن نستطيع أن نتحمل هذا العبء » .

وانطلقا في مسيرهما بضع دقائق دون أن ينبسا بكلمة ، ثم قطع بيتر الصمت كأنما عذبتة فكرة واحدة ، قائلاً : « ولكنهم إذا لم يروا عمل شيء في هذا الخصوص ، فن ذا الذي يجبرهم عليه ؟ نحن لا نملك أى قوة » .

وأدرك تيتو أن رفيقه كان تحت تأثير سراب كذوب ، فأسف على أنه قد بدد آماله .. وحاول أن يعالج الأمر على نحو ما ، ولكنهما لحسن الحظ بلغا ليسيزي الساعة ، فاستطاع أن يطرق موضوعاً آخر . قال :

« إن القرية قريبة جداً .. فنحن ماكدنا نبدأ في المسير حتى وجدنا أنفسنا هنا ! » .

وطلع في هذه اللحظة ، من فناء قريب ، رجل عارى الرأس ، غريب المظهر .. كان شعره طويلاً مشعثاً ، وكانت له لحية بنية اللون غير كثيفة الشعر ، وكان له عينان واسعتان سوداوان تفيضان حياة .. وكان يرتدى جلباباً رمادياً ، ويحمل حقيبة مخططة شدت إلى عصي ، أما قدماه فسكانتا حافيتين .

وخطب تيتو في صوت واضح الثبرات ؛ وفي عبارات ملتبية ، كأنما كان ينتظره منذ عهد طويل .. قائلاً : « حذار ، حذار من التحول إلى الجانب الآخر يا سيدى .. إن يوم الحساب قريب وسوف تدم على أنك لم تصغ إلى صوت التذير .. ألا قد نفخ في الصور ، ولكن الناس لا يسمعون ، لأن الخطيئة أصمّت أذانهم .. وسوف يأتينكم فرسان ، يحملون سيوفاً من نار ، على خيول بيضاء ، وسوف يحار الناس ، ولكنهم لن يدركوا أن الله أرسلها عقاباً للعالم على ما اقترف من شرور » .

واستمع تيتو إلى هذا السيل المتدفق من الكلام ، وعجب على وجه الخصوص من مظهر الرجل .. وتدخل بيتر قائلاً : « كفى يا عم أنظون ، هذا السيد لا يجد وقتاً لهذا الهراء » .

ولكن الرجل ازداد إصراراً . . . أنا لا أتكلم هراء يا بيترو . . إن الحقى وحدهم هم الذين يميزون عن فهم الكلمة ، وهى كلمة لا تخرج منى أنا ، بل منه هو ، الذى أحاط علماً بكل ما هو كائن ، وبكل ما هو غير كائن . .

« لا بأس ، لا بأس ، ولكن كفى هذا . . » قالها بيترو وهو يعض مع هيرديليا . وأوضح أن أنطون المسكين كان راهباً فيما مضى ، ولكن عقله اختبل وأنه هرب من الدير ، وأنه أخذ يهرف بهذا الهذيان مدة سنوات الآن ، وأنه يعيش على ما يتلقاه من إحسان من الناس .

وكان قصر ليسيزى قديماً ومتواضعاً ولطيفاً . . وكانت تقف فى فناءه الكبير ، الذى أحاطت به مباني المزرعة ، عربة شد إلى عريشها حصان أسود . . وكان إلى جوار العربة شاب ، عرف فيه تيتو ابن الملتزم اليونانى — وهو الذى التقى به قبل أيام حين كان مع المعلم دراجوس . . وقال أرسيتيد إنه جاء مع أبيه ليقابلا جوجو أيونيسكو ، ولكنه لم يشأ أن يدخل لأن أحاديث العمل تبعث فى نفسه الضجر . . وطلب بيترو إلى الخادم أن يخبر أصحاب البيت بأن سيدا قد جاء من آمارا فى زيارة لهم . . ورجعت الفتاة فى طرفة عين تدعو تيتو إلى الدخول . . واستقبلته يوجينيا استقبالا حافلا ، وقالت : « ها أنت ذا قد جئت . كم أنا سعيدة ! » .

والواقع أنها كانت سعيدة حقاً . . فقد كانت فى الخامسة والعشرين ، وكانت قد تزوجت منذ أربعة أعوام . . وكان جوجو يحبها الآن حبه لها فى الأيام الأولى من زواجهما . . وكان يلي كل نزوة من نزواتها ، ولكنه كان يبلغ من العمر ضعف عمرها تقريباً . . ولكنها ما كانت تسمح لنفسها أن تفكر فى غيره من الرجال ، فقد أحست أنها تدين لزوجها بالوفاء فحسب ، بل بالامتنان لعبادته لها عبادة فاقت كل الحدود . . ومع ذلك فهى أحياناً تحس بشوق لا تدرى كنهه ، وهو شوق لم تستطع الحياة الحديثة ، بما فيها من تصنع وقيود ، أن تشبعه . . وتعودت نادياً أن تسخر منها ، فهى لا تدرى كيف أن امرأة على جمالها تسعد مع جوجو — هذا الذى انتهى به الأمر فأخذ يصيح شعره ليبدو أصغر سناً . . ولكن يوجينيا ، رغم ما اكتسبت من أساليب وعادات العالم الذى تعيش فيه

الآن ، مازالت في صميم نفسها ابنة بفتيا ، قس ليثيفتنا . . وهذا هو السبب في أنها كانت تشعر في صحة هيرديليا كأنها قد عادت إلى أصولها الأولى لفترة قصيرة . . وتحدثنا عن أخته لورا ، وعن أخيها جورج ، واستعدا ذكرى سنجورز ، وأهل ترانسلفانيا ، وأحوال ترانسلفانيا . وإذا بها تفتن لنفسها فابتسمت ابتسامة لطيفة ، وقالت : « لقد قضى جورج وقتاً طويلاً مع الملتزم الذي يستأجر أرضه . . لا بد لي أن أخبره أنك قد حضرت . . » .

وفتحت الباب . وإذا بصوت جورج يرتفع من الداخل . قائلاً : « أنا آت يا حبيبي ١١ » .

وظهر جورج في فتحة الباب ، ووقع بصره على تيتو وقال : « لماذا لم تخبريني يا حبيبي ؟ . . لقد أنهيت شغلي مع اليوناني منذ وقت طويل ، وكنا نتكلم في السياسة . . » .

وصافح صيفه بجمرة ، وقد بدا مشرق الأسارير . وأصفر سناً عما كان بالأمس ونادى على بلاتامونو ليجلس معهم ، وقال له إنه نصاب ، ولكنه طلب إليه أن يتناول معهم فنجالاً من القهوة ، وإن كان الحق يقال يستأهل الحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . . وابتسم اليوناني متأدياً ، ولكنه اعتذر قائلاً إن عليه أن يدبر بعض الأمور في القرية ، وأنه مضطر إلى الذهاب لمقابلة السيدة نادينا ، واستطرد فعرض أن يأخذ السيد هيرديليا معه إلى آمارا ، إن رغب هو في ذلك .

فنهف جورج مغتبطاً : « اذهب وتسكع في القرية إذن . . ولكن لا تنظن أن في وسعك إغراء ضيوفى بعريتك هذه البالية المتداعية . . ثم تأكد أن نادينا ليست في شوق لرؤية وجهك السمين لأنها تعلم حق العلم أنك تغشها كما تغشني ! » . وصحب بلاتامونو حتى الباب ، ثم عاد وهو يفرك يديه في جدل : « والآن لنسمع ما يريد شاعرنا أن يسمتنا إياه ١١ » .

واضطر تيتو أن يحكي لهم كيف ومتى جاء إلى هذا البلد ، وماذا فعل ، وكيف سارت الأمور . . . فلما استمع جورج إلى قصة الشاب سخط على نفسه ، وأبدى

أسفه ، وقال بصوت عال : « يا للعار !! » . شاعر يأق من ترانسلفانيا ولا يجد له مكانا في رومانيا !! . هذه فضيحة ... يا للبائس المسكين ! »

وتأثر هيرديليا بهذا الاهتمام الكبير ، واسترسل جوجو في لهجة عاطفية : « أرجو أن تعمل في معروفا وتلقى هذا كله ... هذا أولا ... أما ثانيا فسوف أرى بنفسى أن قربينا الشاعر لن يشعر بوحشة فيروه انيا . أليس كذلك يا حياقي ؟ ، قالها مخاطبا زوجه .

وغردت يوجينيا : « طعا ، لا بد أن نعمل شيئا من أجله . »

فلما انتهى بلاتامونو من شئونه ، وعاد يستدعى تيتو ، التمس جوجو سببا آخر يدعو به إلى تقيمه . قال : « أما وأنت ستأخذ منى ضيفى ، فسوف أزيد من الإيجار الذى عليك أدائه . » ثم قل للسيدة نادينا إتنا سوف نحضر غداً وتناول معها طعام الغداء ، وتنصحها بأن ترفع إيجار عرتها كذلك . . هذا كل ما فى الامر يا صديق . »

— V —

وقاد بلاتامونو العربية ، وأخذ يتبادل الحديث مع تيتو هيرديليا ومع ابنه ، ولكنه كان شارد الذهن . . لأنه لم يشأ أن يبدى مدى اهتمامه بهذه الرحلة إلى آمارا — ولو لأرستيد نفسه . . ذلك أن مستقبل آل بلاتامونو كله كان رهنا بهذه الرحلة . . . كان الرجل يحب الأرض ، ليس فقط لما تدره من مال ، هذا إذا حسنت إدارتها وزراعتها ، وإنما لما تتيحه للمالك من استقرار وطمأنينة على وجه الخصوص . . نعم ، إن قة السعادة هى فى كون المرد يصبح مالكا لمزرعة ؛ كان هذا هو الحلم الذى هفت إليه نفسه منذ غدا ملتزما يستأجر الأرض من الغير . أما الآن ، فى آخر المطاف ، فقد أوشك الحلم أن يندو حقيقة واقعة . . إنه لن يمر ، أنى ذهب ، على ضيعة أروع من باباروجا . . . والامر الذى ينبغى تسويته هو ثمنها . . . وكان يعلم أن نادينا فى حاجة دائماً إلى المال . . . فما أكثر المرات التى لجأت إليه فيها بقصد أن يقرضها مالا . . ثم إنها تأق من الأرض ؛ بل هى فى الواقع تعتبرها مجلبة للضيق والإزعاج . . وهى قد طلبت إليه الربيع

الماضى أن يبحث لها عن مشتر جاد يريد الشراء حقا ؛ وأضافت أنها سوف تبحث معه الموضوع بالتفصيل في الخريف .. ولقد قال لها إن الذين يهتمون بالشراء ربما يتكاثرون إذا لم تشتط في الثمن ؛ لأن التفود شحيحة ، والزراعة لم تعد تدر ما تعودت أن تدره من قبل .. ولقد ألمح إليها أنه ربما يتقدم هو نفسه لشراء ، وفهمت هى التلميح بطبيعة الحال .

وكان بلاتامونو يونانيا ، روماني المولد ... وما كان يتحدث إلا كلمات قليلة من لغة أجداده ؛ ولكنه دل على حبه لليونانيين فعمد أولاده بأسماء أبطال الإغريق القدامى .. قالوه أرسيتيد ، والبنت هيلين .. ثم نال الجنسية الرومانية ، وداعبه الأمل في أن يشتغل ابنه بالسياسة ذات يوم ، وأن يصبح نائبا .. وهو لهذا السبب أنفق على ابنه عن سعة لتهيأ للاشتغال بالمحاماة ؛ واستجاب لكل نزوة من نزواته — على أن أرسيتيد لم يرث عن أبيه اجتهاده ، بل آثار الحفلات والجنس اللطيف على سهر الليالي في طلب المعالى .. فهو . رغم أنه قد قضى في دراسته ثلاث سنوات ، إلا أنه لم ينجح في امتحان واحد .. وكان يتعلل بأنه يريد أن يكون على أتم استعداد أولا ..

وصاح بوزوك صاحب الحان من فتحة الباب عندما رأى الملتزم عابرا :
« سعدت مساء ياسيدى ! »

ورد بلاتامونو التحية مبهجا ، وأطلق نكتة من النكات .. كان يعرف كيف يحدث الفلاحين ؛ وكان يحظى بحب الناس أكثر من حبه للأنشراح الآخرين في الولاية .. وكان الذين منهم في ضيق يذهبون إليه أولا . لأنه لم يكن بالرجل المتعجرف ؛ بل كان يصفى إليهم دائما ، أو كان على الأقل لا ييخل عليهم بكلمة طيبة .

وترك العربية في الفناء ، ولم يتركها أمام باب البيت ، مرضاة للأنشراح .. وكان يزعم أن يصحب أرسيتيد معه لمقابلة نادينا ، ظنا منه أن أية امرأة لابد أن تتألف في الحديث أمام هذا الشاب الوسيم .. ولكنه غير رأيه في اللحظة الأخيرة .. لا علم لاحد كيف تجرى الأمور ، ولو حدث شيء بخيف ، والولد حاضر ، لكان أمرا يدعو للأسف !

وتبادل كلمات قليلة مع نادينا ، أحس بعدها أن قراره هذا كان قرارا حكيما .
كانت السيدة جالسة مع زوجها وزمول برومارو ، لحيتة أحسن تحية ، وكانت
هذه علامة لا تبشر بخير .

« لقد كنا في سيرتك الآن ، وما أنت ذا تأتي 11 »

واصطنع الملتزم ابتسامة مناسبة ، وقبل يدها .. وانصرف الرجلان لأن
الحديث حديث عمل .. ودعته نادينا إلى الجلوس في الكرسي الذي خلفه زمول .
قرب المدفأة التي كانت تحترق فيها كتلتان كبيرتان من الخشب ، قد تصاعدت منهما
زبالات واهنة من الضوء .. واقتعدت هي كرسي آخر . وغفمت في تواضع :
« هذا أحسن .. نستطيع الآن أن نتحدث بهدوء ! »

وكان بلاتامونو يدرك هذه التهديدات جيدا .. فقد كان فرط الأدب من
جانب نادينا معناه أنها تريد مالا .. وأراد أن يقطع عليها الطريق لخدشها عن
المحصول ، وأن المحصول كان ... ولكنها قاطمته مبتسمة : « نعم ، أنا عارفة ..
فالمحصول دائما هو أسوأ من كل تقدير وحسبان ، إما بسبب الأمطار ، وإما
بسبب تحارق المياه ، ثم إن الأسعار لم تكن أبدا جيدة لأن النقود شحيحة ..
يحسن بنا أن نطرق موضوعا آخر . »

واسترسلت قصص عليه أنها أفقت مبالغ طائلة في الشهور الثلاثة التي قضتها
بالخارج ، بل إن الأمر بلغ بها أنها اضطرت أن تسأل زوجها مالا ، رغم
ما شمرت به من حرج .. ولكن جريجور كان لطيفا للغاية . ولم يقحم نفسه فيما
اتخذت من تدابير ؛ ولم تشأ هي أن تطلب منه شيئا ، وبخاصة لأنه كان يقف
موقف المعارضة من هذه الرحلة . وهنا رأى بلاتامونو أن من المناسب أن يقول
لأنه لم يتوان عن الرد على خطابها إليه ، وأنه أرسل إليها قسط الخريف قبل مواعده
بعدة شهور ، وإن كان الله وحده يعلم كم تكبد حتى تمكن من أن يجمعه لها
في هذه الأوقات العصيبة .. ولم تشعر نادينا بخرج أو انزعاج .. بل شكرته
في دلال ، واستطردت قائلة إنها عادت غالية الوفاض ، بل هي ، فوق هذا ،
مدينة لأخيها جوجو .. ثم هي ما حضرت إلى القرية إلا لتحصل على موافقة

على أن يؤدي لها الإيجار مقدما ، رغم حاجتها الماسة إلى الراحة . ، وهى تريد مالها بأقصى سرعة في الإمكان ؛ إما إيجار السنة القادمة كله ، أو الشطر الأكبر منه ، حتى يتسنى لها أن تتخلص من هذه المضايقات المادية المزعجة .

ونفث الملتزم آهة عميقة .. لقد راوده الأمل في أن يحصل على صفقة طيبة ، فإذا بها ، بدلا من ذلك ، تطالبه بأن يدفع الإيجار مقدما .. هذا هو سوء الحظ الذى يلزمه .. ثم يالها من آمال هدهدت صدره هذا الخريف ! . وأجابها وهو يصطنع الحزن أن بوده لو يلبى أى طلب لها ، وأنه قد بذل كل تضحية استجابة لرغبتها ، ولكن من أسف فإن الأمور تجري على غير ما يشئى .. لقد كد واجتهد ، ولكن جهوده كلها ذهبت أدراج الرياح .. بل إنه معرض لخطر فقدان رأس ماله الصغير الذى كان في حوزته عندما وفد إلى هذه العربة .. ثم إن السيدة تريد الإيجار مقدما ، وهو ، هو المسكين ، لا يستطيع حتى أن يسدد الإيجار القديم .. وتاق أن يبرهن لها ، والقلم في يده ، على أنه مهما بذل من جهد فلن يتمكن ، والأسعار على ما هى عليه ، من أداء ولو ثلاثة أرباع الإيجار ، هذا فضلا عن ضرورة الحصول على مبلغ صغير لنفسه ، وهو مبلغ يستحقه حقا نظير جهوده الحثارة ..

وغابت الخلاوة عن نادينا برهة .. ولكنها مالبثت أن استعادت رباطة جأشها ، فتبسمت ، وقالت إن الملتزمين كثيرون . أما الضياع فربما كانت أقل عدداً .. ووافقها بلاتامونو على ما قالت ، ولكنه أضاف أن الأمر يتوقف على نوع الملتزمين ، والملتزم الذى يعرف الأرض معرفته بها لن يدفع فيها إلا أقل من نصف الإيجار الحالى الذى هو مضطر إلى أدائه .. صحيح أن الإيجارات ارتفعت في بعض المناطق ، ولكن الفلاحين في هذه المناطق بالذات موضع استغلال رهيب بحيث لم يعد أحد يدرى ما سوف ينجم من عواقب .. لقد هب الفلاحون ثائرين ، هم أيضاً يريدون الأرض ، ويرفضون الاستمرار في مكابدة الظلم ، ومعاناة الوحشية صامتين .. بل إنهم حتى في هذه الولاية ، حيث العقود عادلة ، وحيث لا ينشهم أحد في سحتوت ، تراهم يراوغون ويشيرون الفتنة والاضطراب ولا يدرى أحد غير الله ما الذى يجري في الأنحاء الأخرى .

وضاقت نادينا بهذا الحديث الطويل ... ولحظ الملتزم ما اتتاها فأمسك عن الكلام .. وخيمت عليهما فترة من الصمت ، ونادينا تتطلع إليه متفحصة ، كأنما تستشف ما يكن وراء كلام هذا اليوناني ، وهو كلام لين ، يكاد يتسم بالذلة ولكنه ينفذ إلى النفس خاصة .

« سئى !! » قالتها بغتة ، فى شىء من السخط ، وهى تومئ لإيماءة من يريد أن ينهى الحديث .

وأحس بلاتامونو أنه قد تجاوز حده قليلا ، لجعل يترقب فرصة ليتراجع هونا ما .. لقد كان يعرف فى نادينا الاندفاع والتهور ، وكان يعرف أنها قادرة حقا على البحث عن ملتزم آخر .. وتلك هى الطامة الكبرى ؛ فهو بدلا من أن يشتري الضيعة يفقدها كلية ..

ودخل جريجور فى هذه اللحظة ، وأعلن أن نفرا من الفلاحين قد حضروا ، وأنهم يطلبون المول بين يديها ، لأنهم كذلك يريدون شراء الضيعة . ونهضت نادينا ، وقد أخذتها الدهشة .

« ولكنى لم أتعهد فى شىء من هذا القبيل مع هذا السيد ! »

كانت فى حيرة من أمرها ، ولكن جريجور أصر على أنها يجب أن تقابل الفلاحين .. فهم أناس سيئو الظن ، وسوف يعتبرون أن من الظلم ألا يتلقوا جوابا منها شخصيا .. وما كانت نادينا تربطها بالفلاحين علاقة فى يوم من الأيام . ولم تكن هى من جانبها ترغب فى وجود هذه العلاقة ، فقد كانت تعتبرهم أشرارا متوحشين .. وترددت لحظة ثم قالت وهى تهزكت فيها : « لا بأس يا جريج ، إن كنت ترى ذلك .. ولكن حذار أن يوسخروا الغرفة ، أو يملئوها روائح ! »

ودخل لوكا تالابا ، ومعه بعض صحابه .. كانت رائحة الثوم تفوح منهم جميعا وهى رائحة سرعان ما انتشرت فى أركان الغرفة الأربعة .

واستحشهم جريجور قائلا : « هيا ، حدثوا السيدة بكل ما يدور فى خلدكم ، لا تخشوا شيئا ! »

لقد حدثهم صاحب الحان ، منذ فترة وجيزة ، فقال إن اليوناني ذهب إلى بيت الشريف ، كي يهد الطريق لشراء عربة باباروجا — وعقد الفلاحون اجتماعا آخر ، بعد حديثهم بالأمس مع الشريف ميرون ، واستقر رأيهم على الذهاب إلى السيدة نادينا التي حضرت من بوخارست .. أما الآن فهم يشعرون بالاضطراب ، وبخاصة لأن الملتزم كان حاضرا .. وبعد فترة من الصمت الطويل ، تغلب لوكاتالابا على الارتباك الذي ساوره . فانطلق يتكلم ، وهو ينظر مباشرة في عيني نادينا « اغفرى لنا ياسيدتي هذه الجرأة من جانبنا ، ولكن عذرنا أننا سمعنا أنك تريد بيع العربة ، ففكرنا في الأمر مليا ، وقلنا لماذا تذهب العربة إلى الأجانب الغريباء ، ف نحن على كل حال قد عملنا فيها دائما ، وسنبذل جهدنا كي .. »

وبرمت نادينا وضاحت ذرعا ، أولا من بلاتامونو، ثم من رائحة الثوم والآن من حديث الفلاح ، إنها لم تفكر حقا في بيع باباروجا صحيح أنها قالت للملتزم في الربيع الماضي إنها تريد أن تتخلص من العربة ، ولكنها لم تقطع في ذلك برأى إذ ذاك . وهي لم تتحدث بذلك إلا بمجرد الحديث ، لأنها لم تستطع أن تتخلص من الملتزم وأن تطرده من حضرتها على عجل . وهو الذي قدم إليها مبلغا من المال . والظاهر أنه قد نجم عن هذه الكلمات القلائل التي فاهت بها عفوا سلسلة كاملة من الأحداث . لقد طرقت حوها الموضوع بالأمس ، وهامهم هؤلاء الفلاحون بثيرونه اليوم . على أنها لم تدرك إلا الآن لماذا اشتكى بلاتامونو من الإيجار . ولم تتأكد أن تمنع نفسها من الابتسام ، وتطلعت إليه في سخرية . كان لا يزال جالسا في كرسيه ، وعيناه على الفلاحين ، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الدهول وهي أمارات أراد أن يخفي بها ما عتراه من ارتباك ، نعم ، ما كان في ذهنه إلا فكرة واحدة : « إنه سوء بختي أنا ! »

ولما أحست نادينا أن الفلاحين قد أسرفوا في الكلام ، قاطعتهم قائلة إنها لا تتوى أن تبيع الضئعة في الوقت الحاضر ، وأنها راضية عن السيد بلاتامونو . فهو يؤدي ما عليه دائما بانتظام وكما يجب ؛ ثم إنه لا يضطهد الفلاحين .. وأراد الفلاحون أن يوافقوها على ما قالت ، حتى لا يضيقوا الملتزم : « الحق نقول إننا على وفاق دائما مع هذا السيد » .

واستطردت قائلة إنها لن تساهم حين تنوى البيع، ولكن عليهم ألا يستمعوا إلى الشائعات، فهي شائعات لا يرونها إلا أولئك الذين يسعون إلى الانتفاع منها، أو على الأقل الحشاه المولعون بالأذى . وهنا جف حلق بلاتامونو ، رغم أنها لم تنظر إليه ، ولا إلى الفلاحين .

فلما انفردا سويا مرة أخرى ، تساملا الملزم في وداعة : « ترى ماذا تنوين أن تفعل في ؟ » .

فقالت نادينا : « سأنظر في الأمر . وأرى ما أنا فاعلة » .

وأحس بلاتامونو بالأرض تميد تحت قدميه . وحاول أن يبلع في الأمر فسألهما حتى يأتي مرة أخرى . وترددت السيدة وقالت إنها لا تدري كم يوما ستقضيها بعد ذلك في القرية .

وتسامل للملزم بفتة في يأس : هل أنت غاضبة على ياسيدتي ؟

فقالت نادينا بامتسمة قهقهة تمد يدها إليه : « لست غاضبة أبداً . ولماذا أغضب ؟ أنت لم تؤذي في شيء ، أليس كذلك ؟ اطمئن ، أنا لست غاضبة » .

وبينا بلاتامونو يتدلى من الدرج تمت لنفسه مغتما : « وهذا الحق يقال يوم نحس ، عليه المنة ١١ » .

— ٨ —

بدأ الرذاذ البارد بعد ظهر الثلاثاء — وكان يتساقط في ببطء دليلاً على أنه سيستمر مدة طويلة ، فهو مطر الحريف حقا . وكان جورجو أونييسكو قد حضر مع يوجينيا إلى أمارا لتناول الغداء — وكانت وليمة بهيجة ، انتهت بنقاش حول الحطلة التي أزمعوا عليها للعودة إلى بوخارست . . . وكان حتماً على جورجو أن يكون في بوخارست يوم الخميس ، وما كان في مقدوره أن يتأخر بعد ذلك ، فهو أيا كان الأمر ، نائب ، وسوف يعقد مجلس النواب في مدى أسبوعين ؛ وهو مضطر إلى تبادل الرأي مع رفاقه السياسيين قبل انعقاد دورة المجلس . وعرض على نيتو

أن يصحبهما ، ولكن جريجور اعترض على هذا ، فكيف يجزو جوجو فيقترح اختلاف ضيفه من عنده . . وكان هو في الحقيقة قد فكر في إرسال تيتو مع نادينا ، حتى لا تسافر وحدها مع برومارو .

واختل جريجور بجوجو وتيتو ، قبل أن يجلسوا إلى مائدة الغداء ، وتبادلوا حديثا خاصا . . ولما استمع جوجو إلى العرض الذي تقدم به بالوليتو استشاط غضبا . . وكيف خطر في بال جريجور أن بالوليتو يهتم بأى أمر؟ . من الواضح أن جريجور لا يعرف حق المعرفة ، برغم أنهما صديقان . . إنه يكتفى بإزجاء الوعود ، ثم هو لا يفعل شيئا في النهاية . . وخالفه جريجور في رأيه ، على تردد بعض الشيء ، ولكنه أضاف أن من المحال أن يبقى الفتى ، يقصد تيتو ، معلقا في الهواء ، وإنما يجب عليهم

فصرح النائب جازما . . استمعا إلى : أنا أتهد لكما بأنه في مدى أربع وعشرين ساعة من وصولي إلى بوخارست سأهيء لهذا الشاب عملا . هذا عهد على . . وأنا لست بالوليتو !

فقال جريجور : طبعاً ، في وسعك هذا إن كنت حقاً تريد أن تفعل شيئا . . ولكنك أنت أيضاً ، يا عزيزي جوجو ، تميل إلى الإهمال ، ثم . . .

فضحك جوجو وقال : أرجوك ! أنا أعرف متى أعمل ، ومتى لأعمل ،

وهمس جريجور في أذن تيتو بعد ذلك ، حين انفردا سويا لحظة . « إنك لسعيد الحظ . . والظاهر أن يوجينيا ترى معالحك . . فهو متحمس غاية الحماس !

ولم يفتش الشاب هيردبليا بكلمة ، وإن أصنى باهتمام . وجعل يردد في ذهنه مهتاجاً : إنه والحق يقال قد ولد في يوم سعيد . . واندفع ساعة الغداء يأكل مسروراً ، وفي نهاية النولمة ، حين تطرق الحديث إلى أغاني « الدوينا » (٦) ، الترانسلفانية ، شرع يغنى أغنية شعبية مطلعها . « الطريق طويل إلى كلوجي ، فصفق له القوم استحساناً . . حتى ميرون الكبير أزعج إليه التهتة ، أما نادينا وهي التي تعودت أن تسخر من الموسيقى الشعبية الرومانية فقد أخذت منه وعداً بأن يأتي لزيارتها حين يفد إلى بوخارست ويقتنيها كل ما يعرف من الأغاني الشعبية . .

ورحل جوجو ويوجينيا والمطر ينهمر مدرارا .. ووقفت نادينا في فتحة الباب وجعلت ترتقب الريح وهى تدفع قطرات المطر ، فقالت مرتعدة . . أعتقد أتى سأعود إلى بوخارست حتى قبل جوجو ، أما أيوجا الشيخ فقد فرك يديه رضى وقال . . لا ضير من ذلك يا عزيزتى .. هذا المطر مفيد جدا لزراعة الخريف . فهو يدر علينا الملايين .. الملايين حقا !

« ربما كان هذا صحيحا يا والدى ، ولكنى لا أحب المطر ، حتى في المدينة . أما في القرية فأنا أمقتة مقتا ! ! »

وكان جريجور قد اتابه تغير منذ وصول نادينا . . فهو بعد أن عانقها مرة أخرى ، أدرك أن حياته بدونها ان تكون إلا خطأ وألقاضا .. وغفر لها كل أخطائها ، وأحس أن هذه الأخطاء إنما تقع تبعثا عليه .. ثم إن أية امرأة على شاكلتها من حقها أن تحيا ، وأن تستمتع بمضجوع الدنيا لها ، لا أن تحيا حياة خاملة مغمورة ، وهى الحياة التى يريد لها ، تدفعه إلى ذلك غيرته الشريرة . . ولقد ظن يوما أن مقاومتها الطبيعية لهذا الاتجاه آية على نقص حبها له .. وكان ينظر إلى مغاللتها على أنها جرائم ، بدلا من أن يرى فيها مجرد رغبة طبيعية للتألق .. نعم ، لم يفهم هو أنها وهى تصر دوما على أن تقدم له شيئا طريفا ، وعلى أن تكون دوما متجددة متغيرة . إنما كانت ترغب — بل ونجحت — فى أن تكون حبيبة وزوجة فى آن واحد .. ولقد نظربعين السخط إلى نزواتها ، وكانت نزوات عادية للغاية ؛ بل إنه قد عاب عليها حبها للرقص والترحال .

ومع ذلك فلا مناص من أن يرقب نفسه الآن ، بل وطوال الوقت ، وأن يكبح نزواته التى تطبع بها .. وكان وجود رمول ورومارو لا يزال يبعث فى نفسه العنق ، رغم أن الرجل المسكين بذل جهداً جهيداً ليكون ذا فائدة ، فكان يحكى القصص ، ويروى الفكاهات اللطيفة ، ويسأل عن تربية الماشية ، ويصفى كالشيد إلى آراء جريجور فى الزراعة ، ويلعب الورق مع ميرون الكبير ، ويعامل يتو باحترام لأنه لاحظ أن جريجور يكن له الحب ، ويحاول أن يسلى نادينا ، فيقص عليها نكات فرنسية حين يلحظ أنها ضيقة الصدر .. أما جريجور فكان لا يفغل عن ملاحظته ، وكان يرقب حركاته وسكناته كلها ، رغم ما كان يرى فى هذا من مغالاة .. بل هو

قد وجد نفسه فعلا يرتاب في نادينا، حتى في أثناء المحطات التي يخلصان فيها إلى نفسيهما تماما .. كان يخال قبلاتها قبلات غير صادقة ، وأنها تتصنع كلمات الهوى .. وكان يخشى طوال الوقت أن تكون قد تلاعبت بعواطفه .

ولقد دفعه حبه الذي يحتاج من جديد أن يسارع بالرحيل إلى بوخارست .. فهو لا بد أن يفرغ من عمله هذا في مدى أسبوع على أكثر تقدير ؛ وحاول أن يستميل نادينا ، ويقنعها بالانتظار من أجل غاظه .

فقالت نادينا : « أعتقد أنني أموت كندا لو قدر لي أن أقضى أسبوعا آخر في هذا المستنقع الرهيب .. وأنا لا أدري لماذا لا تترك مرة واحدة في حياتك هذه الشئون التي شغلت نفسك بها فدمضى سويا .. »

ووعده جريجور أن يكون على أتم استعداد يوم الأحد ، ولكنه استطرد قائلا : إنه لا يود أن يحبسها ، ولا يريد لها التعاسة ، بل هو على العكس ، لا يتمنى إلا أن يراها سعيدة مرحة .

واستقر الرأي على الرحيل يوم الخميس ، ولكن المطر تساقط بشدة إذ ذاك ، فأجلت نادينا سفرها إلى يوم الجمعة .. وحسب جريجور أن هذا مجرد عذر التمسته لتبقى معه ليلة أخرى ، فسر وأبتهج .

وتنفس صباح الجمعة فكان يوما مشرقا .. كان المطر قد توقف في أثناء الليل ، ولكن الوحول والبرك التي نشأت في الطريق ارتفعت حتى الركبة .. ووقفت السيارة عند الدرج ، بعد أن دارت حول حوض الزهر الذي كان على شكل القلب ، وقد زين الساعة بأزهار الحريف القرمزية التي تبسمت تحت قبلات الشمس ، وكانت قد برغت لتوها من بين لفائف السحب .. وخطت نادينا إلى السيارة ، بعد أن قبلت جريجور عدة مرات ، فلما لحق الأزار قال بركة : « انظري يا جريج ، هذا هو قلبك !! »

ولحظ تيتو بيتر بين لفيف الخدم الذين سعوا إلى تقديم خدماتهم ، وكان قد ساء يحوم حول بيت الشريف أملا في رؤية ماريودا ، وفي الحصول على عمل

لنفسه.. وودع هيرديليا ميرون الكبير، وشكر جريجور شكرا حارا على دعوته له ،
ثم صافح الفلاح الشاب .

« حظ سعيد يا صديقي ! »

فرد بيتر بحرارة : « رافقتك السلامة ياسيدى ! »

وسمعت نادينا صوته الغريب ، فالتفتت ، فإذا بنظرتهما المتطلعة تلتقي بعينه.
البرأقتين وهلة .

وسارت السيارة على الممشى الحجري وثيدة ، لأن جريجور كان يمشى بحذاءها
عارى الرأس .. وكانت نادينا جالسة بين الرجلين ، تبعث إليه قبلات بيدها
المتشحة بالقفاز .. فلما بلغوا البوابة، طلب جريجور إلى السائق أن يتوقف برهة
قالا : « معذرة ، أريد أن أقول كلمة لنادينا .. »

ومال فوق الباب ، وأخذ رأسها بين راحتيه ، وقبل طرف أذنها هامساً :
« أجبك ! ! »

واهتز أنف نادينا طربا ، وقالت بالفرنسية : « أنت معتوه يا صغيري العزيزة ! »

ثم انطلقت السيارة كما ينطلق العمداء فى سباق .. ونظر جريجور وراءها ، فلم
ير إلا بدأ صغيرة تلوح فى الهواء فوق الروس ، كأنها حمامة يضاء .

وسرعان ما بعدت السيارة ، وهم تلقى بالوحل والمياه الرسخة على جانبيه.
الطريق ، فسمع أبوجا صرنا يصيح فى غضب : « إلى الجحيم لننكم الله ! ! »

وخرجت الأم أيونا من جانب الطريق ، وهو تنفض ثيابها غاضبة ، فقد
علاها الوحل من قبة رأسها إلى أخمص قدميها ..

وعلى مدى من الحارة كانت نيستور موكينيكاً أنفيلينا تقرب ، وقد حملت
طفلا يرضع من ثديها ، أما الطفل الآخر ، وكان يبلغ الرابعة فقد تعلق بيدها ..
وكان هذا الصبى ، وهو حافى القدمين مثل أمه ، يتعث فى جلبابه الطويل الذى

كان يظاً به في الوحل.. وكان يصرخ باستمرار : « أنا جامع يا أمي !! ..
وحاولت الأم أن تسكن من روعه ، وشدته من ذراعه ، وقالت متأففة :
« اسكت يا حبيبي ، اسكت ... »

وغابت السيارة ، واختفت اليد البيضاء .. وارتجف جريجور أبوجا كأنما
قد هب من حلم .. كان كل ما تاهى إلى سمعه هو عويل الطفل ، ودمدمة المجوز :
« إلى الجحيم لعنكم الله !! »

الفصل الرابع

الأضواء

- ١ -

طوال يومين كاملين ، لم يجد تيتو هيرديليا مناصا من أن يقص المغامرات التي صادفها في الريف ، وكيف قضى وقته هناك .. جاءت أولا صاحبة الدار ، السيدة الكسندريسكو ، فطلبت إليه أن يحكى لها كل شيء ، فهي حين لا تجد ما تقوله عن جينتسا ، أو عن ميمى ، تتلفف شوقا إلى الخوض في سيرة الناس ، وتناولها بالقبيل والقال .. كذلك اضطر أن يقضى أمسية كاملة مع جارفيلاس ، ثم جاء الشاب مندلسون ، ابن الاسكافي ، وكان قد سرح من الجيش الآن ، فأخذ يسأله عما يمانيه الفلاحون ، وقال والثورة تملأ جوانحه ، إن المظالم الاجتماعية أصبحت لا تطاق بحيث غدا لزاما على الجماهير اليائسة أن تستولى على مقاليد الأمور ، وعندئذ ينهار كل شيء في بحار من الدم واليران .

وأسم تيتو بطبيعة الحال في هذا الحديث ، أعنى في شيء من الاعتدال ، ذلك أنه بعد أن رأى النتائج التي أسفرت عنها اتصالاته بالمجتمع الراقى لم يمد يميل إلى الإسراف في الكلام .. لقد تحمس أشد حماسة من أجل نادينا ، فقد بدت في ناظره أفق النساء قاطبة ، والظاهر أنها قد مالت إليه ، رغم أنها لم تعره التفاتا كبيرا . فلم توجه إليه إلا كلمات قليلة حتى في السيارة ، حيث أخذت تتحدث مع ردول برومارو طوال الوقت بالفرنسية .

وذهب صباح الأحد إلى سترادا أرجنتارى في زيارة إلى جوجو أبونيسكو .. وصحيح أن جوجو قد وعده بتدبير عمل له في مدى أربع وعشرين ساعة ؛ ولكن لا بأس لإطلاقا من أن ينتهز هذه الزيارة التقليدية التي يقوم بها بجمالة ، ليذكره بوعده .

وصاح النائب مزهوا : « لقد تم كل شيء . . . وفي مقدورك أن تذهب غدا ،
وتقدم نفسك إلى جريدة « درابول » ، وتشرع في العمل . . . سل عن السيد
ديليكينو ، ولا تنس هذا الاسم ، فهو رئيس التحرير . . . قل له إني أرسلتك . .
أما المرتب فهو ليس بالمرتب الكبير ، ولكني سأعمل على أن يتحسن فيما بعد . »

وغغم تيتو بوضع كلمات امتناناً وإعجاباً ، فقد انعقد لسانه من فرط الدهشة
والفرح . . . أما جو جو فكان يحب أن يكون موضع إعجاب ، وهو لهذا ،
عندما ظهرت بوجينيا ، ولم يكن قد قصر عليها شيئاً من هذا كله حتى يأتيها الأمر
بقعة ، أخذ يحكي لاذة فائقة جميع تفاصيل الحملة التي شنها ومراحلها . . . قال إنه لم
يشأ ، وهو النائب المحترم ، أن يذهب ، والقبعة في يده ، إلى جريدة « أديفارول »
أو « بونيفرسول » ، فيخاطر بمقابلة قد يبوء منها بالرفض ، بينما هناك الجريدة
التي تتبع حزبه هو ، ثم إن ديليكينو زميل له في مجلس النواب ، فضلاً عن الصداقة
الشخصية التي تربط بينهما . . . واستقر رأيه على الذهاب إلى ديليكينو . . . وكان
الرجل لطيفاً ، ميالاً إلى تقديم العون ، فوافق دون مشقة ، ولكنه أحاله على
المدير التنفيذي — ومن ثم ذهب هو لمقابلته . . . ولكن اللقاء كان فاتراً أكيباً .
فقد كان المدير التنفيذي يهودياً بدينياً ، يلبس نظرات ذات حواف ذهبية . . .
وبدأ الرجل يثرثر كلاماً نظرياً ، ويتحدث عن الأرقام . فقال : « إن تكلفة الجريدة
تجاوزت المقدار ، وإن توزيعها ضئيل للغاية ، رغم أسلوبها الأدبي الرشيق ، ولكن
القراء هذه الأيام لا يتذوقون البلاغة والأدب ، وإنما هم يننون بالجرائم
والفضائح ونحوهما . »

قال جو جو : « وبعد ساعتين من الكلام تملكني الغضب . . . فهضت من
مجلى ، ووضعت يدي في جيبي ، وقلت في حزم : لا يخفى هذا كله ، وإنما أنا
أريد ترضية وإلا . . . » ولقد أفلحت هذه الحيلة ، إذ أجاب الرجل : « حسناً
يا سيدي . . . إذا كان هذا هو مرادك ، فأنا لا أملك غير الخضوع والامتثال . »

وبطبيعة الحال لم يخبر جو جو المستمعين الذين كانوا يصغيان إليه بإعجاب بأنه
حين ألقى يديه في جيبيه ، أخرج محفظته ، ودفع مرتب صاحبه ستة شهور مقدماً ؛
وقد قيد المبلغ بوصفه هبة من النائب أيونيسكو .

وربت يوجينيا عليه ، وهاتئ في رقة؛ وهكذا أسهمت هي الأخرى في تضخيم رضاه عن نفسه وبعدئذ أعرب لالئاب عن أطيب التئنيات ، ودعياه إلى تاول الغداء ثانی یوم یقوم فیه بالعمل فی الجريدة .

ومس جوجو متفکها ، وهو یودع ضیفه حتی الباب : « أرجو أن تذکرنی فی مقالئک من آن إلى آن .

وكان یتقر یتلهف علی رؤیة نسخة من جريدة « درابلول » . فهو لم یطلع قط علی هذه الصمیمة أو سمع بها وحاول أن یعثر علی نسخة منها فی عشرة أكشاك للصحف ، حتی أتیح له أخیراً أن یجد واحدة ، ففتحها علی الفور ، وجعل یقرأها بدقة وبدأت الجريدة فی نظره تافهة ، فارغة ، سخیفة ، كأنها خطبة برلمانیة وغاب فآله لحظة ، فقد كان یأمل فی جريدة من نوع آخر ولكن ما حیلته ؟ حسب هذا بداية یبدأ بها .

فلما بلغ غرفته جلس یتصفح الجريدة ملیا ، من العنوان إلى اسم الناشر ، حتی یألف الأسلوب ولذ هو یفتق سلیله خلال مقال یمل کتبه أحد الشیوخ ، طرقت جینتسا بابہ تعال لحظة یا عزیزى أعرفک بأختی تاتتا لقد أظنبت لینوتا فی مدیحک . . .

وكانت السیدة الکسندریسکو ترید أن تحبب إلى أسرة جینتسا ، فأخذت تلمس الخطاب لتاتتا ، فقد كان والدا الفتاة فی شغل حول مستقل ابئتهما وهی فتاة لم تکن تملك من عرض الدنیا غیر طلعتها الحلوة وكان یتقر فی تلك اللحظة هو الذی وقع علیه اختیار السیدة صاحبة الدار ، فهو یدفع أجر غرفته بانتظام ، وهو شاب حسن المسلك ، یختلط بعملیة القوم ، ومن یدرى ، فربما لکونه صحفیا ، قد یصبح نائباً مثل کوسقیل بیتریسکو الذی زامل زوجها فی المدرسة الحریة .

وهفت السیدة الکسندریسکو فی لهجة سکرية : « أرأیت هذا الملاك الذی هبط علینا یأسد همدیلیا ،

وتضرح وجه تاتتا ، كانت طويلة نحیلة ، وكانت ذات عیون نذیة خضراء

حنالقة .. وبهر الشاب لحظة ، الأمر الذى لحظته السيدة الكسندريسكو راضية ..
وبعد عدة لحظات قالت فى لباقة : « حسنا ، لابد لنا أن نذهب الآن .. فنحن
كما ترى ، قد اتخذنا أهبنا للخروج .. وكنت أريد أن تلقى عليها نظرة لتدرك
ما هى عليه من حسن .. ولكن لا تحزن ، فأنا أعدك بأن أحملك يوما إلى بيت
أسرتها ، وتستطيع هناك أن تطارحها الغرام لو شئت .. »

وعاد تيتو إلى مقال عضو مجلس الشيوخ ، وطالعه بين السطور عينا تانتا
الحضراوان ، ورأى شفتيها الباسمتين ، فاستخفه الوجد .

وذهب فى الفند إلى مقر الجريدة .. وقاده صبي إلى سكرتارية التحرير . وإذا
به يجد فى إحدى الغرف الكبيرة رجلا كئيبا ، غير حليق ، على عينيهِ نظارات ،
قد جلس وحده يقلب فى كوم هائل من الصحف التى بسطها أمامه على طاولة كبيرة ،
وكان فى يده مقص ضخم .. ونظر الرجل إلى الزائر ، ثم واصل عمله .. فلما
انتهى منه ، أزاح بقايا الجريدة ليفسح لنفسه مكانا .. وعندما سمع أن هيرديليا
كان يبحث عن ديليكنو ، قال فى صوت شابه المثل : « رئيس التحرير لا يوجد
بالمكتب غالبا . فهو لا يأتي إلا لئاما ، ولا أعتقد أنك تشر عليه فى يسر .. أما
إن أردت أن تنشر شيئا فى الجريدة ، ففى مقدورك أن تتكلم مع رئيس التحرير
المساعد ، وسوف يحضر عما قريب .. أو تستطيع أن تتحدث معى بشأنه
لو شئت .. »

وشرح له تيتو جليلة الأمر ، فأشاح السكرتير برأسه استخفافا ، وقال : « هيه
— إنهم لا يكفون عن المجي .. إن لدينا من الصحفيين أكثر مما لدينا من القراء ..
ومع هذا فأنا لا أدري ماذا يكون الحال لو لم نستعمل المقص فى السطو على
الجرائد الأخرى .. وأنت لقرى الدار أشد ماتكون ازدحاما يوم دفع المرتبات ،
أما عندما تريد مقالا ، فإنها لا تجد من يكتبه .. على أية حال الموضوع كله فى
يد هيئة التحرير ، أما أنا فقد نفضت يدي من الأمر كله منذ عهد طويل ! »

وخط الرجل شيئا على رقعة من الورق ، حتى يتأكد من أن هيرديليا كان
صادقا فيما قال ، ودفع بها مع رسول إلى المدير الإدارى .. وسرعان ما جاء الرد ،

فاستأنف السكرتير حديثه ، قال : « كل شيء على ما يرام . . نعم ، أنت موظف عندنا . . ولعلك تستطيع الكتابة كذلك » .

وبعد حين انطلق السكرتير على سجيته — كان يعتبر نفسه أكفأ سكرتير تحرير في رومانيا ، وكان يضيّق حين يجد الآخرين لا يشاطرونه هذا الرأي . . وكان يكره أن يجد نفسه مضطرا إلى العمل كما عبد الرقيق ، في جريدة حقيرة مغمورة ؛ أما غيره ، وهم لا يساوونه كفاءة ، فيزدادون سمعة ويعملون لهم ذكرا في الصحف الواسعة الانتشار . . وعهد السكرتير إلى هيرديليا ، وهو الذي وفد من ترانسلفانيا ، مهمة جمع الأخبار من الصحف الألمانية والمغاربية عن رومانيا والرومانيين الذين يستوطنون فيها ؛ وقدم إليه من فوره كوما من الجرائد التي لم تتسبها يد من قبل . . . وما كان أحد في الجريدة يعرف لغة أجنبية غير الفرنسية ، ولهذا لم يكن في وسع أحد غيره أن يقرأها . . ولا بأس من أن يأخذ هيرديليا هذه الجرائد إلى بيته لو شاء ، فيطلع عليها حيثما يحلو له . . كذلك لا ينبغي له أن يسرف في الكتابة ، فالجريدة الفراء في حاجة إلى مقتطفات شيقة موجزة . . ولكن من الأسف أن درابول . . ولكن يحسن بيتو ، علاوة على ذلك ، أن يكتب المقال الافتتاحي مرة على الأقل كل أسبوع — وينبغي له أن يحاول في هذا المضمار . . ذلك أن هؤلاء السياسيين الأغبياء قد أغرقوا السكرتير بمقالاتهم الثميلة البغيضة . . ولكن لا ينبغي لتيتو أن ينسى أن الجريدة هي لسان حال الحكومة ؛ ولهذا يجب عليه أن يلتزم الحذر ، وبخاصة لأن الحزب ، بصرف النظر عن زعيمه الحالي ، به طائفة كبيرة من الطامحين الذين كانوا يشكلون معارضة خفية في داخله ، وكانوا دائما يتلفون على سقطة يستغلونها عند قيادة الحزب الرسمية.

وختم السكرتير حديثه في ود قائلا: « هكذا تسير الأمور ، يا صديقي العزيز ! . وفي وسعك أن تشتغل بالبيت حتى تألف صناعة التحرير . . ولكنى أرجو أن تأتي دواما في الصباح لاذربا أحتاج إليك » .

وكان اسم الرجل روزو .

وعاد تيتو إلى البيت مباشرة ، غلبت نفسه في حجرته ، وبدأ العمل مهمة . . قال يحدث نفسه إن الأبواب كلها مفتوحة أمامه الآن ، وكل ما هو في حاجة إليه

هو المثابرة والعزم الذى لا يفتر أبداً .. وكانت السيدة الكسندريسكو قد ذهبت في حجة جينتسا لتلعب الورق مع أهلها .. وخيم السكون على أرجاء البيت ، ولم يقطعه بين الحين والحين إلا صيحة طفل ، أو سباب يذمك من الغناء الخارجى ، بما فيه من سكان كثيرين .. فلما أقبل المساء ، وكاد أن ينتهى من الكتابة ، سمع وقع أقدام في الردهة .. وخطر في باله أن هذه لابد أن تكون تليذته ماريورا .. فأسرع إلى الباب يرحب بها ..

قالت ميمى في صوت هادئ : « هل أى بالبيت ؟ » .

وبغت الشاب وأجاب : « لا ، هي غير موجودة .. ولكن .. ولكن .. ولكن تفضلى .. تفضلى بالدخول .. »

وتلاعبت شبه ابتسامة على شفوي الشقراء ، وقالت : « لا بأس من إلقاء نظرة على عشي الشاعر ! » .

وتأججت عواطف تيتو ، وقبل يدها أكثر من مرة .. وطلب إليها أن تمسك عدة دقائق ، إشباعاً لرغبته في التطلع إليها ، فهو منذ أن التقى بها ذاك اليوم لم تغب عن ذهنه أبداً .. وقاطعته ميمى كأنما هي قد أعارته أذفاً واعية ، أو كأنما كانت تعرف مقدما ما سوف يقول ..

« كانت هذه غرفتي قبل أن أتزوج .. وتعودت عندما أعود إلى البيت في العطلات المدرسية أن أنام هنا .. ولم تكن أى في تلك الايام تؤجر هذه الحجرة أبداً .. كم من أحلام رائعة حلت بها في هذا السرير الصغير ! .. »

وتشجع الشاب ، ودعاها إلى أن تخلع عنها معطفها ، وهو يتمتم في أثناء ذلك : « لا تخشى شيئاً .. أنا لا أعض .. حقيقة أنا لا أعض .. »

وتضاحكت ميمى وقالت : « طبعاً أنت لا تمض .. ثم أنا لن أسمح لك — أن تترك آثاراً على ! .. »

وخلفته ، وتركته وراءها بسمه تعبق في جو الغرفة .

كان هذا الموسم أغنى مما سبقه من مواسم وأبهج . . وطارت نفس نادينا
اهتياجا . . فقد كان هناك في غضون شهر نوفمبر وحده ، افتتاح البرلمان ،
وحفلات إليونارد دوسى وفيرودى ، هذا فضلا عن حفلات بادوروسكى الراقصة .
إنها حقا قد ابتاعت لنفسها عدة أشياء من باريس ، إنها لا تملك فعلا ملابس
ألينة ، بالمقارنة إلى مجموعة الاحتفالات التى يتحتم عليها حضورها .

وكان جريجور قد أجل موعد عودته من الريف يومين ، لأن أباه لم يأذن له
بالذهاب قبل قفل الحساب ، وبذلك يتسنى للوالدان يعيش فى سلام إلى شهر فبراير .
ولم يجد الشاب غضاضة فى ذلك ، فقد قرر أن يقضى الشتاء كله مع نادينا
فى العاصمة .

د أخيرا ! ! ، قالتها عندما سمعت بالقرار الذى اتخذته .

وطلبت إليه من فورها أن يحجز لها أحسن مقصورة فى جميع الحفلات التى
تم الإعلان عنها ، وأعلنت أنها لو تخلفت عن حفلة من هذه الحفلات فستعتبرها
وصمه عار تمس كبريائها . . واشتد التعب بزوجها وهوىجرى هنا وهناك ، وأرادت
أن تخفف عنه هذا العبء ، فكانت تقول أحيانا : د لو كنت قد تبعت من ألف
والدوران قدح رءول يذهب ، فهو يجيد هذه الأمور . ،

وعندئذ لا يلبث جريجور أن يعترض بأنه ليس تعباً على الإطلاق — وإن كان
كذلك فى الحقيقة . — على أنه كان يلتمس وسيلة يبعد بها رءول عن مصاحبة
نادينا بطريقة أو بأخرى . . لا لأنه كان غيوراً ، فيما قال لنفسه ، ولكن لأن
الرجل كان فى غاية السخف والعباء . ثم إن هذا الحب الوليد فى نفسه لا ينبغي
أن يفسح مكاناً للغيرة ، بل من واجبه أن يكون لها زوجاً وعاشقاً فى آن واحد ،
تماماً كما تفعل هى ، حتى يتأتى له أن يحتفظ بها فى عصمته .

أما نادينا فقد غرقت فى دوامة مشاغها الاجتماعية ، وغفلت عن الجهود التى
بذلها زوجها ، وإن كان من الحق القول بأنها ما كانت لتلاحظها فى ظل أية ظروف

أخرى . . نعم لقد كان من الأمور الطبيعية أن يشفق بها كل إنسان جبا . . هذا أمر محتمل ليس منه فكاك ؛ وقد تعودت عليه طوال حياتها كلها ، وبدأ أول ما بدأ مع أبيها الذي تدله في حبها ، بل إنه حتى الساعة لتبسط أسارير وجهه عند مرآها . والواقع أنها ما كانت تعرف أى ضرب من الحب ألبنة ، اللهم إلا حبها لنفسها ؛ ففى ما كانت تصد نفسها عن شيء ، لأنها كانت تعتبر كل شيء حقاً مباحاً لها . . بل إن لذة الاستسلام للقواية ما كانت تعرفها ، لأن كل شيء يبدو نقيجة طبيعية لجمالها . . وهى ما كانت خائفة لجريجور في اللحظة التي تغلبها فيها العاطفة شأنها عندما تدخن لأنها تميل إلى مذاق الدخان . . وإنما كانت تأتى بهذه الأشياء لأنها تريد أن تجرب كل شيء فيه مغالاة ، سموا بنفسها عن غيرها من النساء ، واستملاء عليهن . . وكانت في أحيان كثيرة تتأمل جسدها العارى في المرأة ، فتنبه إعجاباً لما حوى من فتنة وسحر .

وكان ردول ، بالنسبة لها ، مجرد نزوة طارئة ، أو حلية نافذة تتحلل بها كل سيدة أنيقة ، شأنه شأن جرو صغير أو تعويذة تجلب السعد . . ولقد تدله في هواها أمداً طويلاً ، كما فعل الكثيرون غيره ، فتقبلته في النهاية ، لا عن حب ، وإنما لأنها لم تعد تمأأ أو تبأى . . وكان الناس يرون فيه فتى لطيفاً ، وهو من جانبه كان يعاونها في أمور كثيرة . . وكانت ترتاح إليه أكثر مما ترتاح إلى جريجور الذي كانت لانزال تكن نحوه شيئاً من الاحترام ، ولو أنه كان احتراماً من الوجهة المعنوية باعتباره زوجها . . أما مع ردول ففى ما كانت تحس بالحاجة إلى تصنع العاطفة ؛ بل ما كان هو يتوقع منها شيئاً ، غير ما تلقىه إليه من فتات المائدة . وكان على وجه الخصوص يزاملها في الرقص ، فكان بهذا الوصف ، ذا نفع كبير .

أما جريجور فكان يحس بتفزز غريزى لزام الرجال الذين هم على شاكلة برومارو . وكان يحتقر الرجل ، ويشعر شعوراً صادقاً بأن ناديتا تحط من شأنها إذ تأذن له بمصاحبتها . ولقد أنحى باللائمة على نفسه إذ ترك الأمور تمضى إلى هذا الحد ؛ وراى من واجبه أن يناهضها ، لا بالنقار والمشاحنات ، فهذا ما كان يريد لها إلا عزماً على الاستمرار فيما هى فيه ؛ إنما ينبغي أن يكون حبه لها عاماً شاملاً متفانياً . . وانيه كان قد فهمها منذ البداية ، ولو فعل لما ضاعت عليه أربع سنوات من السعادة ،

ولما اتسعت الهوة التي تفصل بينهما هذا الاتساع الذي يضطره الآن إلى بناء القناطر فوقها ..

وفي اللحظة التي اعترف فيها بخلطه ، استقر رأيه في الحال على أن يسحو تمويضا عن الماضي كله . . . نعم ، لا مناص من أن يعمل على حماية نادينا من كل فتنة ؛ لا يإزاحتها من الطريق ، وإنما بوجوده هو ، وبإشباعها بنفسه . . . ولما أدرك متاعها المالية عرض عليها أن يتحملها عنها ، وفسر الأمر تفسيراً يطري مشاعرها قائلاً : « أنا أريد أن تكون زوجي أفن النساء . »

ولم تصدق نادينا سمعها . لقد ألفت حقيقة ، هي أنه ، بطريقة لبقه ، ولأسباب لها ما يبررها ، كان لا يتم بحياتها الاجتماعية كثيرة التكاليف . . . ومع ذلك فقد ردت عليه في صوت سلس : « هذا جميل منك يا حبيبي ، وأنا أشكرك جدا ، غير أنني أخشى أن يبعث المبلغ في نفسك ذعراً . »

« ما من مبلغ يبعث في نفسي الذعر ، إن كان من أجلك ! » قالها جريمحور بنظرة تأججت ولها وخضوعاً .

وكان الزوجان في هذا الوقت يأتیان بأشياء لم يأتيا بها في أثناء فترة زواجهما كلها ؛ فهما على سبيل المثال يتناقشان مناقشة جدية في موضوع ملابسها ، وكانت تطلعه على أحدث الطرز التي تظهر في محلات الأزياء ، فتشرح له دقائق تفصيل الثوب ، ونوع القماش ، وما يتطلب من ملحقات . . . وكان بدوره يبدى اهتماماً عميقاً ، ويتناول الموضوع في جدية تامة كأنما الأمر مشكلة حيوية خطيرة . . . ويمضي النقاش بينهما أياماً ؛ وتكشفت نادينا ، والدهشة ملء نفسها ، أن له ذوقاً ممتازاً في أزياء النساء ، كما أن له آراء مبتكرة طريفة . . ثم قالت على غرة : « كنت أحسب أن الزراعة هي لك الوحيد ، وأنا أرى الآن أنني كنت على خطأ . »

وابتسم جريمحور . قائلاً : « لقد أصبحت أنت هي الوحيد منذ أن التقيت بك . . أنا أيضاً أخطأت ، عندما اختلقت معك . »

وبعد أن قضيا في بوخارست أسبوعين ، حضر بلاتامونو لزيارتها . . .

وترددت نادينا أول الأمر في مقابلته . . . ففى ، بعد أن تقدم جريجور لمعاونتها ، لم تعد فى حاجة ماسة إلى عون من الملتزم ؛ ثم ليس من شك فى أن جوجو سيسمح لها بأن تزجل سداد الدين الذى استداتته منه وهى بالخارج .

وبدأ بلاتامونو فأدلى بالسبب الذى دفعه إلى الشخصوس إلى بوخارست . فهو قد انتهز فرصة مجيء ولده لتسجيل اسمه بالجامعة ، فصحبه بقصد أن يدد محابة سوء الفطن التى نشأت بينهما . . . ولقددير الصبي شئونه على وجه السرعة ، وعزم على أن يعود مباشرة إلى القرية ، حتى يتمكن هناك من أن يعكف على الاستذكار على نحو أفضل ، ويعد نفسه للامتحانات التى لابد له من اجتيازها بعد عيد الميلاد . هكذا وجد بلاتامونو فسحة من الوقت ليهتم بشئونه هو . . . ولقد بدل جهدا جريدا ، فاستخلص نصف إجمار الربيع ، وأقن به آية على أنه يفعل المستحيل استرضاء للسيدة نادينا . . . على أنه يريد أن يطلب منها معروفا بسيطا ، وهو على ثقة من أنها لن ترفض طلبه ، نظرا لإخلاصه وتفانيه فى خدمتها . . . وكان المعروف بطبيعة الحال عن باباروجا . . . لقد سمع السيدة نادينا نفسها تقول إنها لاتتوى فى الوقت الحاضر أن تبيع الضيعة . . . ومع ذلك فقد استمرت الشائعات تتردد ، كما أنه سمع من الفلاحين أن الشريف ميرون يريد شراءها أيضا . . . أو تسمع له كذلك أن يعرب عن رغبته فى شراء العزبة أيضا . . . وبعد فهو يرجو منها ، وهى تقر باستلام دفعة مقدما عن ربيع السنة القادمة أن تذكر أن هذه الدفعة تعتبر ضمانا ، على شرط أن يكون العرض الذى يتقدم به مقبولا لديها وأحسن من غيره من عروض . . . وهذا الإجراء بالنسبة لها ليس إلا مجرد إجراء شكلى ؛ أما بالنسبة له فهو نوع من الكفالة المبهمة ، ولكنها لا تقدر بحال ، باعتبارها دليلا على ثقافته ، واعترافا بمخدمته وتفانيه .

وأصغت إليه نادينا دون مقاطعة . . . كان كل هما أن بلاتامونو قد جاء لها بحال . . . وكانت قد تعلمت من أبيها أن رفض المال حرام . . . أما المعروف الذى سأها الملتزم لإياه فلا قيمة له ، لأنها لاتتوى البتة أن تبيع باباروجا . . . بل إن عملية البيع تبعث على الضجر أكثر من عملية التأجير . . . ثم ما أكثر المشاكل التى نشأت لمجرد التليح برغبتها فى البيع .

وسأله : « من أين جاءك أنى أريد بيع عزيتى ؟ لقد أخذ كل واحد يقول

لمنى أريد ييمها ، وأخذ كل واحد يتقدم لى بالعروض .. وأنا الشخص الوحيد الذى لا يدرى عن الموضوع شيئا .. ولعل من العدل أن أعرف أنا أيضا شيئا عنه كذلك .. أنت رجل عاقل ياسيد بلاتامونو ، ولا بد لى أن أقول لك كلمة صريحة أنا لن أبيع الضيعة ، وليس فى نيتى أن أيمها ، أؤكد لك هذا .. أهذا واضح ومفهوم ؟

« إذن هذا الطلب الصغير الذى تقدمت به لن يضايقك على الإطلاق » ، قالها بلاتامونو فى نعمة ، وقد جال بخاطره ألا شيء يمكن أن يكون واضحاً ومفهوماً مع النساء ؟ ومن يدرى ، فربما الشيء الذى رغب فيه بالأمس ، ورفضه اليوم ، قد يتقبله فى الغد .

وقالت دون مبالاة : « حسن .. لا بأس فى ذلك إن كنت ترغب فيه .. لقد أردت فقط أن أحذرك حتى لاتأتى فيما بعد وتقول كيت وكيت ! »

وأخبرت جريجور بعد ذلك بما حدث .. لم تكن بها رغبة فى إخفاء هذه الأمور عنه ، وخاصة لأنها الآن تملك قدرا كبيرا من المال ، ومن ثم ستقل التكاليف التى يتكبدها .. وقال جريجور ، كما سبق له القول مرارا ، إنها حرة التصرف فى دخلها كما تهوى ، وإنه لا يريد أن يقحم نفسه فى شئونها ، ولكن من رآيه أنه ما كان لها أن تبذل أى وعد لبلاتامونو .. لماذا تظل يديها مستقبلا ؟

وأسفت نادينا على أنها قصت عليه الأمر ، ما كان فى ذلك جدوى .. لأن جريج متحذلق يثير الغيظ .. ولخط جريجور ضيقها فأسرع يقول : « ربما كنت أغالى واسكن لاتعصبى منى يانادينا هيا ابتسمى إن ابتسامتك هى حياتى ! » .

- ٣ -

« من أسف أنك لاتعرف القراءة ياثيريلا ، تعال هنا وانظر إلى هذه ! ! »

وكان مكتب الضيعة يشغل غرفة صغيرة ، بها منضدة من خشب الصنوبر ، وبضعة كراسى لامساند لها .. وكان المكتب فى نفس المبنى الذى به زل الجدم .. وأخرج بلاتامونو من محفظته المنضخمة رقعة من الورق الأبيض ، ولوح بها أمام عيني المشرف ..

وصاح في نشوة : « أترى إلى هذه القصاصة من الورق يا شيريل ؟ هذه هي باباروجا يا بنى !! انظر إليها .. تستطيع أن تقول للناس ألا يضيعوا وقتهم وهم يحومون حول بيت الشريف بعد ذلك ! »

فقال شيريل باحترام : « أسبغ الله عليك الصحة لتستمع بها » .

فأجاب بلاتامونو : « ربنا يسمع منك !! أنا يا شيريل قد عملت طوال حياتي ، ومن حتى أن أنال في شيخوختي قطعة من الأرض .. وأنا لا أكف عن العمل ، ولو بالليل ، وأنتك لتعلم هذا جيدا .. وأنا أكاد وأكدهج ولا أتواني عن مساعدتكم — لا كالأشراف الآخرين الذين يحتمون القهوة في شرفاتهم ، ويتوقعون إن يتساقط كل شيء عليهم رطباً جنياً دون تعب أو جهد .. ومع ذلك فالتناس لا يرحموني ، بل يحاولون أن يدفعوني جانبا .. هل هذا عدل ؟ قل لي بريك يا شيريل ، فأنت رجل عاقل ! »

قال المشرف : « إن الناس لا يحاسبونك ياسيدى .. ولكنهم كذلك لا يملكون . أي قطعة من الأرض ؛ ولهذا تزام يعملون بكل ما في طوقهم من جهد » .

فقال الملتزم وهو يطوى الورقة : « أنا لا أنادى بحرمانهم من الأرض ؛ أنا لا أقول بهذا .. لياخذوا ما يريدون من أرض يا شيريل ، ولكن لماذا يقع اختيارهم على عزي ؟ » .

وكان اليوناني قد انتظر أمداً طويلاً ليخوض في هذا الموضوع .. فقد كان ينحى باللائمة على الفلاحين الذين ظهروا أمام نادينا خصوصاً بأنفسونه .. والظاهر أنه هو نفسه ما كان يعزى قيمة كبيرة لهذا الإيصال الذي في حوزته ، وإنما استخدمه تمييزاً لمركزه في عيون القرويين . كذلك كان في حاجة إلى الطمأنينة يدخلها على نفسه في الوقت الزاهر بسبب أرستيد ، فالولد شاء أن يعود معه إلى القرية ، بدلاً من أن يبقى في بوخارست ويستمتع بوقته ، فامتثلت نفس بلاتامونو قلقاً ، وبخاصة لأنه لم يستطع أن يخفف عن نفسه ، فيفضى بالامر إلى زوجته ، فقد كانت شخصيته ضعيفة .. وكانت علة قلقه أن يكون ابنه قد وقع في أحبوبة

خفاة من هذه الإنحاء ، أو أتى بمحاكاة من المحاكات ، ومن ثم يقضى على آماله فيه . وكان أرسنيته كئوسا جدا لا يسر لآييه بشيء . . . وأحس بلاتامونو ، بوصفه والدا ، أن من المحال عليه أن يسأله في ذلك ، ولعل هذا هو الذى آثار الضيق في نفسه . . واختلج فؤاده غما ، وتوجست نفسه شرا .

وكان شيربلا يتحرق شوقا على إذاعة الخبر الذى تلقاه من بلاتامونو . كان من العسير عليه أن ينصرف عن عمله في جليجانو خلال الأسبوع ؛ ومن ثم كان يتعين عليه أن يصبر حتى يقبل يوم الأحد ، فيسرع إلى بيته في أمارا ، فينظر في أموره ، ويزيح عن كاهله ما حل من أسرار . . وأوقف الرجل عربته أمام جان وزوك ، حيث كان يتجمع الناس دائما بعد الكنيسة ، وتدل منها ، وبث برووجه وابنته إلى الدار ... وكان الناس واقفين أمام المبنى ، يدرءون عن أنفسهم المطر ، وقد أخذ كل منهم يقص على صاحبه متاعبه وأشجانه . . وحياتهم شيربلا ثم ولج الحان... كان لوكا تالابا واقفا وسط الجمع ، يحاور العمدة ، أما الآخرون فما كانوا يتكلمون لإقليات . فلما رأى شيربلا هتف فرحا ، كأنما وجد فيه حليفا مؤازرا : « لقد أرسلك الله أخيرا يا شيربلا . . فأنت لابد تعرف أن ... »

وانتهزها صاحب الحان فرصة لينظم شمل زبائمه ، قائلا لماذا : تفقون جميعا هكذا ، وتسدون الطريق ، وتحولون بين الناس وبين المرور . . اجلسوا إلى المواقد . فلن يعصمكم أحد ، وأنا لن أتقاضى منكم أجرا — هيا تعالوا هنا . . تفضل يا سيدى العمدة وتقدم الجمع ، فسوف يتبعك الآخرون . »

واستطاع أن يجعل كل واحد يتخذ له مقعدا ، ويتناول شرابا آخر الأمر . .

وكان أيون برافيل ، وقد ازداد شراسة ، يتحدث عن باباروجا ، قائلا إن من الظلم أن نرى أولئك الذين أنعم الله عليهم بالثراء يحصلون على مزيد من الأرض ؛ أما الفقراء فيظلون في شقائهم يعمهون .

فقال لوكا يحدث شيربلا بون وهو منفيظ : « أرايت ، هكذا يمضى في الكلام ساعات وساعات كل مرة ! »

فقاطعه غرغو قائلا: « أنا أنفق مع العمدة ... ولا أظنك على صواب يا عم
لوكا ... هذا رأيي حقا ... والسبب أنك لو حاولت أن تشتري الأرض ،
فكيف إذن تتوقع من جلالة الملك أن يعطيك شيئا منها ؟ » .

وغضب القوم استحسنانا ، فتساءل تالابا بفضاظة : « ومن أنباك بأن الملك
سيوزع الأرض على الشعب ؟ » .

فرد تريفون زاجرا : « لقد سمع كل واحد بهذا ماعداك ! » .
« يجب عليه أن يوزع الأرض ، وإلا متا جوعاً ، أضافها بصوت عميق عتق
فرن في الحان كأنما قد انطلق من باطن الأرض .

وأدرك لوكا تالابا أن الأغلبية كانت تقف ضده ، فغبر من لهجته ، قائلا :
« ليت ماقلت يتحقق ! ولكني أعتقد أننا لن ننال أكثر من الكلام ! أما غيرنا
من الناس فيحصلون على الأرض ... وأنا عندما أحارب في هذه المعركة . هل
أحارب من أجل نفسي فقط ياتريفون ، أم من أجل الجميع ؟ ... على أنه مازال
في مقدوري أن أشق طريقى على نحو ما ، شكرا لله ... ولكن الذى أقصده هو
لماذا يأخذ الغير العزبة التى نعمل فيها ؟ لماذا لا نملكها نحن جميعا ؟ أنا لا أطلب
تقسيمها بينى وبين ماران ستان فقط ! بل نشارك فيها جميعا ، إيجنات وتريفون
وكل من يريد شيئا منها ... إن كل مرادى هو أن يعاوننا الله على أن نضع أيدينا
عليها ؟ .. أخبرونى بربكم ، ألا تظنون أننا على صواب ؟ » .

وطال النقاش أمداً طويلا ... وارتسمت على فم العمدة ابتسامة متعالية ؛
فقد آلمه أن القوم انصرفوا عنه .. على أن تيريلايون شعر بالارتباك ؛ فقد أراد
أن يقاطع لوكا عدة مرات ، ولكن قلبه لم يطاوعه إذ رآه جياشا بالأمل ...
وفى النهاية ذكر أحدهم أن اليوناني قد ذهب إلى بوخارست يلجأ فى طلب بابا روجا
وعندئذ شعر شيريلان الوقت قد حان ، ثم قال : « نعم ، لقد ذهب فعلا ، ولم
يخرج صفر اليدين » .

وغاض حماس لوكا فجأة ... كذلك جاء بوزوك ، وكان يقف وراء البار ،
فلحق بهم ليستمع إلى مايقولون .

وحكى لهم شيرىلا الحبر الذى تلقاه عن بلانامونو ، فقال برافيلا فى غضب :
« لما لم تخبرنا بذلك أولا ، بدلا من أن تدعنا نضى فى الحصار والجدل ، فى حين
أن اليونانى يملك الورقة فى جيبه ؟ » .

وزجر القوم غضبا كذلك .. أما العمدة فقد تناسى الإساءة التى لحقت بمنزلته
فقال والقلق يعصف به : وحسن ... »

ولكن لو كانا نالابا نهض عندئذ غضبا عنه . كأنما قد أثرت الصدمة فى صوته
وملاحظه ، فقال وهو يكن بأسنانه : « إنهم لن يظفروا بها .. بل سنقف فى وجوههم ! »
وساندته أصوات أخرى ؛ بعضها فى هدوء ، وبعضها الآخر فى عنف
« نعم ، سنقف فى وجوههم ! »

— ٤ —

لبست العاصمة ابتسامة بهيجة . والأعلام المثلثة الألوان ترفرف على جميع
مبانيها الرئيسية ... وكان « ميدان النصر » قد انتثر رملا أصفر — وأخلت
الجماهير الغفيرة أرضه الشوارع . وبزغت الشمس من خلال السحب ، فأعلنت
بأشعتها الذهبية فى فتور ... وتهادى الموكب الملكى فى تودة ، واتجه ناحية
القصر الواقع على « تل العاصمة » وأخذت سنايك الخيل التى تواكب تصطك على
الطريق ... ووقف على العربى الأولى رئيس الشرطة منتصب القامة . وقبعته
العالية على مؤخرة رأسه ، وهو يلوح بيده فى عنف . كأنه ضابط لإيقاع حاد الطبع ،
يبتدئ هو يتطلع إلى وراء بين الفينة والفينة .

أما داخل القصر ، فكان مجلس النواب يدوى بالطنين كأنه خلية نحل ...
وامتلأت الشرفات بالسيدات ، وكان منظرهن أشبه بصفوف من الأزهار متعددة
الألوان ... وتلألأت الماسات كأنها قطرات ندى الصباح على أوراق الزهر
الناعمة ... وكانت شرفة رجال السياسة تعج بالملاحقين العسكريين فى ثيابهم الرسمية
وبرؤسائهم البعثات الدبلوماسية فى أزيائهم الدولية التى يلبسها أهل حرفتهم .

وكنت ترى فى كل مكان بذلات السهرة . والرموس الصلحاء . والتياشين ...

وامتدت مئات الأيدي تتصافح وتبادل التحيات ... وكان أمام منصة الرئيس جمع من النواب ... وبين الحين والحين يأتي أحد ممثلي الأمة ، فيتطلع بصره إلى عل ، بحثاً عن ضيوفه في الشرفة ، أو ليرسل قبلة في الهواء لسيدة تنقسم .

وهتفت يوجينيا تحدث نادينا التي طبعت على فها ابتسامة لطيفة : « انظري هذا هو جوجو ! »

وكان جوجو أبونيسكو ، وهو واقف بالقاعة ، يأتي بمدد من الإشارات غير المفهومة . وهو هاش باش ... واقترضت نادينا أنه يتساءل عن مدى رضاهم على المقاعد التي حصل عليها من أجلهم ، فردت عليه بحركة صامتة من شفتيها . كأنما تقول : « جميلة جداً ، شكراً لك ... أنت رائع ! »

واختفى جوجو بين النواب ، ولكنه ما لبث أن عاد وهو يسلك بذراع رول برومارو ... وألقى رول بتحية مصطنعة ، وقال شيئاً لم يصل إلى مسامع أحد منهم .

وتساءل جريجور من وراء يوجينيا : « ماذا يفعل هذا الرجل في قاعة النواب ؟ فقالت نادينا في هدوء : « ولماذا تسأل هذا السؤال ؟ ... إنه لا يدع أي شيء يفوته ... ثم إن له اتصالات عديدة . ويستطيع أن يدخل أي شاء . »

ولجأة عم المرح في القاعة ... وهرع كثير من النواب ، وتدفقوا من الأبواب الجانبية ... ودخل الأساقفة ، من باب اليمين ، في حللهم الغالية باحتفال مهيب ؛ أما عن شمال فقد تقدم قادة الجيش في أزياهم البراقة التي حفلت بالأوسمة والجدائل الذهبية ... وتعالى من قرب الباب صوت رهيب : « صاحب الجلالة الملك ! »

وخيم صمت مرعب برهة ؛ ثم دوت عاصفة من التصفيق ، ولم تخمد إلا عندما تناول الملك أوراقه من يد رئيس الوزراء ... ووضع الملك نظارته على أنفه بعناية ، ثم بدأ في القراءة : « حضرات الشيوخ ، حضرات النواب المحترمين ... »

وكان التصفيق يدوي ، عند كل جملة ينطق بها ، أحياناً في حماس متدفق ، وأحياناً أخرى أقل تدفقاً ... فيضطر الملك إلى التوقف ، ويتطلع من فوق نظارته

إلى هذا الخليط من الوجوه ، وقد شخصوا جميعا بأبصارهم نحوه ، كآلاف من
الاشعة تجمعت في بؤرة منشور سحري .

« ... وإني لأهتم اهتماما متواصلا برعاية الفلاحين السكادحين ، فهم أساس
دولتنا الركين المتين ، وعليهم يتوقف مستقبل البلاد ... »

وهنا ارتفع صوت جريجور ، وقد جف حلقه انفعالا ، ورن بين دوى التصفيق :
« اسمعوا ... اسمعوا ... »

وانفتحت نادينا إليه التفاتة خفيفة زاجرة .
وانتهى الخطاب ، وتساعد الهاتف والملايك يمترق طريقه من الباب ، ثم أخذ
الجمع ينصرفون .

قالت نادينا وهي في الرعدة : « عرض جميل ، أليس كذلك ؟ » ثم إن الملك
كان رائعا جداً ...

أما في الخارج ، فقد وقفت العربات الفارفة ، والسيارات الصاخبة ، ثم توالى
التحيات والابتسامات ، في ظل الحن عسكري عزفته فرقة حرس الشرف .



كان الكلب يعوى بجنون ، والمطر ينهمر دون انقطاع .
« اذهب وانظر من هناك يارجل ... ربما عض الكلب أحد الناس فتقع على
رأسك مصائب أخرى . » ؛ غغم بها لإيجنات سيرسل لنفسه ، وهو ينهض من
جلسته متاقلا .

فلما فتح الباب المؤدى إلى السقيفة ، وكان الخنزير يتشمم خارجه على جاري
عادته محاولاً أن يلج إلى الداخل ، كاد يطرحه أرضاً عند اجتيازه الباب ...
وحرج لإيجنات ، دون أن يلقي بالا إلى الخنزير ... وتوقف عند عتبة الباب ،
وصاح : « إلى الجحيم أيها الكلب اللعين ... كنى عواء !! »

وتمكن ، حيث وقف ، من رؤية بيرزوتيسكو ، جاني الضرائب ، في صحن

الهدار ، وقد انخرز في الطين ، وأخذ يدفع الكلب بمظله المفتوحة .. وكان خفير
القرية واقفا وراءه .

« أهكذا تضطرنى إلى المجيء إليك يا إيجنات ؟ وفي هذا الطقس الكريه ؟ ...
ليس هذا من الإنصاف في شيء ! »

وبغت إيجنات ، ثم ألقى الكلب بحجر ، وقال : « اخرس يا العين ، ألا تعرف
من هذا ؟ »

ثم رفق من لهجته : « أقول لى دفعتك إلى المجيء ياسيدى ؟ .. حاشا لله !! ..
ولكنك ترى أن الفقر قد أخذ بخناقنا .. وإلا لوجدتني عندك قبل زمان
طويل .. فأنا أعرف أين ديوان القرية ، وليس فى ساقى علة أعانى منها والحمد لله !! »

ونفض الجاني الماء عن مظهره بعناية ، ثم أغلقها . وتقدم قائلاً : « أراك تتحدث
عن الفقر عندما تطالب بدفع الضريبة ؛ ولكنى أجده دائماً فى الحان ! ..
أنا أعرفكم جميعاً يا إيجنات ! .. فلا تضعي وقتك فى خداعى ! .. لى لأبذل
أحسن ستين عمري وصحتي فى خدمتكم ! »

قال الفلاح محتجاً : « ماذا قلت عن الحان ؟ .. أنا لا أتذكر منذ متى ذقت
الخير آخر مرة ؛ فنحن والحق يقال لا نفكر فى الشراب لأننا ... »

فقاطعه بيرزوتيسكو وهو يدخل إلى الهدار : « كفاهك كلاماً ؛ فأنا ما جئت
لأبداً معك الحديث . »

كانت الزوجة قابضة فى هدوء تام قرب المدفأة ، وقد تجمع حولها أطفالها
الأربعة ؛ فكانت أشبه بدجاجة تملكها الخوف من صقر ضار .. وكان الخنزير
ينحر راضياً ، ثم رفع رأسه فى دهشة .. أما الجاني فقد توقف مشدود القامة
فى وسط الحجر ، وتطلع حوالبه منقباً .. وكان رجلاً طويلاً ضامراً ، بلغ
رأسه حافة السقف .. وتناول الرجل السجل من الخفير ، نخل فيه شيئاً ، ثم نزع
منه صحيفة .

قال فى غلظة : « استمع لى يا إيجنات ! ... أنا سأكتفى هذه المرة بتسجيل

هذا الخنزير .. لأننى لا أرى شيئا آخر غيره له قيمة .. أنفهمنى ؟ .. أنا لن أخذه فى الوقت الحاضر ؛ ولا تستطيع بعد أن تزعم أننى رجل قاس .. ولكن لا تظن أننى سأصبر عليك أكثر من أسبوع ؛ لأن من هم أعلى منى لا يصبرون على ذلك ... واعلم أيضاً أننى لن أحضر إليك مرة أخرى ؛ فأهلك حذائى فى هذا الوحل .. خير لك إذن يا إيجنات أن تأتى على وجه السرعة . وإلا جاء خنزيرك لى ، ولن تحصل عليه بعد ذلك أبداً !

وعندئذ اندفعت المرأة قائدة بمرارة : « حاشاك ياسيدى أنت تأخذ منا خنزيرنا ... سوف يقضى الأطفال جوعاً ، فهوكل ما نملك ، ولا نكاد نجد ما نطعمه به .. وليس فى مقدورنا أن نقتنى ماشية لأننا لائملك عليك ولا ذرة .

وتجاهلها بيرزوتيسكو تماماً ، وانصرف وهو يثنى جذعه إلى منتصفه حتى لا يصطدم رأسه بدعامة الباب .. وودعه إيجنات ؛ وقد هدهد البؤس ، حتى فناء الدار ، كما تقضى دراعى الألياقة . وكان يشكو طوال الوقت ، ويغمغم فى اعتذاز : « ما حيلتى ياسيد بيرزوتيسكو ؟ ما حيلتى ؟ .. »

• • •

أرسل أرسيد بلاتامونو الخادم تستدعى غريغينا ، ابنة المشرف .. فهى وحدها التى تعرف كيف تكوى بطنونه كما ينبغي ، فتجعل له ثنية ظاهرة . وهى ليست كغيرها من القرويات الغنيات اللاتى لا يعرفن حتى كيف يسخن المكواة .

وكان وحده باليت .. فقد ذهب أبوه فى قضية إلى كوستسى ؛ وطلب إلى شيريلابون أن يكون شاهداً .. وانطلق فى الصباح فى العربة ، هو والسيدة بلاتامونو ، وأخذوا معهما شيريلابون وزوجه أيضاً .. وطلب اليونانى إلى أرسيد أن يصحبهم ، ولكنه أبى قائلاً إنه سيستقل خلوته بنفسه ، فبعكف على الاطلاع .. وكانت أخته قد سافرت قبل أسبوع إلى بيتسى لتتلبث مع أسرة صديقة لها ، وتشم هواء المدينة .

ودخلت غريغينا على استحياء إلى غرفة سيدها الشاب ، والخادم إلى جانبها .

« اسمعى ، أنت صبية ماهرة بارعة ، وأنا واثق أنك ستعملين فى معروفاء .. »
وشرح لها ما أراد .. ووضع المكواة على النار ، وبسط البنطلون على الطاولة
ووضع إلى جانبها خرقة مبتلة . ثم طرد الخادم البلهاء .
قالت غير غينا ، وقد أفرغها انتباهه للخادم : « سأحاول ياسيدى ، وإن كنت
لا أدرى إن كان فى مقدورى أن أقوم بذلك كما يبغي .. »

وأخذت تكوى البنطلون .. ووقف أرستيد إلى جانبها يرقب .. كان جسدها
اللدن مائلا فوق المكواة .. وكانت قد عقدت منديلها الأحمر على رأسها ، فتركت
جيدها الأملس المائل عاريا . وانحنى الشاب إلى الأمام ، ولمس عنقها بشفتيه .
وبهتت غير غينا ، وأدارت إليه عينين امتلأتا رعبا ..

وهمس الشاب ؛ وقد أخذ المكواة من يدها ؛ ووضعها موضعها من الطاولة :
« لماذا تظنين أننى أرسلت فى طلبك يا غير غينا ؟ . أمن أجل هذا ؟ .. » وأشار
بإزدياء إلى المكواة ، واستطرد قائلا : « فتاة جميلة مثلك ؟ »

وتراجعت غير غينا صوب الباب ؛ وعيناها على عينيهِ ؛ وقد ارتسم عليها الرعب ..
وتناول يدها وقال : « هل أنت خائفة منى يا ترى ؟ . أصدقينى القول .. ولكن
كيف تخافين منى ؛ وأنا الذى لم أشأ أن أبقي فى بوخارست إلا بسببك يا حبيبة القلب .. »

وحاولت أن تصل إلى الباب مرة أخرى ... ولكن أرستيد أدار القفل
فى المفتاح ، وأمسك بها من خصرها ، وقال : « لماذا لا تمنحينى ابتسامة صغيرة
يا غير غينا ؟ ... لماذا تظنين إلى هكذا ؟ ... أنا لا أريدك أن تنظرى إلى على
هذا النحو ، لا ... لا ... »

وهمست غير غينا : « إنك تسخر منى ياسيدى ... »
وغغم أرستيد : « لانكونى حمقاء يا غير غينا .. لا .. لا .. » وأطبق بضمه
على شفتيها



هبط الستار بين عاصفة من التصفيق ؛ وانبعثت الأضواء فجأة فى جو المسرح

الحائز الذي امتلأ بأنفاس الجمهور .. واستمر التصفيق دقائق ، ثم هدأ النظارة ، وبدءوا يتطلعون حوالهم بنظاراتهم المكبرة .. وكانت نادينا جالسة في مقصورتها ، كأنها إلهة تنقل تعبد المؤمنين في محرابها .. كانت ترمق شاغلي مقاعد الصالة بلحظ فائر ، وتتبادل التحيات مع أصحاب المقاصير الأخرى .. فلما ألفت بنظرة عابرة أولية ، قالت تحدث جريجور في دلال : « رأيت ؟ حتى آل بريديليانو هنا ، كلهم دون استثناء .. ترى ما الذي انتاب هذا البخيل فيكتور حتى أنفق هذا القدر الهائل من المال ؟ »

فقال زوجها آسفا : نحن لم نرد لهم الزيارة ... ولم يصل إلى على أنهم قد عادوا من الريف ..

وبدأ القوم يتقاطرون ، وامتلات المقصورة بعبارات تدل على فرط السرور : « لقد كان رائعا .. إنه مثل عظيم ! .. لقد لعب دوره ببراعة .. أنا شهدت المسرحية في باريس أيضا ... نعم ، كان يمثل فيها أيضا ... »

وانتهزها جريجور فرصة فأسرع إلى مقصورة آل بريديليانو ، وبعد كلمات قليلة ، قالت تيسكلا في دهشة : « لقد تغيرت تغيرا تاما ... إنك تبدو شخصا آخر .. »

ففسأله جريجور : « هل لاحظت ذلك فعلا ؟ ... إنى لا أستحي من التصريح بهذا ، ولكن ماجلتي ... أنا محب ولهان ! »

وألفت عليه أولجا ابتسامة ونظرة هازئة .. أما تيسكلا فقد رنت برهة إلى مقصورة نادينا ، وقد امتلات بشتى المعجيين ، وقالت في تفكير : « نعم ، إنها أشد فتنة وجمالا عن ذي قبل .. »

يقبل الشاب أيوجا يدها امتانا .

ولما ارتفعت الستارة مرة أخرى ، وأظلم المسرح ، همست نادينا في أذن جريجور : « ترى أين نذهب يا جريج بعد العرض ؟ »

ثم ، بعد حين .. وقد بلغت المسرحية أوجها ، استطردت تقول بنفس العذوبة :

« لقد اكتشف، ول مطعمًا جديدًا ، مطعمًا بباريسيا جدا ، لا يؤمه إلا عليّة الناس..
ولقد أرسلته يحجز لنا مائدة ؛ وقلت له أن يعود ويأخذنا .. أتراني أصبت
في هذا ؟ .. وسوف يأتي جوجو أيضا ، مع شريكه حياته ! »

فأجاب جريجور ، وهو يقبل خفية ساعدها العاري الذي امتد خلف المقعد :
« كل ماتفعلين صواب في صواب ! »

وكان المطعم منتفخا ليليا صغيرا ، في شارع معزول .. وكان مظهره الخارجي متواصعا ، أما بالداخل فكان الضوء الباهر ، والترف ، والدفع ، والتدل الفرنسيون حقا ، وكانت هناك مباحج أخرى مثيرة . وكان صاحبه سليل أسرة من الأشراف الذين كان لهم اسم عريق .. وكان قد أضحاع في باريس ثروة طائلة لم يبق له منها إلا القليل ، الذي افتتح به هذا المطعم منذ قريب ، بغية أن يلتبس لنفسه عملا .. وكان هو بنفسه يستقبل ضيوفه مرحبا . على النحو الذي كان يتقبه السادة النبلاء في الحفلات التي تقتصر على كبار القوم .. وكان رمول برومارو كما كان منظرًا . صديقا حيا لصاحب المطعم ، وأخذ يلقي بمداعبات فكهة .. أما نادينا فقد تبسمت راضية . وأخذت تكرر بالفرنسية : « هذا حقا مطعم فاخر ، بباريسي الطراز جدا ! »

وكان المكان يموج برجال في ملابس السهرة ، وبسواء يلبس فساتين تحمر عن صدورهن .. وكان التدل يروحون ويغدون في خفة الأشباح ، وقد تراقصت على أيديهم صوان فضية قد حملت بالأطعمة. وجاءت راقصة إسبانية ، فجعلت تتأود على صوت الصاجات في رقصة تقليدية . تصاحبها أوركسترا من العازفين على الجيتار .. ولعبت الفرقة معزوفات من مدريد وإشبيلية ، ثم انسحبت هي والراقصة وحل محلها ضارب على البيان ، فقدم مثنيا فرنسيا . وكان فتى رقيق الحاشية غض الإهاب ، تلقاه الجمهور الولهان بتصفيق تجاوز المقدار .. وبعد أن تبسم الفتى إلى الجالسين عن يمين وشمال ، خفت الأنوار . ولم يتبق مضاء غير بضع مصابيح زرقاء .. وألقى الفتى أغنية حاملة .. ثم أودفها بأغنيات أخرى ، صاحبت كل منها أضواء مناسبة .. وبعدئذ قدم الساقى إلى المغنى جيتارا كان أحد العازفين الأسبان قد تركه على ناحية من البيان ، فتحولت الأضواء إلى لون وردي ، وإذا

بالمغنى المدلل يأتي إلى نادينا ففناها ، وهو يهتز طرباً ، أغنية عن حب بغير أمل .
وكان الجو مشعباً بالدخان ، تفوح فيه رائحة ثقيلة من النبيذ الممتق - ولعلت
العيون ، واهتز الضوء الأبيض على العيون السكلية . . وتعالَت الأصوات في
مهمة لا تبين .

فلما كانت نادينا بالسيارة ، قالت في جذل ، وقد التفت في فرائها : « لقد آن
الأوان فأصبحت بوخارست مدينة أكثر حضارة مما كانت ؛ إنها لم تعد كلها سحفاً
وثوماً وقلة ذوق ! . . ألا ترى ذلك يا جريج :

« بالتأكيد ! »

واستطردت بعد برهة : « ثم هذا المغنى الفرنسى ، إنه ظريف جداً . . .
ألم تر كيف غنى لى أنا وحدى ؟ »

وأحسن جريجور بها إلى جواره ، دافئة سعيدة . . . قال في لهفة وخضوع :
أنت أجمل مخلوق في الوجود . »

* * *

« أهذا أنت يا بيتريسا ؟ »

نعم يا أماء ، افتحى الباب من فضلك ! »

ودخل الدار ، وكان الظلام دامساً بالداخل ؛ ولم يكن ثمة ضوء إلا هذا الوهج
الاحمر في المدفأة .

قال : « لا أظنك قد استغرقت في النوم ! »

فتمغمت أمه وهى إلى جانب المدفأة : « كيف أنام وأنا أفضى هذا الوقت
كله في إطعامهم والسر عليهم حتى يناموا . . . ثم أنت أيضاً ترجع متأخراً
يا عزيزى . . وهذا أمر صعب على ؛ فأنتم عددكم كثير ؛ وأنا لا أدري كيف أقسم
بينكم الطعام بحيث أحتفظ لك بشيء منه أيضاً . . . يارب ! . . »

وجلس بيتري على الدكة ، وتنهَّد . .

« أنا لا أغيب عن البيت ، لأذهب إلى الحفلات ، أو أستمتع بوقت طيب . يا أمى ! »

وأعدت سماراندا طبقاً من الحساء ، ووضعت له على الطاولة . وانقضت فترة من الزمن لم تكن تسمع فيها إلا صوت الرش والمضغ يسد بهما رفقته . . . وكان الأطفال نائمين على دكة أخرى ، وفي السرير ، وعلى الفرن ؛ وكان صوت أنفاسهم يتصاعد ثقيلًا . . . فلما كسر من شوكة جوعه ، أخذ يتحدث أمه ، والطعام في فمه ، فأخبرها بأنه لم يصل بعد إلى شيء مع الشريف الكبير . . . ولكن المشرف ما فتئ يقول إن الأمر سينتهي على خير ، وإن الشريف متمسك بوعده ، وإنه أمر المشرف بنفسه في الشتاء الماضي أن يدفع ثمن الثور ؛ ولكنه لم يذكر شيئاً عن الدين الذي كان في ذمة أبيه .

ونشجت المرأة وقد خفقتها العبرات : « هذا ما ظلوا يقولونه لي أنا أيضاً ؛ وهكذا تمر الأسابيع والشهور ، وسرعان ما يحل الحول على وفاة أبيك المسكين ! » فقال الشاب في عزم : « أنا لن أسمح لهم بمعاملي هذه المعاملة . . . لأن الحق حقنا ، ونحن لا نطلب إليهم إحساناً ؛ إنما كان أبي يعمل في خدمتهم حتى أخذه الله إلى جوارحه ! »

واغترف ما تبقى في الصحن من حساء ، وظل صامتا برهة طويلة يرقب الملب وهو يتلاعب في وهن بالمدفأة . . . وأخيراً قال في نبرات مكتومة : « إن الإنسان يقاسى ويقاسى حتى يفيض به العذاب ، ثم بعدئذ . . . »

وعاد إلى صمته ، ولكنه استأنف الحديث ، قائلاً : « إن الناس لا يكفون عن الكلام والخصام ، وهم لا يدرون ماذا يفعلون هذا هو السبب الذي جعلني أتأخر . . . »

وأمسك ، كأنما قد ألم به خاطر فجائي ، فقال : « لماذا لم تشمل المصباح ؟ ألا يوجد عندنا زيت ؟ »

« ما زال لدينا منه القليل ؛ ولكني رأيت أن أكتفي بضوء النار . »

فأوماً بيتر وهو حزين .

« صدقت ؟ حسناً ضوء النار إذا لم يتوافر لدينا سواء . . . »

وتأجج الذهب ، فأشعل جذوة جعلت وجهه يتر يتوهج ويتورد . . وتحرك خياله على الجدار ، فبدأ وكأنه يتذبذب ويهتز .

كتب تيتو هيرديليا إلى أهله ، فوصف لهم كل ما مر به من تجارب . . إن في وسعه على الأقل أن يثبتهم الآن بأن الله قد أعانه على الاستقرار على وجه يدعو للرضى . . وغالى تيتو بعض الشيء في خطابه ؛ فوصف « درابلول » بأنها جريدة مهمة للغاية . . وأرسل مجموعة من النسخ إلى أبيه ، فهو يعرف فيه ولعه بقراءة الصحف ؛ ووضع بمثابة علامات بالحبر الأحمر على المقالات التي دبحها بقلبه ، وبخاصة المقالتين الافتتاحيتين اللتين عارض فيهما الكونت أبوتى نفسه . . كذلك أزعج المدبج لجريمحور أبوجا ، وقال إنه متزوج من امرأة في غاية الجمال والفتنة ، ولو أن سيدات أماراديا وما حولها وقعت أبصارهن عليها لمتن حسرة وكدا . . وحدثهم عن الوقت الطيب الذي قضاه ببيتهم الريفي ، وهو بيت أشبه بقصر البارون بيكليتي ؛ وحدثهم عن عودته إلى بوخارست بالسيارة ، وأنه قطع مسافة طولها ما بين بيستريتا وكلوج . . وأبلغ أباه تحيات جارفيلاس إليه ؛ فقد كان بمثابة والده ؛ وحله أطيب أمانيه إلى صحابه أجمعين ، وبخاصة إلى القس بيلكوج ، فهو على كل حال قد كان لطيفا معه أخيرا ، وذلك حتى يتناسى ما شجر بينها في الماضي من خلافات صغيرة . . وأضاف أنه يتقرب حضور القس إلى رومانيا ، كما سبق أن وعد وهو يسعى إلى الكنيسة في برياس . . وهو لن يجد مشقة في الحضور ، فهو أرمل ، وعلى سعة من الرزق ، ولن يتدم على إنفاق المال ، لأن بوخارست مدينة ألطف من بودابست ، ثم هي فضلا عن ذلك كله موطن الرومانيين أجمعين . . كذلك أعرب عن تهايه القلبية إلى غيغى بمناسبة خطبتها ، وتمنى لها السعادة مع زاجرينو ، فهو فتى لطيف جدا . . وأبدى أسفه لأنه لن يتمكن من حضور حفل قرانها ، لأنه في الوقت الراهن مشغول بأمور كثيرة ، لا يجرؤ على إهمالها ، وهو بعد لم يتيسر له أن يحصل على قدر كبير من المال .

ولكنه أغفل غرامياته ، وغم عليه أن غيغى خاصة ستهم بها جدا ؛ لأنه لم

يشأ أن يعرف عنه أهل أماراديا أنه مشغول بهذه الأمور الفارغة هنا كذلك . .
ولكنه في الواقع قد شغل بهذه الأمور جدا منذ أن التحق بالعمل ، وتخلص من
متاعبه اليومية .

لقد أوفت السيدة ميمي بوعدھا ، لحضرت تلقى نظرة على غرفتها القديمة مرة
أخرى . . وكان ذلك ذات مساء ، عندما علمت أن أمھا ليست بالبيت . . واستقبلھا
تيتو أول الأمر بترحاب كبير ، فقد امتلأ زھوا لأن هذه المرأة الجميلة قد وقعت
في غرامه . . على أنه ما لبث أن أدرك أنه لم يكن بالرجل السعيد الوحيد الذي حظى
بھا ؛ وإنما كان كل ما استمتع به هو البقايا والفتات . . فبى قد مالت إليه ليجرد
نزوة راودتها بأن يقع في حبھا شاعر . . والواقع أن ميمي نفسها لم تتوان عن
إخباره بأن من واجبه ألا يشعر بأن له عليها حقا أيا كان ، أو يزعمها بغيره ،
لإحسبھا ما تلقاه من هذه الغيرة على يد زوجها .

وتقبل الشاب هذا الوضع بطبيعة الحال . وقال في نفسه إنها قد منحتھ كل
ما في وسعھا ، ثم ھى ، بعد ، لا تكلفه شيئا ، فلماذا إذن يرفض هذه
المخلوقة الرائعة ؟

ومع ذلك فقد نشأت مشاكل لم يكن منھا بد . . فقد أحست تليذته ماريورا
بأن في الجو أشياء ؟ وبدأت ترميه بالاتهامات قائلة إنها ليست فتاة من فتيات
الشوارع ؛ وإذا كان هو لا يحبھا مخلصا ، فلم لا يقول ذلك صراحة ، بدلا من أن
يخونها مع كل ضروب الفساد ؟ وختمت حديثھا فألححت بأنها سوف تشكو
مسلكھ الشائن إلى السيدة جارفيلاس . . واضطر أن يقضى أمسية كاملة يقسم لها
أنه يحبھا وحدها حتى استكانت .

يضاف إلى ذلك أنه ، ذات يوم ، التقى وجھا لوجه بالسيدة الكسند ريسكو ،
لحديثھ في صوت حزين له مغزاه ، كأنما قد هجرھا جيتسا ، قالت : « أرجوك
ياسيد تيتو ؛ احرص على ألا تحطم ميمي ! . . ربما قد وقعت في هواك ؛
هذا صحيح ، وقد لحظت أنا من البداية أنها مالت إليك ؛ ولكن كن على حذر ؛
واسهر عليها ، فلو أن فاسيل زوجها اشتم الأمر فستكون العاطمة الكبرى . . .

أنا لا أملك ، فأنا أعلم كيف تتقد العاطفة فتلفح الإنسان بنارها ؛ ثم إن ميمى جميلة فتاة : ولا عجب أن تسأم فلاسا جلفا مثله ، ولكن ... ،

واستمع الشاب إلى عويل صاحبة الدار مستسلما ؛ واكتفى بإبداء الاعتراض في صوت لا يبين ، أراد به أن يدل على أنه رجل مهذب ، وإن كان لم يتوقع منها أن تصدقه ... والواقع أنه شعر بشيء من الحرج لإزاء السيدة الكسندريسكو ، وكان ذلك بسبب تانتا التي أخذ يتودد إليها في مثابة وإصرار . ولقد أخذته منذ وقت مضى ، فعرفته بوالدى الفتاة ؛ وألثت عليه أمامهما ثناء جميلا ؛ وبعدئذ أصبح يؤم بيتهم بانتظام ، وكان البيت يقبع خلف المحطة ، ويملكه السيد الكسندرويونسكو ؛ وكان يعمل رئيس قسم بوزارة المالية . وكان يتوارى مولعا بتانتا الجميلة في الوقت الراهن .. وهو الذى قد استعاد إلهامه الشعارى عن طريقها ... وقد أخذ كل مساء ، بعد أن يفرغ من عمله في جريدة درابلول ، يشرب بها شعرا ، ويقتل الوقت في سحابة من دخان السجائر . . وبدأ له أن تانتا تبادلها العاطفة .. فقد اعترفت له ، رغم حياتها ، أنها لم تعد تستطيع العيش بدونه ؛ وأنه إذا غاب عنها ثلاثة أيام على التوالى ، فستحتال على زيارة لينوتا (السيدة الكسندريسكو) ، صديقتها التى تسر لها بأسرارها ، فهى التى جاءت به إليهم .

ولم يحل هذا كله بينه وبين أداء عمله ؛ بل لقد دفعه هذا إلى العمل أكثر فأكثر . كان يحرص على الحضور صباح كل يوم إلى « درابلول » وتقديم مقالاته كاملة . وكان يحذر روزه دائما وحده . . وقد اقتعد كرسية العتيد ، كأنما هو لم يتحرك من فوقه أبدا . . وكان الصحفيون والمحرون يتوافدون عند الظهيرة ؛ وكانوا دائما في عجلة من أمرهم ؛ وكنت تراه دائما مهتاجين ساخطين منهكين في النقاش ، ولكنك لاتراه قط يمشون أبعد من ذلك ، فيقومون بتحرير شيء .. والواقع أن هيرديليا وحده هو الذى اشترك في التحرير مع روزه ، وكان الرجل غالبا ما يقول له : « أعتقد أنك لن تلبث أن ترقى سلم الصحافة يازميلي العزيز . . كل ما عليك هو أن تصنى إلى ما أقول ؛ وأنا لا أتكلم كلاما فارغا بما يفعل هؤلاء السادة الوجهاء ، الذين لاهم لهم إلا العناية بلباسهم ؛ والذين هم يفترون الأكاذيب ؛ ولكنهم يعجزون عن تحرير سطر واحد يناسب المقام ... نعم سترقى يابنى ،

لأنك تحب العدل ولا تأف منه ... ثم إنك تملك الموهبة والمثابرة — وهذا بالضبط ما يحتاج إليه الصحفي البارع ... ولكن لانفس أن تترك هذه الحرفة يوما ما ، لأنك شاب أمين صريح لا تعرف الف والدوران ؛ ومن الصعب على المرء أن يشتق طريقه في الصحافة لو كان بهذه الصفات ... ومع ذلك فأنت سوف تؤدي عملك على ما ينبغي ، أيا كان حظك من الدنيا .. هذا رأي فيك صراحة ..

ورأى تيتو أن من واجبه أن ينشر شيئا كلما تناول وجبة مع جوجو أيونيسكو ، أو استجاب لدعوة من جريجور ، أو اشترك في غير هذا وذلك من الأحداث الاجتماعية .. ولم يستحسن روزو منه هذا المسلك ، ورأى فيه تسلفا اجتماعيا . وصرح الرجل جازما بأن الصحفي يجب أن يتلبك في هذه الدنيا ، ولا يلقى بنفسه في حياة السادة الأشراف ، ولالانام ضيره واستسكان ... نعم ، يتعين على الصحفي أن يحتفظ بقدرته على الاعتراض والاقتصاص ، سيما في رومانيا ، حيث البذاءة هي وحدها الثريمة المعمول بها .

وأي بني ، افتح عينيك ، وانظر حوليك .. لقد قطعت البلاد طولا وعرضا في سيارة ، وعشت في قصور الأشراف ، ولستك لم تضع أذنيك على الأرض لتسمع الأصوات التي اختفتت ... أنت لن ترى شيئا ، أو تسمع شيئا ، وأنت في سيارة ، أو تمضي متسكما على الأرصفة في بوخارست ... إن مظاهر الترف والحضارة التي تراها مظاهر كاذبة مصطنعة .. أما الحقيقة فهي مختلفة جداً يابني .. نحن نصدر إلى الخارج عشرات الآلاف من أطنان الحبوب ، ومع ذلك فلايين الفلاحين عندنا لا يجدون عذاهم اليومى من الذرة ... هل تفهم دلالة ما أقول ؟ .. نحن نتخادع أنفسنا بأضواء بوخارست ، ولكننا لا نتطلع إلى أبعد من أنوفنا ، لأننا نعلم أن وراء ذلك هاوية محيقة نرتمد فرقا لو نظرنا فيها ! ... هناك يابني لا تجد ترفا ولاسيارات ولا فيلات إنما هذه كلها قشرة تخفي تحتها بركانا من البؤس والشقاء ... وربما تفجرت هذه القشرة غدا ، وعندئذ ! ...

وكان تيتو قد تعود هذه التنبؤات التي تنذر بالويل والثبور .. فهو ، كلما تطرق الحديث إلى الوضع الراهن ، وإلى الآلام التي يعانيها الفلاحون ، ما كان يرى أحداً إلا ويدرف الدمع سخينا ، ثم يلقى بهذه التنبؤات الرهيبة .. ربما هكذا

كان الوضع دائماً ، وربما هكذا - يظل دوما ... فأهل المدن الذين عرفوا الريف من خلال رحلاتهم البهيجة كانوا يعطفون على الفلاحين عطفاً شديداً ، وكانوا يساندون رغبتهم الملحة في الثورة ، ذلك لأنهم كانوا واثقين من أن الفلاح الرومانى لن يتمكن أبداً من الثورة .

— ٦ —

ذات يوم ، تساءلت نادينا في حماس . د ما رأيك بإجريح لو قضينا عيد الميلاد فى الريف ؟ ،

ورد عليها جريجور بنظرة تـزخر بالامتنان .. لقد أحس أنها تقدمت بهذا الاقتراح مراعاة منها لمشاعره .. وما كان ثمة شيء يبعث فى نفسه القنطة أكثر من هذه الآية التى تدل على اقترابها منه شيئاً فشيئاً .. هكذا يتدعم حبهما بالتفاهم المتبادل ... والعاطفة الحسية تدوم عندما تتغذى على رحيق الروح الذى لا ينضب له معين .. وهو لو كان قد تصرف معها على هذا النحو من البداية لكان قد جنب نفسه وإياها قدراً كبيراً من التعاسة والشقاء .. ولكن من الجلى أن الإنسان لا يعثر على السعادة مالم تطهره الأحزان أولاً ..

ولم يمدا مشقة فى الانفاق على التفاصيل .. لقد قنع جريجور بالإصغاء إليها وبالعـمل على أن يحقق لها رغباتها حرفياً .. كان الشيء الأول هو أن يقضوا عيد الميلاد فى آمارا ، أما عيد رأس السنة فلا بد أن يكون بالعاصمة .. وتم الاتفاق على ذلك .. الشيء الثانى هو أن عيد الميلاد يجب أن يكون عيداً بهيجاً ، فى صحبة كثير من الناس ، ولا يخلو من الموسيقين البارعين .. ووفق على ذلك بطبيعة الحال .. كذلك لابد من دعوة جميع جيرانهم الأثرياء .. وينبغى أن يقوم بذلك السيد الوالد ، فهو من غير شك سيعتبط لهذا القرار الذى اتخذه ، على أن يدعو الوالى الموجود فى بيتسى ، حتى تمثل الحكومة فى هذه الاحتفالات .. وتبسمت نادينا ، فقد بدت لما دعوة الوالى فكرةً لطيفة .. وتساءل جريجور . هل ترين أن ندعو أحداً من بوخارست ، أم من الخير ألا ندعو أحداً ؟ ،

وهتفت نادينا فى دهشة : د بل لابد أن ندعو بالطبع ! .. فنحن لو اقتصرنا

على دعوة الاشراف والمثزمين والوالى للأنا البيت كله ملا . . أولا يجب علينا دعوة جوجو ويوجينيا ، ومعهم أسرة أخيها ، وهو يعمل مدرسا أوشيا من هذا القبيل فى جيرجو . . وطبعاً هم سيأتون مع ضيوفهم ... ثم لابد أيضاً من دعوة بعض الشبان الظرفاء المرحين ، حتى يجد الإنسان من يستطيع أن يبادلته الكلام . وليكونوا اثنين أو ثلاثة على أقل تقدير ، وعندما جاءت إلى ذكر برومارو لحظت ، أو حالت أنها لحظت ، محابة تمر على وجه زوجها ، فأضافت على عجل . « أستطيع أن أسقطه من حسابى إن كنت لا تريده يا جريج ! . . . وأنا ما فكرت فى رءول إلا لأنه دائماً مرح و ... »

« لا أبداً ، كما تريدن ... مسكين رءول ! ! ، قالها بشفقة واحتقار .

واستطردت نادينا : « ثم لانس هذا الشاب الترانسلفانى ، فقد نسبت اسمه فهو يستطيع أن يغنيا بعض أناشيد ترانسلفانيا »

وكان عيد الميلاد يقع يوم خميس . . فاستقر رأى نادينا على أن ينطلقوا جميعاً إلى أمارا ضحى يوم الثلاثاء .. فيقضون هناك ليلة دون إزعاج ، ويستريحون كذلك ليلة العيد ... فلما حل الموعد ، كان رءول وحده الذى وقف فى انتظارهم عند محطة الشمال ... وأما غيره من المدعوين فقد اعتذروا عن عدم الحضور فى آخر لحظة ... ولم يظهر تيتو إلا بعد محطة شينبلا ، وكان يشوشاً متألقاً . . قال وكان غير صادق ، إنه وصل إلى المحطة والقطار يتحرك ، إنه قد وجد له مكاناً فى ديوان آخر ... والواقع أنه كان قد حضر قبل قيام القطار بنصف ساعة ليضمن لنفسه مكاناً مريحاً فى عربة الدرجة الثالثة ، لأنه يسافر على حسابه الخاص ، ولا موجب لأن يبدد نقوده .

وكان جريجور هو وحده الذى أصفى إلى معاذيره . . أما نادينا فتبسمت له بغير احتفان ؛ فقد شغلت بقصة غرامية فى مجلة فرنسية « الحياة الباريسية » ، كان يحكمها لها برومارو . . وتوقف هذا لحظة ثم مد لتيتو يده اليسرى عرضاً ، وقال : « كيف حالك يا عزيزى ؟ » . . واستمر هيرديلبا يحدث جريجور برهة عن الشؤون السياسية ؛ ثم أخبره هذا بأن جوجو أيونيسكو قد سافر إلى ليسيزى قبل ثلاثة أيام ؛ وأن ثمة فرصة للقاء الكسندرو بتى ، فسر هيرديلبا لذلك ،

فقد سبق أن قابل الرجل في سنجورز .. وانتحل تفتو عذرا ليعود إلى ديوانه ،
فقد خشي أن يضطه السكسارى هناك ، فيضمه في حرج ، لكونه في عربة من
عربات الدرجة الأولى ، وليس معه غير تذكرة بالدرجة الثالثة .

ولم يكن ثمة وجه للمقارنة بين الثلج الذى خلفوه في بوغارست والثلج الذى وجدوه
في آمارا .. ولهذا كانت زحافات الجليد في انتظارهم عند كوستسقى ، الامر الذى
جعل نادينا تقفز طربا .. وأمرت بمجرد أن وصلوا ، بتهيئة رحلة على الزحافات
تطوف بهم الولاية في اليوم التالى .. ونهض جريجور ميكرا ليدبر أمر الرحلة ،
ولكنه تلقى خبرا مزعجا .. وتفصيل ذلك أن إخيخ المعجوز ، وهو أبرع حوذى
لديهم ، قد فك الفرستين من الزحافة ، وبعد أن أطعمهما ، وروى عطشهما ،
أخذهما ليربطهما بالحبال في الاسطبل ؛ وإذا بإحدى الفرستين تجفل ، وتقع على
ظهر المعجوز ، فتهينه .. واضطر القوم أن يحملوه إلى البيت على محفة ... ومن
ثم أصبح من المحال أن يشترك في الرحلة ، كما أنه لا يوجد من يجرؤ على معالجة
الفرستين الجوحين ..

وأسف جريجور على ما حل بإخيخ ؛ ولكنه ضاق على وجه الخصوص لأن
نادينا كانت مولعة بالسرعة ؛ ولن ترضى لو ركبت مركبة يجرها فرسان
عاديان ... ولذا ذاك عرض بومبو ، المشرف ، أن يستدعى بيتر بن سماراندا ،
فهو على كل حال كان أمباشيا في المدفعية يعالج كل ضروب الخيل ؛ وهاتان الفرستان
بالنسبة له لن تكونا أكثر من ألعبه في يديه ... فأرسلوا في طلبه على الفور ..

ومع ذلك ، فهم لم يتمكنوا من البدء في الرحلة إلا عند الظهر ... وأخذت
نادينا تفتو إلى جوارها ؛ ووضعت رءول في المركبة الأخرى مع جريجور ، فأغلق
هذا عليها في ذهنه قبلة لهذه اللقطة من جانبها ... وأمر السائق أن يسير إلى
الأمام ، فيخترق روجنوزا وبيزلوجو وياباروجا وجليجانو وليسيزى ؛ ثم يعود
مرة أخرى .. وكان في وسع القوم ، وقد التفوا في الفراء ، كفرسان من انصر
الوسيط ، وتغلطوا بالبطاطين الصوفية السميكه ، أن يهزأوا بالبرد القارس الذى
استمر أكثر من أسبوع .. فلما خلفوا آمارا وراءهم ، انبسط أمام ناظرهم
سهل عظيم أبيض ، كأنه دنار من الفراء الثمين ، امتد إلى ما لا نهاية ، وأخذ

يختلف الأبصار في ضوء الشمس الساطع .. وكان الطريق الرئيسى يخترق خطا مستقيما لامعا كانت تنزل على المركبات بطريقة تأخذ بالألباب .. ووقف بيتر ، وقد مال إلى الامام قليلا ، بحث الخيل على الانطلاق بطرقة يصطنعها بلسانه بين الحين والحين .. وكان ، في سترته الرمادية التى يلبسها الفلاحون ، وقد وضع على إحدى أذنيه « كاكولته » الصوفية ، فبدا أطول قامة ، وأقوى عضلا مما كان في حقيقته .

وانطلقت نادينا في الكلام ، وقد استخفها الطرب .. فى آنا تبدى ملحوظة لتيتو ، وهى آنا تصرخ فزعة ، وآنا ثالثا تغنى ، وتقلد الخيل فى عدوها .. وكانت من وقت لآخر تهيب بالسائق أن يسرع : « انطلق ، انطلق ، ولا تتوقف ! » .
وغنم الرجل ، وقال فى صوت مشوب بالسخرية ، دون أن يلتفت إليها :
« أنا لن أتوقف ! كوفى على ثقة من هذا يا سيدتى ! » .

وانطلقوا على هذا النحو زهاء ساعة من الزمان ، فاخترقوا ووجينوزا وبيرلوجو وباباروجا وجليجانو .. وإذا هم يتقدمون مسرعين نحو ليسبىزى ، شهدوا على مرمى البصر سربا كبيرا من الغربان ، انتشرت بضع مئات منها على الطريق ، كأنها بقعة من الحبر الأسود على صفحة عريضة من الورق الأبيض .. لقد استبد الجوع بها فلم تتحرك إلا حين كادت المركبة أن تطبق عليها . فأخذت تنحب وترف بأجنحتها .. وإذا ذاك جفلت الفرس الامامية ، فى نوبة من الفزع إلى الخمين ، تدرا عن نفسها ما يتوعددها .. وجاء بيتر فى نفس الوقت فعثر بها بالسوط على بطنها .. واشتد الفزع بالفرس ، من تأثير الألم ، فقفزت إلى الامام على الطريق المستوى ، وإذا بزميلتها تجفل معها بدورها .

وصرخت نادينا : « ماذا تفعل ؟ ماذا تفعل ؟ الفرس ستقتلنا .. »
التجدة ! ! !

وتعلقت برقة تيتو ، أما الفرسان فقد أخذتا تصهلان وترهفان آذانهما ، ثم اندفعتا مجنون إلى الامام ، وقد مست حوافرهما مقدم العربة المستدير .. وتعالى

صوت بيتر في اطمئنان : « لا تفزعى يا سيدى ، اطمئنى تماماً طالما أنت بين يدى ! » .

وبدد صوته الأجش الغريب الوقع مخاوفها على الفور . . وإذا بها تسمع تيتو أيضاً يقول ، وكأنه لم يفقد رباطة جأشه : « لا ضير يا سيدى ، لا ضير ! » .
وحاولت أن تبسم ، كأنما خجلت من الفزع الذى انتابها . وشد بيتر اللجام ، وهو مازال يميل بمجذعه قليلا ، وإن ظل راسخاً كالطود ، وأخذ يكرر فى سكينة وحزم : هدوءاً . . . هدوءاً . . .

وغالت نادينا ، وهى ترقبه ، أن يوسمها أن ترى عضلاته نفسها وهى تلتوى التواء الصلب ، وقسوته تتزايد إذ رى بثقله كله على ساقيه المشدودتين . . واستعادت سكنتها تماماً ؛ وبلغت أمارا طروبة كالعهد بها . . ولما تدلت من المركبة أخذت تقص الحكاية ضاحكة : « الحق أننى فزعت فزعاً شديداً . . وكان من حسن الحظ أن وجدنا هذا السائق القوى ! » .

وأدار بيتر إلها وجهها نالقي بتأثير البرد ، وقد تجمدت أنفاسه على شاربها حبات دقيقة من الثلج ، أما عيناه الصغيرتان البراقتان فقد شع منهما البشر ، وقال : « لا عجب أن تكون الفرسان خفيفتى الحركة يا سيدى ، فهما فرسا الشريف والأمر بالنسبة لهما طعام وترف ، ولا عمل على الإطلاق . . لهذا ليس من العجيب أن تجمعا أحيانا ! » .

وبصق مزهوا بين ثغور الفرسين المتعبين .

« أحسنت صنعا يا بيتر ، مرحى ! » قالها تيتو وقد استطاع أخيراً أن يخلع كل ما عليه من فراء ، وقفز من العربية ، ولف ذراعه حول منكبي السائق فى ود .

وعادت نادينا تقص الحكاية ساعة الغذاء ، وقد نمتها بعض الشيء بقليل من التفاصيل التى رأى تيتو أن يؤيدها ، شأنه شأن أى رجل مهذب . . وتضخمت التفاصيل القليلة شيئاً فشيئاً ، حتى غدا الحادث وهى تقصه المرة بعد المرة على كل ضيف وفد ذلك المساء مغامرة أى مغامرة ، تلعب فيها نادينا دور البطلة . . .

وكانت ، كلما رأت القلق يرتسم في عيون المستمعين خوفاً عليها ، ازدادت جسارة ، وضحكت وقالت بفيراحتفال إنها تعشق المخاطر العنيفة التي تهز الأعصاب ولأنها سعيدة لأنها التقت بالموت وجهاً لوجه .. « لقد كنت تفقدني يا عزيزي جريج .. ترى هل كنت تحزن علي ؟ » وألقت عليه السؤال في دلال ؛ فقبلها ، ورد عليها كأنها طفلة غريرة قائلاً :

« معنى هذا أن عليك أن تكوني أشد اعتدالاً في ملذاتك ، وأقل نبهاً للأهواء .. »

فقالته وهي تمط شفيتها : « اللذة المعتدلة ليست لذة على الإطلاق ! .. »

واستقبل ميرون أيوجا ضيوفه باللفظ الذي كان خليقاً به .. ولكنه لم يوجه دعوة إلى بلاتامونو ، رغم أن جريجور رأى أن هذا أمر واجب ، فالرجل على أية حال كان يستأجر أرض جوجو ونادينا معا ، كذلك لم يدع كوزما بيربونا ، فقد كان موغر الصدر ضده جزاء الكذبة التي أطلقها عن السرقة ؛ رغم أن الرجل قد بذل وسعه تكفيرا عن خطئه ، ومعنى إلى حد أنه أعطى كيساً من الذرة لكل فلاح ناله أذى .

وكان آخر من وصل من بيتسني في الساعة مساء من الضيوف هما الوالي أندريه بوريسكو ، والجنرال داردالات ، مع زوجتيهما .. وكان الرجلان في طريقهما إلى ضيعتهما ، الوالي إلى روكيو ، والجنرال إلى هوميلي ، ليقضيا بقية العطلة هناك .. وكان بوريسكو رجلاً عجوزاً ضئيل الجرم ، في سن ميرون ، وكان يفيض حيوية ونشاطاً .. وكان قد درس الطب في أول عهده ، وكان عنده فعلاً شهادة بهذا المعنى علّقها على جدار بيته في بيتسني ، ولكنه لم يمارس الطب قط ، فقد كان يتقزز من أي داء أو مرض .. وكانت زوجته تشبهه ، كأنها شقيقة له ، سواء في ملامحها أو طباعها .. أما الجنرال داردالات ، فهو على فرط طيبة قلبه ، كان يبدو متوحشاً كأحد القراصنة ، وقد برز هذا الانطباع بتأثير شاربهِ الأسود المصبوغ ، بطرفيه المديبين ، وهو شارب لا يتسق أبداً مع شعر رأسه الأشيب الأشعث .. وكانت زوجته ، وهي ممتلئة طويلة كزوجها ، أصغر منه سناً بكثير ؛ وكانت لا تزال ذات دلال .. وبدا البهو الكبير لا يكاد يتسع للضيوف جميعاً .. ولم يشأ الوالي أن

يناسى مركزه، فاتخذ مظهر الجند أول الأمر، ولكن هذا المظهر سرعان ما تلاشى حتى لا يصد نفسه عن الولاية . . ولما علم أن تيتو هيرديليا يعمل صحفيا في بوخارست ويحمر في جريدة الحكومة كذلك، انتحى به ركنا، وأخذ يسأله عن تفاصيل الوضع السياسى، ثم صرح له أن الأمور تسير في يسر في ولايته، وأنه هو نفسه ذو شعبية ومحجوب من الناس جميعا .

وظلت مغامرة نادينا تستأثر بالاهتمام، فقد كانت موضوعا يستطيع أن يسهم فيه كل واحد . . حتى أبونيتا روتومبان، وهو رجل حاد الطبع على شئ من التحفظ، وكان يعيش بمفرده في ضيعة جوبا منذ زواج ابنته، طرح على مضيفته عدة أسئلة عن هذا الموضوع، وكان يوسى إليها ملاطفا مسائرا . . أما العقيد المتقاعد ستيفانسكر، وكان يستأجر ضيعة فلادونا، فقد أحضر فتيات الثلاث جميعا، وهن فتيات حسناوات، على أمل أن نادينا، باتصالها بعلية القوم، تكون قد دعت بعض الشبان الجادين من بوخارست . . واستقبلتن نادينا والحق يقال بترحاب كبير، ثم دفعت بهن إلى رءول، وأمرته أن يكون لطيفا معهن وهى مهمة بذل فيها قصارى جهده وهو يختلس النظر إليها خفية من حين إلى حين . . أما الضابط جراديناريو الذى كان يعتبر نفسه ذا سحر لا يقاوم، لأنه بسيفه وحده، قد غنم ضيعة كنتاكوزو، وهى تربو على ثلاثة آلاف بوجون، فوق زوجة حقا ريفية؛ فقد ظل يحوم حول نادينا ضاربا بمهمازيه، ثم نفث عن صدره آهة، ويرفع عينيه إلى السماء ابتهالا - واضطرت نادينا - تخلصا منه، أن تنسحب لحظة مع تيتو هيرديليا .

قالت فى سأم : « ياله من ضابط سخيف ! »

ورأى تيتو فى نفسه زميلا شاطرهما الخطر، وشريكا متواطئا معها يومه ذاك . . أما وقد التقى بها وجها لوجه، فقد بدت أكثر جمالا مما كانت قبلا، وهى فى فستانها الذى حسر عن صدرها، وبساعديها العاريين، والتألق العجيب الذى شغ فى ملاحظها المكتشفة بالغموض . . وهمس إليها فى صوت اختلق انفعالا : « أنا أيضا أهدت من غناطرة اليوم . . فقد تملكنت أنت بذراعيك حول رفتى، وبعثت فى دقا كأنما . . »

قالت مبتسمة : « لا أذكر أنتى فعلت ذلك .. وأنت تدرك بالطبع أنتى لم أقصد .. »

قال تيتو وهو يتنهد : « هذا صحيح للأسف .. »

ولاذ أخذ القوم يستعدون للجلوس إلى المائدة في قاعة الطعام ، تاهت إلى الاسماع أغنية من أغاني عيد الميلاد .. وأصغى الكل إليها في سرور .. وتتابعت بعد ذلك أغنيات ، أنشدتها جمع من الشباب من الجنسين ، كان المعلم دراجوس قد اجتهد في تنظيمهم ، وجاء بهم مفاجأة للشريف الكبير الذى سر سرورا بالغنا في الحقيقة .. وأمر الشريف أن يأتوا إليهم جميعا بشيء من الطعام والشراب ، ثم هنا دراجوس وطلب إليه أن يمكث للعشاء .

واستمرت الولاية بطبيعة الحال حتى منتصف الليل تقريبا ، وتخللتها أكل صنوف الانبذة ، كما أحيتها فرقة فانيلسا الموسيقية الشهيرة في بيتسى — ثم تقدم الوالى بنخب ؛ ورأى العقيد ستيفانيسكو أن من واجبه أن يحذو حذوه ، فشرب على صحة نادينا ، وعلى صحة كل من حضرن من سيدات .. وأبدت نادينا رغبة في الرقص وشاركتها أخريات في هذه الرغبة ، ولكن المائدة استمرت منصوبة .. ومن ثم طوى حاجز الزجاج المأزى إلى اليمين ، وتقدم الموسيقيون إلى قلب القاعة — الأمر الذى أسعد الناس جميعا ، سواء من بقى منهم على المائدة ، أو الراقصون الذين أطلقوا العنان لمواطفتهم في القاعة الأخرى ..

وحملت نادينا ميرون نفسه على أن يراقصها رقصة فالس قديمة العهد .. على أن ردول هو الذى تولى زمام الرقص ، لإرضاء لنادينا لا أكثر ، رقص مع جميع السيدات .. وكانت السيدة الوحيدة التى رفضت أن يراقصها هى زوج الوالى ، التى اعتذرت في بشاشة ، وقالت إنها تجاوزت السن الذى يليق لامرأة أن تكشف عن مفاتها ، وكان جوجو أبونيسكو ، رغم سنه الحسنة ، منافسا خطيرا لإزاء ردول ، وإن كان في حقيقة الأمر قد رقص أغلب الرقصات مع بوجينيا ولأجل خاطرهما فقط .. كذلك لم يشأ تيتو هيرديليا أن يتوارى ، أو يجرم على نفسه مراقبة نادينا ، فقال لها وهو مشبوب العاطفة في أثناء رقصة بطيئة : « هذا

انتقام القدر لصباح اليوم ! ، واهتصرها من خصرها ، فردت عليه غير عابثة .
« احترس وإلا كان شأنك شأن الضابط ! »

وأحس تيتو أنه قد تلقى دشا من الماء البارد . . وخجل من نفسه وتراجع ،
واتخذ لنفسه مقعدا متواضعا إلى جانب دراجوس ؛ ولكنه ظل يرقب نادينا فترة
من الزمن . . وكانت ترقص الآن مع رول برومارو .

قال رول وهما ينتحيان ركنا قصيا : « أرجو على الأقل أن تكوني قد لحظت
التضحيات التي أبذلها . »

والتمصقت نادينا به دون أن تتطلع إلى وجهه .

أما هو فواصل حديثه ، وهو يضمها إليه ، ويترك يده تداعب ظهرها : « أنا
يائس . . لم أعد أستطيع صبرا . . لماذا تعذبيني هكذا ؟ »

وتتمت نادينا : « كن صبورا . . ولكن لا تمسك بي هكذا ، فقد يلحظ الناس . »

قال : « لقد وعدتني يا نادا . . هل نسيت ؟ . . سأكون في انتظارك يا نادا . .
أسمعين . . قولي إنك ستحضرين . . أرجوك يا نادا . . »

« نعم ، نعم . . وكفى كلاما . . همست بها ، وقد أمسكت ساعده بيدها
اليسرى ، لأنها سمعت إذ ذاك صوت الضابط على مقربة منها ، تصحبه قرقرة
مهمازيه ، قال : « رحمة بنا نحن أيضاً ياسيدتي . . »

فتركت نادينا برومارو ، وانطلقت إلى ذراعي الضابط ، وهي تشدو مفردة :
« نعم ، هذا السيد على حق . . أما أنت يارول فعليك بالصبر . . وحسبك النهاية ! »

وسر الضابط جرادينارو ، وسحبها مزهوا .

ولحظ تيتو رول وقد هجرته الحبية قلبا وتجنباً . فوقف في وسط البهو ،
وعينه لا تزالان عالقتين بها وهي تحتق مع زميلها ، فتبسم تيتو في رضى داخلي ،
فقد خال أنها لا بد قد صدت برومارو على النحو الذي فطنت معه ، لحبت نفسه
محبجا بها : « يا لها من امرأة راقعة ! »

وجرى النقاش محتدما على مائدة إلى جواره . . . وكان الوالى بوريسكو قد بدأ بمديح الحكومة ، فأثار بهذا نقداً لا ذما من جانب العقيد ستيفانيسكو الذى لم يتردد فى التصريح قائلاً : « لابد أن نحمل بنا الكوارث لو استمرت الفوضى ضاربة أطنابها . . . » وما كان الرجل يعتق رأيا سياسيا معينا ، وما كان كذلك يعنيه أى من الأحزاب تولى الحكم ؛ ولكنه كان يتوقع من الحكومة أن تعمل ، وأن تكون على بينة مما تريد ؛ وأن تحفظ الأمن والنظام ، وإلا حل الخراب بالبلاد . .

فقال الوالى متعاليا : « لا بأس ، لا بأس بإسيادة العقيد ، فأنت وحدك الذى ترى الفوضى ضاربة ، لأنك تقف موقف المعارضة . . . ومن العبث أن تقول إنك لا تعتق رأيا سياسيا معينا . . . فأنت مثلا . . . ألم تعط صوتك للحزب المعارض منذ سنتين ؟ إذن . . . »

فصاح العقيد غاضبا : « سيدى ، أنا أعطيت صوتى وفق ما أملاه على ضميرى ، كواطن أمين . . . وأنا لم أنضم إلى حزب معين ، لا حزب المعارضة ولا حزبك ؛ وهذا بالعنيت ، لأحفظ لنفسى الاستقلال فى رأى ! »

وواصل بوريسكو الكلام فى لطف . . . لا تغضب بإسيادة العقيد . . . فأنا لا ألومك على إعطاء صوتك لمن شئت ، ولكنى لا أستطيع أن أسمح لك بأن تحط من قدرنا ظلما . . . هذا كل ما فى الأمر ! ! »

ثم ، دون أن ينتظر العقيد حتى يلتقط أنفاسه ، وجه الخطاب بغتة ، كأنما قد هبط عليه وحى سعيد ، إلى المعلم دراجوس ، الذى لم يقل شيئا حتى ذلك الحين .

« استمع إلى أيها السيد . . . ما اسمك ؟ لقد نسيت . . . »

فقال المعلم : « اسمى دراجوس ! »

« نعم ، نعم . . . دراجوس . . . خبرنا بربك فأنت تعيش مع الفلاحين ، وأنت من عامة الشعب . . . قل لنا صراحة ، ولا تردد . . . هل الهدوء والنظام مستقبان فى هذه الأنحاء ؟ أم أن الأمر كما يقول هذا السيد ؟ . . . أرجو أن توضح لنا . . . »

وتردد المعلم قليلا ، ثم أجاب وهو لا يحيد ببصره عن عيني الوالى : « يوجد سلام وهدوء ، ولكن يوجد كذلك فقر مدقع ! »

وتبهم بوريسكو قليلا : « أنقول الفقراء ؟ نعم ، بالطبع .. ولكن الفقر ليس من اختصاص الحكومة .. لأنه يتوقف على الظروف وعلى الناس .. أما الحكومة فن واجبها أن تعمل على توازن القوى ، هذا هو كل ما هناك ... »

فاستمر دراجوس ، فى لهجة أشد حدة عن ذى قبل تبريراً لموقفه ، قائلاً : « طبعاً ، ولكن ، كما ترى ، هذا هو عيد الميلاد ، ومع ذلك فالكثرة الغالبة من الناس لا تجد لديها ذرة على الإطلاق .. هذه حال مريضة ... فكر معى ... ماذا يفعل هؤلاء البؤساء حتى يحل الخريف المقبل ؟ .. لا سبيل أمامهم غير الشحاذة ، لا أقل ... إن عشرات الرجال والنساء أخذوا يمدون أيديهم استجداء للذرة لا أكثر ؛ وإنهم ليقعون فى ديون لن يتمكنوا من الوفاء بها البتة ... وما يحدث هنا يتكرر فى كل مكان ، إن لم يكن على صورة أسوأ ... »

واستعاد ستيفانيسكو ثقته بنفسه ، فقطع الحديث موجها الخطاب إلى الوالى .

« الواقع أن الأمر كما قلت لك يا عزيزى الوالى ! .. بالضبط ! .. الناس لا يجدون كفايتهم ، وهم يمهمون ويصخبون ويتوعدون .. بربكم أيها السادة ، أليست هذه هى الفوضى ؟ .. ثم إن المحصول هذا العام محصول طيب ؛ وكل شئ على مايرام .. تصوروا ماذا يكون الحال لو ابتليتنا بالقحط أو غيره من خطوب ؟ .. أفا أعتقد أن الفلاحين سيمصفون بمخازن الإشراف ، دون ما ضجة أو صخب ، إن لم يكن أسوأ من ذلك ! »

وارتبك بوريسكو ، وبخاصة نظراً لوجود تيتو ، لأنه قد يردد فى بوخارست ما سمعه فى مقاطعة الوالى ، فيرميه الناس هناك بالضعف وسوء الإدارة .. وأخذ يبحث عن جواب حاسم ، ولكنه لم يهتد إلى شئ ، فضاقت صدره .. أما ميرون أيوجا فقد قال فى هدوء : « هذا كله نتيجة الكلام الفارغ الذى يسرى فى المدن ... ذلك مصدر الشر الذى يولد السخط بين الفلاحين ، ويبعث فيهم روح العصيان ... وعندما يأتى أناس المفروض فيهم أنهم ذوو مسئولية ، فيصرحون بأن الفلاح

لا يستطيع العيش لأنه لا يملك أرضاً ، نجد الفلاح بطبيعة الحال يطالب بالأرض ، ولا يحترم ما عليه من التزامات ... هذا هو بيت الداء ! ،

فصاح العقيد : « لقد عبرت عن مشاعري تماماً أيها الشريف ميرون ! ! .
إن الفلاح يجلس في الحان ، ويصرف ما يتكسبه على الشراب ، ثم يجار بالشكوى بأنه لا يجد ما يكفيه . »

ولم يتمالك المعلم نفسه فأضاف : « صحيح أنه يوجد كثير من السكارى ولكن ... »

على أن العقيد لم يتح له أن يفرغ من كلامه ، فاستطرد : « إنهم قوم مشاكسون طماعون يأسدى . . هذا هو السبب الذي يجعلنا في حاجة إلى قبضة حديدية نضع عقولهم في رءوسهم ، وإلا . . . »

فقاطعه الوالى ساخراً ، كأنما قد عثر الساعة على ما كان يبحث عنه من جواب حاسم : « أنت أيها العقيد تريد حكومة تضرب الفلاحين بيد من حديد . أليس كذلك ؟ . . آمنت بالله . لم لم تقل ذلك ؟ . . أنت ترى ياسيد هيرديليا ما يطلبه هذا السيد من الحكومة .. أرجو أن تكتب عن هذا في « الدرابلور » . حتى يسمع به الزعماء أيضاً — ما أفدح ما يطلبونه منا . نحن الذين نمثل الحكومة . »

وهبت إذ ذاك السيدة « بتى » فقالت إن الوقت قد حان للانصراف ، ووافقتها زوج الوالى .. وعينا حاول جريجور وميرون أن يعترضا ؛ وبعد عدة دقائق اكتشف الضيوف جميعاً أن الساعة قد أشرفت على الرابعة صباحاً ، فنهضوا راحلين .. ولكن ثمة مشكلة خطيرة أثارها السيد « بتى » نفسها : ماذا تفعل حيال أطفالها الثلاثة الذين أرسلتهم إلى الفراش بعد العشاء مباشرة ، وهم الآن يغطون في نوم عميق ؟ . . حرام عليها أن توقظهم من رقدتهم ، وهي تخشى عليهم الإصابة بالبرد لو خرجوا من الدفء الذى كانوا فيه إلى البرد القارس بالخارج .. وأصر جريجور على أن ينام آل « بتى » عندهم ، واقترح أن يرجعوا إلى ليسيزى صباح الغد ، أو يتلبشوا ما شاءوا . . كآت هناك غرفة بهيجة تحت تصرفهم ، إلى جوار غرفة الأطفال مباشرة ، وهي غرفة تلي بدورها غرفة نادينا ، ومن ثم سيثعرون بأنهم في بيتهم تماماً .

وتفرق الضيوف واحدا بعد واحد.. ثم مضى ميرون أيوجا إلى بيت الدائرة القديم ، أما من تخلف من الضيوف فقد صعدوا إلى الدور العلوى ، وأخذوا يتسامرون برهة على بسطة السلم ، قبل أن يأووا إلى فراشهم .. واستقرت بتى وزوجها النظر إلى غرفة أطفالهم بما ينبغى من حذر قبل أن يتطلقا إلى غرفتهما.. أما هيرديليا وبرومارو ، وكانا يقطنان فى غرفتين متجاورتين ، تقعان وراء خلوة كبيرة فوق الشرفة حيث قامت نافذة زرقاء فوق المدخل الرئيسى ، فقد انطلقا إلى الفراش .. وكان القمر كاملا ، وقد انساب نوره من خلل الزجاج الأزرق ، فتوقف تيتو فى منتصف الطريق ، والتفت صوب نادينا وجريجور ، وقال فى شجن خليق به كشاعر : « إنها ليلة من ليالى الجنة ! »

وفتحت نادينا باب غرفتها .. كان الناظر يرى ، على ضوء المصباح الخافت المشتعل أمام الأبقونة ، السرير الكبير ، وقد بدا أبيض دافئا ، تطل عليه صورتها من عل .. وتسامل جريجور فى هدوء ، « هل أنت سعيدة يا حياى ؟ »

قالت : « الحق أننى استمتعت بوقتي جدا جدا .. » وما لبثت أن أضاعت بعد برهة قصيرة ، فقد عجزت عن مداراة فتورها : « أنا الآن فى غاية التعب بحيث ... »

ورنا جريجور إليها ، مشفقا عليها لما أصابها من إرهاق واضح ، فمس رقة : « لقد أسرفت فى الرقص . ولكن هذا لا يهم .. أنا مسرور لأنك سعيدة ... لا بأس .. سأتركك الآن يا حبيبتي ، طابت ليلتك ! »

وأخذها بين ذراعيه ، وقبل شفيتها المتوقدتين.. وانساب من حضنه فى رقة ، وقالت متسمة : « طابت ليلتك أيها الحبيب ! ... »

ووقف زوجها وهلة أمام بابها الذى أغلق دونه .. وتناهت إليه من أسفل ممسات الخدم ووقع أقدامهم ، وهم يعيدون إلى البيت شيئا من النظام قبل أن يأووا إلى فراشهم ... وأطفأ هو الأنوار ، ولم يبق إلا ضوء القمر الأزرق وقد اختلط بظلمة الليل .. وكانت الطرقة الصغيرة الضيقة التى تؤدى إلى الغرفة التى تعود أن ينام فيها ، طرقة مألوفة جدا لديه .. وكانت غرفته تقع فى الظهر ، وبها نافذة تطل على بيت الدائرة القديم .

وخلع ملابسه ، وألقى بنفسه على الفراش ... ولكن النوم أبى أن يداعب أجفانه .. فقد أقغم قلبه بهجة وقلقا .. حقا لقد مضى زمن طويل منذ أن تاق إلى نادينا كما تاق إليها الليلة ، ولكنه مع ذلك رجع وحده هاهنا ... ومع ذلك فهذا خير وأبقى ، وإلا فالفرق بين الحب الذى يكنه لها ، وحب الوحوش الضارية .. واندفعت به الأفكار مجنونة هنا وهناك ، فأخذ يرسم الخطط ، ثم ينسخ مرسومه ، ثم يبنى آمالا جديدة .. ومرة ساعة من الزمان أو أكثر ، ولم تبد بارقة تدل على مقدم النوم .. ربما كانت الغرفة دافئة أكثر مما ينبغي .. ونهض من فراشه ، ولبس جلبابه ، ثم أشعل سيجارة .. لامناص من أن ينشئ نفسه قليلا .. كان الظلام حالكا الآن أشد من ذى قبل .. وكانت أشعة القمر تتلاعب على السلم فى تراخ وفتور .. وتحسس طريقه ، وبلغ الخطوة التى فوق الشرفة ، حيث انتشرت هناك بضع كراس ومناضد صغيرة .. والتبس لنفسه كرسيا وجلس عليه فى حذر كما جاء ، كأنما خشى أن يزعج أحلام النائمى حوله .. وجلس وظهره إلى الحائط الذى كان يفصله عن حنية القلب .. ورأى وجه القمر الرهيب الغريب ، على مدى أمامه من خلال الزجاج الأزرق .. كان الهدوء مستتباً هنا أكثر مما كان فى غرفته ، وكانت البرودة التى التفت به قد هدأت من سورة نفسه ، وسكنت من ضربات قلبه .. ومال برأسه على ظهر الكرسى ، وأغمض عينيه ، وغغم يحدث نفسه مبتهجا . « لا أظن أن من المستحسن أن أغفو هنا .. » وأخذ يسحب أنفاسا من سيجارته من آن إلى آن ، فانبعث منها وهج من الضوء الوردى .

وخيل إليه فجأة أنه قد سمع بابا يفتح وينلق دون أن يند عنه صوت تقريبا . وأرهف أذنيه برهة ، ثم عجز عن كبح فضوله ، فنهض فجأة على قدميه .. وإذا بكرسيه يسقط على الحائط .. ونظر عن شماله أولا ، صوب غرفة نادينا ، ثم نظر إلى يمين .. وخيل إليه أنه يرى على الحائط ، بين غرفة هيرديليا وغرفة برومارو شيحا أسود يتحرك فى الظلام الدامس .. واقترب جري مجبور يستجلى الأمر .. كان الشبح ملتصقا بالحائط ، وقد مد يديه إلى أمام .. وإذا به يمسك بذراعها العارى ، ويتعرف عليها فى نفس اللحظة : « آه ، أهذا أنت .. » لقد ظننت أنها خادم ..

كان فى وسعه أن يحس بجلدها ناعما رخصا ، وقد علاه شيء من البلب فسحب

يده كأنما قد لمس جلد حية رقطاء .. وغلبه التفزز ، فبصق قائلاً : « يا عاهرة ! ،
وأدار ظهره لها ، وعاد يشق طريقه خلال لحة الليل صوب غرفته ، صمرا
الخطى كأنما تتوعدة موجة خاتية فأطبقت على قلبه .

وفي اليوم التالي نهض رءول برومارو مبكراً أكثر من غيره ، فبسط الدرج
فرحاً ، وهو يندندن بأغنية جديدة لقيت رواجاً في باريس . والتقى في الدور
الأول بجريجور .

« لقد غلبتني يا عزيزي جريج ، فقد حسبت أنني أول من نهض ! » قالها وهو
يقترب من مضيقه ، ماذا يده مصالحاً .

وتجاهل جريجور اليد الممدودة ، وأجاب في صوت أجش : « عد إلى بوخارست
فورا .. المركبة في انتظارك بالباب » .

وغاض الدم من وجه برومارو .. وتملكته الدهشة ، فغمغم بعبارات لارابط
بينها . وأعاد جريجور القول : « أمامك ربع ساعة ! »

وبعد خمس عشرة دقيقة كان برومارو قد ارتدى ملابسه .

ورفع بيتر السوط . فقد كان يقوم بعمل لإخيم . . . فلما انطلقا ، صاح
جريجور من قبة الدرج : « رفقاً بالفرسين يا بيترا ! » .

الفصل الخامس

الحجى

- ١ -

أبدى القوم أسفا على رحيل برومارو المفاجئ، فقد كان شابا فى منتهى الظرف ومع ذلك فقد استمر المهرج والمرج رغم رحيله ، وبلغ حدا جعل السيدة بتى ترى لزاما عليها أن تدخل ، فقد لحظت أن زوجها قد استغرق فى حوار عنيف مع ميرون أيوجا وتيتو هيرديليا ، قالت : «ها يا عزيزى الكسندرو .. لابد لنا أن ننصرف ، وإلا اضطررنا إلى قضاء ليلة أخرى هنا ..»

ومحبتهما نادينا حتى ليسييزى استرواحا لنفسها ، ورياضة لبدنها .. وعادت فى وقت متأخر . ساعة الغداء تماما .

وكان من المقرر ، وفقا للبرنامج الموضوع ، أن يصرف القوم ثانى أيام العيد فى بيت جو جو .. أما ميرون أيوجا فقد تخلف عن الركب ! فقد أبى أن يغير من عاداته ، ويترك بيته يوم عطلة .. كذلك صرح جريجور بأنه لن يستطيع الذهاب فهو مضطر إلى الشخصوس إلى بيتسى حيث استدعى لأمر عاجل هام .

وفرح تيتو إذ وجد أن عليه أن يصحب نادينا وحدها ، رغم أنها بدت منخرقة المزاج .. فلما بلغا ليسييزى . حيث أزما البقاء للعشاء ، اشتكت زوجها قائلة إنها لم تلق منه إلا مايجرح أحاسيسها الطبيعية طيلة حياتها الزوجية : على أنها قبيل المساء عادت إليها حيوتها . واستعادت حلاوتها وهجتها وهما عائدان إلى البيت ، فأخذت تثرثر فى بشرطوال الوقت ، وتضحك على نكات تيتو وتوقف المركبة لتسأمل القمر معجبة . وتترنم بأغان فرنسية فى صوت تجمد من البرد .

والحق أن نادينا وجدت نفسها فى موقف حرج لزاء جريجور ، ولم تعرف أى طريق تسلك .. أمام القوم فلم يلحظوا شيئا ولكنه فى الواقع لم يوجه إليها

كلمة واحدة ، كما أنه لم يطلب منها تفسيراً ... لقد خطر لها أنه تبع برومارو ، وأنه اشترك معه في مبارزة .. ومثل هذا الأمر لامناص أن يؤدي إلى الطلاق ... ولو أمكن تجنب هذا ، فقد يلتبس جريجور حلاً آخر أقل استشارة .. وهى من أجل هذا وحده تطرقت إلى الكلام عن زوجها وهى بيت أختها ، في لهجة تمهد الطريق بها لآى حدث في ضمير الغيب .

وفي اليوم الثالث من أيام العيد ، وإذ بناديننا تعود من زهرة قامت بها ، التفت بجاعة من الفلاحين في الفناء ... وأحست بالسخط والضيق ... وكان بيتر بينهم ، وكان الفلاحون قد جاءوا به ظناً منهم أنها قد تلقى إليه أذناً واعية ، لأنه سبق أن قاد لها مركبتها ... ولكن ما كاد الشاب يتفوه بكلمات ثلاث حتى قاطعته نادينا في حدة : « هل بلغ الأمر بكم أن تعترضوا طريقى ؟ » ألم أقل لكم لئن أن أبيع ؟ لماذا لا تركوننى أنعم بالهدوء ؟ .. لقد جئت هنا أتمس شيئاً من الهدوء ، لا ... »

وانطلقت في طريقها ، وصعدت الدرج غاضبة .
وتبعها هيردليا مضطرباً ، وهو يهز رأسه .. ما كان يحسب أبداً أنها قادرة على كل هذه الثورة وهذا الغضب .

وظل الفلاحون حيث وقفوا ، يتطلع كل منهم إلى الآخر مرتبكا .. وراحت فترة طويلة من الصمت ، ثم قال ماران ستان متضاحكا ، وهو يحكم طاقيته :
« يا لها من شيطان في صورة امرأة !! »

ولكن بيتر غنم بيلادة : « صبرا ياسيدتى » لا بد أنى نلتقى أنا وأنت ذات يوم !! »

واضطرتيتو ، إذ كان بيت دراجوس في الضحى ، أن يستمع مرة أخرى إلى هموم أهل القرية ..

أما ميرون أبوجا فقد أخذ في نقاش حاد مع نادينا - بشأن باباروجا بطبيعة الحال .

ورجع جريجور أخيراً في اليوم الرابع ، وكان يوم أحد ، لئلا ... واعتذر

عن غيابه الطويل ، وبدا سميداً ، كأنما كان كل شيء قد جرى على هواه . . .
وحدث نادينا قبل العشاء قائلاً إنه يريدنا في كلمة . . . وتساءلت بابتسامة مغرية ،
وقد لحظت الأسي في نبراته وأسايره : « أتريدنا أن نذهب إلى خرفق
بالدور العلوى ؟ »

« لا ، لا . . . » ، قالها الزوج معترضا ، وقد اردب وجهه لحجة ، شأنه شأن
من يرى خطرا يهدده .

ودخلا قاعة صغيرة ، فقال جريجور بهدوء وبساطة : « هاك ماعزت عليه . . »

غدا ، الاثنين ، بقطار الضحى السريع ، الأمر الذى يتيح وقتا للاستعداد ،
عليها أن تذهب إلى بوخارست . . . وهناك لابد لها من الاتصال فوراً بأحد
المحامين للتقدم بطلب للطلاق ، على أساس أن الهجر من جانبها . . . طبعا هو لم يذهب
إلى بيتسى ، فإكان في مقدوره أن يدبر أى شيء هناك في أثناء أيام العيد ، بل ذهب
إلى بوخارست كي ينقل أمتعته الشخصية إلى بيت خالته ماريوكا ، أرملة الجنرال
كونستانتينسكو . . . وإنه ليقدم على هذا الإجراء ، على ما فيه من مشقة ، تجنباً
للفضيحة ؛ ولكن على شريطة ألا تامل وتسوف ؛ فهو والحالة هذه لن يضمن أن
يقف موقفا سليما . . ثم ليذهب الشاب هيرديليا في صحبتها ، حتى لا تسافر وحدها .
وهو قد ابتاع فعلا تذكرة القطار في كوستنقى ؛ فلم يبق أمامها إذن إلا أن
يركبها القطار .

وكانت نادينا أول الأمر مهتاجة المشاعر ، ثم أخذت تستمع في هدوء ، وقد
زمت شفيتها في سخرية لطيفة .

« لا بأس . . » ، قالتها عندما انتهى من الكلام ، ثم خرجت وهو في أعقابها .

وصرحت ، وهى تجلس إلى المائدة ، بأنها قد سمّت الريف ، وأنها تزمع
الرحيل في الغد . . . وحاول مهرون أن يثنىها عن عزمها ، ولكن دون جدوى . .
قالت إنها ستخلف جريج وراءها ، ولكن بودها لوصحبها السيد هيرديليا . . وطلق
تيتو هذا الاقتراح متحمسا بطبيعة الحال ، أولا لصحبته ؛ وثانيا لأنه سيوفر
أجر السفر .

وتبادلوا التحية في الهو الكبير . . . فقد كان الجو بارداً جداً في الخارج . .
وكانت نادينا قد ارتدت قفازها ، والتفت في الفرا ، فدت يدها بطريقة طبيعية ،
وقالت : « وداعا يا جريج ! »

« وداعا ! » همس بها جريجور ، في صوت غير مسموع تقريباً ، وهو لا يكاد
يلامس يدها — كأنه عاتف من نفسه .

وودعها أيوجا الشيخ حتى الباب ، وكان مفتوحاً هونا ، فدخلت منه لفجة
من البرد والنسيم . . .

قال الشيخ وهو يفرك يديه : « يا لها من امرأة جميلة فتانة . . . عار عليك
يا جريجور أن تدعها تذهب هكذا سريعاً ! »

فلما سمع بالطلاق ، أسرع يستعبد بالله من الشيطان قائلاً : « قل شيئاً غير
هذا ! ! . هذا جنون مطبق ! » وضاعت تأويلات جريجور سدى ، وبخاصة
لأنه لم يكشف عن خبيثة السبب المستور . . وأبى الآب أن يستمع إليه . . .
فهو ، وإن لم يقل هذا صراحة ، كان يفكر في أن ابنه لو سرح نادينا ، فسي فقد
هو كل أمل في ضيعة باباروجا ، لو فكرت نادينا في بيعها .

قال ميرون أيوجا : « أعتقد أنها أ كثر حذقاً منك ، وأنها لن ترفع دعوى
تطلب فيها الطلاق ! »

فأجاب جريجور : « إنها لأذن سوف تعض بنان الندم ! » .

استمر البرد شديد الوطأة طوال أربعة أسابيع قبل عيد الميلاد ، ومع ذلك
لم تبد باذرة تدل على تغير الطقس . . . وبدأت القرية غارقة إلى وسطها في الثلج
ولم يجرؤ أحد على إطفاء النار في المدفأة لحظة واحدة . . . وشمر الشريف ميرون
بشيء من الشفقة على الفلاحين ، فسمح لهم أن يحملوا الأغصان الميتة من غاباته
دون أن يتقاضى عنها ثمناً ، أو يقيد ثمنها في دفاتره ، دينا عليهم . . ولكن الشتاء

أخذ يسير وبيدا ، وأخذت بالتالى الأغصان الميتة تقل شيئا فشيئا .. وبدأ بعض الناس يستوقدون خشب سياجهم ، بل قطع بعضهم الأشجار التى فى حدائقهم .

ويوم الأحد ، اكتظ ديوان القرية بالناس .. وكان العمدة برافيلا قد وصل مبكرا ، فانتظر فى صبر حتى تجمع الناس كلهم .. إنه لم يخبر أحدا بما أمر أن يقوله من تعليمات .. ولم يبدأ فى الكلام إلا عندما رأى المدخل ذاته قد غص بالناس ، ولأنه لم يعد هناك متسع لقدم فى المكتب ؛ وكانت الرجفة التى فى صوته ترجع إلى كأسين من شراب البراندى كان قد احتساها فى حان بوزوك التماسا للدفء .. قال إنه رجل رقيق القلب ، يخشى الله فى معاملاته مع الناس ، ولأنه يغمض طرفه عما يقترفونه من مخالفات عديدة ، ثم استطرد فاشتكى من أن آمارا قد أصبحت وكرا للصوص . فلم تقض ليلة منذ عيد الميلاد حتى الآن دون أن تحدث سرقة .. لقد سرق اللصوص الملتزم كوزما ييريونا ، كما تعرض هو نفسه لأن يتركوه دون أية ذرة يزرعها ..

وزجر سيرافيم موجوس بصوت عال سمعه القوم جميعا : « لقد قاسينا كثيرا بسببه الخريف الماضى ! »

وصدق العمدة على كلامه ، ولكنه أثنى على الملتزم ، فهو ، قد عوضهم عن جريته منذ ذلك الحين ، رغم أنه لم يكن على ذلك مجبرا .

وعنده صاح ليوتسى أوريسور من المدخل : « نعم ، ولستك أيها العمدة لا يمكن أن نعوذنا عن الضرب المبرح الذى نزل بنا ! »

ولم يشك كوزما ييريونا رغم ذلك ، فقد خشى أن يسمع الشريف الكبير بهذا ، فيسبب مزيدا من المتاعب .. ولقد مضى نحو أسبوع والمجرمون يحومون حول بيت الشريف أيضا .. نعم ، إن السرقة من الشريف لاتهم كثيرا ، فهى على كل حال ليست بالخطيئة كما يقول الناس ، لأنهم يستعيدون عرق جبينهم .. ولكن اللصوص سطروا على أهل القرية أيضا ، فخطفوا دجاجة واحد منهم ، وذرة واحد آخر ، هذا فضلا عن الارب نيكوديم . فكل واحد فى القرية قد سمع كيف سرق اللصوص هذه

الخزيرين الذين ذبحهما في عيد الميلاد .. وزوج ابنته فيليب إليوزا موجود،
ولأنه يستطيع أن يشهد على هذا الكلام .. وهنا توقف العمدة ، ليفسح لزوج
ابنة القصر فرصة الحديث .. أما فيليب ، وكان ثقيلًا غيبًا ، فقد تململ وسعل
وأومأ برأسه ، فاشتدت بالناس الرغبة لأن يلعنوا أولئك الكافرين الذين سطوا
على رجل من رجالات الكنيسة .. وقبل أن ينطق فيليب بكلمة ، صاح إيجنات
سيرسل : « الناس يسرقون حيث يحدون شيئًا يسرق — ولكن ، ماذا يأخذون
من أمثالي ؟ يأخذون الفقر ؟ »

وتساعد بعض الضحك إذ ذاك ، وبخاصة عند المدخل ، بل ، ومن داخل القاعة
أيضا .. واشتد الغضب بالعمدة ، وقال : « نحن ما جئنا هنا للتسكيت يا إيجنات
وأنا لم أدعكم هنا للهرل ؟ »

فرد الفلاح ، في لهجة أشد تواضعا عن ذي قبل : « أنا لا أهرل يا عمدة ...
لجأى الضرائب قد استولى على الخزير الذى كان لدى ؛ بل لم نعد نملك ذرة أو
حطب .. وأطفالى يولولون من الجوع والبرد .. »

وهتف ليوتى أورييسور لجأه ، كأنما قد بثت الشجاعة في نفسه : « ليس
في مقدورنا أن نحمي هكذا ! .. نحن لا نجد ما نتبلغ به هذا الشتاء ... إما أن
نموت ، وإما ... »

وتعالت عدة أصوات عند المدخل تأييدا : « هذا حق .. نحن نموت
موتًا بطيئًا .. »

وعندئذ جليل صوت خلال المهمة العمومية : « هذا هو اليوم الثالث الذى
لم أذق فيه شيئًا ، ولأنها المعجزة أننى ما أزال أستطيع أن أفق على قدمى ،
أى والله ! ! »

فصاح العمدة غاضبا ، استعادة لهيبته : « هيه .. هيه .. كما كم هذا .. »
وخفت الضوضاء قليلا ، فاستطرد بتحدث في رقة : « هناك فقر لاشك في ذلك ،
وبجاعة أيضا بدرجة عالية ؛ ولكن هل معنى هذا أن تأتوا غدا فتمسكوا بخناق
لأنكم جوعى .. هل هذا قصدكم ؟ »

« نعم ، نعم . هتف بها الصوت المجلجل مرة أخرى ، في لهجة كان من الممكن أن تسم عن أى معنى .. »

وكان الصوت صوت ميليفت هيرفيمو ، وكان رجلاً طويل القامة ، غائر الخدين ، صفراوى السات . . وكانت عيناه السوداوان تتأججان بأسا . . وكان له ثلاثة أطفال وزوجة ، وقدوا جميعا مرضى في بيته ، لاهم بالأحياء ولا هم بالأموات .

واعتبر برافيلا أن هذا الجواب معناه أن هيرفيمو متفق معه في الرأى ، فاستأنف الكلام مرتبكا من حيث توقف ، قائلاً إنه ينفض يديه من الأمر كله من الآن فصاعداً ؛ ولأنه سيحول جميع الشكاوى إلى رجال الشرطة ، ليحققوا بأنفسهم في السرقات ، وليعيدوا الأمن والنظام إلى القرية . . وهنا زجر سيرافيم موجوس مرة أخرى ، كأنما اتقدت شوكة في قلبه : « أقول الشرطة ؟ . لأنهم موجودون للزراية بالناس ، ولإيقاع العذاب بهم ظلماً ، هذا كل ما فى الأمر . »

ورد العمدة متحمساً : « ولكن من واجب الناس أن يلزموا الجادة أيضا ياسيرافيم . . » ثم التفت إلى الجمع ، وقال : « هذا فى الواقع ما أردت أن أقوله لكم . أما أنتم فعليكم أن تتكلموا ، وأن تصرخوا بما يحول فى نفوسكم . . فأنا لا أريد أن يزعم أحد منكم فيما بعد أنه لم يعرف ، أو أننى لم أكن منصفاً . »

وأخذ نفر من الناس يتحدثون مما فى آن واحد ، كل منهم فى موضوع مختلف . . قال بيتر بيتر آمراً ، وكان يقف إلى جانب نيكولاى دراجوس ، « مهلاً ! ! اتركوا كل واحد يتكلم بدوره ، حتى يفهم بعضنا بعضاً ، ونفهم كما يفهم البشر ! »

وتكلم لوكانالابا أولاً ، ولكنه لم يتناول أى موضوع يتعلق بمتاعب العدة . . وإنما أخذ من فوره يتحدث عن باباروجا ، وهو الموضوع الذى سرق النوم من عينيه ؛ قائلاً إن الشتاء قاس لاشك ، ولكنه لن يلبث أن يمضى كلبح البصر ، ثم يبدأ الربيع ، ويبدأ معه العمل فى الأرض .

« ماذا عسانا فاعلين ؟ ، هل نقنع بالوقوف مكتوفى الأيدي ، بينما يخطفها اليونانى منا ؟ .. إن السيدة تهزأ بنا ، بل هى تطردنا من حضرتها حين نريد أن نعقد معها صفقة عادلة .. ثم لا يتبقى أن نجلس هكذا نفرض أطفالنا ، ونشكو الفقر ، ونقول إنه سيقضى علينا ! »

شعر بيمر أن من واجبه أن يقول لهم شيئاً من شأنه أن يزيد الأمور تعقيداً ، فيخبرهم بأن السيدة تفصل عن السيد جريجور .. ولقد جاءه الخبر عن أيرينا ماريورا ، ابنة أخت الطباخة التى تعمل فى بيت الشريف .. ومن ثم لا يدرى أحد غير الله متى تأتى السيدة إلى هذه الناحية ثانية ؛ أو متى تتاح لهم الفرصة ليبادلوها الكلام .

وقع عليهم هذا الخبر وقع الصاعقة .. وعم المهرج والمرج ، شأنه شأن الضجيح الذى تعالى فى الحان ؛ وانهاالت الاتهامات من كل جانب . وجاء تريفون غوغو ، وقد ازداد غلظة وتجبها ، فاتهم العمدة بأنه قبل برهة قال إن ما قاله لوكا كان خطأ ، وأنه الآن يلف ويدور لأنه يعلم من أين تؤكل الكتف .. واهم وجهه برافيلا ، وصرخ مستكراً ، ولكن صوته غرق فى صياح تودر ستريمبو من المدخل : « خير لك ، بدلا من أن تتآمر على الفقراء . أن تأتى معنا إلى أحباب الأرض ، وتطلب إليهم أن يوزعوا العزبة بيننا ، إن رأيت السيدة أن تتخلص منها ، إذ لم تعد بعد فى حاجة إليها . »

وأيده ليوتقى أوريسور ، فصاح : « أحسنت ! .. هذا هو الرأى السديد ! »

وانبعث صوت تريفون غوغو من جديد صرصرأ عالياً من شدة الجلبة :
« بل نمذهب إلى جلالة الملك نسأله أن يعدل بيننا ! »

أما العمدة ، فقد أشرقت أساريره بتأثير الصياح ، فاستأنف الكلام أكثر هدوءاً عن ذى قبل ، بل وبمسحة من السخرية ، قائلاً : « لماذا هذا الكلام الفارغ أيها الناس ؟ . وأنا الذى كنت أظن أنكم عادة عقلاء كغيركم من بئى الإنسان ! .. بالله هل سمعتم عن شريف يبعزق أرضه كأنها كوم من الزبالاة ؟ .. خذوا تريفون هذا الذى يثرثر بالكلام ، إنه ليرفض أن يتنازل عن قطعة صغيرة من الماما ليجا — وعلى العموم هو لا يملك منها شيئاً — ولكنه مع ذلك يريد من الغير أن يتنازل عن

ضيفة بكاملها! - لا بأس ياتريفون - اذهب وخذ نصيبك من أرض الشريف ! .
الحق أتى لم أسمع طوال عمرى مثل هذا الكلام ! . لا ، ولم يسمع به هؤلاء الناس ،
ولا لو كان الذى كان عمدة قبلى ، ولا فيليب أو دراجوس أو الأب لويو ، وهو أكبرنا
سنا هؤلاء جميعا قوم فضلاء عاقلون ، ولكنهم لم يسمعوا أبداً بمثل هذا . ،

فقال إيجنات سيرسل : « لئذ من يعيش فى ببحوحة بأى أن يستمع إلى شيء ؛
ولكنك إذا كنت لامتلك شيئاً ، فإنك تستشف الأمل من كل شيء تسمع به . .
ولولا هذا لهلكنا ؛ والله يعلم ما نحن فاعلون . »

فقال العمدة ، وقد احتد من جديد : « خسئت يا إيجنات ، خسئت . . الرجل
العاقل يضع كنفه إلى العربية ، ويساعد على دفعها من الحفرة التى وقعت فيها ، لأن
يتنحى جانباً ، بينما غيره يدفع العربية إلى الخارج . »

وغنم ميلينت هيرفيمو بمرارة : « الله وحده يعلم كيف نكد ونعمل ، حتى
تخرج عيوننا من رؤسنا ، ولكن هذا كله دون جدوى . »

من واجبتنا أن نعمل ياميلينت ، وهذا ما يجعل منا بشراً لا لصوص . . قالها
براقيل جادا ، ولكنه أسرع فأضاف فى لهجة مغايرة : « الظاهر أتى كنت أنسلكم
عن شيء ، وأنتم تسلكون عن شيء آخر . . لا بأس . . ولكن دعونى أقولها
لكم كلمة صريحة ، أنا من الآن فصاعداً لن أغضض طرفى عن أى شيء من أجل
سواد عيون أى واحد فيكم . . إنما أنا سأترككم إلى الشرطة ! »

فصاح سيرافيم موجوس : « نحن لامتلك إلا حياة واحدة على كل حال ،
لامائة حياة ! »

ولدت كلمات موجوس مشاعر العمدة فانفجر غاضباً ، رغم أن الفلاح لم
يكن قد تكلم بصوت عال كما فعل غيره ، وصاح : « انصرفوا الآن ، جميعاً ! !
أنا أضيق وقتى معكم ، شأنى شأن من يلقى بالجواهر طعاماً للخنازير ! »

وانصرف القوم فى بطة ، وقد توقفت جماعات صغيرة منهم فى الفناء ، ثم فى
الشارع ، وهم يقلبون الأمر على شتى الوجوه .

قال إيجنات سيرسل يحدث جماعة ازداد صخبها : « طبعاً ليس مما يتفق مع
هوام أن يستمعوا إلى متاعب غيرهم من الناس . »

قال تودر ستريمو مؤيداً : « هذا أمر مسلم به . . لو أن الأحكام قرروا أن
يوزعوا الأرض لأعطوها للفقراء المعدمين ، أما هؤلاء فلن ينالوا منها شيئاً . »

« هذا هو السبب الذي يدفعهم إلى شرائها ، حتى لا يجد الأحكام وسيلة لإعطائها
لنا . . ولكن لن تنام على هذا ! ! ، قالها تريفون غوغو في غضب شديد .

وانصرف بيتر مع شقيق المعلم ، ومع ليف من الناس كبار السن . . كان
يريد أن يحول الحديث ناحية السيد جريجور ، وأن يخبرهم كيف كان كريما
معه ؛ وكيف أنه قبل يومين اثنين ، عندما عاد بيتر من كوستسكى ، حيث ذهب
بالسيدة إلى المحطة ، قد استمع إلى قصته من البداية إلى النهاية ، فنادى على المشرف
ليونتي بومبو ، وأمره أن يشطب من دفاتره كل الديون التي كانت على والديتر ،
وأن يدفع له من فوره ثمن ثورين — لا ثمن ثور واحد ، وهو الذي قتل في الغابة .

ولما تطرق الحديث إلى الطلاق المزمع بين الشريفتين ، أسرع بيتر فأدلى بالتفاصيل
القليلة التي بلغته من ماريورا ، قائلاً : « إن السيدة نزقة طائشة ، وعنيدة حقاً ؛
أما السيد جريجوريتسا ، فأنتم تعلمون من هو ، إنه رجل مثقف ، وقلبه من ذهب ،
كأنما هو لا ينتمى إلى طبقة الأشراف إطلاقاً . . أنا لن أنسى أبداً صنيعه معي
حتى يطوينى الردى ! »

وعلم تيتو هيرديليا بأمر الطلاق الوشيك من نادينا وهما بالقطار . ولم يصدق
الرجل سمعه . . ولكن جريجور أكد له النبأ ، بعد ذلك بعشرة أيام ، فصاح
تيتو أسفا : « أيا كان الأمر فهي والحق يقال إنها امرأة فاتنة ! »

فتبسم جريجور : « زيادة على اللزوم ! »

ولكن تيتو ، على شدة حبه لجريجور ، وإعجابه البالغ بنادينا ، ما كان يجد
وقتا ليشتغل نفسه كثيراً بأمرهما الخاصة . . كان يلتقي بجريجور غالباً ، ويذهب

لزيارته أحيانا ، وأحيانا أخرى يتناول معه وجبة طعام .. كذلك كان يلتقى بنا دينا من آن إلى آن آخر ، في معرض من المعارض ، أو بيت جوجو أونييسكو حين يدعى إليه .. ولكن لم يزد الأمر على هذا ، فقد انغمس في ضجيج الصحافة أكثر فأكثر .. وأخذ روزو يضاعف من المهام التي يعهد بها إلى الشاب ، متعللا بضغط الأحداث السياسية المتزايد .. وأخذ سكرتير التحرير ، بغية النهوض بدرا بلول ، يضيف أبوابا جديدة إلى الجريدة ، ولكنه لم يجد صحفيا آخر يتعاون معه تعاون هيرديليا ، ومن ثم عهد بهذه الأبواب إليه . وتقبل تيتو ، بحماسة المعتادة ، هذا كله راضيا .. وهكذا أصبح يتولى الإشراف على عود خصص للطرائف ، وعود آخر عن « الأصدقاء السياسية والاجتماعية » ، وعود ثالث عن « النقد المسرحي » ؛ وكان هذا هو الموضوع الوحيد الذي استمتع بالكتابة فيه ، فقد كان يهوى المسرح ، كما أن هذا ساعده على أن يؤم المسرح كثيرا ، دون أن يتكبد نفقات أيضا .

وعندما عاد من آمارا ، كانت صاحبة الدار الزائرة للعب تدخر له مفاجأة .. فهي ، إذ أخذت تسأله عما فعله في الريف وهي غير مصفية له ، الأمر الذي جرح مشاعره نوعا ما ، كانت تتدخل بفتة وتقول : « لقد حضرت تانتا كثيرا في غيبتك .. وكانت تتحدث عنك .. إنها فتاة رائعة ياسيد تيتو ! .. أكثر مما تتصور .. لم يكن هناك من يضارعا خلقا وجالا وحذا غير ابنتي ميمي » .

وعادت تطلب إليه أن يحدثها عن الفقرة التي قضاها في الريف ، ثم إذا بها تقاطعه مرة أخرى ، وهي تهز أصبعها على استحياء ، وترميه بنظرات ماكرة : « أنت ولد شقي ! .. والحق أقول إن ذوقك جميل ! .. فالإنسان لا يرى فتيات على شاكلة تاننا في كل شارع ؛ فهي جميلة ومتعلقة ومن عائلة طيبة .. والحق كذلك أنك شاب طيب ، وذو دخل محترم ، ومستقبل مضمون .. أتما لا تقان لمعضك ، ولا يمتنى المرء خيرا من ذلك ، وكل ما أرجوه هو أن يحقق الله كل شيء على ما أتمنى ! »

ودهش تيتو ، واضطر أن يخضع طوال نصف ساعة من الزمان إلى الشروح والتفسيرات والخطط والنصائح والمخذورات التي كانت تلقى بها في سرعة تصيب

الإنسان بالدوار ... وذعر الفتى .. صحيح أنه كان يجب تانتا ، ولكنه لم يفكر أبداً في الزواج بها ؛ فالزواج ، وهو في مركزه هذا ، مدعاة للسخرية لامراء .

والواقع أن تانتا كانت تأتي ضحى كل يوم في زيارة للسيدة الكسندريسكو ، وكان تيتو يشعر بارتباك ، أخذ يتزايد باستمرار . وخطر للشاب أن يلتبس نفسه مخرباً فيغير غرفته فجأة ، ومن ثم يخفي كل أثر له .. على أنه ، ذات يوم ، وكان يحدث تانتا في غرفة السيدة الكسندريسكو ، وبينما السيدة الكريمة تتمتع عذرا لتتركهما وحدهما ، بعد أن رنت إليها تانتا في ضراعة حلوة ، فإذا بطريقة وجلة على الباب ، وإذا بماريورا تدخل عليهما ، دون أن تنتظر إذناً بالدخول .

« عفوا ، أرجو المذذرة ! »

قالتا في شيء من الاضطراب ، وبخاصة عندما شهدت تانتا ، إذ ما كانت تستحي من السيدة الكسندريسكو ... قالت إنها جاءت من أجل درسها ، وأنها وجدت الباب مغلقا ، و ...

وهب تيتو من جلسته ، وقال وهو متضرع الوجه : « واسكن المفتاح في القفل يا عزيزتي ماريورا ! »

« صحيح ؟ أنا لم ألحظ ذلك .. إذن سأدخل .. عفوا ، وأومأت برأسها قليلا ، وانسحبت ، بعد أن ألقت على تيتو ابتسامة باهتة .

وما كاد الباب يغلقي حتى نهضت تانتا ، شاحبة الوجه ، وأخذت معطفها لتتصرف .. وأخذت السيدة الكسندريسكو تلمس المعاذير ، ولكن عبثا ... صرحت تانتا بأنها خدعت ؛ وإلا لماذا لم يحدثها في شأن هذه الفتاة الكتيبة التي دخلت غرفته كما تدخل بيتها ؟ .. ورفضت أن تبقى وانصرفت حزينة بائسة .

قالت السيدة الكسندريسكو معذرة : « رأيت ما فعلت ؟ .. أنا كنت أعلم أنك ستلقى مشاكل بسبب هذه الدروس في يوم من الأيام ، فأنت قلق ناذق الصبر لا تستقر على حال ... والآن ماذا أنت فاعل ؟ ... لا بد أن تتصرف بحرص شديد مع تانتا ، فهي فتاة في غاية الرقة والحساسية ، »

وكان ثمة شجار آخر ينتظره في غرفته - شجار مع ماريورا ، ولكنه طيب خاطرها في يسر .

على أنه في المساء ، وهو يوازن بين الحسائر والأرباح في يومه ذاك ، شعر بالرضى .. وما لبث أن تحقق له الخلاص بسبب حدث لم يكن في الحسبان - فقد غضبت تانتا ، وانتهت العلاقة بينهما .. ولم تحضر في اليوم الثاني ، ولا في الثالث ، فأنهى كل شيء .

وذات يوم ، وكان يوم سبت في مطلع شهر فبراير ، اضطر تيتو أن يكتب مقالا هاما من أجل الجريدة ... وجاء ديليكيو بنفسه ، فألقى إليه بالتعليقات اللازمة .. وحرص الشاب على أن يخرج بشيء غارق للعادة ، حتى يدل رئيس التحرير على قدره .. ولهذا سرسورا بالغاً حين أخبرته السيدة الكسندريسكو بأنها ذاهبة مع جينيسا في زيارة لوالديه ، وأنهما سيأتان خزان هناك ، وأن عليه أن يلحظ البيت . وأن يعلق الباب ، ويغني المفتاح في مكانه المجهود لوخرج ..

وخلع الشاب بذلته . ولبس جلبابا عتيقا ، وانتعل شنباً رخيصاً ، واف لنفسه عدة سمائر ، ثم شرع في العمل .. وعم الدفء الغرفة .. وكان قد أشعل نارا صغيرة ، أخذت تظلي في موقد من الحديد .. وسرعان ما دمج عدة صفحات في نعومة ويسر . كأنما كان أحدهم يملأ عليه إملاء .. وكانت أفكاره مرتبة منتظمة كأنها حبات عقد فضيد .. والتفت رأسه في غلالة من دخان السجائر الذي بدأ لكثافته وكأنه سحابة من القطن المندوف .. وتناثرت أعقاب السجائر في أرض الغرفة فدلّت على الوقفات التي انقطع عندها وحيه الصحنى .. فلما بلغت الساعة الخامسة ، وبدأ الظلام يخيم على المكان ، كان لا ينقصه إلا فقرة تأخذ بالآلالباب يختم بها المقال .. وأراد أن يستحث تدفق أفكاره ، فأخذ يعيد تلاوة المقال كله ، وهو يردد تلك العبارات التي بدت بليغة طنانة . قال يحدث نفسه في النهاية : أحسنت ! .. شيء عظيم ! مقال حافل بالإثارة ! ..

ولكن هذه الفقرة الختامية استمصت عليه ، وأراد أن يتلصبا في تلافيف مخه فتمض ، وتناول المصباح من فوق الصوان قرب السرير ، ووضع على المنضدة كي يشعل .. ونزع النفاذ في حرص ، ثم الزجاجية ، وهو يعمل فكره باستمرار ولذا هو يبحث عن علبة الكبريت ، خيل إليه أنه سمع طريقة وجلة على الباب .. وفتح الباب ، قبل أن يتأني له أن يلتفت .

« تانتا ! ، هتف بها وقد خجل من نفسه لشدة الدهشة التي انتابته .

كانت واقفة إلى جانب الباب ، ترمقه بعينين واسعتين ، كأنما قد دخلت لتوها بيت وجل غريب لم يسبق لها أن رآته من قبل .

واستأنف هو الكلام ، وقد ثاب إلى نفسه : « ساعيني يا عزيزتي تانتا ... انظري كيف تريني ! لقد كنت أعمل ، وكنت على وشك أن أشعل المصباح ... »

ولإذ هو يتحرك صوبها ، أوقفته بحركة غريزية ، ثم همست بعد لحظات قلائل :
« أكنت تنتظر أحدا ؟ »

وهم بالجواب ، ولكنها أردفته بسؤالا آخر ، وقد ارتسمت على فيها بدمة غريبة : « حتى ولا أنا ؟ »

وهز رأسه نفيا ..

قالت وهي تلقى عليه نظرة أخرى غريبة : « ومع ذلك فماذا قد حضرت ، كما ترى ... » كانت ملتفة في معطفها الشتوي ، وفراء الثعلب حول جيدها ، وقبعة من المخمل على رأسها .. وبدأ وجهها يشع نورا تحدى الظلمة المتزايدة .

« لقد أتيت بالسعادة إلى هذه الغرفة الكثيرة . »

وصب تيتو في صوته رنة رومانتيكية ، كانت مصطنعة وغير طبيعية ، ولكنه كان في صميم نفسه غخلا .. ولم تسمع تانتا إلا لنداء قلبه ، فاقتربت منه مائة يديها ، خضوعا منها لهذا النداء .

« أنا لن أزعجك ، إنما سأكني بالتطلع إليك وأنت تكذب ؛ وحسي أن أكون إلى جانبك ؟ »

« على أية حال ... »

وتهدج صوته ، فقد اضطرب لقربها منه .. وعجز عن أن يستكمل الجملة

التي بدأ بها ؛ فأخذ يديها معا ، وضمها إلى قلبه . . ثم ، دون مزيد من الكلام ، خلع عنها معطفها ، أما هي فقد حسرت قبعتها الصغيرة .

وانسابت الظلة إلى الفرقة خلسة ، فتداخلت الظلال ، واختلطت الحدود . . ولم يبق إلا الشباك المطل على الفناء محتفظا بلونه الشاحب ، وقد تجمعت داخل إطاره رقائق الثلج التي تبهز النظر ، كأنها أسراب الفراش الأبيض الذي أخذ يلاحق بعضه بعضا كأنما يبحث عن مأوى من البرد والظلام .

وبعد برهة سألته : « هل مازلت تحبني ياترى ؟ »

ورد عليها تبتو بفيض من القبل . . وقاطعته هي بسؤال آخر : « هل تتفقد الآن أنى أحبك ؟ »

فأجاب الشاب : « ماساورني الشك في هذا قط . . أنت وحدك التي كنت تشكى في حبي . »

قالت : « ألا ينبغي ل أن أشك في حبك بعد الآن ؟ »

قال : لا

فلما أصبح وحده ، سحب الستارة ، وأشعل المصباح . . ورجع به الضوء الأصفر الباهت إلى دنيا الواقع . . لقد أدرك الآن أن حبه قد سرى الآن في اتجاه جديد . . بفيض بالتبعات ، في وقت هو فيه لم يبرح بعد بداية الطريق . . وليس من شك في أنه أحب تاتنا ، ولكن هل من حقه أن يحطم حياتها ، وأن يربطها بمصيره ، وهو مصير غير مضمون من أى وجهة نظرت إليه . . ثم كيف يتمكن هو من الإبقاء على زوج ، بينما التكفل بنفسه مستقبلا لا يزال مشكلة المشكلات ؟ وأخذ يلتمس لنفسه المعاذير ، فقال إن تاتنا جاءت إليه بمحض رغبتها . وإن كل حب مهما كان قويا ، لا يذتهى حتما بالزواج ، بل هناك حالات أخرى أيضا . . . وتوقف فجأة عن التماس المعاذير ، وقال : أنت وغد ياتيتو !! يجدر بك أن تتخجل من نفسك ! »

لم يستطع جريجور أبوجا أن يثبث في ازيف أطول من ذلك .. فقد أثقلت عليه الوحدة ، كما ضاق من إصرار والده على أنه لا ينبغي له أن يحطم زواجه بسبب سوء تفاهم عادي لا يثبت أن يزول .. وكان هو من التفرز والحجل بحيث لم يستطع أن يذبر والده بحقيقة الأمر .. فقد شعر أن رجولته قد أهينت ؛ وأن خمس سنوات لم تكف لتبيّن له أن يثير في زوجه ما ينبغي من احتشام ، فلا تخونه تحت سقف داره .. ومع ذلك فهو مازال في رية بشأن هذه العاطفة التي يكتبها في صدره . فهو يحاول أن يتلبس لها هذا العذر أو ذاك ، كأنما غرامه بها لم يمت بعد ، أو كأنما كان يترقب عذرا قويا يجعله يمضي سيرته الأولى .. واحتقر نفسه ، وخشى من مغبة ضعفه .. على الأقل هو لن يعاني من الوحدة في صخب حياة العاصمة .

وكان قد انتقل إلى الغرفة التي كان يعيش فيها وهو طالب في بيت خالته حاريوكا ؛ فوجد الغرفة قد أعدت من أجله بعناية فائقة .. ورأت عمته أنها قد أعجبت ، فابتهجت قائلة : « هل أعجبتك يا جريجور ؟ » . لقد هيأتها بنفسى .. وأنا أريدك أن تحس أنك في بيتك ، وألا شيء ينقصك ، حتى لاتندم على ... »

ولم تزد .. كانت تدرك تماما أن جريجور يعلم أنها لا تحب نادينا ، ولهذا لم تشأ أن تأتي لها في هذه اللحظة .. ولكن جريجور رد عليها كما لم يرد من قبل : « أما عن الندم ، فلا تخشى شيئا يا عمتي العزيزة » .

وتواعد مع جوجو أيونيسكو .. والتقى بالنادى في الغد .. وعقدت الدهشة لسان جوجو ، ولم يفهم شيئا .. لقد ذعر أيما ذعر عندما تراه إلى النيا من نادينا .. كيف تأتي هذا ؟ . لقد غال أنهما على وفاق تام .. ولم يشأ بطبيعة الحال أن يقحم نفسه ، أو يقدم النصح في هذه المسائل الدقيقة ، ولكن .. ليس من شك في أنه أحب جريجور ، حب الأخ أخاه ، وسيظل على حبه دوما ، أيا كانت علاقتهما العائلية .. وصحیح أن نادينا كانت صعبة المراس ، فهو ، رغم أنه يستكشف دائما من التدخل في حياة الغير الخاصة ، ولو كانوا أقاربه الأقربين إلا أنه كثيرا ما يتحدث معها ، حديث الأخ مع أخته ، فأخبرها أنها اشتطت في

علاقتها ، وأنها تستغل عطف زوجها وتساعده معها .. نعم لامناس من أن يسأل نادينا ، من أجل خاطر جريجور ، عما إذا كانت قد شرعت في إجراءات الطلاق وأى مرحلة بلغت هذه الإجراءات ، لأنه يدرك حق الإدراك أن جريجور ، بعد أن رحل عن بيت الزوجية ، لن يرغب في الاتصال بزوجه .. والتقى به جريجور في الغد ، في نفس المكان ، فأخطره جوجو أن نادينا ، عقب عودتها من القرية وكان ذلك منذ عشرة أيام ، أرسلت في طلب المحامى أولمب ستافرات ، وسألته أن يشرع في الإجراءات على الفور .. ولعل الأوراق الآن في المحكمة .. وشكره جريجور ، كما حله رسالة شكر أيضا إلى نادينا ، وأضاف أنه سوف يتعجل الأمور على قدر مايسعه من جهد ، لأن من صالحهما معا أن يفرغا من هذه الشكليات على وجه السرعة ، وأن يسترجعا حريتهما ..

وذهب بعدئذ إلى بالولينو .. وكان لا يعرف شيئا عن الطلاق .. وعجب الرجل وتأسى ، كذلك كان شأن ميلاني .. وألحا عليه أن يبقى للغذاء ، ورأى لزاما عليه أن يبقى ، بعد أن لم يعد في وسعه أن يعتذر بدعوى أن ... وكان جريجور قد بنى لنفسه قوقعة تحميه من العطف عليه ، والثناء لحاله .. وقبل أن ينتقل بالولينو من غرفة المكتب الوثيرة إلى قاعة الطعام . لبس مسوح الرسميات وقال : « إذن فالأمر خطير لارجعة فيه يا جريجور !! »

« أو تظن يا عزيزى الكسندرو أننى أهزل في هذه الأمور ؟ »

فقال المحامى بمجد وحزم : « إذن سأتولى أنا هذا الأمر .. وأنا كفيل بأن أحصل لك على الطلاق فى أقصر وقت ممكن .. على أنه بعد برهة عاد سيرته الأولى من المرح والخفة ، وقال : « أنت ترى أن لى شيئا من التفوذ فى حكمة العدل بفضل ما أستمتع به من مواهب متواضعة ! »

فأجاب جريجور يستثير غيظه : « أرجو ألا يكون تدخلك سريعا وحامما على التحر الذى فعلته مع صديقنا الترانسلفانى .. أتذكر ؟ »

وارتبك بالولينو وهلة ، ثم انفجر عتدا فى ود : « حقا يا جريجور ، لم لم تذكرنى به من قبل ؟ لقد نسيت تماما !! أين هو الآن ياترى ؟ .. ولكن ألم

تتفق على أنه يأتي ويقابلني كي ... بالله يا عزيزي ، لماذا لم يأت الفتي ؟

« اتركه وشأنه الآن ، فقد ألقيت به إلى الدرابلول .. » فضحك بالوينو قائلا
« آه ، لقد استوليت عليه خدمة لحزبك ، ثم تأتي وتتهنأ بالمحسوبة والتعجز ! ،
ومحب أبوجا بالوينو إلى المحكمة ، عدة مرات ، حتى يتأكد بنفسه من جليلة
الامر .. فلما انتهى من الإجراءات الشكلية الأولى ، وجد في نفسه الشجاعة
ليذهب في زيارة إلى آل بريديليو .. وعادت به الذاكرة حين قال : « أنا محب
ولمان ! ، فأصنته الذكرى .. ولم يخبر بريديليو بالامر إلا حين انفردا وحدهما ،
ودون أن يطرح عليه سؤالاً من جانبه .. ولم يسأله فيكتور تفسيراً ، رغم
ما اعتراه من حيرة .. ولم تشأ تيكل ، ولأولجا أن تذكر اسم نادينا في أثناء تناول
الطعام .. على أن جريجور ضبط أولجا وهي تسترق النظر إليه في فضول لم تستطع
أن تخفيه .. وتجادبوا أطراف الحديث في شئون شتى بهيجة ، بل لم يخوضوا في
السياسة إطلاقاً .. وكان محور الحديث حفلات الرقص العديدة ، والاستعراضات
والاستقبالات ، والحفلات المختلفة التي عمت بوغارست ، وأعطتها جواً يفيض
بالحياة .. قال بريديليو ، حبا في لإغاظة شقيقة زوجها : « أنا أعتقد أن هذا
الموسم قد نظم خصيصاً من أجل أولجا — فالرقص والحفلات في كل مكان ،

قالت تيكل : « هكذا ينسى الناس همومهم ومتاعبهم » .

واستطرد فيكتور ، فتحدث في جدية أكثر من ذي قبل ، قائلاً : « نعم
ولكني لا أدري هل فاتتك ملاحظة أن الرقصات قد أصبحت حسية منافية للحيمة ،
بل أحيانا يشعر الإنسان بالحجل من مشاهدتها » .

فأجابت أولجا تدافع بشده عن هوايتها المفضلة : « كفى تصنعا !! .. لم لانعترف
بأنك لا تميل إلى الرقص ، وأنتك لهذا تجد فيه كثيراً من المساوىء والعيوب ،

ولم يشترك جريجور في المناقشة ، فقد خشي أن يتطرق الحديث إلى نادينا .
وبعد قد دار الكلام حول المهرجان الكبير الذي نظمته جمعية « أوبول » ، الخيرية
في التاسع عشر من فبراير بالمبنى القوي .. وكان هذا حدثاً بالغ الأهمية بالنسبة
للطبقة الراقية ، فالأسرة الملكية كلها ستكون هناك ، وفي معيتها كبار القوم جميعاً

ولقد احتجز الناس المقاعد كلها ، رغم المغالاة في أسعارها إلى حد فاق كل تصور وخيال . ، ولم يكن مناص من تكرار العرض ، رغبة في إرضاء المجتمع الراقى كله وكان البرنامج يتضمن استعراضا ، قام بتأليفه ثلاثة من الكتاب الفكهين للغاية من أهل الطبقة الراقية ، وكان لا يقوم بتمثيله إلا الجيلات من النساء والفنيات وأخذت أولجا دورا ، هو الرقص بطبيعة الحال . فتمشت فيها حى النشاط .

ولما تميت السيدة ماريوكا كونستانتينسكو أن الطلاق وشيك الوقوع خلعت برقع الحياء ، وأخذت تقص على ابن أختها كل ما عرفت عن نادينا ، فقالت إنها أمسكت عن الكلام من قبل لأنها لم تثنأ أن تكون سبيا في تعاسته ، أو تكون لها يد في تحطيم زواجه .. ثم هى قد حذرته من الزواج بها — ولكنها فعلت ذلك بلباقة طبعها ، لأن النصيح في هذه الأحوال أمر غير مرغوب فيه .. ذلك أن نادينا وهى لا تزال فتاة ، كانت كل الدلائل تشير على نوع المرأة التى ستكون ...

وما من أحد بطبيعة الحال ينكر على فتاة في ميعة الصبا أن تكون أليفة ، فاتنة ، زاهرة بالحوية ، ولكن هناك حدود على كل حال .. أما نادينا فقد تجاوزت حدود اللياقة كلها ، فصدمت مشاعر الناس أينما ذهبت ، بأساليبها الجنونية وبهذه الشرذمة من المعجبين الذين يحرون في أعقابها .. أما أن تستغل حب زوجها لها حبا أعمى ، فلا تستنكف من أن تتخذ لها عشيقا في السنة الأولى من زواجها — هذا إن لم يكن في الشهر الأول والحق يقال .. ثم تبع ذلك عشاق آخرون — كانت حالته تعرف منهم خمسة على وجه اليقين ، وكان آخرهم هو رمول برومارو الذى صمته إلى الخارج في الصيف الماضى ، واقه وحده يعلم على نفقة من كان ذلك . ومن الناس من قال إن برومارو كان يعيش على مكاسبه من مائدة القمار وقطع آخرون بأنه كان على سعة ، وأن نادينا لاشك كانت تمدد بالمال .

وحاول جريجور أن يحد من سيل هذه الأسرار التى أخذت تفيض بها إليه ، فهو منذ أن قرر الطلاق من نادينا ، لم يعد يعبا بما تفعله الآن ، بل ولم يبأل بما فعلته من قبل ، ولم يشأ ، حفاظا على كرامته الذاتية ، إلا أن يتذكر تلك الأشياء التى لا يسهل منها .. ولكن محاولته ذهبت هباء ، فقد أبت خالته ماريوكا إلا أن تعدد له أوثاك الرجال الأربعة الذين نالوا خطوة من نادينا .. وكانت تاتى كل

يوم ببعض التفاصيل ، أو الأنباء الجديدة التى تلقىها توا من صديقة مخلصه ، الأمر الذى جعل جريجور يتحاشاها ، ويفكر فى الانتقال إلى فندق ، حتى بعيد إلى نفسه راحة البال .

ومن حسن الطالع أن أباه وصل إلى بوخارست فى نهاية شهر يناير ، وحاولت ماريوكا أن تذبّه بأخر الأخبار عن ناديسا ، فاستمع إليها ميرون برهة وهو مشدوه ، ثم إذابه يقاطعها فى حدة ، قائلا : « حبيبك هذه الأثرثة يا ماريوكا ، ولا يلقى بك ، وأنت أرملة جنرال روماني ، أن تخوضى فى هذه الإشاعات التى لابد أن تتردد حول كل امرأة جميلة . . ولكنك تشبهين زوجتى الراحلة ، رحمة الله عليها ، وليس هذا عجبا ، فأنتما شقيقتان . على أنك تحسبين أن من واجب النساء جميعا أن يشغلن أنفسهن بشئون المطبخ ، أو يحكفن على حياكة جوارب أزواجهن . . . لقد تغير الزمن يا ماريوكا ! » .

واعترضت السيدة غاضبة : « ولكن جريجور يسعى إلى تطليقها باميرون ! » وكانت ترهب ميرون أيوجا بعض الشيء ، فقد كانت تعرف فيه حبه للتسلط ، على حين أنها لم تكن ترهب الجنرال ، فقد كان حلو الشئائل ، لا يدور بخلفه قط أن يفعل شيئا غير ما ترى .

قال الوالد ، وقد أُنِي أن يسمح لولده بمقاطعته : « أترك تسمعين لجريجور ، وهو ليس إلا غرا صغيرا ؟ . . ثم من قال لك إن التقدم بطلب الطلاق معناه أن الطلاق قد وقع فعلا ؟ . . ما لم يصدر الحكم فعلا ، يا عزيزتى ماريوكا ، فالأمر لا يبدو كونه سوء تفاهم بين الطرفين ! » .

وكان ميرون أيوجا قد ترك كل التدابير الخاصة بمفرد العمل الجديدة معلقة فى الهواء ، ولم يقطع فيها برأى فى آمارا ، وهذه مسألة أصبحت تنسم بالدقة والحساسية الآن ، فقد بلغت إشاعة تقول إن الفلاحين يرغبون فى تغيير شروطها . . ولكنه كان فى شغل بأمر ضيقة بابارجا ، واتوى أن يضع يده عليها ، أيا كانت التضحيات . . وبدا له أن اعترام جريجور على الطلاق هو العقبة الكأداء التى يتحتم عليه أن يتخطاها .

على أنه قبل أن يذهب إلى زيارة نادينا، عزم على أن يميل على دوميسكو في نيك رومانيا، فينبادل وإياه حديثاً تمهيدياً، ثم بعدئذ يجرى مفاوضات معه بعد أن يعلم من نادينا السعر الذى تطلبه، والشروط التى ترتضيها . . وصحبه جريجور حتى بلغا المصرف، فقد كان هو على موعد مع بالولينو . . وأخذ الشيخ، وهما يقطعان الطريق، يتفحص بدقة الإعلانات والملصقات العديدة التى تعلن عن الحفلات الراقصة، وعن غيرها من أما كن اللهو .

قال ميرون فى احتقار : « لاهم للناس هنا غير الاستمتاع فأنت حينما تذهب لا ترى إلا دعوة إلى اللهو والفجور . . . هم لا يبالون بشيء — أما نحن فنسكد ونسكدح لنوفر لهم الولائم والحفلات ! » .

وتألق وجه دومييسكو بشرا عندما شهد الشيخ، واحتضن ميرون فى حماس تجاوز الحد، إذا قورن بما تعود عليه من تحفظ واتزان . . وثبت نظارته ذهبية الحوافى، علامة دلت دواما على عمق العاطفة التى تغلج فى أعماقه، ثم تغيرت نظارته الجافية فى العادة فاستحالت نظرة باسمة . . وقال ميرون أبوجا بعد عدة دقائق صرفاها فى أسئلة وأجوبة تمت عن ألفة وود : « أراك مشغولا جداً يا كوستيكا، وأنا لم أحضر لأتقل عليك . . على أننا سنلتقى فى القريب، وتحدث فى الأمر ملياً . . . وأنا لا أريد أن آخذ من وقتك أكثر من دقيقتين . . هالك الأمر وما فيه يا كوستيكا ! » .

وقص عليه قصته واستمع إليه دوميسكو بانتباه عميق . . ولحظ ميرون أساريره وهى تتغير . . وأخيراً تكلم المدير وقال : « حسنا يا عزيزى ميرون . . الصداقة التى بيننا قديمة العهد جداً، وهى لا تحول بينى وبين إعطائك جواباً فورياً صريحاً . . . » .

وكان الجواب الصريح هو الرفض البات . . قال إن الوقت ليس وقت شراء الأرض، ولعمري عند ميرون منها ما فيه الكفاية، وحسبه أن يجد الصحة والمافية ليتمكن من الإشراف عليها . . على أنه يرفض حرصاً على مصلحته هو . . ولو أنه لم يكن صديقاً صميماً لميرون، أن يسمح له بأن يقترض أى مبلغ يشاء، فالمصرف يعلم أن الضمان مكفول لأن من اليسير بيع ضيعته وفاء للدين . . ولكن

دوميسكو يؤثر من جانبه أن يحزن صديقه اليوم ، بدلا من أن يكون شحاذاً في القدر ، فهذا ما تقتضيه دواعي الصداقة والوفاء .

« عجبى على تصرفاتك يا ميرون . . أترك تعيش في دنيا غير دنيانا ؟ أترك لا تسمع ولا ترى شيئاً ؟ ألا تحس كيف تتأزم الأمور ، وكيف أن كل شيء ينهار ؟ ربما نستيقظ غداً أو بعد غد فترى الضياع الكبيرة وقد انتزعت ملكيتها . . وعندئذ ماذا تفعل يا ترى لإزاء التزاماتك حيال البنك ؟ . . وهذه الإشاعة تتردد وتتردد في إلحاح . . وهذا ليس رأيي وحدي . . وإنما أنا أقرر حقيقة واقعة . . ثم إن ثورة الفلاحين أمر لا شبهة فيه . . لا — لا تحسب أن في مقدورك أن تهون من الأمر . ربما الأمر ليس كذلك في الناحية التي تعيش فيها ، ولكن الثورة حقيقة واقعة . . وربما كان هذا العامل هو بالضبط الذي أفضى إلى فكرة نزع ملكية الأراضي — أنا لا أدري . . ولكن ربما كان الأمر كذلك . . على أنى من جهة أخرى لا أقول بأن الخطر محقق وشيك الحدوث . . فأنا لا أدري ، ولكنه قائم موجود . . ولست أظن ، والحالة هذه أن من صواب الرأي الإقدام على شراء الأرض . . فالأرض أصبحت قضية غير مضمونة ، وستظل كذلك إلى أن ينجلي الموقف ... ولهذا ؛ لا يتخذ منك هذا المرح الذي يدب في أرجاء بوخارست . ، إنه عرض من أعراض المرض ، ووباء الملاهي والمراقص والحفلات دائماً يسبق شرأ ما ، أو هو يبرز هذا الشر . فالواجهة التي تبرق بريقاً خاطفاً تخفى وراءها دائماً شيئاً عفناً . أما البناء المتين فلا يعنى بالمظهر ، ولا يحاول أن يجتذب النظر بواجهته البراقة . . أنا لا أدين بالأحزاب السياسية ، بل ولا أهتم بما يشجر بينها من خلافات . . إنما أنا هنا في المصرف ، أحس نبض الحياة قوياً دافقاً ، أما نبضنا فهو يبرق بغير انتظام . . نعم ، إن كياناتنا كله يهتز يا ميرون ، ولا بد أن نتذرع بالحكمة حتى نغمد العلاج .

ولم يقتنع ميرون ألبتة ، ولكنه ازداد ضيقاً . وحاول أن يدارى ما اتابعه من ضيق ... وافترقا ، على لقاء آخر ، فقد كانت هذه مقابلة تمهيدية . . كان ميرون واثقاً من أن دوميسكو لن يصمد معه إلى النهاية .

قال ميرون يحدث نفسه : مسكين كوستيكا . . إنه رجل طيب ، ولكنه

للأسف محدود التفكير — ولكن هكذا كان شأنه دائما منذ أن توطدت بيننا أواصر الصداقة والود ،

وتلاشى غضبه أسرع مما كان يتوقع .. والواقع أنه ما كان ينبغي له أن يتورط مع دوميسكو قبل أن يسوى أموره مع نادينا — فهناك كانت العقبة الكاداء .. حقا ، كان في مقدوره أن يحصل على المال من أى مكان فى رومانيا ، ولكن الامم من ذلك هو أن يتمكن من استخدام هذا المال ،

وكانت نادينا فى انتظاره ، بعد أن علمت بأنه آت .. وكانت الجبال مجسما .. واستقبلته بحفاوتها المألوفة كأنما لم يحدث ما يكدر الصفو منذ أن افترقا فى أمارا قبل ذلك بشهر .

قالت وقد تلاعبت على شفيتها بسمه صريحة متسائلة بمجرد أن دخلت به إلى غرفتها الأثيرة لديها : « ليتك تبقى للغداء معى يا والدى ، إن لم يكن لديك مانع ! ،

فقال ميرون فى غبطة بالغة : « يسرنى هذا جدا بالطبع يا نادينا ! ،

وأخذا يتحدثان فى المسألتين اللتين جاء ميرون من أجلهما ، حتى قبل أن يجلسا إلى الطعام .. أما فيما يختص بموضوع الطلاق فقد عرض عليها الصلح ، وهذا الاقتراح من جانبه هو ولم يفوضه فيه جريجور ؛ على أنه يضمن لها أن يقنع ابنه به لو وضعته موضع نظر .. ورفضت نادينا مبسمة ، ولكن فى حزم . وقالت إن المباراة لم تكن من جانب جريجور ... كان بودها لو واصلت العيش معه ، برغم عدم رضاها عن نواح كثيرة ؛ ولكن الجفوة التى بينهما الآن قد أصبحت حديث الناس .. فقد علم الناس جميعا أنهما على وشك الطلاق ؛ وأن الصلح بينهما الآن سيجهلها هزء وسخرية .. ثم هما اليوم يستطيعان أن يشقا طريقهما فى الحياة ، أما فى الغد فقد يكون الأمر أكثر مشقة .. وواصل ميرون جهوده محاولا إقناعها ، ولكنها قاطعت قائلة : « لإصرارك هذا يرضى غرورى يا والدى العزيز ؛ وإنه الحق برهان على حبك لى .. وأنا شاكرة لك جدأ ، ولكنى أرجو ... » (وهنا ضمت يديهما معا كأنما تبتهل فى صلاة) « أرجو أن تعطينى أسمى برهان على حبك لى .. ولكن لنتكلم فى شئ آخر ،

« إن ما أردت أن أحذرك فيه لا يمكن أن أذكره الآن لو أن قرارك نهائى ولا رجعة فيه ، قالها الشيخ فى أسى بالغ .. واستأنف الكلام بعد برهة قصيرة قائلا : « أنا أستطيع أن أبحت موضوع بابا روجا مع زوج ابنى ، أما أن أبحت مع مطلقة ابنى فأمر محال ! »

وتبسمت ناديتا فكشفت عن أسنان من اللؤلؤ النضير ، وقالت : « ولكنك على خطأ بين يا والدى العزيز » .

على العكس ، هو لا يستطيع أن يتكلم عن الضيعة إلا مع زوج ابنته السابقة .. ثم هى بعد لم تقطع رأى بشأن بيع الضيعة ، بل لأنها لو ظلت فى عصمة جريجور فلن تبقيها .. أما الآن ، فهى عندما تصبح حرة التصرف فى أمورها فلسوف تفرغ من مسألة بابا روجا .. بل لعل من السخف أن تستمر فى علاقات عمل تربطها بجريجور ، ولو كان هذا العمل فى جبرته .. نعم ، إنه ليسعد ما أن تتخلص من الضيعة ، ولكنها لن تستطيع أن تقدم على شيء ما لم تحصل على الطلاق ، لأنها ستضطر حينئذ إلى الحصول على موافقة من زوجها .. على أنها ترجو أن تنتهى هذه المشكلات فى مدى شهر على الأكثر ، وعندئذ ستسرع إلى القرية ، وتلبث فى بيت جوجو بليسيى ؛ ولن تترك القرية حتى تنتهى من مسألة البيع .

فهب الشيخ : « أنت ، دون مجاملة ، امرأة حاذقة حقا فى شئون الأعمال ؛ ويسعّب علينا أن نتعامل معك ! »

قالها هازلا وهو يبتسم ؛ ولكنه لم يكن راضيا البتة .. لقد فشلت كل الجهود التى بذلتها كي يقتصب منها وعدا محمدا على الأقل .. . ولكن ناديتا انسابت من بين أصابعه فى دهاء وحذق كما ينساب الزمبق . وبدا له أنه قد استخلص منها أكثر من ذلك فى المقابلة الأولى بأمارا ؛ على أن هذه المقابلة لم تكن تدعو للرضى كذلك .. كان كل همه عند ذاك أن تكون له الأفضلية فى الشراء .. ولكن لا نكران فى أن الطلاق جعل كفاحه فى هذا السبيل أكثر مشقة .. وهذا هو السبب الذى جعله لا ينكص عما عقد العزم عليه .. وما كان الرجل يخشى العقبات ؛ ولكنه أراد أن يعد لكل طارئ عذته ؛ ومن ثم ذهب يستشير عدة مصارف أخرى كان له بها أصدقاء .. لم يتلق منهم رفضا قاطعا .. (سنرى ..) سننظر فى الأمر .. . تحدث فى هذا فيما بعد (..) ؛ ولكن المعاذير التى تقدم بها دوميسكو تكررت ؛ كلمة كلمة تقريبا ، كأنما كانوا جميعا على اتفاق

فما بينهم .. وعاء يستأنف محادثات غير رسمية مع دوميسكو ، جلسا إلى المائدة ،
لا ثالث لهما ؛ لحصل منه على وعد يشوبه الغموض .. فقد كان كوستيكا يحبه
حبا جعله عاجزا عن الاستمرار فيما ارتأى من رفض قاطع .. كان كلاهما يأمل
أن ينجح في إقناع الآخر ، دوميسكو يريد أن يقتنع أيوجا بالتخلي عن فكرة الشراء ،
وأيوجا يأمل في أن يحصل من دوميسكو على عون يساعده على الشراء .

وأدرك جريجور ما كان أبوه يجاهد في سبيله .. وعلم الشاب من نظراته ،
ومن الكلمات القليلة التي تساقطت منه ؛ أنه غير راض كل الرضى عن النتائج التي
توصل إليها .. وكان الوالد قد أبدى رغبته عند وصوله في زيارة آل برديليانو ،
فلما انقضى أسبوعان أو نحوها ، انطلقا إلى هناك سويا .

وكان الوالد ، شأنه شأن ابنه ، مولعا بهذه الأسرة - « ناس طيبون » ، هكذا
تمود أن يطلق عليهم ؛ وقد جال بخاطره والد فيكتور في المسكان الأول ، فهو الذي
كانت تربطه به أوامر المعرفة .. وكان اهتمام أولجا بوستيلينكو منصباً كلية على
استعراض « أبول ، وهو الاستعراض الذي تقرر أن يقام في مدى أيام قلائل
فقط ، فاغتازت أن وجدت كل واحد هنا يتحدث في الزراعة ، لاشئ إلا لبيع
الهبجة في نفس ميرون .. وكان ميرون متأثراً بالحجج التي ساقها دوميسكو
(رغم أنه يميل إلى الاعتقاد بأن هذه الحجج لا أساس لها) ، ولكنه مع ذلك
كان يتلسس من يؤازره في مناهضتها ؛ ولهذا حزن عندما لم يجد أحداً يقف إلى
جانبه .. قال له برديليانو أيضاً إن هناك غليانا بين الفلاحين ؛ وربما لم يبلغ هذا
الغليان الحد الذي تقول به الشائعات في بوخارست ، ولكنه موجود على أية حال ..
ففي قريته هو ، قرية ديلجا ، فيما تقول التقارير التي تلقاها من المشرف الذي يعمل
عنده ، كان الفلاحون يسعون إلى الحصول على عقود جديدة ، أكثر ملامة لهم
بطبيعة الحال . وكان الأشراف والمترمون من أهل مولداقيا ، الذين تحدث معهم ،
وكانوا جميعا قوما مترنين على معرفة وثيقة بالفلاحين ، قد صوروا له الموقف هنا
على أنه موقف يدعو إلى أشد القلق .. وقام هذا كله دليلا على أن الظاهرة ظاهرة
عامة ، وأن نفس الأسباب لابد أن تفضي إلى نفس النتائج في جميع أرجاء البلاد ...
والشواهد على ذلك قائمة ، بل هي ظاهرة للعيان في كل مكان . ولكن دون أن

تكون قاطعة مانعة .. فإينطبق على ولاية ، قد لا ينطبق بالضرورة على غيرها من ولايات ، حتى وإن كان ...

واعترض جريجور محتدا ، بعد أن كبح نفسه زمنا حتى لا يقف موقف المعارضة من والده ، قائلا : « نحن لا نريد أن نرى الأشياء على حقيقتها يا فيكتور .. إن الفلاح يخسر في كل مكان بسبب نظام العقود الذي فرض عليه قسرا .. وإن ديونه لتراكم سنة بعد سنة ، حتى بلغت ما بلغت من أبعاد حائلة لاسيلا إلى احتلالها .. ومعظم الناس في بلدنا غارقون في الديون ؛ ولو استمروا يعملون ويكدحون حتى العام القادم ؛ فهم لن ينجوا عائدأ لقاء عملهم ، بل ولن يتمكنوا من سداد ما عليهم من ديون .. وإذا كان هذا هو المصير الذي ينتظر الفلاحين ، فلا عجب أن نراهم قلقين مضطربين ؛ فهذا ليس إلا أمرا طبيعيا لا شذوذ فيه ! ،

وندت عن ميرون أيوجا بسمة خفيفة ساخرة للأقوال التي صدرت عن والده ، وإذا به يخاطب بريدلينو ، كأنما كانت هذه الأقوال غير جذيرة بالاعتبار : « إن الفلاحين لا يرقدون على فراش من الورود لأن الملاك أيضا في موقف عصيب ، ولأن الزراعة كلها تعاني من الخراب والاضمحلال في رومانيا .. لقد مرت بنا سنوات عجاف ، ولم تنتج الأرض شيئا ذابال ، ومع ذلك لم يثر الفلاحون ؛ بل تحمّلوا متاعبهم ، وصبروا عليها كما صبرنا نحن ! .. وهذا الموسم ، والحمد لله ، صادفتنا سنة طبيعية .. ولهذا نرى أولئك الذين يتمتعون بمسكة من حسن التصرف قد حصلوا على ما يكفي ليخطى مطالبهم ؛ أما الكسالى والسكرارى فلم يحصلوا على شيء .. هكذا كان الشأن منذ أن بدأت الخليفة .. ثم كيف يستساغ القول بأن هناك تدمرا خطيرا في آمارا ، والفلاحون هناك يهرعون لشراء عربة نادينا ؛ وهكذا يضعون أنفسهم موضع المنافسة مع غيرهم ؟ .. الحق ، إن الداء له علة أخرى ، أيها الأصدقاء ، مهما أبديت من آراء .. إنما موطن الداء هو ضعف الحكومة ؛ فهي تفض الطرف عن السخف الذي يقول ؛ أى غر انتهازى ينصب نفسه للدفاع عن الفلاحين ... حسب الحكومة أن تأخذ هؤلاء السادة ، الذين تدهلوا لجأة بحب الفلاح المسكين ، فتمسك بهم من أفقيتهم ، وتزج بهم في السجون ؛ .. وعندئذ سترون كيف يتلاشى فورأ هذا القلق الذى يدود بين الفلاحين .. »

قال فيكتور مؤيدا: « طبا ، إن المعارضة تجنى المكاسب من ضعف الحكومة ؛ وهذه لأنهم إلا بالخلافات الشخصية التافهة التي لا تنتهي ... على أن اللوم يقع على المعارضة أيضاً حين تشترك في هذا الاضطراب الفادح ! »

فصاح ميرون عتداً : « لا تقل الفادح يا سيدي ... بل قل المجرم ! : فاية جريمة أشد هولاً من إذكاء شهوة الجماهير الجوعى ! وهذا بالضبط ما يفعلونه ! .. إنهم يذلون الوعود للفلاحين ، فيعدونهم بأن يعطوهم الأرض ، وذلك بقصد بذور بذور الشقاق بيننا وبين الفلاحين ... وهم لا يعيئون بأن يثيروا فتنة في البلد بهذا العمل ، ولا يكتفون لمصالح البلد ، إنما كل ما يمتهم هو مصلحة الحزب الذي يفتنون إليه .. هؤلاء هم السادة الذين يعيشون في المدن ، وهم الذين يستغلوننا أسوأ استغلال .. لأنهم لا يشبعون أبداً .. على أنهم لم يتمكنوا بعد من قهرنا ، لا بمصارفهم ، ولا بقروضهم ، ولا بصناعاتهم .. نحن فقط الذين نقف في وجوههم .. ولهذا ، لما عجزوا عن الإطاحة بنا بهذه الطريقة ، أخذوا يدافعون عن الفلاحين ضدنا ، وهم الذين لم يتخطوا حدود المدن مخافة أن تنسخ أحتيهم .. لأنهم يريدون أن يوزعوا أرضنا بين الفلاحين - ولكن لم يخطر ببالهم أبداً أن يوزعوا الأرباح التي يجنونها من مصانعهم ومصارفهم .. والحقيقة هي أنهم يريدون قتلنا ، وبذلك يحرمون الفلاحين من قادتهم ، ومن ثم يندو الفلاحون قطيعاً بغير قائد ، فيكونون تحت رحمتهم .. وهذا أمر مريع تعافه النفس ، وبخاصة عندما ترى أننا ، نحن المحكوم عليهم بالموت ، لا نفعل شيئاً غير التصدق برعاية الحزب ، وروحات الحكومة وغدواتها ، والدسائس التي يكيدونها ، إلى آخر هذه السخافات ! »

قال جريجور مبتسماً ، وهو يحاول أن يلطف من الجو الذي خلقته غضبه أبيه : « ما كنت أحسبك يا أبي مهتماً بالسياسة هذا الاهتمام ! »

فأجاب ميرون بلهجة رقيقة ، فقد أدرك هو نفسه أنه قد تكلم في عنف تجاوز الحد الذي ينبغي لحوار يدور حول مائدة طعام ، قائلاً : « الجريمة ليست سياسة يا جريجور ! .. الجريمة جريمة ... وما يفعلونه ليس بسياسة ، إنما هو جريمة بحتة فونها .. »

فقال بريديليو ، ملطفاً من التوتر : « الحق أنهم لا يدنبون بأي مبدأ من

المبادئ ، وهم لا يتورعون عن إثارة فتنة في رومانيا ، لو كانت هذه الفتنة تخدم مصالح حزبهم .

وتدخلت السيدة بريديليانو فطرقوا مواضيع أرق من حديث السياسة ، ثم تطرقوا إلى مهرجان أبول الكبير ، فابتهجت الآنة أولجا أيما بهجة .. على أن ميرون ، بعد وهلة ، وجد شيئا يعارضها فيه ، قال : « أنا لا اعترض لى على مهرجان أبول ؛ بل قد يحقق المهرجان غرضا لا بأس به ؛ ولكن هناك على وجه العموم مغالاة في الترف والهلو في بوغارست .. بل يخيل للمرء أن الناس يوغلون في الفجور على نطاق واسع .. ولست أدري كيف يتسق هذا مع جو التعلق الذى يعم الريف .. وبعض الوقار لاضير منه .. طبعا ينبغي على الحكومة كلها أن تضع حدا لهذه المغالاة .. ولا لوم على الناس ، وإنما اللوم على الحكومة .. ترى ماذا يقول الفلاحون لو شهدوا هذا الإسراف الدائم في الهلو والمرح ؟ .. لأنهم لا يجدون ما يكفى لإعداد عصيدة المماليجا ؛ أما الأشراف فإنهم يشكون التخمّة من كثرة الولائم والحفلات !

وثاب إلى رشده فجأة ، فابتسم في حرارة ليزيل الأثر العنيف الذى أحدثته كلماته .. وأخيرا تطف في الحديث مع أولجا ؛ وكانت قد فزعت أول الأمر من بروده وصرامته ، وتبسط معها إلى حد أنها تجاسرت على دعوته لحضور المهرجان لمشاهدة رقصها .. فأجاب ميرون مبتسما : « يؤسفنى أننى لن أتمكن من الإعجاب بهذه العادة الساحرة ، فهناك حفل آخر ينتظرنى في القرية ، وهو حفل ليس بمثل هذه البهجة ، ولكنه حفل لا يمكن تأجيله .. على أننى سأترك جريمحور مكانى ، ليصق نيابة عنى !

وذهب جريمحور فعلا إلى المهرجان الكبير ، شأنه شأن غيره من أهل الطبقة الراقية .. وكان الجمع المحتشد من أروع ما شهد المسرح القومى . حتى الشرفات ، حيث كان عدد المقاعد محدودا ، غصت بأصحاب الاسماء العريقة .. وكان هناك لفيف من سيدات اللجان يهرعن هنا وهناك ، ويتهاشن فرحات مع صديقاتهن في غدوهن ورواحن .

« لسوف تغلذ هذه الليلة بحروف من ذهب حوليات رومانيا ! »

ونظر جريجور خلفه ، قبل أن ترتفع الستار ، فشهد تيتو هيرديليا غير بعيد وراءه .

قال مقتبعا : « مرحبا بك .. ماذا تفعل هنا بين زمرة الاشراف ؟ سأراك فيما بعد في فترة الاستراحة ! »

وكان تيتو قد حضر في مهمة رسمية بوصفه ناقدا مسرحيا . . . وكان يلبس بذلته السوداء ، ولكنه شمر رغم ذلك بالخرج بين هذا الجمع الغفير من لابسى بذلات السمرة . . . على أنه استعداد فخته نفسه عندما رأى زملاؤه يلبسون مثل لباسه . بل كان فيهم من لبسوا ملابس النهار ليدلوا على أنهم قد حضروا تأدية لواجب ، لا ابتغاء للمتعة .

وكانت نادينا تلك الليلة عط الأنظار . في رقصة الفجر . وكانت آخر صيحة في باريس . وكان رءول برومارو يزاملها في الرقص ؛ واقد أديا الرقصة بهارة فائقة ، الأمر الذى جعل عليه القوم من المشاهدين يطلون إعادتها مرة أخرى ، ويصفقون تصفيقا متواصلا . . . ولكن تيتو هيرديليا لم يستخفه الطرب -- قال إن « السيدة نادينا ، -- فيما أطلق عليها الآن ، كانت فائقة على وجه اليقين ، ولقد أدت دورها أداء رائعا ؛ ولكنه رأى من الأنسب لها أن تؤدي دوراً أقل خلاعة ، فهذا أليق بمسكاتها . . . واقد أخذ يرقب ملاح جريجور في فضول ، ونادينا تلف وتدور مع رءول ، ولكن جريجور تطلع إليها دون أن تطرف له عين . شأنه شأن أى مشاهد آخر .. إنما انصب إعجاب تيتو على تلك الحنساء التى التفت بها حاشية من الراقصات الرومانيات ؛ ترى من تكون تلك الحنساء ؟ . . . ولم يجرؤ على شراء برتاج الحفل ، لأن البائعات كن جميعا من السيدات اللاتى توقفن ثمنا خيالها مساعدة لجميعات البر .

والتق الشاب بجريجور في فترة الاستراحة ، وانتحيا سويا أحد الأركان ، ليدخا سيجارة . . . لقد سره أن يشهد عرضا ، أعده عليه القوم ، وكان كله باللغة الرومانية ، لا بشتى اللغات الأجنبية . . . وأخذ يلح في إبداء هذا الرؤى أمام جريجور ، كأنما

حسب أن جريجور كان يقف منه موقف المعارضة . . حقا ، لقد كان الطلاب على حق عندما اعترضوا على اللغات الأجنبية . . وأراد ، توضيحا لفكرته ، أن يذكر على وجه الخصوص النقادة التي رقصت في اللباس الروماني ، وأسف لأنه لم يعرف اسمها حتى ينوه في مقاله بجريدة درابلول .

فسأله جريجور معاتبا : « هل تقصد أن تقول إنك لم تعرف الآنسة أولجا بوستيلينكو ؟ . . إنها أخت زوجة بريديلينو . »

وظهر بريديلينو في تلك اللحظة . فوشى جريجور برفيقه ، وقال : « رأيت ؟ . إنه لم يعرف أولجا ؟ . إنه لم يعرف من تكون تلك الثمينة التي أعجب بها دون النساء جميعا ، والتي أراد أن يزجى لها المدح في جريدته . »

فقال فيكتور وهو يصاحفه : « أنا واثق أن أولجا ستطرب غاية الطرب ياسيد هيرديليا ! . . لايم أنك لم تعرف عليها . . فلن هذا معناه أن عليك أن تكثر من زيارتنا حتى لا تعود قفنا سانا . »

وشرعوا يحللون صاحب كل دور بالتفصيل ، وقد أغفلوا نادينا وبرومارو بطبيعة الحال . . وإذ هم مستغرقون في النقد والإطراء بهمة وحماس ، هب عليهم جوجو أيونيسكو بفتة ، وكان يتصب عرقا لشدة حماسه ، فسألهم في لفة كاسبق أن سأل كل واحد التقي به من قبل : « مارأيكم في نادينا ورومول ؟ . . ألم يكونا رائعين ؟ أية موهبة خارقة ؟ . ياله من نجاح ! . المسرح كله يهتز طربا ! . والثريرات تتأرجح من شدة التصفيق ! »

ثم لحظ المخرج الذي ارتسم على وجوه المستمعين الثلاثة ، فتبين لجأة زلة لسانه وحاول جاهدا أن يستدركها ، فاستأنف الكلام بعد برهة في نفس الالهجة المتحمسة « ألا ترون أن هذا الموسم موسم رائع ؟ . . خارق للعادة ؟ . . أنا لأذكر أنني شهدت هذا العدد العديد من الحفلات والرقصات التي شهدتها هذا الشتاء ، لم أنتي مضطر أن أحضر هذه الحفلات كلها ، لأن نادينا . . . »

وأمسك عن الكلام . . لقد ذكر نادينا ثانية ، فسقط في زلة أخرى . . وكان سي* الحظ . . وفتر حماسه ، فأضاف وهو يمسح جبهته متهدأ : « في رأي أن هذا شيء متعب ، والظاهر أن كل واحد قد طاش عقله ! »

لم يكن في مقدور أيون برافيلا أن يشترك صراحة مع أولئك الذين سعوا إلى شراء باباروجا... وخشى أن يستشف الشريف ميرون خيانة نفسه، وعندئذ لا يقتد وظيفته كمعدة لحسب، بل إن الشريف قد يحيل حياته في القرية إلى جحيم لا يطاق، ولا يدرى غير الله ماسوف يقدم عليه حينذاك — صحيح أن الشريف طيب القلب وأنه حلو الشائل طالما كنت تمشي معه، ولقد استفاد برافيلا كثيراً من ولائه له، وخفضه جناح الذل، ومع ذلك فهو لم يستطع أن يقف جانباً، وبكتفي بالنظر، إذ لا ضير لإطلاقاً من الحصول على قطعة من الأرض يملكها الإنسان.. ثم إن هذه فرصة لا تتاح كثيراً.. ولهذا أرسل في طلب لوكا تالابا، عندما سمع أن الشريف ميرون قد ذهب إلى بوخارست، واتفق معه على أن يذهب رجال القرية أيضاً، فيقابلوا السيدة، ويعرضوا عليها الأمر.. ولو فرض أن السيدة لم تعمل على مرضاتهم، فإن عليهم أن يتقدموا بشكوى إلى المسؤولين.. فطالما ساعد هؤلاء الفلاحين الذين وفدوا من جهات أخرى، وعاونهم على شراء الأرض، وتوزيعها بينهم.. يضاف إلى هذا، أن لوكا، عندما كان يتولى منصب العمودية، وصله مرة مفشور من الوزارة يهيب بالفلاحين أن يتعاونوا على شراء الأرض، ويمجسهم بتأييد أولى الأمر، ومن الخير أن يذهب أكبر عدد من الناس، حتى يدرك من يبيده الأمر أن الناس جميعاً هم الذين يطالبون بالأرض.. رغم أنها تكلف كثيراً، وأن لابد لهم أن يمتصروا المال من بين برائن فقرهم.. وعرض العمدة رغم ما عرف للناس عنه من بخل، أن يدفع أجر مسافر فقير، ألا وهو بيتر، ابن سماراندا، فهو عون كبير، لأنه قضى في بوخارست ثلاثة أعوام بالجيش.

فلما عاد ميرون أيوجا إلى آمارا، انطلق الفلاحون، وكان عددهم سبعة، صوب بيردي، حيث استقلوا القطار من هناك. ووصلوا إلى بوخارست في الصباح وبلغوا سترادا أرجنتاري ساعة الغداء.. واستقبلتهم فتاة، في مريلة بيضاء، عند قمة الدرج، فأخبرتهم أن سيدتها قد نهضت لتوما من النوم، فقد سهرت الليلة الماضية في حفل كبير، وأن عليهم أن ينتظروا في الخارج، أى في الشارع، حتى تأذن لهم.. وانتظر القوم في هدوء على الرصيف، فلم تكن ثمة حيلة غير ذلك

وهم على أية حال ما جاءوا إلا لهذا الغرض .. وأخيراً جاءت خادمة أخرى، فدعتهم إلى الدخول، وطلبت إليهم أن يسحوا أقدامهم عند الباب. وكانت السيدة نادينا مرحلة مبتدئة، وتحدثت إليهم في لعف، كما سمحت لهم أيضاً بالكلام، ولكنها في النهاية قالت إنها ستبيع الضيعة لمن يتقدم بأحسن سعر - ولن يدفع نقداً .. غلطها بيتر وكان أشد جسارة من غيره، قائلاً: « على كل حال ياسيدتي، لئنا جئنا إليك من سفر بعيد، وصرفنا نقوداً من أجل ذلك .. ونحن نعرف فيك طيبة القلب . وعشمتنا أن نتظري إلينا بعين الشفقة، وأن نبيع لنا الأرض بسعر أرخص من غيرنا، لأن ... »

والتفت نادينا إليه في دهشة، ورأت فيه سابقها القديم .. ورمقته بنظرة طويلة تريد بها أن تذكره بمركزه، ولكن بيتر قابل نظرتها ببساطة، كأنما كان يقول لها إنه لا يخاف من امرأة، ولو كانت تنتمي إلى طبقة الاشراف .. فأجابته، وفي صوته رنة احتقار: « أظن أنني من أجل عينيك الزرقاوين وحدهما أتنازل عن ضيقتي ؟ لا يابني، لا أيها القوم الطيبون .. أنا أبيع عزيتي من أجل المال، ولست أصدق بها على الغير .. أما الدولة فنستطيع أن نتصدق كما نشاء .. »

وعاد الفلاحون إلى فاصية الشارع، وأخذوا يقبلون الأمر على شتى الوجوه حتى نفذ البرد إلى نخاع عظامهم .. وأخيراً هبت عاصفة ثلجية، ازدادت، ضراوة باستمرار، فضا يسرون نحو جورا موسيلور، حيث عرف بيتر صديقاً من كوستنسى يملك إحدى الحانات، وكان على استعداد لإيوائهم بشمن بحس، دراهم معدودات .. وتناولوا لقيات قليلة من الطعام الذي جاءوا به معهم، ومضوا يتحدثون إلى وقت متأخر في الغرفة التي وضعهم فيها صاحب الحان جوار المطبخ .. وأسرعوا، في اليوم التالي، بمجرد أن يرغ الفجر، إلى وزارة « أراضى التاج، وهناك كان عليهم أن ينتظروا في الفناء .. وصاح فيهم رجل ذو لحية سوداء طويلة من وراء المدخل المسدود، وقال: « لا يسمح بالدخول للجمهور إلا بعد الساعة الحادية عشرة .. وكان هناك قوم آخرون، أهلك البرد والخوف أبدانهم، وكانوا مثلهم قد وفدوا من جهات أخرى يحملون معهم متاعهم .. وعندما انفتحت البوابة، تدافعوا إلى الداخل، ولكن الحاجب أوقفهم، وكان رجلاً قتيلاً كتيب المنظر، تكاد لحية تصل إلى وسطه ..

« ماهذه العجلة يا قوم ؟ ليس هذا بملهى ! ماذا تريدون ، ومن تطلبون ؟ »
وأخذ كل واحد يقص متاعبه ، وهو يتكلم باحترام .. وسر الحاجب ،
فرقت حاشيته قليلا ، ولكنه أبى أن يستمع إلى النهاية ، وقال :

« السيد الوزير لم يصل بعد .. وربما يأتي بعد حين .. لا بأس أن تبقوا هنا
برهة لتستمتعوا بالدفع .. »

وهكذا تلبثوا .. ومضت ساعة أو نحوها ، ثم أعلن الحاجب أن الوزير لن
يحضر يومه ذلك ؛ وإنما سيحضر في الغد .. وعادوا إلى الحان واستأنفوا السلام .

وكانوا أسعد حظا في اليوم التالي .. أرسلهم الحاجب إلى الدور العلوى فبلغوا
مكتبا يكتم الأنفاس ، ويفص بالناس .. واستقبلهم شاب يشوش السبات ، مهلى
وجمه بمسحوق البودرة . وقال في ود .. « ماخطبكم أيها الأصدقاء ؟ ما الذى جاء بكم
هذه المسافة كلها من .. ؟ » أقولون من أرجس ، أى نعم ؟

وأخذ لوبو شيريتو يحكى حكايتهم ، مع كثير من التتميق .. ولم يبد على السيد
أنه قد ضاق ذرعا على الإطلاق ، ولكنه بمجرد أن فهم جلية الأمر قاطعه قائلا :
« فهمت .. عزبة معروضة للبيع .. انتظر لحظة ... »

وضبط على زر ، وخط سطرين على قصاصة من الورق ، ودفع بها إلى الغلام
الذى استدعاه ، قائلا : « السيد الوزير مشغول جداً ولا يستطيع مقابلتكم الآن
أيها الأصدقاء .. ولكنى سأرسلكم إلى سيد آخر يتولى عن الوزير حل هذه
المشاكل كلها .. وهكذا تتأون حقوقكم .. هذا كل ماى الأمر أيها الأصدقاء ..
خدم يا غلام إلى المدير العام ! »

ومشوا صفاً واعدأ وراء الرسول في عرات شتى حتى وجدوا أنفسهم فجأة
أمام سيد عجوز عبوس الطلعة جاف المظهر واستمع الرجل إلى حكايتهم من البداية
إلى النهاية ، ثم سألمهم زاجراً « هل أنتم تريدون شراء عزبة السيدة ، أم أنتم
تريدون أن تأخذوها منها ؟ »

فاعترض لوكا تالابا : « لا ، لا ، نحن لا نريد ... »

فصرخ المدير قائلاً: «آخرس الآن.. لقد تكلمت زيادة على الزوم واستمعت أنا إليك .. الوزارة ليس من حقها ، كما أنها ليست في وضع يتبع لها ، التدخل في الصفقات التي تعقد بين فرد يبيع ممتلكاته الزراعية ، وبين مشتريين يريدون شراءها .. مع بعض الاستثناءات التي نص عليها القانون ، وهي استثناءات لا تطبق على هذه الحالة .. والأمر ومافيه أنكم تمودتم الجرى هنا وهناك بشكاوى لا أساس لها ، بدلا من أن تسعوا إلى الاتفاق مع سادتكم الأشراف على النحو اللائق . وقد خطر لكم الآن أن تطلبوا الأرض من الأشراف بأسعار غير معقولة ، أو دون مقابل على الأصح .. لقد قدتم صوابكم .. وتجاوزتم حدود الأدب .. والرأى عندى هو أن تستمعوا إلى سادتكم الأشراف ، وأن تعملوا بمجد .. ويتعين عليكم أن تجتهدوا ، وألا تستمعوا إلى ألسنة السوء .. ثم أنتم عماد البلاد ، وأنتم ...»

ولم يدرك لوکا تالابا من هذا الكلام كله شيئا إلا أن بابا روجا تنساب من بين أصابعهم ، وأن هذه الجهود التي بذلوها ، والتفقات التي تكبدوها ضاعت كلها هباء .. ولم يطق أن يتحمل ثقل هذا الحائط ، فانفجر لجأة قائلاً : « ولكن لماذا ياسيدى يأخذ الآخرون منا الأرض ...»

ولكنه لم يستطع أن يستكمل كلامه ، فقد هب المدير واقفا ، وقد اندفع الدم قانيا إلى وجهه ورأسه الأصم ، كأنما قد انصب على رأسه زجاجة من الحبر الأحمر فصرخ قائلاً: «آخرس ياوغدا .. وإلا أرسلت في طلب الشرطة لتعلك الأدب ، بالثيم .. أنا أضيق وقتي وصحفي لأحاول أن أعلمكم ، ولكنكم لا تريدون حتى أن تسلكوا مسلك الأدب ..» [واستعاد رباطة جأشه، واستأنف الكلام أشد هدوءا من ذي قبل] .. لقد بدأنتم بداية خاطئة أيها المساكين ؛ فأنتم لم تمودوا تمنعون بما وهبكم الله ، ولهذا تلهفون على نهب ممتلكات الغير .. ثوبوا إلى رشدكم ! .. وعودوا إلى موطنكم ، وانصرفوا إلى العمل في أمانة — العمل هو أغلى ما يملك وطننا الحبيب ! .. ولو أردتم حقا شراء عربة السيدة ، فاذهبوا إليها ، ومحمد ثوامعها ومع غيرها من الأشراف .. الكلام المؤدب لا يرد عليه إلا بحجواب حسن . أفهتكم ؟»

وحلق الفلاحون في فمه ، وماحوى من أسنان ذهبية . وعندما تركوا القاعة ، ظل صوته الحشن يلاحقهم .. وأخذوا يحوسون خلال الممرات مرة أخرى ،

ثم وجدوا أنفسهم أخيرا يباب مكتب الوزير ثانية .. وكان لوكا تالابا قد قال ، عندما تركوا المدير أصح الرأس ، إن عليهم أن يواصلوا جهودهم ، وأن يحاولوا مقابلة الوزير ثانية.. ولكنهم ما كادوا يتقاطرون داخل الغرفة حتى اندمج حاجب رهيب ، وصاح فيهم بصوت كالرعد : « اخرجوا ! .. انصرفوا سريعا ! السيد الوزير خارج ! »

وانفتح باب محراب السيد الوزير ، وظهر فيه سيد من النبلاء ، ملتف في الفراء وقد اتعل خفا فوق الحذاء ، وغطى أذنيه بفراء ثمين .. وكان وجهه سقيا ثقيلًا يبدو عليه السأم والملال . وكان في معيته الشاب الذي التقى بهم من قبل . وتوقف الوزير لحظة ، برهانا للذين وقفوا في الممر على أنه لم يكن متعاليا ، وإنما هو مهتم بأمور الفلاحين ، الذين من واجبه أن يرعاهم ، فقال في صوت ممطوط : « ما خطبكم يا أبناءى ؟ .. أية رياح جاءت بكم ها هنا ؟ »

ومس الشاب في أذنه ، فقال الوزير راضيا ، وهو يمضى في طريقه : آه ، نعم . تتم إذن قابلتم المدير العام .. حسن جدا — لقد أخبركم إذن بما ينبغي عليكم عمله ومن واجبك مراعاة كل ما قاله لكم ، فهو يفهم متاعبكم ، ويعرف كيف يعالجها ..

وهبط الدرج الرخامى ويدا ؛ بينما وقف الفلاحون إلى الوراء ، وقبعاتهم في أيديهم .. واختفى كل إنسان ، كأنما الشمس قد غابت عن الوجود ..

قال بيتر . « هيا بنا .. لم يعد أمامنا ما نفعله هنا ! »

« هيا ! » قالها لوكا تالابا مغمغا ، وهو يضع كاكبوتيه على رأسه .
وذهبوا إلى المحطة من فورهم ، على أمل أن يجدوا قطارا فإن لم يكن فليقتضوا ليبتهم هناك ، لأنهم قد أنفقوا كل ما كان معهم من نقود ، ولم يبق إلا ثمن التذاكر ..
وأسمعهم الحظ .. فلما شرع القطار في المسير ، حمدوا الله في نفس واحد بالطريقة التي تعودوا عليها ..

وكان اللف يشيع في العربة ؛ وكان بها عدد قليل من الركاب ، معظمهم من الفلاحين ، بعضهم من أيا لوميتا ، وبعضهم من موسكل ، أو تيلورمان ، وبعضهم الآخر من بلاد على مدى بعيد ، وانطلقت الألسنة بتأثير اللف .. أما السبعة الوافدون

من آمارا فقد جلسوا معا في ركن من العريقة وقد اختنقوا كندا ؛ ولم ينسوا بكلمة إلا بين الحين والحين .. وزجر لوبوشيريتو ندما على أنهم أنفقوا قدرا كبيرا من المال بغير طائل .. وأيده لوكا في رأيه ، وقد غص حلقه من الجفاف .. على أنهم بالتدريج عادوا إلى أنفسهم ، فأخذوا يسترجعون ما مر بهم من تجارب ، ويزنونها وزنها .. وشعر كل واحد فيهم بأن عليه أن يدلي بدلوه في الحديث ، أو على الأقل ينفث من صدره آهة .. نعم ، لو لم يحدث ما حدث ، لكانت النتيجة غير النتيجة .. وبدأ الركاب الآخرون يشتركون معهم في الشكوى ، دفعت المصلحة الذاتية بعضهم ، وبعضهم الآخر فضولا منهم ، أو لأنهم مروا هم أنفسهم بتجارب مماثلة .

وتكلم الشيخ لوبو ، حرصا منه على أن يبرهن لجميع من بالعريية بأن الشيب لم يخط رأسه سدى ، قال . « لقد قلت لهم من بداية البداية إن الاشراف لا يريدون أن يبيعوا الأرض للفلاحين ؛ ولكنهم لم يلقوا بالا إلى كلامي ، وفي النهاية تبعتم أنا نفسي » .

« لقد سمعت كلامك ؛ وإنني لأعجب لك لأنك لم تدرك كيف تجري الأمور بينما الكل يدركون ! . وكان المتكلم شابا وسيما ، حسن الهندام ، امتلأت عيناه الزرقاوان رقة تأسر النفوس ، قال . « لقد حاول الناس أن يشتروا الأرض من الاشراف في بلدي كذلك ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك قط ، لأن الملاك تسمكون بها ، كيلا تنتقل إلى أيادي الفلاحين ، وإلا فنأين يحصل الاشراف على من يفلح لهم أرضهم ؟ .. ولقد قننا بما قمتم به منذ سنة أو نحوها ، وتمبنا وشقينا مثلكم ثم خرجنا بنفس النتيجة ! .

وتساءل لوكا تالابا . « من أين جئت ؟ »

فأجاب الشاب . « من فوسكاني ؛ إن كنتم قد سمعتم بها .. لأنها على مسافة بعيدة ، على الجانب الآخر من البلاد .. »

فقال ماران ستان مزهوا . « نعم أنا سمعت بها .. لقد ذهبت إلى هذه الأنحاء

عندما كنت بالخيـش في المناورات . . ترى هل المعيشة صعبة على الناس هناك صعبتها هنا؟

فتأوه الغريب قائلا : « إنها في غاية الصعوبة . . بل لعلمها أشق مما هي في هذه الاعاء . . والحق أنها تدفع الإنسان إلى اليأس . . هل تظنون أنني مغرم بالسفر حاملا حقيبة امتلأت بالايقونات التي أبيعها ؟ رباها ! مامن أحد في عائلتي قام يوما بشيء من هذا القبيل ! . نحن جميعاً ، زوجتي وأولادى أيضا ، نعمل من مطلع الربيع حتى آخر الخريف . ومع ذلك لانكاد نحصل على قوتنا ؛ ولهذا أنا مضطر إلى القيام بهذا العمل حتى يميننا الله ، فنحصل على قطعة من الأرض . والناس في موطنى يأملون خيرا ، وهم يقولون إن الملك سرعان ما يبدأ في توزيع الضياع ، كما تقول الإشاعات منذ سنوات طوال . »

« حقا . إن الناس لا يكفون عن ترديد هذا القول ! . . » فاه بهذه العبارة رجل ضئيل نضح وجهه عرقا ، وكان جالسا في ركن .

فقال لوبو شيريتو ، وهو يتطلع إلى الرجل الجالس في الركن .
« هكذا يتحدث الناس عندنا أيضا ! . ولكنى لأظن أن الأشراف يسمعون للملك بهذا ؛ لأنهم ليسوا أغبياء أيضا ؛ ثم إن السلطان كله في أيديهم ! »

فقال الشاب الذي يبيع الايقونات . « هذا ما أردت أن أقول . . الملك لا يستطيع أن يتصرف وفق مشيئته ؛ ولم يسانده الناس ؛ ولو كان الأشراف يعارضونه . . والناس في بلدى يقولون إن السلطات في جهات أخرى أخذت في توزيع الأرض ولكن لا ينبغي أن ننسى أن الناس قاموا بثورة منذ سنة أو نحوها ، كبارا وصغارا لقد وضعوا أيديهم على قوتهم ومعاولهم ، وقاموا بضجة سمع بها العالم من أقصاه إلى أذناه . . صحيح أن كثيرا منهم لقوا حتفهم ، لأن الأشراف رفضوا أن يتقبلوا هذا صاغرين ، فاستدعوا الفرسان والمدفعية حتى يخلد الناس إلى الهدوء . ولكن السلطات عندما أدركت أن دماء كثيرة قد أريقت ، أشفقوا على الناس وأمرؤا الأشراف والفلاحين بإيقاف القتال . . قالوا لهم . « نحن سنعلم على استياب السلام والعدل بينكم ! » واستمع الناس إليهم ، واستكانوا وعادوا إلى بيوتهم . ثم ما لبثت السلطات أن اقتطعت أجزاء صغيرة من أراضي الأشراف ومنحتها للفلاحين ، حتى يكون لهم أيضا من الأرض نصيب . »

وخيم الصمت ثقيلًا على العربة . . وأخذ المصباح الكهربائي ، الذي أضى .
تلقائيا يتأرجح باستمرار ، فأرسل خيالات غريبة ، مرة هنا . . ومرة هناك . .
وعندئذ تهد نفر من الفلاحين . . ومالبث يتر ، ولم يشترك في الكلام قط ،
أن غنم الآن والهب يتوهج في عينيه . « إذا لم نضع نحن أيضا أيدينا على
فتوسنا ومعاوننا فلن . . »

وتوقف فجأة ، كأنما قد انبثقت الكلمات من ذات نفسه دون أن يعيها . . وسمعه
القوم ، ولكن مامن أحد فيهم التفت إليه ، اللهم إلا لوبو شيريتو ، فقد تمت في
هدوء . « أمسك عن الكلام يا بتر ، أمسك عن الكلام »

وخيم الصمت مرة أخرى . . وهدرت العجلات هديرًا رتيبًا كأنها صدى جرس
بعيد . . وتلاعبت السنة من الدخان في الشبايك المظلمة ، وقد حملت معها آلاف
الشرر البراق . . وانتشر في جو العربة الذي يكتم الانفاس ، وفيما بين الضوء
المنبعث من مصابيح الكهرباء والخيالات المتحركة ، صدى صوت المعجوز وهو
ينعاطب الفتى في جبن . « أمسك عن الكلام يا بتر ، أمسك عن الكلام . . »

الفصل السادس

النذير

- ١ -

انزعج بلاتامونو أيما انزعاج عندما شهد مشرفه الوفي ، شيريلابون ، ذليلا منكسر الخاطر .

« ما خطبك ؟ .. ماذا جرى لك يا شيريلابون ؟
ونظر المشرف إليه نظرة قاتمة ، وأجاب : « لأنه ابنك يا سيدى لو علمت ... ،
ففساد الملائم في حجرة : « سبحان الله ، ماذا فعل ابني بك يا شيريلابون ؟ »

قال الفلاح وهو تمس : « أنزل الله به ما يستحق ، إن لم ينل عقابه من الناس ..
لقد اقترب في حق جرما خطيرا ، وجلب العار على رأسى ... ما كنت أظن
أبدأ شيئا من هذا القبيل قد يحدث - أنا على كل حال قد خدمتك بأمانة وإخلاص ..

وارتبك بلاتامونو .. فهو ، منذ أن جاء شيريلابونته إلى القرية ، كان
يساوره الخوف من أن يبعث أرسنيد بالفتاة .. ولقد حدث هو ابنه في شأنها ،
ومع ذلك فقد وقع المحذور .. كيف يجابه هذا الأمر يا ترى ! .. وحاول أن
يهون من الخطب ، فطمع المشرف على كفه لطمعة الصديق للصديق قائلا : لا تخزن
هذا الحزن يا شيريلابون .. هكذا شأن الشباب دائما — ولقد حدث ذلك من قبل —
ومع ذلك فالعالم لم يكف عن المسير .. نحن ننظر في هذا الموضوع ، ونرى ماذا ... ،

فصاح المشرف وهو يبتعد عنه مستاء : « لا ياسيدى .. أنا واثق بأن الأمر
لا يعينك ، فهو لا يسلك بشيء .. ولكن ماذا نحن فاعلون بالفتاة ؟ هل نستطيع
تزيينها وبنائها متفخ ، أو على كنفها طفل ، وهي حديث القرية ؟ .. ؟

فقاطعه بلاتامونو مترددا ، بقصد أن يقول شيئا والسلام دهون عليك يا شيريلابون ..

قال الفلاح : « لقد وقعت الواقعة الآن ياسيدى .. واقه فوق كل معتدأئيم وهو علم بكل شيء ، وسيجازى كل إنسان .. ثم عليك أن تبحث عن رجل غيرى ، لأنى لن أعمل فى خدمتك بعد الآن .. طالما قال لى الناس إن الشيطان يقطن هذه الدار ؛ ولكنى رفضت أن أستمع لآلهم .. جازاكم الله .. أما أنا وأنت ، فسنسوى الحساب بيتنا وقتا آخر ! »

وفزع بلاتامونو من الماراة والجرأة اللتين غاطبه بهما شيرىلا اليوم ، فقد كان دائما ينهم بفرط الوداعة .

وانطلق يلتمس ولده ، وكان قد عاد إلى القرية بعد أن قضى فى بوخارست شهرا دون أن يحضر امتحانا من الامتحانات .

هتف ، وهو ييدى على الشاب المذنب عطفا أشد عما أبداه نحو الفلاح ! « رأيت ما جلبته على من متاعب يابنى ؟ .. كذلك لم تترك ابنة شيرىلا وشأنها أيضا ، والآن .. »

فأجاب أرستيد وهو منتفخ الأوداج : « لا تبالغ هذه المبالغة يا والدى !! .. غيرغينا فتاة حسناء .. وأنا على كل حال لا أستطيع أن أجرى وراء الغربان فى القرية ! » .

وحاول بلاتامونو أن يعترض وقد بان الخوف فى صوته ، ولكنه مع ذلك استكان فى صميم نفسه لصراحة ابنه ، وقال : « لا بأس فى هذا كله ، ولكن ... »

فقاطعه الشاب : « أنا عارف .. لقد جاءت إلى غيرغينا شاكية .. وقلت لها بوضوح ما يذغى عمله .. وعرضت عليها بعض النقود ؛ لأن الأمر لا يكلف كثيراً ، ولكنها رفضت .. على من يقع اللوم إذن لو علم الناس بالامر ، وتركت هى ببارها ؟ .. لو سمعت كلامى ، ما علمت أمها نفسها بالامر ، ولمضى كل شيء فى سلام .. ومع ذلك فعليك ضبعا أن تعالج الموضوع كله فيما بعد ، ولا بد أن تصرف بعض المال أيضا ، لإرضاء لشيرىلا والفتاة .. وإن تعوزك الوسيلة ، فأنت حاذق ، وتعرف كيف تعامل الفلاحين ! »

فأجاب الملتزم وقد استعاد رباطه جأشه ، طعنا .. يجب أن بالغ في الموضوع ..
ومع ذلك ليت الأمور لم تصل إلى هذا الحد .. لا بأس ..

أما شيريلافكان يتلظى غما .. وعندما أخبرته زوجته بما حدث للفنأة ضربه
معا .. وما لبث أن شعر بالأسف .. فقد رأى أنه أشد منهما جرما ، لأنه دخل
في خدمة اليوناني بدافع الطمع في مزيد من الكسب ، رغم ما تراهي إليه عن
سمعة العائلة .

وأحس بالحاجة تدفعه إلى أن ينفث الهم عن صدره ، وبخاصة عندما رجع
إلى آمارا .. نعم ، لن يمضي يومان أو ثلاثة إلا وتعرف القرية كلها بالامر ..
كيف له أن يواجه الناس ؟ . وذهب إلى القس نيكوديم ، فأخبره بكل شيء . وشكى
حاله ، وسأله النصيح .. وكان القس أيضا ذليلا منكسر الحاطر ، فهو ، بعد أن
كل بصره ، بدأ سمعه يخونه .. على أنه عندما أهرك جلية الموضوع ، دهش له ،
واستعاذ من الشيطان ، ونادى على ابنته . « أسمع يا نيكولينا بما حدث للسكين
شيريلاف مع ابن اليوناني ؟ »

واشمازت نيكولينا ، ولعنّت اليوناني ، ونادت على زوجها ، وقالت . « هل
علت يا فيليب بهذه الحيلة القذرة التي لعبها الطالب ، ابن اليوناني ، على شيريلاف ؟ »
واستمع إليها زوجها صامتا ، وهو يهز رأسه إعرابا عن غضبه ، ثم تساءل
في ترو . « ماذا تزمع أن تفعل الآن يا شيريلاف ؟ »

فأجاب الفلاح مغتيا : « لهذا جئت إلى الأب نيكوديم ألنفس منه النصيح ...
أنا في الحقيقة لا أدري ماذا أفعل . »

« وبعد ! ! » قالها فيليب ، ثم كررها في نفس اللهجة الصارمة بعد أن
توقف طويلا ، « وبعد ! »

ورجع شيريلاف إلى بيته دون أن يسترشد بنصيحة ما . ولكنه مع ذلك شعر
براحة نفسية ؛ كأنما انزاح الهم عن صدره بإفشاء متاعبه إلى الغير ، وبسماح
للعدوات تنصب على اليوناني .. وقام في المساء بزيارة للعلم دراغوس .. وكانت

حكاية غير غينا قد ترامت هناك من قبل . . والواقع أنها ذاعت إذ ذاك في جميع أرجاء القرية ، بل قد بلغت مسامع الشريف ميرون ، فاشمأزأ منها اشمأزأا عميقا وقال أمام أزابيسكو والمشراف بومبو : « رأيتم ؟ » . هذه هي القاذورات التي يرمعون فيها ، ثم بعدئذ نعجب لماذا يغنى الفلاحون ويهيجون ؟ ،

ودار النقاش محتدما بين عائلة دراجوس حول احتمال مجيء شيرىلا . . كان نيكولاى ، شقيق المعلم . قد سمع بالامر من بيتر بن سماراذا ، وكان قد التقي به في الشارع . . وكان الشاب يتميز من النفيظ ، فقد جاء عليه حين من الدهر أراد فيه الزواج من غير غينا ، ولا أحد غيرها ، لأنه فيما ظن مامن فتاة أخرى مثلها .

قالت فلوريكا زوج أخيه : « رأيتم كم كنت حكيما عندما تدرعت بالصبر فلم تتجمل ؟ »

فقال المعلم رافعة منه ورحمة : « بل على العكس ، لو أنك تزوجت بها عندما أغرمت بها ، لما وقعت الفتاة المسكينة في براثن الخنزير اليونانى !! »

وطلب نيكولاى إلى أخيه ، وهو يغلى سخطا ، أن يقدم يد العون إلى شيرىلا ، لأن من المحال أن تمضى هذه القضية دون جزاء . . فهبت فلوريكا على الفور قائلة : « استمع إلى يايونيل !! . إياك والتدخل في الأمر . . وأنت عندما تسمع كلامى ، كل شئ يحضى على ما يرام ، أما عندما تصرف النظر عما أقول فلا تلقى غير المتاعب . . على كل لإنسان أن يهتم بمشاكله ، وأنت على كل حال لم تثر على شيرىلا أن يلتحق بخدمة بلاتامونو ، إنما ذهب هو إليه بمحض اختياره . . ولقد وقع في هذه الورطة من تلقاء نفسه ، فليخلص نفسه بنفسه كذلك . »

ووصل شيرىلا بون وفلوريكا توقد المصباح . . وكان النقاش قد خفت حدته إذ ذاك ، فأخذوا يتحدثون في موضوعات أخرى . . واستمعوا إلى شيرىلا بانتباه عميق ، وما لبثت فلوريكا أن قالت في جفاء ، فقد كانت دائما في هم بسبب ماقد يقدم عليه زوجها : « هذه فعلة قدرة يا عم شيرىلا . . وكان من واجبك أن تكون أشد حرصا عما كنت ، فأنت تعلم أن ابن الملتزم كان زير نساء ،

فقال الفلاح موافقا ، وهو يتطلع إليها في حزن : « صدقت ، وعالم أن يوجد من هو أسوأ منه .. ولو كان المرء يعلم المخاطر التي في ضمير الغيب ، لالتزم الحيطة والحذر ، ولكن الحال هو الحال .. »

فقال نيكولا يمتها : « لقد كنت أنت شديد الطمع ، فالتحقت بخدمة اليوناني . وهأنت ذا الآن تدفع بغير غيتنا ثمننا لطعمك ! »

فأجاب شيربلا بمرارة : « أنتم على حق .. ولكن لا حاجة بكم إلى شتمي .. حسي ما نزل في من عذاب .. فأنا بعدما علمت بأن غير غيتنا كانت تحبك ، لم أعد أتشد في مراقبتها ، لأنني كنت واثقا بك أيضا ! »

فصاح نيكولا وهو يعض على أسنانه . « لا تجزع .. فأنا لن يهدأ لي بال حتى أنقم من هذا الفتى اليوناني ! » وعجز عن تحمل المزيد من الكلام . فترك الغرفة .

وبقى شيربلا بون حتى حان موعد العشاء ، فانصرف وهو أهذا نفسا .. كانت أية كلمة من كلمات المواساة الآن بلسا شافيا على جرح دام ..

وأخذ منذ ذلك الحين يقص قصة غير غيتنا لكل إنسان يلتقى به في الشارع . ونصحه العمدة أن يتذرع بالصبر ، فربما تحسنت الأمور في النهاية .. أما لو كانت لايا فقد أبدى بعض العطف ، ثم أخذ يستجوبه بشأن الملتزم ، كم عرض ممنا لباروجا ، وما الثمن الذي طلبته السيدة ؟

وكان تريفون غوغو هو وحده الذي ردوا جافيا عندما التقى شيربلا به ، فقص عليه قصته ، قال : « هيه ياعم شيربلا ، أنت على الأقل تملك غزنا مثلنا حتى ليكاد ينفجر من شدة الامتلاء .. أما أنا فأكافح منذ عيد القطار لأسد رمق بيت امتلاء بالمال وليس به حبة من الذرة . »

فأجاب شيربلا : « أنت على حق يا تريفون .. كل إنسان عنده متاع به . »

فغمغم غوغو . « المتاع تبدو أخف وطأة عندما تكون شعبانا ! »

ومضى شيربلا فأمسك بتلايب بانتيليمون فادوفا ، وكان قد حصل على

يومين أجازة من الجيش ، فأخبره بقصة غير غينا . . وكان الفتى الآن جنديا ، وفي برته العسكرية ، التي كان يبدو فيها وسيما للغاية ، وكان حريصا على التسكك بأهداب الفضيلة والسلوك الحميد حتى يتسكب العقاب ، فلا يحرم من المجيء إلى موطنه . . . وكان الفتى يعيش في قلق دائم خشية أن تناساه دومينكا فتزوج قبل أن ينتهي من خدمته العسكرية . .

وكان يترين سماراندا ، يؤجل باستمرار موعد زواجه من ماريورا ، ابنة إيرينا . . وكانت تعمل خادمة في بيت الشريف . . وكان يتر مغرما بها منذ زمان طويل ، ولكنه لم يجرؤ على الزواج بسبب فقره . أما الآن ، بعد هذا الحديث الذي وقع لعيرغينا ، فقد كان له حديث آخر مع أمه التي وافقت بشدة على ما اعترمه ولدها . . وكانت تستحثه على ذلك منذ أمد بعيد — وهو لو كان قد استمع إليها لكان قد استقر به المقام في بيت له الآن . . ومن ثم أخذت سماراندا في الغد تشاور أم ماريورا ، وخالتها بروفيرا . . وتصادف أن التقى شيريل بيتير ، وهو في خضم هذه التداير ، فلما أخبره بما حاق به على يد الملتزم أجاب الشاب من بين أسنانه . « طيب يا عم شيريل ، أنا لن أغفر له ، حتى لو أخذوا حياقي ثمنا لها . . »

فقال شيريل بذلة . « أصبت يا بيتير ، أصبت ! »

— ٢ —

ذات يوم رأى تيتو في مكتبه القس يلكوج من أهالي برياس . كان حسن الهندام ، سواء في برته الكهنوتية أو المعطف الشتوي الذي لبسه فوقها ، وكانا جديدين . . وكانت لحيته مشدبة مذهبة — أو باختصار كان أنيقا أناقة طالب زواج تقدم ليد عروس . . ولم يكن تيتو قد رآه هكذا قط في مسقط رأسه .

قال القس . « لقد أخذت معاش ستة شهور ، فحضرت إلى هنا . . لقد كنت دائما أخشى أن يدعوني الله إلى جواره قبل أن يتاح لي مشاهدة بلادى . . » وانتشرت على وجه المرح ابتسامة يشوبها الحياء . « لقد وصلت هذا الصباح . . فجئت إلى هنا من الفندق ، فلا أضل طريقي قبل أن أتعرف على المدينة . »

وكان والد تيتو ، وهو يفخر بما يحظى به فلذة كبده من احترام ، قد أشار على القس بأن يذهب لمقابلته في مكاتب الجريدة ، فالأرجح أن يجده هناك أكثر مما يجده في بيته .. وقدم هيرديليا ييلكوج إلى سكرتير التحرير ، ثم انصرف الاثنان إلى جولة في قلب المدينة ، كي تنهيا لهما فرصة الكلام على راحتهما .. وكان حتما على القس أن يخبر الشاب بكل ما حدث في أماراديا ، صغيرا كان أم كبيرا وبخاصة عن زواج غير عينا .. ولقد كتبت له أمه عن هذا الزواج ، ولكن دون التفاصيل التي كان يريد ها .

وأصبح تيتو مرشدا لبيلكوج في بوغارست .. ذهب بالقس أولا إلى تمثال ميخائيل الشجاع (٩) حيث رسم الصليب على صدره بانفعال شديد .. ثم اقترح عليه الشاب أن يأخذ تذكاراً يريه لأهله في مسقط رأسه — ورقة ذابلة من إكليل كان معلقا على سن من أسنان السباح الحديدي الذي أحاط بقاعدة التمثال . وبعدئذ زارا عدة كنائس ومتاحف ، ثم ذهب إلى عدد من المحال الكبرى .. ولم يكن الزائر سعيد الحظ في زيارته لمجلس النواب والشيوخ .. إذ لم يسمع هناك بالمصادفة غير المناقشات المعتادة الرتيبة ، دون أن يتخلل الجلسة أى خطاب هام ، ولكنه أعجب بها رغم ذلك ، إعجابه بكل شيء وقع تحت سمعه وبصره .. وكان محالا أن يكون حاله غير الحال ، فقد جاء من مسافة بعيدة ، كما أنفق الكثير من المال .. ثم كان هناك بعد ذلك المسرح القومي ، حيث ذهب القس مرتين بصحبة تيتو ، ومالبت أن أولع به ، فأصبح يؤمه كل ليلة .

فلما انقضى على ييلكوج أسبوعان ، لم تعد صحة تيتو لازمة . كما أنه لم يشأ أن يستنزف وقت هيرديليا ؛ ذلك أنه اكتشف نغرا من رفاقه القدامى ، منهم كاتب بمكتب البريد ، ومنهم صيدلى ؛ وكان كلاهما زميلا له بالمدرسة في أماراديا — وكان تيتو قد عرفه بأسره جار فيلاس بطبيعة الحال ، بل وتناول معهم الغداء مرتين أو ثلاث ، فقد سر من صنوف الطعام التي افتنت فيها السيدة جار فيلاس الشحيمة اللحمية ؛ ولم ينس أن يهنئ تيتو على حسن طالعها إذ أتبع له هذا الطعام .

أما تيتو ، فهو بقدر ما استمتع بصحبة القس الذي وفد من قريته ، لم يأسف على أن يترك ييلكوج وشأنه ، هذا فضلا عن أنه قد تكبد بعض المال في هذا

كله ، فقد اضطر أحيانا إلى أن يتناول طعامه بالمدينة مع القس ، فيدفع لنفسه ، ولم يخطر في بال ييلكوج أبداً أن يستضيفه على حسابه ، بل الواقع أن القس كان يسعده جداً أن يتقبل الضيافة من تيتو . كذلك أهل تيتو عملهم بالجريدة ؛ الأمر الذي جعل روزو يقول : « إن تيتو قد بدأ ينجح نهج غيره سواء بسواء » .

ووقت بعد يومين اثنين من وصول القس حادثة مؤسفة للغاية ، وربما كانت قد تفضى إلى نتائج وخيمة ، ففى لو بلغت مسامع ييلكوج لأصبحت حديث الناس جميعا في آماراديا .

كانت تانتا تاتى لزيارة تيتو لاما ، حين تكون السيدة الكسندريسكو غائبة بطبيعة الحال . . وحاول الشاب عبثا أن يدفعها إلى التزام الحرص ، فكانت تجيبه بأنها لا تتبال بأحد ، ولا تعباً بشيء ، لأنها تحبه . . وكان ضمير تيتو يوخزه بسببها ؛ وتخرج أن يقول لها إن السكان الآخرين ، أو السيدة الكسندريسكو ، قد يلحظوا شيئا ، ومن ثم تحدث فضيحة . . وكان على حق في مخاوفه . . ثم كانت هناك أيضا تليذته ماريورا رادوليسكو ، فقد اشتكت شيئا ، بل وحاولت أن تضبطهما معا . . ولكن من حسن حظه أنه عندما ذهب ذات يوم ليتناول طعامه مع عائلة جاريفيلاس وجد ماريورا غائبة . فأخبرته السيدة الطيبة ، وهى ساخطة ، بأنها ضبطت الفتاة في الشارع وهى تحدث سيدا كبير السن يكاد يبلغ جاريفيلاس عمرا ، وتبادل معه القبلات . . وشكت إليه أن هذه الفتاة ، التى أحضت مامانها ، ودلاتها كابيتها ، لم تكن عند حسن ظنها بها . . والحق أنها لحظت على الفتاة تطلعها إلى الرجال ، ولكنها لم تأخذ عليها ذلك ؛ فالصية على كل حال لن تكون راحة . . أما أن تسامر الفتاة هؤلاء الكهول ، بل وعلى تارعة الطريق ، فهذا هو البعث الذى يسرى في دماها .

وختمت السيدة جاريفيلاس كلامها ، فقالت ن كدر : « أنا لا أدري مسلحها معك ياسيد تيتو ؛ ولكنى أرجو ألا يعضبك لردى لها ، فالدنيا زاخرة بالفتيات ،

ومضت ليال بعد ذلك ، وإذا بتيتو يودع ييلكوج ، ثم يسرح إلى بيته لمقابلة تانتا التى أخطرتة بالأمس بأنها ستحضر إليه ، لأن أخاها والسيدة الكسندريسكو قد تواعدا على مهرة طويلة فى لعب الورق .

وقضى الحبيبان معا ساعتين من الزمان ؛ وإذا بهما يسمعان طريقة خافتة تدق على الباب . . وعقدت الدهشة لسان الاثنين ، وعم الصمت لحظات ، أخفت تاتنا في غفوتها نفسها إلى ذقتها تحت اللحاف ، وقد امتلأت عيناهما رعبا . . واقترب تيتو من الباب على أطراف أصابعه ، وقد وضع أصبعه على شفتيه مخذرا الفتاة من أن يند عنها صوت . . وتساءل في صوت أجش : « من هناك ؟ »

وجاءه الرد من الردهة : « إنه أنا . . أنا . . لحظة واحدة من فضلك ! »

وكان تيتو في شدة الاحتياج فلم يتعرف على الصوت . . أما تاتنا فقد هزت رأسها في هوس ، ومست في إذن تيتو الذي نظر إليها مذهوشا ، وقالت : « جيتسا ! » وازداد هيرديليا الشاب ارتباكا عندما عرف الطارق ، وقال : « أهذا أنت ياسيد جين ؟ . . ماذا تريد ؟ . . ماذا حدث ؟ . . »

وأخ جيتسا من الخارج : « لا شيء ، لا شيء ، افتح الباب فقط لو سمحت ! » وذعر تيتو ، ونظر إلى تاتنا مستعظفا ، وإذا بها ، بدافع لجأى ، تختفى بكاملها تحت اللحاف .

وفتح تيتو الباب ، ودخل جيتسا مبتميا : « اغفر لي حضوري الآن على غير موعد ، ولكن . . هل أنت وحدك ؟ »

فقال هيرديليا متردداً : « طبعاً ، من ذا يكون هنا ؟ »

« لقد ساورني العجب ، فقد خيل لي أن سمعت أصواتنا ، وهذا هو الذي دفعني إلى طرق الباب . . لقد حضرت لأخذ بعض الأشياء من غرفة لينوتا (السيدة الكسندريسكو) و . . . »

وكان ، وهو يتكلم ، يحمق في أرجاء الغرفة متوجسا غير مصدق . . لقد حضر الآن دون أن يخبر السيدة الكسندريسكو ، فقد تركها في بيت والدته مستغرقة في لعب الورق . . واعتذر بصداخ خفيف ألم به ، وأبدى رغبته في الخروج إلى الشارع يشم الهواء ، فلا يتخم نفسه بالأسبرين . . . وكان قد تعرف منذ شهر

مضى على فتاة حسناء ، وحيدة والديها ، وذات بائنة . . . والظاهر أن الفتاة قد مالت إليه ، فألمح إليها ، عندما التقيا للمرة الثالثة ، بنيتة على الزواج . . وإنها لزوجة رائعة ، ويرفع من قدرها ما سوف تقيحه له من صلات ونفوذ في محيط العمل . فأبوها مدير مساعد ، وهو أحد عمد الوزارة . . فلما تأكد من مشاعر الفتاة ، شاور والديه في الأمر . ولكن في سرية شديدة ، حتى لا يبلغ مسامع ناتا ، فسقط منها كلمة عن غير قصد أمام لينوتا . . وسر الوالدان . . وأخذ هو ينقل حاجياته خفية شيئا فشيئا . تجنباً لإثارة شجار مع السيدة الكسندريسكو ، على أن يذهب والده أرونيسكو ذات يوم ، فيتقدم إلى لينوتا ، ويحدثها نيابة عنه ، ويشرح لها الأمر كله ، ويطلب إليها أن تترك ولده وشأنه . . وهو لهذا جاء إلى البيت ، ليحمل مزبداً من حاجياته . . وكان قد دخل الغرفة الأخرى ، ولكنه لم يجد عبلة نقاب ، فقد ترك عبته مع لينوتا ، التي وضعتها فوق النقود التي تراهن بها استجلاباً للحظ . وكان قد أخذ يتحسس طريقه صوب الباب وهو مغيب ، عندما ترامت إليه أصوات من غرفة الساكن . وتردد لحظة . . كيف له أن يزعم الشاب والحالة هذه ؟ . على أنه عاد وعاب على نفسه أن يحضر دون جدوى ، لا لشيء إلا لأنه لا يملك نقاباً . ثم إن تيتو وحده على كل حال . . وأخذت عيناه ، وهو يتكلم ، تجوسان خلال أرجاء الغرفة حتى وقعتا على المنضدة ؟ وهناك بجوار الشمعدان رقدت قبعة صغيرة من قبعات السيدات . . وتوقف عن الكلام ، ونظر إلى القبعة بركن عينه ، وقال بلهجة ذات مغزى . « كازانوفا ! »

وتلك الغضب تيتو ، إذ أدرك أن أمره قد انفضح ، وقال . « ألا تظن أنك يا هزري قد تجاوزت المدى ؟ . . لقد نهضت من نومي ؛ وفتحت لك الباب ؛ . . وهذا يكفي ! . . قل لي ماذا تريد ؟ ثم . . . »

ولكن فضول جين كان قد بلغ النهاية . . ترى أين اختصم للسيدة ؟ . وأجاب وعينه تنقب في كل ركن . « أريد بعض النقاب ؟ ! »

وجلس تيتو على حافة الفراش ، وقال بصبر نافذ وهو يشير إلى النقاب التي وضع على الصوان القائم إلى جوار السرير « تفضل و . . »

أشكرك يا عزيزى ... ولا تغضب على لأن .. هأنذا ذاهب ، أرايت ؟ ،

واقترب من الصوان ، ولكنه وهو يد به ناحية الثقاب ، خيل إليه أن اللحاف
بارز فى ناحية ما ... وتناول علبة الثقاب ، وقال فى خفة . عصفوران يتناغيان
ها كان يخطر ببال أن ... ولكن لا لا ... أنا لن أزعجك ... أنا ذاهب .
ولا تمس هكذا .. أنت تعلم أننى أحفظ السر يافى ، وسأتركك .

ويتناهوا يقترب من الباب ، أضاف . « سأعني ياسيدتى فقد أثقلت عليك .. »

وفتح الباب وهو يضحك ، ولكنه عاد وسأل تيتو وعيناه ترمشان . « سؤال
واحد فقط ، أجبني عنه أيها الماجن ، أهي جميلة ؟ »

وكان التوتير قد بلغ حدا جعل تيتو موزعا بين الغضب وبين الحاجة إلى الصبر .
كان يقول لنفسه فى ذات اللحظة إن من واجبه أن يأخذ جين من قفاه ويعرده إلى
الخارج ؛ ثم يعود ويقول إنه سلك مسلكا غييا إذ فتح الباب وسمح له بالدخول .
وأراد أن يتخلص منه على قدر ما يسهل من سرعة ، فأشاح برأسه فى احتقار دون
أن يرد على سؤاله بجواب ... وعاد جين مرة أخرى صوبه ، وقال . لماذا أنت
غاضب يا عزيزى ؟ على كل حال أنا ... »

وكان ساعتها واقفا إلى جانب الفراش ، وقد استبد به فضول لم يستطع أن
يقال به ؛ وإذا به ، فى سرعة خاطفة ، يرفع طرف اللحاف ، فيكشف عن تاننا .
وينتهى من جملة المعسولة . « أنا لم أر هذه السيدة الفاتنة ! !

على أنه لما تبين أخته ، جمحت بسمه الفضول على وجهه ، فاستحالت عبوسا
ودهشة . . وتمالك نفسه بعد برهة ، واستأنفت الكلام غاضبا . « أنت إذن هذه
السيدة الناشئة ! ! ! أجهل التهانى ! ! ليتك تخبيلين من نفسك ! »

وهب تيتو قائما ، ولكنه لم يدر ماذا يفعل . . كان يرى أن من واجبه أن
يتدخل ، وإن أدرك أن هذا تدخل مسرحى بعض الشيء ، ولا يليق بظروف الحال ،
فال . « أرجوك ياسيدى ... »

فقال جين متاقلا . « إنها أختي ، ومن حق أن أمسك بها من خناقها لو شئت ! » ، ورأى تيتو أن هذا القول كان في غير موضعه ، شأنه شأن كلامه هو .

وعندئذ قالت تانتا في سكون تام . « استمع إلى ياجينتسا . . . أنا لأريد منك أبداً أن تلعن الأخلاق . . . لم أطلب هذا إليك مرة ، ولن أطلب منك أبداً . . . هذا أمر مسلم به . . . ولهذا يحسن بك أن تهتم بـ . . . بصاحبتك لينوتا ، وتتركنا ! »

وبلبل هدوءها وبرودها أخاها ، فتملكه الغضب ، وغنم بضع كلمات ، وأعاد علة الثقاب إلى موضعها على الصوان القاسم إلى جانب الفراش ، وقال في نفخة كاذبة : « لي شأن معك فيما بعد ! .. أما الآن ، فمودي إلى البيت . . . فورا . . . وأنا لن أتحرك من هنا حتى تنصرفي ! .. »

فأجابت تانتا بازدياد : « سأنصرف عندما يترامى لي أن أنصرف . . . أنت تعلم جيدا أنني لا آبه لكلامك على الإطلاق ! »

« كذا ! ! .. وعندك من الوقاحة ما يجعلك تعارضيني ؟ » هتف بها جين ، وكأنما وقع على عذر يتيح له التراجع محتفظا بماء وجهه : « حسن جدا . . . ابقى هنا . . . واستمرى في الجسورك . . . لا بأس . . . سوف تدفعين ثمن هذا غاليا : »

وأسرعت تانتا تهباً للانصراف رغم ذلك . . . وأراد تيتو أن يقول شيئا يبعث الطمأنينة إلى نفسها ؛ أو على الأقل كلمة من كلمات الحب ، ولكنه خشي أن يبدو سخيفا . . . بيد أن تانتا كانت هادئة ثابتة ، كأنما لم يقع شيء ألبتة . . . ودesh الشاب لهذه السكون التي رأت عليها ، ولتألكها زمام نفسها . . . كان على يقين من أن جين سيثيرها فضيحة . . . ولكنه لم يكن يعرف ، وهذا ما لم تشرحه له تانتا ، إن لديها ما يدعو لهذه الثقة بنفسها . . . فقد حدثتها أمها بما اعتزمه جينتسا من هجران لينوتا ، وسوف يدرك أخوها أنها عليمه بسر، وهو لهذا لن يمرؤ على الإفضاء بسرها ، حتى لا تقدم بدورها على خياتها .

وعاش تيتو على نار يومين متتاليين ، يترقب وقوع الكارثة بين لحظة وأخرى .. ولكنه لم يلتق بحين ، كما لم يتلق خبرا من تانتا .. وبدأ يتخيل أن الأمور تجري رخاء ، وإذا بالسيدة الكسندريسكو تدعوه إليها بعد ثلاثة أيام ، وكانت جالسة وحدها مقفلة ، وقالت : « رأيت إلى ما فعلت ياسيد تيتو ؟ .. لقد حدثني جينيتسا بما حدث ، ولم يخبر أحدا سواي ، لأنه لا يريد أن يسبب تعاسة لوالديه المسكينين .. الحق ياسيد تيتو ، كيف أقدمت على ما أقدمت عليه ؟ .. ما كنت أظن أبدا أنك تفعل ما فعلت بهذا الملك البريء .. وكنت أظن أن أهل ترانسلفانيا قوم مؤدبون ، حسنو المسلك ، وإذا بي أرى ... ولكن ماذا أنت فاعل الآن ؟ .. لو حدث شيء ، وعلم والدها بالأمر — وأنا أعرف أنه حساس جدا لكل ما يمس شرف عائلته — فسيضربك بالنار ! »

وكان هيرديليا الشاب يعلم جيدا الجواب الذي تتوق إليه صاحبة الدار ، ولكنه لم يستطع أن يعطيها إياه .. صرح لها بأنه يحب تانتا ، وأن العلاقة بينهما ليست علاقة عارة ؛ ثم عاد وغنم بشيء ، عن أن مركزه غير مضمون ، وعن آماله في المستقبل ، عندما يستطيع أن يكلل حبهما بالزواج .. على أن السيدة الكسندريسكو لم تلح في الأمر كما كان يخشى .. كان كل ما بهما هو جينيتسا ؛ الذي حرم عليها أن تستقبل تانتا طالما أن تيتو يسكن عندها ... وهي لهذا تطلب إلى تيتو ، من أجل خاطر جين ، أن يبحث له عن مأوى في بيت آخر ... ثم إن الصبر قد قارب نهايته ... والواقع أنها ، بصرف النظر عما تطورت إليه الأمور ، ما كانت لتسمح له بالبقاء أكثر من ذلك ، لأن ميمى في حاجة إلى الغرفة ، وما كانت تود أن تذكر له السبب ؛ بل هي لم تفض به حتى إلى جينيتسا ؛ وهو أن ميمى وزوجها على غير وفاق ، وأنهما يسعيان إلى الطلاق .

وعثر تيتو لنفسه على حجرة خلال يومين ، وبئس السعر ، في ميدان أبريميرى ، قرب الدرابلول ، بل وأقرب إلى قلب المدينة . كذلك شجر خلاف بين آل جارفيلاس وبعض السكان ، فاستقر رأيهما كذلك على الانتقال منذ شهر ولم يؤخرا انتقالهما إلا بسبب هيرديليا ، فاستأجرا لها الآن شقة مناسبة في الشارع نفسه . وعندما أخذ تيتو ييلكوج ليريه مسكنه الجديد ، قال القس . « حمدا لله يا عزيزي الشاعر أن خرجت من هذا المسكن القديم ! .. أنا لم أشعر بميل لإطلاقا لهذه السيدة العجوز التي تظلي نفسها بالمساحيق كماها مخرج في سيرك . كل ما كانت

تعله هو الصراخ والتأود والغمز واللمز كأنما كانت تمشى على نار .. حذار من هاتيك النسوة ، فمن في غاية الخطورة .

٣ -

قال كوزما بيريونا شاكيا ، وهو يتصر يديه . « ماذا نحن فاعلون حيال الفلاحين ياسيدى ميرون . إنهم يرفضون تجديد العقود القديمة ، بل هم يتوعدوننى أنى أنا ما كنت أثقل عليك بهذه الأشياء كلها ، ولكن هؤلاء الناس أصبحوا خطراً علينا ياسيدى ميرون .. ولست أدري ، هل فقدوا صوابهم أم أن الشياطين قد سكنت أرواحهم ؟ .. أنا لم أعرف فيهم أبدا هذا العناد الذى هم عليه الآن ،

وكان ميرون أبوجا قد غفر أخيراً لللتزم الخطأ الذى وقع فيه في الحريف الماضى بشأن الذرة ، فأخذ الآن يعطف عليه ، ولكنه لم يتألك أن قال : « إياك أن تكون قد تخيلت أشياء وهمية كما فعلت بشأن السرقة ! » ،

واستعاذ كوزما بالله في ذلة ، وقال : « ما كان قد حدث ياسيدى ميرون ... ! أنا دفعت الثمن غالبا ... ! ومنذ العيد الماضى لم تمر ليلة دون سرقة ، ولكنى لم أجرو على المحبى إليك وإخبارك ، وإنما تحملت ذلك كله ... أما الآن فالأمور خطيرة جداً ! » .

واستطرد يقول : إن الفلاحين يرددون فيما بينهم وبين أنفسهم أنهم وإن اتفقوا مع ملاك الأرض ، إلا أنهم يرفضون الاستمرار في العمل ما لم توزع بأباروجا بينهم ، لأن الضيعة لا تهم السيدة في قليل أو كثير ، وهى لا تريد إلا أن تبسما للأشراف الآخرين . وقالوا أيضا إنهم لا يستطيعون العيش دون الأرض التى بذلوا في فلاحتها العرق والدم ، ولهذا فهى لا بد أن تكون من حقهم ، نعم ، فهكذا قال الملك . وكثيرون من الأشراف .. وقالوا إن من ييديم الأمر هم وهدم الذين يقفون ضد هذا الرأى ، الأمر الذى جعلهم ينتظرون في هم وقلق وقد جف ريقهم .. . ولقد سمع اللتزم بهذا كله من أتباعه المخلصين ، ومن ثم فلا بد وأن يكون الخبر صحيحا .

قال الشيخ : « إذا كان الأمر حقا كما تقول ، فهذا نتيجة اللغو الفارغ ..

ولكن ليت شعري لماذا لم أسمع بعد بشيء عن هذه الأمور ؟ .

قال كوزما : . لأنهم لا يجرمون على إخبارك ياسيدي ميرون . . . لأنهم غافقون خجلون ! .

ولم يتحمل أيوجا أمر العقود ، فقد يزمع لإجراء بعض التعديلات التي رأى أنها في صالحه وصالح الفلاحين على السواء . . والواقع أنه كان قد عقد اتفاقيات مع بعض القرويين في الحريف الماضي ، ومن ثم ضمن استمرار العمل في الأرض . . وأرسل الشريف يستدعي المشرف يومبو الذي قال : إن الفلاحين حدثوه كذلك في شأن التعديلات ، بل إن بعض من عقدوا اتفاقيات في الحريف الماضي قد صرحوا بأنهم لن يعملوا ما لم تعدل العقود لصالحهم . . ولما شخص إليه ميرون يصره متسائلا زعر المشرف ، فأردف قائلا : إن الفلاحين قد دأبوا على هذا الكلام ؛ وإنهم يضطربون ويشورون قبل كل ربيع ، ولكم لن يلبثوا أن يتفقوا ، ويستأنفوا العمل ، إذ لا خيار لهم .

قال الملتزم في كدر : . صبرا ياليتني ، فأنت تهون من الأمر إلى حد بعيد . . . صحيح أن الناس كانوا يتكلمون هكذا في عهود مضت ، ولكن الحال لم يكن أبداً كما هو الآن . . على كل حال أنا أعرف الفلاحين أيضاً ، وأنا أعيش بينهم . .

قال يومبو مترددا : . مازال أماننا متسع من الوقت ؛ والتلج والصقيع لم ينزاحا عن الأرض بعد ! .

ولم يشأ الشيخ أيوجا أن يبدى ما كان يشعر به من قلق ، رغم أنه لم يرض ألبتة عما سمع . . لقد خال أن الملتزم يغالى في الأمور ، فهو بطبعه جبان خائر العزم . . ولكن لا ضير من اتخاذ جانب الحيطة والحذر . . ولهذا أمر المشرف أن يشرع في إبرام العقود في اليوم التالي مباشرة ؛ وأن ينتهي منها كلها في مدى أسبوع . . وأحجم الشيخ عن فكرة إجراء التعديلات كما أزمع من قبل . . فرمما اعتبر الفلاحون ، وهم على ما هم عليه من هياج ، أن الشروط الجديدة قاسية فوق ما يطيقون .

وبعد ثلاثة أيام حدث ليوتى بومبو الشريف قائلا إن الفلاحين جميعا رفضوا توقيع العقود ، وإنهم جميعا طلبوا إليه أن يخفف من وطأة الالتزامات ، لأنهم لم يستطيعوا بحال من الأحوال العيش في ظل الالتزامات القديمة .

وحضر المعلم دراجوس في ضحى اليوم نفسه . . ولقد سبق أن زار الرجل بيت الشريف مرتين منذ عيد الميلاد ، ليتحدث في شئون المدرسة . . وتلقاه ميرون مرحبا ، فهو لم ينس الأهازيج التى أعدها دراجوس من أجله ، بل وأنهى باللائمة على نفسه لأنه سبق أن أساء الظن بالمعلم ، ربما بسبب مظاهر خادعة ؛ ولكنه على كل حال رجل جاد فاضح الفكر . . . ورغم ما كان يعانيه من ضيق الآن ، لما ترمى إليه من المشرف ، الأمر الذى جعله لا يميل إلى الكلام ، فقد بدا له ، من الخير ، أن يتحدث مع دراجوس ، فلهذه عن طريقه قد يتمكن من التأثير على أهل القرية ؛ ومن ثم يعود إلى توطيد الهدوء ، والنظام القديم . . ودعا ضيفه إلى الجلوس ، وقدم إليه الدولكيتا التقليدية ، وأخذ يستفسر عن أحوال المدرسة . . وكان أيون دراجوس شاحب الوجه ، وأساريره تدل على انفعال عنيف ، كما كانت يده ترتعشان . .

وأخيراً قال ميرون في ود : « لقد انطلقت أنا في الحديث ، ولم أسألك من سبب زيارتك . . أبدا أنت أولا ، لأنى أريد أن أتكلم معك في أمر بعد ذلك » ، وازداد المعلم شحوبا ، ووضع يده على ركبته ، وأخذ يدق بأصابعه في اضطراب .

ولحظ أن وجه أيوجا قد اريد بمجرد أن فاه بكلماته الأولى . . على أن هذا لم يثنه عن عزمه ، بل بث في نفسه قوة أشد ، ودفعه إلى مواصلة الكلام في هدوء وثقة .

وقاطعه الشيخ فجأة قائلا ، « هلا أخبرتنى عن السبب الذى دفئك فعلا إلى الحضور هنا ؟ »

ولم تفت هذه المقاطعة في عضد دراجوس ، بل استمر يشرح له أنه لا يريد شيئا لنفسه ، ولكنه سمح لنفسه أن يأتى ويحدث أيوجا عن العذاب الذى يسود

القرية ، الأمر الذى دفع الفلاحين إلى الثورة بسبب ما يعانون من جوع وفقر .
على أنهم ما فتئوا يتطلعون إلى أيوجا بوصفه راعيا لهم ، ويعقدون عليه الرجاء في
التخفيف من الأحوال التى أقفلت ظهورهم . ثم إن العقود الراهنة ثقيلة الوطأة
لا يمكن احتياها بعد ، فقد أحقدت المجاعة بالناس فى أثناء الشتاء بسبب هذه الالتزامات ،
ومن اليسير ، لقاء تصحية هينة جداً ، أن تتحسن أحوال الناس جميعا .

وتساءل أيوجا : « باسم من تتكلم ؟ »
فقال دراجوس ببساطة : « باسم أهل القرية ياسيد ميرون »
« هل هم فوضوك فى المجي . وإبلاغى بمتاعهم ؟ »

« لا ، لم يفوضنى أحد ، ياسيد أيوجا ، ولكنى وجدت نفسى مضطرا أن أقوم
بذلك ، فقد جاءوا إلى ، وأخبرونى بمتاعهم و . . »

فصاح الشيخ محتدا : « إذن كف عن الكلام .. أنا است فى حاجة إلى وساطتك
لأتبين رغبات شعبي ! إن الوسطاء أمثالك لا يجلبون إلا الشقاء على القرويين ..
وهم بدلا من أن يعملوا على إنارة الناس ، يسممون نفوسهم ، ويبدرون فيهم
بذور السخط ، ويستغلونهم حتى يختلقوا لأنفسهم الاحترام والمجبة .. الحق أن
إحساسى الأول لم يتدعنى قط .. لقد عرفتلك على حقيقتك ، ولكنى أخطأت إذ
جئت بك إلى القرية لتفسد حياة هؤلاء القوم المساكين ! »

ومهم المعلم ، بابتسامة ذليلة جاءت غصبا عنه : « صدقنى ياسيد أيوجا ، أنا... »
وضاق ميرون ذراع بكلمة « سيد أيوجا » التى لم يكف عن ترديدها ، واعتبرها
إهانة له .. فازدادت لهجته حدة ، قائلا : « كفى ! .. أنا لا أتعامل مع الوسطاء
الذين يقيمون أنفسهم فيما لا يعنيههم ! .. »

فتعم دراجوس فى قنوط : « لقد حضرت بروحى من ضميرى نأدية لواجبى ،
ولقد فعلت ... ولك أن تقرر ما ترى .. واسكنك قلت إنك تريد أن تحدثنى
فى أمر ... »

فصاح أيوجا : « لا لا ... لا يوجد لدى ما أقوله لك .. كفك كلام الآخرين ! »
وأولاه ظهره . فانسحب المعلم فى هدوء .

وكان المعلم ، عندما اتخذ سمته صوب بيت الشريف ، واجف القلب ، جاف الحلق ، من شدة الانفعال . . كان قد رتب في ذهنه كل شيء أراد أن يقوله للشريف ميرون . وكان كل شيء واضحاً جلياً حافلاً بأسباب الإقناع . . كان من المحال أن يجد شيئاً يستغلق على الأفهام أو يلقى معارضة . . فهذا ، فيما رأى ، موقف فريد في بابهِ ، تحقق به أخطار فريدة في بابها ، وكان هو يحس بهذه الأخطار ويراهما رأى العين . أما أن يطورها في صدره خيانة إزاء الرجل الذي يستطيع ، بإيماءة من أصبعه ، أن يقضى على العفن الذي يملأ الجو ، وأن يعيد الثقة والصبر إلى النفوس ؛ إلى أن يقبض لهم أن يلتبسوا حلاً دائماً للمشكلة .

أما الآن فهو يتصرف ساخطاً على نفسه ، لا على ميرون أيوجا ، لأعنا عجزه عن إقناع الشريف بالمخائيل التي بدت واضحة كل الوضوح في ذهنه . . وهذه الأشياء التي كانت تدعى قلبه ، لقد بدت عندما تحولت إلى عبارات ، باردة جرداء غير ذات أهمية . . ولهذا لم يكن عجباً أن يلتقاها ميرون أيوجا دون أن يدرك لها معنى . .

وخرج دراجوس من بيت الدائرة بنفس الابتسامة الكسيرة التي تجمدت على وجهه — كان يمشى في حذر متسكناً على مظلمته كما يتسكك على عصا ، متحاشياً الوحل والطين ، وملزماً جانب الطريق . وارتفع صوت أنطون المخبول من فناء دار الآم أيونا منادياً : « قف ياسيد . . . لا تهرب » .

وكان أنطون ، منذ أن حل الشتاء ، قد اتخذ لنفسه مأوى في دار الآم أيونا التي كانت تصب اللغات على رأسه ، ولكنها مع ذلك تتحمله — ولكن أنطون خرج من ظهر الدار ، حافى القدمين ، محتاجاً وقال :

« لماذا تهرب ياسيد دراجوس ؟ . . ألائك ذهبت إلى الشريف الشيخ ؟ . . لا تخجل ولا تأمى على ما فات ، لأن يوم الحساب والتكفير قريب ؛ أما من وقفوا مكتوفي الأيدي فيساقون إلى هنا باهظاً ؟ . . ولكن عندما يأتي الذين يمتطون صهوة الحيل المظلمة بالنبا العظيم . عندئذ ستنهض أنت وتصبح أن . . . »

وتمالى إذ ذاك صوت الآم أيونا تنادى على فراخها . . . وتوقف المخبول بفتة ،

حوالتفت إليها ، كأنما كان النداء موجهاً إليه ، وغنم في انكسار : لحظة واحدة
يا أم أيونا !

وسمع دراجوس وقع أقدامه العارية وهي تضرب في الوحل ، ثم تغيب عن
الاستماع ؛ هذا على حين تعالى صوت المجوز وهي تددى على فراخها ...

- ٤ -

ذات صباح ، بعد انتقال يتنول إلى المسكن الجديد ، وإذا هو يدخل مكتبه وجد
روزو معتما حزينا .

هتف في مرارة : « رأيت يابني . . . لقد كنت أنا على صواب . .
ما قولك الآن ؟ »

ولم يدر هيرديليا في أي أمر أصاب سكرتير التحرير ، فهو دائما على صواب في
كل أمر ، وحيثما كان . . وأجاب بابتسامة غامضة مؤبداً له . . واستأنف روزو
الكلام قائلاً : « أظنك قرأت جرائد الصباح ، أليس كذلك ؟ .. ولكن ما يكتبونه
في الجرائد لا يزيد على قرص البراغيث إذا قورن بالواقع . . ووزارة الداخلية
تكتفي بإصدار البيانات عديمة الجدوى . . أي نعم . . ولكن الواقع يابني
العزير هو أن . . . »

وانتهى بإعانة كان المقصود بها هو أن يعبر عن قصارى قلقه على البلاد —
وظل هيرديليا الشاب ، على حاله دون تأثر ، غير فاهم ، بينما واصل السكرتير الكلام
في غموض ، « لقد بدأت رقصة الموت ، وفقد أولو الأمر فينا عقولهم . . والآن
لنرى كيف يحماه صاحبنا السيد ديليكنو الموقف ، فلطالما استرعت نظره منذ أمد
طويل إلى . . . »

ويمكن هيرديليا الشاب ، بعد لآي ، فأدرك أن روزو كان يتحدث عن قلاقل
قام بها الفلاحون في بعض نواحي مولدافيا . . ولقد ظهرت بشأنها تنف من
الأخبار وال فقرات القصار في جميع الجرائد التي صدرت في الأيام الأخيرة الماضية ؛
ولكن هيئة التحرير في الدرابول لم تعرفها ما هي خبايعة به من اهتمام . . وكانت

الشائعات التي تردت بالمعاصرة أكثر مما نشرته الجرائد ، في لحظة تم عن الرضى ولا يتورها خوف أو وجل . . وحاول هيرديليا أن يهدئ من روع روزو ، فأنبأه بالتفسير الذى سمعه فى كل مكان ، وهو أن هذه القلاقل كلها نشأت جزاء وفاقلا ما اقترفه فريق من اليهود استغلوا الفلاحين المساكين فى قرى مولدافيا أشنع استغلال .

قال تيتو مبسما : « لن يحزن أحد على زوال بضعة شوارب يهودية ، فهذه هى الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تتخلص بها القرى منهم . . وهم قد تكاثروا بسرعة غريبة على كل حال . »

وهب السكرتير قائما كأنما قد لدغته عقرب : « مرحى ، مرحى يازميل العزيزة ! هذا ما أردت أن أسمعك . . هذه هى العقيلة التى تفضى بالبلاد إلى حافة الهاوية — تلك هى البلطاجية التى ترى فى اليهود سبب كل بلاء . . ومع ذلك فأنا موافق على الثورة ضد اليهود لو ضمنت لى أنك بذلك تتجنب الكارثة الكبرى التى تحلق فوق رؤوسنا . . ولكن هل فى وسعك أن تجربى بالضبط إلى أين تفتنى بنا هذه الثورة ضد اليهود ؟ أنت واثق بأن الفلاحين فى الغد ، أو بعد غد ، لن يستمرروا ثورتهم فينتفوا لى الأشراف والملتزمين من المسيحيين ؟ »

وفطن تيتو الآن إلى أن روزو كان يهوديا ، فقدم على النكتة التى أطلقها أمامه ، فس أحاسيسه العنصرية . . وأراد أن يكفر عن خطئه ، فأسرع بمجد كل شيء بقوله روزو ، بل ويسأله من حين إلى حين ، قائلا : « طبعاً ، أو هذا واضح . . وحاول السكرتير أن يقتعه أن هكذا بدأت الثورات كلها ، بقلقل لم يعمرها أحد أهمية ، ولكنها كانت نذيرا . . قال :

« ماذا يحدث الآن يا صديقى ؟ . . هذه الأحداث التى وقعت فى مولدافيا ، لا يرى الناس فيها إلا ثورة ضد اليهود ؛ واقعد قلتي أنت للآن ؛ ماذا بهم لو زالت بضعة شوارب يهودية . . لا مانع عندى من إبادتهم . . فهذا صمام أمان . . إذ يقتل عدد من اليهود سهداً ثائرة الفلاحين ، وينسون ما يلقونه على يد الأشراف والملتزمين ، الذين هم ليسوا يهود ، ولكهم يستغلونهم سواء بسواء . . لا تظن .

أنتى اخترع هذا اختراعا .. هاك الصحف اقرأها .. فهذا مكتوب فى كل مكان
أحيانا صراحة ، وأحيانا تليحا — نعم ، الآفام التى يقتربها الفلاحون الثائرون
تجد من يبروها فى ظل الشعار القائل : « يسقط اليهود ١١ » ، إنهم يزعمون أن هناك
قضية مقدسة تمكن وراء هذا كله ، أنا أعلم بهذا .. لأن قضية الفلاحين قضية مقدسة
وعادلة .. ولكنهم بدلا من أن يلتبسوا الحلول الشريفة ، ليخففوا من غلواء
الفقر الذى يروح تحت الفلاحون ، تراهم يزيدون النار اشتعالا .. لا بأس ، وأنا
لا أقول شيئا عن يقفون فى صفوف المعارضة ، فهم يناهضون الحكم القائم على
كل حال ، لأنهم يحاولون اغتنام كل فرصة ، ولو كانت كارثة ، ليستولوا على مقاليد
السلطة .. ولكن بودى لو أن الحكومة تصرفت بحكمة ، ولكن لا .. الأمر
على العكس .. فى تصرف أسوأ مما تصرف المعارضة ، لأنها لا تفعل شيئا على
الإطلاق ، فقد فقدت صوابها ، أو قل إنها لم تدرك ماذا يحدث فى حقيقة الأمر ..
ولكن الواقع أن الثورة تنتشر ، وأنه ما من أحد يتخذ أى إجراء لإعادة الأمن
إلى نصابه .. لهذا كله كان الموقف خطيرا غاية الخطورة !

وكان روزو لا يكف عن خلع نظارته من فوق أذنيه ، فيمسها بنناية ، ويعيدها
مكانها ، ثم يواصل الكلام فى حدة أخذت تزايد على الدوام ، بقصد أن يقع
الثاب مهما كلفه ذلك من ثمن ، كأنما كان فى اقتناع الشاب القضاء على كل خطر
وتهديد .. وكان تيتو مقتنعا بأن بلاغة السكرتير قد انطلقت من عقابها بسبب
المحفوظة التى أبدأها ، ورأى أن من واجبه أن يستمع مستسلما ، رغم أنه تلقى
ساعته من البواب خطابا بخط تاننا لم يقرأ بعد ، وكان يتحرق شوقا على الاطلاع
عليه .. ومن حسن طالعها أن وصل على خشبة المسرح إذ ذاك الصحفي أنتيميو ،
وكان فى معطف من الفراء ، مغطى شحما ، وقد وضع على مؤخرة رأسه طاقية
من القرو الصناعى .. ودون أن يحتفل به ردليا أدنى احتفال ، أنتى بنفسه على
كرسى قريب من مكتب السكرتير التحرير ، وقال وهو ينفث عن صدره آمة :
« لقد اتجهت هذه الاضطرابات وجهة سيئة ياعم روزو .. ولقد دعى مجلس
الوزراء إلى الانعقاد أصيل اليوم لاستدعاء احتياطى الجيش ! »

وأشار السكرتير بأصبعه إلى تيتو منتصرا : « ماذا قلت أنا لك يا سيدى العزيز
هل سمعت ما قال ؟ .. احتياطى الجيش ١١ »

وشرع أنتيميو يكتب قصته ؛ ولكن روزو أوقفه قائلاً بمراة : « اكتب فقط عن اجتماع مجلس الوزراء .. ما ألباقى فلا يمكن أن ينشر فى درايول .. هذا حظنا الص .. عندما نجد أخبارا مثيرة ، نعص أناملنا من الفيظ ونحن نرى أديفارول تقوم بنشرها . »

وخرج ديليكنو من مكتبه بعد برهة ، وكان حليقا نحيفا هشا .. وكان يبدو أكبر سنا من حقيقته دون ابتسامته المعهودة .. قال رئيس التحرير : تعال ياروزو أملى عليك كلمة .. فأنت أسرع المحررين .. الكلمة فى الحقيقة بيان رسمى .. أنت مستعد ؟ .. حسن ! « إزاء إلى الاخبار المبهجة للخواطر التى دأبت على نشرها بعض الصحف فى الأيام الأخيرة ، فقد علنا من أوثق المصادر أن الهدوء التام يسود جميع أرجاء البلاد ؛ وأنه لا يوجد ما يدعو إلى إثارة القلق فى نفوس أبناء الأمة . أما الحوادث التى وقعت ، وهى حوادث صغيرة لا تعدى النطاق المحلى ، فترجع إلى فتنة أثارها قوم من أصحاب النويا الحثيثة . . ولكن لا مناص من القول بأن الحكومة تقف موقفا حازما ، وهى عازمة على الحفاظ على الأمن والنظام ، مستخدمة كل الوسائل المشروعة التى فى حتناولها ضد أى شخص كائننا من كان ! ، تكفى هذه الفقرة ، أعد قراءتها ! »

وأعاد روزو القراءة ، فقال رئيس التحرير راضيا : « نعم ؛ ضمنا على رأس المقالات السياسية ، بين عمودين ، ويبتط كبير ! »

ولما بالانصراف ، سأله السكرتير : « هل نشر شيئا عن احتياطى الجيش ؟ فقد جاءنا البأ الآن . »

فأجاب ديليكنو : « لا لا .. انشر البيان فقط ... والواقع أن مسألة احتياطى الجيش ليست مسألة مؤكدة بعد ... ولا بد أن نفتظر ريثما يقرها مجلس الوزراء ، أو يقر غيرها . »

واغتم نيتوميرديليا الموقف ، فانسحب إلى طاولة بعيدة ، وأخذ يطالع خطابه .. إن تانتا لم تعرف بانتقاله إلا الآن .. ولم يبلغ جينسا والديها بأمرها ، ولكنه

يتجسس عليها ، ويتوعدا بفضيحة لو ذهبت إلى بيت السيدة الكسندريسكو . .
قالت إن لديها الكثير لتحدث تيتو به ، وإنما تتوق إليه ، وترغب في رؤيته . .
وطلبت إليه أن يترك عنوانه الجديد مع البواب في مطروف ؛ فهي سوف تعود
حتما . . وأخني هيرديليا الخطاب ، وكتب عنوانه على قصاصة من الورق ، دون
أن يوقع باسمه . . وكان تيتو من جانبه يتوق إليها ، فقد جذبه صوتها الرقيق
وعيناها الساحرتان . . واقصد حاول عبثا أن يفرح بانتقاله من بيت السيدة
الكسندريسكو ، ولكنه ما استطاع الحرب ، فقد ظلت تانتا تملك فؤاده ،
ولم يستطع هو عنها حولا ، أيا كانت الضرورة التي تدعو إلى فرقتهما . . وكان
غيابها عنه باعث ألم وإلهام له في آن واحد . . فكان كل ليلة يفرغ شوقه في أشعار
ملتبسة ، لم يشأ أن يتناولها بالتهذيب ، لأنه لم يكتبها بقصد النشر ، وإنما تخففا
من همه .

واستأنف روزو الكلام ، بعد انصراف ديليكنو والصحفي ، وكان كلامه
الآن مشوبا بالسخرية ، بسبب البيان الذي تناقل الحقيقة الرهبة . . وتظاهر
هيرديليا الشاب بأنه يصفى إليه ؛ ولكن الكلمات دخلت من أذن ، وخرجت من
الأخرى — أصوات بغير معنى . كانت تانتا وحدها هي التي تحتل تفكيره .
وأراد أن يحدد لها موعدا مع العنوان ، ليدل على أنه سيكون في انتظارها . . .
ولكن ماذا لو لم تحضر في الموعد ؟ ولهذا أضاف ، بدلا عن الموعد ،
« أنا أحبك » ،

وتهد معتبطا وهو ينصرف من المكتب . . أخيرا انتهى الكلام في القلقل
والاضطرابات . . وبدا له أن هذه الاضطرابات لا تزيد على كونها صورة أخرى
من هذا الموضوع الأبدي الذي لا يكف القوم عن الخوض فيه ، وهو قضية
الفلاحين . . ولقد تعودت البلد أن تخوض دون انقطاع في المشكلات الخطيرة
دون أن تقوم بشيء حيالها . . وكان الناس يتوهمون أنهم بالكلام ، ولا شيء
غيره ، كانوا يؤدون واجبهم . وأن المهم في الأمر هو الكلام ، لا العمل وخاصة
إذا كان الكلام يكشف عن الفظائع والأهوال كافة .

كذلك جاء جاريفلاس ساعة الغداء ، وطرق حديث القلاقل والاضطرابات ..
وكان قد سمع بفضائح رهيبة على لسان الشرطة ، فقيل إن الفلاحين قد أقدموا على
نهب مدينة ، وإن الناس أخذوا يتحدثون عن التعبئة العامة .. وفي الأصيل التقى
بالقس يلكوج ، وكان في غاية القلق ، وقال : « أظن أنني أسأت اختيار الوقت
الذى أزور فيه هذا البلد ... إن الأشياء التي سمعتها تدعو للأسى ، رغم أنني
لا أدري مبلغ سمعتها .. ولقد أخبرني بواب الفندق بأن بعض اليهود جاءوا من
مولدافيا يتحدثون عن فظائع رهيبة » .

فأجاب تيتو في ثقة ، بدأ يحس هو نفسه في ظلها شيئاً من القلق : « لقد ألف
الناس الحديث هكذا أيها الأب ... هم يحبون أن يعملوا من الحبة قبة .. وربما كان
في الأمر شيء ، ولكنه ليس بالخطورة التي يتوهمونها ! »

« أنا لا أدري إذا كان من الحكمة أن أرجع لمسقط رأسي في سلام ، فقد
تنشب الحرب فتأخذني من تلايبي هنا . وافرض — لا قدر الله — أن الحدود
أغلقت ، وأن القطارات توقفت ! »

قال ميردليا وقد ثقل الهم على قلبه : « كفى . لا تقل هذا الكلام .. هل تظن
أيها الأب أن هذا البلد أصبح مرتعاً للويقات .. اطمئن ولا تلق بالآل إلى
هذا الهراء ! »

والتقى في الفندق مصادفة بجريجور أيوجا . وكان ذلك بمقر جريدة درابول ..
وكانا لم يتقابلا من نحو أسبوعين ... وكان جريجور قد حضر ليستجلى الحقيقة .
من كل هذه البلاغات المتناقضة التي أخذت تروج وتنتشر . أما في النادي ، فكان
كل شيء يقال حسب لون الحزب الذي ينتمي إليه المتكلم ؛ وكنت ترى من
تربطهم صداقة وطيدة بالوزراء ، إما أنهم لا يعرفون شيئاً على وجه اليقين ، وإما أنهم
أخفوا الحقيقة عامدين .. ولم يكن جريجور قد ذهب إلى آمارا منذ عيد الميلاد ،
سواء بسبب الطلاق أو من أجل دواعي أخرى .. ولكنه رأى من واجبه ، إذا
كان هناك ثمة خطر ، أن يمكث في القرية إلى جانب والده ..

قال بابتسامة مغتصبة : « أنا لا أعتقد أن الجرائد تعرف الحقيقة ، وهي

لا تنشر غير الأكاذيب .. ولقد أخبرني بيردلينو أن أنصرف لشئونى ، وأن الحكومة لن تسمح بالإخلال بالأمن فى أرجاء البلاد ... على أن هناك آخرين يقولون . إن الحكومة عاجزة ؛ وإنها لم تعد تملك ناصية الجماهير الغاضبة ..

ولم يتمكن تيتو هيرديليا من أن يدلّه على أخبار لم تنشر ، أو على الأقل أخبار من الممكن الزعم بأنها صادقة كل الصدق .. كذلك لم يشأ أن يحكى لأيوجا القصص التى سمعها فى العاصمة .. وعرفه بروزو الذى سر بذلك ، وقال فى مهابة بعد أن أزجى المدبج إلى تيتو : « الحقيقة أيها السادة هى أشد سوادا عما يظن أى إنسان .. إن الحركة تزداد انتشاراً يوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، ولا يعرف أحد هل مازال فى الإمكان اتخاذ أى إجراء من شأنه أن يوقفها عند حد ٤٠٠ هذا هو المصير الذى انتبها إليه .. ومن حسن الحظ أنه مامن دماء قد أريقَت بعد ، ومامن أرواح قد أزهقت .. ولكن لا يدري أحد ماذا باقى به الغد » .

وحدث أيوجا بإسهاب عما وقع فى بعض القرى والمدن ، وما نهب منها وما خرب ، ثم تعالَى صوته كخطيب يخاطب مجلس النواب من المنبر : « البلد فى طريقها إلى الثورة ، ياسيدى العزيز ، البلد كلها ! ! »

وتأثر أيوجا من هذا التنذير الذى صدر عن السكرتير ، فاستقر رأيه على الرحيل فى غده إلى أمارا .. ودعا تيتو إلى مصاحبته واعداء إياه ألا يمكثوا هناك أكثر من يومين أو ثلاثة أيام ، بل إن اضطر إلى البقاء أكثر من ذلك ، فسيسمع لتيتو بالعودة إلى بوخارست ... وسر تيتو لهذه الفكرة ، سيما فى الظروف الراهنة ، فنظر إلى روزو مستفسراً ، فرد هذا عليه فى عطف : « فى وسعك طبعاً أن تذهب يازميلي العزيز ، وأنا لا أستطيع أن أرفض لك هذا الطلب ! .. ولعلك تعود إلى الجريدة بمقال تمتع — فقال لابد أن يكون له دوى كبير ، أغنى ... آه ، آسف ، فالمقال عن أرجس . أما فى الوقت الراهن فكل شئ هادئ ، ولكن ينبغى الحذر مع ذلك فى أى مكان فى الريف ، وبخاصة فى هذه الأيام العصيبة .. ولهذا عليك أن تلزم جانب الحيطة يا عزيزى ، ولا تدع الفلاحين يقبضون عليك ! »

فضحك تيتو قائلاً : « أنا لست من الإشراف ملاك الأرض ! » .

فهيف السكرتير: « لا تضحك يا صديقي ؛ فهل تظن أن أولئك اليهود المساكين
الذين يعانون العذاب الآن هم من ملاك الأرض أيضا ؟ »

- ٥ -

قال جوجو ابونيسكو في جد لم يعود عليه : « أنا إذا أحذرك من العواقب إنما
أقوم فقط بواجبي يا عزيزي ؛ .. ليس من الحكمة الذهاب إلى الزيف الآن ..
طبعاً أنا لا أستطيع أن أمنحك إذا لم تصغي إلي ؛ ويبقى في ليسيزي هو تحت أمرك في
أى وقت من غير شك ؛ ولكنى أظن أنك بعد التروى وإمعان الفكر سوف ... »

فقاطعت نادينا في استخفاف : « لقد أعملت فكري وانتهى الأمر ... أنا
لا رى سبباً يصدني عن الذهاب ... بل على العكس .. كل شيء يدفعني ألا أوجل
حسم الموضوع ؛ وهذا لا يتأتى بغير وجودى هناك ؛ اللهم إلا إذا أردت أنت أن
ينشئ القوم ؛ وهذا مالا أرضاه لنفسى كامرأة ؛ لأن كل إنسان يتوقع أن
يضحك على .. والواقع أنتى لن أذهب وحدى ، بل سأخذ محامى معى ... »

« ألا تستلعيمن الصبر قليلا حتى ينجلي الموقف ؟ »

فأجابت نادينا ضاحكة : « أنا لست ذاهبة غداً يا جوجو .. فأنا لم أحدد
الموعد بعد ... سأنتظر أولاً حتى نجف الأرض قليلا ، ويتحسن الطريق ...
وعلى كل حال لماذا أنت مضطرب هكذا ؟ — إن كل شيء هادئ تماماً في
تلك الأنحاء ! »

فقال جوجو متوسلاً : « اتركى الضيعة وشأنها الآن ... إنها في عهدة
ملغزم ... اتركى الملغزم يعالج الأمر مع الفلاحين ، :

« هل تعتقد حقاً أن الفلاحين يهاجمون النساء .. لا تكن غرا !! »

قال جوجو : « لا بأس ، أنا لن ألح عليك ، لأنى أرى أن هذا الإلحاح لن
يزيدك إلا عناداً وإصراراً .. لقد كللت والدى ، وهو يرى أن الفكرة جنون

مطبق ، بصرف النظر عن رأى جينى ، وأنت تعلين مقدار حبه لك .. أليس كذلك يا عزيزتى ؟ .

وفاضت عينا يوجينيا عبرات ... وأرادت أن تهيب ، ولكنها ما كادت تفتح فها حتى شرعت فى البكاء ... وضاق جوجو ، وقال : ماذا بك حقا يا حياى ؟ .

فقلت نادينا : « الذنب ذنبك يا جوجو .. لماذا تبعث الذعر فى نفوس الناس دون موجب ... » أنا آسفة يا عزيزتى جينى ! .. لو كنت أعلم أن هذا الموضوع سيبب لك هذا الإزعاج لما ذكرت أننى ذاهبة ! ...

وكان جوجو ويوجينيا قد نزلا ضيوفا عليها فى الغداء ... وكان ثلاثتهم — وإجراءات الطلاق تسير فى مجراها — يأكلون معا تقريبا باستمرار ، إما معا معا ؛ وإما هى معها ..

وأخيرا صاح جوجو ، وقد ضاق ذروعا بعنادها : « اسمح لى يا نادينا ، أن أقول لك إن هذا جنون مطبق ! » .

فأجاب نادينا ، وقد مضت عيناها : « إن ما يفرينى فى الأمر هو الجنون لا أكثر ! » .

والحق أن الناس كلما نهوا نادينا عن الفكرة ، ازدادت تمسكاً بها .. وكان أول من صدها عنها هو أوليب ستافرات ، المحامى الذى يتولى لإجراءات طلاقها ، وكان سيدا كبير السن كلفا بالمغازلة ، وكان يعنى بلحيته عناية فائقة .. وكان الرجل يتودد إلى نادينا من وقت إلى آخر ، وأحيانا يتجاوز حدود اللياقة فكان يقف أمامها ، ويتهد ، ويرفع عينيه إلى السماء ، علامة على العاطفة المشجوبة ، على أنه لما سمع أنها أزمعت أن تصحبه معها إلى الريف ، رأى ألا مناص له من استعراء انتباهها إلى ما يكتنف هذه الرحلة من مخاطر .. على أن نظرة ساخرة من نادينا كانت كافية لأن يجعله يغير رأيه . قال : « أنا طبعاً لا أفكر فى نفسى ، بل أفكر فىك باسديتى العزيزة ! .. أما عن نفسى فأنا مستعد فى أى وقت لاند

أصبحك إلى آخر الدنيا . ثم تهد واستأنف الكلام ، قائلاً : ولعلك تلحظين أخيراً أن للحامى ، أيضاً ، قلباً ينبض ! .

أما ردول برومارو فقد رفض رفضاً قاطعاً ، وقال : « فيم تفكرين بحق السماء يا نادينا تفكرين في الذهاب إلى الريف الآن ! . أهذه نكتة من نكاتك ؟ أما عن نفسى فأنا سعيد جداً في بوخارست ! . »

بل إن رودلف السائق رأى من واجبه أن يحذرها من أن الرحلة حافلة بالمخاطر .

ولكن نادينا ، وهى تنظر إلى الأمر على أنه مغامرة من المغامرات ، اعتبرت الرحلة إلى الريف الآن مدعاة للبهجة . . وبطبيعة الحال لم يكن ثمة ما يدعو للمجلة . وكان في وسعها التريث والانتظار . وصحيح أن قرار الطلاق قد أصبح الآن نهائياً . ولكن مازال هناك أسبوعان أو نحوهما حتى تصدر الوثائق الرسمية . . وما كانت تنوى أن تبيع ضيعتها مالم يتم ذلك باسمها هى ، ولكنها ظلت تحدث نفسها بأن عليها أن تقرر إلى من تبيع الضيعة ، وتسوى كل شيء ، حتى إذا ماحل اليوم الذى تصدر فيه وثائق الطلاق ، كان في مقدورها أن توقع عقد البيع . وأن تنهى كل صلة لها بالريف .

قالت : « بالله يا جرجو ، لماذا تريد أن تجعل رحلتى الأخيرة إلى الريف رحلة غير عادية ؟ . . أنا أكره كل شيء عادى ! ! . »

صباح السبت ، بينما كان المعلم دراجوسى يقوم بشرح حكم جماعة الغاناريوت ، للصف الرابع ، إذا به يجد شرطياً بجانبه في الصف قائلاً في هدوء إن الرقيب يطلبه على عجل في نقطة الشرطة ليحدثه في أمر هام . . . وكأنما كان المعلم يترقب هذه الدعوة ، فأجاب في سكونية : « حسن ، سأكون هناك في لحظة . »

ولما لم يتزحزح الشرطى عن موقفه ، قال : « أأم تراك تريدنا أن نذهب سوياً ؟ . . لا بأس ، »

وتلفت حواليه ، وقد عجز عن تذكر المكان الذى وضع فيه قبعته . . .
كانت القبعة على الطاولة ، وأخيرا وقع بصره عليها ، ولكنه تناول معطفه أولا . .
وعندئذ سأل الشرطى : « هل أسمح للتلاميذ بالانصراف أم . . . »

وعندما هز الرجل كتفيه ، لأنه لم يدر ما يجيب به ، واصل المعلم الكلام :
« لماذا ينصرفون على كل حال ؟ . أنت يا ستيفان بومبو ، تعال مكافئ إلى المكتب . .
احفظ النظام ، واكتب على السبورة اسم كل تلميذ يأتي بجملة . . أفهمت ؟ . أما أنتم
يا أطفال ، فالزموا الهدوء ، وإياكم والخروج عن النظام . أنا لن ألبث
أن أعود . . »

وتطلع إلى الشرطى كأنما يستشف شيئا من سحنه ، ولكن وجه الرجل لم ينم
عن شيء . . ولما خرجا إلى الشارع ، قال بثبات : « أرى أن أميل على يفتى ونحن
على الطريق ، كيلا يستبد الوهم بزواجى ، فتذهب بها الظنون كل مذهب ! »

وذعرت السيدة دراجوس عندما شهدت الشرطى يمشى وراء زوجها فأخذت
تنسج . ثم شرعت تكييل السباب . . وحذت حمايتها حذوها . .

صاح دراجوس ، وقد هاجته دموعها : « كفى نواحا ، أنا لم أمت بعد ! !
بل أنا لا أدري لماذا أرسلوا فى طلبى ! » .

قالت فلوريكا : « هيا يا أفتى ، اذهب معه . . لاتفلس هنا دون حراك . .
وهب الشيخ على عجل ، كأنما أيقظه صوتها من غيبوبة . . وأراد المعلم أن
يقول شيئا ، فهو على كل حال مامال بالشرطى إلا من أجل هذا السبب ، ولكنه
رأى أن من اللازم ألا يتأخر ، فاكتفى بالمهممة وهو غائب اللب ، وقال : « لو قدر
لى ألا أرجع . . أعنى لو حدث هذا ، فأنا سأخبر والدى ، فهو سيأتى معى على
كل حال . . هيا بنا ! ! » .

ورأى أن عليه على الأقل أن يقبل زوجه ، ولكنه صد نفسه ، حتى لا تزداد
الأمور سوءا ، وحتى لا يشتد بها الخوف . . وإذ هو ينصرف قال فى هدوء
شديد : « إلى أن نلقى . . »

وكانت أمام نقطة الشرطة عربية لوبوشيريتو ذات الحصانين واقفة تنتظر ..
وتساءل المعلم في لهفة : « إلى أين ياعم لوبو » .

فأجاب المعجوز : « لا أدري ياسيد دراجوس .. لقد أمرت أن أحضر
عربي ، ومعها الدواب ، ولم يكن أمامي غير الخضوع ! » .

وكان الرقيب بونجييو واقفا في انتظار دراجوس بالفناء ، وتلقاه فرحا كأنما
كان يخشى أن يرفض المعلم الخضوع .. وتصالحا على جارى العادة ، ودخلا
إلى المكتب .

« ماذا حدث حتى ترسل في طلبي من الفصل أيها الرقيب .. » سأله المعلم
دراجوس ، في حيرة رجل لا يدري من الأمر شيئا ، رغم أنه كان في صميم نفسه
يعلم أن السبب يرجع إلى لئارته غضب ميرون أيوجا منذ ثلاثة أيام .

وأوما بونجييو إيماءة غامضة قصد بها أن يلح إليه بأنه غير مسئول على الإطلاق ..
وأبلغ دراجوس أنه تلقى بريقة تطلب إليه أن يرسل المعلم إلى بيتسى فورا ، وأن
يأتي به إلى مقابلة رئيس الشرطة شخصيا .

وتساءل المعلم وهو مهمووم : « وما الداعى أيها الرقيب » .

فأجاب بونجييو : « الأوامر أوامر ياسيد دراجوس .. ولا بد لي من
تنفيذها ! »

قال دراجوس : « أنا لا أؤمك إطلاقا .. إنما خيل إلى أنك ربما تعرف
السبب ، والأمر سيان على كل حال .. ولكن متى يجب علينا أن نرحل ؟ »

فأجاب الرقيب : « على وجه السرعة ، هذا ما صدر به الأمر .. ولشكك
لوشت أن تحضر شيئا من البيت ، فإننا نستطيع أن نوجل الرحيل ساعة ، لا أكثر ،
لأن المسافة بعيدة إلى بيتسى ، وخيل العم لوبو كما تعلم .. »

فقاطعه المعلم ، حفاظا منه على كرامته ، وخاصة لأنه بدأ يشعر أن أوصاله
ترتعد : « حسن ! هل سمعت الأمر الصادر يا أي ؟ .. اذهب على عجل إلى

المدرسة أولا ، وأطلق سراح التلاميذ - فقد تركهم هناك وحدهم . ثم قل
لزوجتي فلوريكا أن تأتي بما تراه صالحا لى فى هذه الرحلة ، وأسرع حتى
لا يضيع علينا الوقت فنجلب المتاعب إلى الرقيب .

وقدم بونجيو كرسيًا للعلم ، وأخذنا يتحدثان فى أمور عادية ، كذلك حضرت
السيدة بونجيو ، ومكثت معهما برهة تسأل عن أحوال فلوريكا . ثم ظهر شقيق
المعلم ، بعد نصف ساعة ، بعد أن سمع الخبر من أهل القرية . . كان مذعورا يتميز
من الغضب ، وكان يصيح قائلا : إنه سيذهب إلى الشريف ميرون ، ولأنه سيركع
على ركبتيه مستغلفا . . وغضب بونجيو ، وقال : إنه سيغير من مسلكه لو أصبح
الفتى مصدر متاعب له . . وعادت فلوريكا وهى تحمل طعاما وملابس .

قال : « أنت على استعداد يا سيد دراجوس . . هل نشرع فى المسير ؟ »

وفتح باب قاعة رجال الشرطة ، وصاح : « تعال يا بوجزا ! ! » .
وظهر فى فرجة الباب شرطى مدجج بالسلاح ، وضرب بمهازيه انتباهها .

وكان هناك نحو ثلاثين فلاحا قد تجمعوا فى الساحات وعلى الطريق . . لقد
انتشر فى القرية خبر إلقاء القبض على المعلم انتشار النار فى الهشيم . . وارتدت
أسارير بونجيو ، فقد كان يخشى أن تتعقد الأمور . . ومع ذلك فقد تحدث مع
الفلاحين بلهجة رقيقة ، قائلا : أليس لديكم شيء آخر تعملونه ؟ . . أفسحوا
الطريق ! ! » .

واقرب ماران سنان منه متوددا ، فقد كانت تربطه بالرقيب رابطة ود ، وقال :
« لا تكن قاسيا أيها الرقيب . . فن العار أن يذهب السيد دراجوس
هكذا ! ! . ولو شئت أنت ، فى مقدورك . . . » .

فتمضم بونجيو قائلا : « لا تتدخل فيما لا يعينك ، ولا أغضب منك يا ماران . »
وحل عليه الآخرون كذلك ، فنظر الرقيب إلى دراجوس ، وكان يودع
زوجته ، وقال : « هيا يا سيد دراجوس ، هيا ! ! . وأنا أزوجو أن يحرص على ألا
يحدث شيء فى الطريق ، فالشرطى لديه أوامر بإطلاق النار ! . »

فابتسم دراجوس ، والتفت إلى الفلاحين الذين أحاطوا بالعربة ، وقال :
« لا تخشى شيئا .. وداعا أيها الأصدقاء ، إلى أن نلتقى مرة أخرى .. » .

وردوا عليه جميعا : « في أمان الله ! » .

وبدأت العربة في المسير ... ولم ينظر دراجوس إلى الوراء ... كانت
بندقية الشرطي الجالس إلى جواره تتطوح إلى خلف وإلى قدام نذيرا وتحذيرا ..
وتمشت فلوريكا ، وقد سالت عبراتها على وجعتها ، في عرض الطريق وراء
العربة التي أخذت تغيب عن الأنظار وريدا وريدا .. وتنفس بونجيو الصعداء ؛
قد نفّس عن صدره مما ثقلا .. قال يحدث من كانوا حوله : « هل تحسبون
أننى أستطيع التصرف على هواى هنا ؟ .. أنا عندما ألقى أوامرا من هم أعلى منى
مرتبة ، لا أجد مفر من تنفيذها .. أنا جندى ، ومن واجب الجندى ألا يتطرف
له عين وهو يتلقى أمرا من الأوامر .. » .

« هذا صحيح ! » ، قالها نفر من الفلاحين مؤيدين ... أما جبهة الفلاحين
قد ظلوا في عرض الطريق يتحدثون ويتجادلون ويشيرون أسئلة شتى ...
ولجأة هب نيكولاى دراجوس ، فقال بمرارة : « أتم لا تفعلون شيئا غير الوقوف
هنا تثرثرون ثرثرة عواجز النساء ، بدلا من أن تذهبوا إلى الشريف ميرون ،
فتطلبوا إليه أن يمنع الظلم عن أخى المسكين .. ثم أتم لا تدركون أنه بسبيكم قد
زج بنفسه في خلاف مع الشريف و .. » .

وأصغى إليه الفلاحون ، بعضهم مؤيدا ، وأغلبهم دون أن يقول شيئا ...
ولذا قائل يقول : « فى مقدورنا أن نذهب ، وهو لن يقتلنا على كل حال ... »
ولكن صوتا آخر غنم فى خفة . « دلم لا نذهب أنت يا نيكولاى ، بدلا من أن
تدفع الآخرين على الذهاب ؟ » .

فصاح النقي غاضبا : « هل قلت لكم إننى لن أذهب ؟ .. هل قلت لكم إننى
لن أذهب ؟ .. هل تظنون أننى أخاف الشريف مثلكم ؟ » .

واشترك فلاحون آخرون ، فى احتياج أشد ، وكذلك النساء والأطفال ..

وغص الشارع بالناس ، من نقطة الشرطة حتى دار الأم أيونا ... وتحرك الجمع صوب واجهة بيت الشريف أيوجا ، وهم يتحدثون ويصخبون ، أما لوكا نالابا فكان يحدث الجمع قائلاً : إن الناس في القرى يقفون في وجه كل من يعاملهم هذه المعاملة ، وهب تريغون غوغو ، فقال في صوته النافذ : « هيا بنا جميعا ، كفانا ثرثرة كتميق الغربان ! »

ودخلوا إلى الساحة التي بها دور الخدم ، قطاير سرب من الحمام في الهواء ، وتفرق الدجاج وجلا ... وامتلات الساحة ... وخرج المشرف ، ليوتقى بومبو ، عارى الرأس ، وسألم في دهشة : « ما الأمر ؟ ... لماذا تجمعت القرية كلها هنا ؟ » .

وأجابته عدة أصوات في وقت واحد .. وحك المشرف مؤخرة رأسه ، واستأقف الكلام ، قائلاً : « لسوف يفضب الشريف ... » .

وتعالى صوت من بين الجمع قائلاً : « ليفضب ما شاء له الفضب ، فنحن أيضا غاضبون ! »

وظهر ميرون أيوجا بنفسه في تلك اللحظة صدفه ... لقد بدا لمقدم الربيع أصفر سنا ...

« ماذا حدث يا بومبو ؟ ... ماذا يريد هؤلاء الناس جميعا ! ... »

وأخذ ماران ستان يحدثه عن السبب الذي دعاهم للحضور ، وتكلم آخرون كذلك ، وأخيراً أدرك ميرون أيوجا الأمر كله ، فقال : « هم إذن ألقوا القبض عليه ! ... حسنا فاعلوا ... وأنا الآن أرجو أن تشربوا إلى رشكم ! » .

وهتف البعض في وقاحة بأن الواجب يقتضى العفو عن الملم — فتملك الفضب ميرون ، وقال : « هذا النوع من السلوك لا تأثير له على ! ! » وأنا يدهشني أنكم لم تعرفوني بعد ، رغم أننا نعيش معا . . وأنا كنت أحسبكم قوماً مهذبين ، ولكن يؤسفني أنني أخطأت التقدير .. ثم أتم الآن جمع غفير ، أما عندما يتعلق الأمر بالعقود فأتم تهربون وتباعدون ! » .

وصاح تودرستريجو : نحن لم نعد نتحمل العقود القديمة يا سيدنا ! ..
وأطفالا يتضورون جوعا ، رغم أنني أعمل طوال النهار

فصرخ ميرون أيوجا : د أتقول إنك لم نعد نتحمل ؟ .. حسن جدا ! ..
ابق في بيتك ، وضع وقتك في البكاء والكسل . . . أما الذين يجدون ويلزمون
جانب العقل ففي مقدورهم أن يكسبوا رزقهم من العمل بأمانة ! . .

قال سيرافيم موجوس برقة وحزم : د ما من أحد يضع وقته في الكسل
واللهو يا سيدنا . . . كلنا نعمل بكل ما في طاقاتنا من جهد ، وقد آن الأوان أن
نمد لنا يد العون ! . .

قال الشيخ ميرون بفضاطة : د أنا لا أساوم مع أحد .. وأنا لا أطلب
إليك شيئا . . . وطالما هناك أرض فلن يعوزنا من يفلحها من العاملين ! .. وإذا
رفضتم أتم العمل فسنجلب أناسا من ترانسلفانيا يفلحونها ! . .

فصاح تريفون غوغو : د لا نريد أجانب هنا يا سيدنا ! .. نحن الذين قنا
بفلاحة هذه الأرض دوما ، وليسوا هؤلاء

فقال ميرون غاضبا : د أظن أنني في حاجة إلى رأيك أيها المأفون ؟ ..
إياك وقلة الحياء . . . هيا انصرفوا .. ليس عندي بعد ما أقوله لكم ! ..
اغربوا عن وجهي ! . .

قال لوكا تالابا بشات ! : د ليس هذا عدلا يا سيدنا ! .. لا لا ، هذا
ليس عدلا

ووقف ميرون أيوجا دون حراك حتى خلت الساحة من الناس .. وإذا ذلك
قال في اشمزاز : د أغلق الأبواب يا بومبو ! . .

وفي اليوم التالي ، وكان يوم أحد ، وبينما الناس يصرفون من الكنيسة ، فإذا بنبأ يتردد ويقول إن ثمة رجلين كانا يمتطيان جوادين أشبهين ، قد عبرا القرية منذ قليل ، وهما يحملان الأوامر الصادرة من الملك . . وتقاطرت جماعات الناس في الفضاء الواقع أمام الحان ، حيث اعتاد القرويون أن يرقصوا الهورا واجتمعوا ليسموا النبأ .. وكان الكثيرون ينمقون في رواياتهم ، ويحشونها بالتفاصيل . وكان لجنات سيرسل ينتقل من جماعة إلى جماعة ككلب ضال ، ويسأل نفس السؤال : « أنظنون انه قد أصدر أمراً بخصوص الأرض ؟ » .

وصاح العمدة أيون برافيلا ، بعد أن أصفى إلى يمين وإلى شمال ، فقال ساخرا « أتم متأكدون من أن فرسانكم ليسوا من عمل الوم والخيال ! » .

ولم يضحك أحد .. وقال عجوز معاتبا : « لا تسخر منا يا سيادة العمدة . . ليس المقام مقام هزل ... والامور لن تمضي دوما في الطريق المعوج ، بل لابد أن يتحقق العدل يوما ما !! » .

فأجاب برافيلا وقد تغيرت لهجته : « ولكن العدل لن يأتي على ظهر جواد يا صاحبي العجوز ! » .

فغمغم الشيخ : « لا يهم كيف يأتي ، المهم أن يأتي والسلام . » .

وقال ليونتي أورييسور: إن أنغلينا ، زوج نيسطور موكنيكو ، هي التي التقت بالفارسين .. فقد أخبره بذلك شخص .. لا يتذكر من كان .. ورأى لوبوشيريتو أن الحكاية تحمل في طياتها بعض الحقيقة ، لأنه هو أيضا قد سمع كثيراً من الأبناء في بيتسى ، قبل ذلك يومين ، عندما ذهب بالسيد دراجوس إلى هناك .

وبعد برهة جاء فاسيل زيدارو بأنغلينا انقص عليهم الحكاية ، وكيف حدثت .. ولما رأت المرأة هذا الحشد الكبير حولها ، وعيونهم التي متركزة عليها ، نكصت على عقبها ، وخافت من الكلام ، وقالت : « لقد تركت الأطفال وحدهم بالبيت و... » .

وأراد العدة أن يستجوبها ، ولكن أنفلتتا ذمرت ، ودافعت عن نفسها بقولها : إن أنا ما آخرين لابد قد شهدوا الفارسين أيضا ، فبما والحق يقال لم يتسكبا طريق الناس .

واستحنتا إيجنات سيرسل ملاطفا : « هيا يا فتاتي ، قولى لنا الحكاية من بدايتها ، ولا تخشى شيئا . . . نحن أيضا نريد أن نعرف الأوامر التي جاء بها الفارسان ، وذلك حتى لا نفع في أى خطأ أيا كان ! »

وأخيرا استجمعت أنفلتتا أطراف شجاعتهما ، وقالت : « أنا كنت في طريق إلى بيت حماي ، لاستعير مزيدا من الذرة . . . وكان ابني معي . . . وبينما أمر بجانب الكنيسة ، سمعت الأجراس ، فرسمت الصليب على صدري ، وشعرت بالتحلل من نفسي ، لأنني لا أذهب إلى القديس ، بسبب كل هذه المتاعب التي تأخذ بجنتي . . . وما كدت أستعيد بالله حتى شهدت الرجلين على جوادين أشبهين وهما يجتازان الطريق . . . وكانا بأتيان عن طريق ليسيزي . . . وتحميت إلى جانب الطريق ، وإذا برجل منهما ينادي بي ، قائلا إلى أين ذاهبة أيتها المرأة ؟ قلت : « أنا ذاهبة إلى دار حماي ، هناك ! » وعندئذ قال الرجل الآخر : أنت امرأة مسكينة جدا فيما أرى ؛ ولكن لا تحزني ، فمتدنا لكم أخبار طيبة . . . لقد أرسلنا الملك لتعبر الشعب بأن الضياع من الآن فصاعدا قد أصبحت ضياعهم ؛ وأن على الشعب أن يقوم بتوزيعها فوراً قسمة عادلة ، وأن يطرد الملاك والمتمرزين وأن يحرق بيوتهم وصوامعهم وآلاتهم الزراعية ، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك أبداً ! هل فهمت يا امرأة . . . ويجب على الناس ألا يتوانوا ، فهذا أمر الملك ، ومن لا يطيع هذا الأمر فسيدفع الثمن غاليا ! ، هذا ما قاله لي الفارس . . . فقلت له : « فهمت ولكن . . . » فقال : « هذا جميل إذن ، الوداع ! » فقلت لهما : اذهبا في عناية الله ! ، ثم انطلقا إلى الوادي ، والتفت أنا إليهما ، وجعلت أتابعهما بنظري فترة ، ثم مضيت في طريق ، وقلت لحماي ما أخبرني به الفارسان ، فدهش هو أيضا دهشة شديدة . . .

وخيم الصمت على القوم ؛ وأخيرا قال إيجنات سيرسل ، وهو يهز رأسه : « هذا عظيم ، عظيم جدا ! ! »

واستمعوا إلى مزيد من كلام أنفلينا ، قالت : إن الفارسين كانوا في ملابس بيضاء .
وإنهما انطلقا إما إلى روجينوزا ، وإما إلى فايدى . وأرسلها العمدة بعد ذلك لترعى
شئون أطفالها . .

ثم وصل أنطون ناتشو بعد ذلك بكثير ، وكان قد ذهب في مهمة إلى روجينوزا . .
كذلك قال إنه التقى في طريقه بالفارسين المنتشحين بالبياض ، كما ردد الشيء نفسه ،
أعنى أن على الناس أن يوزعوا أرض الإشراف دون أى تأخير ؛ أما من يقاوم
منهم فلا ينبغي أن يؤخذ بالرحمة ، لأن الفلاحين لم يلقوا رحمة في يوم من الأيام .

وكان الجو كثيبا ؛ والسماء ملبدة بالغيوم ؛ رغم أن الربيع قد أقبل الآن . .
وكان الناس يرتجفون ، ولكنهم لم يتفرقوا أشتاتا . . وعند الظهيرة وصل ماتي .
دولمانو ؛ ومعه آخرون من ليسيزى ؛ وقالوا إن الفارسين مرا عبر قريتهم أيضا
كذلك رجع إيرى بوبا من فايدى ؛ وهو خفير كوزما بيربونا ؛ فقال : إن الناس
هناك أيضا في حيرة يعجبون من أمر الفارسين الذين أمرا القرويين أن يستولوا
على أرض الإشراف فورا . .

قال ليونتي أوريسور : « ليس لهذا كله غير معنى واحد يا إيرى . . لقد
حل دورنا الآن ! » .

وقال ليجنات سيرسل مرهوا : « ألم أقل لكم أنا قبل زمن طويل : إن الملك
يرغب في توزيع الأرض . . لقد رفضتم أن تصدقوني إذ ذاك ؛ والآن ها أنتم
هؤلاء ترون أنني كنت على صواب ! »

ولزم العمدة الصمت ؛ وانسحب إلى الحان يدق نفسه بقليل من الشراب ، .
ثم أوى إلى بيته ، فقد آثر أن يبعد عن المكان والناس يستمرهون هذا الهراء .
أما ييتريتر فقد أخذ يذكر لوكاتالابا بما تجشمعوا به بوخارست من متاعب ،
جريا وراء ضيعة السيدة ، وختم كلامه قائلا : « من حسن الحظ أننا لم نتورط في
هذا الأمر ! »

« اصبر قليلا ، فالسألة لم تنته بعد ! . . أما لو وزعت الضياع فعلا ، كما
يزعم الناس ، فهذا شيء في متهى الجلال ! »

وتعالى صوت تريفون غوغو ، ساخطا غاضبا ، فقلب التردد الذى ران على
الفلاحين الآخرين ، قائلا : « ماذا نحن فاعلون إذن ؟ .. هل نكتفى بالجلوس
هنا نقتلح كيزان الذرة ، أم ينبغي علينا .. »

وأخذت أصوات جديدة تردد معه : « نعم ، ماذا نحن فاعلون ؟ .. لقد شبعنا
من الكلام والنصح والإرشاد ! »

وتدخل ميلت هيرفيمو فقال عتدا : « هذا حق والله ! .. والآن علينا أن
ننظم الأشراف السكيات الجوفاء ، فقد شبعنا نحن منها ! »

النيران

الفصل السابع

الشرارة

- ١ -

في نفس يوم الأحد هذا ، عند الظهيرة تدل جريجور وتيتو هيرديليا في محطة جبردى ، حيث كانت تنتظرهما العربية الصفراء من آمارا . وقد وقف لإخيم أمامها .
وتساءل جريجور : أكل شيء على ما يرام يا إخيم ؟ .

فأجاب الخوذى : الهدوء مستتب في الوقت الراهن يا سيدى ١ .

ولم يستحسن جريجور هذا الجواب ، ولكنه لم يلبح في السؤال ، فقد كان حسبه ما لقي في رحلته من مضايقات . . لقد كان هو والشاب هيرديليا الراكبين الوحيدين في العربية . . وكانت جميع العربات الأخرى تقريبا خالية من الركاب كذلك ، ولكن كانت هناك جماهير خائفة في كل محطة ، وكانوا يرددون حكايات عن الفظائع التي ارتكبتها الفلاحون ، وكل منهم ما قد يقدمون عليه من جرائم في المستقبل . بيد أن كل واحد فيهم كان يعترف في النهاية بأن الهدوء مستتب في ناحيته ، ثم يستطرد ويقول : إن ثمة أشياء لا يمكن تصورها لا تزال في ضمير القريب . . وعلم جريجور أنه ما من شيء قد وقع في تلك النواحي ، فعجب لهذه المبالغات كلها ، ورأى فيها استثناءا للناس على الإخلال بالنظام . . وكان من سوء حظه ، علاوة على ذلك — أن طلع عليه لإبل وجوجينارو من محطة اسمها تيتو ، وهو الملتزم الذي زامله في السفر في الحريف الماضى ، وهو الذى أثقل عليه ينظرياته السخيفة في الشؤون الزراعية . . ولم يستطع أن يتخلص من الرجل قبل كوستسنى ، وإذ ذاك قال الرجل بصوته الجهورى المرح الذى تعود عليه دائما : حسنا يا سيدى ، أترانى كنت على صواب بشأن الفلاحين ؟ .

وانتقل الرجل بعد ذلك إلى ديوانهما ، ليتجاذب وإياهما أطراف الحديث

بعض الوقت ، فقال : إنه أسرع إلى بوخارست عندما ترى إلى ممعه أن ضيعة باباروجا معروضة للبيع . . ولقد حاول هو قبل ذلك بزمان طويل أن يجد له مستقرا بالقرب من بوخارست ؛ ولأنه ليود أن يشتري له قطعة من الأرض في « أرجس الدنيا » حيث بدأ أول عهده بمتن مهنة الزراعة الشاقة . . ولهذا أخذ أولا يسعى طالبا المزيد من المعلومات ، ثم ذهب في زيارة إلى البيت السكان في مترادا أرجيقتارى . . وما كان يعرف أن السيدة وزوجها يسعيان إلى الطلاق ، ولهذا سأل السيدة عن صحة زوجها - والحق ، إنها لفي غاية الجلال ، بل إنه لم يحرق على التطلع إليها وقاية لها من العين الحاسدة ، ولكنه عاب نفسه عندما أخبرته بأمر الطلاق من فيها الصغير الحلو . . وتباحثا في أمر الضيعة ، واستقر بهما الرأي على لقاء بيتها في القرية خلال أيام قلائل ، لأنها ذاهبة إلى هناك لتبيع الضيعة ، لانفرض آخر . . وإذا به الآن يرى الثورة قائمة ، فيضطر إلى العودة مسرعا إلى موطنه في أولينا حيث جمع ثمرة كفاح السنين ، فقد علم كيف يناطب الفلاحين ويتعامل معهم ؟ .

صاح : « أسأل الله أن يقينا شر هذه النار ! . . وليت أولى الأمر كانوا على حذق وبراعة . . فالفلاحون يطلبون العدل ، ولكنهم في حاجة أيضا إلى حاكم يسوسهم . . أما لو كان الحاكم ضعيفا ، فلن يفتح الفلاحون بالعدل وحده . . ولهذا السبب أنا أرى أن الشعب لن يركن إلى الهدوء ما لم تكن هناك يد حازمة . . وأنا لا أصدق الجرائد ، فهي تذكر الأكاذيب أكثر مما تذكر الحقائق . . وقد التقيت قبل الأسس بملتزم يهودى من ضواحي فاز لوى ، وقال لى هذا التعس أشياء هي أبعد ما تكون عن التصديق - قال إنه اتفق مع فلاحيه كما سبق له أن فعل من قبل ، ولكن عندما حل موعد توقيع العقود ، حضر رئيس الشرطة ، وأشار على الفلاحين أن يحذروا من خداع الملتزم اليهودى ، وأن من الخير لهم أن يطردوه من القرية . . أسمعتم بمثل هذا ؟ ! رئيس شرطة يحرض الفلاحين على طرد أحد الملتزمين !! »

هذا كل ما كانوا ينتظرونه ! لقد أشعلوا النار في بيته ، وأهلكوا ماشيته ، واقتروا آثاما أخرى عديدة . . ثم ما رأيكم في السبب الذى دفع رئيس الشرطة

على تحريض الفلاحين ؟ .. أ لأنه يعتقد على اليهود ! أبدأ واقه !! إنما كان شقيق زوجته يريد أن يستولى على التزام العزبة .. ولكنه لم يتمكن من الحصول عليه .. فقد ظن أنه بمجرد أن يطرد اليهودى سيتمكن من وضع يده على العزبة الرائعة .. ولكن ما حدث لم يكن فى الحسبان ، لأن الفلاحين هبوا وأرادوا توزيع الأرض فيما بينهم .. وبطبيعة الحال غضب رئيس الشرطة غضبا شديدا ، واستدعى الجيش . ولكن لم تكن ثمة جدوى .. فقد نفى الناس عنهم ثوب الخوف ، لأنهم كانوا يعلمون أن لدى الجنود تعليمات تقضى بعدم إطلاق النار ، ولهذا كانوا يهجمون على الجنود بالمداري والأحجار ، فلم يدر المساكين إلى أى جهة يهربون .. ولهذا أبها السادة أنا لأعرف كيف يمكن استحثاث الفلاحين على التزام الهدوء ، والامتنال إلى الطاعة ، ولو كان أولو الأمر أنفسهم هم الذين يشجعونهم على هذا المسلك الشائن ! . حسبنا أن المعارضة لاتراعى المسؤولية الواجبة ، وأنها تكثر من الضجيج فى جميع الجرائد ، وتقول : إن الفلاحين على حق ، ولأنهم لا يمتدحون من يهديمهم سواء السبيل ! .

وازداد جريجور كآبة كلما اقترب من آمارا .. لقد أحس أن الجو ينفذ بشر مستطير .. كذلك ندم هيرديليا الشاب على حضوره ، فقد رأى ألهم الذى ران على رفيقه ، ولم يدر العلة التى دفعته إلى دعوته .. واشتم جريجور ما ألم به ، فقال فى سأم : أنا آسف إذ أجد نفسى هكذا ، وأنا شخصا لأدري علة لما اعترانى ! .

وسارت العربة بمشقة عبر الطريق ، وكان موحلا من أثر أمطار الربيع المبكرة .. وغنم لإخيم ، وهو يستحث الفرسين قائلا : د الطريق لا يجف أبدا عندما يهطل المطر باستمرار ، والشمس لا تطلع إلا لاما ، .

وتفحص جريجور القرى والحقول مليا ، كأنما كان يحاول أن يستشف منها شيئا .. كانت الأرض الداكنة المشققة ، تحت قبة السماء المعتمة ، تكتنفها عيون لائمة من ماء ، ليس بالعذب وليس بالأجاج ، أما فى القرى فقد تجمع الفلاحون على عادتهم أيام الآحاد ، يتحدثون فى الحان ، أو أمام أحد المنازل .. وبدا لجريجور أن فى عيونهم برقبا جديدا ، وأن أسارىهم تم عن عزم قوى وتصميم

تأكيد .. وسأل جريحور الحوذى بعد أن اخترق ليسيزى : « كيف حال العمل يا إنيخيم ؟ » .

فأجاب المجوز في حذر : « جميل ياسيدى لأننا لم نبدأ فيه بعد !! أما الطقس فسيء ، لأن المطر لا يكف عن الانقطاع ، والناس لم يستقر رأيهم بعد بخصوص العقود .. » .

فصاح جريحور : « أقول إن العقود لم تبرم بعد ؟ » .
« الأمر كذلك ياسيدى ، والناس مصرون على الامتناع ، ويتأودن في الموضوع ، فقد ترامت إليه الأنباء هنا بأن الضياع ستوزع بين الفلاحين .. وهم لهذا ينظرون ويترقبون .. » .

وفي آمارا تجمع رطل من الفلاحين أكثر عددا من المعتاد حول حان بوزوك .. وقال إنيخيم : إن الناس قد وفدوا من القرى الأخرى أيضا ، وذلك بسبب الفارسين اللذين جاءا هذا الصباح بأوامر الملك ..

بل إن وجه والد جريحور أيضا تم عن القلق ؛ رغم أن الشيخ حاول أن يخفيه .. وكان أيوجا الشاب على يقين من أنه لن يتمكن من معرفة شيء منه ، ولهذا رأى أن يتصل بالفلاحين ليستشف منهم كنه الجو السائد ، وإن كانت كلمات إنيخيم القليلة قد دلت على الشيء الكثير .. وحدث الشاب أول من حدث المشرف يومبو فاعترف له بما يعتره من فزع شديد ، وأن من المحال إخطار الشريف ميرون بشيء من الأخبار ، لأنه مضطرب كل الاضطراب ، ولأنه يخشى أن يفتضب الشريف عليه .. ولو أن الشيخ قد قبل فقط أن يخفف من وطأة الالتزامات التي جاءت بالعقود ، لما كان أنه ما يدعو إلى القلق الآن .. ففعل الناس حينئذ كانوا يتعنون قليلا بما يلقي لإلهم من فتات ، أما الآن فهم لا يريدون حتى أن يسمعوا شيئا عن العقود — وبخاصة لأن شائعات شتى تتردد بشأن توزيع الضياع — ومن ثم لم يعد ثمة سبيل للوصول إلى اتفاق مع أى إنسان .

وذهب جريحور إلى القرية في صحة تيتو .. والتقى بالرفيق بونجيو ، فأخبرهما بأن الهدوء مستتب حتى الآن ، بيد أن إلقاء القبض على المعلم درا جوس قد أفضى

على بليدة أهل القرية . . وهو لا يعرف السبب الذي دعا إلى إلقاء القبض على المعلم ، ولكن الناس يقولون في القرية : إنه يرجع إلى الشريف ميرون ، لأن دراجوس قد تشفع لديه من أجل الفلاحين .

ثم انضما أخيرا إلى الجمع الواقف أمام الحان . . وسألهم جريجور عن متاعهم فخلق منهم إجابات رقيقة ، ولكنها لا تشف عن رأى ، فهم من لم يجرؤ على الجهر برأيه ، ومنهم من لم يشأ أن يكشف عن دخيلة نفسه ، رغم أن نظراتهم جميعا كانت تتم عن التساؤل والاستطلاع أكثر مما كانت تتم عن العداء . . وألح جريجور خاصة على بيتر الذي كانت سماته تبدو أكثر من غيره قلقا وأشد توترا . . واربك بيتر . . فقد كان يكن الإخلاص لجريجور ، لاسيما بعد أن أعطاه هذا ثمن الثورين ، وبعد أن ألقى الديون التي كانت عليه ، فكان لذلك مستعدا لأن يذهب إلى الجحيم من أجله . . قال في حيرة : « نحن نفعل ما يفعله غيرنا ياسيد جريجور . . إن العقود القديمة كانت قاسية علينا جدا ، ولم نستطع أن نعيش . . واربك ياعم لوبو ، حدث السيد جريجور عن متاعينا ، فأنت أكبر مني سنا ، وأطلق لساننا . »

واستحث جريجور بمضول وود : « هيا ياعم لوبو ، هات ماعندك . »

« الأمر وما فيه ياسيدي أن بعضنا وافق ، وبعضنا الآخر أخذ يقلب الأمر في ذهنه ، وكل حسب ما يوحى إليه عقله وإحساسه ، قالها لوبو شيريتو ، وهو يزن كل كلمة نطق بها . . ولكن الناس يمرون بفترة صعبة جدا ، ولينك تصدقنا ياسيدي ، أنا رجل عجوز ، والله وحده يعلم إن كان العمر يمتدني حتى عيد الميلاد أم لا يمتد ، ولكن الذي أدره هو أننا نسير من سيء إلى أسوأ . . لقد كنت أنا فتي يافعا على أيام جدك ياسيد جريجور ، ولهذا أنا أعلم كيف كانت تجري الأمور حينذاك . . لقد كان جدك على شاكلتك ، طيب القلب رقيق الحاشية ، وما كان يسمع عن أحد يعاني من الجوع أو البؤس إلا ويأمر على الفور بأن ينال حاجته من بيت الدائرة . . وما كان يأخذ إلا عشر المحصول ، ولهذا استطعنا أن نعيش ، ثم إن الأرض كانت كافية ، لأن الناس لم يكونوا بهذه الكثرة . »

وواصل الرجل ذكرياته حتى قاطعه الآخرون . فسألوا جريجور عن الفارسين

الذين حلا رسالة الملك ، وتساءلوا عن متى وكيف يبدأ توزيع الارض ؟ .

وسأل جريجور هيرديليا الشاب ، وهما في طريق العودة ، عن انطباعاته . قال تيتو : « الظاهر أن الناس يركنون إلى الهدوء .. ولو أن المرء عرف كيف يسوسهم لامسكه الاتفاق معهم .. ولكن لا يدرى أحد إلى متى يستمر هذا الهدوء ، لأن .. ؟ »

فغمغم جريجور وهو قلق : « هذا بالضبط هو السؤال الاساسى ا . »

وقضى المساء وحده مع أبيه يبحثان الموقف ، ويقرران كيف يتجنبان الكارثة المحتملة .. وغضب ميرون غضبا شديدا عندما سمع أن ابنه قد تكلم مع الفلاحين في القرية ؛ ولما سأله جريجور أن يتدخل بغية إطلاق سراح المعلم على وجه السرعة هب الشيخ قائلا : « أنت إذن تريد أن أحط من منزلى أمام الفلاحين » .

فهدف جريجور : « المسألة ليست مسألة كرامة يا أبى .. المسألة هي أن دراجوس لم يقترف جريمة تدعو .. »

« إن صاحبك دراجوس هو الذى يثير فائرة الناس في قريتى ا ا .. إنه هو الذى بث البلبلة في نفوسهم ؛ وهو الذى أهاجم ضدى . وهو الذى نكأ جراح ماعانوا من مظالم .. وما فعله أصحابك في العاصمة ، فعله دراجوس هنا .. لقد حطم الجهد الذى بذلته أنا طوال ثلاثين عاما .. والواقع ، لمعلوماتك الخاصة ، إذ ربما لم يصل إلى عليك ، أنه أنا الذى طلبت إلى رئيس الشرطة — لما توافر لدى من أسباب وجية — أن يزيع المعلم من القرية . وأنا أؤكد لك أن عدم وجود صاحبك هو خدمة للفلاحين أنفسهم ا » .

« أنا أعاطفك في هذا رأى يا أبى ؛ فدراجوس لا غناء عنه هنا ، في هذا الوقت بالذات .. فهو وحده ، بنفوذه الشخصى ، الذى يستطيع أن يكون « فرملة » توقف هذا العداء وتلك الكراهية » .

قال الشيخ ميرون باحتقار : « مادامنا قد بلغنا هذه المرحلة باجريجور فلا مناص من الاستمرار .. أنا وحدى « الفرملة » يا بنى ا ا » .

وامتلات نفس جريجور ارتياحا .. لقد أدرك أن والده يعيش في دنيا غير دنياه ، وأنه ينظر إلى الأشياء على غير حقيقتها .. وأخبر والده بكل شيء سمع به ، مؤكداً له أنه لم يكشف إلا قدراً ضئيلاً من المظالم التي تنتزح بلهب مستطير ، نظراً لنفثة الوقت الذي أتبع له ، . وأخيراً طلب إلى والده أن يأذن في بذل محاولة للوصول إلى اتفاق مع الفلاحين .

ورفض ميرون .. كان على يقين من أن جريجور ، بأساليبه النسائية ، سيزيد الأمور سوءاً .. ولقد بلغ إيمانه بنبرته الشخصية ، وبمعرفته بالناس حداً جعله يعتبر أن من المهانة ، في هذه اللحظة الحرجة ، أن يتراجع عن استخدام وسائله المجرية ، الموثوق بها ، والتي أظمت عشرات السنين ، وأن يعهد بالموضوع ، بدلاً من ذلك ، إلى شاب اتعم رأسه بالمعلومات النظرية .

قال ميرون متعاطفاً : « إن لحظة واحدة من الضعف أو التردد أو عدم التبصر لن تكون إلا مدعاة لتشجيع هؤلاء الفلاحين المناكيد ، قرام يفتبطون لاضطرابك ، ويواصلون فعلهم الإجرامية ! . والواقع أنك تنال في الحالة هنا وإن كنت تفعل هذا بالطبع دون قصد .. أنا لا أدري ما يحدث في النواحي الأخرى ، ولكني أعتقد أن هذه المغالاة المقصودة قد خلقت جواً كئيباً على وجه العموم .. وأنا لى ، مع رجالى ، وسائلى الخاصة الموثوق بها - أولاً الاستسلام ، ثم المفاوضة بعد ذلك .. وطبعاً لا يستطيع المرء أن يعمل ، أو أن يحصل على أية نتائج ، باستخدام طريقتين في وقت واحد .. وأنت لو كنت قد استشرتى في الأمر لسألتك ألا تقحم نفسك مع الفلاحين ، أو تصنى إلى طلباتهم . هذا ، في رأيى ، علامة على الضعف ؛ وأنت بهذا تصورنى في صورة طاغية جبار ، وتقلب سياسى رأساً على عقب . »

فقال جريجور : « عندما يشجر خلاف ، فن الحير دائماً أن يوجد وسيط . »

فقاطعه الشيخ في حدة بالغة ، فقد تذكر كيف أدلى المعلم باقتراح مماثل ، قال لالا - أنا لا أرى أى خلاف ، بل أنا أكثر من هذا لا أعترف بإمكان وجود خلاف بينى وبين رجالى .. فإن هذا معناه أننى ، أنا أيضاً ، أسخرهم كما يسخرهم

الآخرون ، أو أنتى أستغل عجزهم - وأنت تعلم حق العلم أنه لم يكن من عادتنا أن نشيع على حرمان الفلاحين .

واستمر النقاش إلى ما بعد منتصف الليل بكثير .. ولجأ جريهور إلى كل حجة والتمس كل ذريعة ، ولكن إصراره أسخط الشيخ ، بقدر ما أغضب عناد ميرون ولده ، فقال له آخر الأمر صراحة : إن احتقاره الحقيقة الواقعة قد يفضى به إلى المخاطرة بأملأك ، بل وبحياته .

قال الشيخ فى النهاية : « لقد أشرف الصبح ، ونحن نضيع الوقت فى الجدل ! ويوسفى أنك لم تعلم بعد أن أبأك لا يستسلم أبداً حين يكون على يقين من أنه على صواب ، وهو لا ينحنى أبداً إلا أمام الله سبحانه » .

فتساءل جريهور : « إذن لم يبق أمامى إلا أن أعود كما جئت » .

فقال الشيخ وهو يهز راسه : « هذا ما أرى .. وأنا كنت أود أن تكون إلى جوارى ؛ ولكنى أراك عتبة فى سبيل ، بدلا من أن تكون ساعداً .. ارجع إلى بوخارست ، واتركنى أدافع عن أرضى .. هذا هو واجبى طالما أنا على قيد الحياة .

وحاول جريهور ، فى صباح الغد ، أن يستأنف النقاش ؛ ولكن أباه أوقفه فى حزم ، وأشار عليه بالرحيل .. وكان الشاب قد قلب الآمور فى ذهنه ، فرأى أن هذا ، والحق يقال ، هو الحل السديد .. وإلا فهو لن يلتقى غير الاعتراضات حينماولى وجهه ، الأمر الذى سيفضى إلى شلل كل حركة يقوم بها .. يضاف إلى ذلك أن ناديتا أعلنت عن قدمهما .. وسمع جريهور بهذا الآن لأول مرة ، فقال غاضبا ، « ماذا يقول الناس عن هذا .. أنت تعقد صفقة مع زوجتى السابقة .. شئ جميل والله ! ! ماذا سوف يظن بنا الفلاحون ؟ » .

قال الشيخ : « بمجرد أنها طلقت منك ، هل معنى هذا أنها أصبحت مجذومة ينفى أن يتحاشاها كل إنسان ، وألا يربط ولداها بأى عمل ؟ .. أنت فى هذا ، شأنك فى كل شئ ، تبالع وتغالى .

فصاح جريهور : « لا أدرى من منا الذى يبالغ يا أبى ؛ ولكنى أعلم علم اليقين

أنتى لا أستطيع أن أبقي ، وأن أقابل ناديتا في نفس اليوم الذى صدر فيه حكم الطلاق ! ، .
فقال ميرون مؤيداً : « هذا سبب آخر يدعوك إلى أن تتركى وشائى ،
لصالحنا معا ، » .

واضطرب جريجور أن يرحل عقب الغداء مباشرة ، حتى يجد فسحة من الوقت
ليلحق بالقطار السريع من كوستنقى . . . ووصل لإخيم مبكراً فى العربة الصفراء ،
وتوقف على عتبة الدرج . . وعانق ميرون ابنه ، دون عاطفة كالمهد به دائماً ، أما
جريجور فلم يتألك مشاعره ، فقبل والده على خديه .

« سأعود بعد أيام قلائل يا أبى . . وأرجو أن أجدك وحدك عندئذ ! ، » .

فأجاب الشيخ فى ثقة : « ستمود حين يهدأ كل شىء يا جريجور ، » .

ومحب جريجور العربة حتى واجهة الفيلا الجديدة ؛ بجانب حوض الزهر الذى
على شكل القلب ، وكان الحوض قد أصابه التلف من قسوة الشتاء . . فلما مر خلال
المدخل ، تطلع إلى الورا . . كان الشيخ واقفاً فى نفس المكان ، راسخاً كطود
امتدت جذوره فى الأرض .

وكان الفلاحون مجتمعين أمام الحان ، شأنهم فى اليوم السابق ، كأنما هم لم يتحركوا
من أماكنهم على الإطلاق .

وتساءل جريجور : « لماذا ظل هؤلاء الناس ينتظرون يا إخيم ، » .

فتعتم الحوضى : « إيتهم يعرفون ياسيدى ! ! إيتهم لا يجحدون ما يفعلونه غير
الانتظار كالبهاة ! ، » .

وشعر تيتو ميرديليا ، كما شعر طوال رحلته كلها ، بأنه كان غير ذى فائدة . .
وقد سره أن يرحلا ، فقد راوده إحساس خفى بأنهما غارجان من إناء امتلأ
بماء يفتى . .

— ٢ —

قال لإيجانت سيرسل ، وعيناه تنبهان العربية الصفراء وقد انحطقت في طريقها :
« لماذا يعود بهذه السرعة ياترى ؟ »

وشخصت أبصار الفلاحين جميعا وراء العربية ، بحكم المادة .
وتساءل واحد منهم : « وما الذى يقيه هنا ؟ .. إنه ذاهب إلى مكان
أفضل وأدفاً » .

قال سيرافيم موجوس فى حدة : « لا عليك ، فالشريف الصيخ باق هنا ؛ ونحن
لن نتخلص من الاشراف على هذا النحو ! » .

فصاح بيتر : « ليتهم كانوا جميعا على شاكلة السيد الشاب ! . لقد رأيتهم بالامس
كيف جاء وتسكلم مع الناس .. وهو لولا الشيخ ... »

فقال سيرافيم موجوس : « المشكلة هى أن الشيخ يمسك زمام الامور ! ..
وهبت لفحة من البرد ، فالتف القوم فى معاطفهم ، وجذبوا أردبتهم
فوق آذانهم ، ولكنهم كانوا غير ميالين إلى الانصراف .. »

وذهب بعضهم على عجل إلى بيوتهم ، يحنون بأمر ما شئتهم ، أو يخطفون
قضمة طعام ، ثم عادوا سراعا مخافة أن يحدث شيء ما فى أثناء غيابهم .. أما الناس
الذين وفدوا بالامس من القرى المجاورة يساءلون عن الفارسين المتشعبين بالياض ،
فقد عادوا مرة أخرى ، يصحبهم آخرون جاءوا معهم ، كأنما قد وفدوا إلى حفل
اجتماعى كبير .. وأخذوا جميعا يخوضون فى نفس المتاعب ، كما كانوا يخوضون دائما ،
ولما الآن على حذر ، كأنما كانوا يخشون عيوننا تتجسس عليهم .. وكان كل منهم
يشيح بصره عن بصر الآخر ، كأنما خشى أن يرى ما يشتعل فيه ، أو كأنما يحول
بين الغير وبين اكتشاف النيران التى تتهرق فى عينيه هو ... ولكن الرية
كانت مرسومة على كل وجه ؛ وكان هناك سؤال واحد يقسم بالعنف والبؤس
ينتظر الجواب عنه ، ولا يجب ..

وكان العمدة ، في كل مرة يمر فيها ، يصيح : « هيه يا رجال ، أليس لكم
حيوت أو زوجات أو أطفال ؟ »

فبرد عليه فاسيل زيدارو بنفس الجواب الجاف ، فيشرشفا من الضحك الغليظ :
« نحن أشرف الآن يا عمدة ! » . والزمن قد تغير ! ! . . .

ولم يتفرقا أخيراً إلا عندما حل الليل ، وبعد أن شهدوا العقيد ستيفانسكو في
عربته المقفلة ، وبعده الملتزم كوزما بيربوتا ، وهما يتجهان صوب بيت الشريف .
ولكن لم يشهد أحد اليوناني ، فقد وصل بعد مدول الليل ، وعندما لم يكن قد بقي
في الحان إلا شذمة من الكسالى المتقاعسين .

وكان ميرون أيوجا قد استدعاهما سوياً . بل واستدعى كذلك بلاتامونو .
بقصد استطلاع الحقائق كاملة . . . وكان أشدهم جنباً هو الضابط المتقاعد الذي أخذ
يولول كما تولول المرأة المعجوز ، فاشتكى من أنه على وشك أن يفقد ثمرة كده
طوال حياته . . . على أن همه الأكبر كان بخصوص بناته الثلاث : وكان من رأيه
أن يرسل بنين بعيداً مخافة أن يدنس عرضهن هؤلاء الوحوش المجانين . ثم انضح ،
بعد أن وجه ميرون أيوجا إليه بعض الأسئلة الجادة ، أن كل شيء هادئ في قريته ،
وأن العقود قد أبرمت ، إلا أن العمل لم يبدأ . . . قال : إنه يخشى ما يأتي به القدر ،
فأنت لا يمكنك أبداً أن تكون على ثقة بما يضره هؤلاء الوحوش المخاييل .

صاح ستيفانسكو معتداً : « كيف يمكنني أن أهدأ وأستكين ياسيدي ،
وأنا أعرضهم حق المعرفة ! ! إن لديك الشرطة هنا ، على عتبة بابك . . . أما أنا فليس
لدى شيء . . . أنا وحدي مع بناتي المسكينات تحت رحمة طفحة من الأوقاد . . .
لقد طلبت إلى قائدة داردلات أن يرسل على الأقل فصيلة من الجنود حماية للفتيات
الصغيرات . . . ولكن وأسفاه — لقد عجز عن . . . ليس في عزيمته غير رسالة
واحد . . . ثم يطلبون منا أن نهتم بالزراعة في هذا البلد ! ! نعم ، لا بد أن يسلخ
الفلاحون جلودنا ، عندما يتبينون أن الحكومة نفسها لا تعبأ بما يحدث لنا ! ! » .

قال ميرون بازدراف : « ماذا يفعل الفلاحون يا ترى : لو سمعوك تسكلم
هكذا أمامهم ! ! » .

فصاح العقيد غاضبا : « ما حيلتى ! .. هذا شيء غير معقول .. أنا أنسلكم معك الآن باعتبارك زميلا يشاطرنى العذاب ! .. أما مع الفلاحين فأنا عسكري . . . المسلك للقاية .. هذه هى الحقيقة ! » .

أما بلاتامونو فكان أهدأ جأشا منهما .. كان قد أرسل ابنته إلى بيتسى قبل ذلك بفترة وجيزة ، ولم يكن ثمة ما يتعشاه هو أو زوجته أو ولده .. وهم باقون فى مكانهم مهما حدث ، لأنه لم يعد لهم فى الحقيقة مكان آخر يذهبون إليه ، بعد أن وضعوا ما لهم كله فى الضيعة (وبطيمة الحال أغفل ذكر المبلغ الكبير الذى وضعه بالمصرف فى بوغارست) والواقع أنه كان على علاقات طيبة مع الفلاحين ؛ فهو لم يكن قاسيا عليهم قط ، ولم ينزل عليهم ضربا ، ولهذا لم يكن ثمة ما يدعو أحدا منهم إلى كراهيته . نعم ، لقد غضب شريلابون المسكين لما وقع بين الفتاة وأرستيد ؛ ولكنه سوف يعمل على تسوية هذا الأمر فى النهاية .. ولقد أبرم هو العقود بسهولة فيما يختص بليسيوى ، ومنح الفلاحين بعض الامتيازات ، ولكنه يأمل أن يعوضها بوسائل أخرى .. . لأنها لكانت باياروجا . فالفلاحون الذين رغبوا فى شرائها من قبل ، يطلبونها الآن بالجمان .. ومن حسن الحظ أن السيدة نادينا تزعم الحضور ؛ ومن ثم سيسوى الأمر كله .

ولم يكن لدى كوزما بيرونا جديدا يقوله .. وكان أبوجا يدرك حقا ما يعتمل فى أعماقه من مخاوف ؛ أما السر الذى لم يشأ أن يبوح به كوزما لأى إنسان فهو أنه قد طلب إلى عائلته أن تنبأ للرحيل فى أية لحظة ؛ فغير له أن يفقد كل شيء بدلا من أن يفقد حياته .

وأشار ميرون أبوجا عليهما بأن يلزما جانب السكينة والحزم ، وإن أدرك أن كلماته قد لا تسفر عن أية نتيجة ، كانت ما كانت . حسبهما ما يمانان حاليا من رعب .. . وكان فى الحقيقة قد استدعاها معا ليسر غور انطباعاته هو ؛ فهو بعد الذى سمعه من قبل ، رأى أن الإشاعات التى راجت عن عزم الفلاحين على السلب والنهب لا تزيد على كونها مغالاة من جانب ذوى النزعة الحائرة ؛ وإذا به يشعر الآن أن هذه الإشاعات مؤكدة تماما لما شهد من بكاء الملتزمين وشكواهم ... حقا لقد وضع له كل شيء الآن .

وكانت ثمنته بعمدة القرية والرقيب أقوى ؛ فهو قد تبادل معهما حديثاً طويلاً تلك الليلة ، بعد انصراف الملتزمين .. قال له : إن الناس يركنون إلى الهدوء ، وإن كانوا يتذمرون على جارى عادتهم بخصوص العقود .. وليت الجو يتحسن ، فلا يلبث كل منهم أن يعود إلى عمله . ولقد انصرف الناس عن فكرة شراء بابا بوجا ؛ فقد تملكهم فكرة مؤداها أن أولى الأمر سيوزعون الضيعة بينهم دون ثمن .. ومن ثم كانت حكاية الفارسين المتشحين بياضاً اللذين أعلنوا توزيع الأرض ... كان هذا هو الحلم الذى راودهم دائماً ، وبخاصة إبان الربيع .. ومع ذلك فقد أضاف برافيل إلى لمحة تتم عن الاحترام ألا مناص من العمل يد بيد مع الشرطة ، حتى إذا ما اقترف أحد هؤلاء المخابيل أمراً نكراً ضربوا على يده على الفور .. وقال بونجيو ، من جانبه ، إن على العمدة أن يكون يقطا كل البقطة ، فالقوة الموجودة بنقطة الشرطة قوة صغيرة ، خسة رجال لا أكثر ، بما فيهم هو نفسه .. ووعد ميرون أيوجا أن يسترعى انتباه رئيس الشرطة إلى هذا ؛ فهو حتماً سيمر في هذه الناحية عما قريب ، كما سـوـو يطلب إلى بوريسكو أن يبعث بإمدادات من الجيش .. وأضاف قائلاً : إن الأمن لا يتوقف على عدد الناس الذين يقومون بالحراسة ، وإنما يتوقف على يقظتهم .

قال الشيخ : « ولا بد للناس أن يشعروا بأن قبضة السلطان قوية ، على ألا يكون هناك أى استفزاز ؛ ولكن لا يذنب كذلك أن يوجد أى تردد ؛ فأية محاولة لحرق النظام لابد من سحقها سحقاً لتكون عبرة قبل أن تشد من عزم الآخرين .

« سمعنا وطاعة ياسيدى ! ، قالها العمدة فى استكانة . أما بونجيو فقد أجاب بـتحية عسكرية ، وقد انتفش صدره دلالة على أن حاسه قد تجاوز المقدار .

— ٣ —

وصل تيتو هيرديليا وجريجور أيوجا إلى بوغارست قبيل المساء .. وكان القطار السريع غاصاً بالركاب الفزعين الذين هربوا من بيوتهم خوفاً من الفلاحين ، فجاءوا إلى بوغارست بوصفها الملجأ الوحيد الذى يحميهم من كل ما يهددهم .

قال جريجور في أسى : « هذه بداية الفزع ! .. ولن يودى هذا إلا إلى إذكاء
أوار هذه الكوارث كلها ! .. »

ولم يتمكننا من الحصول على عربة في الموقف الكائن خارج محطة الشمال ،
فتعلقا بترام تجره الخيل ، وكان مزدحما غاية الازدحام ، ثم تدليا عند محطة
المرشح القوي ، حيث قال جريجور إنه ذاهب إلى بيت برديليتنو .. وأراد تيتو أن
يتمشى في المدينة بعد ذلك ليجمع مزيدا من الأخبار ، وإذ هو يمد يده إلى صدقه
مصالحا ، اقترب منهما صبي من الفجر من باعة الجرائد ، وكان يصرخ بأعلى
صوته : « أديفارول — عدد خاص ١١ .. أديفارول — عدد خاص ١١ »

واشترى كل منهما صحيفة .. كانت العناوين الضخمة تففز من الصفحة الأولى :
« اضطرابات الفلاحين تناقش في مجلس النواب » ... ودون أن ينبس بكلمة ، ذهبا
تحت مصباح الشارع ليظالما الخبر ... كان ثمة استجواب في مجلس النواب ، أثار
جدلا حاميا ، حول قلاقل الفلاحين التي كانت تنشر انتشار النار في الهشيم .
وقام لفيف من نواب المعارضة ، فاتهموا الحكومة بالقصور في مواجهة هذه
الثورة التي قامت ضد الظلم والظلمانيان ، ودافعوا عن الفلاحين ، وعارضوا بشدة
في الالتجاء إلى التمتع والإرهاب . . ومن جهة أخرى اتهم لفيف من مؤيدي
الحكومة المعارضة بأنها تساند الأشرار ؛ وادعوا أنها ، عن طريق عملاتها ، تشجع
الأعمال غير المشروعة التي يقوم بها الفلاحون .

قال جريجور : « دعاية طيبة جدا ! ! البلد تحترق ، وهؤلاء السادة يكيلون
الحديد لبعضهم بعضا » .

ومضى تيتو هيرديليا في طريقه عبر شارع النصر .. كان كل ما سمعه هو
الكلام عن « الثورة » ، « والفلاحين » ، « والاضطرابات » ، « والمتمردين » ،
وقطع الميدان متجها صوب غرفته ، ولكنه توقف على صوت مألوف : « هيه
ياسيد هيرديليا . . كيف حالك ؟ . . ما رأيك في هذه الاضطرابات . . أيه
« رأيت الأشراف وكيف أخذوا على غرة » ! لقد ظنوا أنهم وجدوا لهم كيش
فداء فاتهموا بني إسرائيل باستغلال الفلاحين ! .. رأيت ، في هذه البلاد ،

الإسرائيليون هم دائما أس البلاء كله . . . أما الآن ، عندما ثار الفلاحون ضد
ملاك الأرض ، فقد انتفت عنهم الطيبة ! . . . الآن يستدعى الجيش ليفتك بهم
قتلا وشقا . . .

وكان المتكلم هو مندلسون ابن الأسكافي من حي بوديستي وأثارت ابتسامته
البغيضة حنق تيتو ، فرد عليه ردا جافيا : « لا يوجد ياسيد مندلسون ما يوجب
اغتيابك من »

فاعترض الشاب ، وهو يلفظ كلماته بحدة جعلت نبراتة اليهودية تبدو مضحكة
نايبة ، قائلا : « اغتيابى ، . . . من قال لىنى مقتبط ، . . أنا أولا رجل
اشتراكى ، وضد العنف ، ولهذا يستحيل على أن أغتبط لهذا الحال . . وفضلا
عن ذلك فأنا أعلم أن هؤلاء الفلاحين البؤساء سيدفعون ثمنا غاليا نظير بسالتهم
حين ثاروا ضد الأشراف . »

وأخذ الشاب ، زهاء ربع الساعة ، يفيض فى نظرية الظلم الاجتماعى ، محاولا
أن يقنع هيرديليا بأن العمل الذى قام به الفلاحون أحزنه أكثر مما أحزن غيره
من الناس . . . وأراد تيتو أن يتخلص منه ، فاعتذر بأن عليه أن يرجع إلى بيته
على عجل ؛ فقد طال غيابيه ، وما عاد إلا فى التو واللحظة . . . ولكن الفتى مندلسون
ظل برفقته حتى بلغا البوابة الامامية ، ولم يسمح له بالدخول حتى انتهى هو
من محاضرتة .

وكان هناك خطابان فى انتظار تيتو . . أحدهما وصل عن طريق البريد
ويفيد بأن تانتا ستحضر الأربعاء مساء فى السادسة ، بعد الفسق ، واختتم بالآف
من القبل . . أما الثانى فقد تركه القس ييلكوج ، وأخبره فيه أنه راحل على وجه
السرعة ، لأن الثورة قد اتسعت أبعادها جدا ، وأنها سرعان ما تمتد إلى بوخارست ،
وأن أى تأخير من جانبه قد يكلفه حياته . . وأسف يمتو على هرب القس على
هذا النحو ، فقد كان بوده أن يرسل إلى عائلته بعض الأشياء من بوخارست ،
وهى أشياء طفيفة على كل حال . . وطاف بخاطره فجأة ، ورسالة القس فى يده ،
ترى متى قالت تانتا إنها آتية ؟ . . الأربعاء . . اليوم هو الاثنين ، ومعنى هذا
أن موعدا بعد غد .

وذهب في الغد إلى درابول مبكراً أكثر مما تعود ، ولكن كانت غرفة روزو مكتظة بالمرجرين وبالضجيج ؛ الأمر الذي لم يحدث قط من قبل .. وكان النقاش يدور حول أحداث الأمس في مجلس النواب ، لاسباً ذلك المثال الذي دبحه وزير سابق ، وكان قد ظهر في جريدة المعارضة « صوت الشعب » . وكان ديليكنو رئيس التحرير يزفر حمماً وهو يطلق على بعض الفقرات التي كان يطالعها ببلي أتونيد بصوت جهورى ، وكان الرجل دائماً ، لاهرار وجهه ، في حال مزمنة من الخنق .

صاح محمداً : « أصغ يا سيدى الرئيس ، هاك أقسى فقرة .. ، اسمع .. » إن عجز الحكومة وعدم قدرتها على معالجة هذه الأحداث الخطيرة أمر يدمى الفؤاد ، إن كل ما يطلبه الفلاحون هو أن تتاح لهم الحياة — وهذا ما يأبونه عليهم في وقاحة .. وعندما ترتفع هذه المطالب العادلة في استفاضة إلى السماء .. نسمع السيد المحترم رئيس الوزراء يتحدث عن الحقوق المكتسبة .. أية حقوق مكتسبة .. أمى الحق في إباداة فلاحينا — هؤلاء الفلاحين الذين هم عماد البلاد وسندها ومصدر قوتها ؟ .. ولكن ميلاً ، هانحن أولاء نصل إلى فقرة رائية حقاً .. ألا فاعلموا أنه لا يوجد غير حق واحد فرد يسمو على كل غيره من حقوق ، ألا وهو حق الفلاحين في أن يعيشوا في بلادهم ؛ وحقم في ألا ينهب منهم شيء ؛ وحقم في أن يدفعوا عن أنفسهم طمع الإدارة الفاسدة ، وحقم في أن يلتبسوا بعض العون في كفاحهم للظفر بأرض آبائهم وأجدادهم وأخذها من برائن المستغلين الذين غفلت أكبادهم . أما أولئك الذين يعجزون عن إدراك هذا الكفاح المقدس فلا بد من إبعادهم إلى مراكز تليق بمستوى ذكائهم .. وبعد فن واجبنا جميعاً أن نترك أن هناك حداً لكل شيء ، حتى في هذا البلد المبارك ، وأن الحصاره نفسها ستفرض عنها الجود لو سمحنا بإراقة الدماء الرومانية الزكية بسبب عجز الحكومة . »

وخيم الصمت على الجمع وهلة ، وقد جلست بهم دهشة بالغة .. وبلغ الخنق بديليكنو مداه فصاح : « هذه دعوة صريحة للثورة ! .. وليس هناك غير جواب واحد يناسب المقام ، وهو إلقاء القبض على صاحب المقال ، أيا كان .. » والمار كل العار أنه وزير سابق . »

قال ببي أتونياد : « هكذا هم يا سيادة الرئيس .. طالما هم يرغبون في قلب الحكومة ، فسيلجئون إلى كل وسيلة » .

قال رئيس التحرير مجاهدا الجهاد الأكبر : « وهذا هو السبب الذي يحتم على الحكومة أن ترد على هذه الفعّال الإجرامية بطريقة واحدة لا غير — إن سجن « فاكاريستي » هو المكان اللائق بهم !! أما إذا رأت الحكومة أنها لا تستطيع أن تلتجأ إلى هذه الوسيلة ، فعليها أن تعتزل ، وأن تترك الحكم لهذه الطغمة من الأدعياء ليهبطوا من سورة القلاقل التي أقاروها . »

فاعترض محني عجوز ، دافيديسكو ، فقد أفزعته فكرة العودة إلى صفوف المعارضة ، وقال : « ولكن لماذا تعتزل الحكومة يا سيدي ؟ .. خير من ذلك أن تدفع بهم إلى من يسومهم خسف العذاب ، وبهذا يتوبون إلى رشدكم . »

وكان يتتو هيرديلياقده هاله هذا الحشد من رجال الصحافة فالتحق أحد الأركان ، وإذا به الآن يصبح محط الاهتمام عندما سأله روزو عما شهدته في القرية .. فقرر تيتو أن الهدوء مستتب على وجه العموم ، ولكن الجو مشوب بالكآبة ، فإذا بدليليكنو يستأنف الكلام ، قال : « طبعاً .. الهدوء مستتب حيثما لم تمتد بعد أصابع المحرضين الذين دفعتهم المعارضة .. ولكن حسبنا أن نرسل إليهم المقال الذي كتبه هذا السيد ، أعني الوزير السابق ، وسنرى بعدئذ هل يستمر هذا الهدوء ؟ »

ولم يخل روزو إلى نفسه حتى ساعة الغذاء ، رغم أنه تاق إلى أن يبلغ تيتو ، وهو الحل الذي يبشئ أسراره يومياً ، بعض التفاصيل المروعة التي لم يعرفها أحد سواه . فلما هم تيتو للانصراف ، قال سكرتير التحرير يخاطبه في لحظة لها دلالتها : « ليتك تمر على مجلس النواب هذا المساء يا بني العزيز .. فلعل شيئاً كثيراً قد يطرأ من جديد ..! وأرجو أن تأتي إلى المكتب غداً مبكراً ، أفهمتني ؟ » .

بزغت الشمس صباح الثلاثاء من خلل ستارة من السحب القاتمة .. وتجمع
الفلاحون ، تحت أشمتها الدافئة ، حول حان بوزوك ، جاہدين أن يكتشفوا
مادبر بلیل فی بیت الشریف .. وجعل العمدة يكرر بأسلوبه الفك الممسول :
« لماذا تضيعون وقتكم في التسكع حول هذا المكان يا أصحابي ؟ أتراكم تنتظرون
الفارسين الخرافيين أن يظهروا مرة أخرى ؟ لماذا لا تهتمون بمملككم ؟ » ..

فصاح ماران ستان ، وهو نشوان بعض الشيء بعد أن قضى زمناً في باركريستي :
« أرايت إلى هذين الفارسين ، ألم يكونا على حق في رسالتهم ؟ وإلا فما الذي دفع
سادتنا الاشراف إلى الاجتماع معاً ، والتشااور سوياً ؟ .. آه ، الخوف له سلطان
عظيم ، أليس كذلك يا عمده ؟ » ..

فأجاب العمدة ساخراً : « ما هذا الكلام الفارغ يا ماران .. هم ، من يخافون ؟
أيخافون منك يا غبي ؟ » ..

وضحك البعض ، وصاح البعض الآخر متوعدين : « نعم ، سنجلهم يخافون
ما أيضاً ! » ..

فقال سيرافيم « وجوس : « لا أظنهم قد اجتمعوا لمجرد اللهو والمتعة ! » ..

وقال إيجنات سيرسل : « هم حتما يتآمرون لإخفاء الأوامر التي صدرت
بتوزيع الأرض ! » ..

فأضاف تودر ستريمو : « الحمد لله أن الفارسين قد أخبرانا بهذا حتى نعد
للأمر عدته » ..

وقاطعهم العمدة محتداً : « كفى هراء ، وإلا تملكني الغضب ! .. أنا أتحدث
معكم حديثاً رقيقاً ، وأنتم لا تكفون عما أخذتم فيه من هذا الكلام الفارغ ! ..
لا يمكن أن نصل إلى اتفاق هكذا ! ، وإذا بماران ستان ، وقد اتسمت أسأريه
بالاهتمام الشديد مع سخيرة طفيفة : يقول . « لعلني قد أسرفت في الشراب ، هذا

مالا أنكره يا عمدة ، ولكن قل لي بريك ؛ ما الذى اتفقتا عليه أنت والرفيق في بيت الشريف ليلة أمس . .

فأجاب برافيللا في لهجة عدوانية : « أظن أننا نخفي شيئا عنك أو عن أى إنسان آخر . . أمن العار أن يرسل الشريف ميرون في طلي . . ماذا في هذا وأنا العمدة على كل حال . . أم تراني فعلت شيئا يدعو للخيال . . أم هو عيب أن نحاول حفظ الأمن والنظام في القرية . . أهذا قصدك يا ماران ؟ »

فأجاب ماران برصانة ، وكأما قد اختفت نشوة الخمر منه : « هذا آخر شيء كنت أفكر فيه . . إن ما نريده هو السلام والهدوء والعدل . . »

ولكننا حسبنا أن الشريف كان يسألك عن كيفية السير في توزيع الأرض على الناس . .

فسأل العمدة ضاحكا : « هل تحسب أن الشريف ميرون ، دون الناس أجمعين ، يوزع أرضه يا بنى ؟ . . ألا تعرف أنه يجب عزبته حبا جما ؟ »

فغمغم إيجنات سيرسل : « ومن ذا الذى يوزع عزبته طواعية ؟ . . أما إذا كان الأمر من الملك ! . . وهم ، ألم يأخذوا مني الخنزير وفاء الضرائب ؟ . . والتزمت أنا الهدوء ، وأنا عديم الحيلة ! ثم إن أولادى يتضورون جوعا ! . .

ولم يمر العمدة جوابا ، فأطلق عدة نكات ، ثم مضى في طريقه إلى مكتبه . . وعند الظهيرة ، ظهر ماتي دولمانو ؛ وقد حضر من ليسيزي حيث استمع من الخدم الذين يعملون بيت الدائرة أن السيدة قد جاءت بالسيارة من بوخارست اليوم . وأنهم قاموا بتنظيف غرف البيت . كما أعدوا وسائل التدفئة . . وكان هذا الخبر بمثابة قط انطلق في قفص من الحمام ، فبعث في الفلاحين غليانا شديدا ؛ فتعالت أصوات القوم ، واختلطت بعضها ببعض .

ولماذا حضرت ؟ . . أمي لا تزال تريد بيع باباروجا إلى الغير ؟ . .

« نحن لن ندعها تفعل ذلك بأى حال من الأحوال . . »

« من الأفضل أن نشعل النار في المكان ! . . »

« ربما تكون قد تلقت أمرا بتوزيع الأرض و
« لا بد أن نستولى على الأرض غصبا ولا ننتظر
« صاح يتر يتر، في صوت علا على أصوات الآخرين : « ماذا لو حضرت ؟
« نحن هنا على كل حال ! » .

« وبينما المهرج مستمر كان بافل تونسو ، وهو وجل قىء ضعيف ، وكان
زوجا لابنة الأم أيونا ، يحدث ولده الصغير كوستيكا : « اذهب إلى بيت جدتك
يا بنى ، والعب مع لداك من الأطفال . . هذا ما قالته أمك لك . . وليس هذا
المكان مكان أطفال . . أسمعتم ؟ » ولم يحرك كوستيكا ساكنا ، وظل يتعلق بكم
أبيه ، فاستطرد الرجل : « هيا : وإلا نلت جزاءك . . أسمعتم ؟ » .
« وتباكى الطفل : « أنا خائف من الكلاب ؟ » .

« فقال الوالد : « أى كلاب ؟ .. لا يوجد كلاب في طريقك إلى بيت جدتك . .
« الكلاب هناك فقط .. هيا بنى .. ولا تكن عبثا على » .

« وانطلق كوستيكا في الطريق على مضض ، إثر وعيد أبيه ، لأن أباه لا يتوانى
عن ضربه حين يملكه الغضب . وكان الغلام حافى القدمين ، عارى الرأس ، يلبس
« قميصا قذرا ممزقا ، له أكمام فضفاضة . . فلما ابتعد عن الجمع عاد إلى ما تعود عليه
« من خفة وهجعة .. وعندما بلغ دار الأم أيونا ، وقبل أن يدخل إلى الفناء ، نادى
« على نيتسو بن فاسيل زيدارو ، وكان يصرخ بصوت عال أزعج جميع الجيران .

« وكانت الأم أيونا مشغولة بأمر دجاجة ولو لم تشأ أن ترقد على بيضها ،
« فاضطرت إلى مطاردتها في جميع أرجاء الحديقة والفناء . وعندما سمعت صوت
« الغلام ، غنمت بين أسنانها ، فقد تركها توه الخجول أنطون لتتم بالهدوء :
« ما كنت أغلص من معنوه ، حتى ابتليت بأشد منه ! »

« وظهر كوستيكا ويتشمو على عتبة الدار ، فرجرت دون أن تنظر إليهما . .
« « اسمعوا يا أولاد . . يجب أن تلزما الأدب في لعبكما . . ولا تكونا مصدر قلق
« . ولزعا . . إن عندى ما يكفى من المتاعب ، ولا ينقصني تعبكما ، عليكما اللعنة ! » .

« ولم يلق كوستيكا بالا إلى شجار جدته ، وهو بعد أن نط هنا وهناك ، وبعد

أن آثار غيظ الكلاب ، أعلن أنه جوعان . صاحت الأم أيونا : « هل أرسلوك هنا وأنت جوعان أيضا ؟ » . هاك طبق المالبجا (٨) على المائدة ، وهو ملفوف بالقماش ، أما وعاء اللبن فهو على المدفأة .. اذهب وكل حتى تبشم ! »

ومضت إلى عملها ، وأخذ الطفلان يلعبان ، على أنها كانت بين الحين والحين تصب اللعنت عليهما ، حتى لا يصرقا في الشقاوة .

« اترك الكلاب وشأنها يا شياطين ! .. وإلا بعضتك .. ولا تصرخ في الدجاج يا كوستيكا ، عليك اللعنة ، وإلا ذعرت فلا ترجع في المساء ! . هل جئنت يا غلام ، أم أنت فقدت صوابك ؟ . لا تترك على الخنزير ، فأنت ستقسم ظهره ، عليك نقمة الله ! »

وبعد حين خرج كوستيكا إلى الطريق حيث وجد مجالا أوسع ليظهر نيتشو على حيله .. ورأى الغلام أن من واجبه ، وهو أكبر الصبيين ، أن يستثير إعجاب زميله ، فيأتي بكل سلاطة ممكنة لإزاء جدته .. وعادت الأم أيونا ، بعد برهة ، تصرخ من دارها : « لا تلعب في الطريق يا ولد ، وادخل إلى صحن الدار ، فربما دهمتك عربة ، فأقم أنا في المتاعب بسبك ! » .

وإذا بصوت آخر يتعالى في الجانب الآخر من الشارع ، وكان صوت زوج فاسيل زيدارو : « تعال إلى أمك يا نيتشو ، ولا تسأر هذا المخبول كوستيكا ! . تعال هنا ، فعندى شيء لك ! » .

وكان كوستيكا يلعب لعبة الخيل ، فيجري هنا وهناك ، ويصهل منتصرا كلما مر بنيتشو الذي أذهله هذا العرض ذهولا جعله لا يعي نداء أمه .

أما الأم أيونا ، فقد أسخطها تهجم زوج زيدارو ، وأبت على وجه الخصوص أن يهان حفيدها . فخرجت إلى باب الشارع ، وبدأها مبتلتان من الفسيل : « أنت يا كوستيكا ! . ادخل أيها الشيطان الصغير ، لماذا تجرى في الشارع ؟ ألا ينسع هذا الفناء لك ؟ . أسمعني ؟ . إما أن تدخل وإما أن تعد إلى بيتك ! » .

ودون أن يكف الطفل عن التلعب صاح : « هل أنا اقترفت خطأ يا جدي ؟ » .

لم لا تركيفنا نلعب ، نحن لانفعل ما لا ينبغي ؟ » .

ولم تجد الجدة حجة تندرج بها ، فصفعت غاضبة ، و صفعت الباب ، وعادت إلى « طشت ، الفسيل » .

« عد إلى بيتك — إلى جهنم — ولا تسبب لي إزعاجا ، فليس لدى من الوقت . ما يجعلني أجري وراءك ، عليك اللعنة ! » .

على أنها ما كادت تلس « الطشت » ، حتى تنهى إلى الأسماع صوت بوق سيارة يأتي من بعيد . . ورغم ما اعتراها من غضب فقد ظلت تتأدى على حفيدها الحبيب : « ادخل بسرعة وإلا دهمتك السيارة » .

ولم ينتظر نيتشو نداء أمه لشدة ما اتت به من ذعر ، بل انسحب مسرعا وراء بوابته ، وقنع بالنظر من خلال الشباز . . أما كوستيكا . . وهو البطل ، فقد اقتصب في وسط الطريق وقال مزهوا : « انظر يا نيتشو ، أنا لست بخائف ، انظر ! انظر » .

وبسط ذراعيه ، فبدأ كالوطواط في أكمامه الفضفاضة المدلاة ، وأخرج لسانه في سلاطة إلى السيارة التي ظهرت الآن على الطريق ، وأخذت تقترب بسرعة ، وتغيرها يدوى دويًا . .

وتعالى صوت العجوز من باب الدار : « كوستيكا ، أين أنت ، احترس لنفسك ، عليك اللعنة ! ! » .

وكانت السيارة على مدى خمسين ياردة ، ولكن الطفل لم يتحرك رغم تحذير النغير الغاضب . . ولحظ السائق مسلكه الشرير ، لحاول أن ينحرف إلى اليمين ، فتدأى له . . وإذا بكوستيكا يتحرك إلى اليمين كذلك — كأنما هو قد آلى على نفسه أن يقع تحت عجلات السيارة مهما كلفه ذلك ، وأدار السائق العجلة مسرعا ومال بالسيارة إلى اليسار ولكن الطفل تحرك في نفس الاتجاه بنفس السرعة . . وزارت فرامل السيارة ، وتعال صرغات السيدة الراكبة ، ثم توقفت السيارة فجأة . . وإذا بالسائق في اللحظة التالية يظهر إلى جانب الصبي الذي وقف .

مشدوها ، ولسانه قد تدلى خارج فيه ، على بعد خطوات من مقدم السيارة .
وصاح السيد ذو اللحية الصغيرة من السيارة : « شدة من أذنيه بارودلف
تتمله الأدب .. هذا النر المأفون ! »

وأمسك السائق بالصبي وصفعه على أذنيه ، ثم دفعه بخشونة ناحية البوابة
حيث وقف نيتشو مذهولا فاغر الفم .

« هنا يجب أن تقف أيها الوغد الصغير ، لا أمام السيارات ! »

ولما تحركت السيارة ، واندفعت داخل فناء بيت الدائرة ، ملاكوسيتيكا الجور
صراخا ، فهرع إليه الجيران .. وجاءت الأم أيونا لاهثة فزعة : « ما الأمر
يا كوستيكا ؟ ماذا حدث ؟ »

وأجاب الطفل بين النشيج : « أنا أنا ... كنت ... ألعب ...
و آه يا أذني ... يا أذني !! »

فساءلت العجوز : « ماذا حدث يا نيتشو ، ألم تكن هنا ؟ »

فتحتم نيتشو ، وهو يشق انفعالا : « لقد هجم السائق عليه لأنه لم يشأ أن
يتبعد عن الطريق ! ... »

فصاحت الأم أيونا ، وقد استعادت رباطة جأشها قائلة : « تستأهل ! ليت
قصفر قبلك أيها الوغد الصغير ! .. أنت لاتسمع الكلام ؛ مهما أصبحت صوق ...
عد إلى بيتك ... اذهب إلى جحيم ، أنت وأهلك ... لقد زهقت روحي ! ..
عد إلى بيتك الآن ، وإلا نزلت عليك ضربا يا شيطان ! »

ونهض الطفل صارخا دون أن ينظر إلى أحد ، وشرع في المسير وهو
يمسك بأذنيه ..

« لقد خلعوا أذني ! .. أواه ، أواه لقد قتلوني ! »

وصاحت امرأة وهي تهز رأسها قائلة : « الولد أصابه من الجن ! ! »

وقالت زوج فاسيل زبدارو ، وهي تأخذ بيد ولدها مزهوه : « تعال يا عزيزي نيشو ... أما أنت فولد طيب ، ولست وقحا صفيق الوجه ! » .
وعادت الام أبونا إلى دارها ، وهي تستعيز من الشيطان ، وغنمت :
« عليك اللنة ! » .

- ٥ -

كانت شرفة الصحافة في مجلس النواب تكاد تكون خالية ... وكان تيتو هيرديليا وثلاثة من الصحفيين يقاؤون في احتمالات سقوط الحكومة ، أما يديدو ، وهو صحفي عكك من « اليونيفرسول » ، فقد غفا في ركن خاص كان يحتفظ به لنفسه عادة ، استعدادا للجلسة ... وكانت الساعة قد تجاوزت الخامسة ، ومع ذلك فلم يكن بالقاعة غير لفيق من النواب النكرات الذين أخذوا بقاءهون في ملل ، وقد لبسوا لباس الويار وكأنهم قضاة ... أما شرفات النظارة فكانت غاصة بالجمهير ... وتفحص صحفي شاب الجمهور بعينه ، ولحظ عدد الوجوه المهتاجة القلقة الساخطة ، فقال : « لا أحد غير الأشراف والمقرمين في الشرفة — كأنما في مقدور الخطب التي تلقى هنا أن تدفع عنهم سخط الفلاحين ! » .

وكان تيتو هيرديليا يعلم أنه لو شاء أن يحصل على أخبار ، فهو لن يجدها إلا في الردهة السفلى ... عا أنه ندر أن دخل قاعة الجلسات ، فقد كان هابا وجلا لا يستطيع أن يفعل كما يفعل لداته من الصحفيين ... وكان هو في تلك اللحظة يرما ملولا ... لم تثره شيرا المجادلات العقيمة التي تبادلها زملاؤه الثلاثة ، تأييدا للحكومة أو مناهضة لها ... فهو ما كان بدرى شيئا عن الحوافز الخفية للصراع الدائر بين الأحزاب أو داخلها ... كذلك ما كان يعرف من رجال السياسة إلا الذين يتردد ذكرهم في الجرائد ، ومؤلا ما كان يعرفهم إلا اسما

ولجأ دخل عليهم صحفي محدودب الظهر واهن القوى ، في غوض وعلى أهمية ... وكان ذلك هو بوييسكورا كارو من محرري ديمقيتا . ونهض محرر اليونيفرسول ، وقال متاثبا : « ماذا جرى أيها الزملاء ، هل بدأت الجلسة أم

لم تبدأ ؟ .. من جيتي لتذهب إلى جيم ؟ ..

صاح راكرو : « سكوتا ! .. لقد بدأت الآن ! .. ولكن ليس في جدول الأعمال مايمهم .. وخير لكم أن تسمعوا إلى أخباري ، فهي أخبار مثيرة ، وقد جاء بها توا السكرتير الخاص لوزير الداخلية .. أخبار رهيبه ! .. يقول السكرتير إنه حدث هذا الصباح ، في قرية صغيرة على الدانوب — وهو لم يشأ أن يقول أين ، ولكن لابد أنها جيرجيو — تمرد رديف الجيش الذين سبق استدعاؤهم ، وثاروا على ضباطهم ، وقتلوا اثنين منهم وأصابوا آخرين بجراح خطيرة .. وبعد غد تشتتوا في القرى ، وقد أخذوا أسلحتهم معهم .. ما رأيكم ؟ .. ليس هذا هزلا ! .. إنما تخيلوا الذعر الذي عم أرجاء الحكومة ؟ .. هكذا لم يعد الجيش نفسه مأمونا .. والاضطرابات وصلت إلى فلاسكا ... والظاهر أيضا أن أبناء قد وصلت من إيلفوف ، قرب بوخارست ، تقول إن الفلاحين في هياج وغليان ... ماذا لو غزوا العاصمة ، وساندهم الجيش ؟ ، يقولون إن الحكومة تفكر جديا في طلب مدد من جيش أوستريا ، وإلا ضاعت البلد وانقلبت أعاليها أسافلها » .

وكان للخبر وقع الصاعقة .. اشترأت الأعناق من شرفة الجواهر المجاورة .. وأبدى أحد الصحفيين ملحوظة ، : « ما أكثر الحكايات التي تروج الآن ! ! .. أستطيع أن أغط في النوم وأنا أستمع إليها » .

فأجاب بوييسكو راكرو غاضبا : « ماذا تعني بقولك : تغط في النوم وأنت تستمع إلى حكاياتي ؟ .. ألم أقل لكم إن الخبر مثير ، وإن الذي جاء به هو السكرتير الخاص لوزير الداخلية ؟ .. وإن أحدهم قد أبلغه إلى جماعة من النواب .. ترى هل نحن بحاجة إلى حكايات هذه الأيام ؟ ! .. الواقع أنه سأحل الخبر مباشرة إلى جريدتي ، ولكني لا أدري إن كانت الحكومة ستسمح لنا بنشره » .

فقال بيديدو بفتور : « أنا لا أبدد قواي في نشر هذا الخبر ! .. هذا مضيعة للوقت ... نحن لا ننشر إلا البيانات التي تحمل طابعا رسميا » .

فقال شاب وهو يضحك مستهزئا : « ولهذا كانت جريدتكم هي لسان حال الجبناء ! .. »

وتكلم يديدو بلا مبالاة : « تستطيع أن تمضى فى هذا الحديث كما تشاء يا بنى !
مم ، أظن أن اليونيفرسول ملك يمينى ؟ » .

ثم أخذت الحياة تدب دون الشرفات . . . كان الأبناء والكتبه يلفظون
بالسلام حول منصة الرئاسة . . . وتناهت إلى الاستماع أصوات الحجاب فى
الممرات . . . واجلسوا فى مقاعدكم رجاء ، أيها السادة ! » .

ولذ هو يتفحص التواب دونه ، لمح تيتو هيرديليا ، جوجو أونيسكو ، وكان
يبحث عن زوجه فى شرفة السيدات . . فلما وقع بهره عليها ، تسادل وإياها
إشارات التحية . . ولحظت يوجينيا هيرديليا الشاب ، فأشارت لجوجو تدله
على وجوده ، فلم تمض دقيقتان حتى ظهر زوجها تحت شرفة الصحافة ، وتنادى
على تيتو : « هات يوجينيا فى نهاية الجلسة ، وانتظرانى فى الطابق الاول ! » .

وكان هيرديليا قد لاحظ توه يوجينيا ، فتبسمت له فى ود ، وألقى هو إليها
بتحية ، وهو يحنى باحترام .

وأخيرا بدأت المراسم . واستمرت الجلسة فى القاعة ، وكان هناك حول
الرئيس لفظ من البيانات الرسمية ، والخلاصات العاجلة ، وشئون أخرى لم يكن
يستمع إليها أحد . . وإذا بشخص لاسمة له يندفع نحو مقاعد الوزراء ، فتعالى
صوت الرئيس آمرا : « الكلمة الآن للنائب صاحب التقرير » .

واحتل المنصة سيد ذو شارب مهيب ، وقرأ فى صوت جهورى مشروع قرار
يدعو إلى إلغاء الضريبة على البنزين . . وغرقت كلمات الرجل فى خضم الحديث
الدائر بين النواب ، كأنما قد اعتبرهم الحجل من سماعها .

وتتم محرر اليونيفرسول ، وهو يدون ملاحظاته : « رأيت ما الذى يشغلهم
فى هذه اللحظة ؟ . كل همهم أن يجعلوا الحياة أكثر رخاء بالنسبة لحفنة من أصحاب
الملايين لا يزيدون على الثلاثين عددا من الذين يحبون البلاد فى سيارات ! » .

وانقضت دقيقتان . وتعالى أصوات الحجاب مرة أخرى : « إلى الاقتراع ،
رجاء ، أيها السادة . »

« هيا بنا أيها الاصدقاء ، فقد انفض السامر ! ، قالها أحد الصحفيين ،
وهو يلم أوراقه ، ويتخذ طريقه إلى الخارج .

وتخلف تيتو هير ديليا حتى شهد جوجو أيونيسكو وهو يتمشى متفخ الأوداج
أمام صندوق الاقتراع ، ثم وهو ينزل الدرج في صحبة يوجينيا .

قال جوجو ، وكان في غاية القلق : « لقد قال لي أحدهم ، لست أدري من
هو ، وربما كان ديليكتو ، إنك ذهبت إلى آمارا مع جريجور . . . كيف تجري
الأمور هناك ؟ أنت لا تتصور ما نعانيه نحن من قلق . . تصور يا صديق أن
نادينا قد اختارت هذه اللحظة بالذات للذهاب إلى الريف ، وبيع العزبة !! لقد
رحلت ظهر اليوم ، بالسيارة ، ما رأيك في هذا ؟ » .

وحاول هير ديليا الشاب أن يهدئ من روعه ، فقال : إنه هو نفسه لم يعد من
آمارا إلا ليلة الأمس فقط ، وأن الأمن والهدوء مستبان هناك . على أن جوجو
استرسل في الكلام والدموع تكاد تسح من عينيه : « نعم ، ولكن ألم تسمع
أنت بالقتل والنهب الذي بدأ في فلاسكا ؟ .. أتذهب هي إلى الريف والإنسان
لا يعطمن حتى في بوخارست على نفسه ؟ واه أنا مازلت عاجزا عن تصور أنها قد
رحلت حقا !! أية نزوة ، وأى عناد !! أنا لم ألق أحدا بهذا الشكل . إن الإنسان في
هذا الوقت يتخلى عن الضياع والأموال ، ويلقى بها إلى الشيطان ، لإنقاذ حياته ! .
لماذا إذن هذه العجلة من أجل بيع العزبة ؟ .. أنا في الحقيقة لا أدري . ولا بد أنه
قد مسها مس من الجن ، هذا هو تفسيري للأمر ولست أجدر تفسيرا غيره . »

وأخذ الزوجان هير ديليا معهما إلى البيت ، وطلبا إليه أن يبقى لتناول العشاء
ودار الحديث عن نادينا طوال المساء كله .

كان الفلاحون يقبا حزن ساعتهم في أمر السيدة التي مرت بسيارتها في طريقها
إلى بيت الشريف ميرون ، وإذا بولد بافل تونسو يقترب باكيا صارخا .

« آواه ، آواه لقد خلعوا أذني ، آواه ، لقد قتلوني ! » .

وتساءل فاسيل زيدارو ، وكان واقفا على حافة الجمع : « من هذا الذى ضربك .
يا كوستيكا ؟ .. أم تراك لا تريد أن تخبرنى ؟ تعال وقل لى من فعل بك هذا . »

وكان بافل تونسو قد ذهب إلى بيته ؛ ولهذا لما لم يسرع أبوه لرؤية ما حل به
أدرك الطفل أن أباه لا يمكن أن يكون بين الجمع ؛ ومن ثم أنف حتى من الرد
على فاسيل زيدارو ، ومعنى فى طريقه أعلى صراخا عما كان ، ليشهد القرية كلها على
ما حل به من آلام .

وكان ثمة امرأة تمشى وراء الطفل ، فرأت أن من واجبها أن ترد على فاسيل
نيابة عنه : « لقد صفعه الإشراف لأنه لم يعتمد عن طريق السيارة . »

وهو زيدارو رأسه وقال : « ألا يجد السادة الإشراف شيئا يعملونه خيرا من
التصدى لطفل ؟ » .

وسأله بعض الفلاحين الذين وقفوا على مقربة منه وقالوا : « صدقت ،
فلماذا يضربون الطفل ؟ .. إنه على كل حال لم يتلغ ما لهم . »

وهنا استشاط إيجنات غضبا : « ألا يكفهم أنهم يسومونا العذاب ، فإذا بهم
الآن يتحولون إلى أطعائنا .. لقد تركوا أولادى يتضورون جوعا ، وسلبوا
منى الخنزير .. هذا كله جميل منهم والله ! » .

واشترك آخرون فى الحديث وقالوا : « من الخير لهم أن يتركوا أولادنا
وشأنهم ، ما الذى يوغر صدورهم ضد الأولاد المساكين ؟ ألا يستطيعون أن
يتركوا حتى الأطفال فى سلام ؟ .. ربنا إنك لتنزل بنا عقابا صارما .. ومع
ذلك فنحن لو تركناهم يفلتون منا .. ولنفرض أننا رفقنا عصينا وداعبنا بها
ظهورهم .. أتراهم بعاملونا معاملة الحق إذ ذاك ! » .

وامتنع وجه تودر ستريمو ، وجمظت عيناه ، فقال مهتاجا : « لو كان هذا
ولدى للفتهم درسا أو درسين ! » .

وكان تريفون غوغو مقطب الوجه كمادته ، وكان واقفا بين جماعة قريبة إلى
باب الخان ، فتكلم بصوت هادئ متدد واضح التبرات ، قائلا : « إن الإشراف
لن يسلكوا مسلك الأدب إلا إذا بعثنا الذعر فى نفوسهم ! » .

واختلطت الأصوات ، وتشابكت ، وعلا بعضها على بعض . . وتشكلت جماعات ، آنا هنا ، وآنا هناك ؟ وأخذت تسمع وزجرج وتصب اللعنات . . وهب الجميع ، وتحرك ، كأنما تدفعه هنا وهناك ريح عاصفة . . وخرج كريستى بوزوك صاحب الحان على عتبة الباب ، فلما أدرك سبب الفتنة صاح في وجه تريفون : « هل أنت تتكلم عن ابن بافل ؟ الصبي ؟ . . ليذهب إلى الشيطان ، فهو مجرم صغير صفيق الوجه ، إنه غفريت شرير . . ألم تشتبه أنت نفسك يا تريفون منذ وقت قريب لسبب أو لآخر ؟ » .

ونزلت كلمات صاحب الحان كما ينزل الماء البارد على جمرات النار . . وخيم الصمت وهلة بعد ذلك ، كأنما قد استيقظ القوم من كابوس مزعج . . ونجمل تريفون من نفسه أو كاد ، فتمغم معترفاً بالحق . .

ولكن صوت بيتر بيتر ، وقد أقغم بالحقد ، أزال عنه تردده : « لماذا تشتم الطفل يا عم كريستى ؟ . . ألان الإشراف ضربه ؟ » .

وتوجهت الجمرات لمباراة أخرى ، فقد كانت تكن في بطونها النار التي أذكته هذه الكلمات . . وإذا بتريفون ، وكان لم يجد فسحة من الوقت ليقتل فيه على هذه الحكمة الأخيرة التي فاه بها ، يستطرد الآن غاضبا : « الظاهر أنك تمالئ الإشراف ! وهذا هو السبب الذي يجعلك لا تشعر بمشاعرنا في صميم نفسك . . أنت لا تتألم حين يضع علينا ضرب أو إيذاء ! »

واشتم بوزوك التياران تلتطى في قلوبهم . . ورغم أنه منذ لحظة واحدة فقط قد رأى من السخف أن يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ، فالطفل قد ضرب بوجه حق ، وهو طفل يعرف عنه الجميع أنه أسوأ شيطان في القرية (وما أكثر الأيام النكد التي عاناها بافل تونسو بسبب ولده هذا ، وهو وحده أعلم بها) ، إلا أنه مع ذلك كله هب ، وقد جرفته دوامة الغضب غصبا عنه ، فقال في سخط شديد : « ما هذا الذي تقول به يا تريفون ؟ . . أقول إننى أمالئ الإشراف ؟ ألا تخجل من إلقاء هذه الإهانات في وجهي ؟ أنت على وجه الخصوص الذى أكلت كثيرا من طعامي ! أترأى تخذو خذو أمثال بيتر الذين يدبون حول منزل الشريف طيلة النهار ثم يأتون هنا ويتشاجرون معي ؟ » .

وصاح بيتر وهو يشق طريقه مندفعاً صوب صاحب الحان قائلاً: «لماذا تقول هذا القول يا عم كريستى؟.. وماذا تقصد بكلمة «أدب»؟ لا تنى أعمالى فى خدمة الإشراف؟.. أنا أم أفت الذى نال من الوجيه الشيخ رخصة لبيع الخمر، وغش الناس، وملء جيوبك بالمال؟.. اتركونى إليه، وليجواب عن سؤالى، فأنا لن أسمح له أن يطأنى بأقدامه أمام أهل القرية كلها!»

فقال صاحب الحان يحاول تهدئته، فقد رأى إيماءاته المتوعدة التى حاول أصحابه أن يخمّدوا من سورتها: «كنى طنطنة يا بيتر!.. أنت جرو مغرور منتفخ الرأس!.. لقد لحظتك منذ أن عدت من الجيش، قرأيتك تصرف كأن ليس على الأرض غيرك فى القرية!.. اصبر قليلاً يا بنى، فأنت مازلت صغيراً.. ودعنا نعيش أيضاً، ودعنا ندلى برأينا من وقت إلى وقت آخر!».

وكلما اعترض الناس طريقه، وأمسكوا به، خفف بوزوك من لهجته. وكلما ازداد بيتر غضباً، صاح: «اتركنى إليه يا عم ايونق!.. خل عنى يا عم تودر؟ وأنت ألم تسمعه يشتمنى؟.. أنا أريد من هذا اللفظ البدين أن يدلنى عما اقترفته حتى أهان هذه الإهانة!».

قال ليونتى أوريبسور، وقد أمسك بذراعه، فقد سره أن يقوم بدور فى هذا الشجار: «اسكت! إنه لم يقدم على ضربك!».

فصاح بيتر، وقد تملص منه، وإن كان قد هدأ بعض الشيء قائلاً: «كنت أفضل أن يصغنى على وجبى من أن يوجه إلى هذه الألفاظ.. أنا لم آخذ منه شيئاً أبداً ولم أكن وقعاً معه قط — كل مافى الأمر أننى أميل إلى جانب الصبي!».

فقال تودر ستريمبو فى مرارة: «هذا هو حالنا!.. نحن، حين يعزينا الإشراف، لا نرد إليهم الضربات، بل ولا نهتض عليها، إنما يعارك الواحد منا الآخر، ثمنا لضربهم لنا!».

فتمتم إيخنت سيرسل فى كد: «صدقت يا تودر.. الأمر كما تقول!».

فصاح بيتر. وهو يسوى ملابسه: «أنا لست سريع الغضب! ولست أنا

من هذا النوع ، ولكن لو سحر منى أحد ، أيا كان شأنه ، فلن يستريح لى بال حتى أنال حق منه كاملا ، ومع شيء من الأرباح أيضا .

وعندما هدأت سورة الغضب ، ظهر بافل توفسوا لإذ ذاك وقد ارتسم على وجهه تعبير حزين... وأحاط الفلاحون به ، وتلقوا بكلماته... وحاول صاحب الحان أن يكفر عن الواقعة السابقة ، فاستهل الكلام ، قائلا : « ماذا جرى لولدهك يا بافل ؟.. ماذا فعل الأشراف به ؟ » .

فقال الفلاح ، فى لهجة دلت على الحقد أكثر مما دلت على الشقاء : « لا تسألنى يا كريسى ، دغنى وشأنى !.. لا يوجد تحت الشمس من هو أتعس منى ! » .

وشيثا فشيثا حكى لهم ما حدث ، وكيف حدث ، قال إن كوستيكا كان جالسا إلى باب بيت جدته ، يلعب فى هدوء مع ابن فاسيل زبدارو ، وجاءت السيارة ، وبقي الطفلان مستكينين حيث كانا ، لما بتأثير الخوف ، ولما بدافع اللهو البرىء ، فراقبا السيارة ، شأنهما شأن القوم هنا حين مرت بهم السيارة من قبل... ماذا دار بخلد الأشراف الذين كانوا فى السيارة ، عليه عند الله وحده ، ولكن السيارة توقفت ، وقفر منها الألمانى فجأة ، وهجم على الطفلين... أما نيتشو ، وكان أصغر الصبيين ، وأشد هما هلما ، فانسحب إلى فناء داره ، لحسن حظه ، وإلا لكان أصابه ما أصاب صاحبه... ولكن كوستيكا بقى حيث كان ، لأنه لم ير سببا يجعله يشعر بالذنب ؛ بل هو لم يدرك ما كان يقصده الألمانى بضرب نفيده ضربا متواصلا... ولكن الألمانى اندفع إلى الصبي فأمسك بأذنيه ، وشدهما ولواهما حتى لم يعد لهما شكل... ثم انهال على الولد صفعا وركلا حتى هدهد... فلما أشفى غليله ، سب الألمانى الغلام بالألمانية ، ورجع إلى السيارة ، ومضى بها إلى بيت الشريف الشيخ .

واستطرد بافل وهو يرشم الصليب على صدره كأنما هو فى محراب : « والآن التبت أذن الصبي ، وأوجعته ألما ، اللهم انتقم من المجرمين الأشرار . ولقد تركت زوجى تضع عليه الضمادات ، وأرسلت الأم نستاسيا لتعاونها ، فى حكيمة وذات خبرة ، وقد عاجلت ابنة زامغير قبل سنتين ، حين سحق الثورج يدها... ولقد أشار

على العم لوكا ، وأنا في طريق إلى هنا ، أن أحمل الصبي إلى المستشفى في بيتسى ،
وإني لفاعل ذلك ، إذ لاحية لى غير هذا ، فإن قلبى ينفطر ألما وأنا أرى الصغير
المسكين يتألم . كل ما أرجوه هو ألا يضيع مدى ما أنفق من مال ، ولست أدرى
كم يبلغ قدره ، فربما يصاب الطفل بالصمم بقية حياته ..

وختم الكلام متتهدا ، وقد نددت عنه لإيماءة تدل على اليأس .. وران الصمت
على الفلاحين الذين كانوا يهزون رؤوسهم عطفاً عليه .. وبعد عدة لحظات ، قال
فاسيل زيدارو في تودة ، كأنما يريج عن كاهله حملاً ثقيلاً : « كنت أسائل نفسى
كيف يجرؤ صبي صغير أن يوقع أذى بالأشراف ؟ » .

وتعالت الآن أصوات عديدة تعرب عن موافقتها بلهجات شتى : « لا لا ، الصبي
لا يجرؤ على إيذاء الأشراف ... » أما بوزوك صاحب الحان فقد علا صوته على
كل الأصوات ، فقال آمراً : « لما ذا لا تأخذ ولدك من يده يا بافل ، فتذهب به ،
وهو على ما هو عليه من ضمادات وشقاء ، إلى بيت الدائرة ، وتطلب إليهم تعويضا
عن آلامه .. اذهب الآن فوراً ! » .

والتفت بافل إلى صاحب الحان مرتبكاً ... وارتفعت أصوات أخرى حوله .
تهيب به : « اذهب يا بافل .. كريستى على حق .. لا تتردد .. من واجهم أن
يدفعوا لك تعويضا .. » .

وعغمم الرجل مترددا : « ربى ، هل حكمت على بالضرب أنا أيضاً ؟ . إنهم لن
يخافوا منى ، وأنا الشيخ الضعيف ! » .

فتطوع بيتر ، وقد شد معطفه على منكبيه : « هيا يا بافل ، أنا ذاهب معك ! » .
وصاح رجل قصير قوى العضل ، أزاح « كاكبولته ، الهائلة إلى مؤخرة رأسه ،
قائلاً : « لنذهب كلنا معاً .. هم على كل حال لا يستطيعون ضربنا جميعاً ! » .

فنهاه إيجنات سيرسل على عجل : « الزم الصمت يا جرافيل ، ولا تتصرف
تصرف الأحمال ! .. ونحن ، ألم نذهب منذ قليل من أجل السيد دراجوس ،
فطرنا الشريف ميرون طردة الكلاب ؟ » .

فقال تريفون غوغو في صوت عميق مكروب : « لو سمحنا لأنفسنا أن يعاملونا بهذه المعاملة ، فسيطررنا بطبيعة الحال ! » .

وهبت عدة أصوات في وقت واحد : « لماذا نسمع لهم ؟ لماذا نسمع لهم ؟ نحن لسنا بكلاب ! » .

وانبثت صوت رفيع منفرد ، كأنه خيط قان ، فكان واضحاً وضوح صوت هبط من السماء : « خير لنا أن نشعل النيران فيهم ، فتحيلهم إلى هباء ورماد ! » .

والتفتت الأصوات إلى ميليفت هيرفيديو ، وكان قد شخج برأسه طالياً ليدل على أنه لن يسحب ما قاله .. على أنه في هذه اللحظة سمع صوت سيارة تقترب على الطريق .

« إنها آتية ، إنها آتية ! » همست بها أصوات عديدة ، امتلأت رعباً ، كأنما هي لجأة قد أنسيت وعيد ميليفت .

وكانت جمهرة الفلاحين تملأ الساحة التي رقصوا فيها رقصة « الهورا » ، يوم الأحد ، وانتشروا عبر الطريق من جانب إلى جانب ، فوققوا دون حراك ، كأنما يسدون الطريق .. ولكن السيارة لما اقتربت ، صاح أحدهم استرضاء : « لا تسدوا الطريق يا فتيان ، فالسيارة آتية ! » .

وأفسح الفلاحون الطريق ، في ببطء وتثاقل . وتجمعوا على حافة الشارع .. وأخذت السيارة تضرب النفير باستمرار مخدرة غاضبة ، وبدأ طنين الموتور ، والاضجارات المنبثقة من العادم بانتظام ، تزداد وضوحاً كلما اقتربت السيارة فأغرقت الأصوات كلها .. واصطف القوم في صلابة على جانبي الطريق . كأنهم حرس من العصر الوسيط ، وراقبوا السيارة وهي تمرق أمام أبصارهم الغاشية وجوههم الكسيفة .. وكان بوزوك صاحب الحان هو وحده الذي رفع كايولته وانحنى على عاتقه في احترام وهو عنى باب الحان .. وبرزت من السيارة يد رقيقة تلوح في ود ، ردأ عم تحيته .. أما بيتر بيتر فقد عجز عن كبح جماح نفسه فاندفع إلى وسط الطريق ، وصاح غاصبا وراء السيارة : « تباً لكم !! تباً لكم !! » .

وانفجرت مئات الألسنة تردد الصوت في ثورة ، وخطف تريفون غوغو
حجراً ، وألقى به على السيارة ، وهو يكر بأسنانه غاضباً : « لصوص ،
سفاكودماء ! » .

ولكن صوت السيارة أغرق صيحات الاستهزاء التي انبعثت من الجماهير ...
والتفت السيد ذو اللحية الصغيرة وهلاً ، كأنما قد أوجس شراً ، فرأى الوجوه
الغاضبة . وقبضات الفلاحين المتقلصة ، وتريفون غوغو وهو يلقي بالحجر . .
واستبد الذعر بالسيد ، واحتار في أمره ، فأشاح برأسه على عجل ، تجنباً للقديفة ..
وعلى قدر ما خفت صوت السيارة ، نهال الضجيج بين جمهرة الفلاحين في وسط
الطريق ، وإذا بصوت أجش ينبثق كالأمم الناقد : « أتم أسافل ، أولاد كلاب !! » .

الفصل الثامن

اللب

- ١ -

في صباح الغد ، وكان يوم الأربعاء ، وصل بلاتامونو في عربته إلى ليسيزي بصحبة المحامي أوليمب ستافرات ، وكان قد أنزله للمبيت في جليجانو .

« ها نحن أولاء ، ياسيدي المحامي ، قد وصلنا في أمان ! » قالها الملتزم الذي كان يتولى القيادة ، وقد جلس ستافرات في المقدمة معه ، أما أرستيد فقد جلس إلى الخلف .

قال المحامي ، وهو يربت على لحيته الصغيرة التي وخطها الشيب ، ويحدهج النظر حواليه طوال الوقت ، كأنما خشي أن يخرج عليه دهماء من الفلاحين في أية لحظة ، فيثبوا عليه من أماكنهم ، قال : « نعم وصلنا ، ولكني لأدري إلى أي حد نحن في أمان ، وربما نتبين الأمر فيما بعد ! » .

واستطرد بلاتامونو يطيب من خاطره بحيث بدا صوته مدعاة للسخرية : لا تجزع ياسيدي العزيز ! . الناس هنا ليسوا بالجنون الذي يظنه أهل العاصمة ! .. والفلاح سلس القياد جدا بطبعه : بل ربما كان سلس القياد أكثر مما ينبغي ! .

ولكن المحامي لم يكن ليطمئن نفسا بهذه الكلمات الفلسفية ، بل كان في حال دائمة من الفزع ، توسوس المخاطر في صدره في ألوان مفزعة جدا ، وتصور له الأشباح في كل مكان ، ومن ثم كان يلحن اللحظة التي رضخ فيها لنزوة امرأة طائشة . والحق ، ما الذي كان ينقصه في بوخارست من نعيم وأمن فيدفع به في هذه المغامرات الربعية ، في أقاليم تهددها الثورة بفظائنها ! . ألم يكن أليق به ، وهو السيد الوقور ، أن يتقنع بمطالعة هذه القلائل في الجرائد وهو بيته ، جالس في كرسیه الوثير ، ويمتشي القهوة التركية اللذيذة ، ويدخن السجائر ، بدلا من الرعدة التي

أرعشته .. أوله هاهنا ؟ كان يعلم حق العلم من خبرته الماضية أن الخلط بين العاطفة وبين العمل يعرض للخطر العاطفة والعمل على السواء ... ترى ما الذى اعتراه حتى تورط مع عييلته بهذه الطريقة الحقاء ؟ هى والحق يقال حسنة شبيهة ، ولكن انظر إلى أين أقضت به هذه المغامرة ؟ .. ولو كان قد غنم منها شيئا — ولكن ... لأنها لم تنفذه بعد أتعبه نظير الطلاق ... كل الذى تلقاه منها هو الوعود ، وهو قد عاملها باعتبارها عميلة ممتازة ... نعم ، إنه لن يغفر لنفسه أبداً وبخاصة لأنه لم يرفض السفر فى اللحظة الأخيرة ، عندما ذكرت الجرائد كلها حوادث العنف والإخلال بالأمن فى جميع أرجاء البلاد ... ورأى أن عليه على الأقل أن يبقى فى بيتسى ، حيث مقر الجيش ، وذلك بعد أن شهد السمات الوحشية التى ارتسمت على وجوه الفلاحين فى كل القرى التى مروا بها ؛ فرآهم يتهايمون فيما بينهم هسات لا يعلم كتبها غير الله ويتآمرون فى وضع النهار ، وعلى رأى ومسمع من الناس أجمعين ... وكان طوال الليل يتقلب فى فراشه على حجر من القلق ، فيقوم المرة بعد المرة ليتأكد من أن الباب موصل جيداً . ويرتعد فرعا عند كل ضجة تأتى من الخارج ... كذلك لم يكن يشعر لزاه الملتزم بثقة كبيرة ، أيا كان الود الذى يبدىه ... فن ذا الذى يضمن له أن الملتزم على غير علاقة خفية بالفلاحين ، ومن ثم ربما يحمى الحامى لجأة هؤلاء الأوغاد فى غرفته ذاتها ؟

ولم ستافرات ، قبل أن يدخل من باب البيت ، حفنة من الفلاحين ! خمسة عدداً . فى الفناء .

قال فرعا ، وهو يسترعى نظر الملتزم إليهم : انظر ، هاهم أولاد !

قال بلاتامونو مهدئا من روعه : إنهم قوم مهذبون ياسيدى ! . أنا ضامن لهم ! وأنا أعرفهم جيداً ... فهذا الذى يلبسه كاكيلولا بيضاء هو مائ دولمانو ، وهو رجل ذو حيثة وهو طيب القلب . وربما اضطرت للتعامل معه شخصيا ، فهو أحد أولئك الفلاحين الذين كانوا يسعون إلى شراء عربة السيدة نادينا ! .

وكان الحامى ستافرات قد وفد مرتين بالأمس إلى بيت ميرون أيوجا ، مرة عند وصوله ومرة عند رحيله ، ولكنه لم يدخل البيت القديم نفسه . . وأخذ الرجل يتفحص الآن المباني والفناء ، كأنما لم يقع بصره عليها من قبل ، فقال وهو

كثير؛ لا ضمان للبقاء في هذه البيوت على الإطلاق... كل شيء مفتوح على مصراعيه ويستطيع كل من شاء أن يدخل، وأن يخذلك؛ وأن يتعل النيران في كل شيء، ثم يعود أدراجه دون أن يجد أحدا يقف دونه.

ولم يكلف بلاتامونو نفسه حتى مشقة الرد عليه، المهم إلا بإقناعه. أما أرستيد وكان يجلس إلى الخلف واضعا يده إلى فمه؛ فكان يضحك من الحماي، لعزيمته الحائرة.. والواقع أن البيت كان محل إهمال، وخصوصا المباني الخارجية. وكانت صيانته في عهدة الملتزم الذي كان من حقه أن يستخدمها كما يشاء، فيما عدا المبني الرئيسي، وهو المبني الذي قام جوجو أبونيسكو بتجديده قبل ذلك بعدة سنوات، واحتفظ به لنفسه وزوجه. وكان بلاتامونو يستخدم معظم المباني الخارجية مخازن له، وكانت الاسطبلات والزرائب تكاد تكون خالية، فلم تكن تضم غير الجواد الذي يملكه الحفير. دوميترو كيوليكي، وبقرة حلب، وعدة دجاجات من أجل الأشراف حين يقضون بضعة أيام في القرية. أما لو مكثوا مدة أطول، فكان الملتزم يرسل إليهم الزاد من جليجانو.. وكانت هذه المنطقة العريضة كلها من المباني الخارجية لا يشغلها غير دوميترو كيوليكي وأسرته، وكانت تتكون من زوجة وأربعة أطفال.. وكان الملتزم قد وجدته هناك، فأبقى في الخدمة، لأنه كان رحلا عن الممكن الاعتماد عليه.. وكانت زوجته تعمل طاهية في بيت، وكانت تعرف كيف تعد الطعام للأشراف.. وكانت البنت الكبرى، أيلينا، تشتغل خادما في بيت الدائرة، وكانت حاذقة ماهرة كأى مدبرة منزل من المدينة. أما في غير ذلك من شئون. فكان دوميترو عادة يجلب الخدم من القرية... ولم تكن الحياة تزد في المساكن إلا عندما يجتمع هناك عدد من الأشراف، فعندئذ يمتلئ البيت بالناس وبالهرج والمرح.

وكان السائق يظف الآن السيارة في أحد المخازن، وهو يدندن أغنية ألمانية في حماس.. وكان هناك عدد من البط وابدجاج تجوس في السماء وتستمع بدفء الشمس.. وأسرع دوميترو كيوليكي، وهو رجل غائر أوجه، ومحدود الظهر قليلا، ليساعد الثريفين على التذلل من العربة.. وأبلغ الرجل بلاتامونو، جوابا عن سؤال طرحه عليه أن السيدة قد نهضت من نومها وأنها الآن تأهب أمام المرأة.

وقاد المترم المحامى ستافرات عبر السقيفة التى تحمى المدخل ، ودخل به إلى الردهة الكبيرة حيث بقيا وهلة إلى أن ظهرت أيلينا فأعلنت أن السيدة ستحضر سرىما ، ودعتهما إلى غرفه الجلوس ، وكانت تقع إلى اليسار ، بجانب غرفة خاصة يتخذها جوجو أبونيسكو للمطالعة ، أما عن يمين فكانت تقع غرفة المائدة ، وكانت بدورها تتصل مباشرة بالردهة ، وتفصلها غرفة أخرى أصغر منها عن غرفة النوم .. ولقد شطر جوجو الغرفة الصغيرة إلى شطرين ، أقام أحدهما حماما حديثا لم يكن يفتح إلا على غرفة النوم .. كذلك امتد ، من ظهر غرفة المائدة ، ممر كان يؤدى إلى غرفة صغيرة اتخذت مكتبا .. وجاءت ذلك المطبخ الكبير ، ثم على مدى منه مساكن الخدم ، التى كان يقطن فيها دوميترو كيوليكي هو وأسرته .

وكانت نادينا تبدو مشرقة فاتنة — قد تألق وجهها وردا وبهجة .. وسألت ستافرات فى سخرية حلوة : « هيه أيها البطل الهيم ، أما تزال خائفا ؟ آه لو كنت أعلم أنك هياب هكذا لكنت أعفيتك من هذه المهمة ، وعهدت بها إلى محام آخر .. » وغنم المحامى قلعا ؛ قائلا : « أنت تهزلين ياسيدتى ، إذ ليس لك خبرة بالحياة .. من أسف أننى .. »

واستطردت نادينا جادة ، قائلة : « أرجوك ، كنى نواحا ياسيد ستافرات .. أم تراك تحاول عامدا أن تبعث فى نفسى الأسف لأننى حضرت ؟ تأكد أننى لن أسف بل على العكس ، فالبلد الآن أكثر بهجة مما كانت فى أى وقت سبق ! وهذا اروع ربيع أو ربما يدر لى كذلك لأننى .. ولكن انتكلم فى شئون العمل .. »

وتبادل الرجلان نظرات تدل على الفهم ، فقد سبق لهما أن تابحا فى هذه الامور بهدوء البلية الماضية بعد العشاء ، واستمر النقاش بينهما حتى منتصف الليل .. ولقد رحب المحامى بهذا الحديث ، لأنه أجل خلوته إلى نفسه ، وهو أمر كان يفرق منه .. وشرح بلاتامونو الأمر ، ووافقه ستافرات ؛ فقال إن على السيدة أن تقر أولاً إلى من تباع الصنعة ؟ حتى تبدأ المفاوضات على نحو جدى .. أما الكلام مع لفيف من العملاء فى وقت واحد ، دون الدخول فى تفاصيل عملية ، فعناء ضياع الوقت ، ومتاعب لالزوم لها على كل حال .. أما هو ، بلاتامونو ، فهو صاحب

الحق الأول ، ولكنه لا يريد الناس أن يتقولا عليه بأنه فرض نفسه على السيدة . وكان وانما بأن الضئيلة لو بيعت ، فستباع إليه ، فهو وحده الذى يعرف قيمتها الحقيقية ، ويعرف ما تدره من ربح . وانقد كان أخرى بالسيدة أن تعقد الصفقة ، حين تقدم هو إليها عارضا الشراء ، ملحا فيه . . أما الآن فالوقوف غير موات لها لأن كل إنسان يرى ، وهذه الاضطرابات قائمة ، أن امتلاك الارض مضبعة لماله ، ثم من يدري ماذا يأتي به الغد ؟ . أما فيما يختص به هو نفسه ، فهو في الوقت الحاضر يتقدم بعرض لا أكثر ، على شرط أن تعقد التسوية النهائية بعد أن يهأ الموقف قليلا .

وأخذت ناديتا تستمع نافذة الصبر إلى اعتراضات المحامى ووساوسه ، ولم تشأ أن تقاطعه ، وتحبره بأنها ما استدعته إلا لأنها لاتعرف كيف تعالج هذه الامور ؟ لالقيم الدليل على الصعوبات القائمة ويزيد الطين بلة . . وأخيرا قالت : ولقد سبق أن أخبرتك ، إذا لم تخنى الذاكرة ، أنتى سوف أبيع لمن يعرض أكبر ثمن يدفعه نقداً . . أما التفاصيل فأمرها موكلوك إليك ! . .

واعترض ستافرات قائلا : نعم ، ولكن كيف يمكننا أن نعقد مزاداً علنياً ! . .

فسألت ناديتا مبسمة : « أليس في مقدورنا أن نسمع العرض الذى يتقدم به كل واحد ، ثم نقرر نحن بعدئذ ؟ » .

وتدخل بلاتامونو قائلا : « ربما كان هذا معقولا في ظرف غير هذه الظروف ياسيدتى ؟ أما في الوقت الحاضر فهذه التدابير لاتليق . . . » .

وأجابت ناديتا : « أنت تقصد بسبب الفلاحين . . أنا في الحقيقة لأجد مانعا من البيع للفلاحين . . لقد وعدتهم بأن أفوضهم حين يأتي الوقت . . ولهذا أرى أن كل ما علينا أن نعمله هو أن نستدعيهم » .

واعترض المقرم مرة أخرى : « لست أظن في هذا فائدة ياسيدتى !
فالفلاحون حتى عندما سعوا جاهدين إلى الشراء كانوا يفكرون في ثمن أقل ، وشروط سهلة للدفع ، إذ لأرأس مال عندهم غير عملهم ! » .

صاحت نادينا : « طبعاً ، ليس تحت هذه الشروط ! » .
واستطرد بلاتامونو : « هم يريدون الضيعة الآن ، نعم ، ولكنهم يريدونها
بجانا بلا ثمن ! » .

« ماذا تقصد بقولك بجانا ؟ » . كيف يمكنهم أن يحصلوا عليها ؟ .
« بالتوزيع عليهم دون ثمن ! » .
« يا لها من فكرة ! » .

قال الملتزم : « ومع ذلك هم يتطلعون وينتظرون ، هكذا تهب الريح الآن ! » ،
وغنم ستافرات : « وربما لم يعد المجال يتسع لإظهار العجب من تطلمات
الفلاحين ، فنحن جميعاً نعرف من الجرائد أنهم قد وضعوا فعلاً هذه التطلمات
موضع التنفيذ في كثير من البلاد ! » . وليس من شك في أن الوقت الحاضر ليس
وقتاً مناسباً جداً لإجراء مفاوضات بشأن بيع عربة ما ، وفي مقرها ذاته . . . كان
من الممكن جداً أن تتم هذه الإجراءات التمهيدية في بوخارست ! »

فردت نادينا غاضبة : « لقد فهمت اعتراضاتك ، ولكن لماذا لم تبد هذه
الاعتراضات في بوخارست ؟ » .

« لقد سبق أن حذرتك من أن الرحلة إلى الريف رحلة خطيرة ، ولكنك
أبيت أن تصغي إلي » .

« كفى كلاماً في الرحلة وفي مخاطرها ، فأنت لو أخبرتني بأن الصفيقة لا يمكن أن
تعمد الآن ، أو أنها تتم على نحو أفضل في بوخارست . . . »

« أصبت ياسيدتي ، وأنا أعترف بأنني كنت مقصراً . . . »
ورأى المحامي أن عليه تبعية تهوره إذ ترك بوخارست . لالأنه قصر في إعطائها
الضيعة السليمة . . وأحس بأنه لم يعد مهتماً بصفيقتها ، بل كان همه كله هو متاعبه
التي يماضي منها . . كان الآن يتساءل إن كان في وسعه أن يعالج الأمور بحيث
لا ينام ليلته في جليجانو — بل على الأقل يشق طريقه إلى بوخارست . . وما كان
قد جرؤ على أن يخبر نادينا أو الملتزم بما شهده بالأمس في آمارا ، حين التفت
برأسه في السيارة ، لأنهما ما كانا يصدقانه بل ربما يحخرانه . . ثم هو نفسه كان

على غير يقين تام ، فربما كان الأمر وهما صرفا راود رجلا عصيبا . . . ولكن حتى لو كان الأمر كذلك ، فهو قد يدور حقيقة واقعة غدا ؛ فلماذا إذن ، وهو الرجل الوقور المتمالك لقواه العقلية ، يخاطر بنفسه ، إذ ربما يفتك به الفلاحون المجانين ؟ . . إن عليه ، على القبض ، أن يفتهم فرصة للتجاة بنفسه حيثما استطاع .

واستطرد بلاتامونو : « عليك بالصبر قليلا ياسيدتي — فأنت قد أحسنت صنعا بالحضور إلى هنا ، لتدل الناس على أنك لا زعمين التخلص من الضيقة على النحو الذي زعموه . . والأمر بعد أن يستغرق أكثر من يوم أو يومين وتسكن ثائرة هذه الفتن كلها . . والواقع أن رئيس الشرطة يجوب الريف بنفسه ، وسيمر هنا اليوم ، لينخطب في الفلاحين ، ويهدى من اضطرابهم ، ويخرج هذه الأفكار من رؤوسهم . »

قالت نادينا : « وماذا عن السيد الشيخ أيوجا ؟ . . أنا لم أجد وقتا بالأمس إلا لأتاني إليه بالتحية . . . ومحال أن أتخلص منه . . بل يجب أن نكلمه أيضا حتى لا يظن في الظنون . »

قال الملتزم : « لا لا ياسيدتي . . تأكدى أنه لا يفكر في الشراء الآن . . . ابقى هنا هادئة مستريحة البال في الوقت الحاضر ، وسنرى ما يأتي به القدر . . لو شاء السيد أيوجا أن يقول لك شيئا فسيرسل إليك برسالة ، هذا أمر مفروغ منه . »

ولم ترض نادينا عن هذا الحل ، وإن اضطرت إلى الاعتراف بما فيه من حجية وإذا بها تقول بصراحة ، كأنما تستيقظ من حلم : « لماذا جئت أنا إذن ؟ . . إذا كان على أن أنتظر حتى تمر هذه العاصفة ، على حد قول السيد ستافرات الآن ؛ فلماذا تجشمت أنا مشقة الحضور ؟ . »

واستصاها بلاتامونو : « لا تندم ياسيدتي . . . لقد امتنعت برحلة طيبة وأنت — بمشيئة الله — ستعقدن صفقة طيبة ، وطال الحوار زهاء ساعتين من الزمان ، فكأنوا يلقون ، ويدورون حول الأسئلة ذاتها ، ويجيبون بنفس الإجابات ويتجهون إلى نفس القرارات . . ووجهت نادينا دعوة إلى ستافرات ليبقى في صحبتها

ويتناول طعام الغداء .. وانسحب الملتزم وهو يعد بالرجوع، بعد حين، في المساء
ليأخذ المحامى للبيت .

قالت نادينا نتحدث ستافرات ضا حكة، وبلاتامونو يلقى إليهما تحية الانصراف
« أرجو أن تطارحنى الغرام ، لا أن تلقى الرعب فى قلبى بهذه الحكايات المزعجة
عن الفلاحين » .

وارتبك أولمب ستافرات، وداعب لحيته ، وألقى عليها نظرة اضطرت فيها
القباهة مع القلق .

أما أرسيد فكان ينتظر نافذ الصبر فى الساحة ، بعد أن جش أيلينا جمشة
خفيفة أمام عين أيتها الذى أخذ يتحدث معه عن القلاق فى هذه الانحاء ، قتلا
للوقت لا أكثر ... وكان دوميترو يتوق لهما إلى معرفة ما إذا كانت الأرض
ستعطى للفلاحين .

قال بلاتامونو وهو ينزل الدرج على عجل ، وينطلق مباشرة إلى العربة :
« هيا بى ، فقد انتهينا ! » ثم غاطب أرسيد بصوت أشد انخفاضا : « هيا ، فقد
يستبد القلق بوالدتك ! » .

فلما خرجا إلى عرض الطريق ، التقيا بماتى دولمانو وبقية الجمع الذى شهداء من
قبل ، كأنما كانوا فى انتظارهما .. وأشار دولمانو إليهما بالتوقف ، ثم اقترب منهما .
وتسأل الملتزم متوددا كالعهد به دائما : « ماذا دهك ياماتى ؟ .. ما خطبك ؟ » .

واستدار الفلاح من تحت رأس الجواد ، ومضى إلى بلاتامونو ... كانت
أساريه أشد قتامة مما كان عادة ، وكان هناك بريق خفى فى عينيه .. ووضع
قدما على السلم ، ومال ، ثم همس فى أذن الملتزم : « اصغ إلى ياسيدى ، أترك
باباروجا وشأنها ، وإلا فلا تلومن إلا نفسك ! » .

واريد وجه بلاتامونو ، ولكنه استطرذ فى نفس اللهجة الرقيقة إخفاء لمشاعره :
« ما خطبك الآن ؟ .. ألم أخبرك بأنتى لن أزج بنفسى إذا كنتم ستأخذونها ؟ »

فسأل الفلاح مرتابا : « لماذا إذن جاءت السيدة هنا ؟ » .
« ربما كانت تريد بيعها ، ففى ضيعتها على كل حال ! » .
قال ماتي دولانو متوعدا : « ومع ذلك فليس لك أن تتدخل ! نحن لن نسمع
لأحد أبداً كان أن يأخذ الأرض منا ! » .
فقال الملتزم متلعثا ، فى صوت حاول أن يجعله متوددا ، ولكنه لم ينجح :
« لا تقلق بالك من جمتى . اصدىقي !.. ولا بد لكم من الاتفاق مع السيدة ! » .
قال الفلاح : « اترك السيدة لنا... هذا كل مافي الأمر يا سيدى ، ولا تقل
بعد ذلك إننى لم أحذرك ! » .

فأجاب بلاتامونو ، واثقا بنفسه بعض الشيء . « هذا عهد بيننا ياماتى ، وأنا
حين أنسلكم ، يخرج الكلام من قلبي !.. تأكد من هذا ياماتى... إلى اللقاء ! » .
وانتهى الفلاح جانبا ، وهو يهمهم لنفسه ؛ أما الملتزم فقد استحث حصانه
على المسير : « هيا ... هيا ... فقد تأخرنا ! » .

- ٢ -

قال بوزوك وقد وقف فى فرجة الباب مرة أخرى ، وأخذ يتطلع إلى الشارع :
« ماذا جرى للناس باترى ؟.. أهكذا يقون محتبئين فى عقر دارهم ؟... والزبان
أمثالكم يأسيري دون لا يدرون ربما كثيرا ! » .

وكان سييري دون راجالى قد ابتاع لنفسه قدحا من الشراب ، ودفع ثمنه ..
كان بوده أن يطلب المزيد ، ولكنه كان يعلم أن بوزوك لن يقبل أن يعطيه
نسيئة ... كان اسمه مقيدا فى عداد الذين عليهم ديون ، وهو لم يدفع بعد شيئا
يتخفف به من دينه ... وأجاب هاشا باشا استجلابا لثقة صاحب الحان :
« ربما هم قد أخذوا فى تنظيف محارثهم ، فقد تحسن الجو ، وهم بهذا يتبينون
لتوزيع الأرض .. »

« طبعاً .. طبعاً .. فأنتم قد لحظتم كيف هرع الملاك الواحد تلو الآخر

متنازلين عن ضياعهم !! ، قالها بوزوك ساخرا دون أن يلتفت إليه ، ثم استدار وعاد إلى البار ، واستطرد قائلاً : « أنت سكير عرييد ياسيريدون ، ولكنك على الأقل أكثر فطنة من الآخرين .. فأنت لا تكذب دون مقابل ! » .

وكان الفلاح شيتخا واهن القوى ، فاكفت ملاحه سمة اليأس ، وأجاب باكياً : « غيرى يتعاطى الشراب لأن الشراب يبك في نفسه السعادة ؛ أما أنا فأثرب بسبب ما أعانى من فقر ومن متاعب ياعم كريستى ! ... هكذا كانت حياتى منذ أن ماتت زوجى ... أما ابنة زوجتى فلا وقت عندها لى ، لإنها تسبى ، وترفض أن تلحظنى بنائيتها ! » .

قال صاحب الخان مقاطعاً : « أنا أعرف حكايتك بحـ.افيرها ؛ هكذا إرادة الله ياعم سيريدون ! » .

« طبعاً أنت تعرفها ، وتعرفها جيداً ! » قالها الشيخ متأذياً ، وأتاح ببصره ناحية الباب المفتوح ، حيث دخل إذ ذاك ابن فيليب اليوزا ، وكان نظيفاً ، ينتمل حذاء ... وصاح الطفل فى صوت متحشرح ، وهو يلتصق بالبار ، ويتفحص بعينيه الرفوف وراءه : « لقد أرسلنى جدى من أجل — أرسلنى من أجل — ! » .

قال بوزوك مبتسماً : « من أجل ماذا أرسلك جدك يا أنطون ؟ » .

قال الطفل : « وقد سـرم أن تذكر أخيراً : « من أجل .. من أجل كيلوجرام من البترول ، ولكن فى زجاجة من عندك ، لأن زجاجتنا قد كسرت » .

« هل أحضرت النقود ، أم لا ؟ .. » .

« هاهى ذى ! » قالها أنطون مزهواً ، وهو يكشف عن النقود التى كان يقبض عليها بإحكام فى قبضة يده .



كانت السيدة دراجوس قد عادت توها من بيتنى حيث كانت تقوم بزيارته زوجها فى السجن .. ولقد جاءت بالقطار حتى كوستستى ؛ أما بقية المسافة فقد

قطعتها مشياً ، إذ مامن سائق عربية وافته الشجاعة ليروح إلى الريف ، رغم أن زوج المعلم كانت على استعداد لأن تجرل العطاء .

وعادت إلى بيتها وهي أشد شقاء من ساعة رحلت ، فقد قضت يوم الاثنين كله على أبواب رجال الحكم ولكن دون جدوى ... ووافق النائب العام ، على مفضل شديد ، أن يسلم إلى دراجوس ما جاءت به السيدة من مال وطعام .. وبالأمر ، وكان يوم الثلاثاء . غيبت من خطتها ، ففتحت بعض المال لأحد الموظفين الأقرب مكانة ، واستطاعت بهذه الطريقة أن تقابل زوجها برهة وجيزة .. وكان الرجل حتى الساعة لا يدري لماذا ألقى القبض عليه ؟ ، إذ لم يخبره أحد بشيء ، كما لم يستجوبه أحد عن شيء ؛ ولكنه كان يعتقد أنه محجوز هناك ليحولوا دونه وإثارة الفلاحين ضد ملاك الأرض .. وضحك أيونيل المسكين ، وهو يخبرها بهذا ، فائلاً : إن من الخير له أن يبعد عن آمارا ، فهو لو كان هناك ، ثم وقع شيء في القرية ، لاتهمه الأشراف ، هو وحده . يتبعة كل شيء .

وبكت فلوريبكا وهي تحكي حكايتها على شيوخ القرية الذين كانوا يعتمرون أيديهم وهم يصيخون السمع إليها .

وغنم نيكولاى دراجوس بفتة ، وقد اربد وجهه غضبا : « لاضر ، فنحن ان نعاني بعد ذلك طويلا ، وسوف نعاقبهم بما يستحقون ! »

قالت فلوريبكا ، وهي تحفف دمعها : « الزم الهدوء يا نيكولاى ؛ ولا شأن لك بالناس وبشرورهم ! . ولوساء الأمور فسيعتالوم كله على أيونيل مرة أخرى ... وسيقولون إنه هو الذى عليك أن ... »

قال : « بل أنا لو علمت بأنهم سيقطعونى إربا ، ويلقون بى إلى الكلاب ، فلن يهدأ لى بال حتى ينال كل واحد ما يستحق ... ولا يهمنى غضبك ، فأنا فى آبه لأحد أيا كان ! » .

صاح ليوتى أوريسور ، وقد توقف فى الطريق وفأسه على كفه . « مرحبا ياتريفون ... هل بدأت العمل ؟ » .

فأجاب تريفون غوغو من سقيفة الباب حيث انبعث منها صوت معدن يضرب فى الحجر .

وتسأل ليوتى دون تفكير : « أترك تشخذ منجلك ياتريفون أم ... » .
قال تريفون دون أن يرفع رأسه : « نعم ، أنا أشخذ استعدادا ليوم عظيم ! » .
« الظاهر أنك تريد أن تحصد قبل أن تزرع ! » .
« لو اضطرت إلى ذلك ... فالجواب نعم ! » .

* * *

دخلت العربية البوابة ، وكانت مفتوحة كالعهد بها .. وصاح ، اران ستان من وراء العربية الخالية فى الأطفال الذين كانوا يلعبون فى الفناء ، وهو يلوح بمصفي يده كأنها سوط .. « أفسحوا الطريق بأولاد ، ابعدوا عن أقدام الثيران ! ... أفسحوا الطريق ! ... »

ثم ، وبينما الثوران يتطلقان فجأة إلى ظهر الفناء ، تقدم أمامهما مسرعا قلعا !
وقال « أخذكما الشيطان .. أتبا حيوانان مختلا العقل ! .. لماذا تتطلقان هكذا ؟
هيه .. هيه .. سأضربكما ضربا مبرحا ! .. هل جفتما ؟ .. هل تحسبان أن فى مقدوركما أن تقدمما على أى شئ . مثلما يفعل ملاك الأرض ؟ .. سأريكما ! .. »

ولطمهما لطمًا عنيفا بطرف العصا ، أحدهما تلو الآخر . وتمتم وهو يكر بأسانه : « لا يكن شأنكما شأن ملاك الأرض ، عليكما اللعنة ! » .

* * *

قال فيليب اليوزا يخاطب الأب نيكوديم ، وكان جالسا على كرسى فى الشرفة التى سطعت عليها الشمس : « أنا لا أدري ماذا أفعل يا أبتاه ! .. الطقس قد تحسن ، والأرض قد جفت ، وأنا فى حيرة من أمرى .. هل أبدأ فى حرث

الارض ؟ أنا لا أستطيع أن أظل هكذا لا أفعل شيئاً ؛ وأنا أرى أن الآخرين...
ولزم الصمت متسائلاً ... وكان القس مقبلاً لتقدمه في السن ، ثم لأنه كان
يتحرق شوقاً إلى ابنه الذي غدا متسلطاً على فكره كلما ازداد ضعفاً ... ولقد كان
مثل الصحة طوال الشتاء لسبب أو آخر ، فأخذ يردد أن العمر لن يمتد به حتى
يقبل الصيف ... ولكن ما إن أشرفت أشعة شمس الربيع الأولى حتى أشرفت أساريره
واستعاد اهتمامه بالحياة ... وأجاب زوج ابنته الذي وقف بجانبه ثقيلابليداً كأنه
كتلة من الخشب بقوله : « ينبغي أن نعمل يا فيليب ، ولكن إذا كان الناس يرون ...
ثم استطرد في لهجة أخرى : « ليت شعري ماذا يتوقع الناس حتى لا يشرعوا
في العمل ! » .

قال فيليب : « إنهم يتبعون بعضهم بعضاً ، وكل واحد يستحث الآخر ،
لأكثر .. ولكن الوقت قد مر ، والحقيقة هي أننا ما زلنا دون أى عقد مع
صاحب الأرض ، وليس عندنا غير أرضنا ... » .

وأحضرت نيكولينا قدحاً من اللبن الحار لآبيها ، وكان فيليب قد بحث الأمر
مهما قبل ذلك بفترة وجيزة ، فأنفجرت بصراحتها المعتادة القاطمة قائلة : « إن الناس
قد فقدوا صوابهم ، وهم يحرون وراء سراب محال — وسوف يتضورون جوعاً
في النهاية — وسوف ترى إن لم أكن على صواب ! » .

قال فيليب وهو كسيف البال : « أسوأ ما في الأمر هو أننا لا ندرى إلى أين
نتجه .. والواجب أن نكون على بينة مما نفعل » .

قال القس ، وهو يديفه يديه حول القدح ! « نحن لا نستطيع أن نتصرف
ضد رغبة الناس .. إنما نفعل ما يفعله كل واحد . هذا هو سبيلنا ولا سبيل
لنا غيره » .

واستطردت نيكولينا غاضبة : « ليبعد فيليب عن طريق الناس فهو رجل ذو
عائلة كبيرة ، وليس له أن يتأثر بالحقى الذين يخربون وينهبون ، ولم يتورعوا
عن نهب اللحم منافي الخريف الماضى .. نحن لن نجد أحداً يعطينا طعاماً ، أو يهب
لمساعدتنا .. إن لى خبرة هؤلاء الناس ، ولا أريد أن أسمع عنهم شيئاً بعد ! » .

واستحزن فيليب مسلك زوجه وحساسها ، فقال في تفكير : « لقد بلغ العالم الدرك الأسفل من الشر والاضططاط ، لم يعد بعده زيادة لمستزيد ! » .

وما لبثت نيكوليننا أن غمغمت في قلق بعد لحظة ، كأنما قد ملح لها خطر لجأه : « ترى ما الذى حدث لأطفالنا ؟ .. لماذا لم يعد بالبرول من الحان ؟ ، لقد ذهب منذ وقت طويل و .. » .

* * *

صاح إيجنات سيرسل في زوجه غاضبا ؛ وكانت عاكفة على مشاكسته وهى على باب الدار ، بينما هو يتكأ فى الفناء : « كفى يا امرأة ! .. ألا تسمعين ؟ .. » .
لئن لم توقفي هذه الأقدار التى تنساب من فمك فسأفعله لك بطريقة لن تنسها أبداً .. وإياك أن تخبرينى بما ينبغي على أن أفعل ، وبما لا ينبغي أن أفعل ! ..

« السباب سهل عليك .. أنت تهرب طوال النهار من البيت ، ولكن ماذا أفعل أنا ؟ .. قل لى ماذا سوف يحل بى وبالأطفال ؟ .. كيف لى أن أطعمهم ؟ .. »
لقد استجديت جيرانى جميعا ، واستندت منهم حتى ضاقوا بى ذرعا ! .. لم يعد فيهم أحد يريد أن يسد رمقى ولو بحفنة من دقيق الذرة ! ..

« كان إيجنات يعلم أن زوجه على صواب ، ولهذا ازداد غضبا .. فهو عندما لم يجد شيئا آخر يفعله ، شرع يصلح الدور ، ويعمل بالساطور ، ويضرب بالمطرقة كمن به مس من الشيطان .. وتوقف وهلة ، وقد أراح فأسه على كتلة الخشب ، وقال : « ألا تدركين يا امرأة متى تتكلمين بأدب ؟ .. ماذا تريدننى أن أفعل ؟ أتريدن أن أشق نفسى ؟ .. سأفعل ذلك ، وستقرين عندئذ عينا ! .. أنت لا صبر عندك ، مثلك مثل جميع الناس ، أنت تحبين الشجار كما يحب الكلب النباح .. ألا ترين أننا جميعا نبذل كل ما فى طوقنا ، وإن الله لا يبد معيظنا على أمرنا ؟ .. »

واستمرت المرأة تدمم فى صوت ثاك باك ، فأمازت فى نفسه من الضيق فوق ما يطيق .. وكان كلبه راقداً هادئاً على مقربة منه ، وكان بارز العظم ، بانسا ، جوعان .. وشخص إيجنات يبصره إليه ، واستشاط غضبا ؛ كأنما كان

استسلام الكلب مبعثاً للبهز به ، فركله فجأة ركلة جعلته يتدحرج مرة ومرة ؛
ومن ثم ابتعد عنه عدة خطوات .

« اذهب إلى الجحيم ، واغرب عن وجهي ! » .

وعوى الكلب عواء طويلاً كثيفاً ، كما أن مجرد تردادته تهدئة لسورة سيده ،
فاستكانت مشاعره ، واستأنف عمله في السور قائلاً : « أخذك الشيطان ! » .

* * *

« هالو ، هالو . . . نعم ، نعم . . . هنا نقطة بوليس آمارا . . . أنا رئيس
النقطة ، الرقيب بونجيو . . . ماذا تقول ؟ . أهذا أنت يا بوبيسكو ؟ . . . حفظك الله
أنا لم أتبينك من صوتك ! . . . كل شيء هنا يا بوبيسكو ! . . . كيف الحال عندك في
إيزفورو ؟ . . . على ما يرام أيضاً . . . ماذا تقول ؟ . . . أشعلوا النيران في بيت
الدائرة ! . . . أين ؟ . . . في دوبريزي . . . أوه ، تيلورمان . . . إنها بعيدة عنا
جداً ، في وسط المقاطعة . . . ولكنه أمر رهيب على كل حال ! ماذا فعلت الشرطة ؟ . .
أوه ، لا يوجد أحد من رجال الشرطة هناك ! . . . هذا هو السبب إذن ، وإلا . . .
استمر ، استمر يا بوبيسكو . . . أنا مصع إليك . . . أقول إن الوالي والمفتش رحلا
عن إيزفورو منذ ساعة ؟ . . . حسن جداً . . . أنا أعرف أنهما آتيا هنا . . . أنا في
انتظارهما . . . شكراً لك على كل حال . . . إنهما لن يصلا قبل العصر ، أليس كذلك ؟
لا بأس ، لا بأس . . . سأخبرك فوراً لو وقع شيء هنا . . . وأنت أيضاً افعل
نفس الشيء لو حدث شيء عندك . . . حسن يا بوبيسكو ! . . . إلى اللقاء ، وحظاً
سعيداً ! . . . كيف صحة السيدة بوبيسكو ؟ . . . على ما يرام . . . زوجي ديدينا في صحة
جيدة ، شكراً لك . . . أطيب التمنيات لكم منا أيضاً ! » .

وكان بونجيو ، وهو يتحدث بالتليفون . يأتي بإشارات يائسة لزوجته حتى
تلتزم الهدوء إلى أن ينتهي . . . فلما وسم الساعة قال في ملل : « حسن ، ماذا تريد ؟
ألا ترين أنني مشغول ؟ »

وكانت السيدة بونجيو تطالع بانتظام جريدة يونيفرسول ، وكانت في رعب
شديد من الأنباء التي تقول : إن القلاقل بين الفلاحين في زيادة مضطردة . . .
لم تعد تستهويها الآن أخبار الجرائم والحوادث المثيرة . . . وهي ، منذ أن قرأت

في الأيام الأخيرة عن الناس الهاربين إلى المدن ، أخذت تسائل زوجها باستمرار عن مصيرها ، أتراما تبقى هنا ليتولى الفلاحون قتلها ؟ .. ورأى الرقيب أن شجاعته العسكرية ستتهار ، انهيارا إذا هي صممت على الفرار ، بل وبمازاد العطين بلة أنها حدثته في هذا أمام رجاله ، بل وأمام المدنيين أيضا ! الأمر الذي ثبط من عزيمة رجاله ، ونشر فكرة الثورة بين الفلاحين .. ولقد حذرهما أولا بأدب ، ثم قال لها السباب بعد ذلك ، ولكن السيدة استطردت قائلة : « ماذا قررت بشأنى ؟ هل تبقى هناك ؟ »

وانعجز زوجها ، منتهزا فرصة خلوتهما قائلا : « اصغ إلى ياديدنا .. إنك تخرجيننى عن طورى .. ألم تسمعى بأذنيك أن الزوالى والمفتش قدامان ؟ »
« نعم سمعت ، ولكن .. »

« إذن اتركىنى وشأنى .. أنا سوف ألقى بحريديك اللعينة إلى النيران .. بل أنا لم أعد قادر على أداء واجبي في هدوء بسبب نواحك وصراخك ! أنت لا تكفين عن القول بأن الفلاحين سيقتلونك ! .. والظاهر أنك فقدت عقلك ! إنهم لو قتلوك فسيقتلوننا معا - ولهذا أنا تزوجت منك ، ورفعتك من الحضيض وجعلتك زوجة ضابط ! »

وتركت ديدينا الحجرة باكية قائلة: « ربنا يعاقبك ، .. ولتذهب إلى الجحيم ! »

« رحماك يارب .. الموت يأبى أن يأخذنى وأن يرحبنا جميعا ! .. لقد ظلمت ألازم الفراش منذ الحريف الماضى ! .. وتوسلت إلى الله أن تأخذه الشفقة بأطعالي ، فإن قلبي لينفطر وأنا أراهم جوعى مهلبلى الثياب ! .. أوه ، لقد اتهمهم وسوف أختنق - لا أستطيع أن أتفس .. أرايت إلى يدى ، كيف هما باردتان ؟ أواه ، يارب ! »

وكان جو الكوخ خافضا من رائحة العرق وأنين المرأة المريضة .. وانساب ضوء الشمس صافيا من خلل الشباك القذر .. وأخذت كتلة من الخشب تثر في

المدفأة، وترسل سحاب الدخان في الغرفة . . وترجم الطفل ذو السنين وهو يلعب مع القط المخطط سوادا وبياضا على أرض الغرفة ، بما فيها من بلل وطنين.

ووقف ميلينت ميروفيمو قرب السرير الخشبي، وقد شبك يديه أمامه، وانحنى فوق المرأة المريضة . وعيناه حزيتان مفعمتان بالعصف . . وكان خداه الغائران الصفراوان يرتشمان، وهو يشعر بمعدته تتلوى من الجوع بحيث خشى أن يبلغ الصوت مسامعا . . قال بعد وهلة : « أشعرين بألم شديد ؟ » .

واسترخت أساريرها لحظة ، كأنما صوته قد جلب لها الراحة ، وأجابت بإبتسامة باهتة : « أنا لا أشعر بألم ولكن . . آه يارب ! ! » .

وانتفضت وارتمدت كحيوان جريح .

وبعد عدة دقائق اندفعت ابنتها ذات السنوات الخمس وهي مريضة الوجه ، وأخذت تشكو على عتبة الباب : « أبتاه ، بأفالوك — قال لى . . وأنا قلت . . وهو قال . . . »

« عودى إلى الاطفال بالنيوتا ، والعبي معهم . . هيا أملك مريضة و . . »

ولم تنتظر الطفلة لتسمع النهاية ، بل خرجت راضية ، وأخذت تصيح من المدخل : « ياأفالوك ، بابا قال إن . . »

هرع ليوتى بومبو إلى زوجه بالخبر الذى نعى إليه من بعض الناس الذين كانوا في طريقهم إلى موزاسينى في قرية . . قال لإنهم التقوا ، على مدى من وادى تيلورمان ، بجماعات من الفلاحين ، كانوا ينطلقون من قرية إلى قرية ، ويطردون أصحاب الأرض ، ويصادرون ضياعهم ، ويشعلون النار في بيوتهم حتى يضمروا أن يذهبوا بغير رجعة . .

وكان المشرف أشد جزعا من الشريف نفسه، خشية أن يثور الفلاحون؛ رغم أنه، فيما قال لوجه، لم يضطهد أحداً، بل قدم المعونة حينما استطاع، ولهذا لم

يكن ثمة ما يدعو للخوف . واستطرد مع ذلك ، فقال : إن الفلاحين ، عندما يفقدون صوابهم ، لا يأخذون أيأ من هذه الاعتبارات في الحسبان . . . وكان للرجل - فنته من الأصدقاء الذين كانوا يسرون إليه بما يحدث في القرية ، وكانوا يطمشونه دائماً بأن كل واحد يحبه حبه لأخيه ؛ ولكنه كان رغم ذلك لا يثق ثقة كبيرة في أقوالهم ؛ فهو يعلم كه التأكيدات التي أفشى بها هو نفسه إلى الشيخ ميرون ، وكم فيها من صدق .

والحق أنه ما كان بحاجة إلى من يده على وجود هياج بين الفلاحين ، وعلى أنهم يدبرون أمراً ، وإن كانوا لم يدركوا كنهه على وجه التحديد وهم إذا اكتشفوا الساعة ما كان يحدث في الأماكن الأخرى ، فلن يكون من العجب إذا هبوا هنا أيضاً ، وأخذوا يقتربون الجرائم وهم ، بعد ، يشعرون بمرارة بالغة ؛ وقد ينتظر منهم أي شيء ، كائن ما كان . . . وبينما زوجه تهدي من روعه قائلة : إن الله العادل الرحيم موجود ، وإنه هو الذي يتولى حمايتهما ، وإذا بخادم الدائرة يدخل ، ويعلن في لهفة : إن الشريف يريد في التو واللمحظة .

وتسأل ميرون : « قل لي ، ماذا يعمل الآن رجالنا الذين يشتغلون هنا عادة ؟ . . . هن نفنظر بجي الثورة أيضاً ، كما فعل البؤساء الآخرون ؟ . . . إننا لانملك شيئاً حيال هؤلاء المساكين ؛ لقد فتنهم اضطرابات الغوغاء ، ولا مناس لنا من الانتظار رئيساً يشربون إلى رشدهم . . . على أننا ما زلنا نملك زمام أنفسنا يالويوتى ! . . . ولا بد أن نهم بأمورنا يالويوتى ! . . . وإذا كنا لانستطيع أن نبدأ العمل في الحقول ، فنحن نستطيع على الأقل أن نعمل في الخديقة . . . لقد أقبل الربيع ، ومن العار أن يجدها على هذه الحال ! . .

قال المشرف ، كأنه جندي أمام قائد برتبة فريق : « سمعنا وحاعة ياسيدى ! . . ويجب ألا نفنى أن السيدة نادينا هنا ، وأن رئيس الشرطة قادم بعد الظهر »

سأل سيرا فيم موجوس عندما خرج إلى الطريق : « أين كنت يا تودر ؟ » .
فأجاب تودر ستريمو متمهلا : لم أذهب إلى أبعد من فايدى ... ذهبت
للمرؤية صبرى ! . . .

وتصعدا في الجو والأرض وفيما يعانيان من فقر ... قال تودر إنه قد سمع
بى فايدى أن الناس في الأماكن الأخرى قد نهبوا كل ما وقعت عليه أيديهم ، وأنهم
حردوا الملاك ، وأن كل واحد قد أخذ ما كان في حاجة إليه من الأرض .

وتأوه تودر ستريمو حسرة وقال : « النظام أن الثورة لن تأتى هنا إطلاقا ؛
ولو جهات لا يمكن أن أحصل على قليل من ذرة الملاك أطعم بها عيالى ... ما أفسى
هذا الشتاء الذى مررنا به ! . . .

قال سيرا فيم موجوس وهو يكر بأسنانه ، وقد ارد وجهه كأنما قد امتلأت
شرابينه سما زحافا : « أنا من ناحيتى لا أتمنى إلا أن أضغ هذا الرقيب ، وأهشم
برأسه تهشبا يعلق بهذا كرتة حتى وهو في قبره ! .. هذه السنين يا تودر - ثم ليقطعوا
ورأسى بعدها لو شاءوا ! . . .



كانت أحسن حرية ، بأحسن جياذ ، تقف في الانتظار ساعة عند أسفل الدرج ،
وقد حلت بكل أنواع المفافات ؛ ومع ذلك فقد أبى قلب كوزما بيربونا أن
يطاوعه على الرحيل .. وأخذ خادمان والخمير ميترتو يتسللون حول العربة
عربمبون وينظمون .

وظهر الملتزم أخيرا في محبة زوجه وعياله ، وقد حمل كل منهم صندوقا
أو طردا صغيرا .. وسار وراءهم لازار أودولو ، وهو الخدم الذى كان موضع
سر كوزما ، وكان عارى الرأس ، يصفى باحترام إلى التعليمات التى انتهالت عليه .
أما السيدة بيربونا وعيالها فقد نظموا أنفسهم في العربة بين الائمة .. واستطرد
الملتزم مخاطب لازار قائلا : « أرجو أن تكون قد فهمت كل شيء يا لازار .. اعن
بكل شيء ، ولا ترك البيت دون حراسة ، فتذهب إلى الحان ، أو يلبيك أى
أمر آخر ! . . .

واعترض أودولو قائلا : « لنقتل هذا ياسيدى ! .. فأنت تعرفى خيرة من ذلك ! » .

وعاد كوزما بيرونا يؤكد عليه ، وهو يصعد إلى جوار السائق : « لا بأس ، لا بأس ... ولكن يجب أن تتم كل الاهتمام بالازار ! » .

« سيما وطاعة ياسيدى ! .. قالها وهو ينحن ، ولكنه استطرد بعد لحظة ، فى شيء من الحيرة قائلا : « اغفرلى ياسيدى هذا السؤال ، ولكن من واجبي أن أعرف ... ترى هل ستمودون ؟ » .

فصاح المتزوم : « ماذا تقول بالازار ؟ .. ماذا تقصد بهذا السؤال ؟ .. لم لانمود ؟ .. كلام فارغ ! .. هل تظن أنني أترك تلكاى هكذا ببساطة ؟ .. هناك سبب يدعون لهذا ؟ ما الذى دفعك إلى هذا القول بالازار ؟ .. لا يا بنى ، ألم أقل لك أننا سنرجع الليلة ؟ .. أم ترانى غفلت عن إخبارك ؟ ... نعم سنرجع الليلة ، إن شاء الله ! .. نحن ذاهبون فقط إلى كوستسى ، لنشتري بعض حاجيات الأطفال ، فقد أقبل الصيف ... أما بيتسى فهى بعيدة جدا ... أرجو أن تسير الأمور على مايرام ، وداعا بالازار .. هيا أيها السائق ! .. » .

وأطلق السائق العنان للخيال ، وتحركت العربة ، ومالت إلى اليمين خلال البوابة .. فلما اختفت قال أحد الخدم ضاحكا : « إلى حيث ألفت ! .. هكذا يذهب واحد منهم ، وإن احتمال عودته كاحتمال بقاى هنا ! .. » .

وغنم يعقوب ميروتو بقوله : « إنه ينتظر أمرا منى ليعود ! .. » .
« كفى لنوا بأولاد ! » قالها لازار أودولو بطريقة آلية ، ولكن بغير اقتناع كبير .



قال لوبو شيريتو عندما دخل لوكا تالاباداره : « أية ربح ألفت بك هنا بالوكا ؟ .. اتخذ لك مقعدا ... هات له كرسيًا أينما العجوز ، ولا تهتاجى هكذا ، فهو لم يأت سعيًا وراء عروس ! .. » .

قال لوكا : « لا تسكني خاطرك يا أم براشيفا ، فقد تعبت من الجلوس » .
ولكنه مع ذلك جلس .

وكان قد جاء ليحدث العم لوبو في شأن باباروجا التي جعلت النوم يطير من
أجفانه حتى الآن ، حين كان الأمر أمر شرائها بأمانة ، وهو ما كان يذهب ، فقد
بذل كل ما في وسعه ، وكافح وطرق كل سبيل .. بل هو الآن يرفض أن يسقط
الأمر من حسابه ، ولكنه سمع الناس يقولون : إنهم سيستولون على الأرض غضبا ،
دون عقود ، وإن كل واحد سيأخذ ما يقدر عليه .

« أقولها لك كلمة صريحة ، أنا لم أ تدخل أبداً في هذه الأمور حتى الآن يا عم
لوبو ، وأنا غير مبالٍ إليها .. والآن يأتي الناس لإغرائى ، الواحد تلو الآخر ،
فيقولون : إنه يجب ألا ندع الأمور تبدأ وتستكين ؛ وإنا إذا بدأناها ثورة ،
فيجب أن نمضى فيها إلى النهاية .. قلت لهم : حسن ، لقد بدأنا الثورة ،
ولكنكم لم تثبتوا على رأى ، ، قالوا : نعم هذا صحيح ، ولكن جاء دورنا
الآن ، ومن العدل والحق أن تكون الضياع كلها لنا . أنا أرى هذا كله ، ولكنهم
مع ذلك لا يتركوننى في سلام ، بل يدفعون بى إلى الجنون ! ، ،

قال لوبو الشيخ دفاعا عن نفسه : « أنا أقول لكل واحد إننى لا أقحم
نفسى في شئون الغير ، ولا أ تدخل فيها لا يعنينى .. لقد شهد شعرى الأبيض هذه
الاشياء من قبل .. والأمر هو كما كان ، مع شىء من التغيير هنا أو هناك ، ثم
جاء الفيضان ! .. لا لا لا .. ان ينجم عن هذا خير بالوكا ! ، ،

كانت الخادم في غرفة المائدة بفلاذوتا ، تعد المائدة لشخص واحد لأول
مرة .. بالأمس رحلت الفتيات إلى المدينة ، وعاد العقيد إلى البيت في وقت
متأخر .. ووضعت الأطباق أولا حيث تعود الضابط أن يجلس ، ولكن المائدة
بدت طارية تماما .. لهذا نثر الأطباق حول المائدة ، وهى تتوقف كل مرة ،
حتى عادت إلى وضعها الأول مرة أخرى .

وغضمت الفتاة في استسلام ، ولكن عن غير رضى : « سيات عندى أعجبته

المائة أم لم تعجه ١١ ، ورتت يصرها ناحية الشباك الكبير المطل على الفناء ، حيث كان العقيد ستيغافسكو يحدث الفلاحين بنير ما طائل .

وكان الملقم الشيخ الذى سبق له العمل بالجيش يبدو أكثر جسارة وأشد حيوية عن ذى قبل . . فهو ، قبل البارحة ، فى لحظة تملّ ، تذكر لجأه الضابط تاسيسكو ، الذى سبق أن نال ترقية فى نفس الوقت منه ، كما عمل فى نفس مكتبته سنوات ، حينما كانا برتبة نقيب فى سيفران . وكانت زوجته ، رحمة الله عليها ، على صداقة حميمة بالسيدة تاسيسكو . . ولما كان الضابط وزوجه قد انتقلا منذ قريب إلى يفتسى ، ثم هما لم ينجا أطفالا ، فقد كان فى مقدوره أن يذهب بالفتيات الثلاث إلى هناك حتى يروى كل خطر . . ولم يكلف العقيد نفسه حتى مشقة الكتابة فى هذا الأمر ، بل انطلق صباح الأس ، ومعه الفتيات وكل ما يتزود به ، ثم عاد وحده سعيدا بعد أن تخلف من أكبر متاعبه . . كان فى مقدوره الآن أن يخاطب الفلاحين وهو هادئ البال ، بل وأن يهزل معهم ويغفلهم : « أتم الآن كالأهيان وأكثر . . لم يعد العمل يناسكم ! . . طبعا من السهل على المرء أن يجلس والنليون فى فله ، فيلمن الأشراف ، ويبجج الثورة ، وهذا كله أسهل من عرق الأرض وفلاحتها . . ما قولك فى هذا يا ستيغان ١٢ » .

قال ستيغان مبتسما : « لا بأس من المحاولة يا سيدى العقيد ! » .

وتدخل صوت عميق الثبرات : « لقد رأينا كيف سارت الأمور ، وكانت كلها سوءا فى سوء . . أما الآن فستجرب طريقة أخرى ، وسرى . »

قال العقيد : « سترون الجميع يا فتيان . »

وانقضت دقيقتان وهم يقتلون من موضوع إلى موضوع ، وإذا باستيفان يتساءل بأبسامته المعبودة : « بخصوص الفتيات الصغيرات ، هل أخذتهن إلى المدينة يا سيادة العقيد ؟ » .

فأجاب العقيد ضاحكا : « أراك تفضل أن يكن هنا ، أليس كذلك ؟ . . أنا أعلم أنكم أولاد سفلة . »

« محال يا سيادة العقيد .. »

« بل أنت كذلك يا ستيفان ! .. ألم أحمل أنا مع أمثالك في الجيش ؟ ..
أنا أعرفكم ظهرا لبطن .. ولكن ماذا تستطيعون أنتم حيائي ؟ أقتلوننى ؟ ..
أظنون أننى أخشى الموت ؟ أنا ، ضابط الجيش ! .. أم تراكم تريدون نهبي ؟ ..
في وسعكم هذا لو شئتم .. إن كل ما أملكه وضعته في هذا المكان ، واقتسمت
معكم .. لا شئ بهم يا فتيان ، والله موجود وهو مطلع على كل شئ ! أنا لم أضربكم
ولم أغشكم ، ولم أكن ظالما معكم بل ساعدتكم ، ودافعت عنكم ، وقت يارشادكم ،
والآن تأتون وتريدون ليذائق ! .. هل هذا عدل ؟ .. »

ونظر العقيد إلى كل فلاح بدوره ، كأنما كان يتوقع كلمة ، أية كلمة ، من
الاعتراض أو التأييد .. ولزم القوم الصمت .. وأخيرا غنم ستيفان ، وكان
أكثرهم صراحة : « إذن ! »

إ وضاع صوته في الهواء ، فقاعة من صابون .

* * *

قالت سمارة اندا شاكية : « ما خطبك يا عزيزي بيتر ؟ .. لماذا تكون في شدة
القلق ؟ ولم لا تبقى في البيت كالناس الغفلاء ؟ .. »

فقال بيتر بصوت أجش : « هأنذا هنا يا أمي ! »

« نعم ، أنت هنا ، ولكك ضجر تتأمل طوال الوقت .. والله إنى لأخشى
أن يمسك أذى لو ظلت تتدخل في كل شئ ، بدلا من أن تهتم بشئونك .. »

قال الشاب : « أنا لا أتدخل فيما لا يعنيني يا أمي ، وليس هناك أي سبب
يدعوني لذلك ! .. ولكن إذا كان الناس يطلبوننى ، فلا بد لى من الذهاب إليهم
ومن العار على ألا ألبى ندائهم ! .. »

« ليس هذا عارا على الإطلاق يا حبيبي ! .. أنا أردة ، وإخوتك عيال صغار
— وأنت أملى وملاذى الوحيد .. لقد أخذوك منى في الجيش زمنا طويلا ،
وكان لا بد لى من أن أكافح وحدى .. »

« الناس يقولون إنهم سيستدعوننا إلى الجيش مرة أخرى لأن . . . »
صاحت المرأة وهي تستنجد من الشيطان هلما : « رحانا الله ، ونحمانا من
هذا يا بنى ا . »

قال بيتر : « ولكن الأمر لم يصل إلى هذه الانحاء بعد ، وإلا لكان العمدة
قد قال لنا . . . ليكن ما يكون يا أماء ، ولا تجرعى لغير ما سب ا . »

ثم أضاف بغلظة ، بعد وهلة ، كأنما كان يلمس الموضوع الذى يمس شغاف
قلبه . ليت السيدة ترحل عن هنا . . إنها تأتي بالشركه معها ، لست أدري كيف . .
ليتها فقط تنصرف عنا ، بدلا من أن تسمم الجو بوجودها . »

واستشاطت سماراندا غضبا لجة وقالت : « لتذهب العمدة إلى الجحيم — وليأخذ
الشيطان هذه المرأة المأفونة . »

* * *

دخل العمدة براغفلا إلى الحان ، وهو يفرك يديه في بشاشة ، وقال : « أنت وحدك
يا كريستى ؟ » . « أنا أفضل أن يكون الحان هكذا ا . آتنى بكأس سراجا — فأنا على
عجل من أمرى . . إن بين يدي أمور كثيرة ، ولست أدري أين أنا منها ا . »

وسأل بوزول وهو يعد الشراب : « هل سيحضر الوالى ؟ » .

قال العمدة وهو يأتى غلى الشراب جرعة واحدة : « أتى الله به على وجه
السرعة ، ليهدي من نائرة الناس ا . »

فغمغم صاحب الحان آسفا بقوله والظاهر أنهم يركنون إلى الهدوء الآن فيبقون
في بيوتهم . . لم يحضر أحد إلى هنا غير سبيريدون ، وقد طردته منذ برهة خلت .

قال العمدة مفتحا : « الحق ، لو علمت ، أن هذا الضمت ليس بالعلامة الطيبة
فالسكب حين يهم بالانقضاء ، يتوقف عن التباح . »

« هل ترى إليك شىء ؟ » .

« أنا لست بحاجة إلى من يقول لى - فالتاس لا يفسون بشيء حين يدبرون
أمرا بليل !... ثم هل يعلم أحد شيئا ؟ .. إن الواحد منهم يتحرك يا كريستى ،
ثم يتبعه الآخرون كالأغنام . »

« هذه أوقات عصيبة يا سيادة العمدة ! » .

« هكذا الحال .. ولينه لا يزداد سوءا ! » .

وعاد وتذكر أنه كان على عجل من أمره . فذهب إلى الباب ، وصاح بلهجة
أمرأة غير لهجته الأولى : « احرص يا كريستى على أن يكون الحان مرتبا منظما .
من يدري فربما قدم الرالى وقام بتفتيشها ! .. خير لك أن تكون على استعداد ! » .

« دعه يأتى !... ولكنى لا أظن أن من المحتمل أن يهتم أحد بتفتيش الحانات
فى الوقت الحاضر ! .. هناك أمور أهم من ذلك بكثير !... » .

- ٣ -

فى صباح الأربعاء ، وصل تيتو هيرديليا إلى درابول ، مبكرا جدا ، وكى
ينفى روزو بخبر ثورة جنود الجيش ، وقتلهم بعض الضباط ، وبخاصة لأن
جريدة « ديمينيتيا » لم تنشر شيئا عنه .

قال السكرتير متعاليا : « نعم ، علمت به .. بل أنا أعلم أشياء أخرى أكثر
غراية منه .. » ولقد حاولت صحيفة ديمينيتيا أن تنشر هذا الخبر ولكن قبل
للمحررين لأنهم لو نشروه ، فسيصادر المدد كله ، ولهذا عدلوا عن النشر .. طبعها
يابنى ، أنا علمت ، ولست أدري كيف جال بخاطرك أنى لا أعلم به ؟ » .

ونفض من وراء مكتبه الذى فرش بالصحف ، وأخذ تيتو بيده كأنه تلميذ
صغير ، وقاده إلى خريطة رومانيا التى كانت مثبتة على الحائط .

ومضى كأنه معلم ، وجرى بسبابه على تعاريج الحدود ، وقال : « أرايت
حدوة الحصان هذه يابنى ؟ .. أتراها ؟ .. أتذكر ماقلته لك قبل نحو عشرة
أيام حين كنا نتحدث عن قلاقل الفلاحين ؟ .. ألم أكن على صواب ؟ .. انظر ،

لقد بدأوا من هذا الزكن، ناحية بوكوفينا، عندما ثاروا ضد اليهود، وامتدت الثورة واندمت، بدأت بالمناذاة « يسقط اليهود، ويسقط أصحاب السوارب الجانية .. هل تذكر أنك، أنت أيضا، ظننت أن الأمر كله لا يعدو غير حفة من أصحاب السوارب الجانية من اليهود .. والآن انظر لقد امتدت الثورة إلى تيلورمان هناك .. انظر ! .. وأخذ الذهب ينتشر شيئا فشيئا ... وأنا أؤكد لك أنهم في غضون ثلاثة أيام أو أربعة يصلون إلى سيفران، أعلى على طول حدود الحصان كلها .. والآن نحمد السادة الحكام في رعب من الهنات التي تنادي بمسقوط اليهود، ويحسون بها تلعب جلودهم، لأن الفلاح لا يميز بين اليهودى والمسيحى ! بعد أن هب ينشد العدالة .. ثم إن القتل أخطر ما تكون حيث لا يوجد يهود .. ففى هولاء فى الم تقع حادثة قتل أرسفك دما، أما فى هذه الأنحاء فقد ذبح الفلاحون الثائرون نفرا من ملاك الأرض والمترمين .. »

وأخذ يجلسه على مكتبه مرة أخرى .. ولم يكن فى وسع العين أن ترى غير رأسه، ونظارته وهى تبرق برقا رهيبا .. وأصغى تيتو إلى روزو فى هلع، وبخاصة عندما ذكر تيلورمان .. معنى هذا أن آمارا أيضا كانت فى خطر؟ وكذلك كانت نادينا التي حدثه جوجو أيو نيسكو بشأنها الليلة الفاتنة .

قال بشفة : « قل لى ياسيد روزو، هل جاءت أخبار خطيرة من أرجس ؟ »

أجاب السكرتير : « ليس بعد، ولكن من الصعب على أرجس أن تتجو من الطوفان إذا كان قد امتد إلى تيلورمان التي تجاورها .. ولكن لماذا هذا السؤال ؟ أمن أجل ضديك ؟ هو والحق يقال فى خطر شديد، وإن كان المرء لا يستطيع أن يتنبأ بشئ .. الأمر رهن بنزوات القدر .. على أية حال، إن كنت أنت مهتما بالموضوع، فسأذكك على مصدر موثوق به، — أذهب إلى مودرينو، وهو مدير بوزارة الداخلية، وقل له إننى أرسلتك مندوبا عن الجريدة .. إن الأخبار، أعنى الأخبار الرسمية، تذهب كلها هناك الآن ... وهو يتولى مهمة خاصة هناك .. وإنه لشاب مذهب رقيق الحاشية، ولكنه عبق القطار، وأنا أقول لك هذا حتى تتمكن من معاملته .. »

وشعر تيقن بالامتان ، وشكره على صنيعة .. لقد سره خاصة أن تساح له القدرة على معاونة جرمجور أيوجا ، فهو قد رحب به ترحيبا حارا عندما التقيا أول مرة ... وقد عامله معاملة الصديق منذ ذلك الحين ، وكذلك جوجو أيونيسكو ، فالمسكين في قلق شديد بخصوص نادينا .

وانفتح الباب فجأة ، وظهرت رأس ديليكنو في فرجته وقال : أوردت أخبار أخرى ياروزو ؟ .

فأجاب السكرتير دون أن يرفع أنفه عن كرم الصحف : « لم يرد شيء ، وربما ترد فيما بعد قبيل الظهر .. وسأنبئك هاتفيا . »

فلما أغلق الباب ، تسامد تيقو في دهشة : « أهو قد حضر في هذا الوقت المبكر ؟ » -

قال روزو ساخرا : « بل هو قد حضر قبل يا بني ، نحن في حالة انهيار . »

قال هيرديليا : « أتقصد الحكومة ؟ » .

أجاب روزو مبتدأ كعادته : « الحكومة والناس جميعا ... لن يمضي وقته طويل إلا وبحمل بنا الحراب جميعا . »

قال الشاب ، وهو يتسم في سذاجة : « نحن على الأقل سوف نتمكن من العمل في حرية أكثر ونحن في صفوف المعارضة . »

« لا تفرح كثيرا لانضمامك إلى المعارضة يا صديقي ، فهذا أمر محفوف بالخطر بالنسبة إلينا ... » قالها السكرتير وهو يمسح نظارته مبتدأ .. وبدأ وجهه ، بدونها كليلًا عابسا ، ثم قال : « ألم تلاحظ هذا الجيش المرمم من المحررين ومساعدى المحررين والمخبرين الذين جاءوا اليوم ، إنهم جميعا من الانتهازيين .. وأنا غدا ، ربما أجد نفسى وحيدا إلا من هذا المقص - هذا إذا لم يلق في إلى عرض الطريق كذلك .. تلك نتيجة العمل في صحيفة حزبية يا صديقي الشاب .. فظالما أن الحزب يتولى مقاليد الحكم ، فالفرصة يقتسمها كل من قدر عليها .. ثم بعدئذ .. ولكن لا خوف عليك ... واستطرد قائلا بعد أن لبس نظارته ، ورأى ما اعتل وجهه تيقو من شحوب ؛ أنت ما زلت في أمان لبضعة شهور ، وهذا يتيح الفرصة من الوقت لتدبر شئونك . »

وأخذ القوم يقدون الآن إلى سكرة رية التحرير .. كان كل واحد جديد يأتي بخبر جديد ؛ وكان كل خبر أسوأ من سابقه ، قيل إن الثورة قد امتدت إلى هذه المقاطعة أو تلك ؛ وإن الفلاحين في هذا الإقليم أو ذاك قد فتكوا بعدد عديد من المتمردين وكبار ملاك الأرض ، وقيل إن الجيش قد اشتبك مع الفلاحين الثائرين في هذه القرية أو تلك ، وإن هناك مئات من القتلى والجرحى من الفريقين ، وقيل إن أهل القرى في بعض الأنحاء الأخرى أفسدوا فرق الجيش بإلقاء الأحجار عليها ؛ وإن كثيرا من الولايات قد أصبحت معزولة لأن أسلاك البرق قد انتزعت كلها ؛ وقيل إن الفلاحين الثائرين قد أمسكوا بسيدة من الملاك ، لحسروا عنها ثيابها ، وطوفوا بها في عدة قرى ، وقيل إن وزيرا كان غيبا لأنه أرسل قوات من الجيش إلى نفس الولاية التي جندوا منها ، الأمر الذي جعلهم يطلقون النيران على آبائهم وإخوتهم - - - - - وحدث أن أصاب جندي أباه بين الفلاحين الثائرين ، فلما طلب إلى رئيسه أن يأذن له بدفعه ، منحه نوطا مكافأة له ، كما أشاد به في يوميات الجيش ؛ وقيل إن الحرس الوطني قد أنشئ في بعض المدن دفاعا ضد هجمات القهط التي قام بها الفلاحون المخاضيل ؛ ولأنه ليلة الأسس ، قرب مشارف مقاطعة إبلقوف لم تتمكن داورية من المشاة إلا بشق النفس من تشتيت جماعة قوامها بضعة آلاف من الفلاحين كانوا في طريقهم إلى بوغارست .

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة دخل عليهم الصحفي البدين ذو المعطاف المصنوع من القرو و الكاكيولا ، التي من الجلد ، وكانت عليه سياء الجد كأنه وزير دولة ، وكان يتفقد عرقا أكثر مما تعود ، فقد كانت الشمس طالعة بالخارج ومد يده يصفح نفرا منهم في سأم ، وغغم بالفرنسية : « صباح الخير ، ثم غرق في كرسي قرب روزو .. وهبط الرجل عليهم شأن من في جمعته معلومات من مصادر عليا ، فسكتت الأسئلة المهتاجة ولحظ تيقن أنه قد لزم الصمت حتى الانتباه إلى شخصه ، فسأله ساخرا ، ولكن بفضول : « أجيئت بشيء يا أنثيميو ؟ » .

فنهت الصحفي في شجن : « شيء هام جدا يا عم روزو .. ومن أسف أنه ليس في صالحنا ، رغم أنه يمسنا جدا ، إذ إن مصيرنا معلق عليه » .

فقاطعه السكرتير وقد قد صبره : « هات ما عندك ، واخضنا من هذه المقدمة ! » .

قال الصحفي وهو يصب مسحة من الحزن في صوته : « لقد سقطت الحكومة .. هناك حكومة ستشكل مساء الغد على أكثر تقدير ! » .

ومضى يقص على من أرادوا مزيداً من التفاصيل ، فقال « إن رئيس الوزراء قد شرف بمقابلة الملك ، وأخبره أن اضطرابات الفلاحين قد تجاوزت المدى ، وأن الأمر يتطلب حملات تأديبية رادعة .. وضرب له الشواهد على أن الجيش لم يعد في وضع يجعلهم يعتمدون عليه اعتماداً تاماً في هذه المهمة الخطيرة ؛ وطلب إلى الملك أن يوجه نداء يطلب فيه معونة من جيش انمسا ، فهذا هو الحل الوحيد ، وإلا فالبلد مهددة بالخراب التام .. ولكن الملك رفض رفضاً قاطعاً أن يطلب تدخل القوات الأجنبية لتهديمه التلاقل المحلية الصرفة ؛ وطلب إلى رئيس الوزراء أن يلتبس حلاً أليق بظروف الحال ، وأخلق بما للبلاد من اعتبار .. فلما لم يكن في جعبة رئيس الوزراء هذا الحل ، ونظرا لضغط المعارضة ، وكانت حتى في هذا الموقف تأبى أن تقدم عونها ، فقد اضطر أن يقدم استقالة الحكومة .. . ولقد قبلت الاستقالة من حيث المبدأ ، ولكن اتفق على عدم إعلانها حتى يمددوا خلفاء له ، وذلك تحاشياً لزيادة الاضطرابات ، وكان لا مناص من أن تتعاون الحكومة الجديدة مع البرلمان القائم ، لأنها مضطرة إلى إصدار قوانين جديدة ؛ وهو موقف يعطى مظهر « الجبهة الوطنية » معالجة للموقف الخطير ، وتسبها لاتخاذ تدابير حاسمة .. ولهذا وجب على زعيم الحزب ورئيس الحكومة أن يشاور زملاءه ، ثم بعد ذلك يأتي ويخطر الملك برأيه .. على أن هذه كلها ليست إلا مجرد شكليات سرعان ما توضع موضع التنفيذ » .

وعقب روزو بابتسامة مريرة : « ما قد عدنا إلى المعارضة ! .. هل عرف ديليكنو بهذا يا ترى ؟ .. »

ودخل مكتب رئيس التحرير ، وبعد برهة ظهر ديليكنو في فتحة الباب وهو ممتنع الوجه ، وقال : « ما هذا الذي تقول يا أنتيميو ؟ تعال هنا ! » .

ودلف الصحفي إلى مكتب رئيس التحرير ، وقال « نفس السجن » خرجنا من الحكم يا سيدي ! .. »

وانصرف تيتو هيرديليا خلسة ، فقد هزته عبارة روزو في الصميم .. هاهو

ذا ريشة تتقاذفها الرياح، وهو الذى ظن أنه لو عمل بجهد وضمير لعضن لنفسه عيشا رغدا .. لا بد له أن يستجلى الأمر مع وزره، حتى لا يجحد نفسه طريدا فى الصارع .
ولكنه لم يشأ أن يكدر نفسه بنذر السوء فى الوقت الحاضر ... كفى بالمتاعب حثيثا ، ولا موجب لأن يذب نفسه بترتها .. ولما كان وقت الغداء قد حل ، فقد مضى يلتمس مودرينو فى وزارة الداخلية .. وهناك اضطر أن ينتظر مع غيره من الصحفيين الذين جاءوا يسعون وراء الأخبار .. وكان مودرينو فى اجتماع مع الوزير ، والراجع أنه كان يظلمه على التقارير والبرقيات التى وصلت فى أثناء الليل وصباح اليوم .. ووصل الرجل أخيرا ، فى بشر وأنس ولطف ، يتقطر حلاوة كسنا تأخرت عن موعد غرام .

« معذرة سادق الاعزاء .. إنه السيد الوزير ! .. أوقات صعبة أياها السادة ، لحظة واحدة من فضلكم حتى أتمى من هذا الملف ، وأنا رهن إشارتكم بعدئذ ، وضغط على جرس ، فدخل كاتب حقيق بالاس المنظر ، فأخذ (الملف) ، وأعطى عليه الخزانة ، ثم أعطاه المفتاح .. وتقدم مودرينو لى لفيف الصحفيين ، وأخبرهم ببعض الأنباء التى كانوا يعرفونها من قبل ، ثم أبلغهم ، ترضية لهم ، أنه سيدلى فى الخامسة بعد الظهر بما يرد إليه من أخبار فى غضون هذه الفترة ، حتى قبل أن يرفسها إلى الوزير .

وانصرف الصحفيون به الضجيج المعتاد .. وتخلف تيتو هيرديليا وحده فحرفه بنفسه ، وطلب إليه ما عنده من بيانات عن أرجس قائلا : إنه يستفمر نياحة عن جرمجور أبوجا ..

هتف مودرينو وهو يصلح من ربطة عنقه : « آه ، السيد أبوجا ! .. أعتقد أننى قد شرفت بلقائه فى القطار مرة .. بكل سرور ياسيد هيرديليا .. تعال فى أى وقت تشاء ، وسأكون طوع أمرك .. ولكن فى مقدورك أن تبلغ صديقك أن كل شئ هادئ حتى الآن فى أرجس .. »

وهبط تيتو هيرديليا الدرج راضيا مقتبلا كأنما قد سمع خبرا حافلا بالإثارة وغنم لنفسه : « لا بد لى أن أهل كل ما فى طوقى لأبرهن لهم على عرفانى الجميل من يدري ماذا يأتى به الهند .. ؟ »

كانت ساحة ديوان القرية والطريق الممتد أمامها غاصين بالفلاحين الذين وقفوا ينتظرون زهاء الساعة الآن ، ومع ذلك قالوا لي لم يأت بعد . . وكان المصدة يرافيل ، في حمى من الحاس ، قد دفع بكل إنسان هناك كأنما قد شب حريق . . وكان ينقل الكلام من هذا ، ويدفعه إلى ذاك ، ملتصا الأضداد بلهجة ودية : « لاخير يا أبنائي ، ضمن الذين نكون في انتظار الوالى ، وليس هو الذى ينتظرنا هكذا الذوق ! » .

وتلبث الفلاحون بصبرهم المألوف ، فليس الوقت ثمن عديم ، انهم إلا في أثناء موسم العمل في الأرض . . وإذ هم في الانتظار ، انطلقت الآلة من ضالماتها حتى قلت . . فن قاتل إن الوالى قد حضر ليوزع الأرض ، فهذا ما قد حدث وإحدى الولايات ، ومن ثم هذا الناس هناك ، واستأنفوا أعمالهم . . ونجحت آخرون في نفس الوقت عما قام به الفلاحون في تيلورمان ، وكيف انفجروا ثائرين ، من أصفرهم إلى أكبرهم ، فطردوا ملاك الأرض ، وأصبحوا سادة كل شئ . .

هتف صوت تمس : « هؤلاء نوع آخر من الناس ، وليسوا مثلنا . . لأنهم يملكون أرضا هناك ، ولم يحضهم الفقر بنابه مثلنا هنا ! » .

« ولكن الحظ يوافق الشجعان ، لا العاجزين الذين تمخلع قلوبهم رعباً ! » .

« أظن ان ما يجرى في عروقنا ماء لا دماء . » .

« كفى . كفى يا فتيان ! » .

وكان الرقيب بونجييو قد اتخذ حيطته ، فوضع شرطيا في مفترق الطريق أمام حان بوزوك ، وأمره بأن يأتى على وجه السرعة حين مقدم السادة الاشراف ، وكان الآن واقفا في عرض الطريق ، وعينه شاخصتان في الاتجاه الذى توقع أن يهبطوا منه . . كان يتبادل الحديث مع الفلاحين حواليه ، ويطلق بعض التكات التى كان القوم يتلقونها بطبيعة الحال بما يليق من احتفال . . والواقع أن أحد الفلاحين أجاز نفسه أن يسأل في جد : « إني لأتساءل يا سيد بونجييو عما إذا كانوا

سيحطونا قطعة من الأرض ؟ أنت تعرف على وجه اليقين .. والله كم يكون جميلا منهم لو فعلوا ذلك يا سيد بونجيو ؟ » .

فأجاب بونجيو . « أظنتلى يا أخ فى غير حاجة إلى أن آخذ قطعة منها لنفسى ؟ ها .. أظن أنى أملك الضياع مثل الشريف ميرون ؟ . أنا لا أملك غير سيفى وسلاحى ، ومرتبى المتواضع ! » .

« بالإضافة إلى ما تملكه إلى جانب ذلك يا سيد بونجيو ! ، فالها أحدم متفكها ! » .

وضحك الفلاحون ، فاستشاط الرقيب غضبا ، وقال :

« ألسم حلايف أجلافا ؟ .. من هذا الذى قالها — بودى أن أعرفه ! .. هكذا أتم جميعا ، لا حياء عندكم ولا أدب ، ثم بعدئذ تشكون حين يزل بكم ما تستحقون ! . تعال يا هذا ! » .

« دعه وشأنه يا سيد بونجيو . فقد كان يهزل كالمأفون ! » .

« لهذا أنا أريده ، فأنا أريد أن أقول له نكتة ! » .

وإذا بالشرطى يصل فى هذه اللحظة ، ويعلم لاهنا أن السادة قد مالوا إلى بيت الشريف ميرون أيوجا .. وهاج الفلاحون وماجوا .. وجاء العمدة يستطلع ماقاله الرسول ، ورأى أن من واجبه أن يوضح لهم أن الوالى لا يمكن أن يمر ببيت الشريف دون أن يعرج على بيته ، فهما صديقان من قديم .. على أن هذا لم يخفف من المرح والمرج ، بل زاد من الهياج العام .. ترى ماذا كان الوالى والشريف ميرون يدبران الآن معا ؟ .

وظهرت عربة الوالى الكبيرة الثقيلة بعد ربع ساعة من الزمان ، وتوقفت وسط الجمع .. وكان ميرون أيوجا جالسا إلى جوار بوريكو ، وكان قبالتهما ، على المقعد الصغير ، مفتش الشرطة تبيريو كوروبولينو ، وهو رجل ذو شارب صغير أنيق على وجهه الاسمر العريض .

وهنف بوريسكو وهو يتدلى غتالا من العربة : « كيف الحال عندكم ؟ » .
 « نحن في خدمتك ياسيادته الوالى ! ، قالها أيون برافيلا فى خضوع ، وقد أسرع
 لمعاونة الوالى . أما بونجيو فقد وقف منتصبا ، ويده اليمنى مرتفعة بالتحية .

وتساءل الوالى : « ألسنت أنت العمدة ؟ .. آه ، نعم ، عرفتك !! .. هل كل شئ
 هادئ هنا ؟ .. والنظام مستتب ؟ »

قال العمدة فى نبرات معسولة ، وقد ارتسمت على وجهه بسمه مصطنعة :
 « كل شئ على مايرام ياسيادة الوالى ! » .

وهنف الوالى ، وهو يرى يصره إلى الفلاحين الذين وقفوا فى سكوت يتطلعون
 إليه وإلى عربته ، دون أن يرفقوا طواقمهم عن رءوسهم : « هذا مايجب أن يكون
 يا أبنائى . أحسنت ! .. والواجب عليكم أن تسلكوا مسلك الهدوء والأدب ، كماهو
 خليق بأهل رومانيا ! » .

ونزل ميرون أبوجا من العربة ، فأخذ الوالى من ساعده ، ودخلا سويا
 ساحة ديوان القرية .. ونخلف المفتش برهة يستمع إلى تقرير الرقيب وهو يوسى
 برأسه بين الحين والحين ... وتوقفوا جميعاً أمام المكتب ... وتجمع الفلاحون
 حولهم ، تاركين دائرة صغيرة خالية أمام الوالى الذى أخذ يتفحص مظهرهم ،
 وبخاصة ما ارتسم على وجوههم من تعابير .. وحاول ، على شدة تعب ، أن يتسم
 وأن يبدى لهم الود وحسن النية .. كان هذا هو اليوم الثانى من رحلته التى أراد
 بها البحث والاستقصاء والموض بالروح المعنوية .. ولكن مسلك الفلاحين أزعجه
 أكثر مما أزعجه التعب الذى ألم به ؛ فقد ساءه أنه ، حينما ذهب ، لا يجد إلا أقل
 قدر من الاحترام ، بل ومن المهانة والاستفزاز . وكان قد أشف من الناس أن
 يستقبلوه فى هذه الرحلات بالهناف والتلليل والدعاء له بطول العز . أما الشكاوى
 والانتقاسات فما كانت تأتى إلا بعد ذلك . أما الآن فاقربون يستقبلونه فى صمت
 ونجم ، وب نظرات مرتابة .. وهو ما كان ليطلق هذه الفوضى لولا أنه كان يحاول
 أن يعد عن ولايته الاضطرابات التى نشبت فى غيرها من الولايات ..

ولكنه انتهى رغم ذلك أن يلتمهم درساً فيما بعد ، حين يستقر الأمر ويستتب

النظام .. وكان بوريسكو يكن فكرة عظيمة عن نفسه بوصفه واليا . وكثيرا ما كان يقول : إن الولاية التي ترد أولا في حروف الأبيدية ، (ويقصد بها ولاية آرجمس) تتمتع بالوالي الأول من حيث الكفاية والقدره . والواقع أن الولايات المجاورة قد غرقت في بحار من الثورة التي اجتاحت البلاد ، أما في ولايته فلم يحدث شيء من هذا الثقيل حتى الآن ؛ وكان يعتبر هذا برهانا على الأساليب الممتازة التي كان يطبقها . وهو إنما يقوم بالهدوء التفتيشية الحافية وهو يعتقد اعتقادا جازما بأن الفلاحين عندما يرونه ويسمونه فسوف يتأثرون من هيئته تأثرا يدفعهم إلى سلوك مسلك الأدب والنظام ، حتى وإن كانوا يضررون من قبل نوايا عدوانية . ولقد حدث المفئش كوربولينو ، عندما تركا بيتسني ، وأن من رأيه أن القيام بهذه الرحلة خلال القرى في هذه الاوقات للصعوبة أمر يتم بالفطنة وحسن التقدير . فأجابه بأنه سيظل دائما أبدا يحمل لواء الشعار الذي يدين به (وهو شعار طالاه في إحدى الصحف منذ قريب فأتخذه ديدنا له) ، والشعار هو : يد حديدية في قماز من الحرير ، ولقد أراد على وجه الخصوص أن يظهر للبلاد ما يتحلى به من صفات باعتباره رجلا من رجال الإدارة الممتازين ، ذلك أن الوزير قد تردد في تعيينه ، وأظهر بعض الإيثار لمحام كان يشغل هذا المنصب في ظل الحكومة الأخيرة ولكن بوريسكو أعد للأمر عدته — بمعنى أنه شد الحياوط عن طريق بعض الاصدقاء ذوي النفوذ في بوخارست ، ففضى على معارضة الوزير .

د مرة أخرى يا أبنائي أرجو أن تكونوا في أحسن حال ، وكان يكرر هذه العبارة في صوت جهورى يناسب هذا الحفل الشعبي .

وتوقف برهة ، يترقب ما اعتاده من استجابة ... ولكن الناس لزمو الصمت الهلم إلا أولئك الذين كانوا في الشارع ، وكانوا يحاولون أن يدلخوا إلى الساحة ، من مجرد ضاحكين استهزاء .. وتمالك الرالى نفسه .. وإذ هو على وشك أن يستأنف الكلام هب العبد صارخا : الهدوء يا إخوان ، الهدوء ... دعونا نصنى إلى السيد الرالى ا . .

وعندئذ ألقى بوريسكو خطابا وطنيا .. تخرج وجهه ، وتضخم صوته ،

هواً بالإشارات والإيماءات .. وانبعث من فمه ، وكأنه تلع فيه بضعة أستان ذهبية ، كلمات ضخمة تناسب المقام ، فطارت في الهواء وانفجرت دون أثر فوق رؤوس المشاهدين الذين لم يفهموا منها حرفاً كما تنفجر البالونات الجوفاء يوم عيد .. ومن المزايا السياسية العديدة التي كان الوالي يعزوها إلى نفسه ميزة هي أنه خطيب شعبي لا يبارى .. فكان يستند أن كلماته الملتبة تنفذ مباشرة إلى أفئدة الفلاحين تخفرض عليهم الخوض والامثال .. وكان يتلاعب بالألفاظ والعبارات التي لا تقاوم مثل : « العلاج هو سند البلاد ، ووجودكم المقدسة ، و « العلاج الروماني الذي عرف بالحكمة وحس العمل ، و « الرعاية الأبوية التي يوليها الملك وتوليها الحكومة للشعب ، و « ضموا أنفسكم في زعماء بلادكم ، و « حب الوطن ، و « مصالح البلاد تطالب الأمن والاستقرار ، و « رومانيا لن تموت أبداً ، ... إلخ إلخ .. وأصغى إليه الفلاحون دون حراك ، وعيونهم لا تهم عن شيء .. كانت مئات الوجوه تحمل نفس التميز ، فبدت كأنها تفتتح إلى رأس واحدة ، تراودها نفس الأفكار ، ونفس المشاعر ، أو كرجل واحد له صور لا عداد لها ، يجد نتائج حماعى صدر عن مصنع عظيم .. هذا السكون ، وهذا الصمت العنيد أغضب الوالي ، وألقى في قلبه الرعب حين التقى به في أول قرية زارها ، الأمر الذي جعله لا يكاد يقرى على مواصلة البلاغة التي أخذ فيها .

أما ميرون أبو جالم يصغ إليه .. كان لا يكن غير الاحترار لهذا الأسلوب الذي يسعى إلى تهدئة اللادين بتقديم كلمات حوفاً لهم .. وهم لم يكونوا في حاجة إلى خطاب ، بل كانوا في حاجة إلى نصائح وإرشادات .. ولقد استرعى انتباه بوريسكو إلى ضرورة عدم إضاعة الوقت في صياغة كلمات ، بل ينبغي استغلال الوقت في البحث في إيجاز وإحلاس بقصد تكشف ما يرغب فيه الفلاحون وما يطلبون به ؟ حين ما إذا كان من الممكن أو من غير الممكن تحقيق ما يطلبون .. ثم لا ينبغي أن تكون أبعد التي تبدل وعوداً جوفاء . بل يحسب أن توضع موضع التنفيذ على الفور .. ولكن الوالي أبي ، أيا كانت الأسباب ، أن يتخير عما اتوى من خطابة ، وفاء إلى الناس ، على ذلك خطاب فيه تأموا يستمعون إليه باهتمام واحترام ؛ والخطبة لئابة عن شاعلة خطبته كانت حسيب بداية تهدئة الناس ، ولا اكتشاف حقيقة الأمور .. والآن . وقد تبين لشريف ميرون ونفع الخطاب

وهو الخطاب الذى لم يصح إليه أحد غير المغنثى والرقيب والعمدة فى حاصر كاذبه خليق بؤلاء المروسين ، فقد أحس بالمار بل وبلمهانة أمام الفلاحين .

وبعد نصف ساعة من الزمان ، ترك الرالى بوريسكو المحسنات البدئية ووجه الخطاب للفلاحين دون موارد قاتلا : « والآن يا أبنائى ، لابد لكم أن تهربوا لى فورا بأنكم رومانويون مخلصون ، وهواطنون صالحون . . . وأنا كوالد لكم ، وكابن من أبناء بلدنا الحبيب ، أطلب إليكم أن تقدموا هذا البرهان . . . وأنتم لو كنتم تريدون أن تدلوا على كونكم قوم مذبذبون ، أمناه مجدون ، ولقى لأعرفكم كذلك ، فلا تميزوا الثغرات إلى ما يقوله المفرضون ، ولا تستمعوا إلى الإشاعات الشريرة . بل أحرى بكم أن تسارعوا إلى محاربتكم ، وأن تعودوا إلى عملكم السامى النبيل . فهذا العمل هو عماد بلادنا وسنده . . . ولقد وهبنا الله مناعا رائعا ، والأرض لا تترقب شيئا غير هذا العرق الأمين الذى يتقصد منكم لتدر عصولها الوفير . من أجلكم أنتم ومن أجل بلادنا الحبيبة . . . أنسمعوننى أيها الأبناء . . . أنفهمون ما أعنى ؟ والآن ، أنراكم قاطون ما قلته لكم أم أنتم رافضون ؟ »

واستجاب القوم لكلماته الأخيرة فى تردد . . . وارتفعت من بين الجمهور أصوات تنادى : « نستطيع يا مولانا . . . نحن لا نملك أى قطعة من الأرض . . . أين نشغل إذن ؟ » .

واعتبر الرالى هذا الكلام استجابة لخطبه ، فرمى بنظرة ذات مغزى إلى ميرون . أيوجا ، وهتف : « لماذا لا تستطيعون يا أبنائى ؟ . . . هيا ، صرحوا بما يجول فى خواطرهم حتى نعلم به نحن أيضا . . »

وأجابت عدة أصوات ، فى نبرات أشد ثباتا : « نحن لا نملك أى قطعة من الأرض . . . نحن فى حاجة إلى الأرض . . . لا يمكننا أن نهيش بدون الأرض . . » .

وارتدى بوريسكو الآن سمة معلم رقيق الخاشية يسير حفة من التلاميذ الجلهاء . « حقا ، كيف استطعتم أن تزعموا هذا الزعم أمامى ؟ . أقولون إنكم لا تملكون أرضا ؟ ألم يشأ السيد أيوجا أن يعطيكم الأرض ؟ . وكذلك الملاك الآخرون . »

ألم يعملوا دائماً على تزويدكم بالأرض، من عهد أسلافكم الأولين؟.. إنهم لا يؤجرون ضياعهم إلا لكم، لا للأغراب ..

وانتصب تودر سترمبو على أصابع قدميه، وصاح عتدا : ونحن لا نستطيع أن نمنى هكذا .. إنا نكسح نظير لاشيء، والفقر يفك بنا ..

فسأله الوالى صراحة : وإذن فأنتم تريدون عقوداً جديدة ! مهلاً يا أبناء لان .. فقاطعت أصوات في صخب : لقد سئنا من العقود .. إنا نريد الأرض لنا ، لأننا نحن الذين نعلمها ..

ولم يرض ميرون أيوجا عن الاتجاه الذى اتخذته الأحداث ، فأشار إلى أنه ، أيضاً ، يرغب في الكلام .. ولزم الفلاحون الصمت . فقد كان الشريف الشيخ بالنسبة إليهم هو السيد الحق الواجب الاحترام ، وهو الذى يدينون له دائماً بالإجلال ..

وتساءل الشريف الشيخ ، وهو يكتسح الجمع كله بنظره : لماذا هذه الضجة كلها ؟.. هل ترون أن من الواجب على أن أعطيكم أرضى ، مكافأة لكم على أنى أنا ، وأبى ، وجدى قد آويناكم ، أتم وأبائكم وجدودكم في ضياعنا ، وأعطيناكم عملاً تتكسبون منه عيشكم .. نحن قد شاطرناكم السراء والضراء ، ولكم الآن تريدون أن تأخذوا منا كل الأرض التى وراثناها ، وتطردونا من بيوتنا كالأغراب .. هل هذا هو العدل في نظركم ؟.. وأنت يا تودر ، أنت صاحب اللسان الطويل ، هل تقبل أن تقسم ما تملك مع الآخرين ؟.. أخبرنا الآن ، وقل لنا صراحة ، حتى تتمكن من سماعك ..

وانتفت الوافقون حول تودر سترمبو ، ضاحكين ، ولكنه لم ينكص على عقبيه ، وقال : لىتنى كنت أملك شيئاً يا سيدى ، كنت عندئذ أقاسمه مع الناس .. ولكنى لا أملك شيئاً ..

وواصل ميرون الكلام في إصرار : بل أنت تملك شيئاً . أليس عندك بيت ، وأليست قطعة الأرض المقام عليها البيت ملك يمينك ؟ .. فأجاب تودر بنفسه التبرات : إن البيت يتهاوى على رؤوسنا يا سيدى ..

واستطرد العريف الشيخ قائلا : أ لانه آيل السقوط لا تريد أن تقسمه؟ أما أنا ، وأولئك الذين علمنا على ألا نتهاوى بملكاتنا على رءوسنا فمريدون منا أن نقسمها معكم . هذا هو قصدكم فيما أعتقد ، أليس كذلك ؟ . ليس هذا هو الطريق الصحيح للنظر إلى الأمور يا رجالى . وهؤلاء الدين علومكم هذا الأسلوب من التفكير أوقفوا بكم أذى كبيرا ، وأتمم الآن قد تقدم صوابكم ، فتجرون وراء المستحيل ، بدلا من أن تصرفوا إلى أعمالكم كما يفعل العقلاء من الناس.. ألا فاعلموا أن هؤلاء الذين يشجعونكم على أن تنهضوا هذا النهج إنما هم يستهزئون بكم .. أنا لم أكذب عليكم أبدا ، ولم أخدعكم بالوعود الجوفاء ، وللذى أودعه هو العدل والملك الحسن .. وإذا كنتم أتمم غير راضين عن العقود القديمة ، ففى مقدورنا أن نبحثها معا ؛ ولو رأيت أنا أن الحق فى جانبكم ، ففى مقدورنا أن نغيرها .. لا بالتهديد والوعيد ، ولكن بالكلام المهدب كما يفعل الناس .. إن التهديدات لانهيفى ، ولست أنا بالرجل الذى ينعنى لها أيا كان مصدرها .. كما أن الذين هم على حق لا يتعدون ولا يهددون ، لأن العدل لا يعمل عليه فى حد ذاته ، وبعد ، فالمرء يستطيع أن يقفز فوق الجدول بوسيلة أو بأخرى فى بعض الأحيان ، أما لو حاول أن يقفز فوق النهر فيسجرفه التيار ؛ كذلك فى مقدوركم أن تمتازوا البحار ذاتها بالوسائل المشروعة .. هذا ما ينفى أن نعوه فى ذاكرتكم يا رجالى وأنا أقول لكم هذا لأنى بلغت من الكبر عتيا ، ولى خبرة واسعة ، وصادفت فى حياتى أشياء كثيرة .. والآن نوبوا إلى رشدكم ، واركضوا إلى الهدوء ، فهذا هو الطريق الوحيد الذى يكفل لكم الحياة !

وانبثق ، من الصمت الذى خيم غضب ذلك ، صوت إجماعات سيرسل با كيا ذليلا ، وكان واقفا فى المقدمة ، فبدأ الصوت وكأه أمه صدرت عن الجميع كله :
« خير لنا أن نموت بدلا من أن نحيا هذه الحياة ! » .

وتضح الآخرون معا وهناك على الكلام .

« أولى بكم أن تقتلونا وتنظفوا منا ! » .

« سواء متنا من الجوع أو من غيره ، تعددت الأسباب والموت واحد .. » .

« إذا كنا نضطر إلى العمل حتى تقع من طولنا ، فن واجبكم على الأقل أن تعطونا على الأقل ما يكفينا . »

« ليس من العدل أن يأكل البعض حتى يتخموا ، بينما نحن نتضور جوعا . »

ورأى الوالى أن الأمور تسير سيرا مرضيا ، فالتاس الساخون عندما يأخذون فى الكلام ، يكون هذا بشيرا على أنهم قد بدأوا يشوبون إلى رشد . . وشرع يخطب فيهم مرة أخرى ، فأعاد نفس الكلام الرتيب ، قال إنه جاء يعقد لواء السلام بينهم ، فإن أسوأ أنواع السلام خير من أشد المعارك بطوة . . وهو فضلا عن ذلك ، قد جاء بالسيد أبوجا بين ظهرانيهم ، كي يتوصلوا إلى اتفاق يحقق السلام بينهم .

« حسنا ياسيادة الوالى ، نحن على استعداد للاتفاق مع الشريف . » قالها لوبو شيريتو ، وهو يأتى إلى المقدمة . فقد رأى أن من واجبه ، وهو أكبرهم سنا ، أن يوضح الأمر تماما ، قال . « لقد أثارها غيرنا حربا شعواء ونحن نريد أن نأخذ قطعة من الأرض كما فعل غيرنا حيث أضرموا النيران فضلا ، ذلك أننا لانملك شيئا على الإطلاق . . وما يقوله السيد الشريف حق وعدل . . فليس من الذوق أن نحاول الاستيلاء على أرض يملكها شخص آخر تصب وكذا فى سبيلها من عهد أسلافه الأولين ياسيادة الوالى . . وأنا لا أظن أن رجلا من هؤلاء الناس الاختيار يريد أن يستولى على أملاك الشريف مبرون ؛ فنحن على كل حال ، نميش جميعا معا ، وبمساعدة بعضنا بعضاً . . ولكن توجد ضياع كثيرة تركها أصحابها ، وأعطوها للغير الذين لا هم لهم غير أن يعتصروا منها المال ، وأن يستنزفوا دماءنا . . والفلاحون ليسوا أشرارا ، وهم يلزمون الهدوء ، ولكن لابد لكم أن تعطوهم أرضا ، وإلا عجزوا عن مواصلة العيش . . هاأنذا أعبر لكم عما تريده القرية . . ونحن لو تسكلنا كلنا معا فى نفس الوقت فلن نجد فرصة للوصول إلى تفاهم . »

وانفجرت الصيحات عالية من كل أركان الجمع . . كان كل واحد يهتف بكلمة واحدة . . « الأرض ! حتى استحال الجمع جوقة من الأصوات لاحصر لعدد ما تردد باستمرار ، الأرض ! .. الأرض ! .. الأرض ! .. »

وارتبك بوريسكو ، وبدأ في خطبة أخرى ، فقال : إنه يدرك حبه للارض ورغبته فيها .. اليس هو نفسه صاحب أرض ، يمتلئ قلبه حبا في الحقول التي حرثها أجداده الأولون ؟ . ولكن الناس لا يمكنهم أن يحصلوا على ما يشتهون فورا ، هكذا .. فالبالد لها قوانينها التي لا بد من احترامها .. ولا بد أن يتذرع الفلاحون بالصبر ، وأن يركنوا إلى الهدوء ، ثم هو ، بمجرد أن يصل إلى بيتي سيرفع الأمر إلى الحكومة ، وهي حكومة فطنة ، تدرك المظالم الواقعة على الفلاحين تمام الإدراك .. وسوف تصدر الحكومة القوانين اللازمة بحيث تعطى الارض لأولئك الذين يلزمون جانب الاعتدال ويحترمون القانون .. . ولقد كان هذا الوعد الكاذب وحيا مبطل عليه الساعة ، وندم على أنه لم يخطر له في القرى الأخرى كذلك .. . فالحاجة إلى الحفاظ على الأمن والنظام في البلاد ليست فقط مبررا يدعو إلى الاستعانة بهذه الوسيلة المشروعة من وسائل الإقناع ، بل هي واجب تحتمه الضرورة .. ولن يتذكر أحد ، عندما يستتب الأمن بصد ذلك ، هذه الكلمات التي قيلت خبط عشواء ؛ بل إن أولى الأمر على أقل تقدير سيكيلون له المدح لسرعة بديته في مخاطبة الفلاحين بكلمات تناسب هؤلاء الأطفال الكبار .

ولكن الفلاحين استمروا يقاطعون وعوده بإطلاق النكات والضحكات .. ونادى بهم صوت أن كفاهم هذا الكلام ؛ وأضاف صوت آخر بأن الإشراف يتغذون على الأكاذيب ؛ وقال ثالث إنه مامن شريف يفتح فمه بكلمة لإلا تخرج أكلدوبة من الأكاذيب .. وكان ميرون أبوجا يختنق سخطا تحت هذا الوابل من الوقاحة .. وارتبك الوالى ، وغاض لونه ، ولم يعد يدرى ما يقول بعد ذلك ، ولحظ الدمة أن النكات لم تعد بالنكات الفكاهية ، فصاح على عجل :

« كنى كلاما يا فتيان ، والزموا الصمت ! » .

ورد لوكا تالابا ، وكان أحد أولئك الذين وقفوا في المقدمة : « من الخير لهم أن يخفضوا عما بنفوسهم حتى يعلم السادة الإشراف ما يضيقهم ! » .

ولكن الفلاحين لزموا الصمت مرة أخرى ، ورأى بوريسكو أن القوم لم يفهموا قصده على حقيقته ، فحاول مرة أخرى أن يستهزئهم بالوهود .

على أنه ما كاد يفتح فـه حتى قاطعه سيرافيم موجوس : « كفى مآزل بنا من
ههنا لم نزل حتى بالحيوانات ! » .

وأضاف نيكولاي دراجوس عابسا : « ألم تدكلوا من قبل بأغى وحشموه
خطايا غيره ، وأرسلتم به إلى السجن ؟ » .

وقال أبوه في نبرات أهدأ وأكثر احتراماً : « هذا ظلم بين يأسادة الوالى !
والقرية أصبحت بلا معلم أيضا ! » .

وهتف القوم باسم المعلم الذى حمل خطايا غيره ، وحار الوالى ، ومال على
العمدة يستوضحه الأمر ، فلما حصل على ما يريد من معلومات ، أسرع فقال
« مهلا مهلا ، دعونا نتفاهم يا أبناء .. إن قضية المعلم دراجوس ليست بين يدي ،
وهي ليست من اختصاصى .. إنه موضع تحقيق ، ولهذا .. » .

ولما استمر المرح والمزج ، استطرذ بوريسكو في صوت أعلى من ذى قبل
« ومع ذلك ، أنا سأطلب إلى النائب العام أن ينظر في إطلاق سراحه فوراً ، ومن
الممكن أن يعنى التحقيق بعدئذ وهو مطلق السراح .. أسمعوتى ؟ .. ألا يرضيكم
هذا يا فتيان ؟ » .

وغنم نيكولاي دراجوس يضع كلبات ؛ ولكن كل واحد كان يتكلم في
نفس الوقت ، ويصرخ مع الصارخين ، ولهذا ضاع صوته بددا ، ولم يعد الناظر
يرى منه إلا أسنانه البيضاء القوية كأنها أنياب متكشرة .. وانطلقت في هذا
الخضم المتزايد صيحة عومية تهب بإفل تونسو أن يذهب إلى الوالى فيأله
تمريضا عما لحق بابه من سوء معاملة .. وحاول بافل جاهدا أن يفتى طريقه بين
الجمع ، تدفعه أصوات عديدة ملحة : « امض يا بافل .. ماذا يارجل ؟ .. أنت خائف ؟ ..
اتركوه يمر يارفاق ، فإن له مظلة يشكوها ! » .

وأخيراً عندما أصبح بافل تونسو أمام الإشراف ، أخذ ، وهو مرهق الوجه
يقص عليهم بصوت باك كيف وقع الأذى بابه ، ثم طلب تمويضا عن هذا الاعتداء .
حوسر الوالى من هذا الاستطراد ، ورأى أنه لو أَرْضى الفلاحين في هذه الأمور

الصغيرة ، فسوف ينسون حماقتهم الكبرى .. وطرح الوالى عدة أسئلة على بافل ، وأبدى عطفًا عليه ، ثم أمر الصدة أن يجرى تحقيقًا على الفور ، وأن يدون شكوى الرجل ومطلبه العادل ، حتى يتمكن هو ، أى الوالى ، آخر الأمر من أن يفرض على الأفراد الذين كانوا بالسيارة أن يقدموا تمويضا مناسبًا، وأن ينزل بهم العقاب فى نفس الوقت وفقا للقانون .. وسر القوم من هذا التصريح ، الذى قيل فى نبرات جادة صارمة ، فأعربوا عن غيبتهم إذ هدأت أصواتهم ولانت .

أما بيتر بيتر فقد استشاط غضبا عندما رأى بافل تونسو ماضيا ليتقدم بشكواه، وأخذ يدمدم من تحت أستانه . . وكان من البداية قد شق طريقه إلى المقدمة ، مع قادة القرويين ، وكان الساعة واقفا إلى جوار الرقيب بونجيمو . . ولقد استمع بهدوء واحترام إلى كلام الوالى كله، بل وكان احترامه أشد إلى كلمة الشريف أويجا بحيث إنه زجر أكثر من مرة أولئك الذين كانوا يصيحون بصوت أعلى مما ينبغي، ولكنه ما كاد يسمع بالسيدة ويحدث السيارة حتى اربدت أساريه ، وتمشت فى أوصاله موجة من السخط كلهب متقد . . وحاول جاهدا أن يتالك نفسه ، رغم ما سببه له هذا من ألم ؛ ولكن عندما أشار الوالى إلى الناس الذين كانوا بالسيارة انضج قائلًا فى غلظة ، وعيناه تلهتان ، كأنما يدفع مظلة عن نفسه : « إنها غلظة السيدة كلها بإسيادة الوالى ، وهى ماجأت إلى هنا إلا لتدفع السكين فى إجرأنا .»

واعتبر القوم هذه المقاطعة ، وبخاصة عبارته التارية ، غاية فى الوقاحة بحيث أمارت صخطا عاما . . ورمزاه ميرون أويجا بنظرة ازدراء ، وحسد مفتش الشرطة نفسه عن سبه . أما بوريسكو فقد قال غاضبا : « ماذا بك يا فتى ؟ إليه !»

ونزل السؤال على بيتر كأنه صفة على وجهه . . فهذا الوالى نفسه الذى استمع إلى صيحات الآخرين وهزتهم به ، لم يجد غيره الآن ليسه ، وكأنما هو أحط من القرية شأنًا ، هو الذى . . وأجاب متجهما ، وقد لصقت كلماته بملقومه : « لماذا جاءت السيدة إلى هنا ؟ . . لماذا تجعل منا أضحوكة لها ؟ . . نحن لا نريدها، ولترجع من حيث جاءت، لترجع إلى أصحابها الاشراف البلاء ، ولتتركنا فى سلام . فلا تعذبنا ، ولا تكسح أطفالنا . . نحن لم نوقع بها أذى ، ولكن محال أن نتركها تبيع العربة لأننا . .»

ولم يستجب إلا قلة قليلة من الجمع ، أما البقية فقد أضحوا يردوهم وتطلعوإ
إليه في دهشة وود . . وهب الرقيب بونجيرو ، إذ ظن أن يتر قد نسى نفسه ،
فتكلم في غضب دون أن يدرك كنه ما قال ، وربما ندم عليه فيما بعد ، فدبده
لجأة . وغطى بها فم الشاب ، شأنه مع طفل غرير . . وجن جنون يتر من حركة
الرقيب ، ورأى فيها إهانة أخرى أمام أهل القرية . . وإذا به يبعد يد الرقيب في
عنف ، وجذب نفسه جذبة جعلته يصطدم بأولئك الذين وقفوا خلفه ، وصاح
غاضبا : « ارفع يديك عني . . لماذا تضع يديك على . . أترأى عبدا عندك . . ؟
إنك تجعل مني موزعا للسخرية ! لماذا وضعت يديك على ؟ » .

وسرت رعدة بين الجمع ، كأنما قد بعثت الحياة في الآلام التي سبق أن عانوا
منها . . ولكن العمدة أيون برافيلا أسرع ، قبل أن يدرك أحد ما قال ابن سماراندا
أو يتبع الطريق الذي افتتحه لهم ، غطاطه متوددا ، ولكن في لهجة آمرة تناسب
المقام تماما : « صه يا فتى . . مامن أحد وضع يده عليك ، أو هزأ بك . . اسكت ،
وخير لك الآن أن تذهب ، فتتظر في شئونك ، ولا تتكرر صفو هذا الاجتماع » .

أما سيرافيم موجوس ونيكولاي دراغوس وكانا يقفان على مقربة من يتر ،
مع بضعة أشخاص آخرين ، فقد غمغما في نفس واحد : « ما كان ينبغي له أن
يضع يديه عليه . . لماذا فعل ذلك ؟ » .

واستقل العمدة تدخلهما ، فاستطرد في نفس اللمحة الحازمة : « هيا ياسيرافيم
وأنت يانيتشو . . اذهبا به حتى يبدأ . . هيا ، اذهبا ! » .

وكأنما نزات صاعقة على يتر من إصرار العمدة فشق طريقه بين الجمع ، يتبعه
سيرافيم ونيكولاي ثم آخرون غيرهما . . وواصل يتر الصياح بنفس الالفاظ
المررة بعد المرة ، كأنما هي قد أصقت بلسانه ، فلم يستطع أن يقول غيرها : « لماذا
وضع يديه على ؟ أنا لست أخشوك أحد . . ! لماذا وضع يديه . . ؟ » .

ولما مضى يتر والآخرون إلى عرض الطريق ، هتف أيون برافيلا مخاطب
الوالى بصوت عال حتى يتناهى إلى أسماع الجمع كله ، قال إن الفتى في رأيه قد التاث
عقله ، ولا يدري أحد غير الله أية أفكار غريبة قد طرأت عليه ، وإلا فهو شاب

محمد مهذب ، بل هو أفضل فتي في القرية . . على أن الفقر قد أخذ يقول كثير من الناس ، فدفع بهم إلى الهيا ، دون أن تساورهم نية التصرف على هذا النحو . . . وشحب وجه المفتش كوربولينو ، وعرض شفثيه في احتياج وتردد ، وأحس أن صيحات الفتي قد تطلق الثورة من عقالها — هذا إن لم تكن في حقيقتها الإشارة المتفق عليها من قبل بين الفلاحين المتأمرين .

فلما مر الحادث ، رأى الوالى أنه قد قام بواجبه ، وأنه في وسعه الآن أن يمضى إلى تهدئة القرى الأخرى قبل أن يرخصى الليل سدوله . وأرأى أن من اللازم ، حتى يختم رحلته بما ينبغي لها من وقار ، أن يلقي خطبة أخرى قصيرة عن « وطننا الحبيب ، و « بلادنا ، و « الملك المجمل ، و « واجبنا كواطنين ، و « اهتمام الحكومة بكم ، ؛ ثم أنهى الخطاب جذلان راضيا : « والآن يا أبنائي ، وداعا ! ! . إن لي بكم ثقة كبيرة ، تماما كثقتكم في . . . وعليكم بالنظام والهدوء والعمل ! . . . هيا أيها المفتش ! . . . حظا طيبا وصحة موفورة ! . . .

وخرج الفلاحون متزاحمين من ساحة الاجتماع . . . وأراد بوريسكو أن يرافق ميرون أيوجا إلى بيته ، ولكن الشيخ أبى ، فماتق كل منهما الآخر ، وهما يفترقان . . . وصعد الوالى إلى القرية ، وجلس إلى جانب المفتش ، ثم مالا إلى اليسار ، ناحية ليسبيزي ، أما ميرون أيوجا فقد سار على يمين وحده .

قال الوالى ، حين قطع مسافة من الطريق : « ما رأيك أيها المفتش في الطريقة التي عالجت أنا بها الأمور هنا ؟ » .

« إن عندك قدراً كبيراً من الشجاعة والتجارب ! ، قالها كوربولينو في لهجة تتم عن الإعجاب ، ولكنه أحس في صميم نفسه أن هذا الأسلوب في معالجة الأمور لم يفض في الواقع إلا إلى تسجيع الإخلال بالأمن بين الفلاحين .

وسار ميرون أيوجا في وسط الطريق ، متفحصاً الأكواخ والساحات في أثناء مروره ، كأنما لم يقع عليها بصره منذ زمان طويل . . . وكان نادماً على أنه قد وافق على الذهاب مع هذا الغرالأبله ، بوريسكو ، الذي حسب أنه بهز لسانه يستطيع

أن يؤثر في هؤلاء الناس الذين اضطربت نفوسهم بتأثير رياح السفطة التي هبت من المدينة .

وجاء ، على مدى خطوات وراءه العبد والرقيب ، وقد أحاط بهما الفلاحون . كان الكل يتحدنون معا هادئين ، كأنما كانوا يودون أن يتجنبوا إثارة الضيق في نفس وإيهم الشريف ، وهو الذي كان يمشى أمام الجمع ، كراع يقود قطيعه .

وعم المرح والضجيج عند حان بوزوك .. وكان الرجل واقفا أمام عتبة ألحان ؛ فالتفت في احترام إلى ميرون أبوجا . . . فلما مر الشريف الشيخ ، تصاعد المرح مرة أخرى ، بعد أن توقف برهة . . وتناهى إلى الأصماح صوت يتر واهما جليا : « لماذا وضع يديه على ؟ » .



حاول المحامى ستافرات جاهدا أن يتناسى ما اكتشفه من رعب ، وأراد أن يكون حلو المشر ، حسن الصحة ، بيد أن جهوده ذهبت هباء . . ورأى أن من البلادة والسخف أن يفكر في مغامرة عاطفية والجو مشحون بهذه المخاطر كلها . . . والواقع أن المسألة بدت في ناظره أقرب إلى السخف منها إلى العاطفة المشبوبة . . وأدرك بفتنة أنه رجل عجوز ، وأن مما يثير الهزء به أن يحوم حول سيدة شابة مترفة مثل نادينا ؛ فهي لو أرادت أن تلتصق حبيبا لكان من المحال أن ترى فيه هو شيئا مما يجذب النساء ، إنما هي كانت تظهر به حين تحملت آهاته .

وكانت نادينا تثرثر في مرح ، وتتحرك جيئة وذهابا ، وهي تعد التدابير اللازمة لتوجبة الغداء ، وخاطبت قائلة : « كنت أظنك رقيقا بهيجا ، تضحك معي وتغازلني ، أو على الأقل تحكي لي بعض النكات - أو بعبارة أخرى كنت أظن أننا سنقتضي يومين في هناك هنا . . أما الآن فالظاهر أنك ملول مذعور ، قادر كل القدرة على تصكير مزاجي ! » .

ولم يجبها ستافرات إلا ببسمة مريرة ، قصد بها أن يعبر عن حقيقة ، هي أنها لم تكن تغدو الموقف على حقيقته ، وهذا هو ما جعلها تظهر باستخفاف إلى الأمور ، ولا تفكر إلا في ذاتها . .

على أنه ازداد تجمها في الضحى ، وطلب إليها أن تصيخ السمع إليه في اقتباه وجد ، ثم استجمع كل ماله من قوى الإقناع ، فأوضح لها بيلاعة أن من الجنون التلبث هنا في وسط الفلاحين المتمردين ، فهم قد يشورون في أية لحظة ، وبأتون بمصليات السلب والقتل . وهي لو كانت ترغب في مغامرة طريفة ، فحسبها ما أقدمت عليه حتى الآن ، فهي قد اخترفت عشرات القرى بالسيارة في وقت لم تكن فيه القطارات نفسها آمنة . — بل لأنها قضت ليلة في بيت الهائرة دون حماية ، فحسبها نفسها إلى هجوم مفاجئ قد يقوم به الفلاحون دون أن تتوافر لها وسيلة للدفاع . ولقد انهارت ففرض من الرحلة ، أو ربما التمة التي انتهت لها ، كذلك صرح لها بلاتامونو ، وهو أحد الراغبين في الشراء . . خلاصة القول إذن إنه لا مناص من الرحيل عن المسكان فوراً ، إن لم يكن إلى بوخارست — فهي بعيدة جداً ومحفوفة بمخاطر شديدة — فليكن إلى يمتنى ، ومن هناك يواصلان الرحلة بالقطار ، على أن تقيهما السيارة عندما يتيسر ذلك .. ذلكم هو السبيل الذكى ، ولا سبيل غيره ، للتخلص من هذه الورطة المرحجة .

وتظاهرت نادينا بادی* ففى بدء بالإصغاء إليه في غثاب ومكر . . . ولكن شيئاً فشيئاً دب في نفسها أيضاً الرعب الذى شاب كلماته ، حتى ما كان منها عادياً لا لإغراق فيه ، وإن كان ظاهراً جلياً على وجهه . . وبدأت تدرك أن ستافرات كان فى الواقع على حق ، وأن الخطر واقف بالباب ، على أمة الانقضاض عليهما . وكان فى وسع الفاعل أن يشهد ، من خلال شباك غرفة الجلوس المفتوح على مصراعيه ، ساحة البيت المارية المنبسطة . . . ولم يكن هناك ثمة صوت ، فهذا السكون ثقيلاً على الأنفاس . . . وأبرز لآلاء الشمس المحتفية وراء السحب وطأة الهدوء المزم ، وهو هدوء انتشرت فيه كلمات ستافرات المفعمة بالرعب كما تنتشر الطيور الفزعة . . . وشعرت نادينا بأن من المهانة أن تبدى ما بها من قلق ، وأرادت أن تتظاهر بالشجاعة ، ولكن الصمت الخيم بالخارج جعلها لا تجرؤ على التنفوس بكلمة . ولم تنالك نفسها إلا عندما سمعت صوت رودلف وهو يصفر لاهياً ، بينما يصلح موتور السيارة ، لجاءها الصوت نجدة من السماء . قالت : « بالطبع ، ولكن ألا ترى أنك تقالى كثيراً يا سيد ستافرات ، فأنت تعلم أن الملتزم قد أكد لنا أن الفلاحين هادئون هنا و . . .

فتبف الحامى : « إن صاحبك الملتزم حار كبير ، لو صححت لى بهذا التعبير ياسيدى ! . والواقع أن الناس الذين يعيشون فى خطر دائم بالفون تجامل هذا الخطر . . هذا هو التفسير الوحيد لسلك الشيخ أوجا . . وهو رجل عاقل متزن ، ولكن لم يد عليه أى جزع بالأمس . . وربما كان عنده من الأسباب ما يدعو لهذه الثقة — أما نحن ، نحن الغرباء على هذه الظروف غير العادية ، فإننا لنشم نذو السوء فى الجو . لأن حواسنا أشد حساسية ، ولم تصدأ بعد من كثرة الاحتكاك يوميا بالمخاطر . . . »

وكان أوليىب ستافرات يزداد حدة كلما واصل الكلام ، الأمر الذى دفع نادينا ، بعد فترة تنازعها فى الخوف والكبرياء ، فأرسلت إلينا تدعو إليها رودلف . قاله تحدث السائق ، وقد عزمنا على الرحيل فوراً . أعد السيارة حالاً ! .

فأجاب رودلف ببساطة أن السيارة عاجزة عن الحركة فوراً ، فقد حدث عطل بالمولد الكهربائى ، « كان قد مك بأجزائه توا يحاول أن يصلح مابه ، ولكنه سيعيد تركيبه فى مدى ثلاث ساعات أو أربع ، وحينئذ يتمكنون من الرحيل . وطلبت إليه نادينا أن يتمجل . فقد أصبح لزاما عليهم أن يرحلوا ، وهى ترفض أن تبيت ليلة أخرى هنا ، أيا كان الثمن .

قال ستافرات حين أصبحا وحدهما مرة أخرى : « أرايت ياسيدى — سوء الحظ ! ! فقد ثلاث أو أربع ساعات سيخيم الظلام ! وإذا كان من الخطورة المرور بالقرى نهاراً . فكيف يكون الحال والسفر ليلاً ؟ . ولكن علينا بالصبر فالعمال أحياناً بالفون فى تقدير الوقت اللازم للإصلاح ، حتى يعرضوا على براعتهم وأهميتهم . . ولعل صاحبنا رودلف يفتى قبل ذلك ، بعد أن رأى أنك فى عجلة شديدة ، وعندئذ . . . »

نعم ، لقد جاء الآن دور الحامى لهدى من روع نادينا . فأخذ يزور المخزن المرة بعد المرة ، حيث كان يعمل رودلف ، ليرى كم بقى له من الوقت حتى يعرج .

وفي نحو الساعة الخامسة تاهت إلى الاسماع أصوات في الفناء ، كانت بشيرا
بوصول الوالى بوريسكو، وكان ماراً في طريقه من آمارا إلى ليسبزي، حيث أتى
هناك كذلك خطابا على الفلاحين .. وقد مال على نادينا في زيارة قصيرة ،
ليرجى إليها التهنئة على قدومها في غمار الناس في هذه الأوقات المعيبة ، فضربت
هى بذلك مثلا على الشجاعة والإقدام لغيرها من ملاك الأرض .. وكان بلاتامونو
وابنه قد حضرا الاجتماع ، ورأيا من الحكمة أن يذكر الوالى أن نادينا كانت
بالدائرة .. وكان بود بوريسكو ، في لفته على بلوغ كوستسقى قبل أن يرخص الليل
سدوله ، أن يتناساها ، رغم أن ميرون قد ذكرها له ، بل وطلب إليه أن يزورها .

حسن ، حسن يا سيادة الوالى ، ولكن أنت واثق من عدم حدوث
ما يكدرنا هنا حتى الند ؟ .. سؤال طرحته نادينا على الوالى ، غير آبهة بلطفه
ومروءته ، وما محب ذلك من قرعة مهمazy المنقش كوربولينو .

واعترض الوالى مزهوا : « حقا يا سيدتى ، كيف تأتى لك أن تتصورى
غير ذلك ؟ .. أقولين حتى الند ؟ إنك لتجرحين كبرياتى يا سيدتى .. هنا فى
وسمك أن تكونى مطمئة أبد الآبدين ! .. »

وانصرف مسرعا ، وهو يطرحها بالتأني والتحيات .. وبقي بلاتامونو
ليصحب المحامى ستافرات إلى مقره ..

قالت نادينا وقد ظلها فزع أشد هولاً من ذى قبل : « أنا أريد أن أرحل
على الفور ! لا بدلى من الذهاب .. لا أريد أن أبيت ليلة أخرى هنا ..
أنا أمقت هذا المكان ! .. »

قال الملتزم في صوت هادى " التبرات ، كان يحمل الثقة فى طياته : « أطمئنى
يا سيدتى .. لا تشغلى بالك هكذا ! .. إن رجائنا على خلق حيد .. والوالى أيضاً
قال لك إن .. »

وهتف ستافرات : « من أسف أن صاحبك الوالى مافون يتيه خيلاء بنفسه ..
ولو سرنا وفق ما قال .. »

قال بلاتامونو ، وقد ارتسمت عليه بسمه مطبوعة حانية : « لا لا ، في مقدورك أن تمعدوا بنوم هنى . . لا يوجد ما يدعو إلى الانزعاج إطلاقاً ! » .

وتم الاتفاق على أن تمر نادينا ، فجر القند ، بسيارتها على جليجانو لتلتقط متافرات الذى سيكون في انتظارها . . وودعهما حتى السفينة ، وراقبتهما وهما يذهبان إلى العربية . . فلما بدأت الجياد في المسير ، استدار الثلاثة وانضموا لها . . وردت عليهما بابتسامة ، ثم لوح لهما بيدها الصغيرة البيضاء ، في حركة أشبه ما تكون بمجنح طائر يفر هارباً ، وتابعتها ببصرها حتى اختفيا إلى اليمين من خلال البوابة إلى عرض الطريق . . وصحب دوميترو كيوليكو العربية بضع خطوات ، وظل واقفا عارى الرأس في وسط الفناء دون حراك ، كأنما قد صغقه خاطر فجأة . . وبقيت نادينا حيث كانت ، وهى ما فتئت تلوح بيدها ، وعيناها شاخصتان ، دون أن تدركا شيئاً ، إلى الراحلين . . وغنمتم دون وعى :
« غداً . . . غداً . . . » .

ولمحت دوميترو ، وكانت لم تلحظه من قبل ، فارتعدت فرائصها هلما ، كأنما هى قد التقت وجهها لوجه بألد أعدائها . . . وتلاشت كلماتها ، ولكن بسمته ظلت ثابتة لا تريم ، ذكرى من ذكريات الماضى .

- ٦ -

« من هذا ؟ . . من هناك ؟ . . من الطارق ؟ »

« انهض من فضلك يا ابوتى ، فقد وقع شئ . . . » .

ودمد المشرى بومبو ، وقد تعرف على الصوت : « أهذا أنت يا سيادة العمدة ؟ . . مهلا لحظة ! » ثم أضاف يحدث نفسه ، وهو يتحسس في الظلام مضطرباً ، وقد عجز في غفوته عن أن يدرك شيئاً عما قال العمدة : « ترى ما الذى حدث الآن بحق السماء ؟ » .

ولما فتح المشرى الباب ، دفعه أيون برافيلا إلى الداخل . . . ولم يتح له أن يلقي عليه مؤالا واحداً . قال : « ارتد ملابسك ! . . ووجينوزا تحترق ! » .

فقال ليوتى بومبو غير مصدق : « رباه ! روجينوزا ؟ .. هذا محال ! » .
قال العمدة وقد فقد صبره : « هيا ولا تحاول ! .. ألا ترى بعينيك ؟ ..
إنها تير السماء كالقمر ! » .

قال المشرف مستعجلاً من الشيطان وهو يدلّف إلى كوخه : « رباه ! رباه ! » .
وسمع العمدة ، وهو بالخارج ، زوج بومبو تسائله ، ثم تتخرط في نشيج
وجل .. وتراجع العمدة إلى حيث وقف خفير روجينوزا ، وهو الذى جاء
بالخبر ... ولقد كان وقع الصدمة عليه من الشدة بحيث لم يفرط في استجواب
الخفير ، بل أسرع مباشرة إلى بيت الشريف .. وكان الخفير يتنفس لاهناً ،
ويغمغم لنفسه وهو فائب الرشد طوال الوقت .

وسأل العمدة ، وهو يشخص بصره إلى روجينوزا ، حيث كانت السماء حمراء
كشرق الشمس : « هل مضى عليها وقت طويل وهى تحترق يانينشوفور ؟ » .

فأجاب الخفير فى نبرات معتقة : « عندما رأيتهما لم تكن الديكة قد بدأت
تصبح صيحة منتصف الليل ... ولست أدري كم الساعة الآن ، ربما كانت الساعة
الواحدة ؟ . ولا بد أن وقتاً قد انقضى منذ أن أيقظت الناس من نومهم ، وجئت
أنا إلى هنا . »

« أين بدأت النيران ؟ » .

« أولاً فى القش والدريس ، ثم شبت بعدئذ فى المباني الخارجية ، فقد هبت
نسمة خفيفة كالتي تهب الآن هنا . »

وظهر المشرف الساعة ، وقد ارتدى ثيابه كاملة ... وتعالى من الفار صوت
زوجته وهى تبكى ، قالت : « احترس يالوتى ... ولا تكن قاسياً ، فربما تلقى
متاعب مع الناس ، وأنت تعرف كيف اشتد بهم الغضب الآن . »

وانطلق بومبو مع العمدة والخفير دون أن يطرح أسئلة أخرى .. على أنه
بعد بضعة خطوات قال فى جزع : « ماقولك بآسيادة العمدة — أليس من الأفضل
أن نوقف الشريف ميرون أيضاً ؟ » .

ختم برافىلا : د لا لا ، دعه يستريح ... فهو فى الغد سيصبح غضبا ومها ! ..
وكانت الأشجار على مشارف الدائرة متقاربة كأنها حائط أسود حجب مرئى
دروجينوزا . ولم يتمكن ليوتى من رؤية النيران إلا عندما بلغوا الطريق فصاح ،
ويده على فمه : د رياه ..!! رياه ..!!

وانشرت إلى الشرق سحابة هائلة من اللهب عبر السماء .. ورغم أن القرية
كانت على مدى ثلاثة كيلو مترات ، فقد بدا اللهب الهائل وكأنه قد أطبق على
حدود آمارا ... وكانت السماء صافية ، شأنها فى ساعات الفجر الأولى ، اللهم
إلا من بضعة نجوم كانت لا تزال تتلألأ فزعا ودهشة ، كأنما كانت هى أيضاً وشيكة على
الموت فى أية لحظة .. ومن قلب جمرات قانية ، أخذت ألسنة اللهب القوية ، كأنما
أخذت أيد قوية تواصل إذكاء أوارها باستمرار ، تتلوى دون انقطاع ، وتختلط
وتتشابك كأنها الحيات المقدسة تلتق قبة الزرقاء ، وتنفذ إلى أعماقها ، فترسم ألوانا
شتى هائلة ، ثم إذا بها تمحوها بأعمدة ضخمة من الدخان ، يطفئو كل عمود منها
لحظات إلى قطعة أرجوانية اللون ، ويرفرف فى جنون كأنه راية حمراء تذمر بشر
مستطير ... وترافقت الحيات الضخمة التى ألفت بها ألسنة النيران على الأرض ،
كأنما زلزلت الأرض زلزالها ، فأخذ كل شيء يتقوض وينهار ...

وتأوه المشرف مرة أخرى : د رياه ..!! ما هذا ؟

فغمغم العمدة ، وهو يرمق اللهب فى فزع كصاحبه : د كنى عويلا ... هيا ...
لا بد أن نوقف رئيس الشرطة ... هيا بنا إلى هناك .

وكان الرقيب بونجيو قد خرج لتوه من البوابة ، فى كامل ثيابه ، مسلحا ،
وفى رفقته شرطيان ... ولقد أبقظه بعضهم قبل ذلك بزمان وجيز ، فهب من
غراشه على الفور .

وتسائل وهو شارذ الذهن : د ماذا نحن فاعلون بآسيادة العمدة ؟

فأجاب العمدة فى كآبة : د لامناص من الذهاب إلى دروجينوزا أيها الرقيب ،

فقلبي نظرة... من حسن الحظ أن جاء أحدهم فأيقظنا... وأنت يا نيتشوفور ،
انطلق على وجه السرعة إلى بيت الدائرة ، فأحضر خادمًا وعربة ، حتى نمضي إلى
هناك على عجل .

ولإذ هم ينتظرون أخذوا يحملون في رعب إلى اللهب الهائل... وبدأ لهم أن
النيران تزداد باضطراب ، وأنها تمتد وتنتشر كالطوفان... وصاح ليونتي لامنا :
إن آلافاً من حل عربة من الملف كانت تحترق هناك ، هذا علاوة على المباني
والصوامع نفسها... ولم يجرؤ أحد ، بعد ذلك ، حتى على الكلام... وبدأ الأمر
كأنما أذير اللهب قد تراءى إلى الاسماع في هذا الصمت الثقيل ، وهي تتلوى وتتأود
عبر السماء... ورقدت القرية ، فيأوراء هذا كله ، صامته كالقبر ، نائمة أو مصطمة
الثوم ، يحف بها الرعب الذي كان يعم الجوكلة... وشعر الذين كانوا في عرض
الطريق أن هناك في كل دار ، ومن كل شباك ، ثمة عيونًا جوعى ترقب وهج النيران ،
وترقب إشارة سرية أو نداء خفياً ..

وشهدوا لجأة جماعة من الناس تنهذى من اتجاه روجينوزا ، وتصفر لاهية ،
كأنما النيران التي خلطوها وراهم لا تقلق بالهم في قليل أو كثير... وكانوا كلما
ازدادوا اقربا ، ازدادوا جسارة ، كأنما كانوا بهذا المسلك يسخرون من الجماعة
التي وقفت أمام نقطة الشرطة .. وإذا هم يمرون بهم ، قال واحد منهم ببساطة :
« مساء الخير ! ... » .

وهب العمدة والمشرّف والرقيب ، وأسرعوا جميعا يجيبونه في نفس واحد :
« أسعد الله مساك ! » .

وتوقف الصغير وهلة ، كأنما كان الرجل يتوقع سؤالاً أو تقريباً ؛ ثم إذا
بالنغم يعلو مرة أخرى ، وإذا بنفر منهم ينفجرون صاحكين... فلما قطعوا
مسافة من الطريق ، أطلق أحدهم شهقة عالية طويلة ، كأنما أراد بها أن يوقظ
الناس جميعاً من رقادهم... واندمجت في نفس الوقت ألسنة اقهب من الشرق ،
كأنما صوت الإنسان الذي تردد صدها هنا قد أذكي أوار النار هناك... وانطلق

الشرر في الفضاء عارما متدفقا ، ثم هطل عليهم نيوما متساقطة ، كأنها سرب من الطيور الملتببة العاصية ، تحركها قوة خفية ، قد تساقطت حوب آمارا وهي تطير على غير هدى .

وفاق الرقيب بونجيرو من الغيبوبة التي أمسكت بثلاثتهم في قبضتها ، فغمغم بصوت مبجوح من الملح : « أظنها الثورة قد نشبت ! » .

الفصل التاسع

النيران

- ١ -

تنفس صبح الخنيس في آمارا بفجر قرمزي صارخ اللون على غير العادة .
وخضب اللهب المتصاعد من الأرض الأفق البعيد فاحمر غضباً وسخطاً إلى أن
ارتفعت وراءه حافة الشمس رويدا رويدا كأنها رأس غارقة في الدماء ؛ ثم إذا
بهذا الوهج المحموم يتلاشي وراء اللهب المتدفق الذي حفر بالسماء .. وعلى قدر
ما صفا الجو، ازدادت سحب الدخان في المشرق عدداً كأنها سواعد علاها السواد
امتدت إلى علٍ وهي تمتص أيادها وترفعها إلى السماء .

ونهض الفلاحون مع الشمس ، كالعهد بهم دائماً .. وتلبثوا في أفنية دورهم ،
يشخصون بأبصارهم إلى السماء الصافية ، وما يكتنفها من سحب الدخان ، ويهزون
برءوسهم يتشممون الأدخنة الخائفة ، دون أن تساورهم دهشة ولا فرح ، كأنما
هم يستقبلون شيئاً عادياً لامناس منه ولا فكاك .. وخرج بعضهم إلى الطريق
ليشهدوا المنظر ، أو ليطالعوه من وضع أحسن . أو ليتبادلوا الكلام مع
عابر سبيل .

وهتف فاسيل زيدارو من فناء الدار يحدث ليوتى أوريسور وكان يقطن
على مدى بضعة أكواخ منه ، فخرج إلى الطريق عندما سمع جاره يسعل ويتمخط:
هذه نيران حقة ، لا هزل فيها ! .. وهكذا أخذت تندلع منذ منتصف الليل ...
كان من الممكن أن تعيش القرية كلها عيشة النبلاء سنة أو أكثر على ما أنت عليه
النيران هناك ! ..

فرد ليوتى أوريسور في صوت عال حزين ، وهو يحلم صدره راخيا ،
كأنما قد سكنت حدة الألم فيه : « لتتحول إلى رماد وهباء ، فإيهمني هذا شيء .. »

لقد بقيت في أما كننا أمدأ طويلا ، بينما نحن نهلك جوعا ، فلا يسمع أحد إلينا . . .

وكانت الأم أيونا ، وهي على مدى من الطريق ، وقد حملت سلة من حبوب على ساعدها ، تطعم فراخها ، وتلمن الدجاجات النيمات منها ، وتدافع عن الخائفات ، فتوزع العدل قسمة عادلة بصوتها الذي لا يكف عن الزجر والتفريع .

وسألها فاسيل : « أرايت إلى هذه النيران الهائلة يا أم أيونا ؟ » . إنها تبدو وكأننا في عيد ... مارأبك يا أم ؟ » .

وأدارت العجوز رأسها إليه وهلة ، كأنما تزنه حق قدره ، وإذا بها تولى انتباهها إلى فراخها قائلة : « هذا هو الشئ الوحيد الذي يجمع من أجله الناس الأعياد ، عليها اللعنة ! » .

وجاء آخرون من الذين كانوا يسكنون على مقربة ، وكل منهم بسؤال أو إيضاح ؛ ثم أخذ كل واحد بعد دقائق قليلة يتريث حتى يدلى صاحبه بالامر الذي لاشبهة فيه . . . وإذا بهم كلما ازدادوا عدداً ، غدت وجوههم أشد تجهما ، وأصواتهم أشد غلظة ، كأنما قد أثقل الصبر على نفوسهم فاعادوا يطبقونه إلا بمشقة بالغة ، إلى أن انفجر ليونتي غاضباً : « لماذا أنتم واقفون هنا ، ترغون وتزبدون ؟ ألا ليتنا نجد شيئاً آخر نفعله ! » . هيا بنا إلى القرية فترى ما يحدث فيها ... نحن لا نريد أن نبقى بمعزل عن الأحداث . .

« أحسنت ! » صاح بها كل واحد فيهم ؛ كأنما كان كل واحد لسان حال لما يعمل في أعماقهم جميعاً .

والتقوا في الطريق بجماعات أخرى واصلت السير معهم ... وبدأ الفراخ أمام الحان كساحة السوق ... وكان هناك أيضا النساء والأطفال اختلطوا بالجمع المحموم . . كان كل واحد يتكلم ، كلاما مقتضباً هادئاً ، كأنما كان يزن كل حرف ، وقبلما كان منهم من تكلم بصوت عال ، فتسقط كلمته حينئذ نقطة ثقيلة من الماء صمت من سحابة عاصفة ، فتستدير لها الريموس في دهشة .

وتساءل زيدارو عندما سمع جلبة من داخل الحان : « من هناك ؟ »

فأجاب إيجنات سيرسل ، وكان دائم الحركة هنا وهناك بين الناس : « جمع
تغير ... يوجد ماران ودراجوس الشاب ، وبيتر بن سماراند — قوم كثيرون
يقضون وقتا طيبا للنظر في أمر هام ! » .
فعاد فاسيل يسأل : « أى أمر ؟ » .
فرد إيجنات محذرا : هم على بينة من أمرهم ، فانركهم وشأنهم ، لأنهم
يعرفون ما يفعلون . »

فقال ليونتي أدريسور مهتاجا : « ألم أقل لك يا عم فاسيل إننى شهدتهم ليلة الأمس
يصفرون ويتشون في الطريق ؟ لقد خجت أنفرج على النار وهى تشتعل ،
وكت أسائل نفسى عن فعلها .. كانت نارا هائلة ، وشبت فى أما كن متفرقة
فى نفس الوقت ، كأنما كان هناك عدد كبير منهم ! » .

فقال رجل مقعد واهن القوى : « ألم يكن يجدر بهم أن يخبرونا بشئ . عن
هذا الأمر ، حتى لا يزعجوا فيما بعد أننا تخلفنا عنهم . ومن ثم يركوننا دون
أى نصيب من الأرض ! » .

فقال إيجنات بلهجة ذات مغزى ، شأنه شأن من يعلم بواطن الأمور : إنهم
لو بدأوا فى سؤال كل إنسان ، لما أتبع لهم أن يفعلوا شيئا على الإطلاق . » .

فهمس البعض مؤيدين : « هذا صحيح والحق يقال ! »
وانفجرت فى تلك اللحظة عاطفة من الضحك أطلقها جماعة فى طرف الجمع ،
فتحرك القوم فى اتجاهها .. وإذا بصوت تفره الفرحه والسعادة يقول : « أنت إذن
حلت فأسك معك ياتودر ؟ وأنا لأظنك تريد إضرام النار فى الأحراش الآن ؟ »

وبدا السؤال طريقا طرافة جعلت الناس يعلقون مرة أخرى ضاحكين ..
وضحك تودر سريمو كذلك ، وكان فأسه على ساعده الأيسر ، ومعهطفه على
كتفه ، فكشف — إذ ضحك — عن أسنانه الطويلة اللامعة كأنها أنياب حيوان
جامع .. وقال : « كان لا بد لنا يا عم يوسف من أن نبدأ بإشعال النار ،
هكذا نعلن ! »

وظهر نيكولاى دراجوس على باب الحان ، وقد تهدل وجهه كأنه لم يذق النوم

ألبنة ليته تلك ، ولكن بدا مع ذلك أشد نشاطا من المعتاد . فلما وقع بصره على
تودر ستريمبو صاح بخاطب من كانوا داخل الحان : هيا بنا يا بتر اكنى تلكوا
فقد حضر تودر ! . .

وخرج إلى الطريق ، ثم تبعه بتر من الحان ، مع جمع من الآخرين ، وكان
معظمهم من الشبان . . ثم ظهر صاحب الحان من الخلف ، وشد نيكولاى
من ساعده .

« هيه يا فتيان ، لقد نلتم كفايتكم ، ثم تريدون الآن أن تنصرفوا دون أن
تدفعوا ثمن ما شربتم ! .. أهذا هو السلوك يا نيكولاى ؟ » .
وقاطعه بتر واحتقار : « أصغ إلى ياعم كريستى ، خير لك أن تعود أدرجك ،
إلى بارك الصفه ، وتكف عن إزعاجنا . . نحن سندفع حين يحين الوقت . .
أما الآن فاغرب عنا ، اغرب عنا ! » .

وعمت الدهشة بوزوك ، فالتفت إليه وأراد أن يرد عليه ، ولكن الفتى رماه
بنظرة ازدراء ، قائلا فى نفس اللجة : « اطمئن ياعم كريستى ، نحن لن
نفساك ! .. سنسوى حسابنا معك بالعدل والقسطاس ؛ ولكن صبرا حتى
يأتى دورك ! نحن من الآن فصاعدا لن نتمهل فى تسوية حسابنا ، كن من هذا
على يقين ! » .

وضحك بعض الواقفين حوالهم ، وتتم آخرون فيما بينهم وبين أنفسهم ،
أما صاحب الحان فقد شحب وجهه ، وغغم بصوت أجش : « ما الذى يوغر
صدرك ضدى ، أى بنى بتر ؟ .. أنا على كل حال ... » .

ودفعه بتر جانبا دون أن يرد عليه ، وخاطب تودر ستريمبو : « من حسن
الحظ أنك جئت ، فقد تعبنا منا لا نتظار ... انظر ، لقد طلعت الشمس ، وأقبلنا
على الظهر ، ومع ذلك فنحن لم تبدأ بعد » .

واعرض تودر : « يوجد مقسع من الوقت يا بتر ، فما من أحد
يطاردنا ! .. كان لابد لى من تدبير أمر أطفالى ، فهم لا يجحدون من
يرعى شئونهم » .

وقطع نيكولاي دراجوس الحوار ... كان بينهم عشرون من الذين كانوا بالحان ، وكانوا الآن على أهبة الرحيل ... ووصل شيريلابون في هذه اللحظة ، لاهت الانفاس من الجرى ، وقد حمل مراوة مبرزة في يده .

وهنف وهو لا يكاد يستجمع أنفاسه : « انتظروا أيها الفتيان ... انتظروا لاتذهبوا دوني ... عيب على أن يفوتني هذا وأتمتعون جيداً ما أصاب ب ... »

فقاطعه نيكولاي ، ولم يدهعه يستكمل كلامه ، قائلاً : نحن لانستطيع أن ننتظر بينما أنت تهرش ظهرك و ... فلما رأى أن الجماعة قد تضاعف عددها ، استطرد في لهجة أخرى قائلاً : « لاتأتوا جميعاً فترحمونا ... لقد اكتمل عددنا ... ثم إن هناك أناساً في انتظارنا ليقدموا لنا المساعدة هناك أيضاً ، لواقضى الأمر ... »

وعاد الرجل المجهوز صاحب الصوت الحزين ، وكان قد شق طريقه إلى المقدمة ، فقال شاكيا : « يبدو لي أنكم ترفضون الاتفاق ، وتأخذون كل شيء على عاتقكم ، دون أن تعبئوا بنا ! ... ليس من العدل في شيء أن ... »

فنهف بيتر مزهوا كديك يتأهب للصياح : « اتركنا في سلام أيها الشيخ ! ... أماننا أولاً بعض حسابات لا بد من تسويتها ، ثم سنعمل بعدئذ على أن يتم كل شيء وفق الصالح العام ، صالحنا جميعاً ! »

وانطلقوا إلى ليسيزي ... وكانوا جميعاً لا يحملون شيئاً فيما عدا تودرستريمو بفأسه ، وشيريلابون بهراوته ... وكان لإيلياه أسيرلان أشدهم زهواً ، وكان لا يكف عن التطلع وراءه ، وعن السخرية من الجلع الذين تركوهم خلفهم وأقفين ، دون حراك ... وقال فاسيل زيدارو ، بعد أن مضت الجماعة ببعض الطريق : « ترى إلى أين هم ذاهبون في هذا الاتجاه ! ... أم ترام لا يزالون يقصدون بابا روجا ؟ »

وكان بوزوك ، صاحب الحان ، واقفاً بين أولئك الذين تخلفوا ، وكان ينغمم لنفسه في اضطراب ، ولذا به لجأه يسترجع شجاعته ، كأنما قد ذهب عنه خطر دام : « لماذا تسأل إلى أين يذهبون يا فاسيل ؟ ... ألا ترى أنهم قد

أهاجوها ثورة...؟ خير لك أن تسألني ما الذي بوغى صدورهم ضدى...؟
 أنا لم أقرف أى أذى فى حق أى إنسان، أيها الأخوان و... .

* * *

كانت إيلينا ، ابنة دوميترو كيوليكو ، ترقد قرب باب نادينا في الغرفة الصغيرة التي تفصل غرفة المائدة .. وكانت السيدة قد طلبت إليها أن تغلق الأبواب كلها ، كما أنها قامت بنفسها لتأكد من أن الأبواب موصدة بإحكام .. وقالت للقناة : إنها تحببني للصوم ، فانهلقت إيلينا ضاحكة .

وفي هذا الصباح نهضت إيلينا ، ومضت إلى غرفة المائدة في هدوء حتى لا تزعج السيدة .. وفتحت الباب الأمامي تحت الشرفة ، وكذلك شبايك في الردهة وغرفة المائدة ... وكانت تريد أن تمضي في تنظيف البيت قبل أن تستيقظ السيدة ، فحملت قراشها ، وسارت في الممشى ، واختزلت المطبخ ، متجهة صوب دارها ، فإذا بها ترى والديها بالمطبخ ، بجانب النيران المتأججة ، وهما في حال من الرعب والغم .

وحياها أبوها قائلا : « هيا يا فتاة ، وكفى تلكؤا كالأشراف ، فليس هذا وقت النوم ! لقد وقع شيء رهيب - كأنما لم يكن ينقصنا غير هذا ... »

وكان دوميترو ، قبل ذلك برهة ، عند شروق الشمس ، قد ذهب بوقط ،
السائق من نومه ، كما تقتضى التعليمات التى لديه .. وانتظر حتى خرج الألمانى من
غرفته الصغيرة ، ثم انطلق هو فى دورته الصباحية المعتادة يتفحص المخازن . . .
فلما عاد من دورته ، وجد رودلف راقدا بجانب البوابة ، مبشم الرأس ، ومغطى
بالدما والاقذار ، . ولعله كان قد خرج إلى عرض الطريق ليشهد الزيران المشتعلة
فى روجينوزا من وضع أحسن ، فهجم عليه أولئك الذين كانوا يكونون فى انتظاره .
هناك . . ترى من يكونون ، ولكنه لم يكن يعرف ، هكذا قال ؛ ولكنه كان قد
سمع ليلة أمس أحدهم يقول: إن الألمانى لن يفلت حتى ينال جزاءه من الضرب
المبرح لانه سبق أن ضرب بعض الاطفال فى أمارا قبل يومين .. ورفع المشرف
على ظهره ، وحمله إلى غرفته حيث رقد الآن كثة عديمة الحركة ، رغم أن دوميترو
قد غسل ما علق به من دماء ، كما خمد رأسه . . ولهذا وجب على إيلينا أن تذهب

فتخبر السيدة ، عندما تستيقظ ، وتدلها على ما قد وقع ؛ وعليها هي أن تقرر بعد ذلك ما تفعل ، فالسائق لن يتمكن من القيادة وهو في هذه الحال على وجه اليقين كذلك ليس من الحكمة أن تبقى السيدة بعد ذلك . . فאלهب المشتعل في روجينوزا لاشك سينتشر ويمتد بعد أن اشتد الحقد بالناس . . وهو لهذا عزم على أن ينطلق إلى جليجانو ، بمجرد أن يفرغ من إطعام الجواد ، لينخبر سيده بما حدث .



عاد العمدة برافيلا ، والرفيق بونجيو ، والمشرّف بومبو متعبين منهوكي القوى يعلمون السواد من الدخان والرماد . . ودلفت العربية إلى ساحة بيت الدائرة ، بعد أن توفقت وهلة في الشارع حتى يتدلى منها رجلان من رجال الشرطة . . ولم يقبل بونجيو المثل أمام الشريف ميرون . إلا بمثقة بالغة . لأنه رأى أن الواجب يقتضيه أن يسهر دون انقطاع في نقطة البوليس ، حتى لا يباغته هجوم مفاجيء يقوم به الفلاحون

وكان الشريف ميرون مستيقظا يترقب ، وكان قد شهد اللهب الذي أضرم في روجينوزا ، وسمع أشياء من الخدم عما قد حدث . . وكان أول رد فعل ألم به هو أن يستدعى لإخيم من فوره ، فيطلب إليه إعداد الخيل . ثم ينطلق إلى مكان الحادث . ولكنه عاد وغير رأيه . . فليس من شك في أن المشرّف قد قام بكل ما يمكن القيام به في هذا السيل . . أما وجوده فلن يسبب غير المتاعب . وسوف يفضي إلى عواقب وخيمة . . والحق أنه ، منذ الأمس بعد الاجتماع الذي دعا إليه الوالي ، قد ساوره إلهام غني بالأناص من وقوع شيء لا يمكن الخيلولة دون وقوعه . ولقد كان تدخل الوالي هو اللبسة الأخيرة . . نعم ، كان لا يزال من الممكن القضاء على التوازع الفوضوية الحكامة باتخاذ التدابير المناسبة التي تقسم بالحزم والشدّة . . فالخوف هو الأساس الوحيد لاستتباب الأمن بين الناس البدائيين . . أما الوالي فقد جاء تحدوه روح التساهل والوفاق ، وكلاهما علامة من علامات الضعف ، وهي روح تشجع الذين كانوا لا يزالون يترددون . والواقع أن بوريسكو قد فعل بالضبط ما أشار به جريجور . . وكان اللهب المشتعل في روجينوزا شاهد بين علي ماساور الشيخ ميرون من وساوس .

وأصغى إلى القصة التي قصها عليه ثلاثهم في هدوء كأنما لم يكونوا يخبرونه بأن
ممتلكاته قد ضاعت هباء .. قالوا إن الثيران اندلعت أول ما اندلعت في عرصات
الربيع ، ولكنهم ما كادوا يكتشفونها حتى كان كل شيء مشتتلا ، ثم انتشر
الهاب وامتد إلى المخازن والأسطبلات .. وهرع الخدم الذين كانوا هناك لينقذوا
الحيوانات ، ولكن الحيوانات نفقت حرقا رغم ذلك ، إذ لم يتمكن أحد تقريبا
من الاقتراب من المباني الخارجية .. ولو أن المياه كانت متوافرة ، والقرية كلها
قد هبت للمعاونة ، لكان من اليسير جدا الحيلولة دون وقوع الكارثة . ولكن
الفلاحين تحركوا في تراخ ، ولم ينهض إلا أولئك الذين يقطنون على مقربة ليهتموا
بأمر دورهم دون غيرها . أما الآخرون فقد راحوا يغطون في سبات عميق كالملقو...
أما أولئك الذين كانوا يتسكعون حول المسكن فلم يكثرثوا في قليل أو كثير ، ولم
يدر في خاطرهم شيء غير السلب والنهب .. وقال الرقيب إن النارق قد أشعلها رجال
من آمارا . فهذا ما أخبره به الفلاحون الذين قام باستجوابهم ، وكذلك زميل له
وصل من إيزفورو صباح اليوم .

وسأل الشيخ أيوجا بغتة في لهجة أشد بهجة عن ذى قبل قائلا : هل هناك
بارقة أمل في اكتشافك لهم ؟ .

« أظن أنني أستطيع لو... » .

وزدد يونجيو وهلة قبل أن يترف صراحة بأنه لا يجرؤ على استخدام وسائله
المعتادة .. لقد أصبح الفلاحون في هياج شديد ، وغدوا يملون إلى المشاغبة ، كما
حدث بالأمس مثلا ، مع الوالى .. كان من المحال كبح جماحهم بالكلام أو الوعيد
كما أنه لم يعد قادرا على استخدام القوة في الوقت الحاضر ، إذ ليس لديه من
الرجال ما يكفي ، ثم هو يخشى أن يثير فائرة القوة كلها ، فيوقع نفسه جزاء صارما
وهو لهذا يحاول الحفاظ على الأمن ، في آمارا على الأقل ، بالرفق والتساهل ؛
وهذا في الواقع ما أشار به رئيسه مفتش الشرطة بالأمس فقط .. ولألا فهو ما كان
يغض الطرف عن الجماعة التي كانت تصفر ليلة الأمس ؛ إذ ليس من شك في أن
محركي الفتنة في روجينوزا كانوا بينهم .

وصرح ميرون أيوجا بأن الرقيب ، والموقف قد تطور على هذا النحو ،

لا يتمكن من حمل شيء غير النجاة بجلده ، والواقع أنه هو نفسه ما كان يملك غير هذا . المهم الآن هو الصمود حتى تدرك السلطات أخيراً أن الثورة التي أهاجوها ليست قطاعاً مزيماً مثل المظاهرات التي يقومون بها في بوخارست ، بل لابد لهم من اتخاذ التدابير اللازمة . ثم أهاب بالعمدة والقيب أن يؤدبا واجبيهما . قال : « والأمر لا يخلو من وجود بعض الناس الصالحين في القرية ، وربما كان هؤلاء أكثر عدداً من الصالحين . هؤلاء أوقفهم عن الحركة ، حتى لا يفلهم الاشرار على أمرهم ، لأنهم أيضاً مهددون بالسكرامة المقبلة . ثم ماذا يفعل الأب نيكوديم ؟ » يجب أن نعيد إلى ذاكرة الناس أن يوم الحساب آت لا ريب فيه ، وحينئذ سيلقى كل واحد جزاء ما قدمت يداه ! » .



وقف نفر من الفلاحين ، في الطريق الممتد أمام بيت الدائرة في ليسيزي ، يتحدثون عن الزيران ؛ وكانوا يرون فيها نذيراً ، ولكنهم لا يدرون أهو نذير سوء أم نذير خير . وكان ماتي دولانو الذي ذهب إلى آمارا الليلة الماضية ، يداوم التطلع إلى الطريق ، شأنه شأن من ينتظر شخصاً . ولا يكف عن التمتة لنفسه : « النار وحدها هي التي تمحو الخطيئة ! » .

وأوماً الآخرون ، وقال واحد فيهم إن كلامه زاخر بالمعاني . . وعندئذ لمح ماتي جماعة تقترب من آمارا ، فقال في غبطة : « اطمئنا ، سيأتي وقت تدركون فيه معنى كلامي واضعاً ! » .

وكانت الجماعة الوافدة من آمارا قد ازدادت عدداً . . انضم إليهم بافل تونسو في الطريق ، كما انضم آخرون بدافع الفضول لا أكثر .

وكان القوم جميعاً يتبادلون الرأي مع ماتي دولانو ، ثم تفرقوا إلى جماعتين وانطلقت أغليبتهم مع نيكولاى دراجوس .

قال يتر : « هيا . هيا . يوجد منا عدد كاف — ولو احتجنا إلى مزيد من الناس فإن ماتي يعرف كلمة السر » .

وقال إيلياه سيرلان متحمسا : أنا باق معك يا عم بيتر ! . .
وتسأل ماتي دولانو ، وهو يشير إلى جماعته : ولكن لماذا يتجمع هؤلاء
هنا على كل حال ؟ . .

فأجاب بيتر : بالضغط ! . . ولكن لا داعي لأن نضيع وقتنا في الكلام
أرايت كيف يسرع الآخرون ؟ .

كانت نادينا قد قلبت شكل غرفة النوم في بيت الدائرة وفق هواها على قدر
ما وسعها . . أما جوجو ويوجينيا فقد قنعا بقسط معتدل من وسائل الراحة
في الريف ، فقد كانا يهتمان بالمنفعة أكثر مما يهتمان بالجمال . . ولكن نادينا ما كانت
تسخر على نفسها أى قدر من الرف حتى في غضون الليالي القليلة التي تنزلها بالفنادق
في أثناء ترحالها . . وكان السرير الأثرى الضخم المزدوج ، وهو الذى ألف جوجو
أن يقول عنه في غار بأن في وسعك أن تركز إليه كما يركز الطفل في حضن أمه
يبعث الذعر في نفس نادينا ، ليس فقط بسبب نعومته الخارقة ، بل أيضا لافتقاره
التام إلى الذوق والجمال . . وبعد أن أخذت نادينا حماما لتغتسل من آثار الرحلة
بانت الليلة الأولى على أريكة بسيطة عريضة كانت موضوعة في ركن من الغرفة التي
لدى جوار الردهة . . ومن هذا الجانب كان يطل شباك كبير ، يحميه سياج من الحديد
على منظر بهيج هو حديقة الزهور التي بالخارج . . وطار النوم من جفونها في الليلة
الماضية ، رغم حاجتها الشديدة إليه هربا من هذا الخوف الملع الذى سيطر عليها
سيطرة تامة . . كانت تخال دائما أنها تسمع وقع خطوات ، إما في الحديقة ، وإما في
الغرف الأخرى ؛ أو يدا تطرق على الشباك ، أو إنسانا يحاول أن يدير قبضة الباب
في الردهة . .

وكانت كل مرة تغفو فيها تلك الغفوة التي تسبق النوم ، تسمع جلبة غريبة
جديدة تفرع لها ، وتطرد عن نفسها الأمن والسكينة . . على أنها لم تستغرق في
النوم إلا ساعة الصباح . بعد أن استمعت برهة إلى صياح الديكة في القرية وهي
تنبه بمطلع الفجر . . وكان صياح أحد الديكة تحت شباكها هو الذى أيقظها الآن

من حلم لذيق لم تستطع أن تذكره ، بل احتفظت بالمتعة التي أحست بها . وبالاندم على أنها لم تتمكن من المضى في الحلم حتى النهاية . . ودون أن تدرك أين كانت ، حاولت زهاة دقيقتين ، وعيناها مغمضتان ، أن تستغرق في النوم مرة أخرى ، وتواصل الحلم ، أو تحاول على الأقل أن تسترجعه . بيد أن المخاوف البشعة التي صايرتها طوال الليل ، ثارت ثانية ، فاستيقظت تماما ، ولكنها لم تجرؤ على فتح عينيها ، كأنما هي أكثر أمنا لو لم تر شيئا . . وخيم الصمت تماما . . فلم تشعر أولا إلا بالذبذبات الطبيعية في أعصابها السمعية ، وهذه تمضى عادة دون أن تلاحظها أذن ، وكانت تحتلج اختلاج الرقيق الذي لا ينتهى . . ثم أحست بوجيب قلبها وهو يخفق في صدرها ، وبعد برهة خالتها دهرا ، أطلقت دجاجة في الحديقة صوتا لجائيا مبحوحا ، فرن في سمعها واضحا ، كأنما كان الشباك مفتوحا على ممراعيه . . ورق قلبها لهذه الصيحات الفجائية برهة ، ولكنها لما تبينتها استحال خوفها إلى ثقة . . ومدت يدها صوب الطاولة الصغيرة حيث كانت قد وضعت ساعتها الذهبية الصغيرة .

وغنمت وهى تمعلق في ميناء الساعة : « الساعة الثامنة ! كم أنا متعبة ! . . أنا لا أريد أن أنهض أبدا . . ومع ذلك فلا بدلى من الرخيل . . لقد تأخر الوقت ، وكان أجدر بي أن أكون في الطريق الآن ، لو . . . لو أن روداف كان فقط مستعدا لكنت في السيارة بعد نصف ساعة . . ترى أين ذهبت الفتاة ؟ » .

بدأت تنادى ، وهى تتغنى بالاسم وتخط في حروفه . « إيلينا . . إيلينوتا . . أين أنت يا إيلينوتا . . إيلينا . . »

وبعد دقيقة أو نحوها ظهر رأس الفتاة في فتحة الباب المؤدى إلى الردهة . . متلصصة في هدوء ، كأنما تستشف عما إذا كانت سيدتها تنادى فعلا ، أم هو وهم صوره لها الخيال .

وتساءلت نادينا . وهى تمطى في تراخ تحت اللحاف ، وترقد مستكنة رعدة القطة في الدف : « هل أخرج روداف السيارة ؟ » .

وكانت إيلينا ، على حسنها وصفاتها ، تحمل دائما بسمه ظريفة خفيفة الروح أعجبت بها نادينا . بل إنها طلبت إلى الفتاة أن تأتى معها إلى بوغارست . . أما

الآن فقد كانت بسمة الفتاة تنسم بالقلق .. ولحظت نادينا ما ارتسم على الفتاة فسألتها : « هل عادت أمك إلى قريعتك يا إيلينوتا ؟ » هيا ، لا تخزنى ، فهذا لا يليق بك ! » .

« آواه يا سيدتى العزيزة ... »

وغلبتها الدموع فى اللحظة التى بدأت فيها الكلام .. وأخذت ، بين البكاء والنحيب ، تمحى ما وقع للماضى ، وأن روجينوزا تحترق .. ولكن نادينا لم تدرك مضمون الكلام ، كأنما عجزت عن فهم مدلوله ، وقالت : « لا بأس ، لا بأس ، ولكن هل أعدت السيارة ؟ أنا مضطرة إلى الرحيل . »

فلما تأنى لها أن تفهم ، تجمدت رعبا فى الفراش ، وسجبت اللحاف حتى ذقتها وهى تعملق فى إيلينا بعينين زائفتين شاردتين .. ولم تستطع إلا بعد لآى ، فغمضت فى صوت غريب مكدور قليل الحيلة : « ماذا أفعل الآن يا إيلونيتا ؟ » إنهم سيقتلونى أيضا ، إنهم سيقتلونى ..

وكانت الفتاة تحبها ، وترثى لها على ما بها هى من خوف .. وإذا بها تستعيد شجاعتها ، فتسر لها بأن أباهما قد انطلق منذ برهة ، فذهب إلى الأشراف فى جليجانو ليخبرهم بما حدث ، وليس من شك فى أن الأشراف سيأتون فى أحسن عربة ليسهم فى أخذونها معهم ؟ ومن ثم ليس ما يدعوها إلى الخوف أو القلق على الإطلاق .. يضاف إلى ذلك أن الناس هنا ليسوا أنذالا ، ولن يحسروا على أقراف أشياء شريرة .. وأصفت نادينا إليها ، ولكنها لم تفهم شيئا .. ولكن صوت الفتاة ، مع ذلك ، أسكن من روعها ، ولطف من سورة الفزع فى قلبها .. وإذا بها ترجع لجأة اللحاف جانبها ، وتقول على عجل : « خير لى أن أرتدى ثيابى ، حتى يحدقنى الملاك متأهبة .. هات فستانى يا عزيزتى ، بسرعة .. » .

ودارت بحسبها ، ووضعت قدمها فى (شيشبا) الناعم ، وانتصبت قائمة ، ثم حسرت عنها لباس التوم ، وألقت به على الفراش .. كانت عارية تماما ، على النحو الذى كلفت دائما أن تمضى به فى غرفة نومها ، بين المرايا التى تعكس ثنيات أعطافها فتجعلها تزهو بها لها .. ولكن لم تكن بها نية الآن للإعجاب بعريها ، وإنما كانت

الحركة حركة تلقائية .. وتمتعت رعدة في أوصالها . رغم أن العرفة كانت دافئة .

وتمتعت : « هيا يا إيلينيتا ، هيا ، فإني أشعر بالبرد .. » .

وصاحت إيلينا : « يا لله ، كم أنت جميلة يا سيدتي ! » .

وتبسمت نادينا على غير إرادة منها .. لقد كان هذا الإعجاب يهز نفسها طربا دائما .. وبينما الفتاة تساعدها على ارتداء قميصها الحريري الأبيض ، وبينما هي تضع ساعدها الثاني في السك الفضفاض ، ترامت إليهما أصوات في الفناء بالخارج .

وهتفت إيلينا فرحة : « أظن أن الأشراف قد وصلوا يا سيدتي ! » .

وهمت نادينا في صوت قد جف من أثر الانفعال : « اذهبي وانظري يا عزيزتي ، بسرعة ... ثم عودي وأخبريني ! » .

واندفعت إيلينا تعبر الردهة ، أما نادينا فقد أحست بقلبا يقفز قلقلًا ... كانت ركبتها ترتعشان .. فطوت نصف القميص أمامها وجلست على الأريكة ، تصيح السمع في يأس وتوتر ... لم تستطع أن تتبين إلا ضجيجا مضطربا ، كانت تنبثق منه نبرة صوت مألوف مبهم ... وحاولت أن تعرف على صوت المألوم ، أو المحامي ، ولكنها لم تستطع ؛ كأنما هي لم تعد قادرة على تذكرهما .

وخطر لها خاطر فجائي : « ولكن لنفرض أنهم ليسوا هؤلاء ؟ » .

وانقبض قلبها قبضة مؤلمة غاية الألم بحيث أرادت أن تصرخ ... وفي تلك اللحظة سمعت بهلاة وقع أقدام مسرعة في الردهة ثم انفتح الباب عنوة ، وإذا أمامها فلاح شاب قوى العضل بارز العظم ، « كاكبولته » السوداء على جانب ، وعيناه الداكنتان عابستان ، وكان يرتدى صدره سوداء مما يرتديها الفلاحون فوق جلبابه الأسود الطويل ، ويبتلع حذله قليلا في قدمية .. وأقبل بئير الباب ، واتصب أمام نادينا في ثبات : « سيدتي ، لماذا ؟ » .

وتعجرج صوته لجأه ، كأنما يد عاتية تمتص حلقومه .. وكانت نادينا تحاول أن تنهض ، في اللحظة الأولى من الفزع الذي تملكها ، ولكن ساقها لم تحتملها ،

فانطرحت على حافة الأريكة . . . وحملت بعينين ملؤهما الفزع في الفلاح الذى اندفع إلى غرفتها . . . وفي لحظة عين تينت فيه الرجل الذى قاد لها المركبة عندما جمحت الحيل . . . كانت إذ ذاك قد أعجبت بقوته الحارقة ، وبثقتة بنفسه ، وبهدوئه ؛ أما الآن فهذا الرجل نفسه قد جاء يبتغى قتلها . . . وسمعت السؤال الذى طرحه عليها ، ورأت في نفس اللحظة عينيه . . . ولحظت في اللحظة التالية أن صوته قد تغير ، وأن بريقا جديدا قد حل محل العلبوس . حقا ، لقد لحظت هذا البريق النهم المضطرم في عيني كل رجل تقريبا ، وكانت تستمتع به دائما ، ففى ترى فيه برهانا ساطعا على العاطفة التى يثيرها جمالها . . . ولفحتها نظرة الفلاح كاهب النار ، وأحست بها على جسدها ، وإذا بها تدرك لجأة أن جسدها كان عاريا وهبت على قدميها ، ولفت صدرها بقميصها ، وأخذت تصرخ في قنوط : « ماذا تريد ؟ . . . النجدة ! النجدة ! » .

وفهم بيتر صيحاتها فهما خاطئا . . . وفارت الدماء في عروقه ، واحمر وجهه حتى عناه . . . لم يعد يرى شيئا غير وجهه . . . وبطريقة فطرية مد ساعديه يديهما المعروقتين الهائلتين ، يحاول أن يكبت عاطفة لم يعد يطيق معها صبرا ، فتلطم مرتبكا ، « حسن . . . لماذا . . . » .

وحاولت نادينا أن تندفع إلى النافذة الأخرى . . . ومس كهما الفضفاض ساعده الممتد ، فقبضت عليه أصابعه على غير إرادة منه . وصرخت ، وهى تحاول أن تنزع كهما من قبضته : « اتركنى وشأنى . . . حل عنى . . . النجدة . . . » .

والنقط بيتر طاقته من فوق الأرض ، ووضعها على رأسه ، وتلبث لحظة بطيل النظر إلى نادينا ، كأنما لم يرها على حقيقتها إلا الآن ، فغمغم لنفسه دون مبالاة : « النساء سواء . . . » ثم أضاف في صوت أراد به أن يكون آمرا : « لو كان لحياتك قيمة في نظرك ، فلا بد لك من الحرب ياسيدتى ! . . . أسمعته . . . لا بد أن تهربى فورا . . . وإلا . . . » .

وتطلعت نادينا إليه دون أن تعى شيئا ، ورفعت بصرها إليه وإذا بها تدرك الخطر الذى أحرق بها ، فأخذت تنسج باكية : « إلى أين الفرار ؟ . . . أنقذنى ! . . . ماذا أفعل ؟ . . . » .

ولم يشأ يترك العنان لمواطفه ، فأعاد قوله في غلظة : « افعل ما يلهمك به الله يا سيدتى ... ولكن لا ترددنى طويلا ... »

وتركها وهو يتمتم بالحروف الأخيرة ... وسمعت نادينا وقع حذائه على الأرض .. وانطلقت تبحت عن جوارها ، وهى تهمس من بين شففتها الجافتين ، كأنما كان في وسع أحد أن يسمعا : « لا بد لى من الذهاب ... أين أذهب ؟ ... »
رباه .. رباه ، أين أذهب ؟ ... »

— ٣ —

كان بلاتامونو ، وهو يتطلق في جولاته الليلية المعتادة ، قد شهد النيران وهى تندلع في الشرق ، فقال في نفسه إنها لابد أن تكون في تيلورمان ، على حدود الولاية بالضبط ، أو ربما في إيزفورو ... ولكنها . على أية حال ، إشارة إلى أن الثورة كانت تقرب ، وأنها سوف تنفجر هنا أيضا في مدى يومين ... ولهذا قرر رايه على أن يقتتم فرصة سفر نادينا ، فيركب معها حتى ليسبزي ... وكان حتما عليه أن يوقظ زوجه ليشاروها فيما ينبغي أن يحمله من عتاد بالإضافة إلى المال والمجوهرات .

كذلك أيقظ أرستيد نفسه في وقت مبكر على غير المألوف ، وكان من عادته أن ينام حتى الظهيرة .

وحقق الشاب إذ قطعوا عليه أحلى أحلامه ، فقال إن أباه قد أصبح عصيا ، شأنه شأن المحامى ستافرات الذى أخذ يرتعد فرقا منذ وصوله ... ونهض مع ذلك لأنه في الواقع كان هو نفسه أشد فرقا ، وكان فقط يتظاهر بالبطولة حتى ينال إعجاب أبيه ، هذا الاب الذى أساء هو إليه واستغل حبه له أسوأ استغلال .

وعلى شرف من الساعة السابعة استعد ثلاثتهم للسفر ، بصرف النظر عن أولمب ستافرات الذى اتخذ أهته منذ الأمس ، والتمس النوم وهو في ثيابه كاملة حتى لا يؤخذ على غرة من هجوم بليل .. ولم يدل بلاتامونو بطبيعة الحال بشيء إلى الخدم ، ولا إلى بقية أهل الدار عن رحيلهم ، لأنه لم يشأ أن يبت الذعر

في نفوسهم ، أو يشجع الفلاحين على الإثم والعدوان .. أما عندما ينصرفون
فلتكن مشيئة الله ..

وظهر دوميترو كيو ليكي لجأة ، عند منتصف الثامنة ، بينما هم يترقبون نادينا
بصبر نافذ — تلك التي أبت أن تكف عما ألفته من إهمال واهتمام بالتافه من
الأمور ، حتى وقت الخطر كما هو الحال الآن .. وبعد لحظة من الدهشة البالغة
نفث المحامي ستافرات عن مكدون غضبه ، فصاح : هذه السيدة ستكون سبب
دمارنا ! ، وتساءل لماذا لم تحضر السيدة مع هذا الرجل في عربته — الأمر الذي
لم يكن ليحط من قدرها — بدلا من أن تجعلهم جميعا ينتظرون زمنا لا يدرى
غير الله مداه حتى يأتي الفلاحون ويقطعوا رقابهم ... وعرض أرستيد أن يرجع
دوميترو كيو ليكي في عربته الصغيرة ، فيأتي بالسيدة ؛ وفي غضون هذا الوقت
يعدون هم العربدة الكبيرة فتحملهم إلى كوستنسى ... ولكن بلانامونو رأى من
الفطنة أن يطلقوا فوراً في العربدة الكبيرة ، فيمروا على ليسيزى ، ويلتقطوا نادينا
ثم يطلقوا من هناك عبر ككتا كوزو إلى الطريق الرئيسي ، وهو طريق مأمون ،
وربما كان في حراسة الجيش أو الشرطة ... ولهذا أمر بالجياد أن تشد إلى
العربة توا ..

وجلسوا جميعاً في الشرفة ينتظرون العربة ، ويسألون دوميترو كيو ليكي مزيداً
من التفاصيل ... وكانت السيدة بلانامونو تجوس في أرجاء البيت ، باكية متوسلة
إلى الخدم أن يعتوا بحاجياتها ، وألا ينسوم كذلك ... وكان دوميترو ، وهو
واقف في قاعدة الدرج ، يعصر طاقته في يديه ، على وشك أن يقول إن الناس
في ليسيزى يركبون إلى الهدوء ، وإنهم نادمون على أن العمل لم يبدأ بعد ، فإذا
بجمع قوامه أربعون فلاحاً يندفعون في صحب من البوابة ، وبعضهم يلوح بالعصى ..
وجلس الثلاثة في ذهول على قبة الدرج ... ولم تمض برهة حتى أحاط الفلاحون
بالشرفة ، وكل منهم يتدافع ويكيل السباب ليكون في المقدمة .. وكان دوميترو
هو وحده الذي وقف حاسر الرأس في وسط الجمع الساخط .. وخرج الخدم من
المباني الجانبية ، وقد أخذتهم الدهشة ؛ وظهر السائق وهو يجر الجياد ليشدها إلى
العربة التي وقفت على استعداد .

وتمالك بلاتامونو نفسه ، فنهض ، وقال في دهشة مصحوبة بالود : « ماذا حدث يا صبي ؟ .. من أغضبكم ؟ » .

وأجابته في نفس واحد عشرات من الأصوات الغاضبة ، وكل منهم أعلى صوتاً من الآخر ، وكلهم يلعنون ويشتمون ويتوعدون ، وكلهم يأتون جلبة تصم الأذان لا يقيّن السامع منها إلا شذرات من اللغة البذيئة . . ولمح بلاتامونو ، وعيناه جاحظتان ، سمات فلاحين من آمارا وليسييزى وجليجانو بين الرجوع التي استبد بها الغضب . . واستقرت عيناه على شيريلابون ، وكان أقرب من غيره إلى المقدمة ، بجانب نيكولاي دراجوس شقيق المعلم ، فقال ملاطفاً : « قل لي يا شهريلا ، ما خطبكم ؟ .. ماذا تريدون منا ؟ .. أنت تعرف جيداً أنني لن أتردد في ... »

وبدأ شيريلابون في صوته اللذيل المعتاد ، ولكنه إذ أخذ يتكلم ، صعد سلام السدفة الأربعة ، وهو يتسكك على مراوته الجديدة الفضة التي حملها في يده اليسرى .

« سيقولون لك بأنفسهم ماذا يريدون . إن لهم ألسنة في أفواههم ؛ أما أنا فلي حساب مع هذا الوغد بسبب غير غنيما . »

وبلغ الشرفة ، فلما نطق بكلمة « الوغد » هجم على أرستيد ، وكان لا يزال في جلسته هناك مبهوراً ، وعلى سخته ابتسامة بلهاء ، فصفعه على وجهه صفقة تردد صداها بشدة ، كأنما قد ضربه بفأس .

وجعل بلاتامونو يصيح : « لا تضربه يا شهريلا ! »

ولكن الفلاحين هجموا عليهم في تلك اللحظة ، مستعملين أياديهم وأرجلهم وطرحوهم أرضاً .. وهتف المحامي يانسا : « لا تقتلوني يا إخواتي ؟ .. أنا لست من هنا ! .. آه ياربى ! ! ! »

واختلطت صرخات السيدة بلاتامونو والنسوة الأخريات من الداخل بالصخب والصياح . . . ولكن الصفعات لم تدم أكثر من دقيقتين ، ثم إذا بصوت نيكولاي

دراجوس بهتف آمرا : « قفوا .. اتركه يا عم شيريل .. نحن لم نقطع هذا الطريق الطويل لنزل عليه ضربا .. كنى يا قتيان ، أسمعوني ؟ » لقد جثا بقصد قطع دابر هذا اليوناني حتى لا يتعرض لنباتنا ونساتنا بعد ذلك ! .

وصحق القوم وهلة ... وتساءل قوم : « ماذا قال ؟ » وصاح آخرون : « لانهم يريدون أن يطوشوه .. » واحتد البعض قائلين : « ليتكم تقتلونه ، فهو ليس خسارة على الإطلاق . وكان أرسيتيد ، وهو راقد بين أحذية الفلاحين ونعالهم وقد بهت من الصفعات التي انهالت عليه ، يفكر في أن يتحرك قليلا إلى جانب ثم يغيب عن الأنظار .. ولكن أباه أخذ يصرخ في بأس : « اعف عنه يا شيريل ! . رحمة به يا قتيان .. اغفر له يا نيكولاي ! » .

ولكن أحدا لم يعبا به .. وصاح قائل : « أفسحوا الطريق ، وتتحوا جانبا .. »

وأمسك نيكولاي دراجوس بأرسيتيد من أحد ساقيه ، فقد نجح الفتى في أن يرحف مسافة قليلة في أثناء هذا الوقت ، لجذبه إلى الوسط ، وطرحه على ظهره ، ثم هتف العريف في الجنود : « تعال يا تريتي ، وأنت يا فاسيل .. . أمسكوا بيديه .. وأنت يا كوستيا أجثم على صدره ، ولا تدعه يتحرك .. وأنت أمسك بساقيه .. تعال يا شيريل ! » .

وتزاحم الفلاحون جميعا حوله ، يطالعون المنظر في نهم .. وأقي بلاتامونو بنفسه في وسطهم بجثون : « الرحمة يا شيريل ! . آه ، ياربى — اقتلوني أنا يا قوم بدلا منه ! » .

واعترضت طريقه سواعد ، وتلقى هو عددا من الصفعات ، وسمع الناس صوت شيريل وهو يقول مؤنبا : « هكذا بكيت أنا ، عندما رأيت ابنتي غير غينا ببطنها المنتفخة ، بينا هذا اللص التذل يضحك ويهزأ .. » .

وصرخ أرسيتيد صرخة تردد صداها في الجو : « النجدة .. النجدة .. » ثم إلى آه ياربى .. وتعال صرخاته من شدة الألم ، واستحالت إلى أنات ، ثم إلى نهبة ونشيج .. واستمر شيريلابون في مهمته ، وهو يتحدث في هدوء ، كأنما

كان يعالج خنزيرا صغيرا : « هيه ، أيها الديك الصغير ... حبسك ما نلت من نساتنا ، ولكلك ستأدب من الآن فصاعدا .. آه ، لقد انفطر قلبي طوال الشتاء وشكوت إلى كل إنسان ... »

وأخذ نيكولاى دراجوس يرقب المنظر وهو مقطب الوجه ، ويرى بنظرة إلى بلاتامونو من آن إلى آن ، وكان على مدى قليل منه ، يتلوى في قبضة الفلاحين ويصرخ وينشج .

« أخيرا ، اتبينا ! » قالها شيربلا ، ونهض على قدميه .

وانفجر بضعة رجال ضاحكين ، ثم تعالى بعض الهتاف ، وعادت الضجة من جديد بمد أن مانت وهلة .. وترك القوم أرستيد يتأوه على أرضية الشرفة .. وجذب أبوه نفسه من بين سواعد الفلاحين ، وألقى بنفسه على ولده : « ولدى الحبيب ، ولدى الحبيب ... يا أرغاد ! » .

وهبط شيربلايون ونيكولاى دراجوس الدرج إلى الفناء ، وتبعهم آخرون في ضجيج . وتمالك بلاتامونو نفسه لجأة ، فنادى على زوجته ، التي وقعت مغشيا عليها عدة مرات من الرعب ، فأبلغها أن عليهم أن يتطلقوا فوراً إلى كوستسى على الأقل ، ليتمسوا طيبيا هناك ، وإلا فالوحد معنى عليه لا محالة .. ثم رفع ابنه من الأرض بمجدد بالغ ، وأخذه بين ساعديه كأنه طفل ، ومشى به بين جميع الفلاحين الصاخبين الذين تمحروا جانبا ، برغمهم ، وأفسحوا فراغا ليخترق الفناء إلى حيث وقفت العربية تنتظر ، والسائق يرغى ويريد إلى جانبها ، وقد أخذته الصاعقة فبهت . وبينما المترم يسير مستاقلا ، يحمل حمله ، وزوجه تتبعه برفقة خادمتين عجوزين ، هتف : « شد الخيل يامتروفان ، بسرعة يامتروفان ؛ لا بد أن نذهب إلى المستشفى ، وإلا مات ثنتى ! » .

ولما سمع الجمع وشاهدوه ، جاشت عواطفهم أسى على ما ألم بالوالد من حزن . وكان دراجوس هو وحده الذى انفجر قائلا في حقد واحتقار : « اغربوا عنا ! ! اغربوا عنا ! ! ليت الطيب يعيده سيرته الأولى ! » .

يبد أن أحدا لم يعاود الضحك ، بل راقب الجمع الملتزم وهو يتخذ له مكانا في
العربة ، وقد أمسك أرسيد بين ذراعيه، بينما السيدة بلاتامونو تحتضنهما، ثم تصعد
هي إلى جانب السائق، على حين أخذ دوميتر وكيوليكي والحادثان يعاونونهم في لفطة . —
وانطلقت الجياد صوب البوابة ، وإذا هي تخترق الجمع ، صاح بلاتامونو ، وعيناه
تذرفان الدمع ، وصوته يفيض أسى : « لا بأس بشيرىلا . . الله عليم بكل شيء ،
ولسوف ينزل بك عقابا أشد مما أنزلت في ا » .

قال شيرىلا بون : « لقد نالني منك ما فيه الكفاية ، ولم تنتظر أنت عقاب الله ا »
وانمال دراجوس عليهم سبابا ، وهو يكر بأسنانه : « اغربوا عنا ، أيها
اليونانيون الأذكار ا » .

ومرقت العربة من البوابة . ثم مضت لحظات ، فقال نيكولاى وهو أهدأ جأشا
من ذى قبل : « لقد فرغنا عما جئنا لأجله ، ولنصرف الآن إلى بيوتنا . . . أمانا
أشياء أخرى نعملها . »

والتفت عيناه بنظرة ساخطة ألقاها شاب مقتول المصل ، قال : « ماذا تقول
يا بن السم ؟ نحن لم نشعلها ثورة من أجل ابن اليونانى فقط . . »

قال دراجوس ، وقد ازداد غضبا . « أتريدنا أن نملك ما نفعل عندما نتخلص
من الإشراف ؟ . أليس لك عقل في رأسك ، أم أنت طفل رضيع ؟ . هيا يا عم
شيرىلا . . هيا يا فتية آمارا ، إننا نعرف ما ينبغي أن نفعل دون سؤال الآخرين ا » .

فأجابت أصوات عدة : « صدقت ! . . صدقت ! . . كان الله في عونك ،
وفي عوننا أيضا ا » .

ومع ذلك ، فبعد أن انصرف أهل آمارا ، وقفت الجماعة التى تخلفت في فناء
البيت في حيرة من أمرها . لا تدري ماذا تفعل ، ثم إذا بهم يسخطون على ما أصابهم
من عجز ، فأخذوا يصيحون ، وكل منهم أعلى صوتا من أخيه ، ويسبون ويتدافعون :
« لنشعل فيه النار مثل ووجينوزا . . . قفوا ، إياكم وهذا ، لماذا تعود إلى بيوتنا
وأبدينا غاوية ؟ لماذا نشعل الثيران ، بدلا من أن يأخذ كل منا شيئا ؟ . . المخازن

ممتلئة... رباه! هيا يا أولاد، ولا ترددوا... أنت خائف يا أيون؟
لم يعد عندنا أشرف بعد!..

واندفع رجل فوق الشرفة، حيث كان الخدم يعملون، وهم يكون... وانطلق الآخرون وراءه كقطيع من الغنم... وجرت النسوة إلى داخل البيت مولولات من الرعب... وتوافدت أفواج الفلاحين من الطريق، بعد أن سمعوا أن الناس كانوا متجمعين في بيت الدائرة... وكان الذين دخلوا البيت يتدافعون في عنف، ويأتون بجملعة شديدة، ويحطمون أشياء كثيرة، كأنما كانوا يحاربون عدواً لهدواً. وخرجوا، واحداً واحداً، بأشياء مختلفة، حسب رى كل منهم في أيها أغلى ثمناً، لحملوها إلى دورهم، وهم يصيحون في رضى، ثم يسرعون عائدين ليحصلوا على شيء جديد قبل أن يصبح الكل هباء... أما الذين جاءوا متأخرين فكانوا ينقبون في الفناء، وكان الكثيرون منهم يحومون حول المخازن... وأصبح البيت خلية من النحل، يجمع رجالاً ونساء وأطفالاً، لا تشغلهم جميعاً إلا فكرة واحدة هي ألا يأخذ أحد أكثر مما يأخذون.

أما المحامى ستافرات، فهو بعد أن تلقى الإبلا من الصفعات، انتهر في صه تراحم الجمع على ابن بلاتامونو، فشق طريقه عائداً إلى البيت. وكان قد درس في اليومين الماضيين جميع المخارج تقريباً مثل هذه الطوارئ... ومن ثم دلف من المطبخ إلى ظهر البيت، وخرج إلى الفناء الصغير... وكان حاضر الذهن، رغم ما أصابه من صفعات وركلات، فلم يشأ أن يخزي في أحد المبانى الخارجية، كما أتوى من قبل، بل تسلى السياج الممتد حول حديقة الخضروات، وانطلق في شجاعة مخترقاً الحقل صوب الطريق الرئيسى الذى يتأخم أكواخ القرية. وما كان يخطرفى باله قط أنه بقادر، وهو فى سن السادسة والخمسين، على هذا المجهود البدنى الحارق... ولقد تأسى ضعف قلبه، ومبادئ الربو، وأن الطبيب قد نهاء عن الجرى... واستطاع، وهو يتنفس عرقاً، ويثبته برهوه أعطاء قوة متجددة، وقد مال قليلاً ليتنكب العميون، أن يثبى طريقه بين شرخات الحقل اللزجة التى اكتشفتها الرحوّل هنا وهناك... ها هو الكوخ الأخير. ودفعته نفسه أن يتوقف ليتنظ أنفاسه، وليجفف عرقه، ولكنه تقلب على ضعفه، وواصل سيره مائلاً صوب الطريق

الرئيسى . . وإذا به يلح عربة ، ويتعرف عليها ، فأخذ فى الصباح ، ولكن صوته ضاع فى جلبة العجلات . . . وغلبه اليأس وهلة . . ماذا لو التقي بدهماء من الفلاحين فى طريقه ؟ وانطلقت العربة فى طريقها لاتلوى على شوء ، وجيادها تركض ركضا ، ثم أخذت تتضائل شيئا فشيئا على مدى النظر .

وصاح المحامى يحدث نفسه فى مرارة : « ما أغبي هؤلاء الفلاحين ! » أولا يهجمون على الملتزم يبتغون قلبه ، ثم لا يلبثون أن يطلقوا سراحه فى العربة . . . لو كنت أعلم لبقيت هناك ، إلى إذن ما كنت أعانى من الخوض فى هذه الأحوال كلها ! !

- ٤ -

تمت ناديتا تحدث نفسها المرة بعد المرة ، وهى تلبس ملابسها فى عجلة يائسة ، كأنما البيت قد اشتعل نارا . . . لا بد لى من الرحيل فورا . . . أين بقيتى ؟ . . . أوه ، لا بد أن أرحل ! . .

وكانت قد جمعت أدوات الزينة الخاصة بها : ساعتها وحاجياتها الأخرى الصغيرة ، وألقت بها فى حقيبتها الجلدية الحمراء التى تحمل اسمها بحروف من ذهب . . . وإذا هى تمر أمام المرأة ، تطلعت إليها بحكم العادة ، فإذا بها تشهد ، والرعب يملأ نفسها ، شخصا غريبا .

وغضمت ذاهلة : « مسكينة أنا ! ! . أهذا كله بسبب . . . ؟ . . . لا بد أن أخرج بسرعة ، أنا . . . »

وكان يترقد دلف من الرعدة إلى الشرقة ، ثم هبط إلى الفناء حيث تجمع هناك نفر من أهل ليسبى . . . وكان تودرستريمو يحاور زوج دوميترو كبوليكى ، لأن أبلينا لم تكف عن محاولة العودة إلى البيت لتكون إلى جانب سيدتها . ولكن تودركان يحول بينها وبين ما تريد باستمرار ، بل ويدفعها حتى انخرطت الفتاة فى البكاء . قال :

« حسنا فعلت إذ حضرت يا بوتر ، فإن هاتين المرأتين أرادتا الفتك فى ! ، ثم أضاف بابتسامة ذات مغزى : « هل رحبت بك السيدة وألحت عليك فى البقاء ؟ »

فقال الشاب عابسا : « صه ياتودر ، ولا تكن فظا ! .. ثق أننى اقتنتها درسا لن نفسا أبداً ... وهى سوف ترحل الآن ، وتترك لنا الضيعة وكل شيء . »

قال بعض الرجال من أهل ليسيزى : « أحسنت صنعا ! .. ولكن تودر سترجمو تضرع وجهه فجأة وقال . « أهذا ما أزمعنا أن نفعله يا بيتر ؟ أترانى قطعت هذا الشوط الطويل حتى كلت قدمائى لأعود صفر اليدين ؟ » .

قال بيتر : « ماذا تريد غير ذلك ياتودر ؟ » .

« ألم تكن أنت نفسك القائل بأنها هزمت بنا طويلا و

« أهزمت هى منك أم منى ؟ ... »

فقال تودر عتدا : « هذا شأنك ، إن كنت ترى ذلك .. أما أنا فلى رأى آخر .. احمل هنا يا إيلياء ... أنا لن أترك زماى للغير الذين

« والتفت إلى إيلياء سيرات ، ودفع بفأسه بين ذراعيه .

وانطلق وهو يربد « فاخترق السدقة ، واختفى داخل البيت . وفاضت نفس أبلينا رعبا ، فأمسكت بيتر من كفه ، وصاحت : « لا تتركه يقتلها يا بيتر ! »

فقال الشاب غاضبا : « لتذهب إلى المجحيم إذا لم تراع ماقلته لها ، ثم تمالك نفسه وقال : « لقد أخبرتها ... »

وفى اللحظة التى دخل تودر فيها الردهة ، خرجت نادينا من غرفة النوم ، فى ثيابها كاملة ، وهى تحمل حقيبتها .. فلما رآها الفلاح ، اقترب منها ، وقال ساخرا : « إلى أين تريدان الفرار يا حامتى الصغيرة ؟ ابقى هنا وهاتى قبلة ! »

وترددت نادينا لمحمة عين ، ثم اندفعت كالبرق إلى الردهة ، وهى توصل الباب دونها .. واشتمل تودر ، لحطم الباب بكتفه حتى دون أن يعالج المقبض . وصرخت نادينا ، جاحظة العينين : « النجدة ! »

وابتسم تودر : « أنا لا أروق لك ، أليس كذلك ياسيدتى .. لا يهم ، المهم أنك تروقين لى ! » .

وطرحها أرضا .. واستمرت نادينا في الصراخ : « النجدة .. النجدة ، ...! »

« كفى صراعا أبنتا الكلبة الحقيرة ...! » قالها الفلاح وهو يقبض على حلقها بكفتها يديه .

وتحسرج صوت نادينا كأنما قد اقتلع من جذوره .

وظهر تودر بعد دقائق قليلة على السدقة ، وقد أخفى حقيبة نادينا تحت سترته وهو ينظر نظرة شزراء راضية . وتناول فأسه من إيلياه .

وتطلع إليه القوم في فضول وخوف ، ولكن أيلينا انفجرت صائحة ولقد قتلها والله ...! قاتل ...! قاتل ...!

وصاح بيتر : « رباه ! أترك فعلت هذا يا تودر ؟ » .

ورد تودر هادئا : « لقد ماتت كما تموت الدجاجة ...! أنا ماكدت المسها ، بل حاولت فقط أن أمنعها عن الصراخ ، ولكنها لفظت أنفاسها .. »

فعاد بيتر يكرر في أسى : « رباه ! المسألة أصبحت خطيرة الآن يا تودر .. من الآن فصاعدا ... »

ونظر الفلاح إلى بيتر ، ثم إلى الآخرين ، في دهشة مألثة أن استحالت إلى حقن ، ثم إلى غضب شديد .. وانتفشت الشعيرات الطويلة التي انتشرت على وجهه المريض غير الحليق ، ولملت عيناه الصغيرتان الغائرتان ، مثل جمرات من الفحم الملتهب أذكت أوارها ربح صرصر عاتية . وأخذ يهذي هذيان وحش عجول ، وهو يتحرك جيئة وذهابا كأنما يتمشى حافيا على نار تحترق ، وقال :

« ماذا لو ماتت ؟ .. ألم تمت زوجتي لأنها لم تجد ما تأكله أياما وأياما ، ولم أتمكن أنا حتى من أن أحملها إلى طبيب ؟ .. هل اهتم أحد من الإشراف فسأل لماذا ماتت زوج تودر ستريمبو ؟ .. أنا إلى اليوم مدين للقس ولنغير القس بسبب الجنائزة ، وأولادى يتضورون جوعا ..! أنا لا أملك من الأرض قطعة في حجم قبضة يدي .. لقد ذبلت من شد الكد حتى خرجت عيناى من رأسى ، ومع ذلك

فلا أزال لأجد ما أعلم به أولادى .. لماذا إذن تغضبون على لاني قضيت عليها؟
أجدر بكم أن تبصقوا عليها ، وهى جثة هامدة ... لأنها لم تأت هنا إلا من أجل
مقتلها وراحتها ، لالسى تترك الأرض لنا ، بل لتعطيلها للملاك آخرين من أمثالها .
أنا عازمت على قتل كل واحد من الملاك ، فى كل مرة يعترض أحدهم طريق ،
ولسوف أضربه بغأسى ، حتى لا يبق منهم أو من ذريتهم أحد حيا يرزق ا . .

ورفع فأسه ، ولفها حول رأسه فى جنون ، وقد انبعث صوته الأجاج ،
مرة عاليا ، ومرة منخفضا ، كغفير مكسور : « لقد شبت من الألم والعذاب ...
أنا الآن أريد ترضية ؛ ودم الملاك وحده هو الذى سيروى غليل ا . .

ومزق بفأسه شبابيك البيت ، فتهشمت بدورها مع أطرها . . وكأنما قد
أصاب الفلاحين الآخرين عدوى الغضب والتخريب ، فاندفعوا وراءه بكل سلاح
وقع فى أيديهم ، بغية التدمير والتكسير . . وصرخت زوج دوميترو ، وشدت
شعرها ، خشية أن تمتد أيديهم إلى ممتلكاتها أيضا . . وفى نفس الوقت جرت
أيلينا إلى البيت لترى ما حل بالسيدة نادينا . . أما بافل تونسو فقد وضع عينه على
السيارة من بداية البداية . . وكان قد اكتشف فى أحد المخازن معولا ، فأخذ
الآن يضرب به السيارة ، والغضب يشتد به عندما وجد أنها لم تتحطم على الفور .
على أنه وقد رأى أن خزان البنزين قد انثقب ، وضع المعول على الأرض ، وصعد
إلى الفرقة العليا فوق المخزن المجاور للباب ، لجذب حفنة من التبن ، وجعل منها
ضفيرة وتحس جيبه بلمس الثقاب ، وأوقد الضفيرة بعد لآى . . ثم انتظر حتى
اشتعل اللهب ، فألقى بها على بركة البنزين الذى تجمع تحت السيارة ، وإذا بلهب
أزرق يلتف بالسيارة ، ويرتفع إلى خشب السقف ، ويمتد إلى غرفة التبن المجاورة ،
وفى دقائق قليلة أحاطت سحابة من الدخان الخائق بالمباني الخارجية كلها ، وألسنة
اللهب الصفراء تتلوى فيها فى اضطراب وقلق .

وانطلقت من أفواه الفلاحين فرحة غامرة وحشية : « النيران ! النيران !
» آه ، إنها لتندفء قلبى ا ، صاح بها تودر ستريمبو ، ووجهه يلع عرقا ، ثم
التفت صوب المباني المحترقة كأنما كان يود أن يلقى بنفسه فى الحريق .

ووقف بيتر قرب الشرفة ، وقد تملكته دهشة بالغة . . كان ينظر إلى الناس الذين تجمعوا في ساحة الفناء نظرة رجل في حلم ، ولم يلحظ إلا بعد لآى أن ماتي دولانو كان يقف كذلك في نفس المكان الذى وقف هو فيه .

« هيا يا بيتر . . هيا نخرج السيدة من البيت . . سوف تحرقها النار ومن العار أن نتركها إلى هذا المصير ! » .

ووافق بيتر على عجل : « صدقت يا عم ماتي . . لقد فقد الناس صوابهم تماما ، وخرجت أيلينا في تلك اللحظة من البيت المشوم ، وقد حملت بين ذراعيها جثة نادينا وقد التفت في ملاءة بيضاء .

- ٥ -

بدأت صحيفة درابول في حداد . . وعندما وصل تيتو هيرديليا إلى الدار في العاشرة لم يجد حتى روزو نفسه على مكتبه العتيذ الذى تراكت عليه الصحف . . والظاهر أن سكرتير التحرير كان قد حضر ، ولكنه خرج في حاجة منذ قليل ، بعد أن ترك رسالة قال فيها إنه سيعود بعد نصف الساعة .

وكان هيرديليا الشاب قد تأخر لأنه مال في طريقه على مودرينو في وزارة الداخلية ليحصل منه على بعض المعلومات بخصوص ولاية أرجس ، كما سبق له أن وعد جريجور أيوجا . ولم يتأت له أن يستوضح شيئا . . وكان جريجور قد اتصل بالأمس هاتفيا بمدير مكتب الوالى في بيتسى ، فقيل له إن الوالى كان يطوف بالولاية ، وأنه من المتوقع أن يعود بالليل . . ولكن كل شيء كان هادئا في الوقت الراهن ، كذلك لم ترد أنباء تشير إلى وقوع اضطرابات في أى مكان ، رغم أن خطر العدوى كبير ، فإن تيلورمان وهى التى اخدمت بها الثورة ، على قرب قريب . . وبحث تيتو عن جريجور طيلة الضحى ، ولكنه لم يعثر عليه إلا في المساء عند آل بريديليينو ، وقال جريجور ضاحكا معتذرا : إن تيتو إذا أراد أن يعثر عليه فليطلبه دائما أول ما يطلبه عند آل بريديليينو ، فهو يقضى هناك من الوقت أكثر مما يقضى في بيته . . وابتسم هيرديليا — فهو قد لاحظ أن الآنسة أولجا بوسيتيلينكو لا تغض

طرفها الساحر عن أيوجا الشاب ، بصرف النظر عما يربط جريجور وفيكتور
من صداقة .

والتي تيتو بجوجو أيونيسكو في اليوم ذاته ساعة الاصيل .. كذلك تحدث
جوجو ها تفيا مع بيتسي .. كان في غاية الشجن .. وكانت عيناه دامتين باستمرار
ونفسه مفعمة بالتطير ، رغم ما بذلت يوجينيا من جهد لترفع عنه .

ولقد دبر تيتو أمره بطبيعة الحال بحيث يكون في بيته في الخامسة ، وهو الموعد
الذي كان ينتظر فيه تاتنا ... وكان الشاب هناك في الموعد المضروب بالضبط ،
واندفع الاثنان يتماثقان ، وهما يكيان قليلا من فرط الفرحه باللقاء .! . وظهر أن
الامر الهام ، الذي سبق أن ذكرته في البطاقة التي بعثت بها إليه لم يكن هاما على
الإطلاق ... وغواه أن جينيتسا قد هجر السيدة الكسندريسكو بعد انتقال تيتو
بأيام ثلاثة ، وأن جينيتسا لم يكن هو الذي طالب يوجوب انتقال تيتو ، ولكن
صاحبة الدار نفسها كانت تريد الفرقة لأن ميمى لا تجد لها مكانا بعد أن سرحها
زوجها أخيراً ... وحاولت السيدة الكسندريسكو أن تحتاق مشاحنة ، لجأت إلى
بيتهم واصطنعت خلافا مع كل إنسان ، بل واتهمت تاتنا بصوت عال في عرضها ؛
ولكن جينيتسا انفصل عنها نهائيا ، فخطب إلى نفسه ابنة مساعد المدير — والواقع
أنه تصرف تصرفا نبيلًا ، فدحض اتهامات السيدة الكسندريسكو أمام والديه ..
واستمع تيتو إلى هذا كله باهتمام شديد ؛ أولا لأن تاتنا هي التي كانت تقصه
عليه ؛ وثانيا لأنه يهتم من قلبه بكل أمر يخصها .. وقال لها مغلصا : إنه لو كان
في مركز مضمون ، حتى ولو بعض الشيء ، لتزوجها في القدر ؛ ولكن لانهاص على
كل حال من أن تكون له أبد الآبدين .. واستطرد قائلا : إنه من الآن فصاعدا
لن يناديها إلا « يا خيطيتي » ، بدلا من كلمات الإعزاز الأخرى ، دليلا منه
على ما قال .

وهتف روزو عندما دخل ووجد تيتو غارقا بأنفه في الصحف : « أجبث
يا هيرديليا ؟ » . برافو !! انتهى الامر يا زميلي العزيز ... في عصر هذا النهار
مستكون هناك حكومة جديدة !

وأضاف ؛ بعد أن تصفح عدة جرائد ، « رأيت إلى هؤلاء السادة الشرفاء وكيف
غيروا موقفهم ؟ ... لأنهم لم يعودوا يتكلمون عن كفاح الفلاحين المقدس ..
الفلاحون الآن « مهجورين » ، ولا بد أن تتخذ حيالهم تدابير رادعة .. ألم أنتيك
أنا بهذا كله منذ نحو ثلاثة أسابيع يا زميلي العزيز ؟ ... أنت سرعان ما تراهم يخرجون
المدافع ليكتسحوا الثورة التي كانوا يجدونها حتى الآن « المس القريب » ، ويرون فيها
كفاحاً مقدساً ! .. رأيت ! .. لقد ظلوا يرددون « الكفاح المقدس » ، « ولا ينبغي
أن تراق نقطة دم واحدة من الدم الروماني » ، حتى الآن « المس » — أعني حتى الساعة
التي تأكدوا فيها أنهم مستولون على ناصية الحكم .. ومعنى هذا أنهم أشعلوا
الفتنة في البلد عامدين ودون وازع أو ضمير .. إن خراب البلد ليس شيئاً
في نظرهم ، المهم هو أن يصلوا إلى الحكم ، حتى ولو كان ذلك في بلد عميق الأوصال ..
حرام هذا ... لأنهم قوم أسافل يا صديقي ! .. أنا لا أعاباً بالسياسة ؛ والأحزاب
لا تعني في نظري شيئاً بمذاهبها ؛ أما هؤلاء القوم ، فهم طغمة من الألدنيا ! .. »

وهنا دق التليفون ، فتوقف عن الارترسال .

« هالو ! .. نعم نعم ، هنا « درابلول » ، ... السيد هيرديليا ؟ .. نعم
ها هو ذا ... »

وكان المتحدث هو جوجو أيونييسكو ، يسأل عن الأخبار ؛ فقد أصبح من المحال
الاتصال ببينسني اليوم ... ووعدته بتتو بأن يمر عليه بعد أن يقابل مودرينو .

واستأنف السكرتير الكلام ؛ كأنما أشعلت هذه المقاطعة مشاعره أكثر
فأكثر : « مساكين ! .. كلهم يضطربون ويتعذبون ، لأن هؤلاء السادة يتبعون
الوصول إلى الحكم ، أي كانت الوسيلة ! ! ثم ما أكثر الناس الذين سيتعذبون ،
وكم من الدماء ستراق ! ! .. إن هؤلاء الناس لن يتورعوا عن إقامة مذبحه
للفلاحين ، كما لم يتورعوا عن دفعهم إلى الثورة ! ! .. أكثر من هذا ، أنا أؤكد
لك أنهم سيحكون بعض المشاغبين ... وبالطبع ليس منهم الوزير الذي أعلن
أن هذا الصراع مقدس ... لا يا زميلي العزيز ! .. إنما الاتهام سينصب على ،
أو عليك ، أو على معلم أو قس مسكين ليس عضواً في حزبهم ، أو على أحد
الاشتراكيين ... »

وقاطعه التليفون مرة أخرى ... وكان المتحدث هو جريجور ، قال إنه ينوى أن يمر على تيتو ليذهب معه إلى وزارة الداخلية ... ثم أخذ روزو طوال الساعة ونصف الساعة يصب على مسامح الشاب الوديع كل ما في جعبته من دهاء سياسي .

واستقبل مودرينو جريجور أيوجا بلطف بلغ منتهاه ، رغم مشغوليته الفائقة بسبب التغيير الوزاري ، وذكره بلقائهما في القطار ، وبجديتهما مع روجو جينارو .. وقال : إنه تلقى هذا الصباح إشارة هاتفية من بيتسى تفيد أن الفلاحين أشعلوا النار في أثناء الليل في دائرة بمجنوب الولاية ، في كفر اسمه روجو نيتسا أو روجينوزا .. فالاسم لم يكن واضحاً ، لأن الوالي ، وهو الذي تسلم شخصياً ، كان يتلهم وفي غاية القلق .. وأضاف مودرينو أنه طلب بيتسى قبل ذلك بساعة ، ليحصل على معلومات وافية عن أرجس ، فأخبره الوالي أن الاتصالات السلكية بالجزء الأدنى من الولاية معطلة أو مقطوعة ، ولهذا لن تتوافر لديه معلومات جديدة ما لم يصل الرسل الذين أوفدهم ... وأضاف الوالي أنه قد أبلغ عن خبر النار التي اشتعلت في كفر روجينوزا كما تلقاها هو هاتفياً من كوستسى . ولكنه لا يستطيع أن يشهد شخصياً بصحتها ، وربما كانت فكاهة تخيفية . لأنه هو نفسه كان حتى ليلة أمس يلف بالولاية ، وكان الأمن مستتباً على أكل وجه في تلك المنطقة .

وابتسم مودرينو : « ربما كان واليسكم هذا رجلاً ممتازاً غاية الامتياز ، ولكنه يفرط في التفاؤل إلى حد بعيد » .

وشكره جريجور أيوجا بحرارة .. ثم تناولوا التغيير الذي طرأ على الحكومة زهاء دقيقتين ، فقال جريجور إن صديقه المحامي بالولينو ، ربما يتولى منصب الوالي . أرجس ... هذا ، على الأقل ، ما قاله له بالولينو نفسه ... وكان مودرينو يعرف المحامي بطبيعة الحال ، فقال إنه سيكون نعم الوالي ، وبخاصة في هذه الأوقات المضطربة .

وحدث جريجور تيتو ، وهما في الطريق ، قائلاً إنه لو عين بالولينو فعلاً والياً ، فيصبحه في طريقه إلى آمارا .. وصرح بأنه في غاية القلق بخصوص

مصير والده ... وتوقف على الطوار أمام المسرح القومى ، فظفر فى ساعته ، وغغم فى كرب : « النصف بعد الثانية عشرة ... ترى ما الذى حدث فى آمارا الآن ، ياربى ؟ » .

- ٦ -

ما كاد النهار ينتصف حتى علمت آمارا كلها بما أتاه أولئك الذين رحلوا إلى ليسبىزى وجليجانو فى الصباح ... وكلما انتقل الخبر من فم إلى فم تجسست الأحداث بطبيعة الحال .. قيل على سبيل المثال إن اليونانيين ، الابن وأباه ، قد نالا نفس المصير ، وإن رجلا من جليجانو قد قتل نسوة بفأسه ، وإن القوم قد قطعوا لسان المحامى الذى وفد من بوغارست ، وأرسلوه يجرى فى الحقول ، وهو لا يرتدى غير سرواله ... أما فى ليسبىزى فقد نال الرجال جميعا بفتيم من السيدة الجميلة ، وأخيرا لوى تودر ستريمبو رقبتها ، كما يلوى المرء رقبة دجاجة ، ثم ألقى بجثتها إلى النار .. أما بافل تونسو فقد نزل على الألمانى ضربا مبرحا حتى مات . ولكن الفلاحين عادوا أدرابهم وحدانا واثنين اثنين ، لاجماعة مترصة كما رحلوا ، ولهذا لم يلحظهم أحد عندما رجعوا إلى دورم ، اللهم إلا بافل تونسو الذى جاء يصرخ كالجنون ... والظاهر أن أحدا شهد تود ستريمبو ، وقد حمل كيسا ثقيلا على كتفه ، وهو كيس قال الآخرون : إنه كان مليئا بالنقود الذهبية والمجوهرات التى استلبها من السيدة المتوفاة .

وكان العمدة برافيللا قد ترك كاتبه بالديوان ، أما هو نفسه فقد بقى بالبيت .. كان يعلم بكل شئ يجرى فى القرية ، ولسكنه أراد أن يتتبع عن أى تدخل كائنا ما كان .. لقد سمع أن بعض الأفراد ينوون به شرا ، وأن يشعلوا النار فى مخازنه لأنهم يكون له بغضا وحقدا بسبب أذى سبق أن أوقعه بهم ، ولذلك رأى من الفطنة أن يدع أهل القرية يمحضون قياهم فيه من خبل ، على النحو الذى توحى لهم به عقولهم .. ثم لماذا يعرض حياته وأملاكه للخطر والناس قد طاشت أحلامهم ؟ فسرعان ما تآتى السلطات ، وتجعلهم يشوبون إلى رشحهم ، ولن يلبثوا أن يندموا غاية الندم ... على أنه ، حتى ذلك الحين ، لابد أن يسير وفق هواهم ، لإثارة السلامة .

أما الكاتب ، شيريتا دوميتريسكو ، فقد ضاق من الوحدة في الديوان ، فنادى على الحفارين ، وتجاذب معهما الحديث فيما يجرى من أحداث . وكان يندد بوحشية الفلاحين ويشجها ، ويقف إلى جانب الأشراف متحمسا ، فهو يعتبر نفسه واحدا من طبقتهم ، وكان في أثناء كلامه يقيه عجا بنفسه على الدوام ، ويصلح من ياقته وربطة عنقه في المرأة الصغيرة التي وضعها على مكتبه .

ولقد حدث صباح اليوم ، بعد عودة العمدة من روجينوزا وحديثه مع الشريف ميرون ، أن اصطدم بالقيب بونجيو في ود في أثناء سيرهما بين بيت أويجا ونقطة الشرطة . . كان كلاهما يريد أن يتخلص من مسئولية الحفاظ على النظام والأمن في القرية . . وقال برافيلا صراحة إنه يتفرض بيده من الأمر ، وإنه لم يعد له أى نفوذ . . وصرح الرقيب في مرارة ، بعد أن صب اللعنات على كل شئ بوجه عام ، بأن على الشرطة دائما أن تقوم بالعمل القدر الذى يأباه الآخرون ، وأضاف متوعدا : « لا نخلصي أخرج عن طورى ، وإلا أطلقت الرصاص عليكم جميعا كالغربان ، يا أيها الأجلاف الملاعين ! » .

والواقع أن بونجيو كان في حيرة من أمره في صميم نفسه ، رغم هذا الادعاء المظهري بالشجاعة . . كان في حسابه أن ينال قسطا من الراحة في الوقت الحاضر لأنه لم يكده يغفو الليلة الماضية حتى أيقظه القوم ، وهو الآن تعب منهوك القوى لا يجد فرصة يلتمس فيها غفوة . . ولقد اضطر أن يدخل في شجار مع ديدينا نحو ساعة من الزمان ، وكان من الممكن أن ينتهى الأمر بأن يكبل لها الصفعات ، لولا أن العريف قد دخل عليه ، وأخبره بأمر جماعة الفلاحين الذين رحلوا إلى ليسيزى — لا تخدوهم بالطبع نوايا سلبية ؛ ثم توالى عليه الاخبار بعد ذلك بما فعله الفلاحون ، وأخيرا وصل لازار أودودى ، وهو رئيس خدم الملتزم كوزما بيربونا ، وكان يرتد فرقا ، وقال إن جماعة من الناس كانوا يحومون حول بيت الدائرة ، ولأنه يخشى أن يشعلوا فيه النار .

وعقد الرقيب مجلسا يضم العساكر الأربعة ، بعد أن فرغ من الشجار مع زوجه واستتر الرأى ، نظرا لقله عددهم ، على أن يتظاهروا بتجاهل هذه الاضطرابات التي وقعت في القرى المجاورة ، أو تلك التي قد تقع سواء بسواء . . بل وروا أن

بمضضوا عيونهم على المخالقات التي تحدث في آمارا ، وهو الأمر الذي ساروا عليه من قبل في الواقع منذ أن بدأ الشغب قبل أيام قلائل .. ولكن لامناص لهم من الحيلولة دون وقوع تخريب ، أو إشعال خرافق .. أما لودعت الحاجة ، فلتخرج القوة كلها ، إرهابا للناس .. ولكن لا ينبغي بحال أن يعيثوا بنادقهم بالرصاص مسبقا ، وإنما يقومون بهذا وهم في الميدان ، حتى يشتد وقعها على الناس .. أما لو اضطر هو — معاذ الله — إلى إصدار الأمر بإطلاق النار ، فليصوبوا أولا فوق الرموس ، فإذا لم يؤد هذا إلى الأثر المطلوب ، فلهم عندئذ فقط أن يطلقوا النار مباشرة .. وأخيرا لا ينبغي لأحد أن يترك نقطة الشرطة ، فأهبا اسكل طارقا ، كما ينبغي أن تكون أسلحتهم ومعداتهم في متناول أيديهم .

وعاطب خادم بيربونا قائلا : أنت يا أودودي لا ترى غير الثورة حيثما تولي وجهك — حتى ولو لم تر غير رجلين يتجاذبان الحديث .. هذا هو مقياس شجاعتك يا أودودي !

قال لازار أودودي مستسلما : لم يعد في طوق أن أكبح جماح الناس ، أيها الرقيب .. افعل أنت ما تشاء ، وأنا مضطر إلى إبلاغك بالأمر ، حتى إذا مرجع الملك لن يتهموني بالإهمال في المحافظة على ممتلكاتهم ..

ثم أرسل الرقيب بعد ذلك بوجزا ، وهو أشد رجالة لماحية ليقدر الموقف على حقيقته .. وعاد الشرطي بأنباء كانت أشد وقعا من بلاغ الخادم .. والحق أن بيت الدائرة لم يس حتى الآن ، ولكن الفوضى كانت ضاربة هناك ، إذ إن الناس يحملون القمع والذرة والحبوب وغيرها ويضعونها في سلال أو أكياس ... ولقد تقاطر الناس في هدوء من فايدى لينالوا نصيبهم .. ولقد تم السطو على جميع المخازن ليلة أمس .. وأخبر أحد الخدم الشرطي بأن خفراء الملتزم كانوا هم أنفسهم أشد الناس همة ، فهم الذين دعوا الناس إلى القنينة .. والظاهر . كما هو في واقع الأمر ، أن أودودي نفسه كان على تفاهم مع الفلاحين ، بمعنى أنه لم يعبأ بما فعلوا بالمخازن وغيرها ، على شرط ألا يمسوا بيت الدائرة .. أما وقد اكتشف أنهم يريدون إشعال النار في البيت ، وأنه على الأقل ، فقد جاء يتقدم بالشكوى .. ولم يكن يوجد كثير من الفلاحين هناك ، لأن كل واحد أخذما أراد

وانصرف لحاله . . أما عارج الحان - فقد اجتمع نحو خمسين فلاحا ، بل وربما أكثر ، وكانوا إما يتجاذبون أطراف الحديث ، ولما يدبرون أمرا بلبيل .

وعيس بونجييو وقال : « إذن فالأجلاف يأبون أن يتركوا الأشياء على حالها . ، ولكنه التزم جانب التعقل ، ورأى عدم التدخل . . لماذا يثير ثائرتهم وهم لم يخلوا بالآمن .

وبعد أقل من نصف الساعة اندفع الشرطى الذى كان واقفا فى الساحة إلى مكتب الرقيب ، فقال لاهنا : « النار . . انار . . بيت الدائرة يحترق ! ! ،

وخرج الرقيب ، واجف القلب . . نعم ، فى اتجاه بيت كوزما بيربونا ، تصاعدت سحب كثيفة من الدخان . . لم يعد فى مقدوره أن يظل متجاهلا للأمر ، وهو لو فعل لتعرض لمحاكمة عسكرية إذا ما اكتشفت الحقيقة ، ولا بد أن تكتشف الحقيقة إذا لم تقدم الشرطة على شيء ، والفلاحون قد أشعلوا النار فى البيت . . وألقى الرقيب بعدة أوامر ، ووقف موقف التأهب ، بينما دبدينا تصرخ ، وهى تعصر يديها : « سيلفسترو . سيلفسترو ، اخترس نفسك حتى لا يقتلوك ! ،

وتمالك بونجييو نفسه ، وبقي هادئا ، وقد استقر عزمه على ألا يجازف بنفسه بل يقوم بدأورية ، لإظهارا للسلطان لا أكثر . . ولم يكن يريد أن يثير الفلاحين بل كانت بغيته أن يلاطفهم . . واتتوى أن يعالج الحريق ، لاعلى أنه عمل مقصود بل على أنه حريق عادى . . أما فيما بعد ، عندما تستقر الأوضاع ، فسوف يغير مسلكه ، ويكيل الصاعين لهؤلاء الأوغاد .

وعلى ناصية الطريق القريب من الحان ، كان الطريق المؤدى إلى البيت غاصا بالفلاحين واقترب الرقيب ، وهو يمشى مشية عسكرية أمام الجنود الأربعة ، بخطوات متتدة ، وقد تألق وجهه ، وندت عنه ابتسامة لطيفة أراد أن تكون دليلا على أنه لا يفتوى نوايا سيئة . . وبقي الفلاحون فى سكون ، ينظرون إلى رجال الشرطة دون مبالاة ، كأنهم غرباء عابرو سبيل . . فلما كان العساكر على بعد خطواتين فقط منهم ، أفسحوا لهم فراغا ، ليشقوا طريقهم فيه . . وتساءل بونجييو مازحا : « هيه ، يا إخوان ، ألا تريدون أن تسمحوا لنا بالمرور ؟ » .

فنهت صوت ساخر : « لماذا تبرد أن تمر ؟ .. ألا ترى أن البيت يحترق من تلقاء نفسه ! » .

وتظاهر الرقيب بأنه لم يفهم دلالة الكلام ، وتوقف وسط الفلاحين وقال : « إنه يحترق حقا .. ولكن لابد أن تؤدى واجبتنا .. أعندكم مانع ؟ أعندك مانع ياسيرافيم ؟ ، وكان سيرافيم موجوس يقف أمامه مباشرة ، ووجهه عابس مكفهر .

وهز موجوس كتفيه استخفافا ، دون أن يجيب .. ولكن تريفون غوغو تكلم نيابة عنه : « أما نحن فنعرف واجبتنا نحوك .. من السهل ضرب الناس وتعذيبهم حين تكون لك اليد الطولى ! » .

« لو كان عمل الإنسان يتطلب هذا ياتريفون .. » قالها بونجييو متوددا ، فقد أدرك أن الفلاحين يحاولون استفزازة .

وقال سيرافيم موجوس فجأة : « أترك تذوقت طعم الضرب ؟ .. إن لم يكن فسأذيقك طعمه » يا بن الزانية ! » .

وصنع الرقيب على خديه ، وهو يتكلم ، في سرعة البرق .. بل إن بونجييو لم يجد فسحة من الوقت ليدرك ما كان يجري .. لقد انتهالت الصفعات عليه من كل جانب .. وأحس ، وكأنه في حلم ، بترفون غوغو وهو ينزع بندقيته عن كتفه ، ثم وهو يضرب برأسه في صدره ، فكان الحائط الوحيد الذى خطر له هو أن يولى الأدبار .. وصرخ الفلاحون ، وهجموا عليه ! « هيا ، أعطوه ما يستحق !! » ، « اسلقوه ضربا !! » ، « اذهبوا عنا .. اذهبوا عنا !! » . أما المساكر . فكانوا يصرخون في رعب : « لا تضربوا !! » ، وتدل برأسه ليشق له طريقا .. ولم يدم الهياج إلا دقائق قليلة .. ثم استطاع ، رغم وابل من الصفعات ، أن يتعد مسافة قليلة ، ثم خفت الصفعات كلما قل الجمع الذين تكأثروا عليه ؛ بينما استمر الصراع وراءه عنيفاً صاخبا ، كأنما لم يلحظ الفلاحون أنه قد تخلص من بينهم .

وارفعت الصيحات خلفه ساخرة : « اغربوا عنا !! ولوا أدباركم !! » .

وأطاعت ساقاه النداء على غير إرادة منه ، فقطع مسافة بسرعة خارقة .. وتتابعت أقدام أخرى تجري في إثره .. كان يوده أن يتبين من كان هؤلاء ، ولكنه خشى أن ينظر خلفه .. واستمر الصباح .. فلما جرى هكذا بمنحون بضع دقائق ، لاحظ بوابة عن يمينه مفتوحة على مصراعها ، وتبين أنها دار ماران ستان ، فاندفع إلى الفناء صوب الحديقة .. وحاول الكلب عبثاً ، وهو يزجر غاضباً ، أن يقف دونه ، ولكن الرجل لم يبطئ في خطوه وينظر حواله إلا عندما وجد نفسه بين الأشجار التي خلف الدار ... وجاء في إثره الماسكر الأربعة ، بنفس السرعة البائلة ، على مسافات دلت على الترتيب الذي هربوا به من الصفعات .. وكان الماسكر الأربعة جميعاً قد فقدوا أسلحتهم ، شأنهم شأن رئيسهم ، وكان منهم اثنان عاري الرأس . بعد أن تركا قبعتيهما على أرض المعركة .. وتوقف الفلاحون المنتصرون ، عندما بلغوا واجهة الدار ، وهم يصخبون ويلعنون . يهزون قبضاتهم ، ويلوحون في الهواء بالبنادق التي تخلفت في حوزتهم ... واطمان الرقيب بعض الشيء عندما رأى رجاله في إثره ، فأدار ظهره إلى الجمع الصاخب ، وواصل تراجعهم عبر الحديقة في خطوة معتدل ، بقصد أن يجد مكاناً يلجئون إليه جميعاً .. وإذ هو يتألك نفسه تدريجياً ، ظل يردد في ذهنه : « من حسن الحظ أن البنادق لم تكن مباءة ، وإلا فلك بنا هؤلاء الأوغاد . »

وبينا الماسكر يفسحون ، وهم يتحسسون في وفق كدماتهم وضلوعهم المرضوخة ، أخذ الفلاحون يدلون بتعليقات بذيئة حول الاشباك الذي جرى ، وهم يضحكون ويسبون ويشتمون ... وجعل تريفون غوغو يرقص ويلوح ببندقية في الهواء ، وهو يهتف ويرقص في مرج كان يتعارض كل التعارض مع ما ألف من عبوس ، وقال : « الآن حان الوقت ، أيها الأصدقاء .. الآن حان الوقت ١ » .

وانتشر نباح طرد الماسكر بسرعة في أرجاء القرية ، فعمت الفرحة كل مكان وانزاح حمل ثقيل من فوق صدور الفلاحين . وأسرع أصغر أبناء سماراندا إلى بيته . وكان يحوم بالصدقة حول الحان ، فرأى ما حل بالماسكر ، فاندفع لامتنا مهور الانفاس ، وقال بمجرد أن وصل إلى الفناء : « أخى ييتو ! .. أمأه ! .. »

لقد طردوا ... العساكر ... الناس .. وضربوهم ضرباً .. شديداً .. و...
وكان يتر ، بعد أن وصل من ليسيزى ، لم يترك داره منذ ذلك الحين ..
كان يحتاج سريع الانفعال ، يحس طعم المرارة في فمه .. لم يتحدث أمه بكلمة ،
بل ولم يشأ أن يتناول الطعام .. وغنم الآن في حدة : « ليذهبوا إلى الجحيم ، فإ
كان فيهم غير لأحد ! ! » .

— V —

كانت الساعة تقترب من السادسة مساء عندما صاح صبية الصحف في
بوخارست : « عدد خاص .. الحكومة الجديدة .. نداء إلى الشعب ! ! » .

وكان جريجور ، منذ عودته من آمارا ، قد ألف تناول عشاءه مع آل برديليانو
كل مساء .. لقد أصبح ، من المحال أن يبقى مع خالته ماريوكا يستمع إلى حديثها
الفارغ ، أو أن يذهب إلى المطاعم أو النادي مع صحاب كانوا حتى الأمس القريب
مستعدين للوث في سبيل الفلاحين ... لقد نالوا عن فكرة توزيع الأرض ،
وهم يحسبون خفية في صميم أنفسهم أن شيئاً لن يحدث . بل كانوا يشبهون كبرياء
بالظهور بظهر ذوى الأفكار التقدمية . أما اليوم ، فهؤلاء الناس أنفسهم يلحون
في استخدام السلاح ، ليكتسحوا القرى الثائرة من الوجود ، أما الفلاحون هناك
فلا بأس من أن يضربوا جميعه ، ودون استثناء ، بالسياط ، حتى ينبثق الدم من
أجسادهم ، فيكونون عبرة لمن يعتبر ، ومن ثم لن يجرؤ فلاح أن يرفع رأسه مرة
أخرى إلى أيدى الآبدين .. وكان ينطلق على سجيته هنا ، في بيت فيكتور ، وبخاصة
الآن وأبوه يحابه الخطر وحده في القرية ، وهو عاجز عن مد يد المساعدة إليه ؛
كان هو وفيكتور على تناف ، كالعهد بهما دائماً .

وابتاع وهو في طريقه إلى هنا هذا المساء كل عدد خاص من الصحف حتى
يطالعها مع فيكتور ، ويتناولها بالتعليق فيما بعد . . ولم يكن معنيا بتشكيل
الحكومة ، ولكن اهتمامه انصب على النداء ، فقد ترددت الشائعات بأن الحكومة
ستعلن في النداء عن إصلاحات كبرى ، وهي إصلاحات ستضع نهاية لاضطراب
الفلاحين على الفور ، كما ستضئ على الحاجة إلى القمع عن طريق السلاح .

وأتيح لهما ، قبل أن تعد المائدة ، أن يتناقشا في جميع التدابير التي وردت في النداء ، ولكنهما اختلفا في الرأي حولها .. كان من رأى بريدلينو أن الحكومة الجديدة استهلت استهلالا رائعا ، وأن النداء كان بمثابة غصن زيتون في يد أولئك الذين سيتولون تهدئة الفلاحين .. لم يكن في المقدور الوعد بأكثر من هذا ؛ وبخاصة في ظل الضغط القائم من أثر القلاقل .. ولكن جريجور رأى أن الإصلاحات الموعودة في النداء ما هي إلا سحرية فارغة في نظر أهل القرى الثائرة .. فالفلاحون يريدون الأرض ... وهم قد أحرقوا ، وانتكوا كل حرمة ليصبحوا سادة للأرض ، والآن تأتي الحكومة الجديدة ، وبدلا من أن تعطيم الأرض ، تعفيهم من بعض الضرائب ، وتبذل لهم الوعود بتأجير أرض الدولة لهم وتقول : إن شروط العقود مع الملاك ستخفف وطأتها ، ونحو هذا ، وهذه كلها أمور كان من الممكن أن تكون ذات فائدة كبيرة قبل أن تنشب الثورة ، أما اليوم ...

واستطرد جريجور : « لقد رجعت من آمارا منذ أيام قليلة فقط ، وهناك أحسست بوجيب قلب الفلاحين ! .. لقد سعوا جاهدين قبل شهر أو نحوه أن يسمح لهم بشراء بآباروجا ، أما اليوم فهم لا يفكرون حتى في هذا ... هم الآن يطالبون بكل بساطة بتوزيع الضياع كلها فيما بينهم ... أيقنع مثل هؤلاء الناس بإعفائهم من الضرائب ...؟ هذه لعمري سخافة ! .. »

قال بريدلينو مبتهجا : « حسن ، ولكن لامناص في هذه الحالة من استخدام القوة لتهديتهم أولا ، ثم هم بعد أن يعودوا إلى رشدهم سيفهمون دلالة التدابير التي اتخذت لصالحهم » .

فأجاب جريجور : « هذا صحيح ، لا بد لنا من أن نلتزم الرياء والنفاق ... لقد ثار الفلاحون .. إذن فلينزل الجيش لإيقاع العقاب بهم ، هذا كل ما في الأمر ! .. إن الإصلاحات لا يمكن أن تناقش إلا مع أناس أحماء ، لامع مرضى بهم لوفة .. وهذا النداء ليس إلا مظهرا من مظاهر الرياء والنفاق ، وذلك هو ما يفضيني ... فالثورة لا يمكن إخمادها دون إراقة الدماء .. والحكومة ، بدلا من أن تطلق الرصاص مباشرة على الثائرين ، تلوح أولا بهذا النداء في الهواء ، تبرئة لنفسها

فما بعد ، فتزعم بأنها لم تكن تريد إراقة الدماء ولكن... هذه مناورة رخيصة ، وهي لن تطل على الفلاحين ، بل ستزيد من هياجهم ، وستفضي إلى مزيد من إراقة الدماء » .

وكانت تيكلا قد منعت أى نقاش يدور حول الثورة أو السياسة وهم على المائدة ... ومن ثم صرفوا معظم الوقت يتحدثون عن ميرون أبوجا .. قالت السيدة بريديليينو : « إن أوصالى ترتعد كلها أفكر أن فيكتور قد يكون وحده فى القرية فى هذا الوقت ! » .

ونظر جريجور إلى أولجا ... وعندئذ تسأل بريديليينو قائلاً : « على فكرة يا جريجور — ممدرة لو كان هذا السؤال خارجا أو تموزه اللياقة — ولكن سمعت أن زوجتك قد ... »

« زوجتى السابقة ! ، قالها جريجور بسرعة وقد تضرع وجهه .

« نعم ، سمعت أن زوجتك السابقة قد ذهبت إلى القرية فى هذا الوقت ... أصبح هذا ؟ . لو كان الأمر كذلك فالحقيقة أنها ... »

فغمض أبوجا ، وقد اردب وجهه : « لا أدرى ! .. » ، فيما يختص فى قد ماتت منذ زمان طويل » .

ظل بومبو المشرف يوالى لإخطار الشيخ أبوجا بكل ما يحدث فى القرية ، بناء على ما لديه من تعليمات .. ولقد أخذ الشريف ميرون ، منذ أن تلقى الخبر الخاص بروجينوزا فى الصباح ، يستدعيه المرة بعد المرة ليعطرح عليه نفس الأسئلة : « ماذا لدى رجالى من حيل أخرى يدبرونها ؟ » .

ولم يحجب بومبو عنه إلا حقيقة واحدة هى مقتل نادينا ، فقد خشى أن بصر الشيخ على الذهاب إلى ليسبىزى ليشهد الامور بنفسه .. وعندما سأل عن السيدة أجاب بومبو بأنه لم يتلق خبرا عنها ، ولكن ربما لم تكن السيدة فى القرية بعد ..

وعندئذ صاح ميرون مقتبعا : « بالطبع ، ليس هذا مكانها الآن ! من حسن الحظ أن لديها سيارة ، وفي وسعها أن تفر في الوقت المناسب ، وإلا علم الله المخاطر التي تتعرض لها على أيدي رجالنا » .

وخرج الشيخ وحده إلى الفناء بعد العشاء ، كما كان يفعل كل مساء ، بقصد ممارسة قليل من الرياضة قبل أن يأوى إلى الفراش ... وكانت السماء صافية ، ذات لون أرجواني قاتم ، والنجوم تلمع كقطرات الندى ... وأضنى نسيم الربيع على حركاته قوة ، فضى يتششى حول الفيلا الجديدة ، ويسير على المشى المغفل بالحسباء ، وكان قد تم تنظيفه منذ قليل ، وانطلق إلى البوابة المؤدية إلى الطريق .. ورأى على مقربة منه ، إلى الأمام ، من خلال الأشجار ، النار تلتهم بيت كوزما بيريو ، وتحترق في هدوء ، دون أن يتدلع منها لهب كبير - بل انبعثت منها رقعة من اللون الأحمر على الأفق البعيد .. وكانت الساعة العاشرة ، وقد سكنت نائرة الحرائق والجلبة التي أتى بها الفلاحون ... ونامت القرية ، كأنما أحداث القرية كلها كانت حلما من الأحلام ، لولا ضوء النيران الذي قام دليلا على أنها حقيقة واقعة ... وكان ثمة بقعة أخرى حمراء ، على مدى أبعد ، إلى اليسار ، أنارت السماء ، فكانت علامة على أن النار اشتعلت في ولاية ليسيزى ، إن لم يكن في جليجانو أيضا .. بل استمر الوهج الوردي كذلك إلى اليمين ، ناحية ووجينوزا ... كان كل شيء مازال مشتتلا ، وظل كذلك يشتعل في هدوء ، ودون عجلة ، بكمرات من الفحم .

وغنمهم ميرون أيوجا ، وهو يتوقف برهة قرب البوابة : « ما كان يخطر في بالي أبداً أن رجالى هم أشرف الناس ، وما كنت أظن أنهم يذهبون في كل مكان حولنا ، ليثيروا الآخرين بخبثهم !! » لقد ضاعت جهودى سدى عليهم !! لا فائدة ، لقد قضى على الفلاح أن يظل مصجيا وحشيا أبدا الدهر ! ،

وعاد أدراجه حول الجانب الآخر للبيت ، ومر بالمبانى القديمة ، ودخل الحديقة الكبيرة التي في ظهر البيت ، حيث لا توجد أشجار تعترض النظر وترسبت المرارة في نفسه شيئا فشيئا .. وأصبحت لا تطلق ... لقد كان متأكدا في صميم نفسه ، حتى هذا الصباح ، رغم كل الشائعات ، أن فلاحيه سيلزمون الهدوء ، حتى ولو هبت القرى المجاورة كلها نائرة ... وكان يرتبط بهم ارتباطا وثيقا برباط

من حياته هو ، وحياة أجداده ، بحيث وجد من المحال عليه أن يؤمن بأنهم لا يشاطرونه هذا الشعور بالأسرة الواحدة .

وبلغ موضعاً حيث تنتهي الحديقة ويبدأ الحقل... ورقدت الولاية إلى ظهره ، وومضت المصابيح التي في الفناء على مدى النظر ضوءاً أصفر كشموع وجلة في بيت من بيوت الله... وتوقف هتية ، وعاد ينظر إلى بيت ييرونا وهو يحترق... ولجأة اعتصر قلبه ألم مبرح ، إذ بدا اللهب في ناظره وكأنه يلتهم مبانیه نفسها .

وكانت البقعة الدموية الحمراء تشتعل في السماء ، وولاية أیوجا تحف بها كأنها أطلال سوداء لا يزال الدخان ينبعث منها .. وتبددت أفكاره أشتاتاً ، وحلت أسرار أخرى عليها ، لتتبدد هذه بدورها ، وهكذا دواليك .

« هذا لا يمكن أن يكون ! » .

وإلى اليسار ، كان من الممكن رؤية اللهب المتصاعد في ليسيزي بجلاء ، وقد بدا على مدى أقرب ، كأنما قد أذكت يد أوارها من جديد . ولحظ الشيخ أیوجا ، فيما بين التارين ، وهجا جديداً على الأفق كجرح غض ، ثم أخذ يمتد وينتشر أمام باصريه ذاتهما .

« تلك هي كاتنا كوزو... إنهم لم ينسوا الضابط جرادينارو كذلك !... » غمغم بها ، وهو يتفحص بناية ألسنة النار التي أخذت تزدد انتشاراً .

والثقت إلى اليسار ، في اتجاه باباروجا وفلافتا ، وقال في نفسه : « الظاهر أن العقيد قد نجح حتى الآن... »

على أنه إذ اتجه ببصره ناحية كيرتيكا وجد ولاية بوييسكو كيوكو تشتعل ، وكذلك بيت الجبال داردالات في هوميل بوادی تيلورمان ، وكذلك بيت أيونيتا دوتومبان في جویا .

وصاح ميرون : « مسكين أيونيتا... لقد نهوه هو أيضاً ! » .

وبدت النار المشتعلة في جویا ، من حيث وقف الشيخ ، قرية من دروجينوزا ، ولكنها كانت أشد توهجا ، آية على أنها قد اشتعلت ، من وقت قريب .. وكان

من الممكن رؤية نيران أخرى، فيها وراء روجينوزا، ربما في أورديلوا وإيزفورو...
كذلك كان ثمة نيران على مشارف آمارا ، وبما في دومبرايني ..

وخطر في بالميون ، وهو يول وجهه نحو ولايته مرة أخرى ، بعد أن جال
يبصره على طوال الأفق : « نار وخراب من كل جانب !! . ونحن أشبه مانكون
بالجزيرة !! »

وأرعى الليل سدوله على كل شيء . . . لم يكن ثمة نسمة ولا صوت . . .
ولم يستطع الشيخ ، وقد لفه صمت عميق ، أن يسمع شيئا غير نفسه هو ، وقد
تصاعد خشنا متوقدا . . . ورفرفت ألسنة اللهب الصامتة في جميع الأرجاء ، كأنها
نتن تصاعد من قروح على جسم هائل صلب على الأرض ، فعكر الجو كله .

ووقف ميرون أيوجا في الظلمة دون حراك ، وإذا برعدة تفتابه ، كأنما مرت
بأطرافه موجة لجائية من البرد ، وعاد أدراجه ، وعيناه على منازله ، التي كانت
ألسنة اللهب تتلوى فوقها . . . وعاد الشيخ يغمغم في إصرار :

« هذا لا يمكن أن يكون !! ، »

المفضل العاشر ..

الدماء

- ١ -

نهض كل فلاح في آمارا، فجر يوم الجمعة، وفي ذهنه فكرة واحدة - هي أن رفاقه لا ينبغي أن يتفوقوا عليه ... وتلبث المجدون حتى المزيح الأخير من الليل وهم يحملون من بيت الملتزم كل ما أمكن لإنقاذه من الزيات .. ولقد اشتبك بأفل تونسو بالأبدى مع يعقوب ميتروتو، وكاد يفتك به من أجل عجل بقر أخذ يقوده إلى بيته، فاشتكى الحفير من أنه سبق أن وضع عينه عليه لاسابيع خلت، والشاهد على ذلك زامفير شيلارو ... ولما اشتعلت النيران، أخذت الناس الفرحة، ولكنهم مالبثوا أن تدموا على أن النار بدأت قبل أن يأخذوا كل ما كان ذا فائدة لهم؛ وبخاصة الآن بعد أن تخلصوا من رجال الشرطة .. حقا، من أسف أن تضيق هذه الأشياء الطيبة كلها بددا في لحيب النيران.. ثم إن أشد الناس فقرا هم أقل من حصل على شيء، لأنهم لم يجرؤوا في البداية على مد أيديهم إلى شيء، فلما وانتهى الشجاعة، لم يكن قد تخلف شيء.

ولم يكذب إيجنات سيرسل نهض من نومه حتى دب شجار بينه وبين زوجته، فقد أخذت تعنفه لأنه لم يأت بما فيه الكفاية؛ وكان أخرى به أن يأتي بخنزير صغير أيضا. وليس من شك في أن هذا كان بعيد السعادة إلى نفوس الأطفال مرة أخرى ... وجعل زوجها يذكرها دون جدوى أنه قد أتى بثلاث زكائب من الذرة، وهو قادر يكشيهم حتى منتصف الصيف؛ وأن ظهره كاد ينقهم من حملها، فظل يؤله طوال الليل؛ ثم تأتي هي الآن فتشكو من أجل خنزير صغير .. قال إيجنات:

«كيف يتأتى لي، يا كلبة الشيطان، أن أحمل خنزيرا؟ أحمله على ظهري؟ لا يمكن لإنسان أن يقود خنزيرا من خلف، إنه ليس رجلا ولا ثورا!!»

« ولكن كيف تأتى ذلك للآخرين؟ .. وهم أناس يملكون أكثر من خنزير يدخرونه لعيد الميلاد ، ويسوا مثلاً ، نحن الذين استلبنا خنزيرنا على يد جاني الضرائب ، عليه اللعنة ! .. ولقد أخبرتني أيونيتا تينشا ليلة الأمس فقط أن زوج ابنة القس قد استولى على ثلاثة من خنازير الملتزم ، فدفع بها إلى زرييته . »

ولو لم يكن لإيجنات فى شدة الغضب لقال إن زوجه كانت على صواب . والواقع أنه ، وقد هزه الطمع فى الذرة ، شأن كل فقير لا يفكر إلا فى «الماليجاء» لم يخطر له الخنزير على بال .. قال غاضباً : «إن الشيطان ليختفى تحت إهابك ! .. طبعاً أنت لا تعرفين أن القس يسكن أمام بيت الدائرة ، وليس على فيليب إلا أن يعبر الطريق فيعود بكل الخنازير التى يملكها الملتزم ! »

وأخذ الرجل يتلصقاً فى البيت والفناء وهلة ، ثم إذا به يتناول جبلاً ، وينطلق إلى دار جاني الضرائب .. كان يعلم أن بيرزوتسكا وزوجه قد وليا الأدبار والظلام لا يزال مخبئاً منذ صباح الأمس ، بمجرد أن شهدا النيران فى روجينوزا .. ولقد بلغ بهما الملح حدا جعلهما لا يتجاسران على المسير فى الطريق ، بل لزموا الحدائق والحقول ، وكلاهما يحمل على ظهره ربطة صغيرة .. ولقد صادفهما بعض القرويين ، ولكن القوم اكتفوا بحسب اللغات عليهما الشدة ما اتاهما من فزع . ومن ثم لم تبق بالدار إلا صبية بلهاء لترعى الأشياء التى جمعها بيرزوتسكا منذ أن انتقل إلى البلد ، ولم يكن يملك إذ ذاك شروى فقير ؛ فقد كان مجرد النظر إليه مدعاة للشفقة به .. ودخل لإيجنات سيرسل الفناء ، وذهب من فورهِ إلى الزريبة ، حيث أخذت ثلاثة من الخنازير تقبع وتخور .. وأطلق سراحها ، متمهلاً ، وأخذ يمايز وزن كل منها « واختار اسمها ، وشد الحبل إلى ساقه الخلفية ، وسار به نحو البوابة المفتوحة .. ولحظت الصبية أن الخوار المعتاد فى الصباح قد توقف ، فخرجت مسرعة تحمل كيساً من الذرة .. وخطف لإيجنات الكيس من يدها ، دون أن يتعلق بكلمة ، وانطلق فى طريقه ، وهو يهز الكيس المألوف أمام الخنازير .. وتما لككت البلهاء نفسها فجأة ، فأخذت تصرخ : « أوه ! .. التجدة ! .. لقد سرفوا الخنازير ! .. النجدة ! .. »

ولم يأبه إيجنات . بل خرج من البوابة ، تقيمه الخنازير الثلاثة .. فلما كان

في منتصف الطريق ألقى إليها بحفنة من الذرة ، وانتظر عليها حتى التهمتها ، ثم مضى بها .. وخرج نفر من الجيران على صراخ الفتاة إبروا ما حدث .

قال واحد منهم في ود وغبطة : « أهكذا أخذتها يا عم لإيجنات ؟
فأجاب إيجنات ببساطة : « لقد سبق له أن أخذ خنزيرى ! » ثم أضاف مبتهجا
هيا يا أولادى ، هيا .. »

وبلغ بيته في أمان ، ولم يفقد إلا الحبل الذى تركه معلقة في ساق الخنزير ، حتى اغل منه وسقط في الطريق .. فلما دخل إلى صحن الدار ومعه الخنازير الثلاثة ، قال لزوجته مزهوا ، وهو يمسك بالكيس : « هاك خنازير وذرة أيضا ، ولكن إياك وأى كلمة أخرى ، وإلا استعملت حزامى عليك ، أيتها المرأة اللعينة ! » .

ووقفت المرأة مبهورة وهلة ، وما لبثت أن تماثلت نفسها ، فقالت في جشع :
« رباه ! . يأم يسوع الرب ! .. تعالوا إلى يا أعزاقى ، تعالوا .. »

قام ميلينت هيروفيمو ساءة الفجر في هدوء حتى لا يقلق زوجته التى أخذت تلتوى طوال الليل من الألم .. ونزع الريش عن دجاجة ، ووضعها على النار .. ثم نشر مفرشا على المائدة .. وكان الرجل ، منذ أن رحل الماظم كوزما ، يحوم حول بيت الدائرة مخافة أن يحدث شيء ليس في الحسبان .. ولقد أخذ يضع زكائب من الذرة ، ولكن اهتمامه انصب أكثر ما انصب على أطايب المأكولات ، فقد كانت أميته أن يعامل زوجته وأولاده كأحد الأشراف . فهم قد تضوروا جوعا أمدا طويلا .. وكان الرجل على يقين من أن المرأة المسكينة مامرضت ، وما لزمته الفراش هذا الأمد الطويل إلا لقلة ماتتال من طعام ، وأنها لو تفذت جيدا يومين على الأقل فلا بد أن تبرأ من علتها بأسرع من أى من هذه العقاقير .. ولما رأى الناس قد انصرفوا إلى الحازن دون غيرها ، هرع إلى المشرف لازار ، فدفعه جانبا ودخل إلى البيت .. وكان بوسع لازار ، وهو أقوى الرجلين ، أن يتقلب عليه ، لولا أن الآخرين هبوا لنجدته . فضربوا المشرف ضربا مبرحا ، وترفقوا في الغرف يحطمون . ويلتقطون كل ما يروق في ناظرهم .. وتشمم ميلينت حوله حتى اكتشف الكرار . وقد اكتفى بأطاييب المأكولات .. ووجد هناك سلتين ، فلهما بالأطعمة

المحفوفة ، وزجاجات النبيذ والمشروبات ، والجبن ورغيف من الخبز الأبيض ،
والسجق ، ونخذ كامل من لحم الخنزير المقدد ، والزيتون ، وبكل ما وقعت عليه
يداه .. وكان الظلام دامسا عندما بلغ بيته ، فلم يشأ أن يخرج المأكولات من
السنتين ، بل أخفاها في مدخل الدار ، وقد اتتوى أن يعد المائدة بحيث تبدو في
صباح الغد ، كليلة من ليالي العمر ..

وتهل وجهه المكدود سعادة ، وهو يفرغ السنتين ، ويضع هذه اللذائذ
كلها على المفرش الأبيض .. وخطا إلى الوراء ، إعجابا بعمله ، وأشعة
الشمس الأولى تبسم من خلال الشبايك القذرة ثم التفت إلى الفراش حيث رقدت
المرأة وشخصت إليه بعينيها الكبيرتين السوداوين في خوف ، فقال مبتسما ، كأنما
كان يلتمس منها المغفرة : « لقد ظفنتك ناعمة .. أ رأيت إلى هذه الأشياء الجميلة ؟
لقد جئت بها كلها لك ! .. إن الأطفال يأكلون أى شيء ، طالما كان طعاما ، أما
أنت فلا بد أن تتغذى جيدا ، حتى تتحسن صحتك بعد أن عانيت من المرض وقتنا
طويلا .. ولقد سلقت لك دجاجة في الحلة ، لأجعل لك منها حساء ساخنا
مغذيا و .. »

وتوقف بفتة .. كانت عيناها شاخصتين إليه في ثبات دون حراك ، بنفس
النظرة التي بان فيها الرعب .. وكان قبا منفرجا قليلا ، كأنما كانت ترغب
في الكلام .

وغنم ميلينت في حيرة : « آه ، ياربى ، أهي ماتت يا ترى ؟ »

واقترب من الفراش ، ولمس ساعدها الواهن ، وكان مستندا على حافة السرير
الحشبي ، وقد تدلت أصابعه ..

قال الرجل في غباء ، وهو يطيل النظر إلى عينيها الراقنتين ، وكانتا لا تزالان
تحدجان في الطاولة : « لقد ماتت .. ماتت الآن في الوقت الذي .. »

ونفض الطفل الأصغر من الفراش تحت أقدام المرأة التي طواها الردى ،
باكيا بفرك عينيه .. وبعد لحظات ، رأى والده ، فتألق وجهه ، ومد يديه إليه

ليرفعه من الفراش .. وأخذ ميلينت بين ذراعيه وضمه إلى صدره بشدة ، وقلبه بلا وعى ، ثم عاود النظر إلى المرأة ، كأنما يأبى أن يصدق .. وأيقظ الطفلين الآخرين : « كنى نوما ، هيا .. لقد آن لكم أن تمضوا .. » .

وتحرك الطفلان في نعاس ، وهما يغفمان .. فلما وقع بصرهما على المائدة التى اكتظت بصنوف الطعام ، أشرفت أسارىهما ، وتذكرا ما بهما من جوع وأجلس ميلينت الاطفال الثلاثة على الدكة ، وقال : « كلوا ما شتم يا أولادى .. كلوا حتى تمتلئ بطونكم .. لا تتمازكوا ، ولا تأتوا بضوء ، لأن أمكم قد ماتت .. أنت كبيرهم يا با فيلوس ، فانظر حتى لا يفور الحساء .. » أما أنا فذهاب لاستدعى جارة لتغسلها ..

قفز العقيد شيفانسكر من الفراش ، ولبس جلبابه ، واتعل شيشيه ، ثم خرج مسرعاً حاسر الرأس كما كان .. وكانت الشمس التى أشرفت توما تسطع فى عينيه ، ولهذا لم ير بوضوح أول الأمر ، وقد نهض ساعته من النوم ، جماعة الفلاحين الذين ملأوا الفناء فى شغب .. وهتف خبط عشواء ، « ماذا بكم ؟ .. لقد أيقظتموني من نومي ، ودفعتم بي إلى هنا وأنا فى سراويلي .. » .

وانفجر الذين وقفوا قربه ، وسمعوا كلماته ، ضاحكين .. أما البقية فقد اشتد صخبها .. وما لبث أن أدرك أن كثيرين منهم قد جاءوا حاملين المذارى والفئوس والمجارف استعداداً للقتال — وكان العقيد قد احتفظ بروح الإقدام فى مواجهة الخطر من أيام الخدمة العسكرية .. وهو ما كان يخشى أن تأتى الثورة فتبغته إلا بسبب الفتيات ، وكان يحبهن حبه لإنسان عينه ، فقد خاف أن ينتهك هؤلاء الأوغاد عرضهن ، ومن ثم يحطموا منهن بقية حياتهن .. أما الآن ، فقد أحس أنه فى بيئته ، فلم يتأثر بصراخ الفلاحين ، بل صاح فيهم مرة أخرى صيحة عالية ، سمعها القوم جميعاً : « اصفوا إلى .. كفى هذا الهرج والمرج إن كنتم تريدون أن تسمعوا بعضكم بعضاً .. » . والآن ما خطبكم ؟ .. وأنا أراكم قد جئتم مسلحين — مائة منكم أو أكثر — وأنا وحدى بمفردى .. ما الأمر ؟ .. ماذا تريدون مني ؟

وكان الفلاحون قد استكانوا إلى الهدوء لحظات قليلة ، فهبوا الآن في صخب
بحنون ، وإليك عنا !! نحن لا نريد أن نعقد معك أى اتفاقات ! ... ارحل عن
الضيعة ، ههـ ضيعتنا ، أيها العقيد ... انظروا لإيـه كيف يقف هناك — غراب
النحس هـذا العجوز ! ... سنزل عليك ضرباً ! فلطالما غششتنا وهريت
جلودنا ! ... الأرض ! — الأرض ! — مجهودنا وتعبتنا ! ... أرضنا

وظل الشيخ ستيغمانسكو ينظر ويصغى إليهم بلطف وأنس ، كأنما كانوا
يزجون إليه التهانى .. فلما خف الضجيج ، استطرد قائلاً : كيف أستطيع أن أفهمكم
إن كان مائة منكم يتكلمون في نفس واحد ؟ .. .

وانقضت ربع ساعة في جلبة ، ثم انتخب القوم رجلين يتحدثان عنهم .
وأوماً العقيد راضياً .

« أحسبتم صنعاً يا أولاد ! .. أنا أعرف الآن مع من أتكم .. هيا يا أيون
أم تراك تريد أن تتكلم يا .. ما اسمك — فأنا لا أتذكر . »

فأجاب الفلاح مزهوا : « أنا ستيغان كاليجان ياسيدى ! » .

فصاح ستيغانسكو مرحاً : « حسن .. باركك الله ، فقد نسيت اسمك يا فانيستا
والآن هات ماعندك يا فانيستا . »

وتسأل كاليجان غموراً : « ماذا نقول ياسيدى ؟ .. ألا تعرف أنت أن
الثورة قد جاءت ؟ » .

« أرى أنها قد جاءت .. ولكنى لا أدري ما علاقة الثورة بي ، أما بالنسبة لى . »

فصاح الفلاح الثانى فى غلظة : « أنت تعرف ما تريد .. لا تدع عدم المعرفة
وسواء كنت تعرف أولا تعرف ، فنحن نريد العزبة ، لقد كنت سيداً عليها أمدأ
طويلاً ، والآن جاء دورنا ! .. وأنت إذا أعطيتها لنا ، فخيراً وبركة .. أما إذا
لم تعطها فسنأخذها على كل حال ! » .

قال العقيد وهو يأنى بحركة يديه كأنما يدفع الشيطان عنه . « خذوها إذن

يا أولادى! .. أنظفون أنفها عذيتى ؟ .. اغرسوا فيها محاربتكم ، وليبارك الله لكم فيها . هذا كل ما يعيننى من الأمر ! ..

فرد الفلاح : « أنت فقط تقول هذا الآن لأنك خائف منا ، أما فى الغد فستسمى كل ماقلت .. إنك لا يمكن أن تغشنا بعد الآن بآسادة العقيد ! .. لقد تركناك تحظى بالخبرات طويلا ! .. أما الآن فى مقدورك أن تحزم متاعك وتذهب عنا فنحن لن نسمع لك ، ولا لى مالك آخر ، أن يضع قدمه فى أرضنا .. هذا قول صراح ! .. »

وتساءل الشيخ فى بساطة : « وإلى أين أذهب أنا يا أيون ؟ .. »
وأجاب أيون : « عد من حيث جئت يا حضرة العقيد ! .. نحن لم نأت بك إلى هنا ، ولم نطلب إليك أن تأتى هنا أيضا ، .. ! »

واعترض الملتزم : « خبرونى بربكم ، كيف يمكنه أن أرحل هكذا ؟ .. »
كيف أنزك ما كسبت ؟ .. أهدأ شىء يمكن بحقك يا أيون ؟ ..

« نعم ممكن ، لقد كسبت ما كسبت من كدنا وعرقنا ! .. »

« أجبت أنا إليكم عاريا كما تروننى الآن ؟ .. »

فأجاب الفلاح دون تأثر : « لا تضع وقتك .. احمد الله أننا لم نشتمك أو نضربك كما فعل غيرنا بأمثالك من الملاك ! ... أم أنت لم تسمع بهذا ياترى ؟ اذهب وأنت صحيح معافى ، فربما نلتقى ثانية حين يصبح للخنازير أجنحة يطيرون بها ! .. »

ولكن العقيد أبى أن يعامل هذه المعاملة .. التمس ذريعة ، بل ومضى إلى حد أن اقترح عليهم أن يسمحوا له بالانضمام إلى الثورة ، لإنقاذ لرأس المال الذى استغله فى الضيقة ، وكان يبلغ على وجه التقريب باثثة البنات ... واستمع إليه الفلاحون ، بل وضحكوا من بعض السكات التى أطلقها ، ولكنهم وجدوا جوابا لكل شىء تقريبا ، فإذا أوعزتهم الحجة عادوا يكررون فى عناد أن هذا كان

كدهم ، وأن الثورة لاتسمح للبلاك بأن يقحموا أنفسهم في شئونهم .

قال كاليبجان : « اطمئن ، نحن ستعالج أمورنا بأنفسنا ... الشعب مع الشعب ، والملاك مع الملاك ... أما أنت فاذهب إلى المدينة ، فهناك يوجد الملاك أمثالك ، وهناك تجد مكانك ! » .

وطلبوا إليه أولا أن يمضى لشأنه ، على ألا يأخذ معه أكثر مما يستطيع حمله في ربطة على ظهره ... ولكنهم سمحوا له أخيرا أن يرحل في عربته ، وأن يأخذ كل ما يستطيع أن يضعه فيها ... وأخذ العقيد يعطس ، بعد أن وقف طويلا عارى الرأس ، في هواء الصباح البارد .

« ها ! ... لم يكن ينقصنى إلا أن أصاب بالبرد ! » .

فنهف واحد منهم : « وما رأيك في أولئك الذين ضربوا ، أو نالهم ما هو أسوأ من الضرب ماذا يقول هؤلاء ؟ » .

فصاح العقيد في مرارة : « لقد أنزلتم في ما فيه الكفاية من الأذى ، حين رميتم في إلى الشارع وأنا على الوفاض ؟ ... أنا رجل عجوز ، عندى من البنات ثلاث في سن الزواج ! » .



شرع بيتر ، منذ ساعات الصباح الأولى ، في إصلاح البوابة المؤدية إلى الطريق ، وهى بوابة لم يبق فيها إلا عمودان ... ولم تكن هذه بالمهمة الملحة ، فقد قامت البوابة هكذا منذ توفى أبوه قبل عام ونصف العام ، وكان من الممكن أن تظل زمنا أطول من ذلك .. ولكن بيتر كان يحس بالحاجة إلى الاستغراق في شيء ، بدلا من المضي مع الغير حيثما كان ..

وكان « منذ أن عاد من ليسبىزى ، » شغول البال موجه الفؤاد .. ولقد علت أمه من الجيران ، والزعب يملأ نفسه ، بالأحداث التي وقعت . ولكنه أبى أن يخبرها بنفسه عن شيء .. وعندما أخبرته أن الناس يلقون عليه تبعة المتاعب كلها ،

انفجر غضبا ، وقال إن من يتهمونه بهذا كاذبون ، والله شاهد على أنه بريء من كل ذنب .

والواقع أن هذا ما كان يردده لنفسه ، ولكنه رغم ذلك لم يستطع أن يحمّد تأنيب ضميره له . . . ولقد ندم على أنه لم يحكّم من البداية على أمور أسرته وحدها ، بدلا من أن يتورط في حركة شراء الضيعة ، وفي موضوع توزيع الأرض الآن . ولقد كان الأشراف في غاية اللطف معه ، فضلا عن جريجور ، فهو لو كان أباه ، لما فعل له أكثر مما فعل . . . وهو ، جزاء هذا ، رد الجليل إلى السيدة نادينا ، هكذا ، لأنها أساءت إليه عندما رفضت بيع باباروجا . ولقد شعر دون الناس جميعا بإهانتها ، أما غيره فقد تحملوا الأمر في هدوء — ولقد عقد عزمه منذ الشتاء الماضي ، حين ذهبوا إلى بوغارست ، أن يردلها الإهانة بدوره . . . وكان منذ ذلك الحين لا تشغل باله غير هذه الفكرة ، فلما ازداد الهياج بالناس سر وابتهج ، إذ تيسر له أن يفتش بذلك عن مشاعره . . . ولم يكن قد عقد نيته من قبل على ما يكون عليه انتقامه منها ، كما قد فعل الشاب دراجوس وشريلابون ، ولكنه اكتفى بأن أخذ يعيد لنفسه بأنه سيترك الأمر رهن الظروف حين يأتي الأوان . . . والظاهر أنه ، في ليسيزي ، قد فقد الرشد فجأة . . . فقد اندفع إلى داخل البيت ، بقصد أن يقتلها شقا ، ولكنه ما كاد يقف أمامها حتى أدرك أنه يؤثر قتل نفسه على قتلها . ثم قتلها تودر ستريمبو رغم ذلك . . . ولقد خطر له أن يحول بين تودر والدخول ؛ ولكنه لم يقدم على ذلك ، فقد أحس بالحجل أمام الناس ؛ فربما اتهموه بأنه يأخذ جانب السيدة — لسبب غامض غير مفهوم . . . والحق أنه رغب ، والناس قد أخذوا في نهب البيت ، في أن يقتل تودر ستريمبو على فعلته لولا إحساسه بالحجل ، الذي صد نفسه عما أرادت . . . وعاد من ليسيزي وحده ، تاركا الآخرين جميعا يتفرجون على الحريق . . . بل إن ماتي دولمانو تكدر لقتلها — ولم يجرؤ يتر أن يعترف ، حتى بينه وبين نفسه ، لماذا ضاق لمقتلها كل هذا الضيق ؟ . . . كان كل همه أن يكرر لنفسه المرة بعد المرة ألا ذنب عليه ولا جريرة ، فالأمر قد وقع غضبا عنه ، وألا يد له فيه . . . ورفض أن يترك داره ، مهما وقع من أحداث ولو ترتب على ذلك أن يحرم هو وحده من الأرض ، دون أهل القرية جميعا . . . ولقد رأى السيدة فيما يرى النائم ليلة الأمس . . . ولقد ضمها بين ذراعيه ، ولكنها

لم تصرخ فيه ، بل لاطفته قائلة : « لماذا تركتهم يقتلونى ؟ » واستيقظ وصورتها الغائب مازال يرن فى أذنيه .

وهو الآن يقطع الحشب ، ويدق فيه ، ساخطا ؛ لأنه أراد أن يتنامى ذكرياته أو يتدها وأدا .. ولكن على قدر ما بذل من جهد ، فقد ظل يشعر بالوعدة والضى .

— ٢ —

عم الهياج جميع أرجاء آمارا مدى ساعتين عقب شروق الشمس كأنما البلد كلها قد اتخذت أهبها للتحرك ، شأنها شأن قافلة قد توقفت طويلا فى مكان واحد .

وكانت الأخبار والشائعات كلها تلتقى فى الساحة أمام الحان ، وكانت من الكثرة والتبوع بحيث أخذ الناس يتوقعون باستمرار سماع حدث جديد ، أشد غرابة من سابقاته ، وهى أحداث ما لبثت أن بدت وقائع يومية مألوقة .

وكان بعضهم ، بين الفينة والفينة ، يذكر الشريف ميرون بنظرة متسائلة .. وأراد آخرون أن يغيروا الموضوع ، كأنما كان السؤال يبعث الذعر فى نفوسهم ، أو كأنما هم لا يريدون أن يفهموا .. بل إن غوغو تريفون نفسه ، وهو الذى يج صوته من كثرة مباهاته بالمركة التى نشبت مع رجال الشرطة ، وكان يعتبرها انتصارا ذاتيا له ، اقتصر على المهمة وعلى هز كتفيه .

ولكن حوالى الظهر ، ظهر أنطون المخبول لجأة على الطريق ، وقد تصبب عرقا ، وكان قدرا ، وأكثر رثانة مما كان عندما خلفهم قبل ذلك بأيام ؛ بيد أن وجهه كان بفيض كبرياء ، كأنما قد تجمعت فى شخصه فرحة الدنيا كلها .. وأخذ يحكى لهم من فوره أنه لم يعد ثمة أثر لآى مالك من ملاك الأرض ، فيما بين روزبورا والإسكندرية ، حيث كان يحوس هناك مؤخرا .. ولقد تهدمت المنازل كلها حرقا . ولم يعد ثمة أثر يدل على مواقعها .. ووصف لهم كيف أن الناس ، صغارا وكبارا ، قد تجمعوا فى القرى ، وتجهزوا بالسلاح ، ووقفوا مستعدين حتى لا يرحم ملاك الأرض ، فيحولوا بينهم وبين توزيع الأرض . بل إن منهم من أراد أن يذهب إلى بوخارست ، لينقذوا الملك من حيث سيجه الاشراف فالأشراف

هم الذين حالوا دونه وإرسال نداء إلى الشعب يعلن فيه استحسانه لطرد الأشراف ويدعوهم إلى الإسراع إلى تقسيم الأرض قسمة عادلة ، وألا يتمهلوا في توزيع الضياع على الفقراء بالعدل والقسطاس .

وسخر الفلاحون من المجنون ، فقد ألفوا نبواته ، بل إن بعضهم سأله كيف واثاه الحظ فلم يعتبره القوم شريفا من الأشراف ، فيقطعوا قطعة من لسانه ، حتى يخلصوا العالم من هرائه .. ولأذهم مشغولون هكذا ، ظبر ماران فيلشو ، وهو رجل موثوق به من ليزفورو .. كان يحمل ولده الذي كان على عتبة الموت في عربته (السكارو) إلى كوستنسى لرؤية الطبيب .. وتوقف الرجل بالخان اينال قسطا من الراحة ، وليطعم الجياد ، فقد عانت من شتاء قاس دون علف ، وكانت لا تتمكن من الوقوف إلا بمشقة . قال ماران إنه سمع ليلة الأمس أن الملك قد عزل الأشراف الذين تولوا مقاليد البلاد حتى الآن ، لأنهم لم يسلكوا مسلكا حميدا حيال الناس ، ولأنهم رفضوا إعطاءهم الأرض ؛ وأنه قد عهد بالحكم إلى آخرين وعدوا بأنهم لن يسمحوا للملاك بأن يضعوا أقدامهم في القرى ، وأنهم سيوزعون الضياع كلها بين الناس ، ومن ثم يتاح اسكل إنسان أن يزرع رقعة من الأرض ويتمدها بالرى والسقيا .

ولكن الأشراف الذين عزلهم الملك توصلوا إلى تفاهم فيما بينهم ، وأبوا الرضوخ إلى أوامر الملك ، وانفقوا مع قواد الجيش على الفتك بالملك ، ثم الذهاب بالجيش والمدفعية لاسترجاع الضياع من الناس ، في تلك الأماكن التي استولوا عليها ، فيدقون أعناق الناس الذين ثاروا على أشرافهم .. وأراد الملك أن يتحاشى الأشراف المتطرفين عليه ، فأرسل خفية كل مالدیه من أتباع موالين له ليأمرؤا الفلاحين بطرد ما تبقى من الأشراف ، بحيث لا يتخلط أحد منهم بينهم ، ولينبههم عن السماح للأشراف باسترجاع الضياع ؛ وأن من يساعد الأشراف على هذا سينزل به عقاب صارم ، لأن هؤلاء الأشراف قد وطئوا أوامره تحت الأقدام .. أما أولئك الذين كانوا يقطنون على مقربة من بوغارست فيتحتم عليهم أن يهبوا ، وينطلقوا إلى العاصمة ، مؤازرة للملك ضد الأشراف ، لأنه يقف إلى جانب الشعب ، ويرغب في التعامل معهم معاملة عادلة؛ وهذا هو السبب الذي جعل الأشراف يقفون ضده

ولو أن أنطون قال لهم هذا كله ، لما كانوا يصدفونه ؛ أما ماران فيلشو فكان رجلا عاقلا مثنا .. ولم يكد الرجل يرحل في عربته حتى ظهر رجل آخر ، جاء من جوغاني ، فأخبرهم نفس الخبر تماما ، وكان قد سمعه من فم فلاح ، يمتطي جوادا وعلى صدره صليب من الفضة .. وتأيد الخبر بعد ذلك بقليل من رجل جاء من فايدى وكان قد تلقاه من موزاسينى .

وبدأ القلق يستبد بالناس .. وتخيلوا أنفسهم معاقين ، ومحرومين من الأرض ، لأنهم لم ينفذوا أوامر الملك — وصحيح أنهم لم يعرفوا بها ، ولكنهم الآن يعرفون .. وقال نفر : لابد لهم من الذهاب إلى الشريف الشيخ ، فيخبرونه بهذه التعليمات ؛ وبأن من واجبه أن يرحل عنهم ، لأنهم لا يريدون أن يعصب الملك عليهم جام غضبه .. وأضاف آخرون إن على كل إنسان أن يذهب إلى الشريف ، وأنه لا ينبغي للناس أن يتخلفوا محتبئين في بيوتهم وقت الشدة ، فإذا ما أقبل وقت المكافأة هرعوا زرافات ووحدا .. وقال نفر آخر إن فيليب إلبوزا ، زوج ابنة القس ، لم يتوار مثلا عن الذهاب إلى بيت الملازم كوزما ، وعن أن يحمل إلى بيته ثلاثة خازير تبلغ العجول حجما .

وهتف تريفون غوغو : « هيا بنا إلى ديوان القرية ! ولنسأل العمدة لماذا لم يخبرنا بهذا الأمر الذى جاء من الملك » .

وانطلقوا يصيحون بهتافات حماسية ، ليجمع الواحد منهم الآخر ، ولكنهم لم يجدوا غير الكاتب شيريتا ، وعاملا من مكتب الضرائب ؛ وكان خائفا متذللا ظنا منه أنهم قد جاءوا للفتك به ، لأنه كثيرا ماجاء إلى القرية ليجمع الضرائب في الشتاء الماضى .. أما شيريتا فقد تبادل الكلام مع الفلاحين ، فإذا بتودر سترمبو يصفه صغمة خفيفة ، وهذا أمر كان يتوق إليه من زمان طويل .

قال شيريتا دوميتريسكو متوعدا ، وقد جرحت مشاعره جرحا داما ! لقد ضربتني ياتودر ، ولن أنساها لك ! .. ما كان ينقصك غير هذا بعد جريمتك التى اقترفتها بالأمس ! لا بأس ، سنصفى حسابنا ، كن من هذا على يقين ! ..

فأجاب تودر مبسما : « قل لى ما الذى يعنى من ضربك .. أنت لست بأفضل

من خنزير قذر .. بل وسأضربك مرة أخرى إن لم تكف ! . .

أما أن يخاطب الكاتب هكذا أمام هذا الجمع الفقير فأمر جرحه جرحا كان أشد لإيلاما عما لو كان قد ضرب مرة أخرى . . وأمسك عن الكلام ، وأدار ظهره متعائيا . . والواقع أن الفلاح لم يعد يأبه له ، لأن العمدة برافيلا وصل في هذه اللحظة لاهثا ، شاحب الوجه من الخوف ، بعد أن سمع أن الفلاحين قد هجموا على ديوان القرية ! ماذا جرى لكم أيها الناس ؟ . . ألم يكفكم ما فعلتم بالاشراف ، أم تريدون الآن أن تحاربوا السلطات كذلك ؟ .. هل تملككم الجنون أم أنتم في طريقكم إليه ؟ . .

وهتف تريفون غوغو ، وكان يقف قبالة : « لماذا جئت أوامر الملك عنا يا حضرة العمدة ؟ . . »

ولما سمع برافيلا سبب هذه المتاعب كلها ، قال إنه لم يتلق أية أوامر من أى شخص منذ أول البارحة . بعد أن رحل الوالى ، كما أن البريد لم يصل ، وأن ثمة عطل بالهاتف منذ ذلك الحين ؛ وإنه إما أن الاسلاك قد قطعت ، وإما أنه قد حدث شيء آخر . . فطلب تريفون إلى العمدة في طهجه أمرة ، كأنما قد غدا زعيم القرية ، أن يرسل المنادى يستدعى الناس إلى ديوان القرية ، ثم يذهبون بعدئذ جميعاً إلى الشريف الشيخ .

قال برافيلا : « أنا لن أرسل مناديا ، ولن أذهب معك شخصيا وأنت قد فعلت كل شيء أردت فعله بدونى ، ولهذا فأنا لن أشارك فى أى شيء تفعله الآن ، ولن أقحم نفسى فيه . . . أما أنت فخلص نفسك من - . . وقعت فيه . . أنا العمدة ، ولا معنى أن أنصرف بمقتضى الإشاعات والحكايات الخرافية ! ،

فهب تريفون رافقا قبضته : « بل هذا فى وسعك ، ولئن لم تفعل فالنذب ذنبك ! . . فتسالم العمدة ، وقد استشاط غضبا : « أتتوعدنى بالضرب يا تريفون ؟ . . أتريد أن تصدر إلى أوامر ؟ . . هيا إذن ، اضربنى يا تريفون ! . . »

وهجم تريفون عليه ، وهو يسب ويلعن ، ولكن الفلاحين حالوا دونه . . .

وتبع ذلك اشتباك شديد بالأيدي ، زاد من حدته الصيحات والهتافات التي أسهم فيها كل منهم بنصيب . . . وحاولوا جميعا أن يقتعوا العمدة بأن يقف إلى جانبهم ، لا ضدهم ؛ لأن هذا أمر لا يليق ، بل مضرا إلى حد أن هددوه بالحرمان من أى نصيب من الأرض . . . وبقي أيون برافيلا دون حراك ، أولا بسبب كبريائه المهيضة إذ خاطبه هكذا نكرة مثل تريفون ؛ وثانيا لحوفه مما قد يقع لو أن الأمور عادت سيرتها الأولى ؛ وصرح بأنه يؤثر الحرمان من الأرض عن أن يداخ بالنعال . وصاح تريفون فجأة ، بلهجة متعالية : « أنت تعودت أن تسير فى ركاب الشريف ؛ أما نحن فنحتاج إلى عمدة يكون عوننا لنا ؛ ولا بد لك أن تدرك أن الأمور لا يمكن أن تجري كما كانت تجري ! . . »

فقال برافيلا هازئا : « ربما نصيبك الناس عمدة عليهم ! ! خيرا يفعلون ! . . »

واستشاط تريفون غضبا ، ودعا المبادين ، وطلب إليهم أن يذهبوا من بيت إلى بيت ، وأن يدعوا الناس إلى ديوان القرية . . . ورأى العمدة أن من الخير له أن يمسك عن الكلام بعد أن شهد أكثر الناس يقفون إلى جانب تريفون . . . ولم يصرح ، إلا بعد أن ذهب المتنادون ، بأنه كان فى وسعه إيقافهم لو شاء ، فقد كان هو وحده صاحب الحق فى إعطاء الأوامر هناك .

وبقي الفلاحون فى الساحة ينتظرون حضور الآخرين ، ويدبرون الخطة . ويصيحون ويتكلمون . . . وانتقلت عدوى الغضب من واحد إلى آخر ، فأخذ الكل يلعنون ، ويتميزون من الغيظ . . . كانوا يحثون بعضهم بعضا على عدم الخوف من أى رجل طالما أن الملك قد أعلن بنفسه أنه يؤازرهم ، ولأن الأشراف لن يجسروا على العودة إلى التسيكيل بهم . . . وقال البعض إنه حتى لو جاء الجنود ، أيا كان عددهم ، فلن يكون ثمة مبرر للخوف ، لأن الجنود هم كذلك من الفلاحين ، وهم لن يطلقوا النار على الشعب ؛ بل الأحرى أن تمتد العدوى إليهم ، فيطلقوا النار على الجانب الآخر ، وعندئذ سترى ماذا يفعل الأشراف . . . وجاء ذكر ميرون على ألسنة القوم مرة ومرة ومرة ، بل لعنه بعضهم ، وسمع الناس تودر سترميرو وهو يقول بصوت جهورى : « هو لص عريق ، وهو أس المتاعب كلها ! . . إنه هو سبب هذا الفقر الذى نعانى منه جميعا ، وهو الذى حرص الغير جميعا على اضطهادنا .

وقتلتا بجوعا ! . . انتظروا على حتى أضع يدي على عنقه ، وستروا حينئذ ما يحل به ، ابن الزانية ! . .

وخشى آخرون أن تضيق جهودهم سدى بسبب الشريف الشيخ ، فهو لن يتنازل عن ضيعته طواعية ، ثم من ذا الذي يأخذها منه غنوة ؟ .

وهتف بعض الفلاحين في غضب : « ولكن لماذا بالله نسأله رأيه ؟ . . أترأه يستمر في إصدار الأوامر لنا ؟ . ثم هل جاءت الثورة لتجعلننا نحن في خدمته ، أم هو في خدمتنا ؟ . »

« لا عليكم من هذا كله ! ! أنا أراهن على أن أسنانه تصطك الآن رعبا ! ! ما علينا إلا أن نعبس في وجهه ، ولن تروه إلا موليا الأدبار بأقصى سرعة ، على الرغم من كبر سنه ؛ ولن تستطيعوا اللحاق به ولو بكلاب الصيد ! ! » قالها شاب حليق نحيل ، فأنار عاصفة من الضحك والاستحسان .

واكتظ ديوان القرية والساحة بالناس زهاء ثلاث ساعات . . وعاد المنادون بعد أن طافوا بالقرية ، ولكن الناس ظلوا في أما كنهم ينتظرون كبار أهل القرية . أما تريفون فقد لبس ثوب الزعيم ، وخرج أكثر من مرة متسائلا : « ألم يأت لوكا تالابا بعد ؟ . . ألم يحضر الأب لوبو ، أو ماران ستان ، أو فيليب إليوزا إلى هنا بعد ؟ . »

وأخيرا وصلوا جميعا ، واحدا واحدا ، كأنما قد جهلوا سبب استدعائهم ، وكل منهم بدوره يتخلص من التورط في أي أمر .

وصاح تودر ستريمو : « ولكنكم ستندافعون بالمناكب عندما توزع الأرض ... نحن نعرفكم حق المعرفة ! . . لقد أردتم شراء باباروجانقدا ، وأشحتم بوجوهكم عنا نحن الفقراء المساكين اكانت الأرض حلوة إذ ذاك ؛ أما الآن وهي ستوزع فيما بيننا جميعا ، فأنتم لا تلهفون عليها ! . »

فأجاب ماران ستان في حيوية : « بل أنا متلف جدا يا تودر ، فقط أعطني بعضا منها ! . »

فجره ليوتى أوريسور : د لقد أخذت ماشئت من بيت الملتزم كوزما ،
أما الآن فأت لآتريد أن تكون لك علاقة بنا ؟ .

فأجاب ماران وهو كليم : د هل طلب أحد إلى شيئا يالليوتى؟ قل لي جربك ؟ .

فرد تودر : د هل طلب أحد إليك أن تذهب للساومة على باباروجا ؟ ..
ولكنك مع ذلك جريت وراها ولسانك يتدل ؟ .

واحتد النقاش ، وازداد الجمع هياجا . . لقد أحسوا أن الشيوخ يناوئونهم
لأنهم لا يريدون لفقراء الناس أن يملكوا الأرض . . وكلما ازدادوا ترددا ،
بدت فكرة العمل أبهج مخافة أن ينقلب الحال فترى ، عندما توزع الأرض ، أن
من عنده يعطى فيزداد ، ومن ليس عنده ينحى جانبا ، كما كان سيكون عليه الحال
لو تم شراء باباروجا . . وتطابرت الألفاظ غليظة متوعدة ، وكثرت الشتائم
وازدادت عددا ؛ وأغضب الكلام لوكا تالابا ، فقال إنه ليس بخادم أحد حتى
يخاطبوه هكذا . . . واغتاض فيليب إليوزا ، وأراد أن ينصرف إلى بيته . . .
ولكن أحدهم مالبث أن أشار إلى خنازير الملتزم ، وانتهى الأمر إلى التشابك
بلايدي . . وحاول فيليب أن يفسح لنفسه مكانا يمرق منه ، وكأنما قد أطلق هو
عنان غضبهم ، فإذا بوابل من الصفعات تنزل عليه من كل جانب ، ولم تتوقف
إلا عندما هتف لوكا ، وقد احتاجت نفسه أيضا ، قائلا : د أدعوتونا إلى هنا
لتوسعونا ضربا ؟ أهذا مسلك حميد منكم ؟ .

فرد تريغون غوغو ، وهو يكشف عن أسنانه : د نعم ياعم لوكا ، من لا يفهم
حلو الكلام ، لا بد له أن يفهم الصفعات !! .

قال روزو يخاطب تيتو هيرديليا ، وهما يخترقان تل ميتروبول : د أنا لم أضع
قدمي في مجلس الثواب طوال ثلاث سنوات ، أما اليوم فأنا أدفع ثمننا لندهاي إلى
هناك . . . وأخذ يتوقف من آن إلى آن ليلتقط أنفاسه ، فقد كان يعاني من السعال
قليلا وقال : د لا بد لي من مشاهدة الأحداث عن كعب ، فهي أحداث غير عادية

أترك تعرف المحور الذى تدور عليه القضية فى واقع الأمر ؟ أنا أنا ساجر مملك ، وكى أنال منك ، ترائى أدفع من هنا ... من قة هذا التل ... التل الذى تسلقته بعون الله - أقول ترائى أدفع من هنا صخرة عاتية ، فتجرى وتتدرج ، وهى تذرب بسحق كل شىء فى طريقها ، وتجرف بيتك وبيوت غيرك من الناس ، فيشتد بك الذعر والأسى ... وإذا بك ، وأنت ترى ما أنا عليه من شدة الغضب ، تهرع إلى قائلا : « تعال نصلحك ! » فأصبح أنا ، أنا الساحر البارع ، أصبح بالصخرة أن تتوقف عن التدرج : « قنى أيتها الصخرة ، فقد تصالحنا ... ولم تعد بك حاجة إلى إيقاع الدمار » .

وكانت شرفة الصحافة مليئة اليوم بالناس ... وكذلك الشرفات الأخرى كلها وكان الجو أشبه ما يكون بليلة الافتتاح الكبرى فى المسرح ؛ وكانت دورة المجلس التى كان مقدرا لها أن تعقد الساعة الثالثة تبدأ عادة بعد الرابعة ؛ أما اليوم ، فقبل الثالثة بخمس عشرة دقيقة ، كان أعضاء الحكومة الجديدة هم وحدهم الذين تخلفوا عن الحضور ... ولم يتأت لروزو أن يحشر نفسه فى مقعد إلا بعد أن اصطنع مشاجرة ... وبقي يتنوى هيرديليا واقفا فى المؤخرة ... وكانت مقاعد النواب غاصة بالناس ، لأن أعضاء مجلس الشيوخ حضروا كذلك ليشهدوا الجلسة ... وكان الرعب ، أكثر من الجدد ، مرئسا على الوجوه كلها ...

وجاء ستان را كارو ، وهو رئيس تحرير صحيفة ناشئة مستقلة لاهى فى العير ولا فى النفير ، فقال فى صوت جهورى ، قاصرا بطبيعة الحال أن يسمعه أولئك الذين كانوا فى الشرفات المجاورة : « لو أن الحكومة الجديدة حكومة ديمقراطية حقا ولو كانت تحب الفلاحين كما كانت تفخر وهى فى صفوف المعارضة ، فى مقدورها أن تصدر قرارا يقضى بنزع ملكية الضياع ، أو هى تستطيع على الأقل أن تملن عن إزماعها لإصدار هذا القرار ، وأنا على يقين عندئذ من أن أولئك الناس الجالسين هناك ، وقلوبهم ترتد فرقا من الثورة ، سيصفقون لها فى جنون » .

قال محرر اليونيفرسول : « أنت تهزل يانيتشو ، ولكن ما تقوله فى الواقع هو الصدق بعينه ... » . ولقد تحدثت أنا مع نفر من النواب والشيوخ ، فقالوا لأنهم على استعداد لقبول أى إصلاح ، مهما كان جذريا ، حتى نزع الملكية ، لأنه

لا يوجد سبيل آخر أمامهم يتيح لهم العودة إلى الريف، حتى بعد زوال الاضطرابات .

فقال محضى عجوز ، وهو نائب سابق ، وكان صاحب لحية مهيبة : « الناس يقولون وعودا كثيرة ، ولكنهم سرعان ما ينسونها عندما يتلاشى الخطر ، وقوبلت هذه الملحة بعاصفة من الهجة ، سرها الرجل سرورا بالغا جعله يواصل الضحك حتى نهاية الجلسة رغم ما اعترى جيرانه من غيظ .

وجفاة هبت مهمة عامة ، فأنبأت بوصول الحكومة الجديدة . وافتتحت الجلسة . . وقف رئيس الوزراء ، وكان شيخا محدودب الظهر ، له صوت أشبه بصوت أرملة كتيبة ، فألقى خطبة عصماء ، أدخل في كل جملة منها : بلدنا الحبيب الصغير ، بلدنا الصغير الحبيب إلى نفوسنا ، « هذا البلد الصغير الذى تظللنا سماؤه وكان يتوقف بين الحين والحين ليسع خديه اللذين وخطهما الدمع ، واختتم الخطاب فأشار إلى « الفلاحين الضالين » وإلى « الإجراءات الصارمة » ومساندة كل روماني مخلص . ورد عليه سلفه ، وهو زعيم المعارضة الحالي ، وهى التى لها الأغلبية فى البرلمان — وكان فى مثل سنه ، ولكنه أكثر منه ادعاء ، فغمغم بعبارات مماثلة من « بلدنا الصغير الحبيب » وعندئذ ذهب رئيس الوزراء الجديد ، ومديده إلى سلفه الواقف على المنصة ، وقبل كل منهما الآخر على وجنتيه كتيهما . وصحب هذا المظهر الذى دل على الأخوة الوطنية ، عاصفة من التصفيق أطلقه النواب والشيوخ والجمهور الموجود فى الشرفات . . وقاض الدمع من عيون كثيرة ، واهتزت أقسى القلوب وأرتجت . . ولكن محرر الجريدة المستقلة الجالس فى شرفة الصحافة عجز عن كبح جماح نفسه ، وقال ، « لسوف تنزل هذه القبلات على ظهور الفلاحين . نارا حامية » .

كذلك لم يتمالك ماكس ستريسن ، محرر « جلاسول بوبورولى » العجوز ، نفسه من الغضب ، فهب قائلاً : « أنا لا أستطيع ياسيدى أن أسمح لك بتعكير هذه اللحظات الخالدة بكلامك السمج ، وهو كلام لا يليق إلا بصحافتك اليهودية » .

ولكن ستاف راكارو أجاب ببرود : أصغ إلى يارجل . لا موجب لهذه الفورة الوطنية . إن كل إنسان يدرك أن من الواجب عدم التحيز . . . وأنا لا

أخرى ما الذى يوغر صدرك من الصحافة اليهودية ، بينما أنت نفسك يهودى صرف عندما تكون فى بيتك .

وواصل ستريسن المهمة ساخطا ، وانهز فرصة موجه جديدة من التصفيق فرك شرفة الصحافة مستاء مغيظا . واستمرت مظاهر الحماض فى قاعة الجلسة فى أثناء ذلك ، يساندها الجمهور بشدة ، ذلك أن أعضاء الحكومة الجديدة ، بعد أن تعاقب الزعماء نزلوا يصالحون الوزراء القدامى وعلى القوم الآخرين ، وصحب كل عناق هتاف حاد وتصفيق متواصل . وبقدر ما كان الهتاف عاليا والتصفيق متواصلا كان هذان الاثنان اللذان عناق كل منهما الآخر الآن يسان بعضهما بعضا سبا غنيضا حتى الأمس القريب .

وفى هذا الجو المؤثر الذى اتسم بالوفام ، تمت الموافقة على مراسيم الحكومة الجديدة بين الهتاف والتصفيق . . وكان كل مرسوم ينص على استعادة الأمن ، ويهتم أساسا بالتفويض فى إعلان الأحكام العرفية فى حالة الاقتضاء .

وغغم ستان راكارو ، وقد أخذ خلانه يستملحون سخريته اللاذعة : هذا هو لب الموضوع أيها الأصدقاء . . من أجل من تدعون هذا المظهر الوطنى ؟ . . نحن على أية حال الأسىاد أصحاب الأمور والنهى .

وتبسم روزو ساخرا ، وكان حتى الآن لم ينيس بكلمة ثم التفت إلى هيرديليا ولكن الشاب كان قد اختفى عندما لمح يوجينيا أبونيسكو ، فخرج ليكون فى استقبالها . . لقد أراد أن يخبرها أن جريجور أيوجا قد أزمع السفر مع الوالى الجديد ، بالوينو إلى آرجس صباح الغد ، وأنه قد طلب إليه ملحا أن يصحبهما ، حتى لا يكون وحده فى أمارا حيث لا يعلم أحد إلا الله ما سوف يجد هناك . ورأى تيتو نفسه عاجزا عن الرفض ، رغم أن هذا لم يكن بالوقت الذى يتيج له أن يكون بمنأى عن الجريدة ، ولكن وقد ذهب من قبل بقصد المتعة ، فأحراه الآن أن يذهب ويقف بجانب أيوجا الشاب ، فربما كان ذا نفع بطريقة أو بأخرى .

كان جوجو قد جاء إلى الدور العلوى لىأتى يوجينيا قبل أن تنتهى الجلسة ، ووجد تيتو واقفا بمدخل الشرفة . واضطر الرجلان أن ينتظرا بضع دقائق ،

فاستغل جوجو الفرصة ليخبر صديقه الشاب بأن نائبا من بيتسى قد أخبره توأ بأن الأحداث قد اتخذت اتجاها خطيرا في جنوب أرجس، ولكن عليه ألا يقول شيئا عن هذا أمام يوجينيا، فحبسها ما عانت من قلق وضيق حتى الآن . . ومع ذلك فما من أحد يعرف شيئا على وجه اليقين بعد؛ لأن خطوط الهااتف قد قطعت قبل يومين من بيتسى حتى الشطر الأدنى من البلاد، ولكن قيل إن جرائم شتى قد اقترفت، بما فيها جرائم القتل .

وهذه جوجو : هكذا يا عزيزي هيرديليا، تستطيع أن تتصور نفسي الآن تصور نادينا بين الثوار سفاكي الدماء . . ترى ما الذي حدث لها — ربما استطاعت أن تهرب، أو ربما فلك بها الفلاحون . . ووالدى المسكين بعض أنامله أسى فهو ضيق الصدر لأنه لم يتمتع من السفر . ثم هو مريض، قد تقدم به العمر، وقد شغل جبا بنادينا . . . ولقي لاعتقد أنها ستكون نهايته لو وقع لها مكروه . . . وبعد فالأمر كله مأساة . . وإن شاء الله سوف تستقر الأحوال . وأما من جيتي لا أريد أن أسمع بعد شيئا عن الضياع أو الفلاحين، حتى لو امتد في العمر إلى مائة عام . أنا على تمام الاستعداد للتنازل عن ليسيزي تخلصا منها . . ولا أتمنى لآلد أعدائي أن يعاني ما عانيت أنا من آلام هذه الأيام الأخيرة .

ولقد تأثرت يوجينيا من المنظر العاطفي الذي وقع بالجلسة . . وأشارت على نيتو، وجوجو يؤيدها في كل حرف، ألا يذهب إلى الريف، فيقع له مكروه، مثل نادينا، وبخاصة لأن الجيش قد يضطر إلى إطلاق النار، ولا يدري أحد كم من الدماء ستراق إذ ذاك . . وأجاب هيرديليا مستسلا، شأنه شأن أحد الأبطال وهو يتطلى إلى حرب : آه يا سيدتي إنني عندئذ لن أكون خسارة كبيرة .

أوشكت الشمس أن تغيب، فانطلق القوم أخيرا صوب بيت أيوجا، صاحبين صارخين كأنما كانوا يذهبون إلى عرش . . . لقد عكرت هذه المشاجرة صفوهم، فأصبح كل واحد فيهم الآن ساخطا . . وجذب التضجيج الذي انبعث منهم انتباه الأطفال، فجروا يتطلعون إليهم .

وصاح تريفون غوغو . وكان على رأسهم ، عندما شهد بوزوك على عتبة الحان : « هيا يا عم كريستى ، تعالى معنا .. واعلم أن من لم يكن معنا ، فهو علينا ... ولا بد لنا أن نعرف فى أى جانب أنت ... »

فأجاب صاحب الحان فى خوف وعجلة : « أنا آت .. أنا آت يا أخ تريفون . كيف يمكن أن أتخلف عنكم ، والقرية كلها هناك ؟ ، ثم نادى على زوجته وأضاف : « تعالى وامكثى هنا ، لأنى ذاهب مع الناس » .

وتعالى صوت المرأة وهى تزجر من الداخل ، ولكن كريستى بوزوك اختلط بين الجمع ، وقد رسم على وجهه تعبيرا متألعا يليق بالمناسبة ... واطمأن بالا عندما لاحظ بعض زعماء القرية بين الملاحين ، بما فيهم العمدة برافيلا .

وصاح فيمن كانوا حوله : « هكذا ينبغي أن يكون الحال !! نحن لو وقفنا جميعا يدا واحدة فلن يغلبنا أحد ! » .

وعلم ميرون أيوجا باجتماع أهل القرية ، وبالا استعدادات التى يتخذونها حذره .. أما أزابيسكو ، وكان إلى يومه ذلك لم يرفع أنفه من دفاتره التى يدون بها حسابات الفلاحين ، فقد رأى ، وهو الكاتب البسيط ، أن الخلافات بين مالكة الأرض والقرويين لا تعنيه فى شئ ، فقد اتباه ذعر شديد عندما قال له بومبو المشرف ، بين الهزل والجد ، إنه هو الذى حظى بأ كبر قدر من كراهية الفلاحين ، لأنه عمل على أن يسجل فى دفاتره الديون التى عليهم ، وشروط الاتفاقات التى عقدها .. فكان منذ الصباح يهرع إلى سيده ، كلما ترامت إليه شائعة من الخدم أو من غار سبيل ، فيخبرها الشيخ ميرون ، مضيفا إليها على الدوام أن من رآه استغلال فرصة تردد الملاحين ، فيرحل عن آمارا وفى الوقت حذرع ، لأن المقاومة لا جدوى منها أمام هذه المشاعر المهتاجة الثائرة .. وأصغى ميرون أية جا ، ولكنه لم يلق بالا إلى نصائح كاتب حساباته . على أنه عندما سمع الكاتب لنفسه أن يلح فى الأمر ، أمره أن يلزم دفاتره ، لأنه فى غير حاجة لأن يعتمد منه النصيح

وأخيرا صاح أرباسيسكو يائسا ، وهو يذئف مسرعا إلى جناح الشيخ أوجان :
« الفلاحون آتون ياسيدى ميرون !! القرية كلها ياسيدى ..! هذا مريع ..
آء ياربى ، آء ياربى ، لماذا لم تستمع لى ؟ » .

فقال الشريف هادئا : « أمسك عن الكلام ، واحتفظ برباطة جأشك ..
دعم يأتون ..! ولعل من الخير أن يأتوا حتى نفرغ من هذه الأمور ..! » .

وقر عزم أرباسيسكو على أن يبقى على مقربة من الشريف ، وقال فى نفسه إن
ما يحدث للشريف يحدث له كذلك ، ثم إن الناس يحترمون الشريف ، وهم لهذا
أن يوقعوا أذى بكاتب حساباته ، ويتركوه فى حاله .

ونظر إلى الشيخ وهو يذرع الفرقة ، وبداه وراء ظهره ، ثم قال : « ماذا
توى أن تفعل ياسيدى ؟ .. أتراك لن تذهب للقاتم !! إنك لو لم تذهب
فيشيقون طريقهم إلى هنا قسرا ..! » .

واستمر ميرون أوجا يذرع الفرقة دون أن يرد بجواب ، بل أخذ يغمغم فى
نفسه على غير هدى .. والحق أنه ما عاد يدرى كيف يعالج هؤلاء الناس الذين
طرحوا جميع الحواجز التى تمثل السلطات فى مدى أيام قلائل ، فأحالوا أهل القرية
الوادعين إلى قطع بخون ، تدفعه الغرائز الهوجاء هنا وهناك فى مهب الرياح ..
« كان ما حدث فى الأيام الأخيرة من طرد الشرطة ، وإشعال الحرائق ، ومن
سلب وفجور ، ما هو إلا نتيجة حتمية لسلسلة من التراجع والتقهقر من جانب
السلطات ؛ هذا بالإضافة إلى عجز الإدارة ، وإفساد الأخلاق ، فنتيجة الوجود
الكاذبة التى يلقى بها الزعماء ، فيشجعون بادية ذى بدء على ظهور روح السخط
ونموها فى نفس الفلاح البسيط ، فينتهى به الأمر إلى الفوضى والاضطراب ..
لم يكن مناص لإذن من كبح جماح التوازع الفوضوية من بداية البداية ، وهى مدها
وحسبنا بعد ذلك أن نلجأ إلى وسائل الإقناع فى دأب .. أما وقد تأصلت هذه
التوازع الفوضوية ، فأخذت تظهر على سطح الأرض ، فليس ثمة سبيل إلى وقف
تيارها المدمر إلا بالقوة الناشئة .. وكان يدرك تمام الإدراك أنه الآن ، وهو
وحده ، عاجز عن الوقوف أمام الجماهير التى فقدت صوابها ؛ كذلك لم يكن يستطيع
أن ينكص عن أدائه واجبه ، ألا وهو الدفاع عن أرضه .. وكان مجرد وجوده

والاحترام الذى يكونونه لذاته ، حائلا ضد القوضى الشاملة . . فقد كان الفلاح يكن احتراماً فطرياً للشيخ القرية وزعمائها ، سيما أولئك الذين ظلوا سادة له على مدى الأجيال والحقب . . وطالما هو موجود فسيثورع الناس عن السلب والنهب . فهم قد أشعلوا النار فى روجينوزا لأنه لم يكن هناك . . على أنه بعد أن رأى الثيران تشتعل فى بيت كوزما يريونا أخذ يفكر بطبيعة الحال فيما إذا كان يجدر به أن ينسحب زمناً حتى تتدخل السلطات ، وتعيد هؤلاء المخابيل إلى صوابهم . . ثم أليس من الجنون أيضاً من جانبه أن يجابه جمرة الثافرين الذين طاشت عقولهم وليس معه سلاح غير الخوف والاستحياء اللذين يثيرهما وجوده شخصياً ؟ واللحظة التى ينهار فيها السد القائم على الهيبة ، أن يبدو وجوده سخرية لاذعة تقضى إلى مزيد من العنف والهياج . وهنا توقف عن التساؤل بفته . فقد بدت الأسئلة فى نظره من أولى علامات الجبن . . إن الجبن وحده هو الذى يلبس الحجج . ويتذرع بالاعتبارات تبرير لوجوده . . إن ما قدر يكون ، فى وقته المقدور .

وإذ هو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، أخذ يسمع الأصوات من الخارج قائلة : قد دنت اللحظة الحاسمة . . ووقف أن يأسسكو قرب النافذة ، يحلق منها فى رعب ، ويهتف هتافات تدل على الملح . وقال ميرون فى نفسه إن عليه أن يخرج للملاقاتهم ، ولكنه ظل يرجئ الخروج إليهم ، كأنما كانت كل لحظة تأخير تمضى فى صالحه .

وتزايد وقع الأقدام فى الخارج ، وتعالى الأصوات مدوية . . وانساب الجمع من الطريق إلى فناء البيت ، كما ينساب نهر غير مجراه بفته . واندفقوا إلى المعشى الذى عبر أخيراً ، ولكنهم حرصوا على ألا يطشوا الحشائش الرقيقة التى نبتت حديثاً على الحافة . . وتعالى صوت بين الفينة والفينة يقول زاجرا : ه ليا كم أيها القتيان والخطو على الحديث ، إنكم إذن لتبددون عملاً رائعاً ! . .

وخفت ضوضاء القوم الآن ، كأنما قد خجلوا من تهجمهم على حرمة البيت ، حيث كان قد حرم على الفلاحين الذهاب . . ولكن لما وصل تريفون غوغو إلى حوض الزهر وجد فى نفسه المرأة فأطلق صيحة طويلة عميقة من الاستنكار ، كأنما ليسبر غور شجاعته ، وليحطم تمويذة السحر التى تشد وثاقهم جميعاً .

أما معظم الذين ولجوا من المدخل الآخر ، عن طريق الفناء ، فكانوا أشد
جلبة . . . وتطير اليام في الهواء أمامهم ، وتفرقت أسراب الدجاج ، وهي تفوق
خائفة وجلبة . . . وخرج الخدم والعمال من الحظائر والمباني الخارجية ، وهم
يحملون بميون ملؤها العجب في القادمين من القرية ، ويتضاخكون ويهضبون
كأنما قد وصل الجمع بالطل والمزامير ابتهاجا بالعيد . . . وكان العجوز لإخيم هو
وحده الذى وقف مبهورا حائر القلب . . . أما بومبو المشرف فقد بدا مستسلما ، مرتعد
الأوصال ، وهو واقف قرب مدخل داره في مؤخرة البيت ؛ أما زوجه فكانت
ترتجف بالداخل ، وهي تحتلس النظر من وراء الستائر .

وتسادل المشرف في غيابه ، عندما وصل إليه أولئك الذين كانوا على رأس الجمع :
« أأتم جشم ؟ » « أأتم جشم ؟ »

ولما سمع أن هناك آخرين قد دخلوا عن طريق المعشى ، انطلق إلى هناك ،
كأنما قد استشاط غضبا ، فأراد أن يخلى المسكان منهم . . . وكان الفناء الداخلى ،
بين الفيلا والبيت القديم ، غاصا بالفلاحين . . . وألقى المشرف بكلمة رقيقة لبعض
الفلاحين ، ونصب نفسه أمام الأعمدة المقامة على « السدفة » ، كأنما أراد أن يحول
بين الناس والهجوم على سيده . . . ورسوم على وجهه ابتسامة ثابتة ، لإخفاء للخوف
الذى استبد به ، واكتفى باللعطف الجماهير .

وازداد المرح والمرح كلما تقاطر القرويون وجرحت بعض العبارات مشاعر
المشرف ، حين أتيح له أن يدرك مرماها ، فقال في سذاجة : « ماذا حدث أيها
الفتيان ؟ ماذا تريدون ؟ » قولوا لى لأنى

وردوا عليه مستهزئين ، ومانت كلماته في غمرة صيحات الاستكثار . . . وارتبك
بومبو ، وصاح لوبو شيريتو ، وقد دفعه القوم إلى الامام : « اذهب ياربجل ،
اذهب وقل للشريف أن يخرج إلينا . القرية كلها هاهنا ! » .

وغنم بومبو ، وقد عاد إليه رشده ، فأسرع إلى داخل البيت : « أنا ذاهب . . .
أنا ذاهب ! »

وطرق باب الشيخ ميرون ، ودخل دون أن ينتظر إذنا بالثول وقال :

« معذرة ياسيدى ، فقد جاء أهل القرية جميعا !! » .

والتفت ميرون أبوجا ، كأنما أدهشه النبأ ، رغم أنه قد سمع مهمة الناس المتعالية قبل ذلك بدقيقتين .. ورتا يبصره فى عيني المشرف ، وقال : « حسن يا ليوتى ... لنذهب ونر ماذا يريدون ! » .

وتناول « الطاقية » الصغيرة التى تعود أن يلبسها فى الفناء ، فوضعها على رأسه بإحكام ، واتجه إلى الباب .. وأمسك به بومبو ، وتناول سترة من الجلد الموشى بالفر من فوق مشجبه ، ورفعا إليه ليلبسها ، قائلا فى ذلة : « الجو رطب ياسيدى ، وربما أصابك برد لو .. » .

وزجر ميرون متطيرا . « لماذا أمسكت فى ؟ .. » ولكنه استدأر إليه مع ذلك ، وشد السترة فى عناية ، كأنما قد أزمع السفر فى رحلة طويلة .

واستمر أزاباسيسكو واقفا كالنثال أمام النافذة ، بل ولم يأت بحركة عندما دخل المشرف .. ولما رأى الاستعدادات التى اتخذها الشريف . هبط عليه إلهام بالبقاء حيث كان ، استعدادا لأى طارىء كأنما ما كان .. لماذا يعرض نفسه للخطر دون جدوى ؟ .. لأنه على أية حال رجل فقير ، وضعته المقادير فى موضع يدعو للأسى ، ومن شأنه أن يمته أناس يعانون من الفقر والاضطهاد مثله يماضى .. ولما سأله ليوتى بومبو هامسا ، من وراء ظهر مهرون ، « ألن تأقى معنا ؟ » أجاب فى نفس البرات : « لا ! » .

وتوقفت الأصوات كلها عندما ظهر الشريف الشيخ على « السدفة » فجأة ... وارتفعت بعض القبعات والطواق تلقائيا .. ووقف الشيخ على حافة « السدفة » ، على استواء مع الناس .. ولحظ بنظرة واحدة أن جماهير الملاحين قد أحاطوا بالبيت من جميع الجهات ، وانتشروا حتى القبلا ، وملثوا ساحة الحدم .. وكانت الشمس قد أفلت وراء الأكواخ ، فألقت « بالسدفة » فى الظل ، ورمت بوهج دموى على مئات الوجوه التى تجهمت غابسة فى الضوء القوى .

قال ميرون هادئا ، وهو يتفحص الوجوه كأنما أراد أن يتبين من كان غائبا

« أرى أن القرية كلها هنا ، بما فيها الكلاب والختاير أيضا ! » .

« سيدنا ! » هفت بها عدة أصوات متردة ، وتبين الشيخ أيوجا من بينها صوت لإجنات سيرسل ، بل وخيل إليه أنه لمح وجهه الشاكي بين الجميع دون ما تحديد ، ولكن الأمر لم يعبه كثيرا — فالوجه لم يكن إلا ومضة في خاطره لا أكثر .

وعم الصمت وهلة ، بدت لانهاية لها بالنسبة لهم جميعا . . ومالبث ميرون أيوجا أن صاح آسرا : « من ذا الذي دعاكم هنا ففسدوا أحواض الزهر وشرعات الزرع والممرات التي عملت فيها جاهدا أنا والناس ؟ . . من أذن لكم بهذا ؟ لم تنتظروا في الساحة الخارجية ؟ أتراها لم تعد مناسبة لكم الآن ؟ . . لقد أصبحتم جماعة من الأشراف منذ بدأتم هذه الموبيقات اللعينة ! ! » .

وغلى غضبه إذ أخذ يسترسل في الكلام ، ولم يعد قادرا على أن يكبح جماح نفسه ، رغم إدراكه أنه قد اشتط إلى مدى بعيد ، وأنى تماما بمكس النتيجة التي كان يريد . . وقاطعه صوت في وقاحة :

« هل جئنا نحن لتطردنا أنت ، أم لتطردك نحن ؟ » .

وتردد ميرون طرفة عين ، ولم يدر هل يعقب على هذه الملحوظة أم لا يعقب ، وما لبث أن واصل الكلام باللهجة نفسها : « هذا التظاهر بمظهر الأشراف لا ينطلي على أيها الفتيان ! . أنا أعمل مثلكم ، وأعمل معكم ، ونستطيع أن نتبادل الرأي في الأمور هناك كالعهد بنا دائما ؛ ولكن ليس هنا . فهذا المكان مكان الفراغ من العمل . . ولكنه لا بأس ، والآن وقد جئتم ، فأسمعوني ما يضايقكم » .

وتقدم تريفون غوغو إلى الأمام في سلاطة ، وطاقيته على مؤخرة رأسه ، وقال :

« لقد راح هذا انزمن يا سيدنا . . ألم تسمع بأوامر الملك ، أم تراك لا تريد أن تسمع بها ؟ » .

وبدل الشيخ بمجهود أخارق ، فرد نفسه عن إجابته بلطمة يلقها على وجهه . . كان يعرف في تريفون للكسل والشر ، فهو أحد أولئك الفلاحين الذين لا يتدفى

هو حتى إلى مخاطبتهم . . . وكأنما لم يصل إلى سمعه ما قال تريفون ، فاستدار يراأسه إلى الآخرين متسائلا عن الأوامر التي أشاروا إليها . . . والواقع أن أزابيسكو قد أخبره بها بالأمس ، ولكنه رأى من الفطنة أن يتظاهر بالجهل بها . . . وأسرت طائفة من القوم المذهبين تشرح الخبر ، وكيف علوا به . . . واستمع الشريف في هدوء ، وأخذ يتأهب للكلام ؛ بيد أن تريفون عاد يقاطعه في غلظة ؛ فقد أغضبه أن ميرون لم يسأله هو عن النبأ ، قائلا : « مهلا ياسيدنا . أنا لم أشرح لك ، فهم أغبياء و . . . »

« أنا لا أخاطب السفهاء قليل الحياء » قالها الشيخ ميرون وهو يتفحصه من أعلى إلى أسفل باشمئزاز ، وواصل الكلام مع الآخرين قائلا : « هيا يا بروفير ، تقول . . . »

وشعر ميرون أبوجا بالدماء تتصاعد إلى وجهه ، وهو يستمع إلى الإيضاحات المضطربة . . . لقد أغضبه جسارة تريفون ، ومع ذلك فقد حاول جاهدا أن يتمالك نفسه . لأنه أدرك أن الوغد يسمى عامدا لاستفزازه ، ومن ثم لتشجيع الآخرين . . . أما تريفون غوغو فقد أحس بالضجة لأن الشريف لم يسمح له بالكلام . رغم أنه هو الذي بذل الجهد الأكبر في تجميع الناس ، والمجى بهم إليه وامتلات نفس تريفون سخطا ، سيجا وقد رأى الكثيرين يساندونه ، مغغمين أن ليس من حق الشريف أن يهتزه ، وألا يسمح له بالكلام .

ولم يستطع الشيخ أبوجا أخيرا أن يستمر في الاستماع إلى تهمة الملاحين عن أوامر الملك ، فقاتلهم بحركة من يديه وواجه الناس الذين أخذوا في الصياح .

« كيف سمحتم لأنفكم بأولادى أن تغربكم الحكايات الخرافية ؟ وكيف سمحتم لأنفسكم أن تهجموا على البيت . وأن تدوسوا على حديقتي وتخربوها ؟ . . . أنظنون أنها انقوم الكبار العقلاء ، أنكم تخيفوننى إذ تأتون هنا وقد اختلط حابلكم بنا بلسكم ؟ ! أخرى بكم أن تهجلوا من أنفسكم ؟ . . . سيجا أولئك الذين تعودوا فيكم أن يسلكوا مسلك الأدب . والذين كنت أكن لهم الاحترام ! . . . أرايتم إنى عمدة القرية ! . . . رجل لطيف والحق يقال ! ! . . . إنه بدلا من يمدى من سورة هؤلاء المجانين ! الذين طاشت عقولهم . نراه يشاركم في الثورة . . . تبأ له من عمدة ! ! . . . »

قال برافيللا ، وهو ينحنى فى ذلة : « ساحنى ياسيدى ، ماحيلتنا والقرية قد جرفتنا معها ؟ » .

واستطرد ميرون ، وقد استبد به الحاس شيئا فشيئا : « وأنت يالوكا ، وأنت يالويو ، رجل عجوز مثلك ، قد ابيض شعر رأسه شيئا . وهو أكبر منى سنا ، ينضم إلى جماعة المعتوهين أمثال تريفون ؟ » .

وأدرك ، وقد مضى فى الكلام ، أنه قد فقد صوابه ، ولكنه عجز عن أن يملك زمام نفسه ، مثله مثل عداء انطلى خطأ فى طريق وعر ، فاندفع غضبا إلى أسفل ، رغم عرفانه أنه يقترب من هاوية . . . على أن الأثر الذى تخلف عن زجره لم شجعه على الاسترسال . . . وازداد الفلاحون صمتا وصوته ينال عليهم فى قسوة عاتية . . . والظاهر أن الرهبة والذلة اللتين تعودوا عليهما قد عادتا إليهم بشفة ، فأطرفوا برءوسهم ، وغضفوا بمعاذير مقتضبة .

ونزلت كلمات الشيخ ميرون على رموس الجمع المبهور متوعة كسوط فى يد مروض أسود ، على استعداد لأن يغير اتجاهه فى أية لحظة ، وشعر تريفون غوغو بحمسه يتلوى كما لو كان فى قبضة من حديد ، فانفجر فى نبرات محتقة : « مهلا لحظة ياسيدى ، نحن لم نقم بالثورة هوا ولعبا . . . »

واختلطت كلماته فى الهواء وتلاحت مع صوت الشيخ ميرون أيوجا . . . واحتبس الكلام فى فم الشيخ دهشة ، ولكنه مالبث أن استرسل فى غضب متزايد كان يهدد بالقضاء على كل عقبة تقف فى سبيله : « اخرس أنت ياوغد . . . اخرس يا حرامى . . . اخرس . . . اخرس . . . »

وجعلت عيناه من رأسه ، وخرج الزبد من أركان فمه ، وهجم على تريفون غوغو ، وهو يهز قبضته . . . وتردد الفلاح وهلة ، ولكنه قابل نظرة ميرون أيوجا بيسمة سليطة ، فلما لم يكف الشيخ عن قول « اخرس » ، رغم أنه لم يتمكن بالكاد من التنفس تبعا لإرهاقا ، هتف تريفون بصوت عميق مقمع بالاحتقار . . . « لماذا تريدنى أن أخرس ؟ . . . أنا لا أريد أن أخرس . . . أريد أن تاتى إلى بأوامرك ! . . . هل أنا خادم عندك ؟ » .

وأحسن ميرون أيوجا ، وقد أعماه الغضب ، بكل كلمة تصفع وجهه صفعات قوية جعلت أذانه تدوى .. واستمر ، وهو مازال طائر اللب .. أخرس .. أخرج من بيتي فوراً .. أخرج يا وعد .. أخرج يا حراى وإلا ...

وأجاب تريفون غوغو بغضب وسلاطة أشد من ذى قبل ، وقد باعد بين ساقيه ليثبت أقدامه فى الأرض : «لست بخارج ، فأراك .. وأنا لست أشعر بميل إلى الخروج ! .. ثم إنه لم يعد بيتك بعد ، وأنا أفضل أن أبقى هنا كاترى ..»

« ألا تريد أن تذهب من بيتى ؟ .. أنت تقف هناك .. حسن .. سأعلكم الأدب بأسافل ! ..»

وتغير صوت الشيخ أيوجا إلى نبرة أهدأ عن ذى قبل وعاد مسرعاً إلى داخل البيت ، وهو يحدث نفسه فى كل خطوة يخطوها أن من واجبه أن يلزم الهدوء .. وارتعشت يده ، واصطكت ركبته ، ودق قلبه دق المطارق فى أذنيه .. كانت بندقيته معلقة فوق رأسه فى غرفة نومه معبأة دائماً ، لجذبها من على الحائط ..

وانطلقت الألسنة كلها من عقالها فى الخارج .. كان أوكا تالابا هو وحده الذى صاح فى تريفون غوغو قائلاً : «إنه ليس من الدوق أن يفهم هذا الموقف السليط من الشريف الشيخ .. ولكن هناك الاستحسان تعالى من الجوانب الأخرى كلها : «أحسن تاتريفونيتسا ! .. لا تنال ! .. لماذا بالله يقدم الشريف الشيخ على إذلاله وإهاته ؟ .. كان عليك أن تأخذه من رقبته و ..»

وتأهى إلى الاستماع صوت رفيع جعل الذين حوله يضحكون : «أبونا ميرون فى غضب شديد ، عفا الله عنه ؟ ..»

ولكن إيجنات سيريل كان مهموماً : «حذار يا تريفون .. أنت لا تعرف كنه الشريف الشيخ ، فربما ...»

وظهر ميرون أيوجا مرة أخرى ، وقد أمسك ببندقته ، وعيناه جاحظتان بقلتهما دماً .. وقابلته مهمة من الدهشة والاستنكار .. وتوقف الشيخ فى مكانه السابق على مدى خطوات ثلاث من تريفون غوغو . وقال فى صوت واضح عقيق قوى : « أخرج فوراً ، بالص .. أخرج وإلا خرجت محمولا على نقالة ! ..»

وصرخ تريفون غاضبا : قائلًا : اسمع مني أيها الشريف .. أنا لا أنوى الذهاب ...
أفهمت ؟ .. لا تحاول أن ... وسواء أكنت شريفا أم من غير الإشراف فسرى
ما يحدث .. على كل حال ... ،

ولم يتمكن من تكملة عبارته ، فقد رفع أيوجا البندقية بعد أن سمع كلماته
الأولى ، وصوبها نحوه .. وانطلقت رصاصتان ، إحداهما تلو الأخرى في سرعة
خاطفة بحيث بدت الرصاصة الثانية صدى للأولى ، وتلقى وجه تريفون غوغو
الطلفتين ، وقد ففرقه ، فتغير لونه ، كأنما أصيب بطلق جلدى ... وامتلات
عيناه الصغيرتان دهشة ، وسقط كما تسقط زكبة ثقيلة .

« يا حراس !! » غمغم بها ميرون أيوجا ، وقد أفعمت نفسه رضى وهو يراه
مرميا على الأرض .

وارتد بعض الرجال الذين وقفوا قرب تريفون على من وقفوا وراءهم عند
سماعهم الطلقات ، وهم يحمرن وجوههم في رعب . وترامت إلى الأسماع
صرخات في خضم الارتباك العام . على أنه بجانب الصرخات الخائفة ، تملأت
الشتم والتهديدات . : وجأ صرخ تودر سترمبر . وكان يقف على مدى أمتار
قليلة ، وقد احتقن وجهه حمدا : « ما هذا أيها الشريف ؟ .. أتريد أن تقتلنا ؟ »

أما انجم فقد أخذ في التحرك .. فَمَا الذين كانوا حول تريفون فقد ماؤوا
عليه يرفعونه ... وألم بالقوم جنون لفتي . فجعلهم يندفعون مرة هذا، ومرة هناك .
وعندما ألقى تودر سترمبر بسؤاله ، ارتفعت هياوة ، وانطلقت في الهواء على
مقربة من ميرون أيوجا ، فصدته في جميعته بقرة رن صداها في الأسماع .

« بالص كيف تجرؤ أن ... » بدأ بها ميرون ، ولكنه لم يستطع أن يكمل
عبارته ... وانطلقت عشرات العصي في حشد عاضب ، كل منها يهدف إلى الوصول
إليه ... وكان الشيخ . وهو غائب أوعى ، وقد شجت رأسه ، لا يزال يقف في
وسط الملاحين الذين تكأ كثوا عليه لحزنوا دونه والسقوط .

واكتظت « السدفة » الآن ، بأعمدتها المربعة ، بالناس ، وكلهم ينسربون إلى اليمين
وإلى اليسار على غيرى هدى ، كأنما كان الجو نفسه يحمل في طياته عدوا لثودا

واهتز زجاج النوافذ ، وتردد صداه ثم تساقط قطعاً متتارة ... وتماوج الجمع
كبركة حركتها عاصفة عاتية الواهنا وهناك كأنما يحاولون أن يجدوا متفسداً عن الغضب
الذي كتم أنفاسهم ، واختلطت صيحاتهم العديدة بشتائم قذرة ، فجعلت منها عواء ممتداً
أغرق الولولة اليائسة التي انطلقت من أفواه الخادومات اللاتي كن يعملن بالبيت .
وفي حيرة هذا الغضب العارم الذي انطلق في لحظة كالبرق الخاطف الذي اخترن
طويلايين للسحب ، ثم نزل على الأرض دون أن يصحبه الرعد المعتاد ، كذلك
أحرق الفلاحون بالخدم أيضاً . واستطاع يومئذ المشرف ، رغم أنه قد وقف إلى
جوار الشريف الشيخ أن ينجو بجلده ، بعد أن ناله بعض الصفعات ، كأنما لم
يلحظه أحد في معمة العاصفة .

وبعد عدة لحظات ، انفض أولئك الذين تجمعوا حول الشيخ أيوجا ، واحداً
لآخر الآخر ، بعد أن هدأت سورتهم . أرتعشوا لمزيد من العمل . . . فله ترك الفلاحون
ميرون أيوجا ، انبطح على وجهه ، ودفن رأسه في الأرض ، كأنما يتشمش شذاها
الحلو المر في نهم أشد من ذي قبل ، بل ولآخر مرة في حياته . . . لم يعد أحد
يعبأ به . . . واستمر الفلاحون يتدافعون ، ويمشطون فوق جثته ، ويهشونه تحت
الأقدام ، ويصفطونه في الأرض . ويعجنونه بها ؛ تلك الأرض التي امتدت
جذوره فيها ضوأل حياته كلها .

— ٥ —

صاحت ماربورا وهي تندفع إلى الفناء : « بيتر بيتسا . . . تعال بسرعة . . . لقد
فكك الناس بالشريف الشيخ . . . تعال يا بيتر بيتسا ، أسرع قبل أن يبدؤوا فيها
هو أمر من ذلك ! . . »

وكان بيتر بيترا قد انتهى من البوابة ، وكان يطرق في حضيرة الماشية في ظهر
الدار ، ليشعل نفسه فلا يتدفع إلى شيء . . . ولقد سمع من أمه ساراند أن التربة
كلها قد ذهبت كلها إلى بيت الشريف الكبير . . . وهنت نفسه لحظة إلى الذهاب
كذلك ، لا للخراب أو الدمار ، بل على العكس ، كي يكبح جماح الناس الذين
على شاكلة تودر ستيمبو . . . ولكنه تلبث في بيته في إصرار ليلحق جروح فواده

ظنا منه علاوة على ذلك أن الناس لن يجرؤوا على وضع أيديهم على الشريف ميرون، حتى ولو كانوا قد ذهبوا والثورة تعتلج بنفوسهم .

وصاح بيتر في دهشة : « هل ذهبوا حقا ؟ »

ولم يرفع بصره إلى ماريورا ، على وجه لها ، فقد عزم على أن يؤجل زواجهما إلى ما بعد عيد الفصح . . أما الآن فقد بدت في ناظره شخصا غريبا . . لم يعد يحس بعاطفة إزاءها . . وكان صوتها غريبا على أذنيه ، وهو أمر لم يحدث من قبل .

وتوقف عن العمل دون كلام ، وانطلق في طريقه جريا أو يكاد . . وتبعته ماريورا كالكلب الطيع ، وهي تقص عليه لاهثة الأحداث التي وقعت بيت الشريف . . وكأنما كانت كلماتها تدفعه من الخلف ، ولكنه ماقى يقول في نفسه : إن من العبث أن يذهب وحده ، فهو لا يستطيع أن يهارب القرية كلها ، لا ولا أن يحول بين الناس والتفيس عن غضبهم .

وكان من الميسور سماع الضجج والجلبة القائمة حول بيت أبوجا من مدى بعيد . . وأسرع بيتر في خطوه . . وكان هو هو كما ترك عمله ، يتشج بقميصه ، لا يزال يحمل فأسه ، كأنما كان ذاهبا يتمشى وفي يده عصي .

وكان الناس يتدافعون في ساحة البيت الكبرى جيئة وذهابا في جنون ، ويتحدثون في هرج ومرج ، وعلى غير هدى من أمرهم . واشتبك بعضهم مع الحدم ، وتشاجر آخرون فيما بينهم لغير ماسبب ، نزوعا منهم إلى المخاصمة . . وقام نفر من الفلاحين بعلاج تريفون غوغو الذي رقد يتأوه إلى جوار البئر . . وتطلع بيتر إليهم ، ولكنه لم يتوقف عن المسير . . وعند دار ليوتى بومبو ، تدافع مزيد من الفلاحين ، وأطلقوا صيحات متوعدة ، وصراخ زوج المشرف يعلو على أصواتهم من داخل البيت . . أما في المكتب المجاور فقد حطم آخرون كل شيء وقع في متناول أيديهم ، وبخاصة دفاتر الحسابات التي سجلت الاتفاقات والديون كلها .

ومضى بيتر إلى الفناء الآخر . . وكان الجمع ، فيما بين البنائين أشد زحمة ،

وكانوا يلقون ويدورون حول البقعة نفسها ، كأنما كانوا في انتظار أمر ،
أو إشارة من الإشارات .

وسأل بتر جماعة من الفلاحين الثائرين : « أين الشريف الشيخ ؟ ، فأجابه
قائل : « لقد حلوه إلى الداخل » .

وكانما يتترقد وفد من عالم آخر ، فلم يتعرف على الرجل الذى رد عليه ،
ولا على الآخرين الذين وقفوا إلى جانبه .. ودخل البيت القديم — كان الجمع
قليلا على السدقة ، — وانفجرت الشبابيك المتكسرة كأهواء سوداء فغرت في
الجدران .. وكان الناس يدخلون ويخرجون من الأبواب التى انفتحت على
مصاريعها .. وفي الغرفة الثالثة وقف لعين من الفلاحين في صمت ، وره وسهم
عارية .. لقد كان معزوم أيوجا يذرع هذه الغرفة نفسها جيئة وذهابا ، ويداه
وراء ظهره ، قبل ذلك بزمان وجيز .. أما الآن فهو يرقد على أريكته بين النافذتين
وساعده مصلوبان على صدره .. لقد لم المعجوز لإخيم بقاياها من تحت أقدام
الفلاحين .. ووضعت بروفيرا الطباخة ملاءة بيضاء على الأريكة ، وأشعلت
شمعة على رأسه ، أخذ لهاها يخفق الآن بين الشبابيك المتكسرة .. وكانت تحاول
أن تزيل ماعطى بملابس الراحل ووجهه مرسخ .. قال العمدة برافيلا ، وكان
بين أولئك الذين كانوا في الغرفة ، في صوت خفيض : « اتركه يا امرأة في سلام ،
هكذا مشيئة الله » .

وأراد أن يقول اتركه حتى يجرى التحقيق في ظروف وفاته ، ولكنه لم
يجرؤ على القول .

وألقي بتر نظرة طويلة على وجه الشريف الشيخ وقد علاه الوحل ، فلاحظ
على خده الأيسر خيطا من الدم المتجلط ، وقد اختلط بالطين ، كأنه شريط
من المخمل الأسود انبعث من تحت الطاقيفة المنبسطة .. وبنت بتر إذ سمع العمدة
وهو يقول بتليح يحمل في طياته تهريما خفيا :

« أحسبك لم تكن هنا يا بتريتسا ؟ » .

فغمغم الشاب : « يسرنى أنتى لم أكن هنا ، سامحنى الله . . الله وحده يعلم
ما سوف ينجم عن هذا كله ؟ » .

« هكذا كتب علينا ، أن نكون . . »

ومرة أخرى خشى برافيلا من إكمال عبارته . . وأدركه إخيم فقال : « اذهب
أنت يا بتريتسا ، فرما استمع القوم إليك يابنى . . لا تدعمهم ينهبون ويخربون
كل شىء . . كفاهم ما أقرعوا من شر حتى الآن . أنا لهذا أرسلت ماريورا فى
طلبك . . فقد كان الاشراف طيبين معك ، وساعدوك عندما كنت فى ضيق ؟ » .

وغمغم بتر ، وقد اربد وجهه : « لقد ساعدوا كثيرا من الناس ، وأنت ترى
الآن جزءا ما قدمت أيديهم ! » .

فقال لوكا تالابا فى رقة : « رحمة الله عليه ، كان رجلا عنيفا ، سريع
الغضب ! » .

ولزموا السكنية بعض الوقت . وما لبث بتر أن أفاق لنفسه ، فقال بغلاظة :
« لينصرف كل من ليس له عمل هنا ! » .

ولم ينتظر حتى يرى إن كان القوم سيرضخون ، فقد كان واثقا من طاعتهم
لامره . . وسرعان ما بقى الراحل وشأنه ، ولإخيم وبروفيرا وماريورا يسهرون
على رعايته .

وجمع بتر حوله ، فى نفس اللهجة الخازمة ، جميع الفلاحين الذين تبعثروا فى
أرجاء البيت . . فلما بلغ ، « السدفة » لى جماعة أخرى لم تنشأ أن تصرف وهى صفر
الأيدين . . وغل غضبه وقال : « أليس عندكم ذوق ؟ » . ألا تعرفون أن هناك رجلا
ميتا فى البيت ؟ . . ألم يكفكم أنكم قتلتموه . . والآن لا تريدون له أن يرقد فى
سلام ؟ » .

ولما انصرفوا . ساخطين ، لحظ بتر جماعة أخرى تحاول أن تشق طريقها

إلى الفيلا ، بعد أن انترعت أبوابها من مفصلاتها .. وخطر له أن هذه الفيلا هي ملك جريجوري تسا ، الرجل الذى يربطه به عرفان الجليل .. واندفع إليهم ، وهو يصيح فى هلع : « لا تدمروا شيئا ! .. انصرفوا ، أيها الفتيان ! .. ابدوا ! .. إياكم والدخول ، فليس هناك شيء تأخذونه ! .. كن عاقلا يا عم سافيم ! .. »

وشق طريقه بينهم ، ودخل الفيلا .. وكان الناس يتمشون على استحياء ، فى الردهة الكبرى من الدور الأول ، يلبسون شتى الأشياء ، ويتحدثون فى نبرات خافتة .. وعاد بيتر يهتف . وهو يهيب بكرم أخلاقهم ، أكثر منه أمرا : « هيا يا فتيتان ! .. انصرفوا ! .. لا يوجد شيء لكم هنا » .

وسمع وقع أقدام فى الدور العلوى ، فأسرع يصعد الدرج الخشبي .. كان القوم يفتشون الغرف ، وكانت كلها مفتوحة الأبواب ، عثاعن أشياء يستطيعون أخذها .. قالت امرأة فى غضب ، وكانت قد جمعت أشياء من الأقبعة فى ملادة : « لماذا أترك هذه الأشياء كلها نهبا للضياع . والاولى أن أستعملها أنا . أنا التى أعانى من شدة الفقر ! .. » واندفع بيتر إلى إحدى الغرف ؛ وكان بها جمع من الناس ، فأعاد عليهم نفس الكلمات : « هيا يا أصدقائي .. هيا .. » .

وكانت هذه هى غرفة نوم نادينا ، بالسريير الضخم الذى علقت على رأسه صورتها الكبيرة .. واستطاع بيتر أن يشق طريقه قرب السريير ، وإذا به لجأ إلى يري عيني نادينا .. وارتد على عقبه مشدوها ، كأنما كانت هى فى الحقيقة .. وجف صوته فى حلقه . وتحركت شفتاه المنتهتان دون أن يند عنهما صوت .. كانت نادينا تتطلع إليه مباشرة ، وهى شبه عارية ، بنظرتها المتراخية ، وقد شابها احتقار يمز المشاعر .. وتطلع آخرون معه ، ولكنهم لم يجرؤوا أن يفتحوا أفواههم فى حضرتها .. وقاض قلب الشاب غبطة أول الأمر . كأنما هو قد وجد شيئا كان يسعى إليه جاهدا دون جدوى .. ولكن القناع سقط عن عينيه فى اللحظة التالية ، فقد انقلب فواده من الاحقار الذى شاب نظرتها ؛ فامتلا ضغنا .. وأحس بنفسه يقع فريسة الغش والخداع ، كأنما قد تلقى صفعة على وجهه .. وهتف بغتة بصوت أجش : « انظروا إلى أنثى الشيطان ، كيف تسخر منا ! ! »

ولم يدرك ، إلا عندئذ فقط ، أن الفأس كانت في يده .. ولوح بها فوق رأسه وقفز على الفراش ، وضرب بكل مافيته من قوة .. وتهمش زجاج الصورة وأز أزيلا طويلا نافذا ، وتطاير قطعاً انتشرت كقطرات من الدم انبعثت من جرس ، فطار بعضها في وجهه ، وخدشته خدش مخلب قط .. وجعل يتر يضرب بسرعة وهو يلث بشدة .. واستحال جسد ناديا المتور إلى قطع من الورق المفوى ، ولكن عينها بقيتا ، تنظران في تراخ واحتقار ، حتى بد أن صار جسدها هشيما ...

وصاح بيتر غاضبا ، وعيناه تقطران دما ويخفا : « هيا يا فتيان كفي تطلعا !! » . وكأنا القوم كانوا ينتظرون هذه الإشارة فانطلقوا .. ولم تنقض لحظات حتى حطموا كل شيء في الغرفة .. أزيلت الشبايك من قواعدها ، وتطايرت في الفضاء قوائم الكراسي المكسورة ، وقطع الملابس ، والأواني ، والوسائد التي قطعت تطاير ريشها « وبراويز » الصور ...

وصاح بيتر بعد لحظات : « اتبعوني أيها الأخوة ! » .

وأخذ كل واحد في الغرف الأخرى ؛ وفي الدور الأسفل ، يحطم كل شيء في غضب .. ويجرى بيتر وهو يلوح بفأسه كن منبه من الشيطان .

وهذب فيمن جاءوا من الخارج ، وهو يخترق طريقه إلى الدور الأسفل مرة أخرى : « النار .. النار .. لا تتركوا غير الرماد والهباء !! »

وردد آخرون ، وإن ظلوا في أماكنهم يرغون ويز بدون : « أشعلوا النيران في البيت يا إخوان ! » .

قال سيراقيم موجوس ، وهو يلحظ الفأس الكليية : « هكذا أحب أنا أن أراها يا بيتر بقسا !! » لقد قاسينا جميع أنواع المظالم أمداً طويلا !! » .

ووجد بيتر نفسه في الخارج .. كانت الشمس قد غقت وراء البيت القديم . وإذا النسق يتأهب لظلمة المساء ، بدأ الناس أشد عجلة من أمرهم ، وأكثر غضبا . ونضج وجه الشاب عرقا وحفا ...

وتساءل العمدة برافيلا، وقد رأى ما اعتراه من تغير : « ما بالك يا بيتر يقسا؟ »
فقال بيتر بفضاضة : « أليس في مقدورك أن ترى ، أم تراك لا تريد أن ترى؟ »
قال لو بو شيريتو ، في لوم وأسى وهو واقف إلى جواره : « من العار أن .. »
ولم بدعه بيتر ينهى عبارته .

« كنى كلاما أيها الحمار المجرور ... فطالما استبددت بنا ، ونهيتنا بالسفسطة
والحكايات ! »

وغنمهم الشيخ، مستعيذا من الشيطان : « رباه .. لقد جن جنونك أنت أيضا
أرجو ألا تقدم على ذلك فيما بعد .. »

« لماذا أندم ؟ .. نحن نموت مرة واحدة على كل حال ! » قالها بيتر وهو
ينصرف مسرعا ، دون أن يدري إلى أين يقصد .

وأخذت سحائب الدخان تهب من بضعة شبابيك في الفيلا ..

« وصرخ صوت في نشوة وحشية : « التيران ! ! التيران .. »

وانتشر الحريق بمشقة ، ولم يشتعل دخانا إلا داخل المبنى .. ولم يتفجر اللهب
إلا بعد منتصف الليل ، فشب في السقف كتاج متألق ، أطلق ملايين الشرر ..
وواصل القوم الوقوف حول التيران ، كأنما كانوا في غير حاجة إلى النوم ، أو
كأنما لم تكن لهم بيوت يأوون إليها .. كانوا جميعا مبجوحى الأصوات من
المتاف ، ولكنهم واصلوا الصياح بكلمات وشتم لا رابط بينها ، كأنما كانوا
يعوضون عن كل السنوات التي قضوها في صمت .

وانتصب البيت القديم وراء الفيلا المحترقة ، أسود نemasan .. وعندما ولى
الناس وجوههم شطره ، ارتعدت فرائصهم غضبا .. أما الميجنات سيرسل
فكان وحده يغمغم ، في محاولة يبتغى بها شفاء قلبه من القل : « لقد أنعم الله
عليه الآن بالأرض وبكل شيء ! »

الفصل الحادى عشر

بيتر بيتر

- ١ -

كانت السماء فى آمارا ، طوال ليلة الجمعة ، حمراء قانية من اللهب الذى أتى على فيلا أيوجا .. وأبى الجمع الصاخب النائم من الفلاحين أن ينصرفوا ، فقد أبى النوم أن يداعب جفونهم ... وتماثلت الصيحات والهتافات המתاجة المجذلة فأغرقت منطقة اللهب .. وماج القوم ، فى وهج الضوء الأحمر ، أشباحا لا تستقر على حال من القلق ؛ واستحالت أصواتهم المتحشجة المشدوخة إلى ضوضاء غريبة . بدت وكأنما تصدر من باطن الأرض .. وماكاد الليل ينتصف حتى تهاوى السقف ، بما حوى من عروق محترقة ، على سطح الدور العلوى ؛ وتفجرت بحماسة هائلة من الشرر ، وتبعثرت فى الجو القاتى ، ثم تبعها لهب عريض مغطاير من الجمرات المشتعلة . وانبعثت من مئات الحناجر ، كأنما إثر أمر علوى ، صيحة طويلة من الرضى والبهجة . ثم أخذ الفلاحون يتفرقون رويدا رويدا ، كأنما كانوا فقط ينتظرون هذه العلامة من علامات الانتصار التام . . فتة قليلة فقط بقيت فى عناد ، مخافة أن يقع شيء تفوتهم رؤيته . . فلما بزغ الفجر أصبحت الساحة أشد سكونا عن ذى قبل ، وأخذت النار تحترق أشد هدوءا ، كأنما قد بشتت من الحفقان فى وعن .

وكان لا يزال يتلألا نفس الضوء الوجمل فى شباك البيت القديم ، وكان الشرر المائل يراقص على غير هدى فوق السقف ، ثم لا يلبث أن يتلاشى حين يلامس البلاط القديم كأنما قد هبط على ثلج .. وكان إخميد أو حتى رجاج أبواب السدة ، صدا اسكل من يحاول الدخول ، فيكدر سكون البيت .. وجلس وهلة يتأمل بجانب الشريف القليل ؛ ثم حلت الطباخة محله ، ثم المشرف ، ثم زوج الطباخة ، والآن جاء دور ماريورا فأخذت تطرق برأسها محوساعة من الزمان فى ركن من الكرسى ... كانت تشعر بالناس ، ولكنها إلى جانب ذلك كانت حائرة تترقب . ففى لم تلق أبداً بنظرة إلى الأريكة التى رقد فوقها ميرون أيوجا جثة هامدة ، فقد

كانت ترتجف رعباً من الخيالات التي تتحرك على الحيطان باستمرار كأشباح لا يقر لها قرار .. وزحف البرد من خصاصر التوافد المتكسرة ، وازداد حدة .. وخيل إليها ، مرة ومرة ، والكرى على وشك أن يدب إلى جفونها ، أنها تسمع حفيفاً غريباً .. مرة واحدة فقط هي التي جرّوت فيها على أن تختلس النظر إلى المكان الذي جاءت منه الضجة ... وخيل إليها ، وضوء الشمعة يخفق . أن الميت يتحرك .. ورسمت الصليب على صدرها مرات ثلاثاً ، وتمالكت نفسها قليلاً ، ولكنها سمعت فجأة آهة واضحة ثقيلة مغممة بالآلم كالآنين .. وعجزت عن أن تد بصوت ، من شدة خوفها ، وقفزت على قدميها .. وفي نفس اللحظة همس صوت رجل ! لا تصرخي ياماريورا .. وإلا هلكت أنا .. أنا أزياسيسكو ! ..

وزحف كاتب الحسابات بمشقة من تحت الأريكة ، وهو متجمد الأطراف تماماً .. لقد اختبأ هناك عندما شهد الشريف ميرون وهو يتناول بندقيته ، واستطاع أن يتنبأ بما سوف يحدث ... وكان وهو يرقد محشوراً تحت الأريكة يشكر الله على أن ألامه بهذه الفكرة السديدة ، وإلا لذبحه هؤلاء الوحوش ذبح العماج .. وأوجس بادي ذى بدء أن يشمل الفلاحون النار في البيت ، فيموت محترقاً كالقار . واستقر عزمه على ألا يتحرك حتى يزول كل خطر ، ولو اضطر أن يرقد مكانه سبعة أيام .. ثم ما لبث وأحشاؤه تلح عليه ، والميت يدفع به إلى الجنون من الهلع ، أن أدرك أن من الفطنة أن يطلق ساقيه للريح ، عندما رأى ماريورا تدخل لتسهر على المتوفى . فقد كان يثق في الفتاة ثقة كبيرة .

واختبأ الآن وراء الستارة ، خوفاً من أن يراه أحد من الخارج . وسأل ماريورا من خلال الستارة أن تخبره بتفاصيل كل ما وقع .. فلما سمع أن الفلاحين ضربوا ليونتي وزوجه ، وأنهم نهبوا دارهم ، رأى أنهم لابد سالحين جلده حياً .. وأخبرته الفتاة كذلك أن في وسعه أن يمضي آمناً عبر الحديقة ؛ إذ لم يعد هناك بعد فلاحون في الفناء .. ثم خطر له خاطر جديد ؛ إنه ليستطيع أن يتخفى في ملابس فلاح ، وبهذا يتجنب أن يتعرف عليه أحد في القرى القليلة التي يتحتم عليه المرور بها وهو في طريقه إلى كوستنسى ... ولهذا أرسل ماريورا لتسأل عمها جليابا ، أيا كان رثا ، فتأتى به من الباب الخلفي ، كيلا يراها أحد ، واعدأ لإياها بمكافأة سخية ، وعرفانه

بجميلها أبداً لأبدین .. وأنت بروفيرا نفسها بالجلباب، وتبادلته بملابس أزبایسكو،
فی حالة ما إذا لم يرجع كاتب الحسابات .

قال والدموع تترقق فی عینیه ، وهو یضبط علی یدیه : « جزاك الله خیرا
یاعمة بروفیرا .. لقد أنقذت حیاتی .. ولن أنسى لك هذا الصنيع أبداً .. »

وأخذ أزبایسكو ، وقد أشرق الفجر ، یشق طریقہ عبر الحدیقة صوب
بیروجو ، دون أن یبصر فیلاً یوجا وهی تحترق ، ودون أن یلقى بنظرة
إلى الوراء .

وقبل مشرق الشمس بقلیل ، تداعى سقف الدور العلوی ، وكان قد تحول إلى
جرات ملتهیه ، وتهدم فی جلبة وضجة فوق سطح الدور الأرضی ، فتطمح هذا
بدوره ، لأنه كان ضعیفاً متأكلاً من الثیران . وكان یسمع المشاهد أن یرى فیما وراء
الجدران المشوبة بالسواد ، ألهب المستعر وقد تسكل شرراً غاضباً متصاعداً .

وسرعان ما أخذ الفلاحون فی التجمع مرة أخرى ، واحداً إثر الآخر ، وجعلوا
یحمقون فی الثیران ، ویجزون رهوسهم ، ویفوهون بكلمة أو كلمتین ، ثم سرعان
ما یلتفتون بأبصارهم ناحیه البیت القدیمة .. ولقد شعروا — كما قال أحدهم — أن
عملهم لن یبلغ غایتہ طالما ظل بیت الشریف الشیخ قائماً .. ولكن أحداً لم یجرؤ علی
المساس بالبیت ، إكراما لحاطر الراحل ، رغم شدة لهفهم علی ذلك .. والواقع
أن أغلبهم وفد من أجل السلب والنهب .. وكان الفقراء منهم خاصة یطمعون
فی الذرة ، فأفرغوا اللیلة الماضیه ملء مخزن من الحبوب ، ولكن بقى هناك مخزانان
آخران ملیئان بالقمح .. وجلب بافل تونسو کیسا کبیرا ، واستطاع أن یمخرج
أول القوم ، وعلى ظهره الكیس عتلتا ، لحمله إلى العجوز آیونا ، أم زوجته ،
وكانت فی شغل بأمر فرائخها ، وحفیدها العزیز کوستیکا .

وهتف بافل ، وهو یكر عائناً إلى بیت الشریف : « تعالی یا أماء ، ولا تخلفی
عن الركب ، تعالی وخذی بعض الذرة ایضا ، فالتاس کائنل هناك ، ولن یبقى شیء .
بعد حین ! »

ودمدمت العجوز، وهى تمضى لشأنها، كأنها هى لم تره أو تسمع منه شيئا :
« عليك اللعنة !! »

وبينا القوم يتدافعون حول المخازن، أخذ نفر من الفلاحين أشد جسارة من هؤلاء يتشاحنون حول الماشية .. ودفع ماران ستان ثورين خارج الاسطبل، وتأهب ليقودهما إلى داره . فإذا بليوتى أوريسور يصرخ غاضبا : « يجدر بك أن تتجمل من نفسك لأخذك الثورين ؛ فأنت فى غير حاجة إليهما ، طالما كنت تملك فعلا ثورين .. أما أنا فلم يتهيأ لى أبداً أن أكسب ما يكفى لشراء بضعة ثيران ، وليس لدى منها ما يعينى على زراعة الأرض ! . اترك الثورين وشأنهما ياماران ، فأنا على استعداد لأن أقترف جريمة قتل فى سبيلهما يارجل ! » .

وقال آخر متوعدا : « أهذه هى العدالة !! أولئك الذين يملكون يالون نصيب الأسد : أما نحن فنخرج من الغنيمة خاسرين !! » .

فقال ماران وهو يتميز من الفيظ : « أنا لا أدري ماذا تقصدون ! ... لا مجال للساومة هنا ، فنحن لسنا فى سوق للبيع والشراء .. وكل من يضع يده على شيء فهو ملكه ! » .

وأمسك ليوتى أوريسور ستان من قميصه ، واشتبكا برهة ، وهما لا يكفان عن تبادل الشتائم .. وشعر ماران أن القوم جميعا ضده ، فأرخص جناح الذل ، وقال : « حسن ، سفتحدث فى هذا فيما بعد ... لا بأس يا ليوتى ، لا بد أن نلتقى مرة أخرى ! » .

فهدف أوريسور مستهزئا : « لماذا لم تفكر فى الجياد أيها الخطاف ؟ . أنت لا تملك منها شيئا ، وهى تليق بك .. مارايلك فى هذا يا عم إخم ؟ » .

فأجاب إخم ، وكان واقفا على باب الاسطبل القريب ، والمذراة فى يده :
« ان يستولى أحد على جيادى ، طالما أنا على قيد الحياة ! » .

قال قائل : « مهلا يا عم إخم ، سوف نشعل فىك النار أيضا ، ألا ترى إلى هذه الفيلا كيف تشتعل ؟ » .

فقال الخوذى العجوز بفخر ، كما لو كان الشريف : « هذا أفضل عندى من أن أكون هذقا لكاتكم . »

ولم يشأ الفلاحون أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة مع لإخيم ، لأنه كان كبير السن ، ولأنهم كانوا يعرفون فيه غرابة الطبع ، رغم أنهم جميعا كانوا يرون أن لهم الحق كل الحق فى كل ماتهوى نفوسهم ، أو فى كل ما يقع فى أيديهم .. ألم يجمع الشريف ثروته من كدهم ، ومن ثم وجب أن توزع الثروة فيما بينهم ؟ بل إن منهم من اتهم لإخيم غاضبا : ليس من حقه أن يحاول الاستمساك بما هو حق لنا يا عم لإخيم ، لآنا ان نعطيك هذا .. لآنا لم تتحمل الشريف الكبير ، فكيف تتوقع منا أن نتحملك ؟ اصبر حتى يأتى بيتريسا ، وعندئذ سترى ... -

ولكن بيتريسا كان يفظ فى النوم ... لقد عاد إلى بيته فى وقت متأخر ، وكان يحس بتعب لم يشعر به من قبل .. وألقى بنفسه على الفراش ، وهو بملابسه ، وتوسد طاقيته الفرو تحت رأسه ، وراح فى سبات عميق .. ونهض كل من فى البيت ، ولكنه لم يحرك ساكنا .. وحاولت سمارة أن توقظه ، إذ لم يكن من عادته أن يرقد فى الفراش بعد مشرق الشمس ، ولكن بيتريسا غفم . وهو مغمض العينين : أتركين يا أماء ، دعينى أسترخ قليلا فأنا نعان جدا .

قالت المرأة : ثم بابنى ، ثم أولى بك أن تنام طوال اليوم من أن تذهب مرة أخرى إلى حيث كنت .

نظر تيتو هيرديليا فى ساعته فرأى أن القطار قد أخذ يتحرك التاسعة والنصف تماما فقال : لقد حضرنا فى الوقت المناسب . فقال جريجور وهو لا يكاد يتألمك مشاعره : « ليتنا فقط تتمكن من الوصول إلى هناك . »

وكان بالينو ، ورأسه خارج النافذة ، يلوح بمجديه الحريى ، ويتمغم دون انقطاع فى صوت عتق : « وداعا يا ميلانى ، الوداع . »

وجلس ، عندما ترك القطار المحطة ، وعيناه نديتان بالدمع .. ولكنه ابتسم

هو قال : مسكنة صغيرتي ! إنها في قلق شديد . . والواقع أنها على حق ، وإن كنت قد بذلت طاقتي لإقناعها بعدم وجود أى خطر . . وأنا ما كنت لأقبل هذه المهمة القاسية لولا إلحاح الرئيس . . وأقسم بشرى أننى لم أكن لأقبل أبداً . . مسكنة سيلاني . لشد ما بكنت ولشد ما انفطر قلبها .

وكان القطار يتكون من بضعة عربات فقط وحتى هذه العربات كادت تكون فارغة . . ما كنت ترى إلا نفرا من الضباط والتجار الذين واتهم الشجاعة . فتركوا بوخارست . هذا إلى جانب بعض الولاة الذين عينوا حديثا . . وكان سائق القطار قد تلقى تعليمات بأن يمضى في طريقه حذرا أشد ما يكون الحذر . فقد ترامت الشائعات بأن الفلاحين ينوون إزالة القضبان . وإيقاف القطارات . تعطيل الوصول قوات الجيش إلى الولايات النائرة .

وكان تيتو هيرديليا هو وحده الذى احتفظ برباطة جأشه . . كان والها كل الثقة من أن الاخبار التي راجت عن اضطرابات الفلاحين أخبار مبالغ فيها إلى حد مشين . . وكان من رأيه أن شعب رومانيا لا يعرف التطرف إلا في ناحيتين : الملهاة أو المأساة ، وكلاهما صاحب متقلب . . . وهكذا كان شأن هذه الثورة ، فقد غال كل واحد أنها تسلية ابتدعها رجال السياسة الحزبيين ، باعتبارها وسيلة بارعة لقلب الحكومة ، أما الآن فقد عم اليأس كل إنسان ، وأصبح يقنأ بخراب البلد .

وكان جريجور أيوجا أشد جزءا من بالينو . . ففي الليلة الماضية أشار الناس عليه ، وهو في بيت بريديلينو ، بألا يخاطر بحياته دون جدوى ، وأن يصبر حتى تهدأ البلد ، فليس يدرى أحد ما كان يجري في الريف وسواء ذهب أو بقي في بوخارست فهو لن يكون بذى فائدة بالنسبة لوالده . . وكانت الحجة القاطعة التي قالها القوم في صوت هامس هي : ماذا لو رفض الجنود إطلاق النار ، وأخذوا بجانب الفلاحين ؟ وكانت هذه الحجة بالذات هي التي دفعته إلى الرحيل في إصرار ، واسكن لعله كان يغير رأيه ، وبخاصة لأن أولجا توسلت إليه . بعينين تديبلين . ونظرة رقيقة . . ولما انفردت به بعد ذلك . همست إليه فجأة : ابقى هنا لو كنت

تجنى : ودهش جريجور دهشة بالغة وقبل يدها . ولم يتمالك نفسه فقال : لا بد من الذهاب . لا شيء إلا لأنى أجبك غاية الحب : ولما خلا إلى نفسه بعد ذلك رأى أن هذا الجواب سخيفا كل السخف : وخجل لأنه فاه به ، رغم أن أولجا لم يجده سخيفا . لأنها لم تضحك منه سواء إذ ذاك أو بعد ذلك .

وحركت همسة أولجا عواطفه بشدة ، وأهاجت في نفسه أسئلة لم تكن قد خطرت له بعد ، أو ربما كانت أسئلة -ناول عامدا أن يتدها في مهدها . . وشعر أنه مكتشف حتى أمام نفسه ، والحق أن صداقته بفيكتور كانت قديمة العهد ، أما الآن فقد بدا لها أن نظرات أولجا قد جعلت هذه الصداقة أوثق عرى عن ذى قبل ، ولم يكن يحسب أن زيارته يوما لآل بريدلينو قد كان لها باعث أيا كان ، ولم يقين أبدا أنه وقع في غرام أولجا : رغم أن فواده امتلا هوى ، بل إنه لم يصرح أبدا بكلمة ، ولو هزلا . . إنما تكلمت عيناه لغة الهوى . على غير إرادة منه . . .

وأضحى باللائمة على نفسه : لأنه لا يجد في هذه الأوقات العصبية ما يشغل باله غير هذا الحب الوليد . . وخطر له أنه ماضرب عرض الحائط إلا كي يوطد علاقته بأولجا . . والحق أن نادينا قد جرحت مشاعره جرعا جعل من المستحيل عليها مواصلة الحياة الزوجية معا . . ومع ذلك فهو لولا أولجا لما وجد قوة الإرادة ليطرحها ظهريا : ويتبرأ منها صراحة . . وبدأت تعذبه فكرة مؤداها أنه ترك أباه في الريف وحده بسبب أنانيته المفرطة : كي يبقى إلى جوار أولجا وإيراهما مرة على الأقل كل يوم . . وكان من العيب أن يقول لنفسه إنه رضى فقط لرغبات والده الذى أمره بالذهاب . . كان على يقين الآن أنه لو كان في ظل ظروف خرى ، أعنى لو لم يكن مضى بالهوى لآلى أن يرحل عن آمارا .

وظهرت أحاسيس بالينو واضحة في سبيل الكلمات التى تدفقت منه بغير ما ضابط . . فهو منذ اللحظة التى تم تعيينه فيها واليا على مقاطعة تستغل بالثورة شعر بالحاجة إلى أن يبدو في نظر الناس ، في كل مكان ، شهيدا أرسل به إلى المقصلة . ولقد قيل له في بوخارست بصفة سرية جدا إن المرة لا يمكن أن يطمئن إلى الجيش ، وقد يستلزم الأمر في النهاية الاستعانة بالنسايين حتى يمكن الوصول إلى تهدئة تامة . وقيل إن الحكومة الجديدة لا تثق ثقة كبيرة بالجنود من الفلاحين ولكنهم في نفس الوقت لا تريد أن تلجأ إلى المعونة الأجنبية : قبل أن تبذل محاولة أخرى نهائية .

قال بالينو في صوت اختق بالعاطفة : « نحن نميش يا أصدقائي الاعزاء في أسوأ
 مأساة في تاريخ شعب رومانيا . والرئيس نفسه كان متأثراً ضحى الامس حين أصدر
 إلينا الامر بتنفيذ مهمتنا الثقيلة . . . ولقد صرح لنا أن مهمتنا مهمة شاقة للغاية وخطورة
 أشد ما تكون الخطورة . . قال : « إنى لأعتمد على لباقتكم وحصافتكم ومهتكم . .
 وستأخذون معكم نداء الحكومة الذى ينص على الإصلاحات ، وهى إصلاحات
 تجابه أشد المظالم للحال . . والنداء سلاح ممتاز يدعوا للسلام وهو نداء ينبغى تناوله
 بغاية البراعة . . . ولكن حينما تفشل وسائل الاقتناع ، وحينما تلقون مقاومة مسلحة ،
 فينبغى الاستعانة بالجيش بكل حزم وبمىتهى الشدة . عليكم أن تردوا العنف لآله
 لا مناص من استعادة الأمن أيا كان الثمن . . ، هذا ما قاله الرئيس . . واقد تأثرنا
 غاية التأثر وكانت لحظة تاريخية . . ثم مالبث أن عاتق كلالنا الآخر ، والآن أمامنا
 هذا السؤال : « ماذا ترانا واجدون فى التو واللحظة ؟ أنا ديمقراطى المنشأة وإنسانى
 النزعة وفى وسعكم أن تصورا مبلغ تأثرى لو اضطرت إلى إصدار الامر بالقمع
 الدموى ولكن مصالح الأمة العليا ورطة رهيبة ! ! »

وأصغى تيتو إليه بما يليق من جد ، ولكنه رأى فيما بينه وبين نفسه أن
 بالواينو كان خدعة كبرى . . لقد تذكر هذا الرجل نفسه وهو ينادى قبل ذلك
 بزم من قليل ، فى مطعم ابناءخ ، بفكرة توزيع الضياع على الفلاحين . . أما الآن
 فهو يحاول أن يبرر مقدما قتل هؤلاء الفلاحين أنفسهم إذا لم يقتنعوا بالإصلاحات
 التى لم يأت فيها ذكر لتوزيع الأرض . . وكان على طرف لسانه أن يذكره
 بوعوده السابقة . . ولكن جريجور تكلم عوضا عنه ، كأما قد خطرت له الأفكار
 ذاتها : « لو أن الفلاحين ثاروا من أجل الأرض ، فن السير لإقناعهم بإصلاحات
 سطحية ! »

وتساءل بالواينو فى دهشة : « أترى أن من واجبنا توزيع الضياع ؟ »

فأجاب جريجور ببساطة : « ليس هذا رأى ، ولكك أنت قلته مرة ،

فقال الوالى مرتبكا : « الرأى الشخصى شئ ، وإمكانية تحقيقه شئ آخر . .
 على أية حال ، هذا الإجراء الثورى لا يمكن وضعه موضع التنفيذ فى ظل ضغط

الفلاحين وإرهابهم .. فضلا عن ذلك ، فقد دلت الاضطرابات المؤسسية الراهنة دالة واضحة على أن فلاحينا ما زالوا في حاجة إلى قدر كبير من التربية الاجتماعية .. فهذه الأفعال الوحشية ، لو صح فقط نصف التقارير التي وصلتنا ، لتبرر جميع عذوفنا يا صديقي العزيز .. وكن على ثقة أنني لن أتردد في معاقبة كل عمل من أعمال العنف بمنتهى القسوة ، رغم أنني كما تعلم ، أحب الفلاحين .. ولكن حبي لهم ليس معناه التسامح في حماقتهم ، وليس هو التسليم بما نبهوا وسلبوا .. نعم ، الطاعة واجبة على الفلاحين ، ومن واجبه أن يحترموا القانون ، وملكية الآخرين ، شأنهم شأن أى شخص آخر ، وإلا أين ترانا نكون ؟

وابتسم جريجور أوجا ساخرا وقال : « أنا فقط أشك في جدوى الإصلاحات التي تقول أنت عليها كثيرا ، هذا كل ما في الأمر .. وربما يخطرفي باللك أنه قد يكون عندى من الأسباب الخاصة ما يجعلنى أطلب بإجراءات قاسية ضد الفلاحين وبخاصة لو كانوا لم يبقوا علينا أيضا ، كما تدل دلائل الحال ، رغم أننا قد عشنا بين ظهرانيهم وقتنا على الدوام بواجبنا حيالهم » .

قال بالولينو : « معنى هذا أنك تشاطرني نفس الرأى يا جريجوريتسا ! وكان يدهشنى لو كنت أنت على رأى يخالف رأى ، فكلانا يجب بلده ويجب الفلاحين بنفس المقدار .. واليوم لم تعد المسألة مسألة سياسية ، بل هى إنقاذ رومانيا ! »

وتدقق مرة أخرى في الكلام ، وأخذ يدلى بتفاصيل مؤثرة عن فراقه عن ميلانى ، وعن هواجسها ، وعن شجاعته هو .. وكان يتكلم بنوع خاص عن نفسه طوال الوقت .. ولم يتوقف إلا وهو في المحطة ليتحصن للناس باهتمام .. فهو حينما يرى جماعه من الفلاحين ، يشير إليهم في فزع ، ويتكلم هامسا ، كأنما يخشى أن يسمعه صدفة : « أترون كيف يدبرون المؤامرات ؟! أقول لكم ، الخوف وحده هو الذى يجعل الفلاح يفهم ويعقل ! »

ثم واصل الكلام فتحدث عن الإصلاحات ، وعن رئيسه ، وعن ميلانى ، تغطية لخاوفه ؛ وهو مرة متفعل ، ومرة يقيه عظمة ؛ ولكن كانت هناك دائما رجفة في صوته .

أما القاطرة فقد أخذت تتقدم في حذر ، وهي تجشأ سحائب كبيرة من الدخان ، وهي بين الفينة والفينة تصفر صفيرا عطوطا يشير الأعصاب ، كأنه بومة لا تكف عن النقيق .

- ٣ -

قالت نيكولينا وهي ترى الأب نيكوديم قد تناول صليبه ورداه الكهنوتي « احترس يا أبي ، وتجنب المخاطر ، فأنت تعرف جيدا أن الناس قد جن جنونهم ،

فغمغم القس الشيخ دون أن يلقى بالا إلى ابنته قائلا : « هيا يا شماس ، لا بد أن نؤدى واجبنا ! . لقد كان سيدا علينا . وبني لنا كنيسةنا . وسوف ينزل الله بنا عقابه إذا لم نؤد واجبنا الديني نحوه ! . ثم أمامنا عصر اليوم جناز زوجة ميلينت .. هيا ! ،

وجر قدميه ، وهو يتوكأ على عصاه ، ويقف من آن إلى آن ليستريح على جانب الطريق .. وازدادت الجلبة عند بيت أيوجا ؛ وكانت الفيلا لا تزال تحترق دون لهب .. وتناولت يروفيرا يد القس وقبلتها ، ثم قادتة إلى الغرفة التي بها الفقيد ..

وغمغم القس ؛ وهو يلبس رداؤه ، بعد أن ألقى نظرة على جثمان الشريف ميرون قائلا : « رباه ! ! رباه ! ! لقد قضيت على الإنسان بمصر مرير ! ! إن أساليبك خافية علينا يا ربى ، تبارك اسمك ، والآن وأبد الأبدين ، آمين ! .

ولم يجد وصول القس من صخب الفلاحين في قليل أو كثير .. وتبعه بعضهم بصره حتى دخل البيت ، ثم ما لبثوا أن واصلوا ما كانوا فيه من نقاش .. وكان بعضهم يصيح صياحا عاليا ، أو يبحث عن أشياء يستولى عليها ، أما الغالبية منهم فكانت تتحدث ، جماعات متفرقة ، عن موضوع واحد هو توزيع الضيعة ، والأمل يلهده صدر كل منهم في أن ينال نصيبا أكبر من نصيب الآخرين .. وكان من رأيهم ؛ بعد أن ذهب الإشراف عنهم ؛ أن من الخير ألا يؤجلوا قياس الأرض ، لأنه لو ضمن كل منهم حصته فيكون من المحال على الإشراف العودة ،

لأن الفلاحين سيرفضون التنازل عن الأرض ؛ أحياء كانوا أم أمواتا . . وكان لهم جميعا رأى في كيفية توزيع الأرض توزيعا تتوافر فيه العدالة ؛ وبطبيعة الحال كان كل منهم يعتبر أن العدالة الحققة تتمثل فقط في الوسيلة التى تهيء له أحسن القطع ، وأقربها إلى القرية ، وبشرط أن تكون أكبر قليلا من حصة الآخرين . .

وعندما قال أحدهم إن القرى الأخرى قد تطالب أيضا بنصيب من الضيعة هبوا جميعا في وجهه ساخطين واستعدوا لضربه ضربا مبرحا، أما أشدهم فقرا فقد أرادوا أن يحرموا من التقسيم أولئك الذين كانوا يملكون فعلا بعض الأرض، وأنهم واهولاء بأنهم سبق أن بذلوا كل مافي طاقتهم من أجل شراء بابا ورجا وأنهم انضموا إلى الثورة متمنعين وأنهم يتوقعون أن يتساقط كل شيء في جحورهم دون أن يرفعوا إصبعاً من أصابعهم -- هكذا كانوا يجادلون بعضهم بعضا فقد كانوا جميعا رجالا بسطاء ولم يوجد بينهم من يتمتع بنفوذ كاف ليمرض نفسه زعيما تجب عليهم طاعته . . وحاول تودر ستريمبو أن يرفع عقيرته، ولكن القوم لم يلقوا إليه بالا في هذه اللحظة ذات الشأن... صحيح أنه هو وتريفون لا تموزهما غلظة القلب حين تشجر معركة أو حين يكون المرء في حاجة إلى الصخب وقلة الأدب، أما الآن فالمرء في حاجة إلى رجال ناضجين عقلاء يعرفون كيف يزنون الأمور ويديرونها... ولو أن الأب نيكوديم كان أصغر سنا وأكثر نشاطا لاستدعوه إليهم يباشر القسمة بينهم، بل إنه أفضل من المعلم دراجوس لو لم يلق به الإشراف في السجن .

وحدث لإيجنات سيرسل جماعة من الجماعات كبيرة العدد: هاهو ذا بيتر يتسا ، وهو رجل كان يفخر حتى ليلة الأسس بأنه لن يهدأ له بال حتى تنال العدالة تامة . . وهو ناصح أمين وهو ذكى أريب ويستطيع أن بدلنا على الطريق القويم ١ ،

و هكذا هم دائما الخوف يملأ قلوبهم ١ ، .

فهب لإيجنات : ما هذا ؟ أتقول إن بيتر يتسا خائف ؟ ما هذا الذى تقول له ؟ إن في مقدور بيتر يتسا أن يلعب على ثلاثة من أمثالك ، ومع ذلك تزعم أنه خائف ؟

لماذا يلزم بيته إذن ؟ لقد اتصف النهار .

ربما كان هناك ما يشغله في بيته، مثل أى واحد فينا، ولكن بيتر يتساعدا ييدا
فى عمل فهو لن يتركه قط حتى يفرغ منه والديه أيضا رحمة الله عليه كان رجلا
فاضلا وذا مقدرة لم تشهد القرية له مثيلا .

وظهر بيتر ونيكولاى دراجوس فى تلك اللحظة وكان قد شجر خلاف بين بيتر
وأمه فقد أرادت أن تمنعه من الخروج وأخذت تبكى وتولول بأن سوءا سيحيق به،
كذلك اضطر نيكولاى أن يقف فى وجه والديه وزوج أخيه، وكانت هى أشدهم
جزعا، فقد خافت أن يقع مكروه لزوجها أيونيل نتيجة لأفعال نيكولاى ..
ولقد توصل الشابان إلى تفاهم فيما بينهما دون أى كلام .. لقد ارتأى كل منهما أنه
قد فات الأوان للنكاح والارتداد، وأنه قد أصبح لزاما عليهما أن يمضيا فى الطريق
إلى نهايته المحتومة معهما حدث .. وتبين كلامهما، بعد أن تابا إلى رشفهما ، أن
عليهما أن يدفعا الثمن غاليا أكثر من غيرهما جزاء الأفعال التى اقترفاها القوم
جميعا، لو عادت الأمور سيرتها الأولى .. وهما، لهذا السبب، مالا على مركز
الشرطة .. وكان المكان مهجورا، وأبوابه مفتوحة، وكل شىء مبثر رأسا
على عقب .. وكانا يأملان أن يعثرا على بضعة مظاريف للبنادق التى استولوا عليها
من رجال الشرطة، وذلك حتى يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهما عند الضرورة ؛
ولكنهما لم يجدا شيئا هناك .. وقال أحدهم إن زوج الرقيب محبسة فى مكان
ما من القرية ، ولكن لم يعرف أحد أين كان هذا المكان .

وسرعان ما استغرقا فى حومة الاضطراب العام عندما اختلطا بالجمع .. ثم عاد
النقاش فى موضوع توزيع الضياع من بدايته .. وبعد حديث طويل لافائدة فيه
قال بيتر : « أنا لا أرى فى هذا خيرا ، فهذا العمل ليس عملنا ، لأننا فقطم سوف
تتخاصم وتتشاجر ، وإن فصل إلى اتفاق أبدا .. إنما هذا عمل المساح .. ومن
رأى أن نفتظر حتى تستقر الأمور قليلا ، ويستتب السلام ، وعندئذ سترسل
إلينا الحكومة المساحين ليقسموا الأرض على كل واحد حسب حصته ، وليعدوا
ويحصوا كل ما هو موجود .. أترؤنى قد أصبحت ؟ »

قال آخرون : « نعم الرأى !! سترسل لنا الحكومة المساحين ؛ وإلا فما معنى
أن تدفع الحكومة لهم أجورهم ؟ » .

قال إيجنات معتبطا : د نعم، سيوزع المساح الأرض بالعدل وحسب الأصول طالما ليس هناك أشرف ! .

وصاح ليوتى أوريسور متطرسا : د لقد فرغنا من الأشرف ! .. نحن لانريد أن نرى أحداً من الأشرف ! .

فنساءل نيكولاى دراجوس فى صوت ثقيل : د ربما نكون قد فرغنا منهم نحن باليوتى ، ولكن هل فرغوا هم منا ؟ .

وتماثل الاعتراضات من كل الجوانب ، وقالوا لهم لا يريدون ملاك الأرض بعد ، ولأنهم يفضلون الموت ، حتى آخر رجل فيهم ، عن أن يماهوا معاملة سيثية وأن يضطهدوا مرة أخرى .

قال بيتر : د أتم تصلحون للتفاخر فيما أرى ، ويجدر بكم أن تقوموا بعمل ماء.

— ٤ —

كان هناك صف كامل من ملاك الأرض اللاجئين ينتظرون فى محطة بيتسى .. وكان على رأسهم الوالى السابق بوريسكو ، فالرجل إزاء الضرورات القومية قد نحى جانبا الاعتبارات القائمة على البغضاء السياسية ، وقرر أن يسلم مكتبه للوالى الجديد ، وأن يعرفه خاصة بالموقف على حقيقته .. ولكن الواقع أن الكبرياء ، دون غيرها من البواعث الأخرى ، هى التى أجبرت بوريسكو على الكلام مع سلفه غصبا ؛ فقد كان شديد السخط على الفلاحين نا كرى الجميل ، فهم ، بعد أن كلف نفسه مشقة التنقل من قرية إلى قرية ، ينصحهم ويعلمهم كوالد لهم ، يراهم ينهضون إلى الإخلال بالأمن بمجرد أن يدير لهم ظهره .. لقدشق عليه هذا ، لم يستطع أن يضفره لهم .. بل إن الأوغاد اللثام ، فضلا عن ذلك ، لم يستكفوا من إشعال التيران فى بيته السكائن فى روشيو ، ولم يتورعوا عن نهبه .

وقام جريجور أويجا بواجب التعارف ؛ فقد كان بالولينو غريبا عن الديار لا يعرف أحداً .. ثم انسحب هو وتيتو هيرديليا حتى لا يقعا عاثما بين الرجلين

وعملهما الرسمي ؛ وهم على أية حال قد اتفقوا على أن يلتقوا للعشاء في المساء .. وأحاط جمع الفلاحين بالوالى الجديد، وجاءوا له بشتى المظالم .. وأصغى بالوليتو إلى بعضهم ، وعطف على بعضهم الآخر ، ولما رأى أنه بهذه الطريقة لن يتحرك خطوة عن المحطة ، خاضهم جميعا فى صوت يحتلج عاطفة تقتضيها ظروف الحال قائلاً : أيها السادة ؛ إني لأدرك حزنكم ، وأقدر الثورة الطبيعية التى تحتلج فى أعماق كل منكم ، بسبب الأعمال الإجرامية التى وقعت ضحية لها ! . ولقد حضرت لاتخذ الإجراءات اللازمة ، ولأعيد الأمن إلى نصابه .. اسمحوا لى إذن بمهلة عدة ساعات حتى أبحث الموقف ، وأنقضى البيانات الرسمية عن الأحداث التى وقعت فى هذه الولاية ، ثم أتم اتخاذ قرارا بشأنها .. وأرجو أن تقبوا فى أننا لن ندخر وسعا فى سبيل اقتضاء على متابعكم !! .

وتناول ساعد بوريسكو ، وشق له طريقا بين الجمع العاضب اليائس .. ولكن كثيراً من الأصوات الباكية واصلت نفس الشكوى :

« لقد جعلوا منا شحاذين هؤلاء اللصوص ! »

وكان أشدهم حقدا وضجيجا العقيد المتقاعد ، ستيفانسكو ، الذى صحبه الوالى إلى العربة ، وهو ينوح على طوال الطريق .

ولقد تركوفى شريدا ياسيدى ! .. ضاعت على أربعون سنة من التعب واستحالت هباء ! .. ولم أجد من يذود عني .. وسخروا هم منا ما شاءت لهم السخرية .. اللصوص ! .. لم يتركوا لى شيئا غير حياتى ، ياسيدى ! ..

وصافح جريجور أوجا معارفه العديدين على عجل ؛ وسمع ، فى أثناء مروره ، تنفامن الشكاوى . . كان يتلف على معرفة شيء عن والده وعن أمارا ولكنه لم يجرؤ على سؤال أحد صراحة ، لأنه أدرك أن هؤلاء الناس مشغولون بمتاعهم الخاصة ، ومن ثم فهم لا يحسون بالآلام الآخرين هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فهو يخشى على وجه الخصوص أن تتحقق أشد الهواجس سوءا وهى هواجس أخذت تزداد وطأة كلما اقتربت اللحظة التى لا بد له فيها من اكتشاف الحقيقة ، وسمع بغتة صوتا مألوفا وراءه : سيدى جريجورى تساء .. سيدى جريجورى تساء !! ،

«بيرونا أنت هنا أيضا .. قالها الشاب أيوجا وقد سعد بملاقاته .. ماذا حدث في بلدتنا؟ قل لي ، قل لي بسرعة فأنت لابد أن تعرف شيئا ..

ولم يشأ كوزما بيرونا أن يعترف من فوره بأنه قد هرب قبل أن يحدث شي .. وأجاب في صوت أكثر خنخنة مما تعود : «رباه .. أواه ياسيدي جريجورييتسا .. حطام وخراب .. أنا هربت كما تراه .. لقد سخرت مني عندما كنت أقول لك إن فلاحينا كلاب ، ولم تصدقني .. حقا ، لم يقع أسوأ مما وقع في آمارا .. هناك عش الثورة ، ومن هناك بدأ كل شيء .. مصيبة .. ولكنني مع ذلك أشكر الله على نجاتي ، على الأقل ، أنا وأسرق ؛ فأنا لو استمعت إلى السيد ميرون فالله يعلم ما كان يحق في من متاعب .. ولكنني فطن ، كما تعلم ، فلم أنتظر حتى تنشب الاضطرابات .. وحملت أسرق في عربة ، وأطلقت الخيول بأسرع ما تستطيع ..»

وألح جريجور : «تفهم أن والدي قد تخلف ، أليس كذلك ؟»

قال الملتزم مترددا : «الواقع ياسيدي جريجورييتسا ، أنه قد بقي هناك .. وأنت تعرف أي ضرب من الرجال هو ..»

وأصر أيوجا نافذ الصبر : «نعم ، ولكن ماذا حدث ؟»

واستطرد كوزما بيرونا ، وهو أشد جسارة قائلا : إن الناس يرددون هنا أشياء كثيرة ياسيدي جريجورييتسا .. ولكن ليس في مقدور أحد أن يعرف الحقيقة ؛ فند ليلة الأربعاء وخطوط التليفون مقطوعة ، وليس من سبيل إلى الاتصال بالقرية .. والأخبار التي يسمعها المرء هنا تنتشر سماعاً ، ولهذا لا يستطيع المرء أبداً أن يتعرف على الحقيقة .. وعلى أية حال فالمرء لا يمكنه أن يتوقع أي أخبار طيبة ، ولابد أن رجائنا قد سبوا خراباً عظيماً ؛ فهم قادرون على الشطط وتجاوز الحدود .. وأنا بالأمس التقيت بقاضى كوستسكى .. ولقد استعذت من الشيطان لما حدثني به .. ولقد جاء بالقطار هو والحامي الذي وفد من بوخارست مع السيدة نادينا ليبيع الضيعة السكاتمة في بابا روجا .. وأنت ربما تعرفه .. وما عاناه هذا الرجل المسكين جعل شعر رأسي يقف .. قال إنه نجا من الموت بأعجوبة جريا في

الحقول من جليجانو حتى كوستسى حيث وصل فى حالة مروعة .. وأنا ما كنت
أصدق أن الحال قد بلغت ما بلغت من سوء لو لم ألتق اليوم بيلانامونو ، فهو ..

وأخذ بيرىونا يقص كل ما وقع لبيلانامونو ، مع كثير من الحواشى والتنميق ،
وذلك تحاشيا لإخباره بما يقال فى المدينة عن ميرون أبوجا وعن نادينا . وتركوا
المحطة ، واخرقوا الميدان إلى المدينة .. ولحق بهم العقيد ستيفانكو ، فقد كان
يبحث عن جريجور بعد أن رآه فى محبة الوالى الجديد .. وطلب إليه على الفور
أن يدبر له مقابلة مع الوالى ، فقد كان يريد أن يأذن له بفرقة من الجنود وبمدفع
لو كان ذلك فى الإمكان ، حتى يستعيد ضيعته . ويؤدب الأوغاد الذين سلبوه كل
شئ ، وطرده شريطة .. وبعد أن وصف تفصيلا متاعبه التى تفوق كل حد ،
أخبر جريجور دون مواراة أو حذر بما ترددته الشائعات فى تلك الانحاء من أن
الفلاحين قتلوا ميرون أبوجا ، ولكنه أضاف أنه لا يعتقد هذا ، لأن الأوغاد لم
يقدموا على إراقة الدماء بعد ، رغم ما اقترفوا من جرائم شريرة .. ومن الشائعات
التي راجت كذلك أن نادينا قد قتل ، بعد أن اغتصبها كرها نفر من الأسافل ..
على أنه ينبغى النظر إلى هذه الأخبار كلها بتحفظ شديد .. فكل خبر ، بعد أن يمر
من فم إلى فم ، يندو مشوها مبالغاه .

واستطرد العقيد قائلاً : « لا داعى المبالغة ، فالحقيقة الواقعة رهبة فظيمة ..
كأنما كان ينقنا القتل حتى نأتى على خراب الناس !! . أما بالنسبة لى ، فأنا لو لم
أفكر فى بناتى المسكينات ، اللاتى لاعائن لهن فى الدنيا سوى ، لكنت جربت
قوتى مع هؤلاء الوحوش .. »

وواصل الكلام فى مصائبه مرة أخرى ، وكوزما بيرىونا يقاطعه أكثر من
مرة بقصد أن يقص متاعبه هو الآخر .. ولم يعد جريجور أبوجا يستمع لإيهما .
لقد استطاع أن يخمن مافيه الكفاية ، حتى من تمنع بيرىونا .. أما كلمات العقيد ،
بما فيها من قوة عسكرية ، فقد كان وقعها أليماً .. واستطاع أخيراً أن يتخلص
منهما معا فى الحديقة العامة . وعندئذ فقط تجاسر تيتو هيردينيا ، فقال مواسيا ،
ولكن عن غير اقتناع : « ربما لم يكن كل شئ صحيحاً .. »

فقال جريجور في أسي: «بل هو صحيح يا صديقي العزيز .. لقد شعرت بالمصيبة آتية ، قبل أيام قليلة وأنا في آمارا .. ولقد ماأنا نادم على أنني لم أبق بالبلد، ولو ضد رغبة والدي .. فأنا لو كنت هناك فربما لم تكن الأمور قد وصلت إلى ما وصلت !!»

أما بالولينو فقد وصل إلى مقر الوالي فوجد جماعة أخرى من اللاجئين ينتظرون... وقدم بوريسكو ليفيا من الموظفين إلى الوالي الجديد ، وأراه الأماكن الثائرة على خريطة الولاية المنصوبة على مكتبه .. وتناوله ملف التقارير عن الاضطرابات التي حدثت ، ولم يفس أن يسترعى انتباهه إلى أن بيته أيضا كان موضع السلب والنهب .. وشكره بالولينو ، وتبادل وإياه عبارات ودية خليقة بهمام ، ثم تخلص منه بعد أن رأى أنه يضعف وقته عبثا . ولم يشأ بالولينو أن يضعف دقيقة واحدة ، فقد كان متلهفا على أن يبرهن لرئيسه أنه أهل للثقة التي وضعها فيه .

واستدعي من فوره المدعي العمومي ، ومفتش الشرطة ، وقائد الجيش في منطقة بيتسي ، وكذلك رئيس محكمة الولاية ، وكان استدعاؤه لهذا مراعاة لرجال القضاء لا أكثر . وأخذ يدرس ملف التقارير، وخريطة الولاية في انتظار وصولهم .

قال يخاطب على الحكومة الأربعة عندما اجتمعوا في مكتبه في لحظة جد وحزم « أود ، أيها السادة ، أن يستتب الأمن والنظام في أرجاء هذه الولاية في غضون أيام ثلاثة ! »

وألقي خطبة وطنية قصيرة تفيض حماسا ، وكان لها وقع قوي .. أما المدعي العمومي ، توما جرييسكو ، وكان رجلا نحيلًا وادعا عديم اللحية ، فقد تطلع بإعجاب إلى وجه الوالي الجديد ، وكان تمتلئا مستديرا مهييا موحيا بالثقة ، وأوما مفتش الشرطة ، كوربولينو ، عبذا لكل كلمة ينطق بها رئيسه الجديد.. أما رئيس المحكمة ، مانولي أبو جليو ، وكان عجوزا شحيا زرى البيت ، فقد شعر بأنه غريب على هذه المناقشات ؛ إلا أنه كان يملك ضيعة صغيرة في الولاية ، وكان يخشى أن ينهبها الفلاحون ، فأراد أن يعرف التدابير الوقائية التي تزمع الحكومة الجديدة أن تتخذها .. أما القائد داردالات ، وكان على معرفة بأساليب بوريسكو فقد حاول أن يقاطعه مرتين ، ولكنه قوبل بالزجر في رفق وحزم .

قال بالولينو بابتسامة ساخرة : « لقد فرغت الآن مما أردت أن أقوله ، والآن جاء دورك للحديث أيها الجنرال ! » .

ولم يكن بالقائد رغبة في أن يقول شيئا ، غير أنه هو أيضا عانى خسائر معينة . قال ، وهو يسعل سعالا عاليا ، إن من رأيه استخدام متبى الشدة . وإلا انتشرت نيران الثورة إلى المناطق التي لم ير الفلاحون فيها بعد .

وأجاب الوالى بوقار : « هذا هو السبب الذى جعلهم يعهدون إلى بهذه المهمة الثقيلة ! » .

وسمع بالولينو من كوربولينو أن الشرطة فى القرى النائرة قد ضربوا ضربا مبرحا ، وطردوا من أماكنهم ، لأنهم كانوا قلة من حيث العدد ، ولأن أولى الأمر حرموا عليهم استخدام أسلحتهم ، فسأل القائد داردالات هل يستطيع أن يعمل على القوات الذين تحت إمرته فى حالة الطوارئ ؟ .

فأجاب القائد وقد جرحت كبريائه : « إن قواتى باسيدى تقوم بتنفيذ ما تؤمر به دائما ! » .

قال بالولينو ، وهو فى حيرة من أمره : « طبعا ، طبعا .. أنت لم تفهم قصدى فأنا لا أسمى الظن بقوات الجيش .. وإنما كنت أقصد هل من الممكن الاعتماد حقيقة على الجنود ، وبخاصة رجال الريف ؟ .. ولأنك تعلم أنه قد حدث خلل فى بعض الأماكن ، ولست أريد أن نؤخذ على غرة هنا ! » .

وأعاد القائد قوله : « لا ، لا باسيدى .. أنا كفيل برجالى » .

فقال الوالى فى هم : « على أية حال ، أنا أود أن تتأكد من عدم وجود جنود من المناطق النائرة فى الفرق التى يعهد إليها بأعمال القمع ، تجنبنا لأى تردد محتمل من جانبهم ! » .

وتطرق البحث إلى خطط الحملة التى تشن لتهديم الولاية .. وقرر بالولينو أن تستعد فرقة قوامها ألف رجل ، مع ستة مدافع ، فى الغد ، يوم الأحد ، الساعة

الثامنة صباحا ، قرب محطة كوستنسى . . وقرر أن يكون هو أيضا هناك ، ومعه مثلو القانون .

وانتهى بالولينو فقال في طبعة عسكرية : « يجب أن يقوم الجيش بسحق أى مقاومة على الفور ، طبعاً بعد التنبيهات القانونية ! » .

وتساءل القائد داردالات ، وكان تواقفاً إلى أن يبرهن للجميع على أن له أنسكاراً وأنه حذرٌ حذر أى قائد حريص . « ماذا فعل ياسيدى إذا ثارت القرى ثانية بعد أن ترحل عنها قوات الجيش ؟ » .

قال النوالى ، وهو يرفع رأسه فى عظمة ويمرر دكرشه فى أبهة . « عليك أن تبعد هذه القرى من فوق سطح الأرض أيها القائد ! » .

قال داردالات موافقاً : « أصبت ياسيدى ! » .

واستقبل بالولينو، حتى حل المساء، ملاك الأرض من اللاجئين ، وكانوا يشكون من الشكوى ؛ وبطالبون بتعويض عاجل عن الأضرار التى نزلت بهم ؛ أو بمعونة مالية كبيرة على الأقل ، وذلك حتى لا يتضوروا جوعاً فى شوارع المدينة . وطلب الكثيرون منهم أن تصاحبهم قوات خاصة إلى ضياعهم ، لتدفع عنهم ثورة الفلاحين عليهم ؛ كما أصر آخرون على أن يؤتى بالمدافع لإبادة أولئك الذين نهبوا ممتلكاتهم . وبذل الوالى وعوداً كثيرة رقيقة لكل من سأله ؛ ولكنه استأذن منصرفاً ، قائلاً إنه لا يستطيع أن يصرف انتباهه كله إلى شكواهم ، وإنما ينبغي أن يعصب اهتمامه أولاً إلى استعادة النظام . . وأكد لهم أن الحكومة ستعوضهم عن خسائرهم ، ثم دعاهم إلى تسجيل مطالبهم كل فيما يخصه . موضحين بالتفصيل ما حاق بهم من أضرار .

ولم يلق النوالى بحريجور أبوجا ونيقولا إلا حوالى الساعة التاسعة فى المطعم . . وعانق الوالى أبوجا الشاب فى رقة . فقد علم من بوريسكو بما حل بيمرون وقال :

« أنا لا أستطيع أن أعبر لك عن مبلغ حزنى يعجزى جريحوريكسا لو كان

الخبر صحيحا . . ولكنى أرجو غلظا أن يلف بنا الله . . .

وأكل وشرب بهم ، متجاهلا أنه شجيم الحليم ، وأخذ يثرثر دون انقطاع ، وهو لا ينفك عن إزاء المدح لنفسه خاصة من أجل التدابير البارعة التى اتخذها . وسنحت له فرصة بأن يوضح لها أن من دواعى سروره أن يأذن لها بصحبته حتى كوستنتى ، أما أبعد من ذلك فأمر محال للأسف الشديد ، لأنه من كوستنتى فصاعدا سيكون فى مهمة رسمية شاقة ، محظور على أى شخص ليست له صفة رسمية أن يسلط به .

قال جريجور فى حزم : « لا بد أن أتبعك رغم ذلك ، على مسافة معينة ، ولو بدون إذن منك . . هذا واجب يا ألكسندرو ! » .

فقال الوالى بحماسة : « طبعاً ، لاشك فى هذا . . لا تظن لحظة أنى لا أدرك مشاعرك يابنى العزيز . . لقد أردت فقط أن أقول إنى بصفى الرسمية . . »

فقال جريجور معانبا : « إن من واجب السلطات على الأقل ، وقد عجزت عن منع الكارثة ، ألا تمنعنى عما أريد ! » .

« طبعاً ! ! طبعاً ! ! » قالها بالواينو وهو يصالحه ، ثم حاول أن يغير الموضوع ، فأضاف بطلاقة : « وأنت ترى ، فضلاً عن ذلك ، أنى أعطيت أوامر مشددة بأن . . »

— ٥ —

وانتشر الخبر فى آمارا صباح الأحد بأن الجيش قادم . . . كان بعض أصحاب عربات النقل من القرى الأخرى المنتشرة أسفل الوادى عائدین إلى دورم من بيتسى ، فالتقوا بعدد كبير من الجنود والمدافع ؛ وظاهر أن ضابطاً يمتلئ صهوة جواد قد انهال عليهم سباً ، قائلاً : « سأعلمكم كيف تثورون ! » . . .

وحكى آخرون جاءوا من القرى الواقعة أعلى الوادى أن هناك إلى جوار كوستنتى جنوداً كثيرين بعدد أوراق الشجر ، أو أعواد الحشيش فى الحقول ؛ وأنهم على وشك أن يسرعوا فى إرجاع الأشراف ؛ إن لم يكونوا قد شرعوا فى ذلك فعلاً .

وأخذت آمارا تغلى .. وأثار الخبر أول الأمر بعض الفضول وهو يسرى في القرية .. وأخذ الفلاحون يكررونه، الواحد تلو الآخر، في عجب وحيرة، ويهزون رءوسهم، ويسألون بعضهم بعضا بلغة الميون .. فلما اقتنعوا بأن الخبر صحيح لا جدال، تحول العجب إلى دهشة بالغة .. قالوا : « ألم يعلموا بأمر الملك ؟ ألم أنهم لا يريدون طاعته ؟ ألم تراهم يمالئون الأشراف ؟ »

وشيثا فشيثا تملك أهل القرية غيظ وحق شديدان .. وتجمع جمهور من الرجال والنساء في الفراخ أمام الحان .. كانوا جميعا يتحدثون في خشونة ؛ وكان الهم العميق مرسوما على كل وجه .. وتدفعت الأسئلة من كل صوب : « لماذا يقدم الجيش ؟ .. أليقتلنا ؟ .. ماذا فعلنا بهم ؟ .. أنحن كلاب أم رجال ؟ .. لماذا لا يتركوتنا نعيش في سلام ؟ ألم يكف الأشراف ما أنزلوا بنا من ظلم ؟ .. »

وجاءت الإجابات تترى من هنا ومن هناك ؛ وكانت هيابة أول الأمر ، وما لبثت أن اتسمت بالجرأة والصخب .. « فليأت الجيش ! .. نحن لن نستسلم ! . خير لنا أن نموت عن آخرنا ، وأن نتخلص من جميع متاعنا ! .. نحن لا نخاف من الجيش ! .. سنهزم الجيش بفئوسنا لو وقف في وجهنا ! .. لا ظلم ولا اضطهاد بعد الآن ! .. هيا إلى القتال : »

وكانت النساء يهتفن بصوت أعلى من صوت الرجال .. وكانت أتغليتا ، ابنة نيتور موسينيكو ، تفشج في يؤس ؛ وطفلها بين ذراعها ، تصرخ في جنون ، وعيناها جاحظتان : لقد قتلوا زوجي في فرق الجيش ، ولكن هذا لم يكهم ، أماتهم الله ميتة الكلاب ! ! .. وليفتك بهم المرض والوباء ! ولتحرقهم نيران الجحيم كما حرقوا قلبي !

وخرج بوزوك ، ووقف أمام الحان راضيا ، وأخذ يستمع وهلة إلى الضجة . ثم انفجر فيهم زاجرا : « هيه يا فتیان ، لقد رفضتم أن تستمعوا إلى من أرادوا أن ينصحوكم بالتزام الهدوء ، والآن ... »

وهجم الفلاحون عليه في حقد ، كأنما لسعهم سوط ، وقد برهم أن يحدوا متفسا لبعضهم .. واستطاع بوزوك في اللحظة المناسبة أن يلوذ بالخان ، وأن يهرب منه

إلى داره . وجاء بعض الفلاحين لخطموا كل ما وقع في أيديهم ؛ أما البعض الآخر فقد عكفوا على الشراب .

واستمر الصخب دقائق قليلة لا أكثر .. ثم وصل بيتر خارج الحان مع جماعة من الشبان .

« لقد قدم بيتريسكا ! .. جاء بيتريسكا ! .. هاهو بيتريسكا .. انتظروا لحظة .
فقد قدم بيتريسكا ! » .

وتسأل بيتر وهو يرى القوم يتدافعون داخل الحان : « ما بالكم ؟ .. ماذا فعل العم كريستي حتى تقدموا على نهب دكانه ، كأنه واحد من الأشراف ؟ .. »

ورد بعض الفلاحين بأن انما لولا سبابا على صاحب الحان ، بينما اندفع آخرون يخبرونه بمقدم الجيش ، بعضهم من الخوف ، والبعض في غضب ، والكل يرفع إليه نظرات متسائلة ، كأنما كان مصدرهم يتوقف على جواب منه .. وكان لإيجنات سيرسل أشدهم غما : « ماذا ترانا فاعلون يا بيتريسكا ؟ قل لنا يربك ، حتى نعرف جميعا ما ينبغي أن نفعل ! » .

وتفحص بيتر الجمع الذي أحاط به بعينين نافذتين ، وقد توترت عضلات وجهه المعروق تحفه بشرته اللامعة المشدودة التي لفحتها الشمس .. ثم ما لبث أن أطلق ضحكة عالية ساخرة : « لو كنتم خائفين من الجيش فلم لم تبغوا في بيوتكم ؟ ما كان ينبغي لكم أبدا أن تشوروا في وجه الأشراف ، لو ظننتم أنهم لن يحرکوا ساكنا ، ويتركونا نأخذ الأرض ، بل ونوقع بهم بعض الأذى ! .. الأرض لا تؤخذ دون مقابل أبدا ! ! .. لابد من دفع الثمن ، إما نقداً ، وإما عن طريق شيء آخر ؛ ولكن دفع الثمن أمر محتم ! ! » .

وغغم إيجنات في صوت باك : « نحن لانخاف الجيش ، ولا داعى للسخرة منا ! .. ولكن يلزمنا أن نعرف ما ينبغي أن نفعل لو كانوا قادمين ! » .

واستطرد بيتر : « لا موجب للخوف على الإطلاق .. الجيش قادم فقط لإلقاء الرعب في قلوبنا ! »

وهتف تودر سترجمو غاضبا : « الأمر كما تقول الجنود غير مسموح لهم بأن يرفعوا أسلحتهم ضدنا ؛ لقد كنا جنودا نحن أيضا ، ونعرف جلية الأمور ! »

وأضاف نيكولاى دراجوس وقد كان رقيباً للجيش ، أن الضباط حتى لو أعطوا الأوامر بإطلاق النار على الفلاحين ، مباشرة ، لا فى الهواء ، فالأرجح ألا يطيع الجنود الأوامر الصادرة لهم ، بل ينضموا إلى صفوف آبائهم وإخوتهم .

فقال سيرافيم موجوس مرتابا : « ليست الأمور تجري كما تقول .. ! ولكن لا ينبغي أن نعلق آمالنا فى ذلك ؛ بعد ساعات قليلة، إن لم يكن قبل ذلك ، سنجد الجنود والشرطة فى القرية .. ويا لهول ماسوف ينزلون بنا من ضرب وعذاب .. »

واعترف بيتر بأن سيرافيم على حق ... ربما لن يطلق الجنود النار ، ولكنهم سوف يأتون بالشرطة وبملاك الأرض .

وهتف بيتر : « أما هذا فلا .. نحن إن نطيق الجيش بين ظهرائنا .. ليس للجيش شأن بقريةنا .. نحن اسنا بحاجة إلى الجيش هنا .. ليبقوا فى المدينة حماية الأشراف ، أما نحن فى مقدورنا حماية أنفسنا ! »

وكان ، وهو يصيح ، يزداد حدة وغضبا ، كما لو كان يناضل ضد أعداء غير مرئيين . وتقاطر الفلاحون حوله ، وهم ينفخون ويلهثون لما بذلوا من جهد فى الحان ؛ وكانوا يصرخون من أن إلى أن ليدلوا على قوتهم وشجاعتهم . أما أولئك الذين عكفوا على الشراب ، فقد ظلوا داخل الحن ، وانطلقوا يتغنون بأغنية حماسية ، وهم يلحنون بوزوك ويلعنون الأشراف .

وأصدر بيتر أمراً موجزا ، كأنه : الجيش ، قال : ليخرج كل واحد ، صغيرا وكبيرا ، إلى مشارف القرية ! .

وكان من الضروري أن يكرر بيتر عدة مرات أن على كل إنسان ألا يخرج صفر اليدين ؛ وإنما يجب أن يتسلح الجميع بأى شئ يتوافر لديهم ، أو على الأقل ، بعأس من الحديد .

وغنم بيتر ، وهو يرشم الصليب على صدره : « لتكن مشيئة الله ! » .

قال بالولينو وقد دخل القطار محطة كوستنسى : « الآن لابد لنا أن نفرق.
يا عزيزى جريجوريتسا .. لو أخذت بصيحتى ، ابق هنا وانتظر حتى أرسل فى
طلبك .. أنا أرجو أن أعمل على تهدئة القرية كلها الليلة ، بما فيها قريتك أمارا .
ثم بعدئذ تستطيع أن تذهب دون التعرض لآى خطر .. وداعا الآن يا بنى العزيز
إلى اللقاء يا سيد هيرنيليا .. »

ومد يده مصافحا ، وهو فى غاية التأثر .. وشحب وجهه الفليظ ، وتغير
صوته من أثر الانفعال .. ونزل إلى الرصيف فى وقار ، وهو خائر النفس
أو يكاد .. وتقدم الرائد تناسيسكو ، وكان يتولى قوات الجيش ، ففرقه بنفسه .
وكان رجلا كئ الحاجبين . منتعش الشارب ، له عينان حادثان وصوت أجش .
قال إنه يضع نفسه تحت إمرة الوالى ، طبقا للأوامر التى تلقاها سواء من القائد
داردالات ، الضابط الآمر ، أو من رئيسه المباشر .

وتساءل بالولينو : « كم لديك من القوات أيها الرائد ؟ » .

فأجاب الضابط : « كتيبة واحدة فى كامل عدتها ، وبطارية قوامها ستة مدافع .

وشكره الوالى فى جفاء ، ثم تطلع حواليه .. كان الرصيف هنا غاصا كذلك
بجماعة متلاحمة من اللاجئين ، هذا باستثناء فئة قليلة من الضباط .. ورأى من
الفطنة أن يتجه إليهم . حرصا على حب الناس له ، ومرضاة لحزبه السياسى ، قال :
« أيها السادة ، لقد جئنا لنعيد الأمن إلى نصابه ، وسوف نحقق هذا دون تأخير !
ولهذا نرجو منكم أن تمنحونا تفهما كاملا ، وأن تماونونا بالصبر ! »

وتقدم العقيد المتقاعد ستفانسكر إلى الامام ، وكان قد ركب نفس القطار
واستطاع أن يهمس فى أذن الرائد ، وأن يطلب إليه ألا ينساه ، فهو قد وضع كل
ثقتة فيه .. لقد شاءت إرادة الله ، وحسن طالعها ، أن يكون تناسيسكو هو الضابط
الذى يتولى الكتيبة المختلطة ؛ وهو هو الصديق القديم الذى وجدت بناته .

عند أسرته ملاذاً خوفاً من الفلاحين ، وهو أيضاً قد لجأ إليه بعد أن طرد من الضيعة .

وأسرع الوالى بعدئذ إلى ديوان المدينة ، يتبعه المسؤولون والضابط الأمر .. وهناك أدلى إليه مدير المقاطعة بما توافر لديه من معلومات عن الموقف فى القرى الثائرة .. ولم يكن التقرير باعثاً على الطمأنينة بأية حال ، وبخاصة لأنه أوحى بمقاومة رهيبة من جانب الفلاحين .. ولقد جاءت هذه الاخبار ، والحق يقال ، على لسان أناس كانوا من الهاربين ، أو المطرودين من ديارهم ؛ ولهذا نشرت الفزع والرعب عن قوة الثائرين وقسوتهم ووحشتهم .. وحافظ بالينو ، رغم وجيف قلبه ، على مظهره الخارجى من الهدوء ورباطة الجأش .

نحن على أية حال سوف نتقدم دون عجلة لا مبرر لها ، ودون أن نضمر حقداً ولا كراهية .. إننا نسالم المسالمين ، أما الآخرون فنستستخدم القوة ضدهم . نحن لا نريد إراقة الدماء ، ولكنتا لن نتردد فى استخدام السلاح عند الاقتضاء ، تلك هى المبادئ العامة التى نسير عليها ، أيها السادة ! .

وأطلعهم ، وخريطة الولاية منصوبة على الطاولة ، على الخطة التى كانت موضع البحث الليلة الماضية بمقر الولاية فى بيتسى .. واستقر رأى على أن يسافر هو والمدعى العام فى عربة على رأس الكتيبة .. ولكن الضابط استرعى انتباهه إلى أن هذه الخطة مخفوفة بالمخاطر ، والنس منه أن يسمح له بتطبيق التعليمات العسكرية التى تنص على تقدم القوات . وأدرك بالينو أنه يخاطر بحياته ، فتقبل اقتراح الرائد الذى يقضى بأن تذهب دورية قوية على رأسها ضابط ، فتستكشف القرى أولاً ، وتكفل لهم الاحترام والسلامة .

أما جريجور أبوجا ، وكان قد بقى فى المحطة مع هيرديليا الشاب ، فقد أحاط به أصدقاء عديدون ، ارتسم الاسى على ملامحهم .. كما تقضى ظروف الحال ، فقدموا إليه تعازيهم .. . ووقع بصـر جريجور على ايزابيسكو : « تعال هنا ، تعال ، تعال هنا يا رجل .. بالله حدثنى بما وقع . »

فأجاب كاتب الحسابات مبهوراً : « كيف حالك يا سيدى جريجور ينسا ! .

سأخفى لأنى لم أجرو .. يوجد آخرون هنا أيضاً من قريبنا ... الله وحده يعلم كيف هربوا من برائن أولئك الشياطين ..

ولم يكن جريجور قد لحظ الرقيب بونجيو، لا، ولا جاني الضرائب بيرزوتيسكو على الرغم من أنهما كانا واقفين عن كشب من إزباسيسكو ... والواقع أنه قد تلقى فى أقل من أربع وعشرين ساعة كثيراً من الأخبار السيئة التى انفطر لها قلبه ، ولكنه ما زال لا يعرف شيئاً على وجه التحديد ... كان قد استقى معلوماته كلها من الآخرين ، الذين تلقوها بدورهم عن أشخاص آخرين ... وكان الشك بضنيه أكثر مما لو عرف الحقيقة عارية ، مهما كانت قاسية ... وكانت لهفته على المذهب إلى أمارا بأقصى سرعة تسبب له ألماً مفضاً ، لا شئ إلا لأنه لا يرغب بحرقه فى الوصول إلى الحقيقة ... وكان واقفاً من أنه لو عرف الأمر على وجه التعيين لاستكانت روحه المعذبة العالقة .

وانطلقوا جميعاً فى الطريق ، وكل منهم يخبره بدوره بما يعرف .. وضاق من بيرزوتيسكو الذى أخذ يقص عليه تقلب حظه فى الحرب ، وقاطعه جريجور ومنعه من الكلام .. أما بونجيو فقد أخبره بأذى ذى بده ، والحزن ملء نفسه ، كيف بقيت زوجته بين الفلاحين ؟ وكيف توسلت إليه أن يذهب بها بعيداً ؛ وأنه لو وقع لها مكروه فسيحمل ضميره تبعاً لذلك إلى يوم الدين ... فلما فرغ من حكايته ، قص عليهم كيف نزع الثوار سلاحه ، وكيف طاردوه .. وجعل من هذا بطبيعة الحال قصة بطولية على نحو ما ، لإبقاء على كرامته ، فهو بمجرد أن اشتعلت النار فى روجينوزا ، انطلق إلى هناك ، واتخذ التدابير المناسبة لحصر الثيران كما تقضى اللوائح العسكرية ... ومن أسف أنه اصطدم أولاً بنجبت الفلاحين ولؤم طباعهم ، وثانياً بانعدام الماء تماماً ؛ ومن ثم لم يتبها له أن ينقذ أى شئ .. على أنه تمكن على الأقل من اقتفاء آثار المجرمين الذين أشعلوا الثيران ؛ فذهب فى غده ، وأخبر السيد ميرون الذى أمره بأن يفض الطرف عن الأمر . منعا لاستثارة الفلاحين أكثر من ذلك .. وما زاد الطين بلة أن جاء خبر يقول بأن النار تشتعل فى بيت السيد كوزما ، فانطلق دون إبطاء ليعمل على استئباب الأمن ، ولو اقتضى الأمر إطلاق الرصاص .. وظهر له أن اللصوص كانوا يعملون وفق خطة موضوعة ، وأن هناك مؤامرة

مدبرة ؛ فقد التقى قرب الحان بفر من الفلاحين تظاهروا بالهدوء والسلام ،
فاندمج في وسطهم ، وعندئذ ..

واستمع جريجور أبوجا حتى النهاية .. ها هو ذا يعلم أخيراً كيف نشبت
الفتنة .. ولسوف يعلم بقية القصة من ازباسيسكو .. ذلك أن الآخرين قد علوا
بوقاة ميرون أبوجا من ازباسيسكو نفسه .. ولقد غدا الفتى بطل الساعة ، منذ
أن وصل بالأمس في العاشرة ، إلى سوق قرية كوستسنى الصغيرة .. ولقد اضطر
أن يقص الغطات التي حدثت في آمارا أكثر من عشرين مرة على الأقل إلى
السادة الاشراف في كوستسنى .. بل إن عمدة المدينة طير الخبر رسمياً إلى الوالى
فالتقى الرعب في نفس الوالى السابق بوريسكو الذى لم يتوان عن بث الخبر
في المدينة بأسرها .. واستضاف العمدة ازباسيسكو ، وأخذته إلى بيته ، وأحضر له
بذلة بما يتحلى بها أهل المدينة من مساعد القاضى ؛ ولكن ازباسيسكو ، حرصاً
منه على أن يحتفظ بهالة الشهيد أطول وقت مستطاع ، لم يلبس البذلة
إلا هذا الصباح .

قال في صوت أليم خليق بالمناسبة : « إن حكايى أطول من ذلك ياسيدى
جريجور ينسا ! .. ولو شئت سمعها فتعال إلى منزل مضيفى العمدة . فنحن على
مقرية منه جداً ، وسوف أقصها عليك من البداية إلى النهاية ! .. آه ياربى ! لقد
امتدني العمر فرأيت أشياء ، ومررت بأشياء ما كنت لأصدق نفسي أنها قد
حدثت فعلاً ! .. أنا على الأقل نجوت حياً ، الحمد لله ، أما السيد ميرون رحمة
الله عليه .. »

فتساءل جريجور بصوت خنقته المبرات : « أهو قد توفي ؟ ... »

« لقد قتلوه ؛ اللثام .. »

« متى ؟ .. منذ بضعة أيام ؟ »

فأجاب ازباسيسكو : « يوم الجمعة . أول البارحة ، ساعة الغروب ! »

فتمنم جريجور وقلبه مثقل بالهم : « هيا بنا إلى منزل مضيفك ، وحدثنى بكل شيء ! »

استمر اجتماع الوالى بالضابط ورجال الحكومة بعض الوقت .. وكان من عادة بالوينو أن يكرر تعلياته عشرات المرات بالتفصيل، ليتأكد من أن القوم قد فهموه فهما دقيقا ... فعل هذا فى بيته ، وفعله فى مكتبه مع سكرتيره ، بل وأصر عليه اليوم وهو يتخذ قرارات قد تتوقف عليها حياته ومصير البلد كلها .. وأخيرا شعر بأن القوم قد أدركوا مقصده تماما ، فأتخذ سمة بطولية، وهتف فى نبرات نفيمه : « والآن أيها السادة ، إلى الأمام تأدية لواجبنا !! » .

واتخذ بالوينو مجلسه بجانب المدعى العمومى فى العربة التى كانت تسبقها فرقة من الجنود بينادق معبأة ، وأحزمة تبرز منها خراطيش الرصاص ؛ ومع ذلك فقد شعر بقلبه يخفق .. وذهب به الفكر إلى ميلانى ، وهى دامة العينين واجفة القلب ، وقد تركها على رصيف محطة الشمال .. كان كل أمل ألا يكون هذا نذير شؤم ! ... فالمره لا يستطيع أن يثق فى شيء ألبتة مع هؤلاء الفلاحين الذين أصابهم وباء من الجنون .. كانوا من الكثرة عددا بحيث لا يتأتى لآى جيش أن يتغلب عليهم .. ماذا لو أحرق بضعة آلاف من هؤلاء الاوغاد لجأة بهذه الحملة ، وهاجموها من جميع الجوانب ؟ .. كذلك أنت لا تستطيع أن تثق ثقة مطلقة بالجيش فى الواقع ؛ فأنت عندما تقف موقف المناوأة مع الفلاحين ، فربما أقدم جنودك على ذبحك ذبح النعاج فى أية لحظة .

وحدث بالوينو المدعى العمومى لجأة ، ليزيل عنه أفكار السوء ، ويشد من أزر شجاعته المتداعية ، قائلا : « كيف تفسر يا سيدى هذه الحقيقة وهى أن الإخلال بالأمن قد تجاوز المدى بالذات فى هذا البلد الفنى ؟ .

وما كان الناس قد عرفوا فى توما جريسيكو أنه من أصحاب النظريات الاجتماعية ، اللهم إلا نادرا حين يضطر فقط إلى إلقاء خطبة بوصفه نائبا عموميا ، ردا على دفاع المحامين على وجه الخصوص .. وكان فى مقدوره بطبيعة الحال ، فى هذه المناسبات ، أن يعد الخطبة سلفا .. ومن ثم هبط عليه سؤال الوالى على غرة ، ولم يتح له مهلة التفكير فى أسباب الثورة الحالية .. فبو ، ساعة الفراغ ، يسلى نفسه بالجلوس إلى مائدة اللعب ، شأنه شأن أى واحد آخر فى بيفسى من رجال الطبقة العالية .. ولهذا ردا ياجابة مهمة قائلا : « لقد كان هناك تراخ

في روح النظام وتحمل المسؤولية بوجه عام ياسيدى ، وأنا لأأدرى لماذا أو كيف ، لأن البحث في هذا الأمر يخرج عن حدود اختصاصى .. ولكن الظاهر أن المسؤولية الاجتماعية قد قلت كثيرا في كل مكان تقريبا في العهد الأخير .. لهذا كان رد فعل الفلاحين ، مثل جميع القوم البدائيين ، فورة فجائية من الوحشية .

أما الرائد تناسيسكو فكان ، على جواده الحكيم الرائع ، يتخطر متمهلا أمام القسم الرئيسى من القوات ، بل وأمام طليعة الجيش التى تسير فى إثر دورية الاستكشاف .. وشهده بالولينو ، وهو يعود راكضا بأقصى سرعة ، فارتعدت فرائصه .. نعم ، لقد كان فى وسع المرء أن يرى مشارف القرية من ذلك الاتجاه .. ووضع يده على ساعد المدعى العموى ليجد من تدفق أفكاره ، وما فى ذلك من جهد : لحظة واحدة من فضلك .. ماذا حدث ؟ .. لماذا يركض الرائد هكذا ؟

والواقع أن تناسيسكو كان يسرع عائدا ليبلغهم بأن كل شئ هادئ فى قرية فلادوتا .. وصحيح أن الفلاحين هناك سبق أن أضرموا النار فى بيت الدائرة ، ونهبوا المكان ، أما الآن فقد عادوا إلى صوابهم . وكانوا يطلبون النصف والفقران .. وقرر بالولينو أن يترك فى القرية فرقة من الجنود ، تحت إمرة ضابط ، تجنبا لآية فتنة فى المستقبل .

قال بالولينو ، وقد اطمأن بالا : « برافو ، أيها الرائد .. شكرا لك ! » .

وتقاطرت القرية كلها فى الحارة الواقعة أمام بيت الدائرة .. فلما وصلت العربية ، وبها الوالى ، هتف الرائد تناسيسكو ، وكان قد ركض إلى هناك من قبل : « اركعوا ، أيها اللصوص ، وإلا قطعتم إربا إربا !! »

ووقع كل واحد على ركبته .. وأحس بالولينو بالامتنان نحو الرائد الذى أظهر هذا الحزم الشديد ؛ وتدلّى من العربية ، واقترب من جمهور الناس الساجدين ، وهتف وفى صوته مسحة من الشفقة المصطنعة : « ماذا فعلتم أيها البؤساء ؟ ! » .

وتعالت مئات الأصوات فى لعنة وبكاء : « ساعنا ياسيدى !! رحمة بنا !! »

قال الوالى : « أنتم نادمون على ما فعلتم ؟ » .

وصاحت جبهة الرجال الساجدين : « غفر الله لنا آثامنا 11 رحمة بنا ،
وشفقة علينا 1 » .

وأذرمم الرائد بأن عليهم أن يدفعوا تعويضا عن الأضرار حتى آخر ملهم ،
وبأن أولئك الذين بئيت عليهم الإجرام سينالهم القانون بمنتهى الشدة ، ثم قرأ
عليهم نداء الحكومة ، وشرع يوضحه لهم ، ثم أضاف إلى ما جاء فيه من ألفاظ
تدل على التسامح ، وتفيض بالوعود ، قال : « كل من يعترف جريمة ، مهما كانت
ثاقفة ، وكل من لا يخضع لهذه التعليمات ، سوف يعدم فوراً ، ودون محاكمة 11 .
كذلك من المحظور على كل إنسان أن يترك القرية دون إذن من الضابط الذى
سيبقى هنا على رأس قوات الجيش 1 » .

ثم أعطى الأمر إلى الملازم لىبقى مع رجاله ، تحت تصرف العقيد ستيفانيسكو
الذى سوف يهمل على وجه السرعة ، ويقدم له العون ما وسعه الجهد .

وكان الوالى فى غاية السرور .. فهذا الضابط منية المتعنى . بل إنه فكر فى
أن يطلب له وساما ، لو استمر على هذا النحو حتى النهاية .. ولكن لا بد له من
التسامح ، بوصفه رجلا مدنيا وممثلا للحكومة من الوجهة السياسية .. فالحكومة
فى حاجة إلى عطف المواطنين ، ولو كانوا من الفلاحين .. أما الجيش فكان
لا يعبأ بعطف أحد أيا كان ، وكل إنسان مضطر إلى أن يظهر الود للجيش ؛ وهو
إذا لم يحب الجيش ، أو نهض ضد الجيش ، فصييره حتما إلى السجن ، نعم ،
ليت الحكومة أيضا تستطيع أن تجبر الناس على إظهار ود لا يزول .

وكان خطاب الوالى فى القرية التالية ، أيونيسى ، خطابا أشد لنا ، لأنه لم
تحدث اضطرابات هناك ؛ ولكن من الحق القول بأنه لم يكن هناك كذلك بيت
من بيوت ملاك الأرض .

وعاد الرائد تاسيسكو ، بمجرد أن تركت الكتيبة أيونيسى ، فذهب إلى
الفصيلة التى فى المؤخرة ليلقى بأمر أخير إلى التقيب الذى كان يتولى تبعة إعادة
الأمن إلى القرى الواقعة على الجانب الأيمن من تيلورمان حتى إيزفورو ..

وفي باباروجا أمر القائد بوضع فرقة تحت إمرة ملازم على طوال الخط الممتد بين جليجانو وليسينى ؛ حماية لجناح القوات ؛ فلما علم الملازم بأن الاضطرابات في جليجانو كانت أشد خطورة من غيرها ، كان يتعين عليه أن يتخذ كافة الاحتياطات الممكنة ، وأن يبقى ، عند الاقتضاء ، بالفرقة كلها لاحتلال القرية ، ثم حسبه أن أن يرسل دورية إلى ليسينى ، وهى نقطة التجمع ، ليقدم تقريراً عن الموقف .

وواصلت الكتيبة الرئيسية المسير صوب بيرلوجو ، فى طريق لم يخل من عربات النقل .. فلما بلغوا بيرلوجو دهش الوالى وسر إذ شهد قطعة من القماش الأبيض منصوبة على كل باب ، علامة على طلب السلام .

« عجا ١١ .. اخق أن هذه قرية متمدنة ! ، صرح بها بالولينو عندما سمع بأنه لم يقع ما يدل على وجود تمرد .. فلم تمتد يد إلى بيت القرية المتواضع ، وهو بيت مهجور لا يقطنه أحد ، وإنما كان يستخدم فقط مخزناً للحبوب .

وكانت هناك جماعة من الفلاحين تنتظر وصول القوات فى ديوان القرية .. وخطب الوالى ، فأرجى إليهم المديح على التزام الهدوء . ثم قال إن الحكومة معنية بمطالبهم ، وأنها قررت أن تمنح جميع التسهيلات إلى أولئك الذين سلكوا مسلكاً حميداً ، وأنها عازمة على مساعدتهم بكل وسيلة .. وبرهاناً منه على اهتمام الحكومة ، قرأ عليهم فى تودة ، وفى صوت اهتز من الانفعال ، قائمة الإصلاحات شارحاً لهم فى كلمات سهلة الفقرات التى بدت على شيء من الغموض .. وأوصى إليه الفلاحون حاسرى الرؤوس . وجباهم مغضنة ، ونظراتهم زائفة حائرة ..

« إلى اللقاء أيها الشعب الطيب ، عليكم بالتزام الصراط المستقيم مستقبلاً كذلك ، هتف بها بالولينو فى نهاية خطبته ثم صعد إلى العربة .

وانطلق ، على طوال الطريق إلى ليسينى . أثنى زهاء نصف الساعة ، فأسهب فى مزايا هؤلاء القرويين الشجعان الذين واتهم الشجاعة الخلقية خافضوا على الأمن فى معمة الحريق الذى انتشر فى جميع أرجاء الولاية كلها . أما المدعى جريسيكو فقد أخذ على عاتقه . معتمداً على خبرته الطويلة فى المسائل الجنائية . فأشار بأن اللواعى العملية تقتضى القيام على الفور بإجراء تحقيقات سريعة فى القرى التى يمر من

بها ، بقصد اكتشاف الروس المحرزة ، وإلقاء القبض عليهم ، منعا للقلاقل من البدء من جديد.

فأجاب الوالى فى طلاقة : « طبعاً ، وأليك صائب من الوجهة القانونية ! .. ولكن يجب علينا يا سيدى العزيز ، أن نأخذ العامل السياسى فى الاعتبار ! .. »
لقد أصبحت الاضطرابات ذات صبغة عامة جداً ، والثورة تمشت حماها فى عقول الناس .. ويتمعن علينا أولاً أن نعمل على تهدئتهم .. ومن واجبتنا تهدئة الفلاحين ، دون أن نخشى من مقابلة الشر بالشر ، الأمر الذى قد يثير حفيظتهم ، ومن ثم يزيد من خطورة الموقف .. أما المذبذبون فلا بد من إيقاع العقاب بهم لا جدال ، ليكونوا عبرة لغيرهم ، ولكن فقط بعد أن يتأتى لنا التخفيف من حدة التوتر .. ثم بعدئذ تبدأ الإجراءات ، وتطبق العقوبات الرادعة ، منعا لتكرار حدوث هذه الكارثة القومية ! ..

فلما بلغوا حدود قرية ليسيلى ، قال الرائد تناسيسكو وهو يتميز من الفيلظ :
« هذه قرية من المجرمين يا سيدى ! .. لقد وقعت جرائم قتل هنا ! .. وهنا يجب علينا أن .. »

قال بالولينو ، وفرائمه ترتد : « أهدأ أيها الرائد ، أهدأ .. إن مهمتنا البتة للقاية ، ولهذا يجب علينا أن نلتزم جانب الهدوء تماماً ! .. »

وذهب الرائد بالولينو إلى الكنيسة ، وهو يزجر وينغمم بالشتم .. وكان على باب الكنيسة قس شاب حليق اللحية ، ارتسمت على وجهه علامة الفزع ، لأن الرائد كمال له السباب ، وتوعده بأن يطلق عليه الرصاص .

قال القس متلعثماً ، وهو ينحن فى ذلة : « لا حيلة لنا يا سيدى — لقد عجزنا عن الوقوف أمام .. »

« افصح الطريق يا نذل ! ، قالها الرائد وهو يدفعه بكوعه جانباً من المدخل .

كانت جثة ناديتا راقدة قرب المذبح ، على نعش حديث العهد ، وقد أسدل عليها كفن .. ورفع الرائد طرف الكفن ، فكشف عن وجه مشوه مكدم .. وأشاح

بالوليتو بوجهه ، وهو يصيح في أسى : الوحوش ، !! الوحوش !! . . يا للدرأة المسكينة !! . .

وخطا إلى الخارج على عجل . . وقد امتلأ أنفه برائحة خائفة ، كانت مزعجة إلى حد أصابه بالفتيان . . وجذب الرجل هواه نقياً إلى رثيئة عدة مرات ، وهو يتفوه بكلمات غاضبة ، حتى وقعت عيناه على القس الشاب الذى ظل دون حراك قريباً من المدخل .

« برك أيها الأب ، كيف سمحت بهذه الفعلة ؟ . . مسكين جريجورييتسا ! سيدفطر قلبه حين . . . »

وانتمس القس المعاذير باكياً . . لقد حدث كل شيء فجأة ، فلم يتمكن هو ولا أى أحد آخر من التدخل . . وتبين هو بعدئذ أن نفرا من رجال آمارا قد حرصوا على هذه الجريمة ، وأنهم قد اقترفوا بعض الأفعال التكرار . . ولقد عرف من هم المجرمون ، كذلك عرفت القرية كلها ، ولكنه لم يجرؤ على فضح أسماهم مخافة أن يجعل حياته مستحيلة في ليسيزى . . وأخبر الوالى كيف أنقذ ماتي دولمانو جثمان السيدة حين أضرم القوغاء النار في البيت ، وكيف رقد هو في الكنيسة ، إلى جوار المذبح ، حتى لا يمثل أى مخبول بالجنان على أى وجه من الوجوه ، وهو أمر قد يحدث هذه الأيام التى شهدت اضطرابات لا مثيل لها . . واستطرد القس فقال إنه أخفى في بيته السائق الألمانى ، معرضاً نفسه لمخاطرة كبيرة ؛ وكان مصاباً بجراح ؛ وقد توعد الناس بالقتل ؛ أخذاً بالنار . .

وهتف بالوليتو في هلع : « كفى !! سوف تتخذ الإجراءات اللازمة . . وحتى ذلك الحين .. أين العملة ؟ . . »

« ليس لدينا عمدة في هذه القرية .. فنحن نقبع آمارا .. »

ولم يلق بالوليتو بالا إلى جواب القس ، وتلفت إلى النائب العمومى ، وأخبره بأمر نادينا وجريجور ، مشفقاً عليهما معاً سواء بسواء .

وتنهذ متأسياً في شيء من الوقار : « ولكن يتعين علينا أن نلزم الهدوء ؛ ولا بد

أن تتألك أنفسنا .. هيا بنا نؤدى واجبنا .

وقطع حارة القرية ؛ وهو يقاب في خاطره الخطبة التى يريد أن يلقيها على الفلاحين الذين احتشدوا أمام أطلال بيت جوجو أبونيسكو . وعزم على أن يعنفهم فى قسوة ؛ ولكن دون أن يثير غضبهم ؛ تحاشيا للمخاطر التى تتعرض لها حملة التهدة التى بدأت فى ظل ظروف مواتية . . وكان الرائد قد تركه ليصدر أمراً من الأوامر ؛ فلما عاد كان فى شدة الغضب ؛ لقد رفض الأوغاد أن يستمعوا لى شىء يا سيدى . ولو مضينا هكذا فستعرض للهجوم علينا يا سيدى ! .. إنهم يظنون أننا خائفون منهم يا سيدى ! .

وكان قد تلقى إشارة من الملازم الذى يتولى الفرقة التى أرسلت لى جليجانو أفاد فيها بأنه اضطر لى البقاء حيث كان ؛ لأن الموقف فى غاية الاضطراب . . وفى نفس الوقت ؛ استرعى بعضهم اقتباهه لى سحابة من الدخان ترتفع فى اتجاه بيرلوجو . . لقد رد هؤلاء الأوغاد على الكلمات الطيبة ؛ والإطراء الذى أزعجهم لىهم قبل ذلك بمرحة قصيرة ؛ وعلى الإصلاحات والتسهيلات التى وردت فى نداء الحكومة ؛ فأشعلوا النيران فى بيت المائدة بمجرد أن خلفت القوات القرية . . كان هذا أمراً خطيراً . . فهم إذا كانوا قد جرموا على الثورة ؛ وهم على مقربة قرية من مؤخرة الجيش ؛ فمعنى هذا أن الشر متأصل فى نفوسهم ، على غير ما ظن أولاً . . وحدث الرائد تناسيسكو الوالى صراحة ؛ قال إنه لا يستطيع أن يترك الأمور تجري على عواهنها حتى تتم حركة التفاف حوله ؛ لأن مسئولية الحفاظ على القوات تقع على عاتقه كاملة . . وامتلاك نفس بالوليفو رعبا . . لقد رأى نفسه محاطا بمصائب من الفلاحين المتوحشين ؛ فأشبعوه ضربا وعذابا وقتلا . . حقا ؛ لقد أوشكت هواجس ميلانى أن تتحقق .

قال لجأه ، وقد رنت فى صوته رجفة خفيفة : « أرجوك أيها القائد ، خذ من التدابير ما تراه ضروريا . »

وأرسل الرائد فرقة ، قوامها فصيلتان ؛ لاستعادة الأمن فى بيرلوجو . وتقرر لىزال العقاب بالقرية كلها فوراً ، عبرة لغيرها ، كما تقرر أن يضرب الرجال والنساء والأطفال ، دون استثناء . . ولو بدت أدنى مقاومة ؛ فإن لدى الجنود أوامر

بإطلاق النار ، واستخدام المدافع عند الاقتضاء لإزالة هذا العش من الثوار من فوق ظهر الأرض .

وما كادت الفرقة تشرع في المسير صوب بيرلوجو حتى عادت دورية الاستكشاف من أماما ، فأقادت بأب الفلاحين هناك ، وقد تسلحوا بالمناجل والفتوس والمطارق ويضعة أسلحة نارية ، قد تجمعوا على مشارف القرية ، ورفضوا أن يسمحوا للجنود بالمضي في المسير ، وهددوا بقتل الضابط إذا حاول أن يدخل القرية .

وشجب وجه بالوينو . . وشعر بأنه قد وقع في فخ رهيب . . . حقا لقد أصاب رجل الإدارة حين قال إن الفلاحين منظمون تنظيما جيدا ، ولأنهم قادرون على مواجهة الجيش .

وتساءل في صوت أجش ، وهو في حيرة من أمره : ماذا بعد ، أيها الرائد؟ .

وتأققت عينا تاسيسكو في سخط ، وأجاب في شراسة : « اترك الأمر لي يا سيدي ، فنحن نعرف كيف نعالجهم . . . »

وألقي بأوامر . . وتحركت القوات إلى الأمام . . ثم سأل بالوينو تاسيسكو وهو يصعد إلى عربته ، كأنما كان يضبط صمام أمان رئيسي ، فقال في نبرات هامسة حتى لا تترأى إلى سمع الآخرين : « أرجو أن تكون متأكدا من رجالك أيها الرائد ! ! » .

« الجندي الرماني مطيع للأوامر ياسيدي . . هو أكثر الجنود ولاء في العالم ! ! » .

وخلفوا ليسيزي وراهم . فأسر الوالى إلى المدعى العام : « في مقدورك أن تتخيل ماذا يمكن أن يحدث ؟ ونحن في هذا الموقف ، لو لم نستند إلى قوة الجيش ! . يا لها من كارثة ! ! أنا أتكلم بطبيعة الحال ، على وجه العموم ، دون أن أفكر في المصير الذي ينتظر أولئك الذين يضحون بأرواحهم ، مثلنا ، من أجل مصلحة البلاد ! ! » .

كان الفلاحون يتدافعون جيئةً وذهاباً على حدود القرية الممتدة على الطريق الرئيسي وخلال الضواحي .. كانوا ينتظرون ، ووجوههم متوهجة وعيونهم لامية ، ويمشون بعضهم بعضاً ، كأنهم في حفل عرس عظيم .. وكان في جعبة كل واحد شيئاً يقوله ، كأنما كان الآخرون لا يعرفون شيئاً ، بل وكأنما كانوا غير موجودين ، فكانوا جميعاً يكررون نفس الأشياء ، بنفس الالفاظ تقريباً .. وقلما كانت تخيم فترة هدوء في خضم الضجيج ، فقد كانوا يضيقون بالصمت الذي يندر بالسوء ، فيحاولون أن يطردوه عنهم بمزيد من الصيحات المدوية ، كأنما كانوا جميعاً يخشون أن يستيقظوا من أحلام سعيدة أرجاها الشراب ،

وتعالت عدة أصوات في لحظة واحدة : « انظروا ، هاهم يعودون مرة أخرى !! » .

وعزت الوجوه كلها صوب ليسيزى .. كانوا يعرفون أن الجنود سيعودون ، ولكن كلا منهم كان يأمل في صميم نفسه ألا يعودوا ..

« وصرخ بيتر بيتر في صوت حاد التبرات ، أتتبه فغير تام بحيث بدا غير صوته :
« ليأتوا ، ليأتوا .. ألسنا على استعداد لهم ؟ » .

وأمسك نيكولاي دراجوس بمنجل ، وكان واقفاً إلى جوار بيتر ، وغنم بسباب مفعم بالحق : « سنفتك بهم ، لمنة الله عليهم .. » .

والتصق السباب بحلقومه ، وركز بأسنانه .. أما شيريلابون ، وكان يلزم نيكولاي ، فقد أخذ يولول ولولة عجوز شتلاء .. وتناول البندقية التي استولى عليها من الشرطة ، ورفعها إلى عل متوعداً كأنها صولجان .. وعلى مدى بعيد ، بين الجمع الذي يتدافع بالمناكب ، وقف تودر ستريمبو ، وقد تسلىح على نفس النحو ، وهو يقسم أيماناً مغلفة بأنه لن يهدأ له بال حتى يسحق رأس الضابط الذي يتولى قيادة القوات ، ولو كان برتبة جنرال .. أما سيرافيم موجوس ، وقد عاد إليه الصمت والعبوس ، فقد كان يملك بندقية كذلك ، وهي بندقية الرقيب

بونجيو ، فملقها على منكبه كما يفعل الجندى الصميم ، رغم أنه لم يؤد الخدمة العسكرية قط . . أما إيلياء سيرلان فقد وقف وراء بيتى ، تابعا له كظله ، وكان يلوح كذلك بيندية ، ويصرخ دون انقطاع ، كأنما قد عجز عن أن يفكر فى أى شىء آخر : « حدثهم يا بيتريسا ! . . حدثهم يا بيتريسا ! . . » وانطلقت الصيحات والشنائم فى مكان بعينه ، ثم منه إلى مكان آخر . . كان الغضب يبرق فى عيونهم ، وينساب من حناجرهم ، نفسا مسموماً يلف الجميع كله بفشاوة غير منظورة . . وكانت المناجل والمطارق والفئوس والمجارف تهتز فى الهواء متوعدة الخطر الداهم ، إرهابا له ومنمه عن التقدم . . وكانت الصرخات تبعث مدوية من النساء والأطفال فتمرق فى اللجب الذى يشيره الرجال كما تمرق الدبابيس العديدة وتحز فى قطعة من الخيش السميك .

واستمر الصخب واللجب ، وأما كتيبة الجنود فقد زحفت على طول الطريق الرئيسى كأنها حشرة سوداء هائلة . . وتساقطت أشعة الشمس وتداعب الحراب اللامعة ، فنبعث منها وميضاً اهتز فى الهواء . . وسرعان ما أمكن تمييز الجنود ، ثم الفرسان ، فالعربة المفتوحة وبها الوالى والمدعى العام ، ثم المدافع التى تجر كل منها ستة جياد ؛ فإذا بالجند العجيب يفتى كأنه ذنب منبسط ذو جرس معدنى .

وكلما اقترب الجنود علا ضجيج الفلاحين إلى غنان السماء ، متوعداً وحشياً . . وانتثر جمهور الرجال على طول الطريق الرئيسى ، وقلوا سمكا ، كأنما كانوا جميعا يتوقون إلى رؤية العدو ومواجهته .

وصدر نداء غليظ فى طليعة الكتيبة ، فتابعت فصيلتان فى صفوف منتظمة ، بعضها إلى يسار الطريق ، وبعضها إلى يمينه ثم توقفتا فجأة على مدى نحو مائة ياردة من جمهور الفلاحين . . وظهرت بين الفصيلتين ، على الطريق ، عربة الوالى بالولينو ، وقد حف بها الرائد على صهوة حصانه .

قال الوالى متلعثما ، ووجهه شاحب شحوب الموت : « عليك بالهدوء ، أيتها الرائد ، عليك بالهدوء ! ، ونزل من العربة خائراً ، وتبعه المدعى العمومى ، وكان أهدأ القوم جميعا .

قال الرائد تناسيكو وهو يلوح بسوط الفرسان ذى القبضة الفضية في عنف بالغ جعل الحصان يرهف أذنيه : « سماع وطاعة ياسيدى .. فى مقدورك الآن أن ترى وأن تسمع ، ولملك تقتنع بأنهم لا يستأهلون شيئا غير الرصاص والحرايب ! » .

قتلعم بالولينو ، وأسانه تصطك ، وأوصاله ترتعد : « لا لا . يجب علينا أولا .. » ، وتمزق قلبه رعبا مبهما هتف به من أن الجنود سيتآخون مع الفلاحين ، ويفتكون به وبصحبته .

وأخذت جموع الفلاحين أترغخ لجأة ، كأنها ماء راكد ورققه نسيم هب من حيث لا يدرون .. وتمايلوا هنا وهناك ، ولكن ضجة الصراخ أعطتهم مظهرا عدائيا : « نحن لا نريد ملاك الأرض بعد ..! هل جئتم لتقتلونا ؟ . أنتم ، أيها الجنود ، لا تخيفوننا ..! لقد هزأ بنا الأشراف بما فيه الكفاية ..! اغربوا عنا ..! لا تطلقوا النار علينا أيها الأخوة ! »

ووقف الوالى لا يتحرك من مكانه ، وجعل يحملق فى الغوغاء ، مغمضا لنفسه دون انقطاع : « عليكم بالهدوء أيها السادة ، عليكم بالهدوء ..! »

وبقى المدعى العموى جريسيكو يضع خطوات إلى الورا ؛ أما الرائد فقد عجز عن أن يتمالك زمام نفسه ، فدغدغ جانبي الحصان بمهمازيه ، فجعله يظفر ويخطو إلى جانب .

ولجأة اندفعت أنغلينا ، ابنة نستور موسينيكو ، وقد أرسلت شعرها دون انتظام ، ومندبيلها ساقط على ظهرها ، وطفلها بين ذراعيها . واقتربت من بالولينو ، صارخة لاعنة فى صوت يائس .

أما أنطون ، مجنون القرية ، فقد جرى وراءها ، كأنما يريد أن يحميها ، وشدها إلى الخلف ، هاتفا : « لا تصخوا إلى هذه المرأة ، إنها فاقدة الوعي من شدة الجزع ، وهى لا تعرف معنى ما تقول .. انصرفى يا أنغلينا ..! اسكى ، واتركينى أخبرهم بما أمرني به الرب ..! لقد دنت ساعة الحساب ، ولا بد للناس أن يعرفوا الحقيقة ..! »

أيها الأخوة لا تنفخوا هناك عابسين ، وبنادقكم موجهة نحو أشقائكم المساكين ...
ألا حولوا أسلحتكم ضد الشيطان الذى أرسلكم لقتل الأبرياء و ...

وانسابت كلماته تيارا من الشرر ، يكاد يضرم الذهب فى أى شئ يصادفه فى
الطريق ؛ وارتفع صوته مبيها ، فطلى على صخب الجهور ، كأنه مطرب عبقرى
تصحبه جوقة من العالقة المتوحشين .

ووقف الجنود ، أمام الغوغاء الصاخبين ، واصطفوا دون حراك على جانبي
الطريق ، كتأثيل سوداء باردة ، أو آلات تجرى فيها الدماء .. كانت عيونهم وحدها
هى التى ترف فى وجوههم التى لفحتها الشمس .

وعلى الطريق الرئيسى ، بين الصفين المتراخين من الجنود ، كأنهما بوابة تطل
على عالم الجحيم ، أخذ الوالى بالولينو ، والمدعى العام ، والرائد تاسيسكو يتمشون
بجيتة وذهابا ؛ ومن ورائهم وقفت العربية بجوادها الاثني ، كما وقف الجزء الرئيسى
من القوات دون حراك ، فى هيئة استعداد ؛ أما بطارية المدفعية فكانت فى المؤخرة .

وهتف الوالى مضطربا ، وهو يكرر نداء الحكومة الذى فى يمينه : « ماذا نحن
فاعلون .. ماذا نحن فاعلون ؟ .. ماذا نفعل أيها الرائد ؟ .. ياسيد جريسيكو ! .. »

وصاح الرائد ، وهو يلتف بجواده إلى اليمين وإلى اليسار ، كأنما كان فى عرض
عسكرى : « لقد جن جنون اللثام .. لإنهم قادرون على الهجوم على القوات ،
وسوف ترى ياسيدى ! .. »

فقال بالولينو ، وقد اشتد به الارتباك ، وعيناه شاخصتان إلى جبهة الفلاحين
الاثنتين ، فبدو وكأنهم يقتربون شيئا فشيئا ، رغم أنهم لموا موضعهم ، وقد
ارتسم على أساريرهم نفس التحدى ، قال : « ولكن أيها السادة ، يتعين علينا أن
نقرأ النداء .. ! ما رأيك أيها المدعى العام ؟ ، »

فأجاب توما جريسيكو وهو فزع : « يجب أن نتمسك برابطة الجلأش ..
يجب أن نلتزم حدود القانون ياسيدى ! .. »

وصاح تاسيسكو : « أيها البروجي ، أيها البروجي !! أين أنت ياغبول ؟
ابق على مقربة مني ، أفهمت ؟ » .

وركض بروجي الكتية ، وكان برتبة رقيب ، وبوقه قائم على ركبته اليمنى ،
كما تقضى اللوائح .

« هأنذا ياسيدى ! »

وأدار تاسيسكو ظهره .. تقع سمع كلمات أنطون ، فأغضبه أكثر مما أغضبه
أى شيء آخر ، كأنما كانت إهانة وجهت إلى شخصه بالذات .. وفكر فى أن
يندفع إليه ، ويفصل جلده عن لحمه أمام الجاهل ، عبرة لكل من يجرؤ على مناهضة
الجليش .. ولكنه وجد نفسه يتقلب على الوالى : « ألا تسمعهم ياسيدى يحضون
القوات التى تحت إمرتى على التمرد والعصيان ؟ لا بد أن أنصرف ياسيدى .. إن
سلامة القوات تقع بتمتها كلها على أنا ياسيدى ! » .

وهتف بالولينو ، وقد غضب فجأة : « أنا لا أسمع لك برفع صوتك على
أيها الرائد ! .. أنت تلقى الأوامر منى ، ولا ألقاها أنا منك ! » .

أما أنغليا . وكانت قد توقفت من الصراخ دقيقة واحدة ، فقد أخذت تجرى
أمام الجنود جيئة وذهابا ، حاملة طفلها ، وقد حسرت عن أردافها دون حياء :
« عار عليكم ، هل أتم جنود أم قطاع طرق ؟ .. بالعار ! .. أنا لست غائفة
من بنادقكم ! .. انظروا .. أطلقوا النار على إن كنتم تجردون ! .. أطلقوا النار ! ..
لماذا لا تطلقون النار ؟ .. انظروا هنا ، هنا .. »

ورآها تاسيسكو ، فعاد يلوح بسوطه : « أرايتم إلى هذه العاهرة ، إنها تهزأ
بالجليش ! .. عليها لعنة الله ! .. اقتبضوا عليها يا رجال ! .. »

ولم يتحرك رجل واحد من صف الجنود قيد أنملة ، كأنما قد قدوا من صلب ؛
ولذا ذاك ازدادت متاعف الجمع الثائر لا تدعوهم يقتلونها ! .. هيا أيها الفتيان !
اهجموا عليهم ! .. »

واندفعت جماعة جريئة هنا وهناك نحو صف الجنود ، بينما التفت آخرون

بالأحجار أو الأرواح .. وأصيب جواد الرائد بحجر ضل طريقه ، فأجفل إلى الوراء مذعورا .

وهتف تناسيسكو يحدث المدعى العموى . « أترك تفتظر على هؤلاء اللصوص حتى يقضوا علينا ؟ . ألا ترى أنهم قد بدؤوا في الهجوم علينا ؟ » .

وإذا به ، في صوت آمر ، يهتف : « أيها البروجي ، أطلق النفيير ! » .

وانشق البواء في اللحظة التالية بصوت النفيير النحاسي .. وأرهف جواد البروجي أذنيه في كل مرة ينفخ فيها وجه الرقيب ويعمر .

« باسم القانون .. »

ولم يسمع الوالى الكلمات التي فاه بها المدعى في جفاف ووجل .. إنما نزل صوت النفيير متوعدا قاسيا على رهوس الناس كسوط من لهب .. وبينما النفيير يدوى ، رفع الرائد تناسيسكوسوطه بأمر مقتضب ، فإذا بماتى بدقية تنبج فوهاتا بحركة مرتجة نحو الفلاحين .. وتوقف الصراخ المجنون وهلة ، كأنما قد اجثت حد السيف ، فعاد وانطلق مرة أخرى أشد صخباً ..

« إطلاق النار محظور عليهم .. لا تخف يا عماء ! .. هيا يا فتيان ، إنهم لن يطلقوا النار تباً لكم ؛ إن أنغلينا أشجع منكم ! »

ثم انطلقت عدة أوامر أخرى فصرت صرير منشار علاه العداء .. وصدع الجنود المتراصين بتنفيذ الأمر بنفس الحركة الآلية المرتجة .. وارتفعت الفوهات في نفس اللحظة على المناكب ، وقد تلالأت أشعة الشمس ساطعة على كل منها ، وشدت الأصابع على الزناد في آن واحد ، فخرجت الطلقات دفعة واحدة ، وملاّت السماء فرقة حادة ..

وعاد الرانديوى بالإشارة الآلية ، فأنزّل الجنود سلاحهم ، وعبوه رصاصا ، فارتفعت صرخات الخوف من جمهور الفلاحين .. وأحس الناس بأنفسهم في دوامة من الفزع تحلق بهم ، كأنما قد اجتاحت السهل عاصفة لا تبقى ولا تذر ..

وصاح بيتر، وعيناه تخرجان من رأسه : « لقد أطلقوا النار فوق رؤوسنا
لإرهابنا .. لا تخافوا أيها الأخوة .. اثبتوا في أماكنكم .. لا تولوا الأدبار
أيها الرجال .. لا تهربوا .. إلى الأمام يا فتيان .. اهجموا عليهم .. لنستول
على بنادقهم ورصاصهم .. »

وكأنما كان انطلاق الطلقات قد نقي الأفق من الجلبة التي دنست هدوءه ،
نغم الصمت الرهيب وهلة .. والظاهر أن الرعب الذي شمل القوم قد لطف الجو
وخفف من حدته ، ومن ثم لم يبق على سطح الأرض إلا فراغ مروع ، عذابا
للفوس .. ونزل صوت بيتر عليهم ، في هذا الصمت وذاك الفراغ ، مطرا ساخنا
يلهب الأجساد .. ولجأة تصاعدت صرخة من جميع الحائجر ، انشقت لها السماء ،
وكانت أشد هولاً من ضجيج البنادق .. ثم تلاحت الأصوات ، واضطربت
واحتاجت ، كبركة انهارت عليها حبات البرد .

وهتف الوالى ، وقبعته على مؤخرة رأسه ، وقد غاضت الدماء من وجهه :
« الفلاحون يهاجموننا أيها الرائد .. ألا ترى يا جريسيكو ؟ »

وخيل إليه أن الجميع المجنون على وشك أن يقوم بالهجوم على الجيش .. وأخذ
الفرح بنفسه ، ولكنه أحس في نفس الوقت بكراهية شديدة نحو الرائد الذى ترك
جمهرة الثائرين يفتكون به .

وطار عقل الرائد تاسيسكو ، ولم يعد يسمع شيئاً وهو يتميز غيظاً ، وبخاسة
بسبب الوالى الذى أخذ لشدة جبنه يسوف في الأمر ، فوضعه في موضع اضطر
فيه أن يتحمل إهانات الفلاحين ، بل وصفعاتهم .

وهتف الرائد : « أيها البروجي ، لماذا لا تطلق التفير يا غي .. استمر يا بروجي
دع الوالى يرى نفسه أن المسألة ليست سياسة هنا .. هؤلاء اللصوص يريدون
أن يرتشفوا من دماثة .. أرايت يا سيادة الوالى ، أرايت ؟ »

وكان الجواد يلتف في دائرة ، وقد أجفل من صرعات الفلاحين ... وشق
صوت التفير الجو في إصرار كسكين أنساب في جرح غض .

وجاء جماعة من الفلاحين ، أذهلهم الضجيج ، فجهموا على صف الجنود
بهرائهم ومناجلهم ومعاولهم ، كأنما يدعون عن أنفسهم ذئابا ضارية .

ورفع الرائد تاسيسكو سوطه .. وانطلق منه أمر ثم أمر ، أعقبتهما صلصلة
للقاذية بسيطة .. ثم لم تعد الآذان تسمع إلا كلة قصيرة ، على قترات متقاربة
جدا ، ففرعت الأسماع في نبرات حادة : « صوب .. اضرب .. »

وارتدت جمهرة الفلاحين ، كأنما قد تلقى كل منهم ضربة في صدره ، ودام
ذلك لحظة واحدة فقط ، خرجت فيها الطلقات دفعة واحدة ، وعادت البنادق إلى
وضعها الأفقي ، والدخان ينبعث من فوهاتنا .. واستمر التغير يتدوى دون توقف .
ولم يمت صوت الطلقات ، ولم يتلاش دوى التغير إلا حين تدفقت صيحات الألم ،
وتفجرت قطرات الدماء من جمهور الفلاحين .. وتساقطت الأجساد على الأرض
وهي تتلوى ألما ، كأنها ديدان قد سحقته ، فأخذت تمزق الأرض بأظفارها وأنيابها :
آه .. رباة .. لقد قتلوني يا أمي .. أيها الأصدقاء ، لقد أصبت بالرصاص
أيها الأصدقاء .. !

واستدار حشد الفلاحين عندئذ ، ولولا الأدباء ، بما فيهم القلة التي لم تفقد
أعصابها .. لقد استولى الخوف على الجموع الزاخرة ببرائته التي لاحصر لها إثر
نيران الجنود ، فتقاطروا صوب القرية .

وأمسك الرائد تاسيسكو ببنان جواده كبيت ، وعيناه متصلبتان ، وهضلات
وجهه قد تقلصت قليلا .. ووقف البروجي على مقربة منه ، وقد نفخ شذقيه
كنفاخ آلى ، وهو يهز التغير .. وكان حصانه ، وقد مال بجيده ، ورأسه إلى
أسفل ، يقرض لقمة اللجام ، ويلفها بفقاعات من الزبد .. وعلى مدى قريب ،
وقف الوالى فى وسط الطريق ، متجمدا بالأوصال ، زافع البصر ، وكان يحدث
المدعى العام الذى تظاهر بالإصغاء ولكنه لم يكن يعنى ما يقال : « يجب علينا أن
نلزم الهدوء ، وألا نريق الدماء البريئة .. »

وأدرك أنه كان يتحدث عن الدم ، وأراد أن يتجنب الكلمة ، ولكن الكلمة
ترددت على شفتيه ، فألمبت فيه نارا كأنها دم منبتق .

وارتفع سوط الرائد مرة أخرى ، وتعالى صوته الحاد فغطى على صوت
النفير ، فأعادت البنادق نفس الحركة المرتجة ، واندفعت الطلقات في هيس تمتد .

وهتف الوالى ، وقد عجز عن الحركة : « أيها الرائد ! . أيها الرائد ! . .
إن حمام الدماء . . »

وتوقف ، وقد أحس بمذاق الدم حريفا في فمه ، بل إن الرائحة نفسها نغشت
خياشيمه . . والتفت تناسيكو إليه ، ولكنه لم يرد بجواب ، بل ألقي عليه نظرة
شابها الازدراء . . على أنه ، من جهة أخرى ، رفع عقيرته بأوامر جعلت حائط
الجنود في حركة دائبة .

واندفع الفلاحون في جنون ، وهم يصرخون ويتدافعون ويدهمون بعضهم
بعضا . . وتزاحوا على طوال الطريق ، ولكن الكثيرين منهم تفرقوا خلال
الحدائق ، وساحات البيوت القائمة على مشارف القرية ، وكل منهم في عجلة يائسة
يبتنى الاختفاء ، والهرب من مسار الطلقات . . وبقيت عشرات الأجساد في الحقل
بعضها يئن ويتلوى ألما ، وبعضها رقد جثة هامدة . . ورقدت أنفيلنا دون حراك
في حفرة ، ووجها إلى أعلى ، بعد أن أصيبت برصاصة في جبهتها . . وكان طفلها
يصيح بين ذراعيها البامدتين ، ويمد يديه الصغيرتين العاريتين ، كأنما كان يحاول
أن ينزع نفسه من فوق صدر أمه . . وعلى مدى غير بعيد كان هناك شيخ ينوح
فوق فتى أدركته المنية ، ووجهه مضطرب بالخوف . . وكان شيريلابون ، وهو يزفر
زفرات الموت ، يطلق ضد كل زفرة فيضا من الدم الأسود فيعلق بلبسته وعنقه
وصدره ، ويتجلط نهرا غليظا . . ولم تبق إلا جثث الفلاحين الذين أدركتهم
الوفاة ، أو كانوا على وشك الموت ، تبلل بدمايتها آمارا الغنية ؛ أما أولئك
الذين أصيبوا بجراح طفيفة فقد تمشوا في مشيتهم ، وسحبوا أنفسهم بين الهارين
الآخرين ، تاركين وراءهم آثارا من الدماء . .

« لا تولوا الأدبار أيها الإخوان ! . اثبتوا في أماكنكم . . ألا لعنة
الله عليكم ! . . »

وكان بيتر يصرخ بأعلى صوته ، شأنه منذ البداية .. ولكن انجماهير جذبت كذلك غصبا ، كريشة حملتها مياه سيل جارف بعد أن كسرت السد الذى يحجزها .. أما إيلياء سيرلان فقد أمسك غورا بتدقيته غير المعبأة ، وأخذ يلث على مقربة من بيتر ، وقد انخل قلبه لما أصاب بيتر من بأس .. وكان نيكولاى دراجوس يتدافع يمينا وشالا يحاول أن يقترب من بيتر ، وأن يتبادل وإياه بعض الكلام ؛ ولكن الجمع المدعور انطلق بهم جميعا على غير هدى ، التماسا للتجاة من الموت الذى كان يصفر فى آذان كل منهم ..

وتدافعت فرقة من الجنود فى أعقاب الشاردين على طول الطريق الرئيسى الذى رشق بأجداث الموتى .. وتقدم صف محكم من الرماة على هيئة تأهب ، فقهطوا الطريق ، من حفرة إلى حفرة .. وكان على كل جناح فصيلة من المشاة ، تمشى بينهما الرائد تناسيسكو ، وفى صحبته البروجى .. وكان الرائد يطلق الأمر بين الفينة والفينة ، فتوقف القوات ، وتطلق البنادق ، ثم تبدأ المسيرة فى شارع القرية وبين الاكواخ التى بدت وكأن أصحابها قد هجروها .

ولحظ تناسيسكو أنه كلما أطلق النار ، تساقط عدد متفاوت من المارين ، وتندرجوا على الأرض ، كأنما قد تعثر الواحد منهم فى الآخر ، كما لحظ أن بعضهم يحاول أن ينهض ، ولكنه لا يلبث أن ينهار ، ويبقى دون حراك .. بيد أن فرار الفلاحين بحث فى نفسه الغيظ ، كأنما قد ضايقه جبنهم ، أو كأنما كان يريد منهم أن يقفوا فى وجهه فيكون ذلك مبررا له لإطلاق النار .. وكان يكيل السباب باستمرار فيما بينه وبين نفسه ، تهدئة لسورة أعصابه الثائرة ، ثم لا يلبث أن يصدر الأمر :

« قف !.. صوب !.. اضرب !.. »

وبقى الشطر الأكبر من القوات على مشارف القرية ، ينتظرون الدورية التى تمهد الطريق .. وكذلك تخلف بالوليتو والمدعى العموى ، على مقربة من عربتهما ولم يعد الوالى يتذكر كيف حدثت هذه الأمور كلها ، ولكن أمعه أن الرائد

تخلى عنه كي يقتنى أثر الفلاحين ، وتركه هناك ، أضحوكة بين الناس ، رغم أنه هو صاحب الأمر والنهى . . وأخذ يدلى للدعى العموى بأن الرائد قد تجاوز حدوده ، وأنه ، أى بالرينو ، لن يسمح لاحد بأن ينتهك سلطاته؛ فإن لإخضاع الثورة مسألة دقيقة ، وتتطلب الهدوء واللباقة ، ولا تقتضى حماما من الدماء . . وكان المدعى العموى يوى إليه موافقا ، جاحظ العينين ، ولا يكف عن الوثب كل مرة يسمع فيها صوت إطلاق النيران .

وقف ا. صوب ا. .. اضرب ا. . كان يصرخ بها الرائد تناسيكو، أما الوالى فقد بقى نهباً للعذاب خارج القرية . .

وقل عدة الهاربين إلى الثلث على أكثر تقدير . . سقط بعضهم تحت وابل من الرصاص ، وانفس أكثرهم ملجأ فى شتى الساحات ، مؤثرين ساحاتهم هم حين بلغوا دورهم ، هربا من المطاردة . . حتى نيكولاى دراجوس فكر فى الاختباء حين بلغ منزل والديه ، بعد أن رأى أن من المحال أن يشق طريقه إلى بيترو وأن أى مزيد من المقاومة لا يجدى . . ولكن الموجة جرفته إلى الامام ؛ ولم يتمكن إلا بعد أن مر بالدار ، من أن ينزع نفسه من بين الجميع ، فانتحى جانبا من الطريق . . ورأى غير غنيا ، ابنة شيربلا ، فى حفرة وقد شوهت تشوها ، وغطيت بالدماء . كان جليا أنها قد وقعت ، فدهمها الآخرون تحت الأقدام . . وقفز فوق جثتها المشعة ، يلتمس الوصول إلى ساحة المدرسة ، وكانت على مدى قريب . وماكاد يبلغ البوابة حتى دوت الطلقات متدافعة من جديد . .

و لقد خرجوا لإبادتنا جميعا ، كان الله فى عوننا ا ، هتف بها فى نفسه ، وهو يشعر بسعادة طاغية ، لأنه هو نفسه قد نجح على أى حال .

ولكنه ما لبث أن أحس بظلمة عميقة فى ظهره . . لآيزيد فى ألمها على الوخزة التى أصابته فى خده ، فلات فه دماء حارة .

و اعتقد أننى . . وتبادر الخطر إلى ذهنه . . ولكنه مالبث أن توقف لجأه ، وأصبح ظلما دامسا . . وانهار كتلة هامدة ، وقد اصطدم رأسه بالعمود ، ويده لآزال ممتدة لتفتح البوابة . .

واستمر الجمع المتضائل يتدفق عبر الشارع ، ولكن في صمت الآن ، فقد خاف
القوم من الصياح والهمات خشية أن تجذب أصواتهم طلقات الرصاص من الخلف
ولكن صوت يتر وحده ، وقد غدا مجوحا أجشاً ، لم يتوقف لحظة قط : ولا هربوا !
إلى أين أتم هاربون ؟ .. لا تهربوا ! . .

ولكنه هو أيضا كان يجرى ، رغم أن أحداً لم يكن يدفعه الآن .. وكان يشعر
بالخزي من الجري ، ولكنه لم يستطع أن يتوقف ؛ ولكن صوته فقط هو الذى
كان يحث الآخرين على الثبات ، كأنما كان يحاول بهذا أن يخفي هروبه هو ..
وأدرك أن كل شيء قد انتهى ، وأحزنه أن ينتهى هكذا ، وإن كان من المحال أن
ينتهى على أى نحو آخر .. ومع ذلك فقد كان لا يزال يشعر بأن الناس لو كانوا لم
يفزعوا من الطلقات الأولى ، فجمعوا على الجنود ، لامكنهم نزع سلاحهم ولتموا ،
من ثم ، سلاك الأرض من العودة .. أما الآن فقد انتهى كل شيء .. وضاعت
الآمال كلها ، وكانت إراقة الدماء جزاء وفاقا ... أما هو ، هو الذى لم يقع قتيل
الرصاص ، فسوف ينزلون به ضرباً حتى الموت ، أو يلقون به فى السجون . .
أما الناس فسوف يشدون إلى التبر كالأنعام ، بدلا من أن يحطوا بقطعة من الأرض
وهو على الأقل لا يتوقع رحمة ولا شفقة ، لأنه يعلم أن رفاقه أنفسهم سوف يشهدون
عليه بأنه رأس المحرضين .

وهنف إيلياء سيرلان ، وكان إلى جواره ، ووجهه شاحب كالشمع ، وقيصره
ملوث دما ؛ « ماذا نحن فاعلون يا ييتريسا ؟ » .

فأجاب يتر ، دون أن ينظر إلى إيلياء ، كأنما كان خجلا من نفسه : « أنا
إن أسلمت يا إيلياء ، للقتل أهون عندي ! » .

فلما بلغا الفراغ أمام الحان ، توقفا فى مفترق الطرق .. كان الجمع قد تشقت ..
وكانت هناك شرادم قليلة لا تزال تجرى ، بعضهم على الطريق المؤدى إلى فايدى ،
والآخرون صوب روجينوزا .. وبقى يتر وحده مع إيلياء سيرلان ، الذى عاود
سؤاله : « قل لى ربك يا ييتريسا .. ماذا نحن فاعلون ؟ .. أنا لا أنوى أن
أتركك وحدك .

وغنم بيتر وهو يراه مغطى بالدماء : « سوف نطلب إليهم السلام يا إيلياء .. »
« آيز جرحت يافتي ؟ .. » « إن قبضك ينضج دماً .. »

فأجاب القتي وهو يطالعه ببسمة مزهوة : « ربما في كفتي هذا ، أنا لم أعد
أحس به ... »

« اللصوص الأوساخ .. »

وكان بيتر يحمل بندقية معبأة ، استولى عليها من أحد خفراء الملتزم كوزما ،
وكان يمسك بها من الفوهة كالمراوغة ... وغلبه حزن عميق ، خنق دقات قلبه . .
وخطر له أن يجرى هارباً إلى بيته ، كما فعل القوم جميعاً ، ولكنه خجل من الصبي
الواقف إلى جواره ، فقد كان إيمانه به لا تحده حدود . .

وهتف إيلياء فرحاً : « لنقف إذن يا بيتر يتسا ! . لنظهر لهم أننا نطلب السلام ؛
وأنا لا نريد أن نقتل دون جدوى ! » .

وزرع قبضه الممزق الذي وخطه الدم ، فوصله بفوهة البندقية التي كان يتيه بها
غيراً ، ورفعها عالياً ، علامة على السلام ، حتى يراها الجنود وهم لا يزالون
على مسافة بعيدة . . وكانت البندقية ثقيلة على ساعده المجروح ! واهتزت الفوهة
بالتقيص الموصول بها « كأنما قد حركتها الريح » .

وبقيا هكذا زمناً . . وخيم السكون حوالهما . . ولم يند شيء بحركة . .
كانت القرية شبه ميتة . . وكان باب الحان مغلقاً . وغنم بيتر ، وكرز بأستانه ،
في انتظار وفور معجزة لا يدرى كنهها . . وإذا به يسمع صوت العجوز أبونا
ينبعث من المهددر ، في الحارة القريبة من منزل أبوجا ، وكان متبرماً ساخناً :
« سع ... سع . . سع يا فراخ ! » .

قال إيلياء ، وقد أسعده أن يسمع صوت إنسان في الصمت الآليم : « أسمع
يا بيتر يتسا ، الالم أبونا تنادى على فراخها الآن رغم كل شيء ! » .

فغنم بيتر في غيابه : « كأنما كان هناك ما يشغلها غير هذا ! ! » .

وبعد ققرة من الصمت ، لم يقطعه إلا نداء المعجوز على فراخها ، أخذ الجنود
يقتربون ، وفي وسطهم الرائد على صهوة الجواد ... وتطلع بيتر إليهم في ريته
كأنما كان يحسب حساب كل خطوة بخطونها .. ولجأه تاهى إلى الاتساع صوت
النفير ، كما لو كان تحذيرا ، ومالبث بيتر أن سمع شذرات من الأمر الصادر :
« قف ! .. صوب ! .. اضرب ! .. »

وأخذ إيلياء يلوح بالراية البيضاء بقوة أشد ، حتى يضمن أن يراها الجنود...
ولكن صلصة إطلاق النيران كانت تصمم الأذان أكثر من ذي قبل ، .. وسقط
القميص الدامي ، هو والبندقية ، كالعلم الذى سقط عن ساريته .. وتهاوى إيلياء
على على الأرض لاهثا : « رباه ! ! »

وأصيب بيتر كذلك برصاصتين ، ولكنه لم يشعر بهما .

« حتى السلام الذى نمرضه عليهم لا يرضون به ، قالها في نفسه ، وهو يشعر
بالخفق لأن الجنود أطلقوا النار على رمز السلام . قال : « إذن ... »

وواصل الجنود تقدمهم على نحو آلى .. وكأنما قد تذكر بيتر عندئذ فقط أن.
في يده بندقية ، فوضعها على منكبيه ، وأطلق النار متحمسا .. وانطلقت البندقية
ضعيفة واهنة.. وفي طرفة عين ، صدر الأمر من جديد : « قف ! .. صوب ! .. اضرب ! .. »

وقبل أن تبلغ السمع الكلمة الأخيرة ، صلت الطلقات ، وبقي بيتر واقفا .
وبندقية الفارغة في يده ، وهو يقول متحديا : « هيا ، يا أولاد الزانية ! .. »

وسقط الرجل أولا على ركبتيه ، ثم ظهرت بقع الدماء على قميصه ..

وهتف الرائد غاضبا : « اضرب ! .. اضرب ! .. اضرب ! .. »

وقطعت الطلقات ، كشخشيخة طفل تهتز من تلقاء نفسها .. وشعر بيتر
برأسه الثقيل ثقل الرصاص : يتدلى على صدره ، ثم إذا به لا يتمكن من
الاحتفاظ بتوازنه ، فتدحرج متألما ، وهو ينفث نفثة أخيرة ملؤها الغضب :
« خنازير ! ! »

أما الأم أيونا فأخذت ، وهي في وسط الشارع ، تنادى على فراخها وهي أشد لوعة كلما ازداد اقتراب الطلقات .

واستمرت الدجاجات تلتقط الحب من الحفرة المجاورة ، غير عابئة بنداها .. وخشيت المعجوز على فراخها ، فلم تتوقف عن المناداة عليها ، وهي تلقى بنظرة عابسة بين الحين والحين صوب الحان . حيث تردد صوت إطلاق النار : تعالى يادجاجاتي .. لعنة الله عليكم وعلى رصاصكم ! ..

وإذا بها لجأة تلف حول نفسها ، وتزجر غاضبة : « عليكم لعنة الله .. » وتهاوت كتلة واحدة . وهي تتلوى وتحرك شفيتها دون صوت . وجاءت العربية التي بها الولي والمدعى العموى ، وقد حف بها بروجى الكتيبة الذى أمره الرائد بالعودة ليلحق بالشطر الرئيسى من القوات .. وتوقفت العربية في الفراغ الممتد أمام الحان ، وكان الجنود يحيطون به شاهرى السلاح .

وقال بالولينو متلعثا ، وقد انحلع قلبه رعبا لمراى القتل والجرحى الذين صادفهم في الطريق : « أرجوك أيها الرائد ، أنا كنت أظن ... »

واقترب الرائد تناسيسكو من العربية ، ممتطيا صهوة جواده ، ويده على خيسته تحية ، وقال منتصرا : « يشرفنى ، يا سيدى ، أن أقرر أن الأمن والسلام قد عادا إلى أمارا . »

ورأى بالولينو ، على مدى بضع خطوات ، جثة إيلياء سيرلان عارية إلى خصرها ، كما رأى جثة بيتر وقد مزقها الرصاص ، وبين هذه وتلك انتشر القميص الأبيض ، علما قد تهاوى .. ومهمهم خائفوا وهو يشيح برأسه الناحية الأخرى : « نعم .. الأمن والسلام .. أحسنت أيها الرائد .. شكرا لك ! »

الفصل الثاني عشر

الغروب

- ١ -

وانتظر جريجور في كوستسى وهو نافذ الصبر حتى الظهيرة ، وأخذ يهنى إلى كل الحكايات التي يقعونها عن الأحداث التي وقعت في آمارا ، وعن طريقة وفاة أبيه ، وعن طريق وفاة نادينا . . واستمع إلى هذا كله هادئا ، ودون أن يذرف دموعا ، الأمر الذي دهش له تيتو هيرديليا سراً ، عجباً من رباطة جأشه ! .

وأخيراً قال أبوجا الشاب : لابد أن أخبر جوجو . .

وانطلق إلى مكتب البريد ، لايصعبه غير تيتو . . وشعر برغبة في التخلص من الآخرين الذين جاءوا له بأخبار السوء هذه كلها ، كأنما كانوا أعداء ألداء له ، وكان هو في حاجة ماسة إلى العزلة والسكينة — وخرجاً من مكتب البريد ، فقال يحدث هيرديليا ، في هدوء وأسى ، كأنما كان يحدث ذات نفسه : « ما كنت أتخيل أبداً أن الإنسان يستطيع أن يتحمل كل هذا العناء ! » .

وأخيراً ، بعد الغداء ، أمر ازباسيسكو أن يأتي بعرية تحملهم إلى آمارا . . وبذل ازباسيسكو جهداً ليستجمع شتات شجاعته ، ولما رأى أن جريجور لا يميل إلى الإصغاء إليه ، انطلق في حديث هامس مع السائق عن الفطائع التي ارتكبها الفلاحون الثائرون . . وكان السائق يخشى كل الحشية أن تكون هذه الرحلة هي نهاية حياته ؛ ولهذا ندم على أنه خضع لإغراء المبلغ الكبير الذي عرض عليه ليحملهم إلى حيث يريدون .

ولما بلغوا فلادوتا ، أمام بيت الدائرة المحترق ، كان الباب مسدوداً بمحمور غفير من الفلاحين القابعين على الأرض ، قام على حراستهم جنود شاكوا الحراب . وجاء جندي إلى العربة وقال :

« عودوا أدرأجكم ! .. عودوا أدرأجكم ! .. لا يمكنكم المرور من هنا »

وذهبت كل محاولاتهم لإقناعه سدى .. واضطر جريجور أن ينزل من العربية، وأن يذهب لمقابلة الضابط حتى أذنوا له بالمضي في المسير .. واستطاع من مسافة بعيدة أن يسمع صوت العقيد المتقاعد ستيفانسكو وهو يعنف الفلاحين : « من منكم الذى أشعل النار فى البيت يا سافله ؟ ! .. ألا تريدون أن تتكلموا ؟ .. هيا اعترفوا ، وإلا ضربتكم ضربا يقضى عليكم ! .. هيا اعترفوا ، من منكم سرق ؟ .. »

وتعرف العقيد على جريجور ، فأخذ يشكو من الشكوى ، ويشير إلى الاخلال : أترى يا سيدى ما تنبى لى بعد حياة من الكفاح ؟ .. أرايت إلى ما فعله هؤلاء اللصوص ؟ .. ألا يستحقون جميعا الضرب بالرصاص دون شفقة ، فهم أنفسهم لم تأخذهم شفقة بشيئى ! .. كنت أظن أنهم لن ينهبوا كل شئ ، ولهذا أسرعت بالعودة — فانظر ماذا وجدت ! »

وارتجف صوته أسى وغضبا .

وهتف الملازم ، بعد أن أفرغ الشيخ ستيفانسكو آلامه إلى جريجور : « افسحوا الطريق ! .. دعوا العربية تمر ! »

وحاول الفلاحون التوضي ليفسحوا الطريق ، ولكن الضابط زأر فيهم ، وقد تملكه الخوف : « اركعوا .. اركعوا .. اركعوا .. » . اضرب هذا الرجل يا عسكرى ! .. تحرك يا عسكرى ! .. »

وانطاعت العربية فى طريقها ، مخترقة بآباروجا وجليجانو حتى بلغت ليسبىزى فتوقفت وقتا أطول .. وكان جريجور يفرق من مشاهدة جثمان نادينا أكثر من جثمان أبيه ؛ وإن لم يعترف بهذا فيما بين يديه نفسه فهو لم يرها منذ ليلة الحفل . وآلم فزاده أن يفكر فيها كما كانت إذ ذاك ، تتأود أعطافها فى لباس الفجر . هكذا علفت هى بذاك مرتته .. أما الآن ، وهو واقف فى الكنيسة أمام المنذج الذى رقد عليه جثمانها البارد أياما عديدة ، وقد أسدلت عليه ملادة عادية ، فقد عادت هذه الصورة تتخطر فى باله مرة أخرى ، فرأى دافئة ، جميلة ، رائحة ، كأنما لم يفرق

عنها لحظة . . . ولم يرفع طرف الملادة مخافة أن يحطم للأبد هذه الصورة العزيزة على نفسه ، والتي منحت عذاب الحب كله وبهجته . . . وتلبث وقتا طويلا وحده ، وهو جالس على رأس المذبح ، ورأسه بين يديه . . . وكانت هناك بضعة كتب للصلاة على الكرسي وكانت بالية جداً ، ولها غطاء خشبي ، وصفحاتها متسخة . وغص من رائحة الموت الثقيلة ، ولكنه استطاع أن يتحملها . . . وانطلق به الفكر على غير هدى . . . ورأى أن من واجبه ، بل ومن حقه ، أن يعنى بمخازنها ؛ ذلك أن طلاقهما لم يسجل بعد ، وإن كان قد تم إشهاره . . . حسا ، لقد قدر عليها أن تموت في الريف ، ولعل هذا عقاب أو سخرية من الأقدار على أية حال ؛ فقد كانت هي تمتد الريف مقنا شديدا . . . وجمال بخاطره أنه لو أن هذا كله قد وقع بعد أسبوعين فقط ، لكان هو مجرد شخص غريب عليها ، ليس له حتى أن يقف إلى جوار جنازتها .

وكان تيتو هيرديليا قد ترك الكنيسة قبل زمن طويل ، لأنه لم يطق جو المسكان . . . وأخبره ضابط بالخارج بأن أحداثا رهيبية لابد قد وقعت في آمارا ، لأن الطلقات تترامى إلى السمع حتى من هذا البعد البعيد . . . وعلم جريجور بهذا بعد ذلك ولكنه أتر أن يمضى في المسير ، ولكن الضابط أوقفه ، لأنه سبق أن أرسل دورية تستطلع الحال ؛ ولا يستطيع هو أن يأذن لهم بالمرور قبل أن تعود وإلا تعرض الضابط لجزاء شديد . . . ولم يتمكنوا من المسيرة نحو آمارا إلا بعد العصر ، ولكن جريجور أفي أن يرجع إلى الكنيسة .

وكانت أحداث القتلى رافدة حيث سقطت على أطراف قرية آمارا ، وفي حوارها . . . وكان في وسع المرء أن يرى ، هنا وهناك ، رجلا يحتضر في أنين ، أو ينلوى ألما . . . وكان السائق لا يكف عن الإشارة بسوطه : « انظروا ها هو قتيل آخر ! . . . وهنا . . . الظاهر أن هذا الرجل مازال يتنفس ، أرايتم ؟ . . . »

وتعرف ازباسيسكو على شيريلابون ، ثم على نيكولاى دراجوس وصاح تيتو هيرديليا في فزع : « لا شك عندي في أن معركة رهيبية قد وقعت هنا ! ، . . »

وبقي جريجور وحده صامتا ، يرى يبصره إلى الأمام دون أن يرى شيئا . . . وأوقفتهم دورية أمام الكنيسة ، وأوقفتهم دورية أخرى أمام الحان . . . وعندما

جلفوا بيت الدائرة ، تركوا العربية في الطريق بالخارج . . ومشى جريمحور وتبتو -وازياسيسكو إلى الداخل ، تحت القبو الكبير الذي به برج الحمام ، وهناك كانت الطيور البيضاء تسجع وتهدل في حنين وشوق . . وكانت الممرات خربة محطمة كأنما قد مرت بها قطعان من الماشية الوحشية . . وكان الصمت من الشدة بحيث تنامي إلى الآذان صوت السائق وهو يتثاءب تثاوبا طويلا ، ثم جلجلة أجرام الجياد ، وقد أخذ واحد منها ينفذ عن نفسه السأم . . وكانت جذران الفيللا التي لم تسقط بعد قائمة يحلها السواء في سماء الغروب البنفسجية .

وتطلع جريمحور بعناية حواليه ، شأن امرؤ في أرض غريبة ، وأدار رأسه إلى يمين وشمال ، ولكنه لم يتوقف إلى جانب الاطلال ، وسرعان ما ظهر المشرف ليوتو بومبو ، خائفا وجلا وقد عجز عن أن يصدق عينيه ؟ على حين خرجت العلباخة ، بروفيرا ، من البيت القديم ، وأخذت تولول في صوت غليظ أجش ، وهرعت تقبل يد جريمحور ، وتلقوها عبرات . . وطرح أيوجا اللثاب بضعة أسئلة وأصغى إلى الإجابة عنها في جود ، كأنما هو قد استمع إليها من قبل ، أو كأنما الأمر لم يكن يهمه في كثير .

وعلى شرفة البيت القديم وقف النقيب لاشي جرادينارو ، وكان قد تخلف في القرية مع فرقته حفاظا على الأرض ، وتأهب لآي طاري . . وأعرب النقيب عن خالص عزائه لجريمحور في عبارات متكلفة مصطنعة ، ثم قال إن الوالي بالوليزو والرائد تاسيسكو قد صليا على جثمان الفقيد ميرون أيوجا ، ثم انطلقا بعد ذلك إلى روجينوزا ، وأن من المنتظر أن يعودا في القد . . وشكره جريمحور في عبارات متكلفة كذلك . رغم خجله منها وهو يفوه بها ، وإذا به يقطع العبارة الأخيرة ، ويدخل إلى بيته بقتة .

وبدا والده نائما ؛ والشمعة قائمة على رأسه . . وتطلع جريمحور إليه دقائق معدودات ، وركع على ركبته كأنما كان في صلاة ، ومكث هكذا بعض الوقت ، ثم مد عنقه أخيرا ليقبل اليد الباردة الشاحبة بأظافرهما الزرقاء . . وعندئذ فاضت دموعه مدرارا ، فوقمت على يدي الفقيد المعقوفتين ، فبدت رقما زيتية لامعة . . ونفض جريمحور ، وأخرج منديله لمسح يدي الفقيد ، ولكنه قبل أن يبسط المنديل

غير رأيه ، ودفن وجهه فيه . . وتما لك نفسه بعد عدة دقائق ، ثم ذهب إلى
الترفة الأخرى ، وفي إثره الآخرون ، فيما عدا القيب الذى رأى أن من الفطنة
أن ينسحب احتراماً لحزنه .

قال جريجور فى صوت مرتج ، ولكن بهدوء ، كأنما قد أرجعه البكاء إلى
صوابه : « أرى أن تذهب إلى كوستنقى فوراً يا ليونى ! » . .

وتولى المشرف مهمة إحضار نعشين ، وإحضار اللوازم التى تتطلبها الجناز هذا
المساء بالذات . . ورمى أن يترك أحد النعشين فى لسيبىزى ، وهناك يتولى القس
وضع جثمان نادينا فيه ، ثم ينقل إلى آمارا فى اليوم التالى . . واعتبر جريجور
هذه مسألة هامة ، بل وفى غاية الأهمية ، لأن لإكرام الميت دفنه .

وذهب جريجور مع تيتو فى صبيحة اليوم التالى . وكان يوم اثنين ، ليرى
الدمار رأى العين ، سواء فى آمارا أم فى روجينوزا . . وأخبرهما السائق لإخيم ،
فى أثناء المسير ، بعدد الذين أصيبوا فى المعركة التى وقعت على مشارف القرية ،
ومن كانوا .

والتقوا فى روجينوزا بالعربة التى تحمل الوالى بالواينو ، وكان قد قضى ليلته
مع المدعى العموى جريسيسكو ، فى فيلا جيتسا ، من بلدة إيزفورو التى نجت
من غضب الفلاحين بأعجوبة . . وكانت مواساة القوم له طويلة مثيرة للبكاء . .
وما لبث بالولينو أن قص عليهم متحمساً ما بذله من أوجه الفشاط فى سبيل
استتبّ السلام . . كان متأثراً من بطولته هو ، ومعجبا بها غاية الإعجاب ،
مصوراً لهم فى ألوان زاهية المخاطر اهاثة التى هددت حياته ، وأبرز خاصة المخاطر
الطريقة منها . . وهناً نفسه على نجاحه فى إعادة الهدوء بهذه السرعة ، ودون
إراقة الدماء تقريباً .

وتأوه منفعلاً : « مسكنة حبيبتى ميلانى ! . . لو علمت هى بما مر بي ! . .
رباطة جأشى وحدها ، ولباقى المروفة هى التى استطعت أن تأتى بهذه المعجزة
يا عزيزى جريجوريتسا ! . . ولكن مهمتى لم تنته بعد . . لقد عاجلنا فقط العب .

الأكبر ، ولكن لا يكفي أن نشن حملة على الشر ، بل يجب أن نقتله من جذوره ، حتى لا تدب فيه الحياة مرة أخرى . . . ألسنت أنا على صواب في هذا الرأي .
ياسادة المدعى ١٩ . .

- ٢ -

كان الرائد تناسيسكو قد عاد إلى آمارا في اليزيع الأخير من الليل ، وليس في صحبته غير ياوره وبروجي السكتية . . كان في مقدوره أن يبيت ليلته في ليفورو كذلك ، ولكنه أراد أن يبرهن للوالى على أن الامن كان مستتباً تماماً بحيث يستطيع أن يسافر دون حراسة عبر القرى النائرة . . وكان يريد ، علاوة على ذلك ، أن يجرى التحقيقات الأولية في آمارا بنفسه ، وذلك لكونها وكر الثورة كلها .

وكان أبون براهيلا ينتظر من الصباح الباكر في ساحة ديوان القرية ، وفرائضه ترتعد . . وكان يقابل الرأي مع منادى القرية بشأن الكاتب شيريتا دوميتريسكو الذى اختبأ في مكان ما قبل يومين خوفاً من الناس ؛ فربما كان أولو الامر في حاجة إليه الآن . .

وتساءل الرائد عندما وقع بهصره على العمدة : « أنت عمدة هؤلاء اللصوص ؟ » .
ولم يتمكن براهيلا من الكلام حتى لطمه تناسيسكو على رأسه لطمتين جعلتا
يرى النجوم الحمراء . وهتف الرائد : « سأريكم ماذا يحدث في الثورة ؟ » .
وسأعمل على أن تذكروا هذا ، كلكم جميعاً ! . .

وكان في الليلة الماضية قد أصدر أمراً بأن تترك جثث الموق حيث كانت لتكون عبءاً للأحياء . . وجاء الآن فأمر العمدة المسكين أن يتحقق من هوية أصحاب الجثث تحت إمرة رقيب من الجيش ، على أن تحمل الجثث بعد ذلك إلى المقبرة ، ثم تدفن في وقت سيقرره فيما بعد . . وعهد إلى القريب لاشى جراديبارو أن يتولى مهمة إحضار جميع أهل القرية دون استثناء ، بما في ذلك النساء والأطفال ، إلى ساحة ديوان القرية وحديقته لإجراء التحقيق على وجه السرعة . .

وبعد رسم هو والياور والملازم الحي خطة منظمة للعمل ، الغرض منها التعرف فوراً على قتلة نادينا وميرون أيوجا ، وعلى المجرمين الذي بتروا ابن بلاتامونو ، وعلى الذين أضرموا الحرائق في البيوت ، والذين ضربوا الشرطة ونزعوا سلاحهم ، والذين سرقوا ، والذين شاركوا أخيراً في إهانة قوات الجيش .

وقال الرائد تناسيسكو مقاطعاً نفسه وقد نفذ صبره : « ويجب قبل كل شيء أن نرسل أحداً إلى ليسبزي وإلى جليجانو ليأتى بكبار الصوص من هناك كذلك ، حتى تتولى أمرهم جميعاً ، ونحاكمهم هم ومجرى آمازا » .

وقدم بعد ذلك بفترة المفتش كوربولينو ، وكان قد حضر تعزيزاً لقوة الشرطة وسر الرائد لرؤيته ، فقد كان في حاجة إليهم ، لأنهم على معرفة بالناس وبالولاية ، إذا ما من حد في هذه القرية الآتمة يوحى بالثقة . . وإذا كان القس الشيخ نفسه قد اشترك مع الثوار ، وقتل رمياً بالرصاص معهم ، فإنه من إذن يستطيع أن يول وجهه ؟ (والحق أن الأب نيكوديم قد ذهب إلى الشريف ميرون ليقراً الصلاة على روحه ، ولكنه في أثناء عودته من بيت الدائرة ، وصلياً ملتبساً في جلبابه الكهنوتي أصيب برصاصة شاردة ، فوقع قتيلاً على قارعة الطريق قرب بيته .)

ووجد الرقيب زوجه ديدينا في بيته المنهوب ، وكانت أشد هزلاً عن ذي قبل ، ولكنها كانت في غاية السعادة . . وتعانق الزوجان . بينما هي تبكي وتحكي له كيف أسعدها الحظ بالبقاء مع الأم أيونا التي أخفتها في غرفة أعلى الدار ، وأطعمتها وعنت بأمرها ، ولولا هذا لكان الفلاحون قد عثروا عليها . وذبحوها على وجه اليقين . . وأطلق الرقيب كذلك بعض العبرات ، ثم أسرع يؤدي زاجبه في ديوان القرية .

وبدأ التحقيق حوالي الساعة التاسعة ، عندما وصلت العربية وعليها الوالي والمدعي العمومي . . وارتفع عويل الضحايا وصيحاتهم من بين جمع الفلاحين الذين ملئوا الطريق وفناء ديوان القرية وحديثه ، وترامت إلى الأسماع حق بلفت الجان . . وحاصر الجنود القوم حتى لا يفلت أحد منهم قبل لإجراء التحقيق معه . .

ولكن لم تتأت نتائج ذات بال حتى ذلك الحين .. كانت هناك فرقتان من الجنود الذين زودوا بالهراوات والعصى يضربون بها الفلاحين دون تمييز ، كل فرقة بدورها حتى لا يشتد التعب بها .. وكان الفلاحون يصرخون طالبين للرحمة ، ولكنهم أبوا أن يعترفوا بالجريمة ، أو أن يفشوا أسماء كبار المجرمين .. أما الرقيب بونجييو فقد كان له الفضل في اكتشاف أسماء السبعة الذين ضربوا الشرطة ونزعوا سلاحهم ، وكان من بينهم سيرافيم موجوس وثريفون غوغو .

وهتف الرائد وعيناه تتقدان نارا : ولماذا ضربت الرقيب أيها الوغد ؟ ..
لقد تجاسرت على رفع يدك في وجهه يا سافل ! ..

« طيب .. » غمغم بها سيرافيم موجوس بهدوء ، وهو ينظر في عيني الرقيب مباشرة . فقد أدرك ألا فائدة من أي جواب

ولمحت تاسيسكو ، وهجم عليه بسوطه حتى سالت دماؤه : « لم ضربته يا منحط
لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. »

وتحمل سيرافيم موجوس الضربات دون أن تطرف له عين ، أو يخرج منه صوت .. واستشاط الرائد غضبا لمسلكه ، واعتبره وقاحة منه .

وهتف تاسيسكو وقد كلت يده : « أيها العريف ! .. مائة جلده لهذا اللص .
فوراً ! .. وبعد ذلك أوقفه بالأغلال ! .. »

ولم يكن ثريفون غوغو موجودا .. وقال قائلاً إن الشريف الشيخ قد أطلق عليه الرصاص ، وإنه الآن قعيد الفراش بيته .. وجيء به محمولا على وجه السرعة ، ووجهه كله عبارة عن جرح واحد أسود ، فرقد على الأرض وهو يئن .

وصرخ الرائد وهو يرفسه في ضلوعه بأخص حذاءه : « قف ! .. انهض يا وغد ! .. »

ونهض الفلاح .. كانت عيناه متورمتان مغمضتان ، وكان يترنخ كأنما سيختر حتماً في أية لحظة .

وسأل الضابط . د لماذا أطلق الشريف الرصاص عليك ، يا لص ؟ . د لقد رفعت يدك عليه ، أليس كذلك ؟ . د لقد كنت أنت على رأس القتلة ؟ . د

وأن تريفون أننا لا يين .

د ولماذا نزع البندقية من يد الرقيب ؟ . ولماذا ضربته ؟ . د هيا يا لص ، اعترف ! .

وجلد رأس الفلاح بسوطه ، فانبثق فيها جراح جديدة . د وأطلق الرجل صرخة مداوية ، كأنما قد نزع عنه لحمه ، وتهاوى كتلة هامدة . د واستشاط الرائد غضبا ، فداس عليه بأقدامه . وهو لا يكف عن الصراخ : د وضد ، د وضد ، د . د وإذا به يتراجع فجأة بضع خطوات ، ويأمر في صوت بارد قاطع : د أيها الرقيب . د نعم ، أنت . د خذ ستة رجال . د واذهب بهذا الخنزير إلى ظهر الحديقة . د وارمه بالرصاص هناك . د أقبعت أيها الرقيب . د

د نعم ياسيدى . د حاضر ياسيدى . د أجاب بها الرقيب البليه أسمر البشرة وهو يضرب كعبه كأنما قد انتابته رعدة .

وأمسك الجنود بتريفون ، وجروه بين الجمع الفقير من الفلاحين . وتوسل إليهم تريفون ، من شدة رغبته في الحياة ، وهو يئن في ألم : د ساحو فى . د ساحو فى . د . د

واختفى والجنود . د وتحلف في أثرهم صمت مرير ، لم تقطعه غير فرقة السوط يرف تناعا . د ثم انطلق قصف البنادق من مؤخرة الحديقة ، ودوى برهة قصيرة دون أن يتردد له صدى .

وصاح الرائد فجأة ، ممزقا جمل السكون الذى كدره صوت الطلقات : د هات المجموعة التالية ! . كيف تجاسرتم على وضع أيديكم القذرة على رجال الشرطة ؟ . د

وأخذ الفلاحون يقسمون وينوحون بأنهم لم يكونوا حاضرين حين حدث هذا كله . د وكان الرائد تناسكوا يتنفس لاهثا . د فقد نفل وزنه في الهدد الأخير

وبرز كرشه بعض الشيء ، ولقد أخبره طبيب بأن قلبه شحيم ، وأيا كان الأمر فهو سريع التعب .. وأمر بالمجرمين الخمسة الباقين أن يتلقى كل منهم مائة جلدة ، تبعثا لتعريض صحتهم للخطر مع هذه الطعنة من الناس .. ووضع الأمر موضع التنفيذ وأخذ الفلاحون الخمسة ينافس الواحد منهم الآخر في أيهم أعلى صراخا ، كلما انتهالت الضربات عليهم .. وعندئذ توقفت عربة الوالى فى الشارع .

واستمر الضرب ، وأخذ أحد الجنود يعد الجلدات واحدة واحدة بصوت عال تلافيًا للخطأ ، فتقدم الرائد تاسيسكو يشكو للوالى وللمدعى العمومى عندهؤلاء الأوغاد الذين يأبون الاعتراف بالجريمة ، أو إفشاء أسماء المجرمين الأساسيين .. وضاق بالولينو ذرعا بصرخات الفلاحين .. فلما أعلن العريف الجلدة المائة ، وأغلق على الفلاحين باب المكتب . حاول الوالى أن يستعيد رباطة جأشه ، فهتف فى الجمع ، الذين سجدوا على الأرض أمامه ، وقال إن جرائمهم ملأت العالم كله رعبا ، وألا شيء غير الندم والاعتراف يطفئ من الجزاء المحتوم .. وكأننا هبط على الجماعة أمر علوى ، فارتفعت مئات الرموس فى لحظة واحدة ، كأننا أراد أصحابها أن ينهضوا ، وإذا بنمغمة طويلة تتردد ، كأنها صدى عاصفة تحتضر ، قالوا :
« ساحونا ... »

وتصلب بالولينو هلعًا ، فقد رأى فى حركة الجمع تهديدا بشورة جديدة .. وتملك المدعى والرائد والضباط جميعا ، بل والجنود أيضا نفس الهلع الفجائى .. أما الرقيب فقد لزم وحده الهدوء ، وهب فى القوم على عجل : « اركعوا ! .. اركعوا ! .. إلى الأرض ! .. اركعوا ! .. »

وتلقف لفيف آخر من الجنود أمر الرقيب على الفور ، وأخذوا يابون الظهور المتخينة عن يمين وشمال ، وهم يكررون فى خوف : « اركعوا .. اركعوا .. »

ولم يعد الوالى يفكر فى إلقاء النصائح والتحذيرات ، بل مضى إلى التحقيق مع تودر ستريمبو ، وهو من اتهمه بونجيو بمقتل نادينا .

قال المدعى العمومى : « قل لنا كيف قتلنا ؟ »

فقال الفلاح وهو بمنطق الوجه : « أنا لم أقتل أحدا يا سيدى . أنا برىء ! »

« من الذى قتلها إذن ؟ »

« أنا لا أعرف يا سيدى ! . ربما كان بيتريئسا ، بن سماراندا ، لأنه دخل إلى البيت قبلى ، ولكنى لم أقتلها . »

فقال المدعى العام بهدوء : « نادوا على بيتريئسا بن سماراندا . . . »

فأجابته أصوات عدة : « لقد مات ! .. مات ! .. »

وغلى الغضب فى نفس الرائد تناسيكو ، ولم يستطع أن يتمالك زمام نفسه . . . هذا الفلاح داهية خبيث . . . ولا مناص من تأديبه . . .

« لماذا لا تعترف ياوغدا ! .. لماذا قتلتها يا شيطان ! .. لماذا اعتديت عليها وانتهكت حرمتها ؟ . أكنت تمحرق إلى جسد سيدة جميلة أيها السافل الدنيء ! »

وصرخ تودر ستريمبو كما تصرخ المرأة ، وهو يدفع عن وجهه لسة السوط : « ياربى . . يارب . . لم أكن أنا يا حضرة الرائد ، ساعنى . . أنا برىء ! ! »

ومرت فى تلك اللحظة عربة نقل تجرها ثيران أربعة ، وكانت تحمل النعش البسيط الذى يضم رفات ناديتا . . وكان وراءه القس الذى جاء من ليسيزى وهو فى أحسن حلة عنده ، والصليب فى إحدى يديه ، والمبخرة فى اليد الأخرى . . وأخذ المنشد العجوز يترنم بالصلاة على روح الفقيدة ، وهو يتطلع فى فضول إلى القوم الراكمين الذين ملئوا الساحة ، وخاصة إلى الرجال الوقوف من المحققين .

وخيم الصمت والعربة تمر . . وحسر كل واحد عن رأسه ، وغغم بالولينو فى سخط وأسى : « بالمرأة المسكينة ! .. بالها من جريمة بشعة ! »

وصاح المدعى العموى فى تودر ستريمبو ، بعد أن سمع صوت الوالى وهو يصرخ غاضبا ، قائلا : ماذا فعلت بك هذه السيدة الكريمة الجميلة حتى أقدمت على قتلها أيها المخبول . . »

فقال الفلاح في عناد : « أنا لم أقتلها ! »

ووصلت الساعة جماعة الفلاحين من ليسيزى في رفقة الجنود .. فالتفت المدعى العموى جريسيكو من فوره إلى الواقدين الجدد ، والأمل يراوده في أن يمسك بتلابيب قاتل السيدة نادينا ، فطلب إليهم أن يدلوا إليه بالحقيقة ، لأن الجريمة وقعت في قريتهم ، وهم لاشك يعرفون من اقترفها .. وتكلمت أيلينا على الفور ، قالت : « تودر هو الذى قتل السيدة ، ياسيدى ، بعد أن نال مأربه منها ! .. لقد رأيته يدخل إلى البيت ، ومعهته بعد ذلك يتفاخر بذلك ، ويطلب إلى ابن سيرلان أن يدخل .. ماتى دولسانو شاهد على ما أقول .. فقد كان هناك مع بيتريسان سماراندا حين أخرجت السيدة من البيت ، جثة هامدة ، وذلك بعد أن رأيت بافل توفسوشعل النار فى السيارة .. »

وأصر تودر ستريمبو ، ولكن دون أن ينظر إلى أيلينا ! (أنا لم أقتلها ! ..
والفتاة تقص أكاذيب سخيفة !)

فقال ماتى دولسانو زاجرا ! (الفتاة غير كاذبة يا تودر .. لماذا لا تعترف بما اقترفت يداك ؟ .. لماذا تريد أن تلقى اللوم على الآخرين ؟ ..)

فغمغم تودر ! (لو كنت أنا فعلتها ، فلماذا لا تخبرهم أنت كيف شقت رأس الألمانى ياماتى ؟ ..)

فقال ماتى بوضوح ودون خوف ! (أنا لن أخفى شيئاً حين يأتى دورى ،
ويعقق الاشراف معى .)

وأصغى المدعى إليهما راضياً ، وهو يرى بنظرة من آن إلى آن إلى الوالى وإلى الرائد ، ليرى إن كانا قد لحظا كيف سار فى التحقيق ببراعة ، وكيف نجح فى دفع الملاحين إلى الكلام .

قال يحدث بالولينو . (لقد مر على كثير من الاشرار ، ولكنى لم أصادف أدناً ولا أحفل من هذا الوغد ..)

وجعل الرائد تناسيكو بقتل شاربته ، في محاولة ليضبط جماح نفسه ، فقد خشي أن ينفجر له شريان من شدة التوتر العصبي .. ونفت عن مشاعره فأعمل قبضتيه وسوطه في تودر ستريمبو . حتى سالت دماغه ، ثم طارحه على الأرض ، وداسه بأقدامه ، ولما كل أمر عريفا بمواصلة الضرب بالعصى حتى تنكسر عظام الفلاح .. وتحولت صرخات المربية إلى أنين أخذ يضعف شيئا فشيئا حتى استحال إلى خوار .

وهتف الرائد أخيرا . (أيها الرقيب .. خذه إلى ... في مؤخرة الساحة . أطلق عليه الرصاص .. الآن ، بسرعة ، بسرعة ..)

واستيقظ ستريمبو من غيبوته إثر هذا الأمر ، كأنما قد ألقي عليه ماء بارد ، فخرج نفسه تحت قدمي الضابط ، وصاح ، (سامعني يا حضرة الرائد .. أطعالي سيصبحون يتأى .. الرحمة ..)

وصرخ تناسيكو ، وابتعد عن مجلس الفلاح . (خذه أيها الرقيب .. هيا ، اقبض عليه ..)

وظهر تيتو هيرديليا في الفترة التي وقعت قبل إطلاق النار .. وشعر أن من الخير ألا يزجج جريحو بوجوده بعد أن رآه مشغولا بالاستعدادات التي تتخذ للجنائز .. فلما سمع الطلقات من مؤخرة الساحة ، سأل بالولينو عنها في صوت خفيض .. وأراد الوالي أن يظهر كفايته ، فأجاب بصفة عابرة (آه . لا شيء .. لأنهم يعدمون قاتل السيدة نادينا ..)

ولما اعترف ماتي دولمانو بجرمه أمر جريسيكو بإلقاء القبض عليه تمهيدا لمحاكمته .. واعررض الرائد على هذا . قال . (معذرة ياسيد . أرى قبل محاكمته أن يضرب ضربا مبرحا . فهذا أكثر جدوى .. أيها العريف ، عليه بخمس وعشرين جلدة ..)

وبينما ماتي دولمانو يتلقى الضربات دون أي تدمير . أوضح تناسيكو للسادة المدنيين أن الضرب وحده هو الذي يبعث الخوف في نفوس هؤلاء الماكيد ؛

فأما السجن فهو بالنسبة لإلهم عيد ؛ ومن اللازم على أية حال أن تتخذ هذه الإجراءات
العتيفة حيالهم جميعا ؛ إلى جانب التحقيق المدنى ، وذلك لأن الفلاحين قد واتهم
الجرأة فتمردوا على الجيش .. وأراد يتنوهير ديليا أن يرد عليه ، وكان الرد على
حرف لسانه ، ولكنه أمسك ، فقد رأى أن بالولينو وجريسيسكو ، وهما اللذان
كان يجب أن يعرضا ، قد تلقيا كلام الضابط دون تعليق .

وهتف المدعى : (بافل تونسو .. من هو ؟ .. تعال هنا .)

وقام بافل على قدميه : وأوصاله ترتعد ، مخافة أن يعدم هو أيضاً .. واندفع
فى الكلام آليا ، دون أن يطرحوا عليه أى سؤال ، (أنا لم أقتل أحدا .. بل فقط
حطمت السيارة ، وأشعلت فيها النار ، لأنها جعلت من طفلى كسيحاً مقعدا ، ولكنى
لم أرق أى دماء ، لأن عندى أطفالا ..)

واعتبر الرجل نفسه أسعد الناس حين ألقى به ، بعد أن أعماه الضرب ، فى زمرة
المقبوض عليهم بالمكتب ؛ فرسم الصليب على نفسه ، وحمد الله وأثنى عليه إذ أخذته
رحمة بأطفاله .

ورأى المدعى العام أن من اللازم أن يغير من إجراءات التحقيق ، حتى يتمكن
من فصل المجرمين عن الأبرياء على وجه السرعة ، فقرر أن يستمع إلى شيوخ القرية
أولا ، فهم يعرفون مشيرى الاضطراب والاشرار الحقيقيين .

قال يحدث لويو شيريتو : « والآن أيها الشيخ ، قل لنا بصراحة ، كيف وقع
كل شيء ، ومن هو المذنب ؟ »

« أنا لم أتدخل فيما لا يعنينى ياسيدى ، فأنا رجل عجوز ، ولا يليق بى أن .. »

واسترسل المدعى قائلاً : « طيب ، طيب .. أنا أصدقك ، ولكن كيف
بدأت الثورة ، ومن الذى بدأ بها ؟ إنها لم تهبط من السماء ، أليس كذلك ؟ »

قال الشيخ : « ولكنها هبطت كذلك ياسيدى ؛ لقد هبت ريح عاتية ، تملك
الناس ، ودفعت بهم كالأغنام ! »

فتدخل الرائد تناسيسكو : وقد غاظه شرود المعجوز : « أصح إلى أيها الشيخ ، نحن لا نريد حكايات خرافية ، وقتنا لا يتسع لذلك ! » .

وتسكلم لويو شيريتو ، ولكن الرائد لطمه مرتين على وجهه فرمقه الشيخ بنظرة مباشرة في عينيه ، وقال في نبرات واضحة : « جازاك الله يا حضرة الرائد على هذه الإهانة لرجل كبير ! »

فصاح تناسيسكو : (ماذا تقول ؟ ماذا ؟ .. أخرج عن حدود الأدب على ، أيها الشيطان المعجوز ؟ .. يا عريف عليه بخمسين جلدة ٠٠١)

وكان هيرديليا الشاب واقفا إلى جوار الوالي بالولينو ، وكانت أوصاله ترتجف ، أما الشيخ فقد تحمل الضربات في صمت قاتل .

وانهال الضرب على شيوخ القرية ، وكان لوكا تالابا أشدهم تعذيبا ، لأنه كان أوقعهم مسلكا في ظاهره ، وكذلك فيليب اليوزا ، وماران ستان ، والاخيران اتهما بالنهب فاعترفا بالتهمة ، رغم أن كليهما كان ميسور الحال .. وبعدئذ جاء دور إيجنات سيرسل ، فهو بالأمس ، بعد أن توقف لإطلاق النار ، شد فوطة يعضا إلى عصا ، ووضعها على باب داره ، لإعرابا منه عن ولائه للجيش ، وكى يراها الاشراف عند مرورهم .. ولقد لحظها الرائد في واقع الأمر وهو منفيظ ، فقال له إذ ذاك : « ما هذا أيها الوغد ؟ .. » ورد إيجنات في ذلة : « السلام ، يا حضرة الرائد ! »

« أتقول السلام يا الص ؟ . ونت أكنت تحارب من ياوغدا ! ألم تكن تحارب الجيش الروماني ؟ ، وقد تلقى إيجنات إذ ذاك ضربا مبرحا ، وجاء الرائد فتعرف عليه الآن ، وقال :

« أنت الشخص صاحب العلم الأبيض الذي ينادى بالسلام أليس كذلك يا الص ؟ »

وتتم إيجنات : « ليفخر لنا الله ياسيدي ، فمن لا نعرف كيف نسلك المسلك اللائق بحيث لا نأتى بأخطاء . . . ولو شاء الله أن يذبنا ، فكتب علينا الغياء فأننا . . »

ويبينما كان المدعى يعالج لإيجنات سيرسل ، والرائد لا يكف عن قاطعته في حق وصل أيون برافيل ، وقرر أنه ، طبقاً للتعليمات التي تلقاها ، قد جمع الموق وقد رم أربعة وأربعون قتيلاً وأنه تعرف على هويتهم .. أما الخامس والأربعون فكان القس نيكوديم الذي جاءت ابنته ، نيكولينا ، شملت جثته من الشارع .. ونزل هذا الخبر على الرائد تناسيسكو فأصابه بمس آخر من الجنون ، إذ كيف جرؤت ابنة هذا القس اللص على عصيان أوامره ؟ .. وتجمد العمدة ، وتوقع صفة ثانية ، بل وعلى مشهد من القرية كلها أيضا ..

وهنف الرائد ، وقد جحظت عيناه ، أين هذه السكبة التي جرؤت على هذه الفعلة ؟ ..

وتقدمت نيكولينا إلى الأمام ، وطفلها متعلق بيدها ... واندفع الرائد إليها بسوطه دون كلام .. وصرخت المرأة وأجفلت ، أما طفلها فقد أخذ يصرخ :
« أمي ... أمي ... »

وصاحت نيكولينا ، وقد اتقدت وجناتها من الضربات المتلاحقة : « النجدة يارب ! ! ! »

وصرخ الرائد ، وقد أنهكت قواه : « أيها العريف عليها بخمسين جلدة ! .. »

« يارب ! .. ياناس : .. يارب ! .. »
وأمسك الجنود نيكولينا ، وطرحا أربعة منهم على وجهها ؛ فأخذت تتلوى صارخة كأفعى وطتها الأقدام ... وألقى أتونزل بنفسه على أمه ، وهو يبكي رعباً : « أمي ... أمي ... »

وكان تيتوهرديليا حتى ذلك الحين يتم دون انقطاع هذا مروع هذا مروع !
وكان يقصد أن يسمعه الوالي بالوينو ، ولكنه عندما رأى الجندي وقد أخذ في الضرب ، نسي كل حساب ، فاقرب من تناسيسكو ، وقال متفرزا : « كفى أيها الرائد ... هذا لا يطاق ! ... هذا ... »

وارتد الرائد على عقبيه كأنما قد تلقى صفة على وجهه .

« ماذا قلت ؟ ... من أنت ؟ .. ما شأنك هنا ؟ .. كيف تجرؤ على التدخل في ؟ »

« أنا تيتو هيرديليا و ... »

وقاطعه تناسيسكو ، وقد تقلصت راحته ؛ أنا لا أريد أن أسمع شيئا : « اترك هذا المكان فوراً ، وإلا ألقيت القبض عليك ، وأرسلت بك إلى السجن .. حالا سريعا ... »

ووقف الوالى بالوينو طائر اللب ... لأنه لم يعترض على تدابير الرائد العنيفة مع الفلاحين ، لأن هذه التدابير قد خلصته من تبعه تحمل العبء على عاتقه ، ومن ثم كان في مقدوره أن ينفض يديه من كل أمر قد يطرأ في المستقبل .. ولكن هذا الحادث مع محفى من بوخارست ، والذي هو صديق من أصدقاء جريجور أوجا فربما تترتب عليه نتائج هي أبعد من أن تكون نتائج سارة .. واستيقظ من غيبوبته ، فتدخل متوددا باللغة الفرنسية ، بقصد أن يلطف من غضب تناسيسكو ، فرد عليه هذا وقد ازداد غضبا : « أنا لا يمكن أن أسمع لأحد ، أيا كان .. أنا لا أسمع بهذا أبدا ... »

أما تيتو ، وقد اربد وجهه غضبا وانفعالا ، فقد أدرك أن هذا التدخل من جانبه ، مهما كان طبيعيا وإنسانيا ، فهو تدخل غير حسيص .. ولكنه لم يندم عليه .. وأدار ظهره إلى الرجل ، تجنباً لأية مناعب ، أو منعا للتعرض لخطر القبض عليه .. وأراد الوالى أن يصلح بينهما ، فأمسك يده ، ليحول دونه والمسير .

« يا سيد هيرديليا أرجوك .. اعمل في مروفا .. إن الرائد سوف ... »

وأجاب تيتو ، وهو يحاول أن يحتفظ برباطة جأشه : « أنا أفضل أن أنسحب يا حضرة الوالى عن أن أشهد هذه الوحشية .. »

فهمهم بالوينو ، وهو يهز رأسه ، ولكنه تركه ينصرف مع ذلك ، « أنا آسف أن ... »

وخفت حدة غضب تاسيسكو بعد أن رأى تيتو قد رحل .. فلما عرف أنه محضى ، زال عنه الغضب ، ولكنه لم يبد ذلك ، إذ لم يشأ أن يبدو في نظر القوم مهزوما .. فهو ، لعدة سنوات خلت حين كان يعمل في تورنو سيفران ، صفع أحد الصحفيين المحليين في أثناء جلسة شراب .. وكان لهذا الحدث ضجة كبرى ، إذ هاجمته .. محصف بوخارست كلها ، وتطورت الأمور إلى حد أن استدعى أمام مجلس عسكري .. وهو ، لولا ذكر هذه الحادثة في سجله لكان الآن في رتبة المقدم منذ زمان طويل ..

قال الآن ، وهو يرفع عقيرته تظاهرا بالغضب : « أنا لا يمكن أن أسمع لاحد بأن يبقنى عن القيام بواجبى ، إن على مسئولية هنا ونحن لازلهم ولا نلعب ، أليس كذلك يا سيادة الوالى ، إن من السهل إصدار الأوامر من بوخارست ، أما هنا فهؤلاء الأوغاد قد خربوا وسلبوا وقتلوا .. »

والثفت إلى الفلاحين ، وإذا بصوته يشتد مرة أخرى ، وإذا بالغضب يعود إليه ، كأنما كان هو نفسه موضع الإهانة والنهب ، رغم أنه لم يكن يملك شيئا ..

« هذه القرى ينبغي أن تسمح من فوق ظهر الأرض بالمدافع .. حتى القس كان لها .. والفضائع الرهيبة التي اقترفوها لا مثيل لها .. الناس في القرى الأخرى يشعرون على الأقل بشيء من الحزى ؛ أما هنا فهم يقتدمون على قتل النساء والشيوخ ... »

وبينا تاسيسكو يتكلم ، نهض فلاح طويل الشعر أشعث ، متألق الوجه ، فتقدم إليهم ، وتحدث في نبرات متعالية : سيدى ، سيدى ، أراك قد أخذت في قتل أبناء الله ، وأبيت أن تستمع إلى أمر الهاتف الذى يدق في أرجاء السماوات ...

وهتف نفر من الجنود في أشخاص آخرين : اركموا .. اركموا ..

وتساءل الرائد ، وقد أدعشه هذا المسلك الصلف بعد أن حاول هو جامعا أن يلقى الرعب في قلوبهم منذ الصباح : أى أمر .. عن أى شيء يتكلم ؟ ..

وأوضح الرقيب بونجيو : « إنه مخبول يا سيدى ! »

وهتف تناسيسكو : « أقول محبول ؟ اترك لي ، فأنا أعرف هذا النوع من الخجل .. والواقع أن الوغد كان على رأس الثائرين بالأسس وكان يدعورجالي إلى التردد .. لقد سمعته بأذني .. أيها العريف ، اجلده بقدر ما يستحق . »

وبينا الجنود يضربونه ، أخذ أنفطون يصرخ فرحا ، كأنما لم يكن يحس بوقع الضربات عليه : « استمروا أيها الإخوة .. لأن يوم الحساب قريب ، وسيأتي حتما ، بصوت الرب .. اضربوا ، اضربوا .. لهذا أنا أقف و .. »

واغتاط الرائد تناسيسكو لأن الضربات لم يكن لها أدنى تأثير عليه ، فألقى أمره قائلا . « اترك إلى الشيطان يتولى أمره يا عريف .. ياله من محبول .. »

ثم التفت إلى المدعى العام وأضاف . لنفض في الإجراءات .. من فضلك .

- ٣ -

كان جريجور أبوجا ممزق القلب ندما ، وأخذت تدق في ذهنه فكرة واحدة بعينها دق المطارق : « ربما لو كنت مكنت أنا هنا لما وقع ما وقع . »

ولكن في نفس الوقت أدرك ألا جدوى من أي ندم أو ملام ، بل أولى به أن يلتفت إلى واجباته .. كان جثمان نادينا يسعى إلى الاستقرار منذ خمسة أيام الآن ، وجثمان أبيه منذ ثلاثة .. وشعر أن الفقيد قد ظل في إهمال أمدا طويلا وأن روحيهما ، في قلقهما وعجزهما عن التماس السكينة ، تعذبان الأحياء من حولهما وتعذبانهم هو خاصة ، لأنه قد عانى فوق ما يطيق ، وندم غاية الندم .

وما كان قد فكر في الجناز بالأسس ، حين أرسل البرقية إلى جوجو يعلن فيها بوفاة نادينا ، لأن هذه الأمور المادية لم تخطر له على بال .. ولكنه في المساء بعد أن شهد الجثمانين ، قال في نفسه : إن من واجب جوجو وبوجنيا على الأقل أن يحضرا جناز نادينا ، وأنه ينبغي أن يكون في انتظارهما .. أما اليوم ، بعد أن رأى النعش يصل في عربة النقل ، يتبعه القس الوافد من لسييزي ، فقد أدرك فجأة أن جوجو لن يحضر إلى القرية من أجل جناز أخته ، وأن هذا الوقت في الواقع ليس بالوقت الخلق بجناز يدل على الإبهة ، حين كانت القرى تمطر مستيقظة بما أصابها

من حماة وغضب ؛ والإطلال لا تزال تفت ذغانا من الحرائق التي اشتعلت فيها وكذلك كانت قلوب الناس .. وأستقر رأيه في تلك اللحظة على أن ينظم جنازا بسيطا خليقا بظروف الحال ، . أما فيما بعد ؛ حين يعود الهدوء حقا ، ففي مقدورهم أن يقيموا جنازا مناسبة .. وزال عنه منذ ذلك الحين الشعور بالحنية ، وهو الشعور الذي أخذ بجماع نفسه ، وملأها عجزا وألما ؛ بحيث شل منه القوى، وجعله يسبح في دنيا غير هذه الدنيا .

« اسمع باليوتى . لا بد أن نقيم الجناز عصر اليوم ، فالها يهدوء كأنما كان يعالج أسراً من الأمور اليومية العادية ، ثم أدلى للشرف بالتعليقات مفصلة دقيقة . لقد دفنت عدة أجيال من أسرة أيوجا على مقربة من كنيسة آمارا ، والمقبرة الأخيرة أنشأها ميرون أيوجا ، وهي المقبرة التي ضمت رفات زوجه الآن ، وكانت المقبرة من الحجر ، وكانت هائلة الحجم ولها قبو كبير ، ومن المقدر أن تتلقى جثمانه هو أيضا حين يحين الحين .. وعزم على أن يفسح مكانا في المقبرة لنعش نادينا ، على الأقل مؤقتا .. وعزم كذلك على أن يدعو قسا من ليسبىزى ، وهو القس الذي كان يسير وراء العربة المحملة بجثمان نادينا ، لأن العجوز نيكوديم قد طواه الردى .

وأقيمت الصلاة في الساحة .. وطلعت شمس الربيع زاهية ، ونمت براعم الأشجار في مرأى الناظرين .. ثم وضع كل نعش في عربة تجرها ثيران ستة .. وبدأ بيت الدائرة ، وقد قام إلى ظهرهم ، بنوافذه المكسورة ، كأنه رجل عجوز أرسل الدمع مدرارا حتى فقد بصره .. أما إلى الأمام ، فقد انتصبت جدران الفيلا السوداء وأعدتها في مواجهة صف أشجار الحور على الطريق ، فبدت وكأنها أقيمت خصيصا لتسكون إطارا يحيط بالجنازة .. وصلى القس حلقى اللحية ، وهو مثنىح يبرته الجديدة ، وذقنه ترتجف ، ومضى في الإنشاد رافعا عينيه إلى السماء الزرقاء التي ترقرت فيها سحب صغيرة بيضاء ، كأنها أسراب الملائكة تنفخ على الاستماع إلى الصلاة على روح الموتي .. وكان صوت القس ضعيفا واهنا ، ولكنه كان يبعث في النفس الطمأنينة ، ويتصاعد كالبخور في الهواء ، متغلغلا في سكون الصباح التي اكتنفت البيت ، بل والمنطقة كلها .. أما المذند فجعل يردد نغمت آليمة من أنفه ، فاختلطت بصوت الثيران وهي تجتر طعامها هادئة وغير عابئة بشيء ، وتهز أذنانها الطويلة بانتظام لتطرد عنها ذبابا ومميا .

وكان جريجور أبوجا واقفا إلى جانب العربة التي حملت جثمان أبيه ، وفي رفقته تيتو هيرديليا كالتابع الأمين . . وتجمع قبايلهم ، على طول سور البيت القديم ، وهو السور الذي لم يتبق منه إلا أعمدة قليلة ، الحدم جميعاً ، وعلى رأسهم - ازباسيكو ؛ أما عمال المزرعة فوقفوا إلى الخلف . . وأخذ زوج المشرف والعاينة بروفيرا ، تنشجان بين الحين والحين ، ولكن دون جلبة ، كأنهما استحييتا من هدوء جريجور .

واستوعب أبوجا الشاب ، وعيناه تقطران دما ، التمشين بنظرة واحدة . . كان العشان من حجم واحد ، ومصنوعين من نفس الخشب ، كأنما كان هذا الأمر مقدراً منذ زمان طويل . . وقاض فواده سكينه واستسلاماً ؛ وأخذت أفكار كثيرة تصطدم في رأسه ، وتطارد بعضها بعضاً دون انقطاع ، ولكن دون أن تتخذ لها شكلاً متماسكاً ؛ بل انطلقت هنا وهناك ، كأنما دفعتها ريح شاردة ضالة . . وأحس بالحزن يملأ قلبه ، كأنما نكأه جرح جديد ، لم يشعر له بالألم لحداثة إصابته . .

ولم يلحظ أن الصلاة قد انتهت ، وأنهم شرعوا في المسير نحو المقبرة ؛ وإذا به يهمس في أذن تيتو هيرديليا : « كان من الواجب أن نخبر بالولينو أيضاً . . ولكن قضى الأمر الآن ! »

وسار وراء العربة الثانية التي رقد فيها نمش أبيه . . وعلى مدى خطوات وراءه ، كان يترامى إلى سمعه وقع خطي الآخرين ، ونحيب النساء الذي تعالى الآن . . ورأى أمام العربة الأولى القس بلباسه الثلاثة ، وسمع صوته ، كأنما من مسافة عظيمة .

وأدهشه أن يرى الناس وقد تجمعوا في ديوان القرية . . وأوضح تيتو ليفي لإيجاز ما حدث . . وتأكد من الصرخات التي انبعثت من الداخل أن التحقيق يجري على قدم وساق . . وعندما اقترب موكب الجناز ترك الوالى بالولينو الفناء الذي اكتظ بالناس ؛ وبعه جريسيكو المدعى العموى ، والرائد تناسيكو ، ومفتش الشرطة كوربولينو . . أما النقيب لاشي جرادينارو الذي كان ينبغي أن

يلحق بهم ، بوصفه واحدا من الذين عرفوا ميرون أيوجا واستمعوا بضيافته .
عدة مرات ، فقد اضطر أن يواصل التحقيق مع الثائرين في غيبة المحققين .

وغنم بالولينو بصوت حزين وهو يشد على يده طويلا : « أعذرنى يا عزيزى
جريجورىتسا ؛ بل واعذرنا جميعا ، فنحن لم نعلم بهذا ، وإلا لكنا تركنا ما بأيدينا
وجئنا نقدم وواساتنا فى والدك الجليل ! »

وجاء الآخرون ، وقد ارتسمت على أساريرهم علامات الحزن ، فصالحوه .
بدورهم ، وهم يحاولون أن يدلوا بنظراتهم على أنهم لا يستطيعون أن يجدوا
ألفاظا ترقى إلى مستوى حزنهم .

وكان جريجورى أيوجا هو الذى شعر بأن من واجبه أن يقدم الاعتذار عن
تقصيره فى إخطار بالولينو ؛ ولكنه عندما فتح فاه للكلام ، رأى الوالى يخرج
مندبلا ويضغطه إلى عينيه ، كأنما يمنع نفسه عن البكاء ؛ وبدأت الحركة مصطنعة
لقناية ، الأمر الذى جعل جريجورى يغير رأيه ، ويواصل سيره ، مسرع الخطى
ليلحق بالعربتين اللتين لم توقفا عن المسير

وسرعان ما دخل الموكب ساحة الكنيسة . وواصل القس الإنشاد عدة
دقائق ، ثم أدلى القوم النعشين ، كلا بدوره ، فى المقبرة المفتوحة التى وقف إلى
جوارها خدم ثلاثة أرسلهم المشرف بومبو لنزع اللوحة الرخامية التى تغطى قمتها
ثم لإعادتها سيرتها الأولى بعد ذلك . . وكان النعشان قليلين ، فاضطر بعض
الخدم الآخرين أن يتقدموا لمساعدتهم . . وأخذ القس يكرر عدة مرات : « اللهم
احفظ روحهما أبدا الأبدىين ! ! » ، والمنشد يردد ما يقول . . وإذا به يتوقف بئس
وينحن فى ذلة صوب جريجورى الذى وقف زافع البصر دون حراك . . وأتى
المشرف بإشارة ، فأخذ الرجال الثلاثة يجرفون فى الأرض . . ومرة أخرى
أعرب بالولينو وغيره عن خالص تعازيهم لجريجورى ، واستمع هو إليها هازئا ،
واكتفى بالإيماء ردا عليها . . ومع ذلك فقد سمع الراهب تناسيكو يهمس فى أذن
المنشد : « أرى بما أننا هنا ، والقس موجود ، أن يتولى دفن الفلاحين فى مقبرة
القرية . . أنا لا أعرف مكانها ، ولكن القس سيخبرك أين هى . . وسوف نجد

العمدة هناك .. هيا يازميلي العزيز لنفرغ من هذه الشكليات أيضا ! .. ولكن لابد من السرعة ، دون مبالغة في الشعائر .. ولا تنسيا الأفراد الذين أعدمناهم في ديوان القرية ! ..

وهم جريجور ، كأنما قد تذكر أمراً في غاية الأهمية ، مخاطب تيتو بسرعة قائلاً : « كان بودى أن أحضر جنازة الفلاحين ، ولكنى لا أجد في نفسى القدرة الآن .. هلا تكلمت بالذهاب نيابة عني ؟ »

فأجاب هيرديليا : « أنا في خدمتك ! »

وصحب القس تيتو وكوربولينو ، فضوا عبر ساحة الكنيسة ، واخترقوا الحدبقتين والستان .. كانت الجثث يابسة متجمعة ، رافدة كما جاءها الموت ، وكانت مصطفة صفين في المقبرة ، وقد حفر لها جميعاً قبر طويل واسع .

وحدث المفاتش كوربولينو القس : « هيا يارجل ، أسرع ، لا يوجد لدينا وقت ! »

وكان المفدش يقف على أحر من الجمر ، يتعلم نافذ الصبر في أثناء الصلاة ، القصيرة ، ويرقب الجثث وهي تلقى في القبر المشترك ، وما لبث أن مضى دون أن يلتفت إلى الوراء .

وبقى تيتو هيرديليا والقس ، يشهدان في صمت كتل الطين اللزج تنساقط على الأحداث التي اختلط حابلها بنابلها في الحفرة ، فرقدت الآن كوما من الأغصان العفنة ، ويرقبان الموتى وهم يستقرون في لحدهم الأخير ، ويمتزجون ويختلطون بالأرض التي طوتهم بين جنباتها بعيداً عن كل خطر .

وغنم تيتو ، وقلبه يعتصر : « لشد ما بذلوا من تضحيات من أجل الأرض والآن هاهي الأرض تبتلعهم جميعاً ! .. وا أسفاه ، إن جهودنا كلها مكتوب عليها . أن تنتهى هكذا ! »

وأخذ عشرة من الفلاحين اللاهثين يعملون بمعاولهم .. وكان العمدة برافيلا

يحثمهم على العمل ، وهو عاقف وجل ، كأنما ضاع صوابه تماما إثر اللطحات التي تلقاها على يدي الرائد .

وتساءل تيتو حين طواهم الردى جميعا : « كم عدد هؤلاء أيها العمدة ؟ »

« ستة وأربعون ياسيدي ، بما فهم تريغون وتودر ، اللذين أحضرناهما الآن من ديوان القرية » قالها العمدة في ثقة ، لأنه كان حاضرا حين شجر الخلاف بين تيتو والرائد .. أما الأب نيكوديم فهو مازال في بيته .. صحيح أن الرائد ضرب نيكواينا ، ولكن قلبه رق في النهاية ، ولم يطلب إلينا أن تأخذه من بيته . حرام أن نلقى به هنا مع هؤلاء المناكيد ، فهو لم يقترب لئلا على الإطلاق ، وإنما أقام الصلاة على جثمان الشريف ميرون . اللهم احفظنا وارعنا من هذا العبء الثقيل الذي وقع علينا .. »

ومرت برهة فعاود هيرديليا الكلام : « قل لي يا عمدة ، لماذا كانت هذه الثورة ؟ كيف أتى لكم أن تقتربوا هذه الجرائم كلها ، وأنتم بهذه الحقائق وهذا الدمار ؟ »

وأجاب برافيلابحرارة : « لقد فارت مشاعر الناس ياسيدي ، ومزقوا القانون ولكن يبدو لي أن الأمور لا تجري بحرى سليما الآن كذلك .. والناس هم الناس ، وليس من عجب أن يأتوا بأخطاء ، أما الأشراف فهم قوم عقلاء ... »

ولم يحاوب تيتو ، بل أشاح ببصره نحو اللعادين وهم يحفرون قبور الموتى .. وأمسك العمدة بفتة ، كأنما تمالك نفسه ، وخشى أن يكون قد أسرف في الكلام .

وكان جريحبور قد وجه دعوة إلى جريسيسكو والضابط لتناول الغداء في بيت الدائرة .. وألقى الوالى خطبة قصيرة مرتجلة في ذكرى الفقيد اللذين راحا ضحية الثورة التي أغرقت البلاد دمارا وحدا . ثم إبقاء على مشاعر مضيقهم لم يعد أحد يذكر الموتى ، بل قصروا الحديث على القضاة التي ارتكبها الفلاحون من قتل ونهب .. ولحظ بالولينو أن الصحفي الوافد من بوخارست وجريحبور قد لؤما الصمت ، فشمع بأن من واجبه أن يتقدم لمصالحه المتخاصمين ، مواجهة للخطر الذي يتمثل في هذا القطيع الضال ، وفي المجرمين المتخفين للشر الذين سوف

يكشفون من غير شك .. قال بالوينو في عظمة:

ولابد أن نقاسي المطامع الشخصية الطفيفة ، والإهانات الصغيرة غير المقصودة ..
فهذا كله مرده ظروف غير طبيعية .. أليس كذلك ياسيد ميرديليا ؟

وهز تيتو كتفيه كأنما يريد أن يعرب عن عدم احتفاله بهذه الأمور . وتطلع
جريجور إلى بالوينو في دهشة ، وقد عجز عن أن يفهم مراده .

وتساءل الرالى مذهولا : « ألم يتحرك بالامر ؟ . هذا في الحق رجل لبق مذهب
أيها السادة .. إن الإنسان ليدرك هذا على الفور »

وأجل ، من ثم ، الحادث لجريجور ؛ وتقدم بنخب يدعو لسيان الموضوع
برمته .. ومد الرائد تناسيسكو يده ، عبر المائدة ، بصافح تيتو ؛ وهب القوم
جميعا يصفقون في إعجاب . وما لبث كل واحد أن بذل قصارى جهده ليوضح
للزائر الشاب من أهالي ترانسلفانيا أن الفلاحين جميعا منكبد أشرار ، وأن القوة
الفاشمة وحدها هي التي تحول بينهم وبين اقراراف أحط الجرائم .

قال الرائد تناسيسكو في صوت يتقطر عذوبه وقد شابه سخط شديد : « يجب
ألا ننسى أننا تحت سقف بيت هو في حداد على قتيدين ، ثم هو لم ينج من النهب
والحريق . »

قال كوربولينو وهو يغتل شاربه كأنما كان في حضرة سيدات : « يكفي أن
تطلع حولينا لنرى وحشيتهم . »

أما جرييسكو ، المدعى العموى ، وكان صوتا بطبعه ، فقد استولى على
انتباه القوم جميعا عندما قص عليهم كيف تم سحق هذه الثورات في البلاد الأخرى
وأن هذا الضرب بالسياط الذي ألهب ظهور القوم ماهو إلا زجر أبوى غير ضار
إذا ما قورن بالأساليب التي أخذت بها هذه الثورات في أنحاء أخرى .

واغتاظ تيتو ميرديليا من هذا الحديث ؛ وشعر بأن هؤلاء السادة على خطأ ،
ولكنه لم يستطع أن يعرض اعتراضاته في جواب يقتنعهم به .

« أنا لا يضايقي غير الظلم ، هدف بها عدة مرات كأنما كان بهذا يريد أن يعرب عن مخالفته لهم في الرأي .

وإذا به ، بعد ذلك ، وقد جرى وطيس النقاش ، يصرح في ثقة أدهشته هو نفسه : « أنا أفهم أن تقوموا أى عقاب ، وأقره ، ولكن على شرط واحد هو أنه يكون عادلا وشرعيا .. ولا يجوز لكم ، أنتم الذين تمثلون الدولة ، والذين تمتلكون تحت إمرتكم سلطة الدولة ، لا يجوز أن تسمحوا لأنفسكم باعتراف نفس خطأ الفلاحين ، الذين مزقوا القانون ، وارتكبوا الجرائم .. فأنتم ، لو خرقتم القانون اقترفتهم جرائم كذلك ، وجرائمكم أشد بشاعة ، لأنكم ترتكبونها باسم الدولة ، وإساءة لسلطانها .. أما الفلاحون فهم عندما ماروا ، وتصرفوا تصرفات غير شرعية ، كانوا يخاطرون بمواجهة قوة الدولة والجيش والشرطة ، فبذه كلها قد تأتي وتنزل بهم العقاب في أى لحظة .. أما أنتم ، فبدلا من أن تحافظوا على القانون ، تعذبون الناس العزل وتبينونهم لأنكم وافقون بأن أحداً لن يأتي ويحاسبكم . »

وابتسم بالولنيو في لطف : « يا صديقى العزيز ، يا صديقى العزيز .. أنا رجل عدل أرى القانون .. ولكن من حق الدولة ، بل ومن واجبها أيضا الدفاع عن وجودها بكل الوسائل إذا ما تهدده الخطر . وكل شيء من شأنه أن يقوى الدولة ويعززها فهو عادل ومشروع . »

فأجاب تيتو ساخرا : « هذا ما قاله لى ضابط الشرطة البنغارية .. . الفرق الوحيد هو أنه كان يتكلم باللغة البنغارية ، أما أنتم فتكلمون لغة رومانية . »

« ولكن ليس في مقدورنا إطلاقا أن نسمح بالثورة .. »

« إن القانون هو الذى يتغلب على الثورة .. والسلوك غير القانوني هو وحده الذى يسبب الثورات ، ويعمل على تفشيها . » قالها تيتو في زهو امرئ استحدث اكتشافا عظيما ..

في صباح اليوم التالي سار موكب من نحو خمسين فلاحا ، واتجهوا صوب بيتسقي ،
يصاحبهم حرس من الجنود شاكي السلاح ، تحت إمرة وقيب غليظ الطبع . .
أما الذين ثبتت جرمية عليهم ، أو الذين اشتبه في ارتكابهم لجريمة ، أو كان لهم
دور قيادي في الثورة ، هؤلاء جميعا قيدوا بالأصفاد . ومشوا أزواجا أزواجا
في سلسلة طويلة واحدة . . . وكان هناك نفر من الجنود يحملون عصيا غليظة ،
ويستحثون بها كل من تلكأ في مشيته .

ولما أقبل الأصيل ودع بالولينو وجريسيسكو والزائد تناسيسكو مضيفهم
جريجور الذي تناولوا الفداء على مائدته . . ولقد انصرفوا ، فيما قال الوالي ،
ليدرسوا النتائج التي أسفرت عن حملة التهذيب في كل القرى التي أصابها عدوى الثورة .
وبخاصة لأنهم تلقوا تقارير سرية تفيد بأنه قد حدث في بعض القرى ، عندما عاد
ملاك الأرض تحت حماية الجيش ، فوجدوا ممتلكاتهم منهوبة ، شرعوا في التحقيق
مع المذنبين المشتبه في أمرهم ، ومحاكمتهم ، وتنفيذ أحكام الإعدام فيهم ، دون الرجوع
إلى أحد .

صاح بالولينو في غضب بين : « هذا محذور ! ! أنا لا يمكن أن أقبل مقابلة
الإثم بالإثم ، والشر بالشر ! . ماذا يحدث لو أخذ كل واحد في تطبيق العدالة كما
يهوى ؟ إنما ينبغي أن يطبق القانون على الجميع سواء بسواء ! » وهنا التقى
بنظرة تيتو الساخرة ، وقال : « الدفاع عن المصلحة العامة شيء ، أما الدفاع عن
المصالح الذاتية وانتهاك حرمة القانون والأخذ بالثأر فشيء آخر مختلف تماما ،

ورحل تيتو في اليوم التالي . . وكان بود جريجور أن يبقيه زمنا أطول لولا الظروف
التي كانت سائدة في البلد ، حيث عم الشقاء والعذاب والحراب . . . تلك إذن
أنانية أكثر منها دليلا على الصداقة .

قال يحدث تيتو وهما يفرقان : كان جيلانك أن تمسك لي جانبي في أثناء هذه
الأيام الحافلة بالمخاطر والمحن . . . وأنا لا أريد أن أستغل صداقتك . . أنا شاكر
لك . . ولن أنسى أبدا العطف الصادق الذي قابلت به جميع ما اعتراني من حالات

نفسية كثية . . . وأنا في الواقع لن أمكث هنا طويلا . . . لأن الوحدة التي تكتنف الجو كله ، والأشباح التي تقوم فيه ستصينني بأنهار عصبي . . . ولكن لا بد من أن أصدر الأمر بالعمل في الحقول ، وهو لم يبدأ بعد ، وأن أقوم بالإصلاحات الواجبة .

وترك يتو آمارا في نفس العربية الزرقاء التي ما زال لإخيم يجلس في مقعدها . وكان الطريق خاليا ، كأنما خاف الناس أن يتركوا بيوتهم أو مخابثهم . . . وكانت ساحة ديوان القرية ما فتئت تنص بالفلاحين الذين جشوا ووجوههم إلى الأرض تحت حراسة الجنود ، أما التحقيق فقد استمر بنفس الحواس ، ولم يتغير فيه سوى المحققين ، لخل النقيب جرادينارو مكان الرائد ، والقيب بونجيرو مكان المدعى العمومي .

وكانت القرى كلها ، على الطريق الممتد إلى كوستنسى ، تمر بنفس التحقيقات . . . ولما بلغ يتو المحطة التقى بكروما بيرينا الذي سأله عن تفاصيل الحال في آمارا ، وقال إنه عزم على أن يعود إلى بيته غدا ، بمفرده في الوقت الراهن ، إلى أن يتأكد من أن كل خطر قد زال .

وكان أول شيء فعله هيرديليا في بونغارست هو أنه ذهب إلى منزل جورجو أيونيسكو . . . والحق أنه شعر بضيق إذ اضطر أن يحمل إليهم مثل هذه الأنباء . إلا أنه هون الأمر على نفسه فقال إن برقية جريجور إليهم كانت برقية مقتضبة ، وأن بوسعه أن يزيدهم من التفصيلات ، وهو أمر فيه عزاء وسلوى . . . وتذكر الشاب أنه عندما جاء إلى هذا البيت أول مرة منذ ستة شهور كان خائفا يترقب . . . ولقد بدا له هذا البيت إذ ذاك سعيدا مرحا ، أما الآن فقد ظهر لأمر ما حزينا بالسا ، رغم أن أشعة الشمس الغارية أرسلت الدفء إلى جدرانها ، وتلاعبت على شبايك . . . أما في حديقته الصغيرة ، بممراتها الاليفة ، فقد ظهرت حشائش غضة رقيقة ، فرشت الأرض بساطا سندسيا شاحبا . . . ولم يجد الشاب غير وجهها بالبيت ، فطلبت إليه أن يخبرها بكل شيء قبل أن يعود جورجو . . . وتلفت السيدة أخباره بهلع شديد ، وبخاصة لما سوف نسيه من ألم لزوجها — وعلم أن بوجينيا هي التي منعت زوجها من الذهاب لحضور جناز نادينا في آمارا ، لأنها

كانت لا تزال تخشى أن يحدث مكروه هناك .. ثم سطر جرجر بعد ذلك وأخبر
إليها ، فقال تيتو أنه قد كبر عشر سنوات في غضون الأيام القلائل التي مرت منذ
أنراه لآخر مرة .. لقد نسي الرجل أفاقته ، وقد مره ، وانخرط في البكاء
تفعل النساء بمجرد أن وقع بصره على بصر تيتو .. إنه لم يدرك إلا الآن حقيقة
الحب الذي كان يكره لتادينا ، فقد كانت بالنسبة إليه أكثر من أخت ، بل هي
كأنما كانت غلاة كبد الوحيدة .. وأخذ يستمع إلى تيتو الذي اضطر إلى أن يعيد
الحساية من أولها ، وهو يتأوه باستمرار : « مسكين والدي ! ، ... » كيف له
أن يتحمل هذا الخبر ؟ .. وكان تيودور أيونيسكو الشيخ لا ينقطع له تساؤل
عما إذا كانت تادينا ، حبيته وقرّة عينه ، قد عادت من الريف ، لأنه هو أيضا
قد سمع أن الثورة قد امتدت إلى أرجس .

كذلك اضطر تيتو هيرديليا أن يحكي في المساء ، ساعة العشاء ، كل شيء صادقه
ورآه في الريف .. وهكذا ذهب إلى فراشه متأخرا ، فتمكن إذ ذاك فقط من
من إلقاء نظرة على صفح المساء .. وابتسم ابتسامة مريرة عندما طالع أن الاضطرابات
قد هدأت دون إراقة دماء في جميع الأنحاء تقريبا ، بفضل التدابير الحكيمة التي
اتخذتها الحكومة الجديدة .. وكانت هذه أكذوبة صارخة جعلت نفسه تبحش
بثورة مكبوتة .. ورأى فيما يرى النائم أنه عاد إلى آمارا ، في ساحة ديوان
القرية ، بين الجمع الذين استلقوا على وجوههم ، وإذا بالرائد ينزل ضربا على الرهوس
المنكفئة بسيف تلم قد علاه الصدا والدماء .. وإذا بالسيف يرتفع فوق طفل ،
كانت صرخاته تمزق الهواء ، فإذا به هو يهجم على الرائد ، ويترع سيفه من يده ،
ويطلق به بعيدا .. وزار الرائد :

« إلى ألقى القبض عليك ! .. إلى ألقى القبض عليك ! .. » ورأى الجنود
القاضية يقبضون عليه ، يأخذون في ضربه على وجهه بالسوط .

وفي اليوم التالي ، عندما ذهب إلى درابول ، باقته روزو كأنما هو قد نهض من
عالم الاموات ، وأخذه إلى دليكينو ليصف له وسائل التهديد التي لجأت إليها
الحكومة الجديدة .. ورأى سكرتير التحرير ، في لفهته على تدعيم الجريدة
حافلة بالإفارة ، أن ينشر انطباعات المحرر ، بما في ذلك الصدام الذي وقع بينه وبين
الرائد سفاك الدماء .

قال رئيس التحرير : « لا لا ياروزو ! .. لقد التزمنا التزاما أدبيا بأن
نساعد على إعادة الأمن واستقراره ، ومن واجبنا أن نحترم وعودنا ! .. نحن
لا نستطيع أن نلجأ إلى الرياء والإثم كما فعلوا ! »

فأجاب روزو . « طيب ... كنت أتوقع منك ذلك .. فلقد قدر على درابول
أن تعيش ببلدة خاملة أبد الدهر ! »

وبعد عدة أيام ، كان يتو في أثاثها يواظب على الحضور إلى المكتب كل صباح ، فيجد
روزو أشتد كتابة عما اعتاد أن يكون .. وطن بادي ذى بدء أن السكرتير يعاقب من
حزن شخصي ، قرحه وشأنه .. وجلس الشاب ، وأخذ في كتابة هذه الفقرات
الصغيرة الزنية التي لا لون لها ! .. وكان السكرتير يغمغم بين الحين والحين :
« شيء مروع ! .. عمل دنيء ! .. يالها من وحشية ! ! »

وكانت هذه الانفجارات المسرحية غير خليقة به ، فقد بدا صوته ضعيفا كصوت
مثل ردى .. وكأنما أدرك الرجل هذا فعاد إلى صمته ، ولكنه ما لبث أن عاود
الحديث بعد نحو ربع ساعة ، فقال ساخرا : « ما رأيك في ثورتنا الآن يا بنى
العزير ؟ لقد انتهت ، أليس كذلك ؟ .. لقد شطبناها من حسابنا ، أليس كذلك ؟ ..
لقد شطبناها تماما ولم نبق لها على أثر ! ! »

وجاء تيتو إليه ، بجارى عادته ، إظهارا لاهتمامه .. « أعتقد أنك لاحظت أن
العمود الممنون « قلاقل الفلاحين » قد اختفى تقريبا من المصحف ؟ .. إن أعمال
القمع إذن قد نجحت ، تماما .. والهدوء قد عم جميع أرجاء البلاد .. ولكن
أى ضرب من الهدوء هذا ؟ .. إن آلاف القبور الجديدة تشهد على أن الهدوء
التمام يسود رومانيا من جديد ! »

ومالبت وجهه أن يريد بعد وهلة ، فاستطرد قائلا : « إن ما شهدته في أرجس
يا بنى العزير ، ما هو إلا لعب أطفال إذا ما قورن بالأعمال الوحشية التي انطلقت
عن عقلاها في القرى الرومانية منذ أن تولوا مقاليد الحكم .. والحق أن الذين
أعدوا أو توفوا في أثناء أعمال القمع لسعداء الطالع ، لأنهم نجوا من العذاب الذي
وقع بالأحياء .. والامر كله ، باختصار ، عبارة عن حمام من الدماء ، هو شيء

لم نسمع بمثله في عصرنا هذا ، ولو في المستعمرات ، أوبين قبائل الهمج .. ولقد تم كل شيء في هدوء ، حتى لا تسمع به أوروبا ولا بقية العالم .. لقد قصفت المدافع ، وأزالتم قرى بأكلها من الوجود ، واستمر انطلاق النار دون انقطاع .. ولقد أنقوا بالاضحايا في قبور جماعية ، دون صلبان ، حتى لا يتخلف أى أثر .. ثم ليس في وسع أحد أن يعترض . ولا يجرؤ أحد على أن يفوه بكلمة ، لأن مصالح البلد في خطر ؛ ثم بعد ذلك يطالبون ملايين الفلاحين بأن يكدهوا ، وهم يتضورون من الجوع والبرد ، كي يهشوا الثراء لبضعة آلاف من العاطلين يددونهم ترفاً وتبذيراً .

قال هيرديليا : (وليت الإنسان كان حراً في أن يعبر عن هذا ! . كان يودى أن أعترض لو كنت أعرف كيف ..)

« هذا خير لك ، وإلا لقضو عليك ، ونفوك من البلاد كأي أجني غير مرغوب فيه . »

وابتسم تيتو ساخراً متطاليا : « أنا ! .. أجني ! .. في رومانيا ! .. »

« لا تنس يا بنى العزيز أنك نست مواطن رومانيا ، مهما شمرت بأنك روماني صميم أكثر منهم .. فأنت بمجرد أن تهدد النظام العام ، لن تعتبر أخا لهم ، بل تصبح عدواً ، ومن ثم ... ولكن لا تجزع .. في مدى أسبوع أو أسبوعين لن تتذكر غير ساحات المحاكم ثورة الأمم حين تصدر أحكامها على عشرات الآلاف من الفلاحين الذين جروهم قسراً من جميع الأرجاء ، وملثوا بهم جميع سجون البلد .. أما بعد هذا ، فكل إنسان قد أدى واجبه على ما يرام . وكل إنسان أصبح راضياً بقرير العين .. وسوف تعرض الدولة أولئك الذين نهبا ، وسوف تجزل لهم العطاء ، ليعيدوا بناء ضياعهم ، وينهضوا بها ؛ أما الفلاحون فيكون نصيبهم ، لو سلكوا مسلكاً حميداً ، مزيداً من الخطب المصيبة . والوعود والكلمات الجوفاء ، لأننا يجب ألا ننسى أنه لا بد من حل البرلمان على وجه السرعة ، ولا بد من إقامة انتخابات جديدة ! .. »

والواقع أنه ، بعد عشرة أيام . لم يعد أحد يذكر اضطرابات الفلاحين ، حتى روزو نفسه .. واشتد حماس الصحف ، وهي تناقش الانتخابات القادمة .

ولم يعد أحد يقرأ ، إلا لما وبخاصة في الصحف الحزبية ، عن ضرورة اكتشاف مديري الفتنة ومماقتهم .. وحل الربيع فأثار رغبة متدفقة في الحياة ، وتبدأت المطاعم الخارجية للافتتاح ، وأخذت المقاهي والحانات تحتل أرصفة الشوارع وتشغلها بمواطنيها .. وعادت النساء الجيلات يتخطرن في كاليا فيكتورى ، بين الميدان والقصر ، وهن ينضن شبابا مرة أخرى في ثيابهن الساحرة ، وأخذ الشباب ، فتية وفتيات ، يتمشون في الشوارع سعيًا وراء مغامرات الغرام ، فكان المرء يسمع كلمات الغزل المعتادة وهي تتبادل على الأرصفة .

وكان تيتو هيرديليا يقضى وقتا قليلا في غرفته ، رغم أنها كانت غرفة بسيطة .. ولكنه عصر ذات يوم ، وقد اتوى أن يكرسه لكتاب طيب ، وجد نفسه أمام السيدة الكسندريسكو ، وابنتها ميمى .. وبغت الشاب .. قالت السيدة إنها كانت تتمشى في الجيرة ، وإنها اشتاقت إليه جدا ، ومن ثم جاءت في زيارة عابرة ، ففى لم تنسه ، كان دائما في غاية الأدب ، وإن كانت ميمى على وجه الخصوص هي التي ألحت عليها قائلة : « هيا بنا يا أمى ولنرى إن كان يتذكرنى ! » ، وأشارت بعدئذ إلى جينيتا ، وكالت له الشاتام ، قالت إنه نذل ذئبه تصرف بصرف سلفة القوم ، فأرسل أباه الكهل يخطرها بانتهاء علاقتهما ، ولكنها لفتتهم جميعا درسًا لن يفسوه طوال حياتهم .. أما ميمى المسكينه فلم تكن تطيق حين هذا من البداية ، فهو شاب مشغول بحسنه ، ولم يتلق الفشاة المبهذه التي تلقىها ميمى عن أمها .. أما هي ، هي الساذجة الوفية : فقد تجاهلت رأى ابنتها ووثقت به .. على أن أشد ما يثير فيها الدم الآن هو أنها ، بسبب هذا الوغد وأخته المسلوله ، قد فرقت بين قلين حبيبين ، ذلك أن ميمى العزيزة قد جاءت إليها ، وهي الام الطيبة القلب ، وأخبرتها بمنتهى الصراحة من البداية ، وأخذب تكرر ذلك مرارًا ومرات بقدر ما في البحر من أسماك . قالت : « أنا أحبه يا أمى ، أنا أحبه .. » ، وأخيراً أذن الله وأصبحت ميمى حرة نفسها ، بينما هي قد تخلصت من جينيتا ، و ... وإذا بها تنهى كلامها لحاجة :

والآن هيا ، قبلًا بعضك .. هيا .. أنا لن أنظر إليك ! ! !

وطوقت ميمى عنق تيتو بذراعيها ، ووضعت شفيتها على شفتيه ، أما الشاب

فقد كان في حيرة من أمره ، وأرتبك من الموقف كله ، فغمغم بضغ كليات مهذبة زادته ارتباكاً على ارتبائه .. وأخيراً دعته السيدة الكسندريسكو إلى زيارتهما ، وإذ هما ينصرفان تلكأت ميمي قليلاً وقالت : « إياك أن تنسى زيارتنا يا صغيرى ! »

ودفعت هذه الحادثة تيتو على الذهاب لزيارة تاتنا ثانياً يوم مباشرة ، وكانت الفتاة تسكن مع والديها خلف المحطة .. وكان لم يرهما منذ عودته من الريف قبل أسبوعين . كذلك لم تأت هى لزيارته ، ولم يمرؤ هو على السؤال عليها .. ورجبت به الأسرة كلها أجمل ترحيب ، أما تاتنا فقد تألق وجهها سعادة وفرحة ودهشة .. وصالحه حين دون كلفه ، كأنما قد افترقا بالأسى القريب .. ودار الحديث فى الغالب حول زواج جينتسا .. وكان الراى . قد استقر على أن يعقد القران بعد عيد الفصح بأسابيع قليلة ، ووجه الشاب الدعوة إلى تيتو ليكون أحد فرسان الشرف (١٢) فى حفل الزواج .. ووافق تيتو على شرط أن تكون فى رفته — لإشيئة — عروس حسنة ، أو تاتنا بمنحى أصح .. وترقرقت الدموع فى عيني السيدة ، واغتصب الوالد نفسه ابتساماً ..

وكان ذلك قبل وصول جريجور أبوجا إلى بوخارست بثلاثة أسابيع .. وعلى الرغم من التنب الذى كان يرتسم على ملامحه ، فقد برقت فى عينه ثقة جديدة .

قال بحجب عن تساؤل تيتو : « لقد عاد بالطبع جميع أولئك الذين سبق أن ولوا الأديار .. كذلك عاد بلاتامونو ، دون ابنه ، والأرجح أن الفتى يقيم فى أحد المستشفيات .. الموتى وحدهم هم الذين لا رجعة لهم ! » .

وأراد تيتو أن يسرى عنه ، فحاول أن يغير الموضوع ، ولكن جريجور استرسل فى هدوء : « لقد بدأنا واتيننا من زراعة الربيع .. ولقد عاد الناس إلى الحقول كأنما كانت الثورة كابوساً مزعجاً لا أكثر .. كذلك استأنف القوم العمل ببهجة أشد ، هى نوع من اليأس الصامت .. ولكن من أسف أن ربع عدد الفلاحين هم فى السجن فى بيتسى .. ولقد أصبحت معظم أقبية المباني العامة فى المدينة عبارة عن زنانات سجن .. نحن لا نتعلم شيئاً من أية مأساة .. هذا

فضلا عن أن النقص في الأيدي العاملة في الظروف الراهنة هو خسارة كبيرة للاقتصاد القوي .. على كل حال ، نحن نبذل قصارى جهدنا لنسحق آثار المعاصفة والطبيعة نفسها تساعدنا في هذا .. فهناك دفعة من الحياة الجديدة في كل مكان .. فالأشجار موروقة في الغابات والبساتين ، والربيع قد أسدل رداءه على الخرائب التي سيبتها الحرائق ، وعلى الأطلال والرفات .. .

قال تيتو : « والناس ١٤ » .

فأجاب جريجور : « الله وحده يعلم ! .. أنا كلنا أتكلم مع فلاح كان قد ضرب ، - وكل منهم ذلك الرجل - يساورني الشعور بأنهم غير نادمين على شيء ، بل على التقيض .. هناك سؤال واحد ما زال يتردد في ذهن كل منهم ، وهو سؤال لا يمكن أن يقتله أي ضغط أو إرهاب ، وهو : كيف يمكن أن نعيش بدون أرض ؟ » .

- ٥ -

عقد جريجور اجتماعات طويلة مع فيكتور بريديليو يستشيريه في شئون الزراعة .. فهو الآن ، بعد أن قدر له أن يصبح سيد ضيعة آمارا لا يشاركه فيها أحد ، أراد أن يضع موضع التنفيذ الخطط التي سبق أن ارتآها لإعادة تنظيمها .. وكان هو في حاجة ماسة إلى خبير زراعي حاذق وأمين ، يتخذ زميلا مخلصا ، ويستطيع أن يعتمد عليه عند وقوع أي طارئ .. ولقد عزم على أن يستقر في بوخارست ، شأنه شأن بريديليو ، فلا يذهب إلى الريف إلا في أثناء موسم العمل ، ولم يكن في نيته إطلاقا أن يعيد بناء الفيلا المخترقة ، أما لودعت الضرورة ، فقد أزمع على تجديد البيت القديم الذي نجا من غضب الثيران .

وأخذ بريديليو يبحث ويتقصى حتى عثر على الرجل المناسب ، وكان شابا وسيما ذكيا نشيطا لطيفا ، ذا خبرة بالزراعة عدة سنوات قضاه في ألمانيا حيث عمل ناظرا للمزرعة نموذجية كبيرة تملكها الدولة ، فأقى هناك بنتائج باهرة .

قال بريديليو وهو يقدم إليه الشاب : « ها هو ذا . اسمه ستيليان هالنجاو أتراه أعجبك ؟ » .

وابتسم جريجور وقال : « نعم أعجبني .. وأرجو أن تكون أصدقاؤه .. »

وأراد جريجور ، قبل أن يذهب بالنظر الجديد ليتولى مهمته في آمارا ، أن يفرغ من بعض المسائل التي قد تترتب عليها نتائج ذات شأن في المستقبل ، لكونها أثرا من آثار الماضي .. كان عليه أن يبحث مع جوجو أبونيسكو موضوع قبر نادينا ، فقد رأى أنه ليس من حقّه أن يقرر شيئا بشأن هذا الموضوع بنفسه فهو ليست إلا زوجة له اسما فقط ، بسبب هذا الإجراء الشكلي التافه الذي لم يوضع موضع التنفيذ .. وكان جوجو لا يزال حزينا أشد الحزن ، ومع ذلك فقد رأى أن القدر قد دفع بها إلى الريف في تلك الأيام الخطرة ، ولهذا فإن روحها التي ظلت في هذه الحياة الدنيا أشد ما تكون قلقا ، لن تتم بالاستقرار في أي مكان آخر غير ذلك الذي لقيت فيه حتفها .. وكان من رآه أن يذهبوا جميعا إلى الريف ، حين يقام حفل تأبينها بعد أن ينقضى على وفاتها ثلاثة شهور .. وانتوى جوجو في نفس الوقت أن يبيع ضيعته وربما ضيعة نادينا أيضا التي في باباروجا .. والحق أن الأحداث قد مرت هزة عنيفة . ولم يعد في طوقه أن يعيش أو يتحمل البيت الذي فتك فيه الوحوش بأخته .

قال جريجور : « بها إذن للفلاحين .. لقد دفعوا ثمنا من دماهم يخول لهم الحق في شرائها .. »

فصاح جوجو في رعب : « لا لا .. لا أريد أن تكون لي علاقة بالفلاحين . ولا أريد أن أتصل بهم بعد ، حتى ولو من أجل العمل . إنما أنا قد عزمت على أن أبيعها إلى أحد البنوك ، ويستطيع البنك ، لو شاء ، أن يوزعها بينهم .. الضيعة لا فائدة منها بالنسبة لي يا عزيزي جريجوريتسا ، فأنا لا تربطني بالأرض نفس الروابط التي تربطك بها ... إنما أنا رجل من أهل المدن ، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلني لن أنسى أبدا جرائمهم التي حطمت فؤادي ؛ بل ولن أغفرها لهم قط ! »

وقام جريجور بزيارة دوميسكو أكثر من مرة بمصرف رومانيا - وعرض الرجل ، لإجلال لذكرى صداقته لميرون أيوجا ، أن يعينه على اجتياز مكابه المالية ،

ولكن الشاب لم يشأ أن يتقبل أى تمويض من الدولة ؛ مثل هؤلاء الضحايا الآخرين الذين تدافعوا الآن يتسولون ويبالغون في تقدير خسائرهم ، استغلالا للكارثة التى حافت بالبلاد.. وكانت الفيلا وحدها، دون غيرها، هى التى كان مؤمنا عليها.. ولو أن شركة التأمين قامت بتنفيذ العقد ودفعت تمويضا عن الخسائر حسب قيمتها، فإن فى وسعه أن يسدد دينه على المصرف.. وأن يصلح كذلك المبالغ الخارجية والأجهزة الأخرى، ولكن دومييسكو كان يرى أن شركات التأمين لن تدفع تمويضا، لأنها سوف تعتبر الثورة حالة من حالات «القوة القاهرة» ومن ثم تبطل ما عليها من التزامات. ولعل من الخير أن تصدر الحكومة تشريعا يقضى على هذه المشكلات التى نجمت عن هذه الظروف الاستثنائية، على أنه أى دومييسكو سوف يبحث الأمر.

وذهب جريجور بعدئذ فتوسط لدى السلطات واستطاع أن يحصل على موافقتها بتعيين ابن الأب نيكوديم فى المكان الشاغر فى آمارا ؛ وهكذا حقق رغبة القس الشيخ، وهى الرغبة التى لازمته طوال حياته، وإن كانت لم تتحقق إلا بعد وفاته : والواقع أن القس الشاب قد أسرع عائدا إلى موطنه من بلده النائم، جورغ، حيث مقر أبرشيته ليحضر جناز أبيه ، ويساعد نيكولينا حتى يتم إطلاق سراح فيليب الذى كان رهين السجن مع غيره فى بيتسى

وتوقف جريجور فى بيتسى وهو فى طريقه مع الناظر الجديد لإسهاما منه فى إرضاء الناس ، فعمل على إطلاق سراح المعلم دراجوس على الأقل ..

وأخيرا استعادت آمارا مظهرها المعتاد.. عاد بوزوك صاحب الحان يقف على عتبة دكانه، وبعته إلى مؤخرة رأسه، وكرشه يارز إلى الأمام وأخذ يتبادل الكلام مع عابرى السيل — وأكثر العمدة أيون برافيلا من التردد على الحان ليتعاطى بضعة كتوس من الشراب يستعيد بها نشاطه لمواجهة المشكلات الجديدة التى نشأت عن الثورة ..

قال صاحب الحان : « ما قولك فى الناس بإسيادة العمدة ؟ هل سيطفون سراهم بما ترى أم سيتركونهم يتعفنون فى السجن ؟ »

قال العمدة : : لانهم لم يستمعوا الى يا كريستى .. لقد جن جنونهم ، ولم يعودوا
الى صوابهم الا بعد أن وقع المخذور ... السيد جريجوريتسا هو فقط الذى يشعر
بالشفقة علينا ، وهو الذى أقعد من فى السجن كما أطلق سراح السيد دراجوس .

ولكن ماذا عن التعويضات ؟ أتراهم يزمعون تنفيذها ؟ أم سوف نخرج نحن
صفر اليدين ؟ قالها كريستى مستطردا ، فهو قد سجل اسمه فى آمارا وفى بيتسى بوصفه -
أحد أصحاب الحقوق ، آملا بهذا أن ينال مبلغا طيبا يعوضه عن محنته ..

قال برافيلا : وآمالنا فى هذا أيضا معقودة على السيد جريجوريتسا ، ولن
يساعدنا أحد غيره من الآن فصاعدا ...

وكان الكاتب دوميتريسكو يعمل بـمكتب "عمدة" ، وهو غارق فى الأوراق ، لأن
العمدة كان مشغولا بمركز الشرطة وبيت الدائرة ، أما الرقيب بونجيو فكانت
أمنيته أن يواصل التحقيق حولا كاملا ، لو لم ينصحه جريجور بالتوقف
والتزام الهدوء .

وكثيرا ما كان بونجيو يحدث العمدة فيقول معاتبا : أنت لم تشأ أن
تصدقنى عندما كنت أقول إن آمارا قرية من الموص . . والآن هأنت ذا ترى
بنفسك .. ولكن اترك الأمر لى فأنا من الآن فصاعدا سأهتم بهم ..

كذلك استعاد البيت القديم شبابه ، فكنت تراه قائما ، فى حلة الجديدة من
الطلاء الأبيض ، وقد حفت به الأشجار المورقة . . وأزيلت أطلال الفيلا ،
وحلت محلها أحواض الزهر . فبدأ السكان فسيحا أيضا . . وكان الناظر هالونجا
يدير الضيعة كأنما كان يعمل فيها طيلة حياته . . كان يبت الثقة به فى نفوس
الفلاحين ، بكلامه الحلو وأساليبه الرقيقة ، الأمر الذى تتطلبه ظروف الحال ،
وبالمثل الذى يضره لهم بنشاطه وكده . . أما ازاباديسكو فهو وحده الذى بات
على القذى مثلما ، فقد اعتبر الناظر الجديد منتصبا للوظيفة التى كانت من حقه هو
وحده ، وفق ما يقضى به العرف والعدل ؛ وبخاصة لأنه عانى الكثير جراء ولائه
للشريف الشيخ . . ولهذا كان يرقب الناظر الجديد بحقد خفى .

وكان جريجور يدعو الفلاحين لزيارته ، أيام الآحاد ، فيستمع بنفسه إلى
مناعبهم وشكاوهم .. وكانت هي هي نفس الشكاوى ، ولكنهم يقولونها الآن
بتحفظ أشد ، وبحورها نقص الذرة ، وعبء الديون ، وحاجتهم إلى الأرض ..
ولم يتطرق أحد بالكلام في أى حدث يتصل بالثورة ، وكان جريجور عندما
يسألهم عنه يتلقى إجابة واحدة : « لقد تحمل الناس كثيرا يا سيد جريجوريتا .. »
وهكذا شامت الأقدار ! ، على أن لوبو شيريتو هو وحده الذى جرؤ فقال ذات
مرة : « إن ساعة الحساب لم تدن بعد يا سيد جريجوريتسا ، ولكنها لا بد آتية
يوما من الأيام ، لأن الدنيا لا يمكن أن تعيش بدون عدل ! »

وكان كوزما بيربونا يأتى دائما يلتمس النصح والمعونة ، وليشكو على وجه
الخصوص .. لقد تركزت أمانيه كلها على التعويض الذى سينلقاه من الدولة ،
وإلا حاق به خسارة أى خسارة ، ذلك أن الفلاحين لم يقولوا على شيء عنده ..
وعلم جريجور منه أن العقيد ستيفانسكو قد أطلق بنفسه النار ، في لحظة من الغضب ،
على ثلاثة من فلاحى فلادوتا الذين ثبت عليهم إشعال النار في بيت الدائرة .

وفي نهاية شهر مايو ، بعد أن أُلِف هالونجا الاحوال في آمارا ، عاد جريجور
إلى بوخارست مرة أخرى ، قائلا : إن الأمر يتطلب وجوده الآن في العاصمة ، كي
يكون إلى جوار دوميسكو ، وكى يسارع إلى إيجاد حل للشكلات المالية ..
ولكنه كان يعلم في صميم نفسه أن الشيء الذى جذبه إلى بوخارست كان أكثر
أهمية من ذلك ، بل هو من الأهمية بحيث يتوقف عليه مستقبله كله ..

فلما كان هناك ، ترك الأيام مع ذلك تمضى دون أن يشغل نفسه بالأمور الثانوية ،
كأنما كان يؤجل عامدا المسائل الكبرى .. وقلت زيارته آل بريديليو معتذرا
بمشغوليته في أمر خطير يتصل بآمارا .. وكان بالولينو قد تخلى عن منصب الوالى
منذ أن حل البرلمان ، ليرشح نفسه في الانتخابات ، ومن ثم عاد إلى مقره في العاصمة .
وكان جريجور يزوره كل يوم تقريبا ، كما سبق له أن عكف على زيارة آل بريديليو ..
على أن الدافع لهذه الزيارات لم يكن الفرض منه تجديد أواصر الود بينهما ، ذلك
أن المحامى ، بعد أن استقال من منصبه ، عاد إلى آرائه السياسية المتطرفة عن مشكلة
الفلاحين ، وأخذ يردد مرة أخرى العبارات الجوفاء التى ضاق لها صدر جريجور .

قال بالولينو ذات يوم بعظمة وأبهة : « يجب أن يكون أول قانون تتقدم به هو عفو عام بلام جراح المأساة الأخيرة ، وبعث الطمأنينة الصادقة في كل النفوس . لقد تخطرت قلوبنا دما عندما اضطررنا إلى إعادة الأمن في ربوع الريف ؛ أما الآن فنفى وسعنا ، باعزى جريجورينسا ، أن نعدل بين الناس أيضا .. ولابد أن نطلق سراح آلاف المساكين الذين يملئون السجون ، فيعودوا إلى بيوتهم ، تائبين نادمين ، وذلك كي يواصلوا عملهم من أجل تقدم رومانينا . »

وكان جريجور حريصا على أن يستخدم بالولينو كي يحصل على وظيفة من أجل تيتو ؛ فالتشاب قد علم من روزو حقيقة وضعه في الدرا بلول ، وكان في حال من اليأس خشية أن يلقي به إلى عرض الشارع .. واستطاع المحامى أخيرا ، عن طريق الأمين العام لوزارة أراضى التاج أن يحصل له على وظيفة في إحدى إدارات هذه الوزارة .

وتساءل بالولينو ، وهو في غاية التأثر ، عندما دعاه جريجور لزيارة بالولينو لينخبره بهذا النبأ بنفسه : « وما هو العمل الذى سيسند إلى ؟ »

فقال بالولينو مرحا : « عليك أن تحضر أول كل شهر لتقبض مرتبك .. »
وعليك أن تكتب الشعر إن استطعت إلى ذلك سبيلا الآن .. » أو أن تزوج إن شئت .. »

وتخرج وجه هيرديليا الشاب ، كأنما قد انكشف الغطاء عن السر الذى كتمه في أعماق نفسه .. ولكنه كان من سرعة البديهة بحيث أجاب : « أعتقد أن هذا الاقتراح الأخير أجدر بالسيد إيوجا وأليق .. »

فأجاب جريجور ، بعد فترة من الصمت ، في شيء من الجد : « هذا ليس بالاقتراح السيء على كل حال .. »

في حوالى منتصف يونيو ، استقر عزم جريجور ، بعد أن فشل في الوصول إلى شيء بهذا الصدد ، على أن يعود إلى آمارا ، وألا يرجع إلى بوغارست قبل الحريف ، وذهب ، قبل رحيله . يودع آل بريديلينو .. وكان فيكتور وحده ، إذ هبت تيكلا ، وأولجا تنسوقان .. وغامر الرجلان شتى الموضوعات ، وبخاصة في الحسائر التي نزلت بآل بريديلينو في ديلجا .. وهي خسائر لم تكن في حقيقة الأمر ذات بال .. وإذا بجريجور يغير الموضوع ، ويتسامل :

« أظن يا فيكتور أن أولجا تحب أن تكون زوجة لى ؟ .. أرجوك أن تجاوبنى بصراحة ، وألا تلقى بالا إلى مشاعرى ، لأننى .. »

وابتسم بريديلينو ابتسامة حلوة : « وما رأيها هى ؟ .. هل سألتها ؟ »

وعندئذ أفشى جريجور مكنون صدره ، فقال إنه مقيم في هواها ، وأنه صارع نفسه عتبا ، فقد تعب من هذه الحياة ، وأراد أن يبدأ من جديد ..

وتركة بريديلينو يفضض عن فؤاده ، وهو يستمع إليه جادا كما تقتضى هذه المحاسبات ،

وأخيرا قال : « أصغ إلى يا عزيزى جريجوريتسا .. أنت تقول إنك تريد أن تذهب إلى آمارا في الغد .. أنا أرى أن تؤجل سفرك أربع وعشرين ساعة .. أولجا ستسافر إلى بلدها بعد غد . وفى مقدورك أن تصحبها ، وترفها عنها في رحلتها .. بل ويمكنك أن تذهب ، وتزور والديها في كرايوفا .. است أدرى لماذا أحس أنك لن تقدم على هذا .. »

وكان من المقرر أن يتحرك القطار في الخامسة ؛ ولهذا ذهب جريجور إلى المحطة الساعة الرابعة .. وجاء نيترو أولا وقد حمل باقة صغيرة من الزهور البيضاء .. فقد أخبره جريجور بالأمس ، في لحظة نشوة ، وهما يتناولان الطعام معا ، أنه سيميد غاية السعادة لأنه وقع في هوى آلانسه أولجا بوسيلينيكو .. وأراد أن يكون أول

من يهزم أولجا بإهدائها باقة من الزهور على الأقل ؛ لأن دواعي اللياقة لا تخفى له بعد أن يزجى إليها التهنئة في كلمات . . كذلك أراد أن يحكى لجريجور عن فرحته الكبرى بالأمس . . فهو ، بعد أن اقتربا ، قابل دليكنو فأبلغه . . إلحاح من روزو بطبيعة الحال . بأنه سيقى محررا بجريدة الدرابول بنفس المرتب ، لأن الجريدة في حاجة إلى خدماته . . وصاح هيرديليا الشاب وعينه تبرقان ؛ « أنا من الآن فصاعدا لا يهمنى شيء . لقد شعرت أول أمس بأننى نفاية من التفانيات ؛ أما الآن فأنا اليوم صاحب مرتين ! . . أنا والحق يقال سعيد الحظ ! »

وكان قد ذهب إلى تاتنا ليذهبها بطالعه الحسن . وصحبته الفتاة إلى المحطة ، وكانت تفتظره وقتئذ في دكان حلواني في كاليا جريفيى ، إذ كانا يزعمان قضاء بقية النهار معا . . .

وبينا يتبوثر في حماس ، وجريجور ينتظر في لفحة ، جاء قطار فتوقف في المحطة . . ولحق جريجور ، وجمهور المسافرين يهرع نحو باب الخروج ، إلى روجوجينارو الملتزم الذى يعمل فى أولينا . . وأشاح أيوجا الشاب برأسه مضطربا ، ولكن الملتزم نحوه ، فأسرع إليه ، وهو يتألق بشرا ، ويتفصد عرفا ، والحقية في يده . . قال ، « أتدكرنى ياسيد ؟ » ثم وضع حقيبته على الأرض ، ومسح وجهه ورأسه الأصلع بمنديل كبير ، ثم استأنف الكلام بلهجة مختلفة ، وهو يرمى برأسه فى أسى ، « لقد سمعت وقرأت ما حل بك ! ، وأفاض الرجل فى الإهراب عن أسفه لوفاة ميرون أيوجا ونادينا ؛ ثم تسأل عن الدمار الذى أصابهم ، وعما إذا كانوا قد أخذوا نعويسا ، وعما إذا كان عدد القتلى من الفلاحين كبيرا ؛ وكان يلقى بهذه الأسئلة كلها وهو لا يفتأ يقاطع نفسه باستمرار وهو يبدى ملحوظة بعينها ، « ألم أقل لك دائما إن الفلاحين أوغاد ؟ . . ألا تدكر ؟ »

ثم شرح يقصصه منثشيا . جميع التفاصيل عن كيف تمكن من إنقاذ ممتلكاته . . فهو لو كان قد تأخر يوما واحدا فقط ، بعد أن التقى بهم فى القطار ، لما وجد شيئا غير الزراب والاقناص فى انتظاره . . ذلك أن الفلاحين فى دولجى ، وهم أكثر من غيرهم وحشية ، قد انطلقوا يشعلون النيران فى البيوت ، كما أخذوا

ينهبونها .. ولقد ذهبوا إلى بيته أيضا .. « لقد قالوا كذا وكذا ، وقالوا أعطنا الضيعة وإلا كان مصيرك الموت » وعندئذ ماذا تظن قد فعلت ؟ .. ماذا لا أكون أنا أبرع من هؤلاء الأوغاد ؟ .. ، ولهذا وافق الرجل على أن يسلمهم الضيعة راضيا ، بكل ما عليها . على أن توزع فيما بينهم حسبما يترأى لهم .. وتعدد لهم أن يدفع تمويضا عن الضرر الذي يلحق بالمالك إذا رفع دعوى ضده .. بل إن الفلاحين . حفالة منهم في الاطمئنان « حرروا عقدا ، وختموه . ووقموه في ديوان القرية .. وسمح له الفلاحون « لقاء هذا ، أن يبقى في بيت الدائرة حتى تنتهى الثورة .. ثم مالبث الجيش أن وصل بعد يومين . وأنزل بهم ما هم أهل له من عقاب ! .. وهنا ضحك الملتزم راضيا « وأضاف ، « — هكذا نفذت بجلدى ياسيدى — . ونجوت من سخط الأوغاد ! »

وغضب جريجور من سخريه الملتزم « فقال ببرود ، « نحن إذا لم نتعلم درسا من هذه المأساة .. ، ولكن روجوجينارو قاطعه مهتاجا : « ماذا تريدنا أن نتعلم ياسيدى ؟ .. أن نكبح جماحهم ، أم نطلقهم من عقابهم ليزيجونا ذبح التعاج ، كما أقدموا على ذلك فعلا ؟ .. لا ، لا ياسيدى ! .. ألق هذه الآراء التى تطالها في الكتب إلى النيران ! وبدأ في النظر إلى الفلاحين كما هم على حقيقتهم .. دعم يمولون ، ولا تتركهم يتعدون على أن يترقبوا من الدولة أن تعطيهم ما لا يستطيعون كسبه بقرع جبينهم ! .. لا تظن أن الفلاح يفتن أبدا ؟ .. أنت لو أعطيت الأرض بالمجان غدا ، فسوف يطالب بالماشية بالمجان أيضا ، ثم بعدئذ يطالب بالمال كذلك .. ولا نهاية لمطالبه أبدا .. »

« لقد نالوا طلاقات الرصاص بدلا من ذلك ! ، غنم بها جريجور في كتابة .. فتهف الملتزم وهو يشد قامته : « ربما كنت تريد منا أن نقدم لإليهم كمكا ساخنا ، وتهاين من أولى الأمر ! .. أنا آسف ياسيدى ! .. ولو كنت تتكلم هكذا ، أفت الذى قاسيت مالم يقاسه أحد آخر ، فإذا يمكن أن تتوقع من الغير الذين .. »

ولإذ ذاك ظهر آل بريديليو ، لشدة فرحة جريجور ، فترك روجوجينارو وهو يغمغم بجانب حقيقته .. أما أولجا فقد شكرت تيقو على الزهور . قال بريديليو وهو يصفح هيرديليا الشاب « الشاعر لا يخيب الظن فيه أبدا ! ،

« وبخاصة إن كان ذلك من أجل سيدة شابة فاتنة ! ، قالها الشاب ، والقبعة في يده ، وهو يرى بنظرة إعجاب إلى جريجور .

وكانت السيدة تيكلابريدلينو أشدهم احتياجا ، فقد عجز عليها ألا تأتي بأولادها لوداع أولجا ، رغم أنهم سوف يذهبون إلى الريف جميعا بعد يومين ، فيميلون على كرايوفا ، ويقيمون بها زمنا قصيرا . . أما جريجور فقد كان سعيدا مضطربا ، يتسم طوال الوقت دون أن ينظر إلى أولجا . .

قال بريدلينو : « هيا . . هيا . . اصطدا إلى العربة . . لم تبق إلا ثلاث دقائق ! ، وقال جريجور يخاطب تيتو : « أرجو أن تأتي وتزورنا في آمارامرة أخرى ! ، « لو أرسلتم إلى دعوة فسوف أقبلها دائما بسرور ! قالها تيتو . وهو يماثفه هو وأولجا بنظرة واحدة .

وأخذ القطار ينساب في هدوء بحيث لم يشعر أحد بحركته . . وكانت أولجا وجريجور يقسمان من نفس الشباك إلى أولئك الذين وقفوا على الرصيف ، وكانوا جميعا يرددون كلمة واحدة : « الوداع . . الوداع . . ،

واختلطت الأصوات ، وخفتت ، ثم ما لبثت أن ضاعت في ضجيج العالم الذي تزايد حولهما .

حاشية على النص

- ١ - البوجون : مقياس للأرض وهو يعادل فداناً وخمس الفدان
- ٢ - البراجا : مشروب من الشعير المخمل والعسل
- ٣ - ترانسلفانيا : كانت ولاية ترانسلفانيا ، في ذلك العهد ، تشكل جزءاً من إمبراطورية النمسا والمجر . . على أن سكانها كانوا في الأغلب الأعم من أهل رومانيا .
- ٤ - استرا : جمعية ترانسلفانية تهدف إلى ترقية الثقافة الرومانية .
- ٥ - الدولكيتا : مربى من الفاكهة تقدم في طبق صغير ، مع كوب من الماء
- ٦ - الدوبنا : أغنية شعبية تقليدية
- ٧ - الكاكيولا : طاقة من الفراء يلبسها الفلاحون في رومانيا
- ٨ - الماماليجا : عصيدة من دقيق الفرة ، وكانت حتى وقت قريب هي الطعام الأساسي الذي يتناوله الفلاح الروماني
- ٩ - ميخائيل الشجاع : هو حاكم مقاطعة والاشيا في الجنوب على نهاية القرن السادس عشر ... وكان أول من حاول توحيد رومانيا ، وذلك بضم ولاياتها الثلاث وهي والاشيا وترانسلفانيا ومولدافيا . ثم اعتلى عرش رومانيا كلها ، ولكن مغامرته لم تلبث أن فشلت بعد سنوات قلائل ، ويرجع ذلك إلى ضغط الأتراك .

١٠ — الفتاريون : هم نبلاء من اليونان حكموا الاشيا ومولدافيا في ظل
الإمبراطورية التركية .

١١ — الكسكرو : لقب يعطى لوالد الزوج أو الزوجة

١٢ — فرسان الشرف : تقضى تقاليد الأفراح الرومانية أن يصحب أشيئة
العروس رجل من رفاق العريس

Bibliotheca Alexandrina



0433350

الثنى ٣٦,٥ قرشاً

دار الهمى للطباعة ٥ : ٧١٢٢٧